المدخل إلى :

تاريخ الإسلام في إفريقية

مع دراسة للدور العماني

دكتور / محمد قرقش

المدخل إلى :

تاريخ الإسلام في إفريقية

مع دراسة للدور العُماني

تأليف :

دكتور / محمد قرقش

الموزع مكتبة إبن كثير

(جميـع الحقـوق محفـوظـة للمـؤلـف)

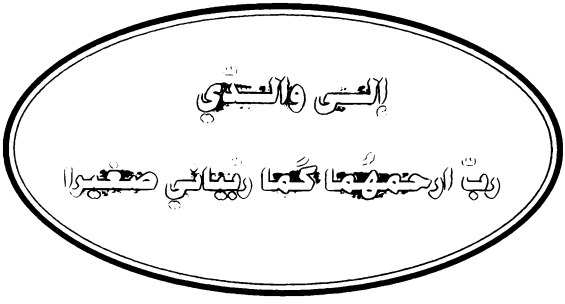
إلى والدي
رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

فهرست الموضوعات

التصدير ص : ٣

المقدمة ص : ٤

الفصل الأول :

مقدمة جغرافية (١٣ - ٥٩)

١ - الملامح الطبيعية .

٢ - السكان .

٣ - الإقتصاد .

الفصل الثاني :

ملامح التاريخ الإفريقي القديم (٦٠ - ١٤٦)

١ - ملامح عصور ما قبل التاريخ في إفريقية .

٢ - إفريقية في سياسات العالم القديم .

٣ - ممالك إفريقية قديمة .

٤ - تجارة إفريقية .

الفصل الثالث :

إفريقية في العصر الإسلامي (١٤٧ - ٢٤٣)

١ - العرب وإفريقية .

٢ - إفريقية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

٣ - إفـريقيـــة في السيـــاســـة الأمـــويـــة .
٤ - أوضـــاع إفـــريقيـــة في العصـــر العبـــاسي .
٥ - حركة التجار الإفريقية في العصر الإسلامي .

الفصل الرابع :

امتداد الإسلام إلى جنوب الصحراء الكبرى (٢٤٤-٣٨١)

١ - السودان الشرـــقي والقـــرن الإفريقـــي .
٢ - انسياب الإسلام إلى السودان الأوسط .
٣ - انتشار الإسلام في السودان الغـــربي .
٤ - أهم مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي .

الفصل الخامس :

الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقية ووسطها .

(الدور العماني المميز والمستمر) (٣٨٢ - ٤٨٢)

١ - المحيط الهندي يتحول إلى محيط إسلامي .
٢ - خصوصية الدور العماني مع شرق القـــارة .
٣ - مراحل الإنتشار العماني والإسلامي في شرق إفريقية .
٤ - توجه التيار الإسلامي إلى وسط إفريقيـــة .
٥ - تجارة شرق إفريقية : السلـــع والأخطـــار .

الخـــاتمـــــة ...

المـــــلاحـــق ...

التصـــديـــر

لم تلق قارة من قارات العالم ، قديمة وحديثة ، تجاهلاً وإهمالاً وإعراضاً مثلما عانت قارة إفريقية ، الأمر الذي يتبرم منه الباحثون والمنصفون في كل مكان .

وبرغم إمكانيات القارة الهائلة ، ومساهمتها الحضارية الواضحة ، ودورها الكبير في مسيرة التاريخ والحضارة البشرية ، فإنها وجدت نفسها في النهاية مرتبطة بالتخلف والديون ، والفقر والجوع . وكأن العالم أراد لها أن تكون قارة الهموم ، وحتى يكتمل الأمر طمست المكتبة التاريخية ، هي الأخرى ، إنجازات القارة عبر العصور ، ووضعت حضارة وادي النيل ، الفرعونية ، ضم نطاق بعيد ، وهو الشرق الأدنى ، حتى تبتعد القارة عن صفة الحضارة والمدينة ، رغم أن مياه النيل تجري على أرض إفريقية ، وأن مصر هي هبة النيل . وكان الهدف هو أن يكون الفضل الأول لإكتشاف القارة وبنائها يرجع لأوروبا وليس لغيرها .

ومن أجل إبراز ملامح الشخصية التاريخية الإفريقية ، وتوضيح أهمية القارة للبشرية في العصور القديمة ، ونهضتها في العصور الإسلامية ، والتي تمثل العصور الذهبية للقارة الإفريقية . قدمنا هذا العمل ، بعد أن أصبح واضحاً أن الإسلام هو الديانة الوحيدة التي طورت القارة وفجرت إمكانيات سكانها ، وعدلت من أداء أهلها . فظهرت بفضله ممالك ودول وسلطنات كانت من أهم القوى في عصورها .

ولما كانت لأهل عمان دورهم المميز مع مسيرة القارة ، والذي لا يمكن أن يتجاهله الباحث المنصف ، فإننا قدمنا دراسة لملامح هذا الدور أيضاً حيث إرتبطت إفريقية بعالم المحيط الهندي على سفن أهل عمان ، واستمر هذا الدور الواضح باستمرار عبر الهجرات العمانية المستمرة والأداء العماني الهام الذي ترتب عليه نشر الإسلام وحضاراته وثقافته في شرق ووسط القارة .ومازالت تلك الإنجازات محل تقدير من الباحثين والمهتمين .

المقدمة

تناست الدراسات التاريخية قديمها وحديثها تاريخ قارة إفريقية ، بصورة عامة وتاريخ الإسلام بها بصورة خاصة ، واكتفت أرفف المكتبة التاريخية الإفريقية على دراسات لأهمية الدور الأوروبي ورواده وبعثاته وقواته ، حتى ساد بين الباحثين أن تاريخ القارة يبدأ مع الرجل الأبيض وإنجازاته ، وأن الفترة التي تسبق ذلك ما هي إلا إمتداد للعصور الحجرية والعقائد الوثنية . الأمر الذي يحمل الباحثون جهداً كبيراً لإبراز الحقيقية ، بعيداً عن الدوافع الاستعمارية .

لقد أدت إفريقية دورها بأمانة وإخلاص في المسيرة الحضارية العالمية عبر العصور التاريخية ، ففي المراحل الحجرية شهدت القارة كيانات حضارية لا تقل في مستواها عن مثيلاتها في قارة آسيا أو أوروبا ، ومازالت الدراسات التي يقوم بها رجال الآثار على مشارف الصحراء الكبرى تشير بأهمية القارة في العصور الحجرية القديمة والحديثة [١] والدليل على أهميتها في تلك الفترة خروج جماعات بشرية منها صوب وادي النيل ، بعد التغيرات التي طرأت على المناخ في العصور الحجرية الحديثة .

وجاءت العصور التاريخية القديمة لتقدم للعالم حضارة هامة إفريقية المولد والنشأة ، عالمية الانتشار ، وهي الحضارة الفرعونية في مصر ، والتي قدمت إنجازات شاملة في كافة مجالات الحضارة وأثرت بشكل واضح في أوضاع غرب آسيا وصوب البحر المتوسط في المجالات العقائدية والسياسية والإقتصادية[٢]، ويبدو أن تلك الحضارة قد شملت في محيطها الحيوي مناطق وادي النيل وشمال إفريقية ومنطقة السودان الشرقي والسودان الأوسط والسودان الغربي[٣]، بل أن هناك من يدلل بوجود تأثيرات مباشرة لها على سواحل شرق إفريقية المطلة

---

(١) J.D. Oliver : Papers in African Pre HistoryCambridge, V. P. P. 3,1970.

(٢) فخري ، أحمد ، دكتور ، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص : ١٢١ القاهرة .

(٣) أطلق العرب على نطاق السافانا الإفريقية جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى اسم بلاد السودان ، نسبة إلى اللون ، ويمتد هذا الحزام من ساحل موريتانيا والسنغال غرباً على المحيط الأطلسي ، حتى السودان الحالي وأرتيريا على البحر الأحمر شرقاً ، وينقسم هذا الحزام إلى ثلاثة مناطق : السودان الغربي ويشمل غرب الحزام ، والأوسط حول بحيرة تشاد ، والسودان الشرقي وهو السودان الحالي .

على المحيط الهندي[1]، ومازال الدور الهام الذي قامت به الحضارة الفرعونية الإفريقية محل إهتمام كبير للمؤسسات الثقافية العالمية . وجاءت مرحلة جديدة في تاريخ القارة القديم على يد أهل قرطاج ، الذين يرجعون إلى أصول فينيقية ، حيث كان لهم دورهم الهام في حضارة البحر المتوسط بصورة عامة قبل ظهور روما كقوة عالمية . واستمر هذا الدور لأكثر من ألف عام تقريباً واستغلت قرطاجنة دورها الهام بين إفريقية من جهة ، وعالم البحر المتوسط لتنقل للعالم القديم إمكانيات القارة الإفريقية من السلع والمواد الخام ، عبر دروب صحراوية شاقة إلى مناطق السافانا الغنية جنوب الصحراء . وبفضل الإمكانيات الإفريقية استمر أداء الدور القرطاجني في العالم القديم لفترة زمنية طويلة ، وأحرزت انتصارات متتالية على مدينات أوروبا الوليدة . وازدهرت مدن وموانيء إفريقية في هذا العصر مثل : قابس ، لمط ، سوسة ، بنزرت ، عنابة ، بجاية ، الجزائر ، (المدينة) وغيرها .

وأرست قرطاجنة في شمال إفريقية حضارة أبدعت في المجال الإقتصادي ، حيث أصبحت المنطقة قبلة للتجار ، وفي المجال السياسي ، وفي المجال الثقافي والديني أيضاً واستمرت تلك الشخصية الحضارية في المنطقة حتى العصر الروماني . كما اندمجت مناطق البربر في عالم البحر المتوسط ، وتعرفت بفضلها إلى مدنيات الشرق وحضاراته[2] .

وساهمت إفريقية كذلك في عالم المحيط الهندي ، مثلما ساهمت في عالم البحر المتوسط ، حتى أن المراقبين لاحظوا إرتباطاً واضحاً منذ القديم بين مناطق غرب آسيا وجنوبها مع شرق إفريقية ، بل أن شبه الجزيرة العربية ، كانت جزءً من قارة جندوانا الإفريقية ، ثم انفصلت منذ ملايين السنيين وأصبح إتصال شرق القارة مع منطقة شبه الجزيرة العربية أمراً متواصلاً عبر العصور التاريخية ، وأسست شعوب عربية قديمة ممالك لها ومستعمرات على سواحل إفريقية الشرقية ، منها ممالك بلاد بونت على ساحل الصومال ، ومستعمرات أهل أوسان اليمنيين على سواحل موزمبيق الحالية ، وربما يكون الأحباش هجرة من اليمن إلى مناطق الهضبة الحبشية

---

(١) الناصري ، سيد أحمد علي ، دكتور ، المصريون والعرب وعلاقاتهم بإفريقية في العصور القديمة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص : ٣ ، ٤ .

(٢) جوليان ، شارل أندريه ، تاريخ إفريقية الشمالية ، من البدء إلى الفتح الإسلامي ، تعريب محمد مزالي ، والبشير بن سلامة ، الطبعة الخامسة ، الدار التونسية للنشر يونيو ١٩٨٥ ، ص : ٨٤ - ١١٩ .

عبر باب المندب والتي ترتب عليها فيما بعد ظهور أكسوم الحبشية[1]، والتي استمرت حتى ظهور الإسلام تؤدي دورها الهام إلى أرجاء العالم القديم[2].

وأصبحت إفريقية ، بحق المجال الحيوي للجماعات العربية من شبه الجزيرة العربية والتي تدفقت منذ الألف الأول ، قبل الميلاد ، على الأراضي الإفريقية ، عبر منافذ عديدة أهمها : شبه جزيرة سيناء من الشمال ، وباب المندب من الوسط ، وسواحل شرق القارة من الجنوب ، واستمر التوغل العربي مستمراً نحو داخل القارة . كما شهدت السواحل والأراضي العربية هي الأخرى هجرات إفريقية مضادة ، كان أهمها احتلال الأحباش لليمن وجنوب الجزيرة العربية الغربي ، حتى ظهور الإسلام . وبذلك ارتبطت القارتين الآسيوية والإفريقية معاً عبر بلاد العرب .

وجاء القرن السابع الميلادي لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العالم العامة ، ومنطقة غرب آسيا وشبه جزيرة العربية وإفريقية خاصة . ذلك أن رسالة الإسلام التي ظهرت بأنوارها من منطقة الحجاز ، كان لها وقعها السريع داخل القلب والجسد الإفريقي ، واعتمدت رسالة الإسلام على رصيد العلاقات العربية الإفريقية السابق لتضيف إليه أبعاداً سامية وإنسانية راقية للقارة الإفريقية ، ورغم الإحتلال والنفوذ الروماني في شمال إفريقية ، إلا أن القارة كانت مشدودة إلى شبه جزيرة العرب ، فتلقفت رسالة الإسلام من أيامها الأولى ، حتى أن الأحباش قدموا جميلاً سيظل خالداً في تاريخ الإسلام ، حينما وفروا الحماية للمهاجرين الأوائل ، في وقت الرفض والتعنت من قبل كفار قريش[3].

وبدأت صفحات التاريخ الإفريقي تحمل ملامحها الخاصة في العصر الإسلامي حتى اعترف الباحثون أن إفريقية هي قارة الإسلام ، وأن الإسلام هو الديانة الملائمة للأفارقة في فطرته وتسامحه ومبادئه ، بعد تجارب المؤسسات غير الإسلامية داخل القارة في العصر الحديث . ذلك أن ينتصف القرن الأول الهجري ، وقبل أن ينتهي

---

(١) يوجد في اليمن جبل يسمى "حبيش" انطلق منه مهاجرون عبر باب المندب إلى الهضبة المقابلة وسكنوا تلك المنطقة التي عرفت باسمهم .

انظر : علي ، جواد ، دكتور ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٣ ، ص : ٥٢ ومابعدها. بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م .

(٢) العارف ، ممتاز ، الأحباش بين مأرب وأكسوم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص : ٨٩ .

(٣) انظر : الفصل الثالث من الكتاب .

القرن السابع الميلادي ، فتحولت شمال إفريقية إلى دولة الإسلام ، وبدأ البربر في التعرف على الديانة الجديدة التي قبلوها منذ البداية بلا تردد ، وأصبحوا عوناً مع إخوانهم العرب في مواجهة بقايا الوجود الروماني والجرماني .

ومع خبرات العرب في اجتياز الصحراء فقد بدأت منذ البدايات الأولى ، أدلة تاريخية على تمكن العرب من التوغل في الصحراء الإفريقية والإمساك بشبكة الطرق والدروب الصحراوية عبر الصحراء ، وهي شبكة واسعة تمتد من شرق القارة إلى غربها ومن شمالها إلى نطاق السافانا . وبالفعل تمكن العرب من الوصول بسرعة إلى الحزام السوداني ، وتحسين شبكة الدروب الصحراوية في عصرهم . فعبر واحات سيوة والكفرة وفزان ومرزوق وغداس وتوات ، تمكن العرب مع جماعات البربر من تنظيم شبكة طرق صحراوية لربط شمال القارة بوسطها بطريقة فعاله وآمنة .

ولأول مرة برزت القارة الإفريقية تساهم بإمكانياتها في مسيرة الحضارة الإسلامية فوصلت مبادي الإسلام إلى أهلها فأقبلوا عليه ، ظنا منهم أن الإسلام هو الحضارة والرقي والأمن والسلام ، بعد ما لمسوه من أتباعه الذين وصلوا إليهم . وعرفت إفريقية دولاً وسلطنات إسلامية قوية مثل سلطنة مالي ، وسلطنة صنغي ، وسلطنة كانم وبرنو ، وإمارات الحوصة وغيرها من سلطنات ومشيخات السودان الشرقي . وازدهرت طرق الصحراء الإفريقية بنور الإسلام لربط شمال القارة بوسطها ، فتتابع تدفق قوافل التجار بين الجهتين وكذلك جماعات الطلاب الذين قصدوا جامعات الإسلام في الأزهر والزيتونة والقيروان ، وكذلك جماعات العلماء . كما بدأت تلك السلطنات الإسلامية تقيم علاقات وثيقة مع أقطار وأقاليم العالم الإسلامي في مصر والحجاز والعراق بالإضافة إلى المغرب والأندلس .

ووصلت إفريقية قمة مجدها مع عصر الإسلام ، فوصلت دولها الإسلامية إلى مرحلة هامة من التنظيم والتدبير الإداري والرقي الفكري والثقافي بشكل لم تشهده القارة من قبل أو من بعد . واستغل الإسلام طاقات أهلها ، وفجرها لصالح بلدانهم فنهض الأفارقة في بناء أوطانهم والنهوض بها ولم تشهد القارة استنزافاً لإمكانياتها بل ظل الأمر مرتبطاً بالتبادل التجاري المتوازي بينها وبين بلدان العالم الإسلامي الأخرى ، فتقدمت دولها ، حتى أصبح حاكم مملكة مالي الإسلامي من أعظم أربعة حكام في عصره مع حكام بغداد والقاهرة ، وظهرت في القارة جامعات في مالي ، قبل أن تعرفها قارة أوروبا بعدة قرون .

وإذا كان الإسلام قد نفذ مع جيوشة من الشمال ، وتجاره عبر الصحراء إلى الوسط فإن شرق القارة مازال يدين بالدور الكبير لأهل عمان عرب الخليج واليمن بالدور الهام لنشر الإسلام وحضارته في مناطقه .

لقد وصلت سفن أهل عمان إلى الشرق الإفريقي ، ونزلت بره وجزره ، لتجد جماعات إفريقية موغلة في البدائية والتخلف ، فاستقرت بجوارها وأخذت بيدها على دروب الحضارة حتى ظهرت على سواحل الزنج إمارت وممالك إسلامية ، بلغت هي الأخرى درجة هامة من الرقي والتقدم ، بعد أن توافدت عليها جماعات من البحرين وشيراز واليمن . واخترق المسلمون من هذا الجانب حاجز الغابات الإستوائية الكثيفة لتصل جماعات التجار إلى بحيرة فيكتوريا وتنجانيقا وإلى حوض نهر الكونغو ومملكة بوغندة .

وبذلك تكامل الدور العماني من الشرق مع الدور العربي والبربري من الشمال لتتحول القارة الإفريقية إلى مرحلة هامة داخل المجتمع العالمي ، فانفتحت على العالم بإمكانيات أهلها وطاقاتهم ، وخيرات أرضها وغاباتها . وتمكن الإسلام من إرساء حياة راقية لأول مرة داخل القارة .

وبدت العصور التاريخية الحديثة ، مع نهضة وقوة أوروبا ، وحملت تلك العصور منذ بدايتها شراً وظلماً للقارة ، فبدأت عمليات الإلتفاف حول الفريسة في رحلات البرتغال حتى تمكن بالثميوديا ز قبل أن ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي من الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، وتبعته حملات فاسكودي جاما ، والبوكيرك وغيرها وبدأت تدخل القارة فترة جديدة من التخبط والظلم والتخلف والجهل ، وذلك أن الأوروبيين جميعاً ، اعتبروا القارة "أراضي لأصحاب لها No Man s Land" وبدأت مرحلة جديدة من استنزاف لطاقات القارة بشرياً ومادياً وفكرياً ، حتى فقدت القارة من طول تلك الفترة وقساوتها هويتها الإفريقية وتمزقت وسط ثقافات متعددة ، بعيدة عن بيئتها وتراثها .

★ ★ ★

ومع تفحصنا للأوضاع الإفريقية الحالية نلاحظ أموراً هامة منها : ما يلي :

الأمر الأول : أن قارة إفريقية مازالت تمثل المجال الحيوي للعالم الإسلام عامة ، والعالم العربي خاصة . فقد قدمت تجربة العلاقات العربية الإفريقية والإسلامية نموذجاً حضارياً راقياً بعيداً عن الإستغلال والقهر والظلم ، والمنفعة المادية ، في مقابل الآثار المريرة للتجربة الأوروبية داخل القارة والتي يستنكرها المنصفون

من الغرب أيضاً .

الأمر الثاني : تواجه الإنجازات العربية والإسلامية داخل القارة الإفريقية في العصر الحديثة تزاحماً وتجاهلاً من قبل المصالح الغربية ، اعتقاداً من أصحاب المصالح المادية أن الإسلام ومبادئه يمثلان ثورة ضد أطماعهم ، وذلك فإن مقاومة الإسلام ، من وجهة نظرهم حماية لمصالحهم ومآربهم ، حتى أن هؤلاء حملوا معهم جماعات التنصير لوقف عمليات المد الإسلامي .

الأمر الثالث : تعد إفريقية امتداداً جغرافياً طبيعياً للعالم العربي والإسلامي ، ومازالت تتوالى دولها في الإنخراط في أسرة الجامعة العربية ، حرصاً منها على إحياء مجدها السابق المرتبط بالعروبة والإسلام . وتحتوي البلدان الإفريقية المسلمة على حوالي عشرة مليون /كم ، ذات إمكانيات هائلة رعوياً ومعدنياً وزراعياً . ويشكل المسلمون في قارة إفريقية حوالي ٥٧.٢٪ من سكانها ، وحوالي ٣٠٪ من سكان العالم الإسلامي عامة . مما يشير إلى تدني الكثافة السكانية في القارة الإفريقية وإمكانية إستغلال ذلك والإستفادة منه إسلامياً وعربياً .

الأمر الرابع : مازالت مسئولية العالم الإسلامي تجاه إفريقية كبيرة ، وذلك أن هناك جماعات وثنية تنتشر بين سكانها لتصل في بعض الأحيان إلى ٣٨٪ من جملة بعض دول غرب إفريقية ، كما أن مناطق عديدة تعاني من الجهل والفقر والجوع والمرض ، وخاصة المناطق الإسلامية ، لأسباب عديدة مفروضة على أهل تلك المناطق من خارجها .

الأمر الخامس : تتزايد الإهتمامات العالمية من قبل القوى الكبرى بالقارة في الأونة الأخيرة بسبب : مخزونها الإستراتيجي الهائل من المعادن الهامة مثل الماس ، الذي تحتكرة القارة ، والبترول ، واليورانيوم ، والكروم ، والنيكل ، والنحاس ، والذهب ، بالإضافة إلى إمكانياتها الزراعية من نخيل الزيت والفول والكاكاو والقطن والبن ، وسلعها الأخرى . وستظل القارة أكبر الاسواق العالمية للصراعات الدولية من قبل الشركات الرأسمالية الكبرى للفوز بحصص أكبر فيها .

الأمر السادس: أصبحت القارة الإفريقية تتخبط بإستمرار وسط أيدلوجيات حديثة متنافسة تتجاذب القارة ، فقد تخاطفتها أطماع البرتغال وبلجيكا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم حلت محلها أيدلوجيات السوفييت والأمريكان ، بسبب أهميتها . وأخيراً عادت عمليات الجذب الياباني والأوروبي بعد

تفكك الإتحاد السوفيتي . ويمكن إعادة إبراز النموذج الإسلامي كأفضل النماذج والتجارب .

من هنا فقد قمنا بإعداد هذا العمل لتحديد ملامح القارة عبر العصور التاريخية من أجل إبراز أهمية العصر الإسلامي بها ، ودور الإسلام في بناء الكيان والذاتية الإفريقية وتفجير طاقات أهلها ، ومحاولة إظهار دور العناصر العربية في هذا المجال خاصة أهل عمان .

وقمت بتقسيم الكتاب إلى سبعة فصول : جاء الفصل الأول منها يلقي صورة من جغرافية فاستعرضت فيه ملامح القارة الطبيعية ، والسلالات البشرية ، والملامح العامة الإقتصادية للقارة . أما الفصل الثاني فقد جاء مشتملاً على ملامح تاريخ إفريقية القديمة واستعرضت فيه ملامح عصور ما قبل التاريخ بالقارة ، ومكانة إفريقية في سياسات العالم القديم وقواه الكبرى التي حرصت على الوصول إلى إمكانيات القارة لأهميتها في بناء مدينات العالم القديم . كما استعرضت في هذا الفصل أهم الممالك الإفريقية القديمة التي ظهرت في الشمال وجنوب الصحراء ومختلف أنحاء القارة ، وذلك من أجل إثبات مكانة القارة وعمق دورها الحضاري ، واستعرضت كذلك على عجل أهم جوانب التجارة الإفريقية للعالم القديم .

جاء الفصل الثالث من الكتاب لتحديد الدور الإسلامي والعربي في القارة ، وجعلت عنوانه "إفريقية في العصر الإسلامي" على أساس أنه عصر مميز بين أطماع أجنبية قديمة وحديثة . وحاولت إبراز أهمية الدور الإسلامي لإبراز الهوية الإفريقية الحقيقية واكتشاف طاقات شعوبها . فتحدثت فيه عن علاقات العرب بالأفارقة ، وتتبعت أوضاع القارة وعلاقاتها بالمسلمين عبر عصور : الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين ،والعصر الأموي ، وأوضاع إفريقية في العصر العباسي . وأشرت إلى حركة التجارة والنشطة في القارة خلال العصر الإسلامي وأهم سلعها ومراكزها .

أما رابعهم فجاء مستعرضاً لانساب الإسلام وامتداده إلى إفريقية جنوب الصحراء ، أو ما يسمى ببلاد السودان . فتتبعت إمتداد الإسلام في السودان الشرقي والقرن الإفريقي ، وأهم الدول الإسلامية التي ظهرت في تلك الأماكن ،ودور الإسلام في ظهور شخصية سودان الشرقي ، (السودان الحالي) ، كما تحدثت عن أهم مظاهر الحضارة الإسلامية في السودان الشرقي والقرن الإفريقي متتبعاً ذلك حتى الوقت الحاضر . ثم استكملت ذلك بالحديث عن انسياب الإسلام إلى منطقة

بحيرة تشاد ، أو ما يعرف بالسودان الأوسط ، مع تحديد الظروف الجغرافية والتاريخية لذلك ، وتحدثت عن ممالك كانم وبرنو والإمارات التي ظهرت في تلك النواحي ، ومظاهر الحياة الإسلامية في تلك الأرجاء . مع الإشارة إلى دور الهجرات المستمرة ومصادرها .

ومن أهمية هذا الفصل فقد احتوى على دراسة لأهمية الإسلام في نهوض منطقة السودان الغربي ، دول غرب إفريقية ، فإستعرضت لأهم ممالكها من الناحية السياسية والتاريخية والإقتصادية ، مع دراسة لأهمية ودور كل مملكة في نشر الإسلام والحفاظ على الهوية الحضارية الإسلامية الجديدة من خلال الإتصال بالعالم الإسلامي ورحلات الحج المستمرة . فتحدثت عن مملكة غانا ، ومالي ، وصنغي . ثم تحدثت عن مظاهر الحياة الإسلامية بها حتى بداية العصور الحديثة . مع الإشارة إلى دخول الأطماع الغربية إلى تلك النواحي وبداية تدهور أوضاع المنطقة حديثاً ، بعد عصر الإزدهار الإسلامي كما تحدثت في هذا الفصل عن أهم المراكز الحضارية في السودان الغربي ، لتوضيح الفرق بين الصورتين الحالية والإسلامية السابقة .

جاء الفصل الأخير مقتصراً على عمليات إنتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق القارة الإفريقية ووسطها ، ولما كان لأهل عمان الدور الهام في تلك النواحي من القارة الإفريقية فقد جاء الفصل الأخير مرتبطا في أغلبه بتوضيح دورهم الحيوي والفعال والمستمرة . لقد شاركت عناصر عربية وفارسية وهندية في نشر الإسلام على ذلك الساحل ، لكن تلك العناصر لم تصل إلى درجة قوة الدور العماني بسبب قدمه وإستمرايته وفعاليته الواضحة حتى الوقت الحاضر . فتحدثت عن العوامل التاريخية والبشرية والطبيعية التي أدت إلى زيادة الدور العماني في نشر الإسلام في شرق القارة . وخاصة لما الموقع والظروف السياسية منذ العصر الأموي .

كما إستعرضت في هذا الفصل تتابع الهجرات العربية والفارسية عامة ، والعمانية خاصة ، إلى شرق القارة مع تحديد فتراتها ودوافعها وآثارها في نشر الإسلام وثقافته في شرق إفريقية . وصور ومراحل التحول الإفريقي إلى الإسلام ومظاهر ذلك . وأشرت كذلك إلى أهمية وفعالية التجارة والتجار ودور الموانيالتجارية التي أصبحت بمثابة منارات الإسلام وثقافته داخل القارة الإفريقية . فتحدثت عن منظومة الموانيء والجزر وصلاتها بحركة المد الإسلامي .

وتحدثت بالتفصيل عن مملكة كلوة التي ظلت قائمة حتى قدوم الغزو البرتغالي ، في بداية القرن السادس عشر الميلادي ، بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ووصول سفن البرتغاليين إلى المياه العربية وبداية تدهور وإنتهاء عصر السيادة العربية والعمانية على البحار ، حتى ظهور دولتي يعاربة والبوسعيد ، فيما بعد . وأثر تلك المرحلة في إمتداد النفوذ العربي العماني إلى قلب القارة الإفريقية في أوغندة والكونغو ومنطقة البحيرات . وتحدثت كذلك عن وصول الأطماع الأوروبية الحديثة إلى المنطقة وبداية تسللها ووضعها العراقيل أمام الوجود العربي والإسلامي مع الإشارة إلى آثار دولة البوسعيد في شرق القارة وإنجازاتها الشاملة .

هذا وقد قمت بجمع ولملمة مصادر ومراجع تاريخ القارة الضحلة من مكتبات مصر وسلطنة عمان ومعارض الكتب ، وبذلت قصاري جهدي في سبيل توضيح أهمية دور الإسلام في إستغلال طاقات القارة المادية والشرية من أجل وضع أسس الشخصية الإفريقية ، خاصة وأن الباحثين قد أدركوا "أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلى تقدم وتطور قارة إفريقية الواسعة" ونتمني أن يكون هذا العمل بداية لأعمال أخرى تضاف إلى إبراز الدور الهام لإفريقية في مسيرة الحضارة العالمية الذي قدمته بفضل الإسلام .

* * *

ولا يسعني إلا أن أتقدم بخاص شكري وإمتناني إلى أستاذي الأستاذ الدكتور / أحمد عبد الحميد الشامي . وإلى العالم المحقق الشيخ / سالم بن حمد الحارثي . وإلى الأخ الفاضل الشيخ / أحمد بن سعود السيابي ، مدير عام الإفتاء ، بوزارة العدل والأوقاف والشئون الإسلامية بسلطنة عمان ، على ما قدموه لنا من خدمات أثناء إنجاز هذا العمل ، وأتقدم بالشكر الخالص إلى الشيخ / صالح بن راشد المعمري ، مدير معهد السلطان قابوس للدراسات الإسلامية التابع لديوان البلاط السلطاني بصحار ، على ما وفره لنا من مناخ علمي وتربوي خلال تدريسنا لهذا المنهج لطلاب الفصل الثامن ، من السنة الرابعة ، المرحلة الجامعية .

هذا .... وعلى الله قصد السبيل .

دكتور / محمد قرقش

الفصل الأول

مقدمة جغرافية

(١)

الملامح الطبيعية

تؤثر الملامح الطبيعية بصورة واضحة على شخصية ومسيرة أية منطقة جغرافية من مناطق العالم . ومازالت المدرسة الحتمية الجغرافية تجد لها أنصاراً حول هذا الأمر ، وهي التي تبرز أثر الظروف الطبيعية على المستوى الحضاري للإنسان وألوان نشاطه ، رغم تقدم البشرية وتمكن الإنسان من السيطرة على العديد من الظواهر الطبيعية والتحكم فيها ، والتوصل كذلك إلى جوانب عديدة من نواميس الكون وظواهره .

ويتضح هذا الأمر جلياً في القارة الإفريقية ، فهي تبدو أشبه بعنقود من العنب يتدلى من الشمال صوب الجنوب ، ويتصل بقارتي آسيا وأوروبا من الشمال الشرقي ، والشمال ليسبح في الجنوب بين مياه المحيط الهندي والمحيط الأطلسي ، وقد مكنها هذا الإمتداد والموقع الهام من التحكم في الممرات المائية التي تصل بين الشرق وبين الغرب عبر العصور ، كما تتنوع فيها البيانات الجغرافية نظراً لإمتدادها الهائل بين دوائر العرض[١]، فهناك الأقاليم المعتدلة والجافة والمدارية والإستوائية ، وتنفرد القارة بظاهرة تكرار تلك الأقاليم بين شمالها وبين جنوبها ، بسبب مرور خط الإستواء في وسطها ، فمناخ البحر المتوسط يتكرر في الظهور في جنوبها ، على سبيل المثال .

وأدى هذا التنوع البيئي للقارة إلى تنوع النشاط البشري من جهة وتعدد إمكانيات القارة وسلعها من جهة ثانية . الأمر الذي يضيف جهداً للباحثين في ضرورة الإهتمام بكل إقليم من أقاليمها حسب ظروفه وإمكانياته مع الأخذ في الاعتبار الهوية الموحدة للقارة بصورة عامة ، فلم تقف الحواجز الطبيعية من صحاري وغابات وأدغال وأنهار في سبيل التواصل الحضاري بين مناطق القارة بل تمكنت كل جماعة من التكيف في محيطها والتغلب على مشاكلها وإنشاء شبكة من دروب الإتصال حسب إمكانياتها ، فلم تكن الصحراء الإفريقية مجهولة إلا إلى الذين لا يعرفونها ، حيث كانت تدب فيها الحياة عبر العصور القديمة والوسطى بصورة

---

(١) بدران ، شارل ، أطلس العالم ، لندن ، بدون تاريخ ، ص : ٣ .

أوضح من الوقت الحاضر[1].

ومن حيث إمكانيات الموقع والموضع للقارة ، فهي تعد ثاني أكبر قارات العالم القديم مساحة ، بعد قارة آسيا ، إذ تشمل على ما يزيد عن ثلاثين مليوناً من الكيلومترات المربعة ، من اليابس العالمي ، وهي بذلك تستحوذ على ما يقرب من خمس اليابس ، الذي يبلغ حوالي ١٤٨/مليون كم٢[2] وتشمل تلك المساحة الهائلة أقاليم جغرافية هامة تحتوي على عشرات الملايين من الأفدنة الصالحة للزراعة تمتد في وديان أنهار النيل والكونغو والنيجر والسنغال ، وغيرها من الأودية المحصورة بين الجبال أو النحدرة صوب السواحل ، كما تشمل على مساحات هائلة من المراعي خاصة في نطاق السافانا والمناطق الجبلية ، ومازالت منتجات المراعي تمثل قطاعاً لإقتصاد دول غرب ووسط وشرق القارة[3]. كما تضم الأراضي الإفريقية أهم مناجم الثروة المعدنية في العالم من ذهب وماس ونفط ونحاس وفوسفات وقصدير وغير ذلك ، الأمر الذي جعل القارة محطاً لأنظار الدول الإستعمارية منذ البداية ومجالاً لتنافس الشركات الكبرى حتى الوقت الحاضر .

كما تضم السواحل الإفريقية إمكانيات هائلة من حيث توفر الظروف المناسبة لإقامة سلسلة نشطة من الموانيء التجارية ، قامت بدور كبير في تجارة العالم حتى الوقت الراهن ، سواء على المحيط الهندي ، أو المحيط الأطلسي ، أو البحر الأحمر أو البحر المتوسط . كما تؤثر سواحل القارة في حركة الإتصال بين الشرق والغرب عبر تلك الموانيء والمضايق والممرات الإفريقية . من جهة ثانية وفرت القارة بتنوعها المناخي احتياجات أوروبا ، بصورة كبيرة ، بسلع ومنتجات الأقاليم المدارية والإستوائية . وتتضح إمكانيات موقع القارة وأهميتها الحالية في الإهتمامات العالمية بالقارة القطبية الجنوبية والتي تتداخل مع مياه القارة من الجنوب .

وإذا نظرنا إلى أقاليم القارة الداخلية ، وإمكانياتها ، فإننا نجد أن قارة إفريقية عبارة عن كتلة مندمجة من المتناقضات الطبيعية ، فمن القمم المرتفعة

---

(١) لوفران ، جورج ، تاريخ التجارة ، ترجمة هاشم الحسيني ، بيروت ، ص : ٩ . فهمي، زكي نعيم دكتور ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص : ٨٥ .

(٢) بدران ، المرجع السابق ، ص : ٣ .

(٣) يونس ، عادل ، دكتور ، العالم الإسلامي اليوم ، ص : ٢٥٦ ، القاهرة ١٩٩٠ م .

والهضاب العالية في مرتفعات أثيوبيا والتي تبلغ في بعض المناطق إلى ٤٦٠٠ متراً وجبل الكاميرون الذي يصل إرتفاعه إلى ٤٠٧٠ متراً ، إلى أعلى قمة إفريقية في جبل كلمنجارو والتي تبلغ حوالي ٥٨٩٥ متراً[١]، وتتداخل تلك المرتفعات مع نطاقات الغابات والأدغال متجهة صوب خط الإستواء مكونة حزاماً من الغابات الكثيفة ، مشكلة مجالاً بيئياً حول خط الإستواء ، حيث تقل طولاً وكثافة لتنتهي إلى سهول السافانا التي يسهل التحرك فيها واستغلالها والتحكم في مواردها . وبالتالي أصبح هذا النطاق هو أهم أقاليم القارة الداخلية نشاطاً وحيوية منذ القدم . فظهرت عليه أهم حضاراتها ومديناتها منذ القدم ، وبلغ درجة من الحضارة في العصر الإسلامي . كما شكل نطاق السافانا نقطة إلتقاء بين النطاقات الصحراوية الجافة التي تقع إلى شماله وبين الأقاليم الإستوائية التي تقع إلى جنوبه ، وشهدت أرضه ظهور مراكز تجارية هامة منذ العصور القديمة ، ومازالت الحفريات التي تتم حول بحيرة تشاد ، داخل هذا النطاق ، تشير إلى نشاط تجاري هام بين حضارة الفراعنة في وادي النيل وبين حزام السافانا وأواسط إفريقية ، منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، ويؤكد هذا الأمر النشاط التجاري الهام عبر درب الأربعين[٢].

ينساب هذا النطاق الحيوي في القارة حتى يتلاشي في الصحراء الإفريقية الكبرى . والواقع أن تلك الصحراء هي التي تتحمل القسط الأكبر في شطر القارة إلى قسمين لكل منها شخصيته المتميزة وأوضاعه الخاصة ، ذلك أن الصحراء تمتد على شكل حزام يحزم القارة من الشرق إلى الغرب لتنشأ إفريقية الشمالية ، والتي

---

(١) ترتبط الثلوج في قمم الجبال العالية عامة ، والإفريقية خاصة ، بإرتفاع معين إذ أن عملية التناطق الرأسي للنبات ودرجة الحرارة تعتمد على عوامل أخرى أهمها القرب أو البعد عن خط الإستواء . فيوجد خط الثلج الدائم عند القطب الشمالي عند درجة عرض ٥٧° شمالاً على إرتفاع صفر ، ثم يرتفع كلما اتجانها جنوباً ليصل ذورة إرتفاعه في النطاق المداري ، بسبب الجاف ، حيث يزيد إلى ٥٠٠٠ متراً ، ثم يعود إلى الإنخفاض لبعض الأمتار حول خط الإستواء بسبب تكون الرطوبة المستمرة والأمطار الغزيرة . كما تعتمد عمليات إستغلال المرتفعات على عوامل مواجهتها للرياح المحملة بالأمطار ، وكذلك المواجهة لأشعة الشمس ، فإذا كانت أوروبا تميل إلى إستغلال سفوح الجبال المواجهة لأشعة الشمس ، فالأمر عكس ذلك في قارة إفريقية .

انظر : طريح ، عبد العزيز ، الجغرافية المناخية ، ص : ١٥٨ ومابعدها .

(٢) M. Michacl, A history of the Arabs in the Sudan, P. 8 .

تشكل القسم الإفريقي من الوطن العربي ، ثم تنشأ لنا إفريقية أخرى هي إفريقية المدارية ، والتي تقع إلى جنوب الصحراء الكبرى . ومازالت الدراسات المتخصصة تفصل بشكل واضح بين الطرفين الإفريقيين ، مع الإحتفاظ لمنطقة جنوب إفريقية بظروفها المحلية ، حتى وصل الأمر إلى ضم إفريقية الشمالية إلى حوض البحر المتوسط وتياراته الحضارية أو إلى إقليم الشرق الأوسط[1]. وحصر المفهوم الإفريقي في إفريقية المدارية جنوب الصحراء . والواقع أن هذا التقسيم يضر بمسيرة القارة الحضارية وإنجازاتها التاريخية ، حيث يؤدي ذلك إلي عمليات تسرب لرصيدها الحضاري عبر خطوط حضارية أخرى .

وبرغم غلبة الجفاف على إفريقية الشمالية إلا أنها ضمت ظروفاً بيئية مناسبة لإقامة نظم حضارية ووفرت لها بإستمرار أسباب الإستقرار والتطور والديناميكية . ذلك أن هذا الحزام الشمالي لإفريقية يضم أودية لأنهار هامة مثل نهر النيل الذي جلب معه من قلب القارة سبل الحياة إلى شمالها ، كما يضم أودية أنهار صغيرة تستفيد من أمطار جبال أطلس فتشكل في النهاية أودية خصبة صالحة لإقامة حضارات وتجمعات بشرية . كما تتلقى السواحل الشمالية كميات لا بأس بها من الأمطار العكسية التي تسقط عليها في فصل الشتاء بسبب تحرك مناطق الضغط فوق البحر المتوسط تجاه الجنوب من الشمال الأوروبي الرطب والمرتفع الآزوري في المحيط الأطلسي . الأمر الذي هيأ منطقة الشمال الإفريقي لإنتاج كميات كافية لسكانها من الغذاء على مر العصور[2]، بل أنها أدت دورها في تصدير ما تحتاجه حضارات حوض البحر المتوسط ، حتى أنها أصبحت سلة للغلال للحضارات المجاورة.

وترتب على ذلك أن شهدت إفريقية الشمالية حضارات عالمية ، أدت أدوار هامة في محيطها الإقليمي والعالمي ، مثل الحضارة الفرعونية ، وحضارة قرطاج ،

---

(١) ينقسم العالم إلى أقاليم سياسية عدة حسب ظروفها الطبيعية والحضارية ، وبعد إقليم الشرق الأوسط من أهم تلك الأقاليم . وهو يعد إمتداداً لدور منطقة الشرق الأدنى القديم ، ويمتد هذا الإقليم جغرافياً ليشمل منطقة شمال إفريقية وحتى منطقة افغانستان في أوسط آسيا . ويضم بذلك غرب آسيا وإفريقية شمال الصحراء . ويمثل هذا الإقليم أهمية خاصة في رصيده الحضاري وموقعه الإستراتيجي وإمكانياته الإقتصادية. ويتميز القسم الإفريقي من هذا الإقليم بقلة تضرسه وإستواء سطحه . رغم وجود جبال أطلس ومرتفعات تبتسي والهضاب المصرية .

(٢) هبة ، أحمد عبد السلام ، دكتور ، الإنتاج الغذائي في الوطن الإسلامي ، ص : ٢٤ . القاهرة ١٩٨٠م .

وممالك بربرية مثل مملكة الموريين وماسولة ومازيولة ، وهي الممالك التي أطلق عليها اليونان والرومان اسم النوميديين ، وهي لفظة مأخوذة من لهجة البلاد في تلك العصور التاريخية القديمة [١] وقد نشأت علاقات إقتصادية بين مناطق الشمال من جهة وبين حوض البحر المتوسط وممالك الشمال من جهة ثانية بسبب توفر المواد الخام في هذا الحزام[٢].

وإلى الجنوب من إفريقية الشمالية تمتد الصحراء الإفريقية الكبرى التي تمتد على شكل حزام عريض يمتد من الشرق إلى الغرب ، حتى يتوقف عند نطاق السافانا الذي يقف خلفه من الجنوب نطاق الغابات الإستوائية .

وحفلت الصحراء الإفريقية الكبرى هي الأخرى بأسباب الحياة والنشاط ، بعد الظروف المناخية الجديدة التي كانت تسودها في العصور المطيرة خلال حقبة العصور الحجرية والتي انتهت بتغير المناخ وسيادة الجفاف بها، مما أدى إلى نزوح الإنسان عنها إلى مناطق الأنهار والأمطار ، ورغم تغير المناخ وسيادة الجفاف فإن تلك الصحراء ظلت تحوي محطات حضارية هامة في نقاط متباعدة بين رمالها وهي الوحات الشهيرة في صحراء مصر الغربية وليبيا مثل واحة سيوة وواحات الداخلة والخارجة والفرافرة ومرزوق والكفرة وفزان وأغاديس وموار ، بالإضافة إلى واحات المغرب الأقصى[٣]. كما لاحظ الرحالة والجغرافيون المسلمون توفر سبل الحياة في تلك الواحات وإنتاج بعضها لأنواع من الفاكهة والحبوب[٤]، كما اشتهرت بوجود أنواع عديدة من الثروات المعدنية أيضاً بها أو بالمناطق الصحراوية المحيط بها[٥]. وبذلك أصبحت تلك الواحات عبر الصحراء الكبرى بمثابة محطات ومراكز تجارية يمكن الوصول إلى الواحة تلو الأخرى عبر طرق ودروب شاقة في الصحراء أصبح لأهلها خبرتهم الطويلة بها بمرور الزمن .

---

(١) جوليان ، شارل ، أندرية ، تاريخ إفريقية الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الطبعة الخامسة ، ص : ٢٩ ومابعدها .

(٢) الجوهري ، يسري ، دكتور ، شمال إفريقية ، ص : ٨٩-١٠٠ .

(٣) ريموند موني ، طرق التجارة عبر الصحراء قبل الفتح العربي ، مجلة البحوث التاريخية ، ليبيا ، ١٩٨١ ، العدد الأول ، ص : ١١٩-١٠٢ .

(٤) راجع : رحلة ابن بطوطة ، وابن حوقل في صورة الأرض .

(٥) ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن على بن موسى (القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيقي اسماعيل العربي ، ص : ٨١-٩٦ بيروت ، ١٩٧٠م .

وقد قامت الصحراء الإفريقية بدور هام في عمليات التبادل التجاري الحضاري في تاريخ إفريقية خاصة والعالم القديم والوسيط بصورة عامة ، يفوق دورها في العصور الحديثة . ذلك أنها كانت الممر الوحيد الذي لا بد من إجتيازه من أجل الوصول إلى نطاقات السافانا وإفريقية الإستوائية قبل عمليات الكشوف الجغرافية التي وقعت في العصور الحديثة وما ترتب عليها من اكتشاف سواحل إفريقية الغربية المطلة على المحيط الأطلسي وربط إفريقية من تلك الجهات شبكة المواصلات البحرية العالمية عبر المحيط الأطلسي . في الوقت الذي إرتبطت مناطق السودان التي تقع إلى الجنوب منها بإنتاج سلعة إستراتيجية هامة منذ القدم ، وهي الذهب السوداني الذي سال عليه لعاب اليونان والرومان وغيرهما . وأصبحت بالتالي مشقة الرحلة عبر الصحراء الكبري تقابلها عوائد هائلة من ذهب النطاق السوداني . فتتابعت الرحلات عبر الصحراء الكبرى ودبت فيها الحياة ، وصارت معابر مستمرة نشطة ، وقد أدت الصحراء أيضاً دورها الهام في التاريخ الإفريقي المعاصر ، حيث كانت جماعات المجاهدين ضد الإستعمار الإيطالي في ليبيا ، والفرنسي في الجزائر وتونس ومراكش تتخذ من واحاتها معاقل لرجالها . وعبر تلك الواحات ارتبطت حركة تحرير الجزائر بجيرانها لمساعدتها ضد الإستعمار الفرنسي .

بل عبر الصحراء الكبرى تمت أكبر عمليات الإنصهار المبكرة بين الشعوب الحامية والزنجية ، ومن خلال واحاتها تمت عمليات الإشعاع الحضاري المستمرة لحزام السافانا الذي كان يعاني من عشرات حضارية من جزاء عزلته بين الصحراء والغابات . فعبر الصحراء نفذت المؤثرات الفرعونية واليونانية والرومانية والفينيقية ، ومن خلالها إنساب الإسلام إلى إفريقية المدارية [1] ومن قبل إحتضنت الصحراء الإفريقية المسيحية من إضطهاد أباطرة الرومان وولاتهم ، حينما فر إليها رجال المسيحية ومعتنقيها ، وولدت في الصحراء المصرية أول نظم الأديرة العالمية والرهبنة على يد باخوميوس .

وإلى الجنوب من الصحراء الإفريقية تمتد أراضي السافانا لتبدأ ما يعرف بإسم "إفريقية المدارية" أو "إفريقية جنوب الصحراء" وهي عبارة عن مناطق مرتفعة ، حيث يقع معظمها على إرتفاع ٤٠٠ متراً ، وتوجد أعلى هضاب القارة في شرق وجنوب إفريقية على إرتفاع يتراوح مابين ١٣٠٠ متراً إلى ٣٠٠٠ متراً خاصة

(١) مؤنس ، حسين ، دكتور ، الإسلام الفاتح . ٢٥ ومابعدها ، الزهراء للإعلام العربي ، القارة ، ١٩٨٧ .

الحبشة وزمبابوى وزامبيا ، وإن كان إرتفاعها يتراوح بين ٥٠٠-١٠٠٠ متراً فقط . وتصبح تلك الهضاب ذات أهمية بيئية لسكان القارة[١].

تتميز إفريقية المدارية من الناحية الجغرافية بإنتشار الأحواض الداخلية العديدة والضخمة . ومعظم تلك الأحواض ذات تصريف داخلي ، حيث تنتهي الأودية إلى مناطق منخفضة تتجمع فيها المياه التي لا تصل إلى منفذ على بحر خارجي كما هو الحال في نهر النيل ونهر النيجر ، حيث ينتهي الأول في البحر المتوسط ، والثاني في المحيط الأطلسي . واحتفظت تلك الأحواض بكميات هائلة من المياه أصبحت كفيلة بسد حاجيات الجماعات البشرية التي اعتمدت عليها .

وتعد بحيرة تشاد نموذجاً من تلك الأحواض الإفريقية الداخلية ذات التصريف الداخلي[٢]، حيث تنتهي عندها عدة أودية قادمة من الجنوب والشرق والغرب وتلقى بمياهها ورواسبها في منخفضاتها الواسع ، الأمر الذي كون بمنطقتها تربة منقولة متجددة من الرواسب عبر الأودية . ورغم أن بحيرة تشاد لا تعتبر مركز تصريف تلك الأودية التي تصرف مياهها جوفياً نحو واحات بوركو Borkou[٣]، إلا أن منطقة بحيرة تشاد أصبحت مركزاً هاماً لنشاط إقتصادي وحضاري في حزام السافانا ، المعروف باسم بلاد السودان ، وشكلت على إمتداد خمسمائة ميل من الشرق إلى الغرب قسماً جغرافياً وتاريخياً عرف باسم "السودان الأوسط" وقدم هذا القسم حضارات ونشاطات حضارية لها صفة الاستقلالية الحضارية ، كما ساهمت في الإتصال الحضاري بين شرق بلاد السودان وغربه والعكس ، وبين بلاد السودان وشمال إفريقية والعكس من جهة ثانية[٤]، وإن كان هذا الإقليم قد فقد أهميته الإستراتيجية حالياً .

وتعد إمبراطورية البرنو والكانم من أهم إفرازات هذا الإقليم حضارياً ، بحيث عدت من أهم إمبراطورية العالم في نهاية العصور الوسطى[٥]، حتى ظهرت في كتب

---

(١) أبوعيانة ، فتحي محمد ، دكتور ، الجغرافية الإقليمية ، ص : ٢٨١ ومابعدها . بيروت ، ١٩٨٦ م. (٢) الجوهري ، يسري ، دكتور ، إفريقية الإسلامية ، ص : ٢٤٣ .

(٣) أبوعيانة ، المرجع السابق ، ص : ٢٨٣ .

(٤) طرخان ، إبراهيم ، دكتور ، إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ص : ١٥ . عبد الجليل ، الشاطر ، تاريخ حضارات السودان الشرقي والزوسط ، ص : ٣٩٥ ومابعدها .

(٥) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، باريس ١٩١٣ ، ص : ٢١ .

وخرائط الغرب من بداية العصور الحديثة [1]، واستفادت تلك الإمبراطورية من إمكانات الموقع والبيئة التي توفرت حول بحيرة تشاد بما لديها من تربة خصبة ومساحات شاسعة للمراعي .

تمتلك إفريقية المدارية أيضاً مجموعة هامة من الأنهار ، ناتجة عن كميات المياه الجارية من الأمطار الموسمية أو الإستوائية ، وهي أمطار غزيرة خاصة تلك التي تسقط في شرق القارة أو وسطها ، ورغم أن نهر النيل ينبع من هذا النطاق إلا أنه يسرع بمياهه إلى خارجه لتستفيد منه مناطق الإقليم الجاف في الشمال وتعتمد عليه بصورة أساسية في حياتها ، كما أن النطاق السوداني يستفيد منه أيضاً في خطوط تصريفه السفلي[2].

أما نهر الكونغو ، الذي يعتبر من أهم أنهار القارة ، بل والعالم القديم على الإطلاق ، من حيث ضخامة كمية مياهه ، وطول مجراه ، وتشعب خطوط تصريفه ، فإن هذا النهر يتميز بثبات التصريف المائي ، بسبب غزارة الأمطار في مناطقه وثبات منسوب البحيرات التي تنبع منها العديد من روافده . كما يتميز باتساع مجراه ، حتى يصل في بعض القطاعات إلى ستة عشر كيلو متراً ، ولا يتفوق عليه في هذا المجال سوى مجري الأمازون في أمريكا الجنوبية . ولذلك يعد هذا النهر من أهم أنهار العالم في إمكانيات الطاقة الكهربائية ، التي يمكن الحصول عليها منه ، رغم أن المستغل منها حالياً قدراً ضئيلاً .

وتبلغ مساحة حوض نهر الكونغو حوالي أربعة ملايين من الكيلومترات المربعة وبالتالي فإنه يشمل معظم مساحة إفريقية الإستوائية والمدارية جنوب خط الإستواء ، ولم تتمكن الجماعات الإفريقية من إستغلال إمكانيات تلك المساحة بسبب صعوبة الظروف البيئية من كثافة الغابات وصعوبة الحركة داخل هذا النطاق ، الأمر الذي جعل غالبية تلك الجماعات الزنجية تعتمد على نظام الجمع والصيد والزراعة البدائية في حياتها الإقتصادية ، ومازالت تقوم بتلك الأنشطة البدائية جماعات وقبائل

---

(١) راجع : Ency . of Islam, Art of Islam, Vol. : 2, P. : 748

- وإن كان اسم برنو أو بارنو تعرف به طبقة المحاربين .

(٢) ينبع النهر من الإقليم المداري ، ويشق الصحراء لمسافة طويلة . ويبلغ طوله حوالي ٦٤٠٠ كم ، من الجنوب إلى الشمال . وتعترضه ستة جنادل . وعلى الرغم من قلة مياهه مقارنة بمياه نهر الكونغو ، فإنه يعد مصدر حضارات هامة ظهرت معتمدة عليه في الوسط وفي الشمال .

في تلك المنطقة . كما أن دولة زائير الحالية التي تشمل معظم مساحة الحوض تمتلك أكبر شبكة خطوط طيران داخلي في قارة إفريقية للتغلب على صعوبة التنقل والإتصال على الأرض . وقد أصبحت تلك المناطق ذات أهمية لإمتداد الأقاليم المجاورة بمنتجات وسلع الأقاليم الإستوائية من العاج والجلود وغير ذلك .

وفي غرب القارة يوجد نهر النيجر[1]، وينبع هذا النهر من الجنوب أيضاً من مرتفعات سيراليون وغينيا حيث تغزر الأمطار ، فتتجه المياه صوب الشمال ثم تنحرف نحو الجنوب الشرقي حيث يتصل برافده الرئيسي في بينو Benue قبل أن ينتهي إلى البحر في نيجيريا[2]. كما يوجد إلى الشمال الشرقي منه نهر السنغال الذي يتجه صوب المحيط الأطلسي .

وقد شهدت منطقة حوض نهر النيجر وحوض نهر السنغال أهم مدنيات وحضارات السودان تاطبة ، بما توفرت لديها من ثروات إقتصادية هامة من تربة صالحة للزراعة ومراعي شاسعة صالحة للرعي وثروات معدنية هائلة من الذهب فظهرت فيها مدينات هامة منذ العصور القديمة ، وبدأت تظهر فيها ممالك إسلامية مثل مملكة غانة ، ومملكة مالي ، ومملكة صنغي ، وأصبحت مدنها أهم مراكز الإشعاع الحضاري لإفريقية جنوب الصحراء . وارتبطت مراكز تلك المنطقة بشبكة من الطرق البرية أو الطرق النهرية عبر نهر النيجر[3].

أما نهر الزمبيزي فيوجد في جنوب القارة ، ويتصف بتذبذب جريانه وتعدد منابعه وإعتراض العديد من الشلالات مجراه . كما توجد أنهار في القارة لعب دوراً هاماً في حياة شعوبها مثل نهر الأورانج في الجنوب ، عند سفالة الزنج ، على ساحل إفريقية الشرقي ، ويقع حالياً في دولة جنوب إفريقية . وعلى طول الساحل الشرقي لإفريقية حتى منطقة الصومال شمالاً توجد سواحل خصبة تكونت منه دالات

---

(١) ظلت تسميته في العصور القديمة والوسطى باسم نهر النيل ، حيث استمرت المصادر الإسلامية تذكره باسم "النيل" إعتقاداً منهم بوجود صلة بينه وبين نيل مصر والسودان من حيث المنبع أو الإتصال . خاصة وأن منابع النيجر ظلت مجهولة لفترة طويلة .

انظر : ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص : ٨٠ ومابعدها .

(٢) أبوعيانة ، المرجع السابق ، ص : ٤٥٧ .

(٣) راجع : طرخان ، إبراهيم ، دكتور ، مملكة مالي الإسلامية ، ص : ٤٧ ومابعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الأنهار الصغيرة التي تتجه صوب ساحل المحيط الهندي في الشرق .

كما توجد أيضاً ظاهرة "المانجروف" وهي الأراضي التي تكونت بفعل زحف النباتات على مياه البحر وتكون طبقات من الرواسب فوقها بمرور الزمن وقد استغلت منذ القدم من قبل السكان .

وتوجد كذلك أنهار عديدة أخرى مثل نهر الفولتا في الغرب ضمن مجموعة أنهار السودان الغربي ، ونهر اللمبوبو في الجنوب . وتأتي أهمية أنهار القارة الإفريقية في أنهار وفرت مجالاً حيوياً لسكانها ووسطا بيئياً مناسباً لمعيشتهم ووفرت لهم عناصر الإستقرار منذ القدم . وبالرغم من وجود عقبات تعترض مجاري تلك الأنهار فإن معظمها أصبح عنصراً فعالاً في عمليات الإتصال بين الشعوب الإفريقية ، خاصة نهر النيجر في غرب القارة . كما تشكل الأنهار الإفريقية ثروة هامة في الوقت الحاضر بجانب مياهها حيث تمتلك حوالي ٤٠٪ من إجمالي الطاقة المائية في العالم ، الأمر الذي يعوضها عن نقص الفحم في الشمال ، والبترول في الجنوب[1].

ومن ناحية أخرى فقد أثر مناخ إفريقية في تنوع أنشطة الحضارة بها ، حيث تقسم القارة إلى أقاليم مناخية ثلاث : الأول صحراوي في الشمال ، وهو إقليم جاف وشبه جاف ويتمثل هذا الإقليم المناخي في إفريقية الشمالية ، كما يسود في صحراء ناميبيا وصحراء كلهاري في الجنوب ، بالإضافة إلى صحراء الصومال في الشرق . أما سواحل البحر المتوسط الإفريقية فإنها تتلقى كميات من المطر تكفي لحياة الجماعات في مناطقها ، ويتميز هذا الساحل بأنه حار جاف صيفاً ، ودافئ ممطر شتاءً ، ويرتبط بعناصر الضغط الجوي وحركة التيارات الهوائية بين المحيط الأطلسي من الغرب ، وأواسط آسيا من الشرق ، وبين تيارات أوروبا الرطبة من الشمال ، وإفريقية المدارية الجافة من الجنوب . ويتمثل هذا الإقليم المناخي الثاني أيضاً في مساحات من جنوب إفريقية تمتد على السواحل الشرقية والجنوبية .

أما الإقليم الثالث فيمتد في معظم القارة من الشرق إلى الغرب وهو الإقليم المداري والإستوائي المحصور بين المدارين ويشقه خط الإستواء في الوسط ، ويتميزبأمطاره الغزيرة طوال العام في الوسط ، ثم تقل كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً . وبالتالي تقل كثافة الغابات حتى تنتهي بالحشائش في إقليم السافانا ثم تختفي

(١) أبوعيانة ، المرجع السابق ، ص : ٤٨٣ .

الصحراء ، في الشمال أو في الجنوب[1].

ويسود القارة في بعض أجزائها مناخ المرتفعات المعتدل الدفيء الممطر صيفاً ويتمثل هذا النمط بصورة واضحة في منطقتين : الأولى : هضبة جنوب إفريقية والتي يتراوح إرتفاعها ما بين ٣٠٠-٢٠٠٠ متراً فوق مستوى سطح البحر في المنطقة المعروفة باسم "الفلد العليا" والتي ينخفض معدل الحرارة بها عما جاورها من أراضي بسبب عامل الإرتفاع . والمنطقة الثانية هي هضبة الحبشة في الشرق حيث تتميز المناطق القليلة الإرتفاع بها بمناخ معتدل دافيء مع سقوط أمطار غزيرة في فصل الصيف بسبب الرياح الموسمية ، بينما تنخفض الحرارة في المناطق المرتفعة حتى أن الثلوج قد تتكون بصورة مستمرة فيما فوق إرتفاع ٥٠٠٠ متر .

وقد وفرت الظروف البيئية من سطح ومناخ وتربة إمكانيات إقتصادية هائلة للقارة الإفريقية عبر عصورها التاريخية . فتضم غابات إفريقية المدارية التي تنمو في الأقاليم المناخة المطيرة تنوعاً هائلاً من الثروات الحيوانية والنباتية ، فبجانب أشجار الأبنوس القيمة ، توجد أنواعها عديدة من الحيوانات مثل القردة والتماسيح والنمور والأسود في نطاق السافانا . كما نم إستئناس الأغنام والأبقار للرعي في تلك المساحات الشاسعة .

وإذا كانت تلك الإمكانيات قد استغلت من قبل سكانها ، فإنها ساهمت في إمداد سكان العالم القديم والوسيط والحديث بما يحتاجه من تلك السلع الهامة .

---

(١) أبوعيانة ، المرجع نفسه .

(٢)

السُّـــــكان

يقدر عدد سكان قارة إفريقية حسب الإحصائيات العالمية الأخيرة بحوالي ٥٣٠ مليون نسمة[١]، يعيش ربع السكان في إفريقية الشمالية ، والباقي بإفريقية جنوب الصحراء . وتتركز نسبة كبيرة من تلك الإعداد في غرب القارة ، بسبب ظروف تاريخية وجغرافية . ويمثل سكان إفريقية حوالي ١٠٪ من جملة سكان العالم[٢]، مع تميز القارة بارتفاع معدلات الوفيات والمواليد ، التي تعتبر من أعلى المعدلات الحالية . وإن كنا نلاحظ أن عدد السكان لا يتوزع بانتظام على سطح القارة ، تصل أدنى مستوياتها في مناطق الغابات والصحاري . ولكن تتميز إفريقية بصورة عامة بمجالها الحيوي الكبير لسكانها حيث أنها تشمل أكثر من ٢٢٪ من اليابس العالمي .

والواقع أن أكثر قارات العالم تضرساً من حيث السلالات والأجناس البشرية هي قارة إفريقية ، إذ تضم خليطاً متنوعاً ومتضارباً من السلالات البشرية ، بحيث يوجد بها أكثر من (٧٠٠) لغة . مما يدل على أهمية دراسة تاريخ القارة بصورة موضوعية من أجل تعقب الموجات البشرية التي دخلت القارة ، والجماعات العرقية التي تشكلت عبرها ، أو الأجناس التي تنقلت بين مناطقها . وتدل الدراسات الأولية على أن إفريقية قد غمرتها موجات بشرية متعاقبة ، وأن كل موجة كانت تدفع سابقتها نحو الداخل ، وتوجد اليوم أدلة على تلك النتائج حيث توجد جماعات منزوية في صحراء كلهاري دفعتها جماعات أقوى وأحدث قدمت عليها من نطاق السافانا . ويلاحظ هذا الأمر داخل نطاق الغابات أيضاً .

وتعتبر إفريقية بحق منزل كبير وجهته الأصلية صوب الشمال ، حيث توجد ثلاثة أبواب رئيسة هي : الأول عبر بوغاز جبل طارق في الشمال الغربي للقارة . وهو بوغاز ضيق في بعض أجزائه يصل إلى عشرة أميال . وعبر هذا البوغاز تمت

---

(١) U. S. Sept. of Commerce World Population, 1983, P. 47.

(٢) في حين أن نسبة سكان إفريقية المدارية ، التي تقع جنوب الصحراء تشمل ٨٪ من سكان العالم . أنظر : أبوعيانة ، الجغرافية الإقليمية ، ص : ٤٠٧ .

التأثيرات المبكرة بين القارة الإفريقية والقارة الأوروبية كما كان له دوره الكبير في تمكن المسلمين من إقتحام القارة الأوروبية بعد أن استعصت عليهم من جهة الشرق عبر مضايق البوسفور والدردنيل ، حيث أسوار القسطنطينية ، والتي أنهارت أخيراً عام ١٤٣٥ م أما محمد الفاتح العثماني . وظلت عمليات التأثيرات بين الطرفين حتى العصور الحديثة ، حتى أن أوروبا قد وضعت خططها للإعتماد على هذا المضيق أمام الخطر النووي السوفيتي السابق[١]، للإنسحاب إلى الأمان الإفريقي[٢].

أما المنفذ الثاني فكان عبر باب المندب ، وهو ذلك المضيق الذي يصل بين البحر الأحمر وبين المحيط الهندي ، وبجانب ضيقه الذي لا يتعدي بضعة أميال تنتشر به الجزر العديدة التي سهلت عملية الإنتقال بين الجانبين الآسيوي والإفريقي ، حيث قام هذا المضيق بدور هام في العصور القديمة في تاريخ القارة الإفريقية فخلاله استمرت عمليات تدفق الجماعات السامية عبر مياهه إلى الأراضي الإفريقية . وخاصة حينما تدهورت الأحوال المناخية في شبه الجزيرة العربية منذ العصور الحجرية واستمرت الجماعات السامية تبحث عن أماكن جديدة للإستقرار ، فاتجه البعض إلى الشمال حيث الهلال الخصيب ، ويمم البعض الآخر وجهته صوب مصر عبر سيناء ، وعبر البعض الآخر باب المندب إلى قارة إفريقية . وكان قيام مملكة أكسوم الحبشة في القرن الرابع الميلادي وضمها ضفتي باب المندب تحت سيطرة مركزية واحدة تتويجاً لهذا التواصل التاريخي بين الجانبين العربي والإفريقي .

ويبدو أن هذا المنفذ قد ظهرت أهميته في أنه يقع على منفذ مستودع الجنس السامي في شبه الجزيرة العربية ، وخاصة الجنس العربي ، الذي تعرض لكارثة انهيار سدمأرب وفشل محاولات ترميمة وإعادته إلى طاقاته القديمة[٣]، فاتجهت قبائل عديدة إلى القارة الإفريقية قبل الإسلام وفي العصور الإسلامية . واستمر في ضخ هجرات عديدة إلى القارة الإفريقية لتغزيز الوجود العربي السابق . حتى أنه من الصعب دراسة تاريخ ومسيرة القرن الإفريقي وشرق القارة دون فهم تاريخ جنوب شبه الجزيرة العربية وأهمية باب المندب .

ونظراً لاتصال اليابس الآسيوي باليابس الإفريقي لأول مرة عبر سيناء ، فقد

---

(١) الديب ، محمد ، دكتور ، الجغرافية التاريخية ، ص : ٤٧٢ ، القاهرة ١٩٧٥م .

(٢) ومازالت هناك موضوعات حول شق نفق بين أوروبا وإفريقية تحت مياه مضيق جبل طارق .

(٣) فخري ، أحمد ، دكتور ، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، القارهرة، ص : ٢٢٧ .

أصبحت سيناء أهم منفذ في حجم التدفق البشري بين الجانبين . فعبر سيناء تمكنت جماعات سامية من دخول منطقة شمال إفريقية ووادي النيل والتوغل لمسافات طويلة منذ العصور القديمة ، حتى غلب الطابع السامي على منطقة سيناء وشرق مصر لفترات زمنية متقطعة ، رغم وجود قوة مركزية على بوابة إفريقية ، وهي الإمبراطورية الفرعونية التي تمكنت من حماية تلك البوابة لفترة زمنية طويلة[1]، غير أنه في بعض الفترات تسللت بعض الجماعات لتستقر على حدودها الشرقية ثم عاودت التحرك صوب الداخل ، حتى أدرك الفراعنة أن حماية أمن تلك البوابة لا يتأتى إلا عبر إمتداد نفوذهم لمسافات طويلة في بلاد الشام ، من هنا فقد وقعت المعارك الهامة في قادش ومجدو وغيرها من مواقع بلاد الشام ، من أجل حماية مصر وإفريقية من قوى غرب آسيا .

واستمر هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه منذ فتح مصر على يد عمر بن العاص سنة ٢١ هـ . في خلافة عمر بن الخطاب . فبعد النصر العسكري الحاسم للمسلمين تدفقت القبائل العربية إلى مصر لتستقر في الوادي والدلتا وتنساب عبره إلى داخل إفريقية عبر وادي النيل وواحات الصحراء المصرية مستفيدة بخبرتها السابق في اجتياز الصحراء ورصيدها السابق في مصر[2]. ولما تمكن العرب من الفتح لمصر امسكوا بذلك برأس القارة الإفريقية وربطوها لأول مرة بغرب آسيا عبر سيناء والبحر الأحمر ، وشكلت منطقة غرب آسيا وشمال إفريقية وحدة حضارية واحدة عرفت ساسم الوطن العربي ذات اللغة الواحدة والدين الواحد والآمال المشتركة . بل أن سيناء أصبحت في الوقت الحاضر همزت تواصل بين قارات العالم بعد حفر قناة السويس ، ولم تتأثر كثيراً بنتائج الكشوف الجغرافية وظهور ممرات أخرى .

وبجانب تلك المنافذ الثلاث شهدت القارة الإفريقية قدوم عناصر وافدة إليها عبر مياه المحيط الهندي لتستقر على سواحلها وجزرها ثم تتوغل في داخلها . وترجع هذه العناصر إلى أصول ماليزية وملايوية ودرافيدية من منطقة جنوب آسيا وجنوبها الشرقي . وإن كانت تلك الموجات قد عادت في العصور الحديثة تحت نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية وغيرها من الشركات الإستعمارية .

---

(١) شقير ، نعوم ، تاريخ سيناء ، ص : ١٢٣ ومابعدها .

(٢) كان تحول الشمال الإفريقي إلى الإسلام والثقافة العربية أسرع خطى من بلاد النوبة وسودان وادي النيل بحيث بدأ تحول المصريين إلى الإسلام والعربية أسرع من غيرهم .

وتبدو تلك المجموعات في جزر موريشيوس ومدغشقر (ملاجاشي) وجزر القمر ودول إفريقية الشرقية حتى دولة جنوب إفريقية ، الأمر الذي زاد من تعقيد الأصول والأجناس العرقية لقارة إفريقية ، حتى أصبحت عملية تعقب دخول تلك الأجناس في النسيج الإفريقي تنم عن عملية شاقة .

ومن أجل فهم الملامح الأساسية للسلالات الإفريقية الرئيسية ومصدرها وتحركاتها ، فإننا لابد أن نقر أن هناك تقسيماً أولياً يعتمد على أسس أنثروبولوجية وتاريخية ذات معايير محددة تبرز شكل الرأس وأجزائها ، ولون البشرة ، والشعر والقامة[1]، رغم أننا يجب أن نؤمن أنه من الصعب العثور على جماعات خالصة في صفاتها الجنسية بسبب عمليات الإختلاط والمعاشرة المستمرة بين الجماعات البشرية في القارة ، والصراعات الطويلة بين الجماعات البشرية[2].

ومع إقرارنا بأن الجنس الزنجي يعتبر أقدم الأجناس الإفريقية إلا أنه أنزوي في وسط القارة وعلى حافات غاباتها وفي صحرائها لفترة طويلة بسبب قدوم العناصر القوقازية التي عبرت إلى القارة في وقت أحدث ، وتمكن هذا العنصر الأخير من السيطرة على مناطق وادي النيل والقرن الإفريقي وشمال إفريقية .

وتضم السلالات القوقازية معظم الجماعات غير الزنجية مثل الحاميين[3]، والساميين التي تتمركز في شمال وشرق القارة ، والتي أصبحت تضم تراثاً حضارياً مميزاً لها يمتد من مصر إلى ساحل المحيط الأطلسي . عبر برقة وطرابلس وبلاد المغرب ، وتضم الجماعات الحامية مجموعات داخلها مثل الطوارق والتيبو في الصحراء الكبرى وجماعات الجوانش في جزر كناريا بالمحيط الأطلسي . كما تضم أيضاً جماعات الليبيين المنتشرة في الصحراء الواسعة غرب مصر ، والذين تركوا كثيراً من الأخبار مدونة حولهم في الآثار الفرعونية . ومازالت الدراسات الأثرية الحديثة تؤكد أن تلك الأجناس من خارج القارة الإفريقية ، وأنهم هاجروا إليها في عصور تاريخية قديمة وشكلوا حضارات على أرض إفريقية مثل جماعات الليبيين[4].

---

(١) محمد ، محمد عوض ، دكتور ، الشعوب والسلالات الإفريقية ، سلسلة دراسات إفريقية ، القاهرة ، العدد (١) ، ص : ٢٢ .

(٢) محمد ، المرجع السابق ، ص : ١١٢ .

(٣) يطلق لفظ حامي على المجموعات غير الزنجية التي تعيش في شمال إفريقية وجنوب الصحراء.

(٤) محمد عوض ، المرجع السابق ، ص : ٣٢ .

والواقع أن تاريخ الشمال الإفريقي يعد أشد مناطق العالم القديم تلاطماً بالموجات البشرية ، وظلت منطقة وادي النيل في ركنه الشرقي ، تتمتع الفترات بعنصر التصدير والتأثير الحضاري في محيطها الإفريقي بما يحمله من تنوع عرقي ، أما منطقة شمال إفريقية التي تمتد من طرابلس وحتى سواحل المحيط الأطلسي فقد أصبحت عرضة لتأثيرات وافدة عليها من خلال عناصر أجنبية حتى سميت باسم "جزيرة المغرب"[1]. فمنذ أوائل عصور التاريخ استقرت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديدة التنوع العرقي والحضاري ، فمن اللآتين واليهود والفينيقيين والوندال واليونان والزنوج وغيرهم من الجماعات التي وفدت إلى منطقة الشمال الإفريقي إما هروباً أمام جماعات أقوى أو طمعاً في ثروات إفريقية وموقعها .

ويبدو أن تلك الهجرات الوافدة قد تركت آثارها على حضارة الشمال الإفريقي وامتزجت نسبياً من السكان الأصليين ، ولكن لفترات محددة تلاشي بعدها هذا الأثر ، في المحيط البربري الذي يمتد جنوباً . أما العرب فكانوا أكثر تلك الجماعات تأثيراً في دماء شمال إفريقية على الإطلاق ، منذ العصور القديمة ،حتى اليوم ، ذلك أن الجيوش التي تحركت عبر مصر إلى الشمال الإفريقي ضمت أعداد كبيرة خلال عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ، بقدره البعض بأكثر من ١٥٠.٠٠٠ مقاتل ، بالإضافة إلى مجموعات التجار العرب والأسر العربية والقبائل التي تدفقت إلى تلك المناطق منذ البداية ليصل العدد إلى ما يقرب من ثلث مليون . ولما كان هذا العنصر هو الفاتح والمنتصر[2]، فقد استقر في الأماكن الإستراتيجية والتي توفر فيها الظروف البيئية الحسنة ، فأصبح لهم الغلبة في كل مجال[3] . كما انصهرت في بوتقتهم العناصر الأخرى على مر الزمن .

ويبدو أن هجرات القبائل العربية ، قد أدت في بعض الأحيان ، إلى تفهقر العنصر البربري صوب الجنوب[4]، ليختلط بعناصر زنجية أو عناصر منعزلة في الواحات ، الأمر الذي أدى إلى تنوع عرقي كبير في دماء العنصر البربري وظهور تقسيمات علماء الأنثربولوجيا ، فقد قام برتولون Bertholon وشانتر Chanter بتقسيم سكان البربر في أقاليمهم الشرقية إلي ثلاثة أصناف هي :

---

(١) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ١، ص : ٦٥ .

(٢) الجوهري ، يسري ، الإنسان وسلالاته ، ص : ٣٦٨ .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ، ص : ٦٨ .

(٤) جوليان ، المرجع نفسه ، ص : ٦٨ .

الأول : قصير القامة ، مستطيل الرأس ، متوسط الأنف ، أسود الشعر ، في الشرق .

الثاني : قصير القامة ، بيض الرأس ، وفيق الأنف ، أسود الشعر، وأطلقا عليه صنف "جربة" في الوسط .

الثالث : طويل القامة ، مستطيل الرأس ، دفيق الأنف ، أشقر الشعر ، وله صلات بالجنس المتوسطي في الشمال والزنجي في الواحات الصحراوية . وينتمي إليه عنصر الطوارق[1].

كما أن هناك تقسيماً حضارياً آخر يقسم البربر إلى قسمين هما[2]: البتر[3]: وهم جماعات البدو والرحل من البربر وهم الجمالة أصحاب الترحال . ومن أشهر قبائلهم : أداسة في هوارة . ومن بطونها سفارة ونفوسة ، ومن بطونها بنو زمور ، وبنو مسكور ، ومطوسة ، وقبيلة نفزاوة . ومن بطونها ولهاصة وغساسة وزهيلة وسوماته ورسيف ومرترة وزاتمة وركول ومرنيسة وردغروس وردين . وقبيلة لوات ومن بطونها اكوره عتروزة وبنو ماصلة ، ومزات وفعاغمة وجدانة وسدراته[4]. بالإضافة إلى قبيلة زناته .

البرانس : ومن أهم قبائلهم ، مطماطة ، ورزداجة ، ومصمودة ، وأوروبة ، وعجيسة وكتامة ، وصهاجة ، وأوريغة[5].

غير أننا لا نوافق ابن خلدون فيما وصل إليه من هذا التقسيم وإقرار الباحثين له ، فمن الصعب اعتبار قبائل البتر من البربر بدواً رحلاً والبرانس حضراً ، ذلك أن جانباً كبيراً من زناته التي تنتمي إلى البتر كانوا رحلاً ، وكلهم كانوا يعملون في مجال التجارة الصحراوية بما يمتلكون من إبل وخبرات للطرق الصحراوية ، وحققوا من وراء ذلك مكاسب هامة من النواحي الإقتصادية والحضارية ، كما أن

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، ص : ٦٩/٧٠ .

(٢) تقسيم تقريبي يعتمد على النمط الإقتصادي والمستوى الحضاري .

(٣) نسبة إلى الفروق في الملابس ، فالبتر جمع أبتر وهو الثوب المقطوع ، عكس البرانس ، جمع برنس وقلانس . وهو ما عرف باسم "أهل الوبر" وأهل "المدر" .

(٤) ابن خلدون ، تاريخ ، جـ١ ، ص : ١٣٨ ومابعدها .

(٥) ابن خلدون ، المصدر السابق .

قبائل نفوسة من البتر أيضاً استقروا في أودية طرابلس وحقولها عملوا بالزراعة كفلاحين مستقرين وساهموا بدور كبير في أحداث طرابلس واقتصادها وحياتها السياسية[1].

من جهة ثانية اعتبرت صنهاجة من البرانس وهم أكثر قبائل المغرب الأقصى تنقلاً بين الشمال والغرب عبر الصحراء ، حتى عرفوا بسكان الصحراء ، حتى أن دولتهم التي أسسوها فيما بعد ضمت الصحراء المغربية ، كما أن هوارة البرانس اشتملت على بدو رحل وحضر معاً رغم اشتراكهم في نسب واحد .

وبذلك فإننا نرى أن الفتح العربي لبلاد المغرب قد أضاف أوضاعاً حضارية جديدة إلى السكان البربر استفاد منه البربر من البرانس والبتر معاً ، وأدى هذا الأمر إلى استفادة البربر من الأوضاع الجديدة والتخلي عن أنماط الحياة السابقة لديهم بحيث أن القبيلة الواحدة من البربر قد شملت كل الأنماط الإجتماعية في الغالب . حتى أن عملية الإمتزاج قد تمت بصورة سريعة وشاملة بين كافة قبائل البربر وبين العنصر العربي الجديد ، مما أحدث تغيرات جديدة في بناء البربر الإجتماعي مع الإحتفاظ بالقالب القبلي بحيث أن رجال البربر قد ساهموا منذ البداية مع العرب في عمليات الفتوح خاصة في بلاد الأندلس ، رغم حداثة إسلامهم[2].

ينتمي أيضاً إلى عنصر البربر جماعات الشاوية وهم يقطنون جبال أوراس من جبال أطلس وقبائل الشلوح ، وهم سكان جبال أطلس أيضاً ، كما يمكننا اعتبار جماعات الطوارق أو "الملثمون"[3]، من جماعات البربر ، وهي الجماعات التي مازالت محتفظة ببنائها السابق حتى العصور الحديثة في الصحراء الإفريقية بين موريتانيا والجزائر ومالي . كما يعتبر سكان جزر كناريا في المحيط الأطلسي وسكان الفولاني في غرب إفريقية من أصول بربرية . وكذلك جماعات عديدة من سكان السودان الأوسط والسودان الشرقي أيضاً من خلال هجرات البربر الكبرى أمام غارات بني هلال وبني سليم في أعقاب تحركهم نحو الغرب .

كما شهدت منطقة شمال إفريقية هجرات مستمرة من جماعات اليهود ،

---

(١) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ح ، ص : ٢٧/٢٦ .

(٢) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص : ١٣٥ .

(٣) أطلق العرب على الطوارق اسم الملثمين ، نظراً لاستعمالهم اللثام على وجوه رجالهم ، فلا يحترم أي رجل سافر منهم ، ويتساوى في ذلك السادة والعبيد ، حتى أنهم يرتدون =

والتي بدأت منذ القرن الثالث ق.م ، واستمرت حتى القرن السادس عشر الميلادي ، في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس . وسكنت جماعات اليهود الأولى الأجزاء الداخلية من بلاد المغرب ويسمون أنفسهم باسم "الشيتيم" بينما سكنت العناصر اليهودية الحديثة والتي وفدت إلى الشمال إفريقية من الأندلس ، المدن والجهات الساحلية[1]. وفي ظل الإسلام تمتع اليهود بحرية كبيرة فساهموا بدور واضح في النشاط الإقتصادي في بلاد المغرب .

شهدت منطقة وادي النيل هي الأخرى مع ساحل البحر الأحمر الإفريقي تغيرات عرقية ، خاصة بعد عصر الدولة الحديثة ، حيث بدأت جماعات سياسية في التدفق على وادي النيل والاستقرار في صحراء مصر ووادي النيل ، كما بدأت جماعات يونانية ثم رومانية تستقر في مصر ، خاصة في الشمال ، واختلطت تلك الجماعات بالشعب المصري وانصهرت في بوتقته[2]. كما وفدت على مصر ، منذ القرن العاشر الميلادي هجرات بربرية من كتامة وزويلة وغيرها ، واختلطت تلك الجماعات بالدماء المصرية داخل اسفنجة وادي النيل[3].

وإلى الجنوب من مصر ، وعلى امتداد وادي النيل توجد مجموعات النوبة وهي عناصر استقرت على ضفاف نهر النيل ، وارتبطوا بالنهر منذ القدم ، رغم ضيق الوادي في تلك المواطن من بلادهم ، وعلى امتداد هذا الشريط النيلي الضيق كون النوبيون حضارتهم الشهيرة التي ارتبطت ببيئتهم رغم وجود الرائحة الفرعونية الواضحة في لمساتها . ورغم التأثيرات العرقية إلى غزت المنطقة النوبية إلا أن نسب النوبي مازال واضحاً[4].

= اللثام ليلاً ونهاراً وينامون به ، ولا يرفعون إلا وقت تناول الطعام ، وحتى في هذه الحالة يضع الفرد منهم يده على فمه . واللثام عبارة شريحة طويلة من القماش يلتف حول الفم والأنف حتى العينين ، حيث يوجد به شق يبلغ طوله بوصة لفتحه العين ويلبس لثام أسود والعين لثام أبيض في شمال الصحراء . أما النسوة فتتمتعن بحرية كاملة فلا يقمن بارتداء اللثام ، رغم مخالفتهن للرجال.

(١) الجوهري ، الإنسان والسلالات ، ص : ٣٩٢ .

(٢) محمد ، عوض ، الشعوب والسلالات الإفريقية ، ص : ٣٢٦ .

(٣) الكاشف ، سيدة ، دكتور ، مصر في فجر الإسلام ، ص : ٤٧ .

(٤) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٢٨٤ .

كان الوطن النوبي الأصلي ، على ما يذكر الأثريون ، في شمال كردفان ، ولما تكاثر النوبيون بدأوا في الإنتشار خارج أوطانهم ضمن محيط وادي النيل منذ النصف الثاني من الألف قبل الميلاد ، فتدفقوا نحو الشمال ، حتى وصلوا إلى حدود جيرانهم الليبيين من الغرب والشمال عبر الواحات المصرية ، ودرب الأربعين ، أما الكثرة فقد استقر بها المقام جنوب مصر وجعلت تلك المنطقة مستقراً لها ومقاماً . ورغم إحاطة الصحراء بمواطنهم الجديد من الشرق ومن الغرب ، إلا أنهم تعرضوا لهجات مستمرة من الجنوب ومن الغرب من الجماعات الزنجية . ولذلك فقد عاشت أجيالهم في حالة حرب مستمرة ، وأصبحوا مهرة في فنون القتال . ومن أهم قبائلهم : المحس ، العذيجا في وادي حلفا ، والدناقلة والسكوت[1].

لقد ظل الليبيون لفترات طويلة في التاريخ القديم مصدراً للقلق لحكومات وادي النيل في مصر وبلاد النوبة . ويبدو أن هؤلاء كانو امتداداً لجماعات البربر قدموا من جبال أطلس[2]، وحاولوا عدة مرات غزو مصر والإستقرار في وادي النيل ولكن ملوك مصر كانوا لهم بالمرصاد ، خاصة زمن رمسيس الثاني بعد أن تمكن من صد هجماتهم القوية في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ق.م . لكنهم ظلوا يترقبون فترات الإضطراب والخلل في الإدارة المركزية الفرعونية ، كما اتجهوا إلى شعوب البحر وتحالفوا معهم ضد حكومات وادي النيل خاصة ١٢٢٧ ق.م . وفي النهاية اضطر رمسيس الثالث ١١٨٩ ق.م ، أن يسمح لهم بالإستيطان في منطقة الدلتا رغم انتصاره العسكري عليهم غرب منف . فنزلت آلاف منهم في دلتا مصر ثم انتشروا في البلاد فيما بعد[3].

ويبدو أن العنصر الليبي تمكن من بسط سيادته على المنطقة الممتدة من حدود بلاد المغرب الأدنى حتى دلتا مصر ، وتمكن من فرض نفوذه من خلال قوته العسكرية فتوغل في وادي النيل إلى مصر الوسطى ، وساد هذا العنصر لفترة زمنية على مصر خاصة في الشمال والوسط وظهر نتيجة ذلك تحول في لون الحضارة الفرعونية في تلك الفترة . كما ظهر من بينهم زعيم حاكم يسمى شيشنق الأول Sheshongi الذي أسس الأسرة الثانية والعشرين الليبية في مصر في حوالي سنة

---

(١) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٣٠٢ .

(٢) بدليل تشابه اسماء قوادهم مع أسماء النوميديين الواردة في تاريخ نوميديا القديم ، بالمغرب الأوسط .

(٣) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ١ ، ص : ٧١ .

٩٥٠ق.م، حيث ظهر حكام الأسرة كرجال حرب وغزو خلافاً لسيرة الفراعنة من قبل[١]. وهم الذين ذكروا في النصوص الفرعونية باسم "تهينو Tehenou" وبذلك زادت عمليات الانصهار بين العناصر الإفريقية في الشمال . في بوتقته دلتا نهر النيل .

وعلى حافات البحر الأحمر من الجهة الإفريقية عاشت عناصر مستقلة في خصائصها العرقية هم "البجة" والتي تمتد أوطانهم من مصر حتى الحبشة عبر أراضي السودان . وينقسم البجة إلى جماعات عديدة أهمها : العبابدة والبشاريون والهدندوة وجماعات بني عامر على حدود أريتريا . ورغم انتشار اللغة العربية بينهم بعد ظهور الإسلام إلا أن لهم لغتهم الحامية المسماة "البتداوي"[٢].

اتصل البجة منذ القدم مع المصريين منذ العصر الفرعوني والبطلمي كما اختلطوا بالأحباش ، جنوب مواطنهم ، خاصة وأن دولة أكسوم قد بسطت سيطرتها لفترة طويلة على مواطنهم الجنوبية ، كما احتكوا بالنوبيين . ونظراً لاتصالهم بالبحر الأحمر فقد أصبح اختلاطهم بالعرب أمراً جلياً عبر مياه بحر الأحمر ، أو من خلال وفود قبائل عربية وجماعات تجار عبر باب المندب إلى وادي النيل ، بحيث أنهم تحولوا إلى الإسلام ولغته بصورة عامة .

وإلى الجنوب من البحر الأحمر توجد منطقة الحبشة ، التي تعد من أعقد مناطق القارة الإفريقية من الناحية العرقية ، بسبب اتصالاتها وموقعها بين الجماعات السامية ، والعربية خاصة ، والحامية والزنجية . بحيث أن انتشار اللغة الأمهرية تعبر حداً ثقافياً للبقاع التي شهدت الغزو والتأثير السامي القادم من شبه الجزيرة العربية[٣]، عبر باب المندب منذ القدم .

خضعت الحبشة أيضاً لتأثيرات جماعات اليهود[٤]، والصوماليين والجالا[٥]،

---

(١) فخري ، أحمد ، دكتور ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، الانجلو المصرية . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ص : ٤٦ .

(٢) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٢٤٤ .

(٣) محسن ، على ، من لهجات مهرة وآدابها ، ص : ٥٤ ومابعدها .

(٤) عرفو عند الأحباش باسم الفلاشا . أى الغرباء .

(٥) جماعات سكنت أعالي النيل الأزرق ومدت نفوذها حتى الحبشة .

وتعد العناصر الحبشة أكثر الجماعات الإفريقية تأثيراً في تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام [1] كما شهدت الهضبة الحبشية ووادي النيل استقرار جماعات عربية استمرت في تقدمها حتى وصلت إلى جنوب مصر[2].

* * *

وإلى الجنوب من الشمال الإفريقي تمتد الصحراء الإفريقية الكبرى ، وقد احتضنت تلك الصحراء هي الأخرى جماعاتها العرقية المميزة داخل رمالها ، لها عاداتها وظروفها رغم أن الإسلام قد انتشر بينها وهذب من سلوكها . فبجانب قبائل حسان التي تعيش على الأطراف الشمالية للصحراء ، والتي كان لها دور في تعريب البربر ونشر الإسلام بينها توجد في الواحات الجماعات التالية :

١ - قبائل الطوارق : التي يبدو أنها اتجهت إلى التكيف مع الصحراء في بداية العصور الميلادية وواصلوا تحركهم جنوباً حتى وصلوا إلى أعالي نهر النيجر وشكلوا خطراً على ممالك السودان الغربي زمن غانة وصنغي ، وأصبحوا قوة في أحداث تلك المنطقة منذ القرن السادس عشر الميلادي . ويتركزون بمنطقة الهكار وفي ايرAir ويلتزمون بالنظام القبلي ، لكل قبيلة زعيم أو شيخ يدعى "أمانوكال" . ولكل قبيلة بعض الأرقاء والأتباع يعملون في رعي قطعان ساداتهم . كما يوجد مجموعات من الزنوج للعمل الصناعات الحرفية مثل النجارة والحدادة . ولغتهم تسمى "التاماشيك Tamachek" وهي لهجة بربرية أما لهجة "التيفناغ Tfinagh" فتنتشر بين عدد كبير منهم . وبسبب اعتمادهم على الغزو فإنهم في سبيلهم إلى الانقراض[3].

٢ - قبائل التوبو Toubou والتي تستقر في وسط الصحراء في منطقة أير Air والسهول المجاورة التي تمتد من فزان شمالاً وحتى بحيرة تشاد جنوباً . وتنقسم إلى مجموعتين : التدا في الشمال والدازا في الجنوب . وبسبب امتداد أطان التوبو لمساحات وأقاليم صحراوية شاسعة تتنوع فيها التضاريس من هضاب .

وجبال وأودية وواحات وصحراء ، بالإضافة إلى عيشتهم في منطقة قارية

---

(١) علي ، جواد ، دكتور ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٣، ص : ٥١١ .

(٢) مسعد ، مصطفى ، دكتور ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص : ٧٨ .

(٣) قداح ، نعيم ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقية الغربية ، بيروت ، ص : ٢٥ .

الأمر الذي أدى إلى تنوع الأنشطة بالنسبة لهم وتنوع أوطانهم ، مع التطرف في مناخ تلك المنطقة من برد قارس وحر شديد . فعملوا في التجارة والرعي والزراعة ، بحيث يمتلك الفرد منهم عدة حقول في مناطق متنوعة . وتستمر هجراتهم الفصلية حتى حدود بحيرة تشاد ، ما أدى إلى اختلاطهم بالزنوج . كما احتكوا بصورة مستمرة مع جماعات الطوارق خاصة جهة الغرب .

استطاعت جماعات التوبو أن تعطى لسكان منطقة بحيرة تشاد من بلاد كانم قوتها العسكرية خاصة في نهاية العصور الإسلامية . واختلطوا بالعناصر الزنجية ، مما أدى إلى قيام ممالك جديدة جنوب الصحراء تحمل دماء وأعراق جديدة مختلطة . بحيث أصبحت المجموعة النشادية العرقية تتألف من اختلاط هائل بين الزنوج والتوبو مع العرب بالإضافة إلى عناصر أخرى[١].

* * *

وبالنسبة لحزام السافانا الذي يطلق عليه اسم "السودان"[٢]، فقد انتشرت فيه الجماعات العرقية التالية : (من الغرب إلى الشرق وهي جماعات يغلب عليها العنصر الزنجي)

١ - شعب الولوف Oulouf/Walaf المنتشر في حوض السنغال . ويميز هذا الشعب الطويلة وشعره الأسود الفاحم وذكائه المتوقد ، وقد اختلط مع البربر ومع العرب ولذلك فقد وصل إلى مستويات حضارية راقية منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، وينقسم إلي شعب السرير Srrer الذي يستقر إلى الجنوب منه سواحل المحيط الأطلسي[٣].

٢ - أما شعب التكرور فيستقر في شمال حوض السنغال الأسفل ، وقد عرفت المنطقة الواسعة في غرب السودان باسم هذا الشعب نظراً لنشاطه ودوره وكان يسيطر على ضفتي نهر السنغال حتى تمكن البربر من طرده من جهة الشمال ، ثم مد نفوذه ونشاطه حتى بلاد النيجر ، ونشروا لغتهم بين قطاعات كبيرة من سكان

---

(١) قداح ، المرجع السابق ، ص : ١٩ .

(٢) هو الحزام الذي ينحصر في قارة إفريقية بين الصحراء شمالاً والغابات المدارية والإستوائية جنوباً . ونسب إلى لون وبشرة السكان .

(٣) محمد ، عوض ، الشعوب والسلالات ، ص : ٥٢ ومابعدها .

منطقة غرب السودان[1]. ويشكل جماعات الولوف والتكرور البنية السكانية الأساسية لشعب السنغال وغمبيا الحالية[2].

٣ - شعب الماندجو"أو الماند" الذي ينتشر من منطقة السنغال الأعلى صوب الشرق حول حوض النيجر وفروعه . ويعد هذا الشعب من أهم الشعوب تأثيراً في تاريخ غرب إفريقية ، وعلى جهودهم قامت دولة مالي الإسلامية القوية في غرب السودان . وارتبط هذا الشعب بدوره كوسيط تجاري بين شعوب الصحراء الإفريقية وشمالها ، وبين الجماعات الزنجية في غابات إفريقية ، ولذلك فقد ارتبط بالتجارة والثراء حتى أنهم سيطروا على تجارة غرب السودان لفترة تاريخية طويلة ، وترتب على ذلك انتشار لغتهم بين شعوب عديدة من غرب السودان[3].

ويسود هذا الشعب مناطقة واسعة غمبيا وغينيا ومالي وسيراليون وليبيريا وساحل العاج . ويندرج ضمن فروعه فرع السونينكة Soninka واختلط هذا الفرع بدماء بربرية مثل شعب البولا والبامبارة Bambar وانتشر هذا الفرع في وادي النيجر . وينتمي رليهم أيضاً جماعات الديالونكي الذين يعملون في زراعة جوز الكولا . كما أن الشعب الصوصو والديولا يتبع المانجو أيضاً . وبذلك تتلقى عدة فروع في غرب السودان ضمن شعب الماندنجو[4].

٤ - شعب الهوسا "الحوصة Haoussa" وانتشر هذا الشعب في شرق وادي النيجر[5]، وكان له أكبر الأثر في تاريخ النيجر وشعوب ، بما قدمه من وساطة

---

(١) قداح ، المرجع السابق ، ص : ١٨ .

(٢) توجد في منطقة السنغال وغمبيا أكثر من ١٣ لهجة أو لغة ، بسبب تنوع القبائل والشعوب ، وتأتي لغة الولوف في المقدمة ويشكلون حالياً نصف سكان المنطقة ، ويتحرك بلغتهم حالياً حوالي ٩٠٪ من السكان ، وتأتي بعدها لغة التكرور . وكانت تكتب تلك اللغات بحروف عربية ، إلا أن بعد الإستقلال ١٩٦٠م ، قرر الرئيس السنغال ليوبول سنجور أن تكتب حروف لغة الولوف بحروف لاتينية . ورغم ذلك مازالت لغات السنغال وغمبيا تحتوي على أكثر من ٢٥٪ مفرداتها ترجع إلى اللغة العربية . مجلة العربي ، العدد : ٤٣٦ ، مارس ١٩٩٥ .

(٣) قداح ، المرجع السابق ، ص : ١٩ .

(٤) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٥٩ ومابعدها .

(٥) قداح ، المرجع السابق ، ص : ١٩ .

حضارية بين حضارات غرب السودان الأوسط عبر مدنة التجارية .

مثل سوكوتو وكاتسينا وكانو وزاريا[1]. ويسطر رجال الهوسا على مساحات واسعة من الصحراء وفرضوا نفوذهم التجاري ولغتهم حتى بحيرة تشاد . بل وصل نفوذ تجارهم حتى القاهرة والحجاز والشام والقسطنطينية . ولذلك فقد خالطوا دماء بربرية عربية ، فأصبحت لغتهم تكتب بحروف عربية[2].

٥ - جماعات زنجية خالصة في غرب السودان : مثل جماعات الكوا Kwa التي تختلط بها شعب الكرو Kru والينوب ، والأكان ، وشعوب اليوربا ، والأشانتي وقبائل داهومي . كما توجد قبائل التيف Tiv بين شعوب الهوسا وشعوب والفولاني في الغرب[3].

٦ - الفولاني : ظهرت شخصيته في نهاية العصور الوسطى كأقوى شعوب غرب القارة بعد ضعف الشعوب الأخرى . وتظهر فيه الملامح الحامية والبربرية . وقام هذا الشعب بعمليات غزو مستمرة لشعوب ودويلات غرب السودان ولبسط نفوذه على مساحات واسعة حتى السودان الأوسط . وكان عائقاً أمام تقدم الأوروبيين في جهات إفريقية الغربية . ومازالت لغتهم تمثل اللغة الثانية في منطقة السنغال بعد لغة الولوف .

٧ - البوهل : ينتمي إلى مجموعة الشعوب الحامية التي هاجرت إلى السودان عبر الصحراء ويبدو أنهم استقروا لفترات في منطقة برقة الليبية ومنطقة تومبكتو ، حتى استقر بهم المقام في السودان الغربي ، لقد ظهرت بينهم الصفات الزنجية ، وبدأوا في الإنتشار في السودان الغربي والأوسط ، وتمتد أوطانهم من السنغال غرباً وحتى السودان الأوسط ، واستفردا في مواطن كثيرة بين الزنوج واختلطوا بهم[4].

* * *

وإلى الجنوب من نطاق السافانا فإننا نجد مجموعات زنجية داخل نطاق الغابات المدارية والإستوائية أو على حافاتها واختلطت تلك الشعوب بشعوب بلاد

---

(١) سنقدم دراسة مفصلة عن إمارات الهوسا في الفصول القادمة من هذا الكتاب .

(٢) قداح ، المرجع السابق .

(٣) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٣٣٧ . (٤) قداح ، المرجع السابق ، ص : ٢١ .

السودان الغربي والأوسط ، بسبب أهمية ثرواتها الطبيعية من الذهب والجلود العاج والحيوانات وغير ذلك . ومن تلك الشعوب ما يلي :

١ - شعب الموشي Mossy الذي يستقر في منطقة الفولتا من الشمال وحتى الغابات جنوباً ويلحق بهذا الشعب أعداد كبيرة من الشعوب الزنجية الوثنية التي ظلت على وضعها المتردي حضارياً حتى العصور الحديثة . وقد سبب شعب الموسي كثيراً من المشاكل لممالك مالي وصنغي والهوسا بسبب اعتداءاته المتكررة على مناطق ومدن السودان الغربي التي وصلت إلى مستويات حضارية راقية بالإضافة إلى تحكمه في كثير من مناجم الذهب[١].

ومن الشعوب التابعة للموشي شعب الهابة Habbe في جنوب مالي . وشعب البوبو Bobo في شمال ساحل العاج والفولتا العليا . بالإضافة إلى جماعات السينوفو Senufo ، واللوبي Lobi ، والكوروما Gourumaإلى الشمال من داهومي[٢].

٢ - شعب الكرو المنتشر في ساحل العاج وساحل الكاميرون وليبيريا ويتميز بالقامة القصيرة والصنعات الزنجية الخالصة .

٣ - الأشانتي Ashanti والفون وهي التي تستقر جنوب نطاق السافانا وكان لها دور هام في تجارة الرقيق حتى العصور الحديثة[٣].

٤ - كما توجد جماعات المانجبوتو على حدود الكونغو .

* * *

وتعد قبائل البانتو[٤]، أكثر القبائل الإفريقية الزنجية انتشاراً في القارة جنوب خط الإستواء ، ولذلك فقد قسم الباحثون البانتو إلى ثلاثة أقسام رئيسة حسب أوطانهم وهم :

---

(١) طرخان ، إبراهيم ، دكتور ، مملكة مالي الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص : ١٥٩ .

(٢) قداح ، المرجع السابق ، ص : ٢٣ . (٣) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٣٣٧ .

(٤) كانوا أكثر الجماعات والشعوب الإفريقية احتكاكاً بالهجرات العربية والإسلامية المتجهة إلى شرق إفريقية على طول ساحلها من الشمال إلى الجنوب .

١ - البانتو الجنوبيون :

تمتد أوطانهم من مصب نهر الزمبيزي إلى مصب نهر كورينتي على المحيط الأطلسي[١]. وبذلك تمثل أوطانهم معظم دول جنوب القارة من النصف الجنوبي من موزمبيق ثم روديسيا الجنوبية بالإضافة إلى دولة جنوب إفريقية ، برغم من وجود مستوطنين جدد بينهم من أوروبيين وهنود ، في الوقت الحاضر ، ولكن مازالت نسبتهم تصل إلى أكثر من ٨٥٪ في تلك المناطق[٢].

وتضم جماعات البانتو الجنوبيين مجموعات أربعة داخلها هي :

(أ) شعب الشونا Shona المنتشر في روديسيا الجنوبية وموزمبيق ، ويتكون من قبائل عديدة . كانت لهم حضارة مزدهرة في العصور القديمة والوسطى حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد . وتوفرت في مواطنهم مناجم النحاس والحديد والذهب ولذلك كانت تلك المناطق أهمية في تجارة إفريقية الخارجية[٣]. حتى أن مدينة سفالة أصبحت ميناء هاماً في تجارة المحيط الهندي على اعتبار أنها منفذ لحوض نهر الزمبيزي ومنطقة موزمبيق . وظلت هي الميناء الوحيد لتصدير الذهب الإفريقي حتى بعد قدوم البرتغاليين[٤].

وتدل آثار هذا الشعب الخالدة في منطقة روديسيا فيما بين نهري الزمبيزي واللمبوبو Linpopo ، التي اكتشفها آدم رندرز Adam Remders ١٨٧١م ، على أن هناك حضارة راقية قبل الميلاد ، حيث كانت تصل إليهم سفن العرب لحمل الذهب من أوفير[٥]. وكانت سلع حضارة روديسيا سبباً من أسباب شهرة أهل اليمن في تجارة العالم القديم ، حيث استقرت جاليات يمنية على هذا الساحل لتأمين حمل تلك السلع إلى بلادهم .

---

(١) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٧١ .

(٢) محمد ، عوض ، المرجع نفسه ، ص : ٨٦ .

(٣) Brimingham & Marks, Southern Africa, P. : 586.

(٤) الحويري ، محمود ، دكتور ، ساحل شرق إفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي ، ص : ١٢٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

(٥) حوراني ، جورج ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص : ١٢٨/١٢٧ ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، مراجعة د. يحيى الخشاب .
ومازالت الدراسات مختلفة حول تحديد موقع أوفير .

(ب) القسم الثاني من البانتو الجنوبيين هم شعوب : النجوني Naguni، والتسونجا Tasonga ، والسوزاى ، وشعب الزولو Zulu . ويعد شعب الزولو من أشهر شعوب وجماعات هذا القسم ، بسبب ظهور شخصية هامة من بينهم يدعى شاكا ، تمكن هذا الزعيم من غزو المناطق المجاورة وقام بتوسيع حدود ومواطن شعبه خاصة صوب الجنوب ، حتى أصبح الزولو وجهاً لوجه أمام زحف المستوطنين الجدد من الأوروبيين لتلك المناطق ، خاصة الهولنديين (البوير) والانجليز[١].

(جـ) أما القسم الثالث من البانتو الجنوبيين فهم جماعات الفندا Venda والسوتو Sotho وجماعات نجراتو وتوانا .

(د) وفي الجنوب الغربي لإفريقية توجد جماعات الهريرو Hereo ، وهي تمثل القسم الرابع من البانتو الجنوبيين . ومع ذلك تلك الجماعات في أغلبها ترتبط بحرفها القديمة والمتمثلة بالرعي والزراعة البدائية ، بالإضافة إلى الصيد والجمع لتوفير حاجياتهم . وتنتشر بينهم العقائد الوثنية البدائية . ومع ذلك فالقبيلة هي البناء الإجتماعي الأساسي عندهم[٢].

٢ - البانتو الغربيون :

ويمتد أوطانهم من الكاميرون شمالاً حتى روديسيا وناميبيا جنوباً . وتمثل أوطانهم الأراضي المطلة على المحيط الأطلسي والغابات الكثيرة . وكانت تلك المواطن غنية بثرواتها الطبيعية ، وقد دلت الآثار على وجود حضارة قديمة في تلك المواطن حيث قامت دويلات مثل لندا Lunda .كما ظهرت في منطقة نهر الكونغو دولة بوشنجو Bushungo التي أسستها قبيلة مبالي . حيث كانت تتمتع بنظمها الإدارية والقضائية والتشريعية المستقلة بالإضافة إلى وجود قوة عسكرية كافية لحمايتها[٣]. وقد لاحظ ذلك العديد من الرحالة الأجانب الذين وصلوا إلى تلك المناطق في العصور الوسطى والحديثة .

وتعد جماعات الفانج Fanig آخر جماعات البانتو الغربيين صوب الشمال ، حتى تتداخل أوطانهم مع قبائل الفولاني في غرب إفريقية .

---

(١) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٨٦ .

(٢) الجوهري ، الإنسان وسلالاته ، ص : ٤٣٢ .

(٣) الجوهري ، المرجع نفسه ، ص : ٤٣٨ .

٣ - البانتو الشرقيون[١]:

وهم أعقد جماعات البانتو دراسة بسبب امتداد أوطانهم لمساحات كبيرة وكثرت الإحتكاكات بينهم وبين الأمم الأخرى في داخل القارة وخارجها[٢]، ولذلك فقد قسمنا مواطنهم إلى ثلاثة أقسام لتحديد شعوب كل قسم منهم كما يلي :

(أ) المنطقة الشمالية : التي تمتد بين البحيرات الإفريقية وجنوب منابع وادي النيل وتعد تلك المنطقة من أكثر مناطق القارة الإفريقية تعرضاً لغزو وتسلل الجماعات الأجنبية منذ القدم ، ورغم تباينها إلا أن المنطقة تتمتع بتجانس ثقافي . ومن أشهر جماعات البانتو بها باجشو ، وباينولي ، وباسميد .

(ب) المنطقة الوسطى : تعيش جماعات الكيكويو Kikuyo التي تنتشر على مرتفعات كينيا ، وقبائل الكامبا إلى الجنوب منها ، وقبائل الجاندا Ganda ، وقبائل البوجندا في دولة أوغندا . والشاجا Chagga في مرتفعات كليمانجارو . أما في منطقة تنزانيا فتنتشر قبائل الجوجو Gogo ، والتورو النيامويزي ، والإيراكو[٣].

وعلى الساحل الشرقي للقارة توجد قبائل شينيانجا Chinyanja ، وجماعات المارفي Marevi التي تمتد أوطانهم حتى بحيرة نياسا . وقبائل البيسا Bisa ، واللالا Lala ، وجماعات الوزي في الزمبيزي الأوسط، وكذلك الباروتسي Barotse .

أما جماعات التوتسي Tutsi والهوتو Hutu فينتشرون في منطقة أعالي نهر كاجيرا في منطقة رواندا وبورندي . وتشكل جماعات التوتسي رغم قلة عددها ارستقراطية في المنطقة ، في مقابل أغلبية من الهوتو (٨٠٪)[٤].

(جـ) أما المجموعات الجنوبية من البانتو الشرقيين فهي شعوب التشاجا التي تعيش بجوار كليمانجارو على الحدود الشمالية لتنزانيا . وكذلك قبائل النجوتي التي تشمل فئات عديدة من جماعات متناثرة ومنتشرة بين جبال داركنزبرج وساحل المحيط الهندي . ويجاور تلك المجموعات من جهة الغرب جماعات البوشمن

---

(١) تنتشر حالياً في أوغندا وكينيا وبورندي ورواندا وزامبيا وتنزانيا وملاوي وبعض مناطق شرق القارة الإفريقية .

(٢) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ٨٩ .

(٣) محمد ، عوض ، المرجع نفسه ، ص : ٩٠ .

(٤) الجوهري ، المرجع السابق ، ص : ٤٤٠ .

والهوتنتوت[1]. وهي جماعات مازالت تعيش في مرحلة بدائية ، وهي مرحلة الجمع والصيد[2]. وتعيش غالبيتها في انجولا حالياً . كما توجد قبائل الأناما Nama وكورانا Korana في الكيب ، إلى الجنوب من جماعات البانتو الشرقيون .

وإلى الشمال من جماعات البانتو ، تعيش جماعات النيليين في المنطقة الممتدة من بحيرة فكتوريا جنوباً وحتى الخرطوم شمالاً . وتشمل جماعات النيليين ثلاث مجموعات هي :

١ - المجموعة الشمالية : الدنكا والنوير والشلك في السودان .
٢ - المجموعة الوسطى : وهي الأشولي في أوغندا والألوار واللانجو .
٣ - المجموعة الجنوبية : وهي جماعات اللو .

ومازالت تلك المجموعات تحتفظ بعيشتها البدائية ونمطها القديم الوثني في أغلب مناطقها[3].

وبسبب الموقع والأهمية والحضارية أصبحت جماعات البانتو الشرقيين هم أكثر الأمم الإفريقية ، جنوب خط الإستواء ، رقياً وتطوراً ، حيث اختلطوا بصورة مستمرة بالأمم والشعوب التي قدمت إلى أوطانهم من العرب والفرس والهنود وغيرهم . ونتج عن هذا ظهور لغة جديدة علي ساحلهم تسمى اللغة السواحلية[4]. التي تعتمد أساساً علي لغة البانتو والتي أصبحت الرباط القومي الذي يضم مناطق

---

(١) الجوهري ، المرجع السابق ، ص : ٤٤٦ .

(٢) وهي جماعات في طريقها إلى الإنقراض ، بسبب عزلتها الطويلة .

(٣) محمد ، عوض ، المرجع السابق ، ص : ١٤٧ ومابعدها .

(٤) هي اللغة التي نشأت على ساحل إفريقية الشرقية منذ البداية العصور الوسطى ، نتيجة الإتصال والهجرات المستمرة من منطقة شعب الجزيرة العربية والخليج العربي إلى تلك الأوطان التي يسكنها البانتو . ويعتقد أنها في الأصل بنيت على أصول لغة قبيلة جرياما Gir-yama ، التي تعيش إلى الشمال من ممباسا حيث تم الإتصال المبكر مع الهجرات والجماعات العربية . وأخذت تلك اللغة تنتشر شيئاً فشيئاً نحو الشمال ونحو الجنوب وصوب الداخل . وتعد اللغة السواحلية من أهم اللغات التي تمكنت من إبراز الوحدة الثقافية الحضارية لمنطقة شرق القارة في ظل التباين السياسي والعرقي ، حيث تمكنت تلك اللغة من جمع ترات تلك المنطقة . وتعد اللغة الأساسية في مجال الدراسات الإفريقية . وتمثل على عدد كبير من المصطلحات العربية بالإضافة إلى دخول كلمات أوروبية بها حديثاً .

وشعوب البانتو في شرق القارة ، حيث أصبحت لغة التعامل اليومي والمعاملات والثقافة بين شعوب وقبائل البانتو وغيرها من الجماعات الوافدة التي نزلت أرضها وعلى سواحلها وجزرها . وانزوت أمامها لغات كالانكولي والسكاما والبمبا والتونجا بالإضافة إلى اللغات الفرعية العديدة . ففي زاير وحدها يوجد ما يزيد عن ٤٠ لغة فرعية ، وأربع لغات رئيسية . وفي تنزانيا في الشرق يوجد أكثر من ١٠٠ لهجة ولغة[١]. بل توجد داخل المدينة الواحدة في بعض الأحيان أكثر من ثلاثين لغة . الأمر الذي يعطى أهمية خاصة للغة السواحلية ، من أجل دمج الجزر اللغوية والثقافية المتناثرت في إفريقية[٢].

* * *

وتعد منطقة جنوب إفريقية ذات أوضاع عرقية خاصة بالنسبة للقارة . ذلك لأنها شهدت تطورات حديثة منذ العصور التاريخية الحديثة ، بسبب أهميتها علي خطوط المواصلات الحديثة ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بها ، منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، فاستقرت بها جماعات أوروبية ، خاصة وأن مناخها وظروفها البيئية أقرب إلى الوسط البني لأوروبا . فقد وصلتها مجموعة من المستوطنين الإنجليز ١٦٥٢م . لتأسيس محطة إمداد وتموين للسفن الإنجليزية العاملة في المحيط الهندي بعد تزايد المصالح البريطانية هناك في أعقاب تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية ١٦٠٠م . والتي اتخذت من بومباي بغرب الهند مركزا لها . ومنذ ذلك الحين تدفقت الجماعات الأوروبية للاستقرار في المنطقة من هولنديين وفرنسيين وألمان وانجليز .

وفي نهاية القرن الثامن عشر اضطرت الجماعات الأوروبية إلى الإستقلال بأقاليم خاصة لكل جماعة بعد ظهور النزاعات بينها ، فانسحب المستوطنون الأوائل من البوير "أي الفلاحين" غالبتهم من أصل هولندي ، إلى الاتجاه صوب الداخل ، واحتلال الأجزاء الشرقية من هضبة جنوب إفريقية على حساب جماعات البانتو

---

(١) تعد إفريقية من أشد مناطق العالم تعقيداً من الناحية اللغوية . وتقدر خريطة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن عدد اللغات الإفريقية بحوالي ١٥٠٠ لغة فضلاً عن اللغات الأوروبية الحديثة التي دخلت القارة .

(٢) سعودي ، محمد عبد الغني ، دكتور ، قضايا إفريقية ، ص : ١٣٥ ، ١٣٩ . الكويت ١٩٨٠ .

من السكان الأصليين ، وأسسوا مقاطعتى أورانج الحرة والترنسفال بينما استقرت الجماعات الإنجليزية ، بتشجيع من حكومتها في الأجزاء الخصبة في الشرق لمستعمرة الكاب وإقليم الباني Albany . كما تدفقت جماعات إنجليزية إلي إقليم ناتال[1]. وبدأ الإنجليز في التدفق أيضاً صوب الداخل .

ظهر الصراع بين الجماعات الأوروبية في القرن التاسع عشر ١٨٦٧م . بسبب ظهور الذهب في إقليم الترنسفال ، والماس في كمبرلي ونشبت الحرب الطاحنة بينهم وهي التي عرفت باسم "حرب البوير" والتي انتهت بهزيمة البوير . وفي ١٩١٠م .أغلبت بريطانيا قيام اتحاد جنوب إفريقية تحت التاج البريطاني ، لكن الاتحاد انسحب من الكومنولث البريطاني ١٩٦١م . وأعلن استقلاله وقيام جمهورية جنوب إفريقية المستقلة .

انعكست تلك التطورات على الأوضاع العرقية والثقافية في جنوب إفريقية وأصبحت المنطقة تضم أنواع عديدة من المستوطنين الوافدين من مناطق إفريقية بعيدة ومن الهند ومن الأوروبيين . فالنسبة للأوروبيين فهم قسمان هما :

١ - البوير : ويتحدثون لغة تسمى الأفريكانز Afrikans ، يتحدث بها حوالي : ٦٪ من الأوروبيين . وهي مبنية على أصول لغوية هولندية . ومعترف بها رسمياً .

٢ - بقية الأوروبيين : يتحدوث اللغة الإنجليزية ، وهي السائدة في الدولة[2].

وبالنسبة لجماعات البانتو من الزولو والإكسواز والسوتو والتسوانا ، فقد ظلت لهم لغاتهم الخاصة ومناطقهم وإنه كانت في الغالب مناطق فقيرة[3]. خاصة وأن أفراد قبيلة الهوتنتوت قد فرت إلى الصحراء كلهاري وناميبيا ، بعد سياسة العنف والقسوة التي اتبعها الجماعات الهولندية تجاهها .

---

(١) أبوعيانة ، فتحي ، الجغرافية الإقليمية ، ص : ٥٢٠ .

(٢) أبوعيانة ، المرجع السابق ، ص : ٤٥٦ .

(٣) يبلغ عدد السكان الدولة حالياً حوالي٤٠ مليون نسمة . تبلغ نسبة المسحيين بينهم حوالي ٨٥٪ ، بينما يبلغ عدد المسلمين حوالي نصف مليون فقط ، معظمهم من أصل آسيوي . خاصة من شبه القارة الهندية .

ظهر عنصر آسيوي جديد في جنوب القارة ، خاصة في منطقة كيب تاون ، وهو العنصر الماليزي ، القادم من جنوب شرق آسيا ، وقد حافظ هذا العنصر على هويته الإسلامية وثقافته الآسيوية ، وأصبحوا رمزاً للوجود الإسلامي بها . كما وفدت جماعات هندية سواء للعمل في مزارع البيض أو في ظل اتحاد الكومنولث البريطاني ، وتركزوا في إقليم ناتال والمدن الرئيسية مثل بورت اليزابيت وجوهانسبرج .

وبدأت شعوب البانتو تعاني من سياسة العزل والإضطهاد من جانب حكومة جنوب إفريقية ، حيث وضعوا في معازل حكومية تعرف باسم "إدارة البانتو"[1]. وبدأت الدولة في تطبيق التفرقة العنصرية والفصل العنصري Apartheid ، كما ظهرت توجهات لإقامة دويلات سياسه للبانتو مثل : بانتوستان ، الترانسكاى ، لكن تلك السياسة أثارت حفيظ المجتمع الدولي ومؤسسات العالمية والإقليمية ، فاتضح أن البض لايمثلون سوى ١٧.٥٪ من السكان بينما يشكل البانتو حوالي ٨٠٪ من سكان الدولة . وانتهى الأمر في النهاية إلى إلغاء تلك السياسات ، بل أجرت الحكومة انتخابات حرة ١٩٩٣م ، أتت بأحد الملونين وهو نيلسون مانديلا ليكون أول رئيس إفريقي للدولة .

---

(١) أبوعيانة ، المرجع السابق .

(٣)

الإقتصـــاد

يختلف الوضع الإقتصادي للقارة الإفريقية ، ودورها في التجارة العالمية حالياً عن أوضاعها ودورها في العصور القديمة . ذلك أن وقوع الإنقلاب الصناعي في أوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادي ، جعل من القارة الإفريقية مخزناً للمواد الخام اللازمة لمصانعها ، وسوقاً لتصريف منتجاتها ، وظهرت نظريات إقتصادية جديدة في أوروبا تنادي دولها بأن قوة الدولة يمكن فيما تمتلكه من مستعمرات وأراضي واسعة[١]. ولذلك ظلت القارة الإفريقية منذ العصور الحديثة نهبا بين الدول الأوروبية ، التي أبقت على أوضاع القارة المتردية والبدائية ، بل زادت في معاناة شعوبها وافسدت مجالهم البيئي الطبيعي[٢]. فلم يعد الإفريقي قادراً حتى داخل قارته من ممارسة أنشطته البدائية مثل حرفة الجمع والصيد والقنص وغيرها بعد انتشار الأسلحة الحديثة والتركيز على أنواع معينة من الحيوانات في عمليات الصيد من أجل الإنتفاع بمخلفاتها .

أما الدور الإفريقي في مجال التجارة العالمية في العصور القديمة والوسطى فقد كان دوراً إيجابياً فعالاً على المستوى العالمي ، ذلك أنها قدمت للمدنيات المجاورة لها في الهند والعراق وفارس وشبه الجزيرة العربية وحوض البحر المتوسط ، ما تحتاجه من السلع والمنتجات المدارية والإستوائية والغابية[٣]، وغيرها من السلع

---

(١) شقير ، لبيب ، دكتور ، تاريخ الفكر الإقتصادي ، القاهرة ، ص : ٢٤٢ . لوفران ، تاريخ التجارة ، ص : ١٤ .

(٢) أدى انتشار الأسلحة النارية في القارة على أيد الأوروبيين إلى استخدامها بنطاق واسع في عمليات الصيد من قبل الجماعات الإفريقية ، فانقرضت حيوانات معينة مما أضر بالمجال الحيوي في القارة . فمثلاً أدى اصطياد التماسيح بكثرة من أعالي النيل للحصول على جلودها ، إلى ظهور أنواع معينة من الأسماك السفاحة . وهذه الأنواع من الأسماك تتغذي على الأسماك الأخرى التي يعتمد عليها السكان في غذائهم . وكانت التماسيح تتعقب تلك الأسماك السفاحة . كما أدى قلة أعداد الفهود إلى زيادة نسبة النسانيس والخنزير البري في الغابات والمراعي .

(٣) Miller, J. the Spice Trade of Roman Empire , P. : 114 .

وفي المقابل حصل الأفارقة على ما يحتاجون من المواد الخام والصناعات اللازمة لهم من العالم الخارجي ، وظهرت مدينات متقدمة في القارة الإفريقية ، خاصة في العصور الإسلامي ، وصلت إلى مراحل متقدمة عن نظيراتها في القارة الأوروبية المعاصرة لها في تلك الفترة . ووصل الأمر إلى ظهور شبكة من الطرق العالمية عبر الصحراء الإفريقية لربط تلك الحضارات الإفريقية بالقوى المعاصرة لها[1].

وظهر التأثير الإقتصادي الإفريقي في الإقتصاد العالمي بارتباط حركة الذهب وتأمين مصادره على قارة إفريقية أكثر من غيرها . فلجأت حكومات العصور الوسطى إلى تأمين أرصدتها بالذهب دون غيره من المعادن ، وأصبح ضرب العملة الذهبية علامة على الاستقلال الإقتصادي ودرجة نقاوة العملة علامة أخرى على الرخاء الإقتصادي ، فنشطت قوافل التجارة لحمل هذه السلعة من إفريقية[2].

وكان تحكم المسلمين في تجارة الذهب الدولية في العصور الوسطى عاملاً من عوامل قوتهم الإقتصادية ، ذلك أنهم وضعوا أيديهم على طرق تجارة قوافل الذهب الإفريقي . سواء القادمة من غرب القارة جنوب الصحراء ، أو من بلاد النوبة والسودان الشرقي وكذلك من شرق القارة . وأصبح تدفق الذهب من مناجمه مرتبطاً بالتاجر المسلم رغم أن عمليات الإنتاج داخل المناجم كانت تتم بيد أهل منطقتها وفي صورة سرية خوفاً من وصول الأطماع الخارجية إلى تلك المناطق . وعرفت بلاد السودان في تلك الفترة باسم "بلاد التبر"[3].

ومنذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي أصبح ذهب إفريقية من أسس الإستقلال الإقتصادي في العالم عامة والإسلامي خاصة . ذلك أن عمر بن الخطاب ومن بعده عبد الملك بن مروان اتجه إلى ضبط وتنسيق أوزان العملات الفضية والذهبية للعالم الإسلامي ، فصدرت عملات على النسق الفارسي والبيزنطي ، مع إبراز الطابع الإسلامي الجديد ، بسبب الإرتباط السابقة بين الجانبين . فكان الدينار الذهبي يعادل عشرين درهماً . وكان لتدفق الذهب الإفريقي أكثر الأثر لإتمام عملية

---

(١) الجنحاني ، الحبيب ، دكتور ، المغرب الإسلامي ، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ، ص : ٣٤ ، تونس.

(٢) أشتور ، التاريخ الإقتصادي للشرق الأوسط ، ترجمة عبد الهادي عبلة ، ص : ٩٦ .

(٣) لمبارد ، موريس ، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة الدكتور / عبد الرحمن حميدة ، دمشق ، ص : ١٤٨ .

الإستقلال النقدي الإسلامي . وكان لازدهار العالم الإسلامي اقتصادياً سبباً في ازدياد عمليات تبادل النقد الذهبي ، حيث أصبحت أراضي المسلمين محطة تجارية هامة بين الشرق والغرب . فتطورت عمليات ضرب العملة وتعددت دور سكها وتطورت الأنظمة التجارية للوفاء بمتطلبات المرحلة الإسلامية الجديدة .

ازدهرت مراكز التجارة البرية والبحرية على طرق تجارة ذهب السودان الإفريقي ودبت الحياة في الصحراء الإفريقية الكبرى من خلال نمو واحاتها حضاريا للوفاء بمتطلبات قوافل التجارة التي بدأت تتردد على غرب السودان لحمل الذهب إلى الشرق الإسلامي وشمال إفريقية وحوض البحر المتوسط ، حيث كان سكان البحر المتوسط والمشرق الإسلامي في حاجة إلى سلع السودان من الذهب وغيره[١]. ويبدو أن الصراع الذي دار على منطقة الشمال الإفريقي في العصور الإسلامية كان من أسباب التحكم في خطوط تجارة ذهب السودان . بعد زيادة الطلب عليه بعد استنزاف ذهب الشرق الذي استنزف في عصور ما قبل الإسلام .

وأدي سيطرة المسلمين على مناجم الذهب العالمية وعلى الطرق المؤدية إليها إلى أنهم أصبحوا سادة التجارة والنقد العالميين[٢]، ومكن ذلك العالم الإسلامي من التحكم في نظام العملات العالمية والتجارة أيضاً ، بسبب تمتع العملة الإسلامية بالنقة الدولية لما يتوافر لها مخزون ذهبي ضخم . ولم ينافس المسلمون في هذا المضمار إلا الأسبان والإنجليز في العصور الحديثة حينما تمكنوا من الوصول إلى مناجم الذهب في العالم الجديد . وبدأت حقبة جديدة في الإقتصاد العالمي . حيث توجهت الأنظار إلى المراكز الجديدة صوب الغرب .

اتجهت قوافل الذهب إلى العواصم الإسلامية في بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها واستأثرت مصر ومدنها على نسبة كبيرة من الذهب الإفريقي[٣] حتى أن الطولونيين حكام مصر من قبل العباسيين كانوا يرسلون ٣٠٠.٠٠٠ دينار ذهبي سنويا للخليفة العباسي في بغداد[٤]. وأدى ذلك إلى بلوغ العملة المصرية والإسلامية درجة فائقة من النقاوة تصل إلى أكثر من ٩٩٪ ومازالت القارة الإفريقية تتأثر

---

(١) لوفران ، المرجع السابق ، ص : ٤٤ .

(٢) الجنحاني ، المرجع السابق ،ص : ٣٤ .

(٣) آشتور ، المرجع السابق ، ص : ١١٢ .

(٤) Mountgog, A; Africa P. : 46 London , 1964 .

بنسبة كبيرة في تجارة الذهب العالمية تصل إلى ٦٨٪ من الذهب العالمي . وبلغت شهرة ذهب غرب إفريقية أن أطلق على إحدى دولة اسم ساحل الذهب وهي دولة غانا[١].

وبجانب الذهب انتجت إفريقية للعالم القديم والوسيط معادن أخرى مثل النحاس الذي ارتبط انتاجه بساحلها الشرقي ، وكان للنحاس الإفريقي شهرة هامة ، حيث كان يحمل خاماً لإستخدام في الصناعات النحاسية الإسلامية كصناعة الأواني والأدوات المنزلية وكذلك العملة[٢]. كما توجد في إفريقية كميات هائلة من الماس يصل إنتاج الماس الإفريقي إلى حوالي ٩٥٪ من انتاج الماس العالمي[٣].

أما الحديد فقد اعتمدت مدينات المحيط الهندي ، خاصة على حديد إفريقية ، ونشطت سفن أهل عمان في حمل خام الحديد من إفريقية إلى الهند ، وبعد ذلك تتم عمليات التصنيع واعادة التصدير في شكل سيوف أو أدوات أخرى . ونظراً لأهمية هذا المعدن في مدينات العالم القديم والعالم الإسلامي فقد لعبت التجارة الإفريقية دورها الكبير في هذا المجال حيث أصبحت منطقة ساحل موزمبيق وسفالة الزنج من أهم المراكز العالمية في العصور القديمة والوسطى في تصدير خام الحديد بصورة منطقة مما أدى إلى قيام مراكز صناعية تعتمد على الخام الإفريقي خاصة في شبه القارة الهندية والشرق الأدنى .

ونظراً لعدم وجود خبرة ملاحية إفريقية في مجال التجارة العالمية ، فلم تتوفر دراسة وافرة عن أهمية هذا الخام الإفريقي فارتبط بمناطق أخرى ، تعتمد ذاتها على الحديد الإفريقي مثل الهند ، التي اشتهرت بانتاج الصناعات الحديدية وتصديرها للعالم الإسلامي كما أنتج هذا الخام من غرب إفريقية أيضاً .

وإلى جوانب الثروة المعدنية الإفريقية ساهمت القارة بثرواتها وامكانياتها والنباتية والحيوانية ، مثل العاج الذي ارتبط بإفريقية سواء من جهة تجارة المحيط

---

(١) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص : ١٢٨ .

(٢) يرتبط انتاج النحاس حالياً بدولة زامبيا .

(٣) تنقسم تجارة الماس إلى قسمين : الأول ماس الزينة ، Gem Diamand وتنتج إفريقية من ٩٣٪ من الإنتاج العالمي ، والثاني وهو الماس الصناعية Industrial Diamand وتنتج إفريقية من حوالي ٩٨٪ من الإنتاج العالمي .

الهندي أو تجارة حوض البحر المتوسط والطرق البرية . وأصبح العاج سلعة هامة من سلع العالم الإسلامي لاستخدام في صناعات الزينة ، بعد أن ظهرت جوانب الترف على الحياة العامة الإسلامية ، وكانت كميات العاج تحمل بكميات كبيرة من ساحل إفريقية الشرقي صوب منطقة الخليج العربي والعالم الإسلامي[١]. بل حملت الفيلة مع بعض الطيور والحيوانات الإفريقية إلى المشرق الإسلامي ومدينات البحر المتوسط ، حتى العصور الحديثة .

كما حملت مع التجارة السلع النباتية الإفريقية مثل الذرة[٢]، وكان القمح هو أهم محصول للحبوب مثل سيادة الذرة الإفريقي ، الذي انتشرت زراعته بعد ذلك على سواحل المحيط الهندي والبحر المتوسط[٣]، وتم تحسين نوعيته في أقاليم العالم الإسلامي الشرقية . ثم ظهر هذا المحصول الإفريقي جنوب فرنسا وأسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي ، واستمرت لإفريقية أهميتها في تصدير هذا المحصول طيلة العصور الوسطى .

أما القمح الإفريقي ، فقد لعب دوراً هاماً في تاريخ العالم القديم والوسيط بحيث أصبحت مدينات وحضارات البحر المتوسط منذ اليونان والرومان تعتمد على القمح الوارد إليها من مصر[٤]، وشمال إفريقية ، واستمر الدور الإفريقي أيضاً في العصر الإسلامي بعد ذلك . إذ قامت أودية وادي النيل من مصر ، وسهول نهر مجردة وأنهار بلاد المغرب وأوديتها بهذا الدور .

فكانت باجة ترسل يومياً كميات من الحبوب إلى بلدان العالم الإسلامي ويبدو أن تلك الكمية الكبيرة كانت تتجمع من المناطق المحيط لها في المغرب الأدنى ، كما كانت قسنطينة تصدر كميات كبيرة من الحبوب أيضاً خاصة القمح . ويبدو أن كميات من هذا المحصول قد حملت إلى بعض واحات الصحراء الإفريقية

---

(١) حوراني ، المرجع السابق ، ص : ١٢٨ .

(٢) أكد الباحثون على أن الذرة يعتبر من النباتات ذات الأصل الإفريقي ، حيث إتضح أن أول زراعتها قد تم في أقاليم السافانا الإفريقية ، حيث تم زراعتها في منطقة تشاد وحزام السودان .

(٣) واطسون ، أندرية ، الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي ، ترجمة د. / أحمد الأشقر ، مراجعة د. / محمد نذير سنكري ، جامعة صلب ، ١٩٨٥م ، ص : ٢٣ . ومابعدها .

(٤) علي ، عبد اللطيف ، أحمد ، مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص : ٦٣ .

بعد أن زادت أعدادها البشرية من جراء ازدهارها بسبب وساطتها التجارية وهجرة قبائل بربرية وعربية نحوها .

وظلت منطقة شمال البحر المتوسط تعتمد على القمح الإفريقي كنتاج للسياسة الرومانية السابقة التي ارتبط شعوب أوروبا بهذا المحصول القادم من إفريقية . حيث لجأ الرومان منذ القرن الأول الميلادي إلى فرض زراعة القمح في منطقة شمال إفريقية لسد حاجة سكان إيطاليا خاصة[1]. وبدأت موانيء تونس والجزائر والمغرب الأقصى تقوم بهذا الدور في العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة .

ارتبطت إفريقية أيضاً بمحصول زيت الزيتون ، المستخرج من شجرة زيت الزيتون التي يشتهر بها إقليم حوض البحر المتوسط وكانت السواحل التونسية أهم مراكز انتاجه ، وامتدت زراعته إلى بلاد المغرب الأقصى ، خاصة منطقة فاس ومكناس ، حتى أصبحت تجارته تجارة إفريقية[2]، وبعد ذلك دخلت أسبانيا ودول أخرى في البحر المتوسط مجال المنافسة في تجارته .

ومنذ العصور القديمة ارتبط زيت الزيتون الإفريقي بشهرة واسعة ليس في مجال الطعام فقط ولكنه استخدم أيضاً في مجال التجميل والإضاءة ، وعرف لدى الرومان باسم "زيت البربر"[3]واعتقد الرومان بوجود فوائد طبية هامة لزيت الزيتون القادم من بلاد البربر . ورغم انتاج اسبانيا لهذا المحصول وزيته إلا أنه أجود أصنافه كانت من شمال إفريقية ، ونمت تجارته في العصور الإسلامي أصبح رمزاً للثروة في مجال الزراعة والتجارة . كما ازدهرت زراعة الكروم أيضاً مع حقول ومناطق انتاج الزيتون وزيته .

وفي مجال المنتجات الترابية والحجرية ساهمت القارة الإفريقية بدوركبير في

---

(١) عجزت روما عن توفير حاجيات سكانها الغذائية بعد أن وصلوا إلى مرحلة الترف والبذخ كما انتشرت المستنقعات في أراضي إيطاليا ، الأمر الذي أدى إلى البحث عن مصدر ثابت لهذ السلعة الهامة للغذاء من القمح . وكانت إفريقية هي التي اتجهت إليها الأنظار لتوافر إمكانيات زراعة هناك . وكان كل ٢٠٠,٠٠٠ روماني يستهلكون مليون مد شهرياً في زمن الإمبراطور أغسطس . انظر : جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية جـ ١ ، ص : ٢٠٦ .

(٢) لومبارد ، الجغرافية التاريخية ، ص : ٣١٢ .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ١، ص : ٢٠٩ .

توفير المواد اللازمة للبناء وصناعة الخزف وصناعة الزجاج ، فقد بنيت بها مدن عظيمة على وادي النيل وعلى سواحل البحر المتوسط مثل الإسكندرية ومن قبلها قرطاج ، وكان لا يمكن تدشين تلك المدن منذ البداية دون أن يكون هناك الكميات الكافية من مواد البناء من أحجار وتربة طيبة صالحة للحرق لصناعة قوالب من الطين المحروق . حتى أن مدينة قرطاجنة كانت عبارة عن مخزن هائل للأحجار التي حملت منها لبناء مدن جديدة مثل القيروان ، ومدينة الزهراء الأندلسية ، في العصر الإسلامي . حيث كانت السفن تحمل الأحجار ، بعد خلعها ثم ترصها في السفن التي تقصد مدن أسبانيا[1].

ونافست شمال إفريقية مدن فارس والمشرق الإسلامي في صناعة الخزف وامدت مناطق العالم الإسلامي ، حيث كانت المدن الإسلامية في حاجة إلى كميات كبيرة من الخزف المستخدم كأواني للطعام وأواني للزينة والبناء ، واستهلكت مدن شمال إفريقية والأندلس كميات كبيرة من تلك السلعة ، حتى بات هذا الفن حالياً مرتبطاً بالمغاربة[2]، الذي حازوا على سمعة دولية في الوقت الحاضر في هذا الفن أن نقلة الإيطاليون عنهم .

كما صدرت بلاد المغرب نوعاً من الزجاج يسمى الكريستال الصخري ، الذي كان يستخدم في صناعة الأباريق كبيرة والأحواض التي يوجد بعضها في المتاحف الإسلامية حالياً .

وارتبطت السواحل الإفريقية المطلة على البحر المتوسط بانتاج المرجان[3]، وكانت لعمليات انتاجه نظماً وقواعد تشبه عمليات انتاج اللؤلؤ في منطقة الخليج العربي ، من حيث تنظيم عمليات الغرص والصيد والجمع والتجارة والسمسرة ، بالإضافة إلى لحاجة لسفن وأساطيل للصيد . واستخدم مرجان إفريقية في صناعة الحلي والأطواق وغيرها من أدوات الزينة . وصدرت إلى أسبانيا وأوروبا والمشرق الإسلامي معظم كميات المرجان[4].

وصدرت إفريقية أيضاً الصدف ، سواء من سواحلها المطلة على المحيط

---

(١) لومبارد ، الجغرافية التاريخية ، ص : ٣١٥ .

(٢) لومبارد ، المرجع نفسه ، ص : ٣٤٨ .

(٣) الإصطخري ، المسالم والممالك ، ص : ٣٧ ، القاهرة ، ١٩٦١م .

(٤) لومبارد ،المرجع السابق ، ص : ٣٥٤ .

الهندي أو البحر المتوسط . كما صدرت العنبر ، الذي كان يصدر معظمه إلى منطقة الخليج العربي والبحر المتوسط ، وكان تجار منطقة الخليج العربي يحرصون على جلب العنبر من سواحل إفريقية الشرقية خاصة من سفالة الزنج ، وحمله إلى العراق واشتهر في ذلك أهل عمان بصورة خاصة[١].

على أن أهم السلع التي ارتبطت بالقارة قديماً وحديثاً كانت سلعة تجارة العبيد لاستخدامهم كقوى بشرية للعمل في مجالات مختلفة في مدينات العالم القديم والعصر الإسلامي وحتى العصور الحديثة ، حتى ارتبطت تلك السلعة وتجارتها بصور غير إنسانية على أيد الأوروبيين حديثاً . وقد أثر عمليات حمل العبيد الأفارقة بصورة كثيفة إلى استنزاف موارد القارة البشرية وفقد هويتها . وبالتالي ضمور عناصر الإنتاج في القارة الأمر الذي أثر سلباً على تكوين الشخصية الإفريقية في ظل ثراث طويل من المعاناة من هذا الأمر[٢].

فهاهم اليونان والرومان يعتمدون على عبيد إفريقية في مجالات حياتهم وفي جيوشهم ، بحيث يقدر البعض أن عدد السكان ايطاليا قد بلغ أربعة عشر مليون نسمة كان من بينهم أربعة ملايين من العبيد معظمهم من الأفارقة الذين عملوا لدى ساداتهم الرومان في المنازل وفي المزارع ومجالات أخرى[٣]، بحيث شكل هؤلاء العبيد القوة المنتجة للإقتصاد الروماني بصورة عامة .

وفي العصور الإسلامية زادت الحاجة إلى الرقيق الإفريقي ، خاصة وأن الدولة توافرت لها عوامل اقتصادية حسنة هيأت لقطاعات كبيرة من السكان امتلاك العبيد . واستخدم العبيد السوداني على نطاق واسعة في استثمارات القطاع الزراعي في العراق ، بعد استغلال أراضي البطائح في الجنوب[٤]. كما استخدم العبيد في الموانع الإسلامية للقيام بعمليات الشحن والتفزيع بعد ازدهار التجارة بها . كما استخدم في قطاعات البناء والتشييد منذ العصر الأموي . وزاد استخدامه في هذا القطاع في العصر العباسي .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ١ ، ص : ١٠٨ ومابعدها .

(٢) توجد دراسة كاملة عن تلك التجارة في الفصل الثالث من الكتاب .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص : ٢٠٥ .

(٤) سنقدم دراسة عن هذا الموضوع في الفصل الثالث أيضاً .

وكان التجار المسلمون أكثر فئات المجتمع الإسلامي امتلاكاً لاعداد كبيرة من هؤلاء الرقيق ، لما تتلطبه أعمالهم من حراسة ونقل وغير ذلك . حتى كان للواحد منهم أكثر من ألف عبد أحياناً[١]. كما امتلكت الفئات الثرية من المجتمع الإسلامي أعداداً من العبيد للأعمال المنزلية وأعمالها الخاصة في الزراعة وغير ذلك .

وظهرت أهمية العبيد الإفريقي بشكل آخر في المجال العسكري ، حتى أصبح لهم وزن في الحياة السياسية بعد ذلك ، منذ القرن الثلث الهجري / التاسع الميلادي فقد بلغ عبيد الفسطاط في مصر في العصر الطولوني أربعون ألفاً من عبيد السودان ، بالإضافة إلى أربعة وعشرين ألفا من العبيد الترك[٢]. واعتمدت دويلات المغرب الإسلامي هي الأخرى على العبيد الأفارقة في المجالات الإقتصادية والعسكرية أيضاً سواء دولة سجلماسة الصفرية ، وإماته تاهرت الرستمية بالإضافة إلى الأدارسة والمرابطين والموحدين أيضاً[٣].

وكان الأغالبة أكثر من اتجه إلى ذلك ، خاصة لظروف دولتهم واحاطة الأعداء من كل اتجاه ، فاتخذ إبراهيم بن الأغلب (١٨٤هـ / ٨٠٠م) حرسه الخاص من العبيد السودان ، ودخل العبيد السود كافة قطاعات حبشة . وجاء الفاطيون بعد ذلك فاقتفوا أثر جيرانهم في بلاد المغرب في هذا المجال ، حيث اتخذ عبدالله المهدي أثر بيعته في رقادة ٢٩٧هـ / ٩١٠م أعداداً هائلة من العبيد السود ، بالإضافة إلى العبيد البيض أيضاً .

ويبدو أن العبيد الأفارقة قد ارتبط بهم بشكل خاص النهضة الإقتصادية التي عمت دول شمال إفريقية والمشرق الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي حيث اعتمدت عليهم المجتمعات الإسلامية في كافة قطاعات الحياة من زراعة وتجارة وصناعة ويظهر ذلك من وجود فئات منهم مرتبطة بأعمال حرفية لدى سكان مالي الحالية والنيجر وموريتانيا ، كما اعتمدت عليهم الطبقات العسكرية في حروبها وفي قطاعاتها وفي كافة أعمالها[٤]، وأصبح العبيد أهم أركان الحياة الإقتصادية وأهم مقومات الإقتصاد في تلك العصور ، ولذلك فقد شكلوا شريحة

---

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ ١، ص : ٩٣ ، ١٥٠ ، بيروت ، ١٩٤٨م .

(٢) ابن عذاري ، المصدر السابق ، جـ ١، ص : ١١٨ .

(٣) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، جـ ١، ص : ١٥ ، ٢٣٨ .

(٤) الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ص : ٣٨ ، ٣٩ .

لا يستهان بها في المجتمعات .

وقد أدى عدم الإهتمام والإلتفاف إلى مطالب هذا القسم من المجتمع الإسلامي إلى بدايات للتصدع والصراعات الإجتماعية[1]، في كثير من مناطق العالم الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكان هذا الصراع الإجتماعي عائقاً للتقدم الحضاري الواسع والشامل الذي شهده العالم الإسلامي قبل ذلك . فظهرت في وسط جماعات العبيد والفئات التي تتساوى معها اجتماعياً أفكار معينة تولدت بعدها تنظيمات مهنية وسياسية اسفرت في النهاية عن صراع دموي من أجل تغيير أوضاعها .

وظهرت للعبيد السود بصمات واضحة على الأوضاع السياسية في المشرق الإسلامي أيضاً ، حيث أدت عمليات تجميعهم بأعداد كبيرة في الجنوب العراقي في قطاع الاستثمار التجاري والزراعي إلى قيامهم بثورتهم الكبرى في بداية النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وجعلوا لأنفسهم دولة استمرت أربعة عشر عاماً ، واتخذوا لهم عاصمة هي " المختارة" وتسببت ثورتهم عن كساد إقتصادي لمنطقة شمال الخليج وجنوب العراق طيلة النصف الثاني من القرن الثالث الهجري[2].

وإذا كان العالم الإسلامي قد تمكن تنظيم شبكة من الطرق البرية والصحراوية والبحرية لحمل عبيد إفريقية إلى مدنه وأقاليمه سواء من غرب إفريقية أو من شرق القارة أيضاً[3]، وكانت عمليات حملهم ونقلهم تتم في صورة عمليات منظمة وواسعة من بلاد التكرور وغانة وكانم والزنج حتى امتلأت بهم قطاعات المجتمع الإسلامي ، لكن هؤلاء العبيد أصبحوا من الكثرة حتى اعتمد عليهم بشكل أساسي في جوانب الحياة المختلفة وأصبح الإستغناء عنهم أمراً مستحيلاً ، كما أنهم أصبحوا من الكثرة حتى غلبوا على مناطق معينة ، وأصبح بالتالي من السهولة توجيه طاقات هؤلاء خاصة في ظل شعارات تحمل طابع الإسلام ومبادئه ، فسرعان ما يتحولوا إلى أداة هدم ودمار .

---

(١) حيث تجمعت الثروات والمكاسب المالية في يد فئات معينة خاصة جماعات التجار على حساب طبقة العبيد في ظل مجتمع إسلامي يؤمن بمبادىء معينة ، وخاصة بعد تحول هؤلاء العبيد إلى الإسلام .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٩ ، ص : ١٦٣ .

(٣) المغربي ، أبوسعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص : ٩٠ ، ٩١ .

وكانت عمليات نقل العبيد الأفارقة تتم بصورة هائلة ، بدون وضع ضوابط وقوانين وتنظيمات بداية لتدهور أقاليم إفريقية ، خاصة مناطق الوسط[1]، وهي مناطق الحزام السوداني حيث فرغت من القوى البشرية التي يمكن أن تقوم باستغلال أراضيها وكانت التنظيمات القبلية والسياسية الموجودة في هذا الحزام غير مدركة للنتائج السلبية المترتبة علي ذلك ، وانبهرت بالمقابل الزهيد التي تحصل عليه ، لتستغله في بعض الأحيان لفرض نفوذها الوهمي علي محيط فارغ من القوى البشرية .

ساهم العامل الإقتصادي الإفريقي على تغذية كيانات سياسية وليدة رغبت في تأسيس دول لها مستقلة عن دار الخلافة الإسلامية ، بسبب خلافات سياسية أو فكرية . ووجدت في بلاد المغرب والشمال الإفريقي تربة خصبة لتحقيق آمالها ، حيث اتخذت من واحات الصحراء الإفريقية وكذلك من الحزام السوداني ظهيراً اقتصادياً لها ، ومجالاً حيوياً لأنشطة سكانها ، فأنهالت عليها المكاسب الإقتصادية وتوفرت لديها البنية التحية لنهضتها الشاملة . وكان العرب قد أدركوا موارد إفريقية الإقتصادية فسارعوا بتأسيس حاضرة لهم سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م[2]، في القيروان ، واحتلت مكانة سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية هامة في تاريخ إفريقية والبحر المتوسط لفترة طويلة قاربت الأربع قرون . ومكنها الظهير الإفريقي من الوقوف أمام حملات البزنطيين[3].

وأصبحت القيروان عاصمة إفريقية بحق لفترة طويلة من جراء موقعها الإفريقي وتحكمها في شبكة المواصلات البرية التي تتجه صوب القلب الإفريقي لتعود بالذهب والرقيق والحيوانات فمن خلال الوصف الذي دونه المعاصرون نلاحظ أن أسواقها تعددت وتخصصت ، وأصبحت عملية الأسعار غير مستقرة بسبب الإرتباط بالقلب الإفريقي ، وكانت عملتها من أجود العملات العالمية نقاء بسبب إقتصادها المزدهر وثراء أهلها[4]. وكانت تؤمها يومياً عشرات القوافل حسب اتجاهها . وتنوعت الأسواق ، حتى بلغ سماط سوق القيروان ميلين وثلثا أي حوالي ثلاثةكيلومترات ونصف[5]. وتنوعت الأسواق حسب المهن من سوق البزازين وسوق

---

(١) الجنحاني ، المرجع السابق ، ص : ٣٦ .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص : ٢١ .

(٣) الجنحاني ، المرجع السابق ، ص : ٥١ .

(٤) البكري ، المسالك ، ص : ٣٦ . (٥) البكري ، المصدر نفسه ، ص : ٥٦ .

السراجين وسوق النحاسين وسوق الزجاجين وسوق الخرازين وغير ذلك . أو سميت بأسماء معينة مثل سوق اسماعيل وسوق ابن هشام وسوق اليهود[1].

ويبدو أن الأباضية قد تمكنوا من بسط سيطرتهم على قطاع كبير من قبائل البربر منذ البداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، بعد المجهودات الكبرى التي بذلها الدعاة في سبيل فكرهم . وكانت تجربتهم الأولى في طرابلس ، داعيا إلى أن يعيدوا النظر والتدبر في بناء إمامة لهم معتمدين على أرض إفريقية غنية بإمكانياتها ، وكانت تاهرت التي تقع بالمغرب الأوسط قبلة للقوافل التجارية الصاعدة من الصحراء صوب الشمال محملة بثروات السودان وذهبه ، فنمت المدينة بصورة سريعة ومقصدها التجار من كل ميم حتى سميت باسم "بصرة الغرب" أو "البصرة الصغرى"[2]، وانعكس هذا الثراء الإقتصادي على جوانب الدولة الوليدة فظهرت القصور والمساجد والضياع محل الغابات والأحراش[3]، ونمت فيها نهضة عملية وثقافية يدل عليها التراث الهائل الذي خلقته أباضية تاهرت حتى الوقت الحاضر ، برغم ما صل بها من دمار على يد الفاطميين . وبناء على الإمكانيات الإقتصادية أصبح للأباضية حيزهم العالمي لفترة طويلة[4]، إذ ارتبطت حكومة تاهرت بممالك السودان في الجنوب وبجيرانها في القيروان وسجلماسة[5]. وفاس وحتى في قرطبة بالأندلس ، وكذلك بمصر والمشرق الإسامي .

جاءت الصفرية هي الأخرى لتزرع في الأرض الإفريقية دولتها متخذة من سجلماسة عاصمة لها سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧-٧٥٨م ، حينما قام أبوالقاسم سمكو بن واسول ، بعد أن انتشر فكر عكرمة مولى بن العباس ، أول داعية صفري ينزل بإفريقية[6]. وأصبحت سجلماسة مدينة التجارة في الركن الشمالي الغربي من إفريقية ، وهاجر التجار إليها من المشرق وبلاد العرب ومن الأندلس حتى أصبحت مركزاً

---

(١) ابن عذاري ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص : ٧٨ .

(٢) الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص : ٨٥ .

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص : ٢٤ ومابعدها .

(٤) بكير ، بحاز إبراهيم ، الدولة الرسمية ، الجزائر ، ١٩٨٥ ، ص : ١١٠ ومابعدها .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢، ص : ٧ ومابعدها .

- ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرسمية ، ص : ١٣ .

(٦) البكري ، المصدر السابق ، ص : ١٤٥ .

تجارياً عالمياً[1]، لمدة قرن ونصف قرن تقريباً ، وأصبح أهلها من أغنى الناس ذلك أنها أصبحت منفذ ذهب غانة في غرب إفريقية عبر أودغست[2]، حتى أن هذا الخط التجاري الذي ينتهي بغانة في الجنوب وسجلماسة في الشمال كان من أنشط خطوط التجارة العالمية بسبب كميات الذهب الإفريقي المحولة عبره .

وهكذا أصبحت الإمكانيات الإفريقية مصدر القوة المالية والعسكرية والمكانة الإقتصادية للدول الإسلامية التي قامت في منطقة الشمال الإفريقي واستفادت منه موقعها على خطوط التجارة الإفريقية القادمة من حزام السافانا ، حيث الذهب والعبيد والجلود عصرها . لكن الصراع المذهبي والسياسي أهنك قواها وعجل بها .

وقد ترتب على هذا النشاط التجاري الكثيف في العصر الإسلامي صوب القلب الإفريقي استقرار جاليات تجارية وهجرات بربرية وعربية في مناطق السافانا المعروف باسم بلاد السودان ، في عجل بنقل المؤثرات الحضارية والإسلامية إلى تلك المناطق وظهور ممالك إفريقية خالصة مرتبطة ببيئتها الإفريقية ، بعد أن تمكن الإسلام من تفجير إمكانياتها من أجل اصلاح مناطقها وبلدانها ، فظهرت مملك غانة التي تحولت في النهاية إلى الإسلام ، ثم ظهرت مملكة مالي الشهيرة ، وأخيراً مملكة صنغي[3].

وضحت جوانب الترف الإفريقي للعالم منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى بداية العصور الحديثية من خلال الرحلات التي كان يقوم بها ملوك الدولة الإسلامية الإفريقية صوب الشمال للحج ، خاصة ، وما كانت تحمله قوفلهم من كميات الذهب والهدايا والعبيد ، فبدأت أعين التجار البنادقة وغيرهم من الأوروبيين أمحق هؤلاء ، حتى ظهرت لأول مرة خرائط أوروبية بادية فيها دول إفريقية الفنية ، وبدأت مرحلة جديدة من الأطماع الأوروبية إلى تلك المناطق .

وكان الذهب الإفريقي والعاج والعبيد من أهم محركات الأطماع الأوروبية في فترة الكشوف الجغرافية ، وأنهالت جماعات المغامرين الأوروبيين صوب تلك الأماكن وتبعتها جيوش أوروبا تنتشر الشر والدمار في القارة .

---

(١) ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص : ١٩٢ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ٩٦ .

(٣) سنتحدث عن ذلك في فصل خاص .

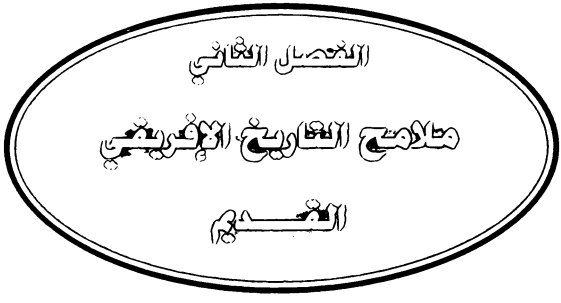
الفصل الثاني
ملامح التاريخ الإفريقي
القديم

(١)

ملامح عصور ماقبل التاريخ في إفريقية

بدأت الحياة الإنسانية بظهور آدم ، عليه السلام ، كما نص القرآن الكريم . لكن الدراسات تعاني من قصور حول تلك البداية . وتعاني الدراسات الجيولوجية والبلنتلوجية والإنثروبولوجية والأثرية الإفريقية هى الأخرى ضعفاً عاماً في حصيلة عملها من جهة ، وفي النتائج التى توصلت إليها من جهة ثانية ، باستثناء شمال وادي النيل لظروفها الخاصة . ذلك أن الدراسات الحضارية والتاريخية تهمل مساهمة القارة لعصور ماقبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة ، وتركز تلك الدراسات على مراكز حضارية معينة في تلك الفترات مثل مصر والهند والصين وفارس وغيرها . الأمر الذي جعل منظمة اليونسكو العالمية تشير للباحثين أن تلك المراكز الحضارية ليست كل حضارات وتراث الإنسان القديم ، وأن لكل منطقة في العالم حضارتها ومساهمتها .

ورغم ذلك فقد أشارت النتائج الأولية لبعض علماء الحفريات لعصور ما قبل التاريخ إلى أنه من المرجح أن تكون إفريقية هى مهد الإنسان الأول . خاصة وأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا بآسيا ، وأن حركة الإنسان كان ميسرة بين القارتين . وقد تم اكتشاف جمجمة حفرية لنوع بشري ترجع إلى ما يقرب من مليونى سنة في منطقة شرقي إفريقية سنة ١٩٥٩م . كما تم العثور على عظام حيوانات تم اصطيادها لإنسان ذلك العصر [١] .

وعثرت على أدوات مستخدمة لإنسان إفريقية في هذا العصر ، تدل على تقنيات عالية بالنسبة لفترته ، حيث وجدت آلات حجرية بجوار الجمجمة . مما يدل على أن الإنسان الإفريقي أسبق من غيره بعشرات الآلاف من السنين [٢] . ونظرا لقدم تلك الجماجم وتعددها فقد تم التميز بين أنواع الجماجم البشرية . فالحفريات الأولى أطلق على

---

(١) Pamansky M. Prelude to East Africa History, P : 353.

(٢) جوليان ، تاريخ شمال إفريقية ، جـ١ ، ص ٤٩ .

نوعيتها إنسان كاسر البندق ، والثانية أطلق عليها اسم الإنسان الصانع . فالأول كان يتميز بضخامة ضروسه التى يستعملها في طحن وكسر الأشياء الجافة . والثاني تمكن من التوصل إلى صناعة آلات متقدمة معتمدا على تقدمه التقنى والعقلي بالنسبة لعصره [١]

وفي شمال إفريقية تشير الدراسات الجيولوجية إلى أن تلك المنطقة كانت مناسبة لإقامة الإنسان منذ عشرات الآلاف من السنين [٢] حيث عثر على أقدم إنسان فيها يرجع إلى حوالى مليون سنة تقريبا"[٣] وأنه كان يعيش في تجمعات بشرية . ويطلق عليه اسم الإنسان المنتصب القامة Homo Erectus، أو صاحب الحضارة الأشولية ، وعثر على نظائر تلك الحضارة في جاوة ، في جنوب شرقي آسيا ، وغيرها من جهات إفريقية . ويعتبر بعض الباحثين أن شرق إفريقية أفضل نموذج لهذا العصر.ويبدو أن إنسان هذا العصر قد توصل إلى استخراج الخامات الطبيعية .

الأمر الذي يعطى أهمية حضارية لهذا العصر للحزام الحضاري الممتد من شرق إفريقية إلى جزر جنوبي شرقي آسيا عبر جنوب شبه القارة الهندية ، ويرجع دوره الحضاري الكبير في مسيرة البشرية لفترة عصور ماقبل التاريخ ، رغم ضعف الدراسات المتخصصة في هذا المجال بتلك المناطق .

وتشير الآثار التى عثر عليها في كينيا ، بشرق إفريقية ، إلا العثور على أكوام من الصخور في كثير من المواقع يبدو أنها كانت تستخدم كمصدات للرياح أو يأوي إليها الإنسان من شدة عوامل الطبيعة . واعتمد إنسان تلك المواقع على توفير قوته اليومي عن طريق الصيد والجمع والإلتقاط . وقد تمكن من اصطياد الحيوانات الكبيرة ، الأمر الذي يدل على تقدم ذهني وتقني في صناعة آلاته . كما تمكن في تلك الفترة من التحكم في النيران .

وفي شمال ووسط إفريقية كانت الظروف البيئية مناسبة لاتصال حضاري بين وسط

---

(١) كل هذه الدراسات في عصر البليستوسين . أما مرحلة ماقبل الإنسان فهى عصرى الميوسين والبلوسين منذ حوالى ١٥ مليون سنة تقريبا .

(٢) جوليان ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٣) سعودي ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

القارة وشمالها ، حيث كانت الصحراء الإفريقية عبارة عن أودية وسهول خصبة تتحرك فيها الجماعات البشرية والحيوانات [١] ، وكانت تلك المناطق من أفضل مناطق الاستقرار البشري في تلك الحقبة ، وخاصة مع فترة التغيرات المناخية التى سادت العالم وإنخفاض درجة الحرارة ، وإزدياد حجم وامتداد الغطاءات الجليدية شمالا" وجنوبا ، وبالتالى أندفعت الجماعات البشرية إلى التوجه إلى إفريقية ، بما فيها الصحراء حيث توجدالظروف البيئية الملائمة [٢] .

وألقت بعض الإكتشافات الحديثة أضواء بالغة الأهمية على مسيرة البشرية في تلك الحقبة . في منطقة الرباط بالمغرب الأقصى ، حيث عثر ١٩٣٣م على شاب صغير عمره حوالي ١٦ سنة تقريبا ، يتضح من دراسة هيكله ، أنه إنسان متطور حضاريا ، حتى أنه يعتبر أقدم زمنيا" من إنسان النياندرتال . كما أكتشفت حفريات في منطقة طنجة بالقرب من المنطقة السابقة ، وفي منطقة المونستير ، بتونس ، تؤكد لنا الدور الهام لإفريقية في تلك العصور . [٣]

واتضحت حاليا من الحفريات التى تمت في إفريقية الشمالية والوسطى ، والتى مكنت الباحثين من دراسة مايقرب من ثلاثين نموذجا ، أن إنسان إفريقية كان معتدل القامة مديدها (حوالى ١٧٢سم) مستطيل الرأس أو متوسطه ، طويل الأعضاء ويبدو أن هذا الجنس البشرى كان نشطا بدليل وجود نظائر له ولأنشطة في منطقة حوض البحر المتوسط [٤] ، وحتى جزر الكناري بالمحيط الأطلسي .

وفي سنة ١٩٢٧ اكتشف هيكل لإنسان في منطقة أعالى نهر النيجر ، بغرب إفريقية ، وهو التلمسى ، وله وجوه تشبه إنسان شمال إفريقية [٥] ، مما دفع بعض العلماء إلى الإعتقاد بوجود اتصال طبيعي بين الشمال والغرب ، قبل ظهور المحيط الصحراوي من صحراء إفريقية الكبرى ، ليعرقل عمليات الاتصال ويعوقها في فترات

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٤ .

(٢) Davidson P. Guide to Africa History, P. 13 .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٦ .

(٤) جوليان ، المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٤٦ .

(٥) جوليان ، المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ٤٩ .

كثيرة بعد ذلك .

وفي الفترة المحصورة بين ٧٠ ألف سنة إلى ٤٠ ألف سنة . قبل الميلاد تمكن الإنسان الإفريقي من التغلب على قسم كبير من مشاكله البيئية ، وبدأ تطور ذهنى وعقلى وتقنى واضح ، يتبين من الآثار التى أكتشفت في مواقع الحفريات . ويطلق على إنسان هذه الفترة اسم إنسان "روديسيا" ، [١] حيث تتميز أدوات هذا الإنسان بتطورات تقنية هامة تختلف عن الفترة التى سبقته . خاصة في دخول خامات جديدة من الأحجار ، وخامات أخرى مثل عظام الحيوانات والعاج . وكان لكل قطعة من تلك الأدوات استخدام معين فهناك المكاشط والحراب والمدي ونصال السيوف . وكانت لتلك الأدوات فعاليتها الكبيرة في الحفر والصيد والقطع . كما ظهرت بدايات للصناعات الجلدية من أنواع الحيوانات التى اصطادها .

وتدل آثار النوبة ، جنوب مصر ، وآثار برقة ، غرب مصر ، وفى منطقة روديسيا بجنوب إفريقية ، وفى أنجولا ، بغرب القارة ، وفي شمال القارة وجنوبها،على صور هامة لتطور إنسان تلك الفترة في إفريقية . الأمر الذي جعل علماء الأنثروبولوجيا يؤكدون وجود جوانب إجتماعية لإنسان هذا العصر ، حيث بدأ في التوجه نحو إقامة كيانات إجتماعية ، عرف فيها بدايات الأسرة ، وأدرك أهمية التعاون للدفاع عن نفسه وعن منطقته ضد الجماعات الأخرى ، ومقاومة صعوبات الطبيعة ، والتغلب عليها .

ويمكننا تتبع الأوضاع والمظاهر الحضارية في مراحل العصور الحجرية [٢] في قارة افريقية كما يلي : -

أولا : العصور الحجرية القديمة :

١ - العصر الحجري القديم الأسفل :

وهى المرحلة التى يطلق عليها اسم مرحلة جمع الطعام ، وتبدأ منذ ظهور آدم ،

---

(١) Davidson P. Guide to Africa History, P. 12 .

(١) أطلق عليها أسم العصور الحجرية لأن الحجر شكل المادة الخام الأساسية فى صناعة أدوات الإنسان سواء من الحجر العادي أو حجر الصوان شديد الصلابة . وتم تقسيم تلك الفترة الحجرية إلى أقسام طبقا للتقنية التى أدخلت على صناعة الحجر العادي ثم حجر الصوان ، وقد أدرك الإنسان صلابة تلك المادة وتوفرها في كل بيئاته .

عليه السلام ، وحتى حوالى ٧٥,٠٠٠ ق .م تقريبا . وقد تختلف من منطقة لأخرى . ويعتبر اكتشاف الفأس اليدوي Hand Axe الأثر المميز لتلك المرحلة الحضارية [١].

وتعد آثار المغرب الأقصى ومصر وكينيا أهم الأدلة على وجود نشاط حضاري لإنسان إفريقية في تلك المرحلة فقد عثر على الفؤوس اليدوية في مصر في منطقة أبيدوس والفيوم وقنا وفي منطقة العباسية ، شرق القاهرة ، وقد أنتشرت آثار الإنسان على الهضاب والأودية وفي داخل الكهوف والمغارات ، لأن الإنسان كان يتجه في تلك المناطق إلى الاحتماء بتلك الأشكال الطبيعية لحماية نفسه من تقلبات الأحوال المناخية ، وأيضا من الأخطار التى تهدد حياته . وفى المناطق السطحية كان الإنسان يلجأ إلى إقامة السدود والأسوار التى تشبه المصدات لحماية نفسه من الأحوال الطبيعية أيضا .

٢ - العصر الحجري القديم الأوسط :

حيث ظهرت آثار تقنية بشرية على صناعة الأدوات الحجرية ، حينما تمكن الإنسان من تهذيبها وتنويع أشكالها وأحجامها ، وبدأت تلك الأدوات والآلات تستخدم في الأغراض التى صنعت من أجلها سواء في القطع أو الصيد ، وكان الإنسان في تلك المرحلة مازال في مرحلة جمع الطعام والصيد والقنص [٢].

ويبدو أن منطقة شمال إفريقية كانت تشكل مع منطقة الشرق الأدنى أهم مناطق العالم ملاءمة لاستقرار الإنسان ، حيث تميز المناخ بالدفىء ، بينما سادت المناطق الشمالية من الكرة الأرضية الثلوج والمناخات الباردة ، فاتجه الإنسان إلى إفريقية حيث المناخ أفضل ، لكنه كان يلجأ إلى الكهوف لحمايته من البرودة أو الحرارة . ويدل النشاط الحضاري للإنسان في تلك الفترة على خروجه من عزلته السابقة ، وبداية اتصالات مع تجمعات أخرى . وتدل النظائر الأثرية في مصر وتونس والمغرب وكينيا على ذلك .

وأهم المواقع الأثرية التى تنتمي إلى هذا العصر في إفريقية آثار بئر العاتر في

---

(١) لذلك لا يمكن التقليل من أهمية ونتائج اكتشافات الإنسان في تلك المرحلة حيث مازالت الفأس تمثل أهم أدوات الإنسان الحالي في مجالات الزراعة رغم التقدم الكبير الذى أحرزه .

(٢) توينبي ، تاريخ البشرية ، ترجمة نبيه فارس ، بيروت ، جـ١ ، ص ١٢٣ ومابعدها .

جنوب تونس [1] ، وآثار منطقة الواحات الخارجة في صحراء مصر الغربية ، بالإضافة إلى آثار غرب كينيا ، وليبيا . وتدل تلك الآثار على أن بيئة الصحراء الإفريقية كانت رطبة ، ومناسبة لاستقرار الإنسان وحركته قبل أن يحل بها عصر الجفاف .

٣ - العصر الحجرى القديم الأعلى :

وتتميز تلك الفترة الحضارية بقدرة الإنسان على الوصول إلى تقنية عليا في صناعة الحجر، حتى سميت بالمرحلة "الحجرية الدقيقة " وأصبح من السهل على الإنسان حمل عدة أنواع منها . والانتقال بها من مكان لآخر . كما أصبحت تلك الأدوات لها نصل حاد وبالتالى أصبحت فعاليتها قاطعة . وكان لذلك أثره في تغلب الإنسان على ظروف البيئة بقدر المستطاع .

ويبدو أن الظروف المناخية قد أخذت في التغير في تلك المرحلة [2] ، حيث بدأت مظاهر الجفاف تظهر في مناطق من جنوب الشمال الإفريقي ، وبدأ زحف النطاقات الباردة .صوب الشمال،يلاحظ الباحثون أنتماء عظام الحيوانات إلى ظروف وبيئات المناخ الجاف مثل الغزلان والنعام وغيرهما . وفي هذا العصر وصل الإنسان إلى مرحلة حضارية متقدمة ، إذ يبدو أنه تفرغ لذاته قليلا واتجه إلى التعبير عن همومه وظروفه بحفر ورسم أشكال على جدران الكهوف والمغارات . كما بدأ يعتقد بقوى خفية تتحكم في ظواهر كونه ، فاتجه إلى محاولة استرضاء تلك القوى للأطمئنان على كيانه ومستقبله بين عناصر كونه المجهولة بالنسبة له [3] .

ومن أهم المواقع الأثرية التى تنتمي إلى هذا العصر في إفريقية آثار بلدة السبيبل بجوار مدينة كوامبو ، في جنوب مصر ، وآثار قفصة ووهران ببلاد المغرب . وتعد آثار قفصة أشهر المواقع ، حيث عثر في قفصة ، بجنوب تونس ، على آثار يتضح منها تمكن

---

(٢) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

(٣) جوليان ، المرجع نفسه ، ص ٥٣ .

(٣) الناضوري ، رشيد ، دكتور ، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقية ، الكتاب الأول ، مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي من العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، ص ١٠٥/ ١٠٥ . بيروت ، بدون تاريخ .

الإنسان من الإستغلال الأمثل ، حسب ظروفه ، لبيئة ، ووجدت آثار تدل على إمتداد هذا النشاط إلى الصحراء الإفريقية جنوبا وإلى قسنطينة في الجزائر غربا . وعثر على بدايات لتجمعات قرى قديمة ، من خلال التراكم المعقد للهياكل البشرية . ويعلل الباحثون على صلات وثيقة بين آثار السبيل في جنوب مصر وبين قفصة في جنوب تونس ، حيث كانت مناطق شمال الصحراء الإفريقية مازالت رطبة [١].

وتقوى تلك الآثار من الآراء القائلة بالأهمية الحضارية لقارة إفريقية في مسيرة الإنسان في مرحلة جمع الطعام والصيد والقنص ، وأن بدايات الثورة الحضارية صوب التحول إلى الزراعة المستقرة ، قد بدأت هى الأخرى داخل القارة الإفريقية . ولم يكن توصل الإنسان في هذه المنطقة إلى هذا المستوى العالي من التفكير والإنتاج منبعثا من تفوقه البشري ، بل كان نابعا من تجاربه المحلية الطويلة للإنسان الذي سبقه في تلك المنطقة أيضا . بالاضافة إلى ظروفه الجيدة ، التى يسرت له في كثير من الأحيان الوقت الكافي للتأمل ، وماكادت الألف الخامسة تبدأ في الظهور إلا وإنسان إفريقية قد بدأ سبيله صوب حياة مستقره ، فبدأ في بناء تجمعات أشبه بقرى مستقرة . ويبدو أن وجود آثار مرحلة الاستقرار في شمال القارة كانت مرتبطة بعمليات زحف الجفاف عبر حزام الصحراء ، فبدأ الإنسان يتجه إلى أماكن الأنهار والأودية وحول البحيرات .

ثانيا : العصر الحجري الحديث :

ترتب على التغيرات البيئية الكبري التى شهدتها إفريقية منذ نهاية العصر الحجري القديم ، تغيرات حضارية جديدة . ذلك أن الجفاف اتجه شمالا ، وحلت فترات الجفاف في المناطق المطيرة وهددت تلك الفترات الجافة مناطق الأودية والسهول والبحيرات ، ويعتبر هذا الأمر تحديا للإنسان وتهديدا لكيانه ، مما أدى إلى قيام الإنسان بالعمل المتواصل من أجل التحكم ، بقدر ما ، في ظروفه البيئية أو ما يعرف بنظرية التحدي والإستجابة Challenge and Response. [٢] وعلى ذلك فقد بدأ الإنسان محاولاته الأولى في إنشاء القنوات والسدود . وأدى ذلك إلى أن الإنسان بدأ يلمس عمليات الإنبات الجيدة للمناطق الطينية التى تتكون على ضفاف السدود والقنوات ، فظهرت بدايات الاتجاه نحو

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٥ .

(٢) توينبي ، المرجع السابق .

الزراعة والتحول الحضاري الجديد الذي تبع ذلك من ضرورة الاستقرار حول النبات ومتابعة نموه ، والتحول من نظام الجمع إلى نظام الإنتاج .

وكانت منطقة وادى النيل في مصر ، في الركن الشمالي الشرقي لقارة إفريقية ، هى التى يشير إليها العلماء بأنها حملت أول ثورة حضارية لهذا العصر بسبب انتظام عمليات جريان النهر من الجنوب إلى الشمال في معظم الفترات ، مما أدى إلى هجرات مستمرة للجماعات البشرية من الجنوب ومن الغرب والجنوب الغربي للإستقرار على ضفاف نهر النيل [1] الذي يحمل كل عام كميات هائلة من الطين كافية لتجديد خصوبة ضفتيه ، الأمر الذى لمسه الإنسان الذي أستقر على تلك الضفاف . كما لاحظ الإنسان انتظام كثير من الظواهر الطبيعية . وبدأت خبرة الإنسان تزداد في تلك المناطق حينما تابع كثير من تلك الظواهر مثل فصل الفيضان والجفاف وغير ذلك .

وفي منطقة بلاد المغرب بشمال إفريقية اتجه الإنسان الإفريقي إلى الرعى بسبب اختلاف الظروف البيئية ، حيث لا تتوفر لديه أودية كبيرة للإستقرار ، أو مساحات من الأراضي المستوية [2] واعتمد الإنسان في تلك المنطقة على السكنى في الكهوف والمغارات وإن كانت تتم في أماكن متقاربة . ومن أهم المراكز الأثرية التى تنتمي إلى تلك المرحلة . في بلاد المغرب كهف دار السلطان في نواحى الرباط بالمغرب الأقصي . وموقع أفتيح في الجبل الأخضر في برقة ، وقرية وادبهت في المغرب الأقصي .

وترك الإنسان آثارا هامة في تلك المنطقة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث مثل الأواني الفخارية المصقولة المزينة وكذلك الأجران ومدقاتها والرحى والأسلحة الحجرية . كما عثر على كثير من النقوش التى سجلها إنسان هذا العصر على صخور الهضاب والكهوف والجبال . وهى نقوش تعبر عن أفكار الإنسان وتأملاته وظروفه الحياتيه المحيطة به . وتوجد في تلك النقوش تأثيرات متداخلة لمواقع هذا العصر . خاصة من قبل الإنسان الذي عاش على ضفاف وادي النيل [3].

---

(١) تقابل تلك المرحلة الحضارية - عمليات الإستقرار والتحول إلى الأنتاج في حضارة بلاد الرافدين .

(٢) الناضورى ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) الناضوري ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

ويبدو أن البربر [1] كانوا قد تمكنوا من الاستيطان في منطقة الشمال الإفريقي ضمن عائلة من عائلات الشعوب الحامية التى اختلطت بالشعوب السامية ، وبدأت في ذلك في منطقة شمال إفريقية منذ العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الحديث . وهذا الأمر يعتبر ثورة عرقية جديدة لشمال إفريقية مازالت آثارها حتى اليوم .

ومازالت مراكز الدراسات الأثرية تهتم أهتماما خاصا بالصخور المنقوشة في منطقة شمال افريقية لما لها من أهمية في كشف مراحل العلاقات بين حضارات الشرق الأدنى القديم وإفريقية من جهة وبينها وبين أوروبا من جهة ثانية [2] وبلغت من كثرتها في منطقة شمال افريقية أن الأهالي يسمونها " الحجرات المكتوبة " أو "الحجارة المكتوبة " ومن أهم الباحثين في هذا المجال . فلمون Flamond الذى قضى في هذا المجال أربعين سنة . وقونيه Gautier. وبروى Breuil. ومونود Monod. وغيرهم . وقد تخصصت كل مجموعة منهم ضمن مناطق معينة في بلاد البربر [3] .

وتمثل نقوش حجر الصوان أقدم مرحلة من مراحل النقش على الحجارة ، وهى تأخذ شكل خطوط عريضة وعميقة [4]. كما كانت صور الإنسان تحمل في طياتها توصل الإنسان إلى صناعة ملابس تقيه البرد أو الحر وتستر عورته ، وكانت تلك الثياب مصنوعة من جلد الحيوان . وبعض الرسومات تحمل صورا فيها غطاء للرأس من الريش . كما ظهرت الأسلحة الحديثة مثل القوس والسهام والعصى والتروس [5].

وبدأت منذ تلك المرحلة بدايات الاعتقادات في العالم الآخر ، وكانت مصر من أسبق المناطق الحضارية توضيحا لتلك العقيدة فقد خلد الإنسان في مصر اعتقاده في هذا الصدد تخليدا فائقا أكثر من أى منطقة أخرى في العالم ، حيث ترك مقابر خاصة للمتوفى تفوق عمارتها عمارة المنازل . وتطورت في تلك الفترة عمارة القبور تطورا كبيرا. وكانت

---

(١) يسمون أنفسهم الأمازيغ أى الأحرار .

(٢) جوليان ، المرجع السابق . جـ١ ، ص ٥٨ .

(٣) جوليان المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

(٤) أكثر الأشكال رسوم لحيوانات ضخمة مثل الجاموس أو الفيلة .

(٥) الناضوري ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

العقيدة لها أهمية خاصة في البيئة المصرية أكثر من المناطق الأخرى فقد كان الخلود من حق الآلهة والبشر عند المصريين ، بينما كانت من حق الآلهة فقط عند أصحاب الحضارات الأخرى [1]. وبدأ ظهور الرموز في الاعتقادات الدينية حيث رمز اللون الأحمر إلى جريان الدم واستمرار الحياه . ومع تلك الإعتقادات بدأت عمليات نمو المجتمعات على ضفاف وادي النيل وتنظيم أمور الدفاع ضد التسللات السامية التى بدات تلوح من الصحراء ومن الشرق .

ثالثا": مرحلة عصر الحجر والنحاس" تكوين عصر ما قبل التاريخ "

يحدد العلماء تلك المرحلة بالتطور الذي طرأ على الإنسان حينما قام بمد نشاطه الإقتصادي خارج إقليمه وحدود قريته ، وأنشأ علاقات مع التجمعات البشرية المجاورة . وبدأت في تلك المرحلة أيضا إمكانيات صهر المعادن ، حيث تم التوصل إلى صهر معدن النحاس في منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد . وقد بدأ ظهور هذا الخام مستوردا في كثير من المواقع من خارج تلك المواقع . الأمر الذي يدل على قيام علاقات اقتصادية نشطة بين الأقاليم والتجمعات البشرية .

وأهم المواقع الأثرية الدالة على تلك المرحلة في إفريقية هى حضارة البداري وحضارة الفيوم ، حيث طرأ تقدم في صناعات الفخار والأشكال العظمية ، وقد تعرضت منطقة وادى النيل في تلك الفترة إلى هجرات وتسللات بشرية منذ نهاية العصر الحجري الحديث

---

(١) احتفظت الآثار المصرية القديمة بجانب كبير من الأمور المرتبطة بالدين أكثر من رتباطها بالجوانب الدينية سواء من المقابر والأهرامات والمومياء ، وقد أستخدم الفراعنه في إقامة مبانيهم الدينية مواد أفضل من تشييد بيوتهم . كما شيدوها في أماكن جافة صحراوية بعيدة عن السكان والأرض الزراعية . وكان الهرم أفضل وسيلة لكي يحقق الفراعنة الدوام لقبورهم ضمن فكرة الخلود . وكان أول هرم هو هرم الملك زوسر من الأسرة الثالثة الذي صممه المهندس أمنحوبت ، وهو أول بناء حجرى ضخم يشيد في تاريخ البشرية . وكان المصريون يدفنون موتاهم قبل ذلك في بناء من الطوب يسمى مصطبة حاليا . مما جعل فكرة أول هرم مدرج يتكون من عدد من المصاطب .

وقد عدل تصميم الهرم في الأسرة الرابعة إلى الهرم الحقيقي ، وأشهر الأمثلة على ذلك أهرامات خوفو ، وخفرع ، ومنقرع التى توجد في الجيزه . ويبدو أن عبادة الشمس هى التى أوحت إلى الفراعنة بهذا لشكل المخروطي ، التى تم محاكته في بناء الأهرامات . وقد ارتبط هرم خوفو ، كغيره من الأهرامات ، بأنه بعد الموتى ، تقام فيه عبادة الملك الميت ، وهناك ممر من الحجر يؤدى من هذا ==

، سواء من جهة الغرب أو الشرق أو الشمال أو الجنوب . حيث بدأت هجرات واسعة النطاق للجماعات البشرية خاصة في منطقة حوض البحر المتوسط ومنطقة غرب مصر . ويمكن تتبع ذلك من بقايا الهياكل والجماجم التى عثر عليها في المقابر والتى تبين دراستها تلك الفوارق البشرية وصراعاتها في تلك المرحلة [1].

وبالنسبة لمنطقة شمال إفريقية وبلاد المغرب ، فقد تأخر ظهور تلك المرحلة في تلك المناطق إلى الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد وحسب قرب المناطق وموقعها الحضاري من حضارات وادي النيل . وخاصة منطقة ليبيا التى شهدت علاقات عسكرية وتجارية مع فراعنة مصر منذ الألف الرابع ق .م ، مما حدا بالليبيين إلى تطوير أسلحتهم ونظامهم بما يقترب من التطور المصري ، وبذلك أمتد نفوذ حضارة وادي النيل إلى شمال إفريقية صوب الغرب .

ونظرا لظروف البيئة في معظم قارة إفريقية فإن الإنسان لم يتمكن من التوصل إلى مرحلة إقامة تجمعات بشرية وقرى إلا في مناطق محددة تتسم بموقعها وانبساط أراضيها . وظلت معظم التجمعات الرعوية تعتمد على سكنى الكهوف أو استخدام خيام . وأنشأ البربر في شمال إفريقية ملاجىء لحماية ثرواتهم من النهب يحرسها رجال مسلحون . وظل

= إلى حافة الصحراء حيث يقع معبد الوادي الذي يستقبل جثمان الملك ويقيم له الطقوس الواجبة قبل أن ينتقل عبر الممر إلى الهرم .

ومن ثم فالهرم في جوهره قبر هائل يستهدف حفظ جثمان الملك الميت من الناحية المادية والروحية على السواء . وتتجمع حول الأهرامات قبور حاشية الملك من النبلاء على هيئة مصاطب . وظهرت في نهاية الدولة القديمة في مصر العليا نوع جيد من المقابر على أساس قابلية الحفر في المنحدرات الصخرية الصلبة ، وينحت هيكل في الصخرة العليا يؤدى إلى ممر رئيسى ، يؤدى بدوره إلى حجرة الدفن . وقد استخدمت سمات معمارية متعددة في دفن فراعنة الدولة الحديثة فيما بعد .وأحدث هذه القبور المنحوته في الصخر هو قبر سيتي الأول الذي يمتد حوالى ٢١٠ مترا . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن الملك الميت يصحب آله الشمس في رحلة لكي يشرق معه من جديد .

أنظر : بارندر ، جفري ، المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة الدكتور إمام عبدالفتاح ، مراجعة الدكتور عبدالفتاح المكاوى ، عالم المعرفة ، العدد ١٧٣ . ص ٣٩/ ٤٠ .

(١) الناضوري ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

هذا النموذج حتى قدوم الفينيقيين ليأسسوا مدنا هامة على سواحل افريقية الشمالية المطلة على البحر المتوسط. [١]

وعبد سكان شمال إفريقية آلهة عدة من الحجر والحيوان ، ثم ظهرت تأثيرات لآلهة مصرية وفينيقية ورومانية . وظلت لهم حتى بداية العصر الروماني آلهة محلية تسمي " أفريكا" رأسها مغطى بجلد فيل . وكانوا يعبدونها في المغارات أو في الأماكن العالية أو بالقرب من العيون والأشجار . ويدفنون موتاهم في قبور على شكل مصاطب . بعد أن ظهرت عندهم فكرة الإيمان باليوم الآخر [٢].

رابعا" : عصر ما قبل الأسرات :

وهى المرحلة التى حدثت فيها الدفعة الإنتقالية الهامة نحو العصر التاريخي . وبدأت فيها عملية تكوين أساسية للتقاليد الثقافية والدينية والسياسية في منطقة شمال شرق إفريقية وغرب آسيا . حيث وقع اندماج حضاري وترابط اقتصادي وتشابه بيئي بين منطقة غرب آسيا ومنطقة وادى النيل من إفريقية . حتى أصبح واضحا للباحثين أن الإنسان في كل من مصر والعراق هو صاحب الدور الرئيسي في تللك المرحلة [٣].

وقدمت إفريقية في تلك المرحلة نموذجا سياسيا تمثل في بوادر الوحدة السياسية التى عرفها الإنسان لأول مرة بعد عمليات معقدة من توحيد الأنماط العقائدية والحروب الطويلة التى دارت بين مملكة شمال مصر وجنوبها ، كما يستدل على ذلك من المقابض والنقوش ويظهر فيها انتصار الجنوب . كما بدأت بعد عمليات التوحيد في مصر اتساع صلاتها الخارجية التجارية والحضارية خاصة مع منطقة غرب آسيا وشمال إفريقية ، وبدأت عمليات إرسال الحملات والقوافل التجارية من أجل توفير متطلبات مدن الدولة وسكانها وكذلك متطلبات معابدها في المقام الأول . وكانت منطقة شرق افريقية من أهم الجهات التى تتجه صوبها قوافل تجار مصر .

وفي المجال الثقافي والديني بدأ توصل الإنسان إلى بدايات الكتابة ، ليبدأ بها

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) جوليان ، المرجع نفسه .

(٣) الناضوري ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

العصر التاريخي في الألف الرابعة ق.م . وتمثل ألواح " مينا " مرحلة أولية في الكتابة الهيروغليفية . فقد نظر المصريون إلى الإله تحوت THOT كاتب الآلهة على أنه مخترع الكتابة . وربطوا بين وظيفته ووظيفة زميلته الإلهه سشات SESHAT التى يعهد إليها بأرشيف الحوليات الملكية . ولاشك أن الكتابة هامة في مسألة الطقوس الدينية . ولاشك أن الكهنة كانوا يقرأون من نصوص مكتوبة على أوراق البرادى ، ووجدت نقوش تحمل أسماء وتعاويذ للموتى . ثم حدث تطور في فنون الكتابة في نقوش أهرامات الأسرة الخامسة والسادسة في سقارة . وأدى استخدام أوراق البردي في الكتابة إلى ابتكارات لغوية أبعد مدى [1] وبدأ عصر جديد من الحضارة العالمية من وادي النيل في إفريقية وهى مرحلة العصور التاريخية .

ورغم تمكن الإنسان الإفريقي في منطقة وادي النيل وشمال إفريقية من التوصل إلى مراحل حضارية متقدمة أثرت في مسيرة البشرية في المجالات السياسية والدينية والثقافية فإن القارة الإفريقية مازالت تشهد حتى بداية العصور التاريخية الحديثة نماذج من مدنيات تنتمي إلى عصور متأخرة حضاريا رغم أن بعض تلك الأماكن كان لها نشاطها الحضاري الواضح في العصور الحجرية .

ويبدو أن عامل العزلة وظروف الموقع بالإضافة إلى الظروف البيئية القاسية من صحراء عازلة وسواحل مجهولة الإتصال وغابات كثيفة عالية وأحراج ومستنقات كان لها أكبر الأثر في عزل بعض الجماعات الإفريقية [2] ، من مناطق جنوب الصحراء لتظل على مستوياتها الحضارية التى كانت عليها حتى وصلها الإسلام فعدل من سلوكها وهذب من عاداتها وارتفع بمستواها واستغل طاقات أبنائها ، حتى ظهرت لنا في النهاية دول حديثة متطورة . لكن مازالت هناك مناطق ظلت على نمطها القديم حتى بداية العصور الحديثة .

وكانت منطقة النوبة ، جنوب مصر ، ومنطقة تشاد في وسط إفريقية ، من أهم مناطق القارة ارتباطا بالمسيرة الحضارية الفرعونية ، فالأولى لعلاقاتها الوثيقة مع

---

(١) بارندر ، المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) حتى أن هناك مناطق مازال الإنسان يعيش في مرحلة جمع الطعام والصيد الأمر الذى يؤدى إلى تناقض واضح بين المستويات الحضارية للقارة وصعوبة وضع جدول أو سلم حضاري لها .

الفراعنة وأعتمادها على شريان واحد هو نهر النيل مما أدى إلى تشابه كبير في الجوانب والظروف الحضارية .

أما منطقة تشاد فقد ارتبطت بمصر عبر منطقة الواحات ودرب الأربعين بعلاقات وثيقة . ويظهر من الإكتشافات الحديثة تأثر التشاديين بالآلهة الفرعونية . كما أن سكان منطقة تشاد وصلوا إلى مرحلة متقدمة حضاريا في عصر الحجر والنحاس ، حينما تجمع الإنسان حول بحيرة تشاد بعد سيادة الجفاف في شمال البحيرة ، وظهرت مدينات راقية في تلك الأماكن . واتبعوا تقاليد دينية متأثرة بالفراعنة في دفن الموتى وفى صنع أدواتهم وأشكال آلهتهم . وكانت لهم حيواناتهم المقدسة . إذ كان لكل مدينة حيوانات مقدسة يقوم على خدمتها كهنة . كما كانت الأشجار الكبيرة موضعا للتقديس أيضا ، لما لها من تأثير في عمليات الخصوبة والنمو [١] .

وفي منطقة ساحل خليج غينيا ، حيث الغابات الإستوائية ، عرفت شعوب تلك المناطق مظاهر عصر المعادن في فترة متأخرة ، وخاصة تعدين خام الحديد والذهب . وظلت تلك المناطق مرتبطة بتلك السلع حتى العصور الحديثة . وظلت شعوب تلك المناطق بعيدة عن الاستقرار الجماعي في شكل مدن وقرى حتى مرحلة تاريخية متقدمة . ولم تعرف تلك المدينات الاستقرار إلا في العصور الحديثة في غالب الأمر ، ويتضح أيضا وجود تأثيرات قديمة وصلت من وادى النيل إلى تلك المناطق ، ويبدو أن البرتغاليين قد لاحظوا على ساحل غينيا مناطق تؤله ملوكها وتعتقد أنه سليل السماء [٢] .

كما ظلت قبائل الأشانتي في ساحل العاج وغانا وقبائل الموسى على بدائيتها حتى بدايات العصور الحديثة ، ولم يتمكن من الإفلات من التخلف إلا الجماعات التى احتلت بالمسلمين في الشمال في العصور الوسطى .

---

(١) قداح ، نعيم ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في افريقية الغربية ، ص ٦٠ .

(٢) قداح ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢)

إفريقية في سياسات العالم القديم

تمخضت التطورات الحضارية الشاملة التى شهدتها منطقة الركن الشمالي الشرقي من إفريقية منذ العصر الحجري الحديث ، وما تبع ذلك من عصور ما قبل الإسلام ، عن نتائج حضارية هامة جعلت منها مركزا مبكرا لبداية العصور التاريخية . حيث أرست الحضارة المصرية القديمة نماذج حضارية جديدة قبل غيرها من المناطق الحضارية الأخرى .

ونظرا لضخامة التراث الأثري التى تركته تلك الحضارة ، وانكباب العديد من الهيئات والمؤسسات المتخصصة على دراسته وتحليله ، وكذلك لظهور العديد من المؤلفات والدراسات حول تلك الحضارة واستمرارها ، فإننا لن نتبع تلك الحضارة في عصورها ، ولكن نركز على الأثر الذي تركته في منطقة إفريقية وحوض البحر المتوسط والشرق الأدنى.

فعلى الرغم من التقدم الحضاري الفرعوني في عهد الدولة القديمة ، فقد بدأت مظاهر تحول جديدة في الحضارة المصرية إلى الأمام ، لعدة أسباب منها ما يتعلق بالجوانب الإقتصادية والسياسية والإجتماعية والثقافية . ذلك أن مظاهر الإنتاج المادي الذي توصلت إليه التجربة المصرية في كافة جوانب الحياة الإقتصادية وفي المشروعات المدنية والحربية ، قد أثر على القيم المصرية ، حيث استنزفت طاقات من قدرات الدولة ، كما بدأت الجماعات السامية تتحرش بالدولة وتتأهب للتسلل [١] ، مما أدى إلى إنقلاب في المفاهيم المصرية القديمة من حيث كونها تعتمد على توقير الملك الإله للأمن والطمأنينة للوطن والمواطن ، وبدأت بوادر التحرر من حرفية تلك القيم ، وتطور الأمر إلى مرحلة ثورة اجتماعية جديدة ، يبدو أنها الأولى من نوعها في تاريخ البشرية ، حيث بدأت قيم جديدة تظهر لدى المواطن من المطالبة بالمساواة بين كافة أفراد المجتمع في الحقوق المدنية والدينية والأخروية [٢]

---

(١) فخرى ، أحمد ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ص ٤١ .

(٢) الناضوري ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ .

وتعتبر هذ المرحلة التى وصل إليها الإنسان في وادي النيل من أخطر مراحل التاريخ الإنساني المبكر ، ومن حيث أنها أول محاولة إنسانية تهدف إلى تحقيق العدالة الإجتماعية في مجتمع أشبه بجزيرة حضارية آنذاك [١].

ونتيجة لتلك التجارب الطويلة بالنسبة للشعب وحكومته ، نشأت الحكومات المستقرة ، وظهرت التشكيلات الاجتماعية والسياسية والإقتصادية . وتمكنت القارة الإفريقية ممثلة في حضارة وادي النيل من إرساء بدايات التقدم العلمي في العلوم الرياضية والفلكية والهندسية والطبية ، كما شملت جوانب التقدم المجالات الإقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة . وبدأت مرحلة تالية من التوسع في المناطق المجاورة وخلق ما يعرف بالمجال الحيوي ، وبدأت مراحل الصراع الحضاري والعسكري بين حضارات وادي النيل الإفريقية ، مع حضارات بلاد الرافدين الآسيوية خاصة في العصرين البابلي والآشوري ، [٢] وقد أثر هذا الصراع الطويل بين القطبين السابقين على أوضاع منطقة سوريا وفلسطين [٣] .

وشمل التنافس الحضاري بين بلاد الرافدين وبين وادي النيل طيلة الألف الثالث ق .م . إلى أن دخلت قوى جديدة في هذا الإطار خلال الألفين الثاني والأول ق .م . حينما ظهرت قوى الفينيقيين والحيثيين والفرس ، ثم ظهرت قوى الإغريق والرومان .

وهكذا ظلت الحضارة الفرعونية طيلة عصورها خير ممثل لإفريقية في التنافس الحضاري سواء في منطقة الشرق الأدنى أو فى منطقة حوض البحر المتوسط . كما تمكنت تلك الحضارة لفترات زمنية طويلة من حماية قارة إفريقية من جهة الشمال الشرقي ، وهى الجهة الوحيدة التى تتصل بالبابس الآسيوى عبر سيناء ، تمكنت من حماية إفريقية من موجات الجماعات السامية والهندوأوروبية التى كانت في حركة مستمرة في منطقة شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب . وحتى الجماعات القليلة التى تمكنت من التسلل سرعان ما ذابت في أتون حضارة المصريين .

---

١) ولسن ، الحضارة المصرية ، ترجمة د / أحمد فخري ، ص ٢٠٥ .

(٢) الناضوري ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٣) Hitii, History of Syria, P : 87 .

ورغم حالة الضعف التى ألمت بالحضارة الفرعونية في بداية الألف الأول ق . م فإن منطقة الشرق الأدنى قد شهدت حالة جديدة من الانتعاش الحضاري خاصة منذ القرن السابع ق .م . بل أن تلك النهضة شملت العالم ، حيث انتشرت تعاليم كونفوشيوس ، وفلاسفة الهند [1] . وإنتشرت الديانة الجينية في جنوب وجنوب شرق آسيا ، وبدأت ديانة زرادشت فى الإنتشار في إيران وأقاليم الإمبراطورية التابعة لها ، وأخذت اليونان تتقدم بخطى سريعة كمقدمات لظهور قوة المقدونيين .

وتأثرت مصر وإفريقية بهذا الوضع . فظهرت نهضة فرعونية جديدة منذ الأسرة السادسة والعشرين ، ولعب ملوك تلك الأسرة دورهم بجدارة في مرحلة التنافس الحضاري الجديد ، حيث كان التنافس والصراع التجاري قد بلغ أشده بين القوى العالمية الجديدة ، خاصة للوصول إلى تجارة إفريقية وتجارة المحيط الهندي . فظهرت دراسات مصرية جديدة زمن الملك نكاو الثاني لمحاولة إعادة تنفيذ المشروع الإستراتيجي الجديد ، الذي بدأ منذ ملوك الأسرة الثانية عشر ، من حيث وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بواسطة نهر النيل عبر حفر قناة في شرق الدلتا على مقربة من البحيرات المرة التى تمر بها قناة السويس الحالية . لكن الحكومة اضطرت إلى وقف المشروع نزولا على مشورة كهنة هيكل مدينة بوتو ، لأنهم أدركوا أن تنفيذ هذا المشروع سيجعل من مصر وأرضها معبرا للشعوب الأخرى التى كانت في صراع فيما بينها في معظم الوقت [2] .

ويبدو أن شعوب البحر المتوسط كانت تواقه للوصول مباشرة إلى مياه المحيط الهندي لجلب سلع وتجارات إفريقية من سواحلها الشرقية . وكان الفينيقيون أكثر تلك الأمم حرصا على هذا الأمر ، وخاصة بعد سيطرتهم على تجارة البحر المتوسط فى الألف الأول ق .م وأنشائهم سلسلة من المستعمرات والمراكز التجارية على سواحل البحر المتوسط ، وكان أهمها قرطاخة . [3]

بدأت السفن الفينيقية تحاول الوصول إلى مياه المحيط الهندي بخبرتها الخاصة من القيام بمحاولات للالتفاف حول سواحل إفريقية من الغرب إلى الشرق ، أو من الشرق إلى

---

(١) تاريخ العالم ، تأليف مجموعة من المؤرخين السوفيت ،جـ١ ، ص ١٥٧ .

(٢) فخرى ، المرجع السابق ، ص ٤٨.

(٣) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ١ ، ص ١٢٣ .

الغرب ، حيث توجد أدلة دامغة على النشاط البحري الفينيقي على سواحل إفريقية الشمالية المطلة على المحيط الأطلسي . كما ظهرت أدلة أخرى من قبل نصوص الفراعنة تؤكد وجود تعاون بين الفراعنة وبين الفينيقيين على أساس الاشتراك في محاولة للالتفاف حول سواحل إفريقية ، وإكتشاف مجهولات تلك السواحل . وقد تمت تلك المحاولة زمن الملك نكاو الثاني ، [1] حيث أبحرت عدة سفن فينيقية عبر البحر الأحمر مستفيدة من نفوذ مصر في تلك النواحي منذ الأسرة الثانية ، في الدولة القديمة وقد عادت تلك الحملة البحرية الفينيقية بعد ثلاث سنوات بعد أن دارت حول رأس الرجاء الصالح ، ثم دارت حول سواحل إفريقية الغربية ودخلت إلى البحر المتوسط عبر بوغاز جبل طارق [2] . وهو الأمر الذي يدلل على الدور البحري السابق للفراعنة والفينيقين في إفريقية قبل ظهور الأساطيل الأوروبية في العصور الحديثة .

لقد كانت مصر حريصة على علاقاتها مع إفريقية منذ البداية ، لأسباب استراتيجية وإقتصادية . فمصر عبارة عن صحراء جافة حولتها مياه النيل إلى جنة خضراء ، كما ذكر هيرودوت من أن مصر " هبة النيل " ، من هنا فقد بدأ حكام مصر في البحث عن مصادر مياه نهر النيل والتوصل إلى معرفة أسباب الجفاف والفيضان ، وبدأت محاولات جادة لاختراق قلب القارة الإفريقية في عصر الدولة القديمة ، في عصر " خع سخموى " آخر "فراعنة الأسرة الثانية ، والملك " زوسر " ، أول ملك للأسرة الثالثة . كما واصل الملك ساحورع " من الأسرة الخامسة عشرة هذا الدور ، حتى أن العلماء ينسبون إليه وضع المسار البحري الثابت بين مصر وسواحل إفريقية الشرقية خاصة منطقة القرن الإفريقي . [3]

وبذلك وضع الفراعنة أسس العلاقات بين عالم البحر المتوسط وبين شرق إفريقية حيث نشطت سلسلة الموانىء المصرية المطلة على البحر الأحمر عبر دروب صحراء مصر الشرقية ، وبدأت أحلام سكان البحر المتوسط تتحقق في الوصول إلى سلع المحيط الهندي وإفريقية الشرقية والحصول عليها ، لما لها من أهمية كبيرة لديهم خاصة في الجوانب

---

(١) فخري ، المرجع السابق .

(٢) فخرى ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) الناصري ، سيد أحمد ، دكتور ، دور مصر التاريخي بين شبه الجزيرة العربية وإفريقية ، جامعة القاهرة ، ص ٥ .

الدينية [1] وظهرت قوة أهل كريت في الوساطة بين البحر المتوسط وبين البحر الأحمر . فكانوا يحملون من مصر البقول والسلع الإفريقية مثل العاج والجواهر والذهب لبيعها في مناطق إفريقية ، وينقلون إليها زيت الزيتون والنبيذ وأخشاب لبنان . حتى أن الفراعنة سمحوا لهم بإنشاء ميناء لهم على أرض مصر في شمال الدلتا في فاروس Pharos، وكان بمثابة مكتب لهم في أرض مصر وإفريقية . [2]

ومن خلال تتبعنا لمحاولات التوغل المصري في القارة الإفريقية برا وبحرا يمكننا تحديد طابع العلاقات بين الطرفين وجوانب التأثيرات المصرية في القارة ، خاصة منطقة جنوب الصحراء الإفريقية ، المعروفة بالحزام السوداني ، حيث أصبحت الحضارة المصرية في معظمها نتاج القارة الإفريقية ، من هنا فقد كثرت محاولات التوغل وإرسال العديد من الحملات إلى النوبة وكانت رحلة الرحالة " حرخوف " أهم تلك الرحلات ، زمن الفرعون " مرترع " والذي وصل فيها إلى وسط القارة عبر بلاد النوبة [3] ومازالت النصوص الفرعونية تحمل أخبارا عديدة حول تلك الرحلات ، وتفصيلات عن أخبار شعوبها وأهم سلعها .

وأصبح لتلك المحاولات المصرية الأثر الكبير في كشف القارة الإفريقية ووصلها بمركز مدينات العالم القديم في الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط ، بالإضافة إلى حمل سلع ومنتجات إفريقية وتزويدها بما تحتاجه من المواد التى تنقصها [4] . ولذلك ازدهرت الملاحة النهرية في إفريقية لتشكل مع الدروب الصحراوية والطرق البرية سلسلة هامة من طرق التجارة في التاريخ القديم . ورعى الحكام بأنفسهم أمن التجارة والتجار في تلك العصور . وكانت تلك الفترة أهم الفترات التى أيقظت الشعوب والجماعات الإفريقية[5] .

ووصلت التأثيرات الفرعونية إلى أواسط إفريقية وغربها عبر درب الأربعين وبلاد النوبة وعبر بحيرة تشاد ، التى كانت مركزا حضاريا هاما لوسط القارة ، واستمرت

---

(١) حوراني ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٤ .

(٣) الناصري ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٤) زاهر رياض ، كشف القارة الإفريقية ، ص ٩ / ١١، القاهرة ١٩٦٩ .

(٥) الزياتي ، وصف إفريقية ، ص ٤٩ .

قوافل المصريين في التوغل في خط السافانا حتى وصلت إلى نهر النيجر ومنطقة السنغال[1] ، كما توجد أدلة حالية على وجود تأثيرات مصرية فرعونية عند شعوب منطقة الكونغو وداهومى والكاميرون ، تدل على علاقات مزدهرة بين الطرفين في السابق ، ومازالت جوانب كثيرة من العقائد الوثنية والعادات الإجتماعية عند تلك الشعوب تحتوي على سمات للحضارة الفرعونية ، كما لاحظها الباحثون [2] .

ولما كانت رحلة " حرخوف " قد تمكنت من الوصول إلى بلاد السودان الشرقي ، بعد أن استفادت من رحلات الفراعنة السابقة ، حيث وصفت تلك الرحلة ظروف بلاد إفريقية الوسطى من وجود حشائش وأشجار قصيرة وأحراش ، وهو نطاق السافانا ، ثم توغلت جنوبا إلى الغابات الإستوائية ، حيث هال أفرادها مارأوه من تشابك الغابات وعظمتها وكثافتها ، ثم شقوا طريقهم من خلالها إلى أن أعياهم الاستمرار بين تلك الغابات الكثيفة ذات الأشجار الضخمة كما وصفت الحملة أقوام الأقزام وعاداتهم وأحوالهم [3] .

وتوغلت حملات أخرى صوب الغرب حتى وصلت عبر بحيرة تشاد إلى بلاد السودان الغربي حيث توطدت العلاقات بين ممالك غرب السودان وبين الفراعنة ، ويذكر البعض بوجود تأثيرات فرعونية في ثقافة أهل غانة من الأشانتي وأن هناك هجرات من المصريين كانت تتجه إلى تلك الجهات وأن الطرق التجارية كانت نشطة بين الطرفين [4].

عادت العلاقات بين المصريين وأواسط القارة في الأزدهار من جديد منذ العصر البطلمي منذ منتصف القرن الرابع ق .م . بعد فترة توقف أبان الغزو الفارسي وغزوات الإسكندر الأكبر لمنطقة الشرق الأدنى ومصر ، نظرا لأهميتها . فقد شهد بداية العصر البطلمي في مصر حركة كشوفات جغرافية وعلمية عالمية أختص القسم الأكبر منها بالقارة الإفريقية ابتداء من سواحل البحر الأحمر حتى سواحل إفريقية الشرقية . وكانت لبعثات البرية مستمرة أيضا إلى أعماق القارة الإفريقية سواء عن طريق وادى النيل وروافده ، أو

---

(١) الناصري ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٢) قداح ، نعيم ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقية الغربية ، ص ١٥ ومابعدها .

(٣) رياض ، كشف القارة الإفريقية ، ص ٥٢.

(٤) رياض ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

عن طريق الطرق البرية . الأمر الذى أعطى البطالة نفوذا عالميا توارت أمامه باقى أجزاء الإمبراطورية الهلينسية التى تركها الإسكندر الأكبر . وذلك بفضل إمكانيات البطالمة من مصر وموارد إفريقية من الحديد والنحاس والذهب والعاج والعبيد [١].

وقد دفع هذا بطالمة مصر إلى العمل على تكوين إمبراطورية عالمية ، تمتد جذورها عبر قارة إفريقية . وأصبحت الإسكندرية عاصمتهم ، مركز المال والتجارة العالمية [٢] ، وأصبحت أشبه ببورصة للأسعار العالمية ، وأنهالت عليها استثمارات تجار العالم القديم ، من أجل توظيف أموالهم في سلع المحيط الهندي وشرق افريقية ووسطها . فنشطت تجارة الشرق الأدنى القديم وإفريقية ، وازدهرت حركة الملاحة البحرية عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندي وشرق إفريقية . كما شهدت قوافل التجارة البرية عبر دروب الصحراء إلى قلب القارة الإفريقية ، التى زاد الطلب العالمي على سلعها ومنتجاتها في تلك الفترة[٣]

وإمعانا في زيادة الإعتماد البطلمي على إفريقية ، رسم البطالمة في مصر سياستهم الحربية على أساس الإعتماد على سلاح الفيلة، الذي أصبح نموذجا للجيوش الحديثة منذ عصر الإسكندر الأكبر ، خاصة وأنها أصبحت تقوم بدور يشبه المدرعات في الجيوش الحالية وحرص رجال الدولة على الإهتمام بالمجال الإفريقي لتوفير الأعداد الكافية من الفيلة اللآزمة لجيوشهم خاصة وأن منافسيهم من السلوقيين ، في سوريا ، كانوا يعتمدون على أنواع جيدة التدريب من الفيلة الهندية عبر طريق الخليج العربي ، الأمر الذي دفع البطالمة إلى تشجيع الملاحة في البحر الأحمر لمواجهة تزايد النفوذ السلوقي في مياه المحيط الهندي ، وقاموا من أجل ذلك بإرساء أسس للتعاون التجاري بينهم وبين تجار جنوب شبه الجزيرة العربية [٤]

ورغم ذلك ظل النشاط والنفوذ البطلمي منحصرا في الجانب الإفريقي والعربي من مياه المحيط الهندي ، حتى تمكنوا من إحتكار تجارة إفريقية الشرقية لفترة طويلة

---

(١) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٥ .

(٢) العبادي ، تاريخ العرب القديم ، ص ١٧٥ ، بيروت .

(٣) حوراني ، المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٤) قلعجي ، قدري ، الخليج العربي ، ص ٥٩ .

وأصبحت موانىء البحر الأحمر وشرق إفريقية تعج بالحركة والنشاط في العصر البطلمي .

ولما كانت الفيلة قد استحوزت على جانب كبير من السياسة البطلمية المصرية في القارة الإفريقية ، فإن أعداد القوافل التجارية المخصصة لذلك زاد عددها ، من أجل توفير أعداد كافية من الفيلة الإفريقية ، التى لا ترقى كفاءتها القتالية إلى المستوى الهندي ، ولذلك فقد استدعى هذا الأمر اجراءات جديدة في السياسة البطلمية في إفريقية منها مايلي : -

(١) تشجيع القبائل والجماعات الإفريقية في مناطق الغابات والأحراش على الأهتمام بصيد الفيلة ، بحيث بدأت قوافل التجار البطالمة بتدريب الأفارقة على هذا العمل ، وكذلك وضع مكافأت مجزية لهم . وتزويديهم بالأسلحة من خلال رجال الجيش البطلمي .

٢ - تأمين طرق التجارة البرية عبر بلاد النوبة وعبر الدروب الصحراوية إلى روافد النيل للوصل إلى منطقة الغابات . وقد أوكلت تلك المهام إلى وحدات من الجيش البطلمي وقبائل تابعة لهم .

٣ - إنشاء مراكز لتدريب الفيلة الإفريقية في منف [١] ، وكانت تلك المراكز تضم خبراء عسكريين . وكانت تلك الفيلة تصل إليهم من مراكز تجميع داخل إفريقية وجنوب مصر ومازالت هناك مراكز في جنوب مصر ترتبط بتلك الطرق القديمة لتصدير الفيلة .

٤ - زيادة النفوذ العسكري والتجاري البطلمي على سواحل شرق القارة ، خاصة الصومال ومنطقة القرن الإفريقي ، بعد الصعوبات التى واجهوها على الطرق البرية [٢] . وكان هذا النفوذ ، من وجهة نظرهم كفيلا" بتأمين مصالحهم داخل القارة الإفريقية [٣] . وخاصة وأن نهاية القرن الرابع ق . م قد شهدت صراعات دولية في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي لأغراض تجارية بحته .

---

(١) الناصري ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) Roschke, New Studies in Roman Commerce with the East, P : 651.

(٣) Bunhury, A History of Ancient Geography, Vol. 2, P : 315.

وتدل أسماء التحصينات والنقاط التجارية التى أقامها البطالمة في شرق إفريقية على نفوذهم واهتماماتهم هناك . ومن أهم تلك التحصينات والمواقع : حصن جزيرة سترابون ، وحصن ديتريوس ، ومذبح كانون Canon ، وميناء انتيفيلوس ، وقلعة كورهاجوس . [١] ويتضح من تلك الأسماء أنها مأخوذة من أسماء القادة العسكريين والرواد البطالمة لتلك المناطق من إفريقية . كما وجدت موانىء أخرى على الساحل الإفريقي باسم بطليموس الثاني مثل ميناء بطوليمايس لصيد وتجميع االفيلة [٢] . ويقع بالقرب من ميناء سواكن ، وأصبحت تلك المنطقة من أشهر موانىء إفريقية فيما بعد . كما وجد ميناء آخر هو ميناء بطيموس ثيرون P. Theron وأسس بطليموس الثالث ميناء برنيكى [٣] على ساحل البحر الأحمر .

ويبدو أن البطالمة قد حرصوا على الأهتمام بالطرق البرية المؤدية إلى موانىء البحر الأحمر الجنوبية أو الوسطى ، بعيدا عن منطقة شمال البحر الأحمر بسبب الصراع المستمر بينهم وبين الأنباط في تلك النواحي ، بالإضافة إلى وجود مشاكل ملاحية أيضا . ولذلك فقد عملوا على توسيع ميناء برنيكي وجعلوا منه قاعدة عسكرية وتجارية في البحر الأحمر ، لفترة طويلة ، كما زاد اهتمامهم بالنقل النهري عبر نهر النيل. [٤]

ونتيجة لهذا الأهتمام العالمي بالقارة الإفريقية حتى نهاية القرن الأول ق .م . فقد حفلت النقوش اليونانية ، لغة العصر ، بأخبار هامة عن أحوال التجار داخل قارة افريقية والعجائب التى شاهدوها ، وعلاقاتهم مع زعماء القبائل هناك والثروات التى تحتوى عليها مناطق القارة الأمرالذي أدى إلى زيادة أعداد المغامرين اليونان لدخول القارة ، وخاصة عبر مناطق النوبة [٥]. التى ازدهرت في تلك الفترة . وأصبحت منفذ تجارة

---

(١) الناصري ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٢) ورغم ذلك فقد فشلت استراتيجية البطالمة العسكرية المعتمدة على الفيلة الإفريقية ، أمام الفيلة الهندية ، التى أعتمد عليها السلوقيين وتمكنوا من هزيمة البطالمة سنة ١٩٨ ق . م .

(٣) نسبة إلى والدته . النعيم ، نورة ، الوضع الإقتصادي في الجزيرة العربية من القرن الثالث ق . م وحتى القرن الثالث م ، ص ٢١٨ .

(٤) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي . ص ٥٧ .

(٥) كلمة نوبة ، اسم مصري قديم ، مشتق من نوبو بمعنى الذهب لتوفر هذا المعدن بها أو لمرور قوافل تجارة الذهب عبرها . محمد ، عوض ، الشعوب ، والسلالات الإفريقية ، ص ٣٠١ .

إفريقية إلى مصر والإسكندرية ، بالإضافة إلى موانىء البحر الأحمر .

وعجت موانىء البحر الأحمر هى الأخرى ، وموانىء شرق افريقية بالمغامرين والتجار اليونان ، خاصة منطقة جزيرة سوقطري ، التى أصبحت مركزاً تجاريا هاما بين عالم المحيط الهندي والبحر الأحمر وميناء عدول Adulis، وفجأة وقبل أن ينتهى القرن الأول ق . م تمكن أحد البحارة اليونان ويدعى Hippalus من التوصل إلى سر الرياح الموسمية الشمالية التى تهب على شمال المحيط الهندي [1]، وكان لهذا الإكتشاف أثره الكبير على زيادة جرأة الملاحين لارتياد سواحل شرقي إفريقية وسواحل شمال المحيط الهندي ، حيث كانت الملاحة قبلها تتم بصورة عشوائية ، كما بدأت تنظم رحلات تجارية تتفق مع مواسم الرياح . الأمر الذي يسر الحركة الملاحية مع شرقي افريقية خاصة ومع موانىء المحيط الهندي بصورة عامة .

ونظرا للنشاط الكبير في منطقة مدخل البحر الأحمر والقرن الإفريقي حتى بداية العصور الميلادية ، فإن هناك قوة محلية إفريقية الميلاد قد ظهرت ، لما توفر لها ولبيئتها من إمكانيات ، وهى دولة أكسوم ، وقد شاركت تلك القوة بشبات فى أحداث العالم القديم حتى ظهور الإسلام . الأمر الذي يؤكد المساهمات الإفريقية في مجال السياسة العالمية .

كما ظهر الأفارقة ، كأشخاص ، في موانىء ومدن العالم القديم ، من حيث كونهم تجار في الإسكندرية ومنف وطيبة ، وفى قرطاجنة من خلال أعمال الموانىء كالشحن والتفريغ ، كما ظهروا كعمال وكقوة إنتاج هامة منذ تلك الفترة في حوض البحر المتوسط

---

(١) تعتمد حركة الملاحة في النصف الشمالي من المحيط الهندي على هبوب الرياح الموسمية الصيفية من الجنوب ، في فصل الصيف والرياح الموسمية الشتوية من الشمال ، في فصل الشتاء ، وهي التى عرفت باسم الرياح التجارية لأهميتها في دفع السفن صوب موانىء إفريقية والهند وقد استفاد البحارة من الرياح الصيفية في دفع سفنهم صوب الشمال والدخول في موانىء الخليج العربي أو البحر الأحمر . أما الرياح الشتوية فقد كانت عظيمة الأهمية في دفع السفن من تلك الجهات الشمالية صوب جنوب سواحل المحيط الهندي . وتهب إلى الرياح الشمالية من القلب الآسيوي شديد البرودة شتاء .

انظر : أبوالعينين ، حسن ، دكتور ، آسيا الموسمية ، ص ١٧١ .

وظهرت صور الأفريقي وملامحه وشعره الأجعد ولونه الأسود كموضوع يرمز إلى الكفاح وقوة التحمل لدى فناني العصر الهلينستي . [1]

وإذا كانت مصر تمثل قوة من قوى الشرق الأدنى القديم وحوض البحر المتوسط بالإضافة إلى كونها قوة إفريقية فإنها قامت بدور كبير ومؤثر في القارة الإفريقية في العصور القديمة . وبالإضافة إلى تلك القوة فإن هناك حضارة أخرى من حضارات الشرق الأدنى القديم قد لعبت دورا في تاريخ قارة إفريقية لا يقل عن الدور المصري القديم وهى حضارة الفينيقيين [2] . واستمر الدور لفترة زمنية طويلة وكان له سماته الخاصة واتجاهاته المعنية .

فمن سواحل شرق البحر المتوسط انطلق البحارة الفينيقون يجوبون سواحله من الشمال والجنوب والغرب ، حتى أصبحوا أمهر ربابنته وتجاره ، وأصبحوا رجال تجارة وسلام لما عرفوا من حبهم للسلام ونقل التجارات والحضارات . وبدأوا في تأسيس مستعمرات تجارية وحضارية تحمل طابعهم على سواحل البحر المتوسط من أجل تسهيل عمليات التبادل التجاري والحضاري ، فأسسوا مستعمرة أوتيكا Utica سنة ١١١٠ ق .م وفى بنزرت وسرت . وكانت قرطاجنة أهم تلك المستعمرات حينما أسسها تجار من صور سنة ٨١٤ ق . م . كما استمر هذا النشاط الفينيقي في إنشاء مستعمرات على سواحل المحيط الأطلسي القريبة من مدخل البحر المتوسط .

---

(١) الناصري ، المرجع السابق ، ص ٢٢ . نقلا عن نقولا زيادة .

(٢) برغم ظهورهم كقوة متوسطية منذ الألف الثاني ق .م . إلا أن معظم المصادر تشير إلى كونهم أصلا من منطقة جنوب الجزيرة العربية ، وخاصة سواحل عمان المطلة على المحيط الهندي ، حيث كانت تلك السواحل تشهد حركة تجارية نشطة في فترة ازدهار الوجود السامي في شبه الجزيرة العربية . لكن أدت تغير الظروف والأحوال إلى هجرات مستمرة من جماعات الساميين وكان من بين المهاجرين الفينيقيين الذين تركوا موطنهم الأصلى واتجهوا إلى سواحل بلاد الشام المطلة على البحر المتوسط وأسسوا هناك عدة دويلات مدن مثل جبيل ، صور ، صيدا ، بيروت ، عكا وغيرها . وكانت رحلتهم عبر منطقة الخليج العربي . والأدلة على ذلك كثيرة من الآثار ومن تسمية ميناء صور تيمنا بميناء صور القديم على ساحل عمان .

انظر : قلعجي ، الخليج العربي ، ص ٦٥ .

ومنذ تلك الفترة نشط الجهد الفنيقي داخل إفريقية وحولها ، وخاصة بعد إنشاء مستعمرة قرطاجنة ، قد أشرنا إلى تعاون استراً تيجي بين الفينيقيين والفراعنة لاكتشاف سواحل إفريقية الجنوبية والغربية والإلتفاف حولها من الجنوب . وبالفعل فقد قام البحار الفينيقي حانون Hano بقيادة مجموعة سفن والالتفاف حول إفريقية إلى أن وصل إلى خليج غانا وسواحل غرب إفريقية . كما تذكر المصادر الفينيقية أن رجلاً من أهل قرطاجنة يدعى ماجوMago تمكن من عبور الصحراء الكبرى ووصل إلى وسط وغرب إفريقية ثلاث مرات[1] . كما تمكن الفينيقيون من إكتشاف جزر المحيط الأطلسي الغربية من السواحل الشرقية مثل مادیرا والكناري والآزور .

ويبدو أن الفينيقيين قد تمكنوا من الوصول إلى سواحل المحيط الأطلسي في غرب إفريقية منذ نهاية الألف الثانية ق.م ،للوصول إلى ذهب إفريقية وفضة وقصدير اسبانيا، وكان هذا النشاط الفينقي في حاجة إلى ترسيخ رحلاته ، بعد أن إكتشفوا إمكانيات قارة إفريقية الهائلة من الذهب والعاج . وكان الوجود الفينيقي حتى هذه اللحظة عبارة عن مراكز تجارية بسيطة لا ترقى إلى مستوى مستعمرات ، إلى أن بدأوا في إنشاء مستعمرات خاصة بهم . وكانت قرطاجنة أهمها على الإطلاق .

وقد لعبت قرطاجنة [2]، دورا" هاما في تاريخ حوض البحر المتوسط من جهة وفى تاريخ إفريقية بشكل عام . فبرغم تبعيتها أول الأمر لصور ، ودفعها الأتاوات لليبيين أول الأمر طيلة ثلاثة قرون ونصف دون إنقطاع [3] ، فإنها سرعان ما فرضت هيبتها ونفوذها على البحر المتوسط وإفريقية ، وذلك بفضل هيبة طبقتها الإرستقراطية ومهارة سكانها ، وخاصة ما اتصفت به عائلة ماغون القوية من روح المغامرة . وقد ساعدها على تحقيق مكانتها الكبيرة ما يلى :

١ - تدهور وانحطاط دور صور التجاري في البحر المتوسط ، فبدأت قرطاجية في

(١) وايدنر ، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء ، ط١ ، ص ٢٧ ومابعدها . ترجمة على أحمد، وشوقى عطاالله .

(٣) سميت قرطاجنة بمعنى المدينة الحديثة تمييزا لها عن أوتيكا التى أسست قبلها وكانت تسمى المدينة القديمة .

(٣) عصفور ، محمد ، دكتور ، المدن الفينيقية ، ص ٦٥ ومابعدها ، بيروت .

فرض حمايتها ونفوذها على المدن والمستعمرات الفينيقية في المنطقة ، ثم مالبث أن سيطرت عليها . وكان ضعف صور مترتبا على امتداد النفوذ الفارسي صوب سواحل الشام منذ القرن السادس ق .م . ثم احتلال الإسكندر لها بعد ذلك [١] .

٢ - اتبعت قرطاج سياسة دبلوماسية مرنة مع قوى البحر المتوسط ، خاصة بين القوى المجاورة لها ، فقد حالفت الليبيين لفترة حتى تمكنت من فرض نفوذها على جزر كورسيكا وجزر البحر المتوسط الأخرى مثل صقلية . رغم محاولة اليونان السيطرة على صقلية وأعتمدت على سياستها الخارجية على قوتها العسكرية وتوازن القوى.

٣ - شهرة سكانها في مجال التجارة والمغامرة البحرية ، وخبرتهم السابقة في هذا المجال واستغلالهم للإمكانيات الإفريقية في تدعيم نفوذهم ونشاطهم في المنطقة .

امتد نفوذ قرطاجنة إلى المناطق المجاورة لها في إفريقية ، ووقفت أمام اليونان حينما أرادوا مد نفوذهم في المنطقة المجاورة لها في الشرق في إفريقية ، وبدأت في تأسيس عدد من المستعمرات لها على سواحل ليبيا . كما أرسلت حملة بقيادة عبد ملقرط البرقي لفتح الأندلس ، حيث توجد مناجم الفضة الشهيرة ، وأنشأ مدينة هناك تسمى "أكر الانكى" ومات هذا القائد بعد أن ترك لقرطاجنة مناجم لا تنفذ من الفضة . ومن بعده أسس عزر بعل في أسبانيا مستعمرة جديدة تسمى قرطاج الجديدة [٢] .

لقد نمت قرطاج على تراب إفريقي ، فإذا كانت خبراتها فينيقية ، فإنها نبتت في بيئة إفريقية ، فقد ساعدها موقع مينا ها الممتاز المتصل بالبحر المتوسط من جهتين وأصبح توجهها بحريا كما احتفظت بنفوذها السياسي في إفريقية ، فإذا كانت مساحتها صغيرة نسبيا فقد ضمنت لنفسها سواحل البربر المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، وأنشأت قرطاجنة أسواق شهيرة في إفريقية مثل : لبدة ، وبنزرت ، وعنابة ، وسكيكدة ، وقبة سيدى ابراهيم ، ومالقة ، وسكسى ، كما أنشأت العديد من تلك المراكز على السواحل الأوروبية المطلة على البحر المتوسط إيضا .

---

(١) جوليان ، تاريخ شمال إفريقية ، ط١ ، ص ١٢٠ .

(٢) الجوهري ، يسري ، دكتور ، شمال إفريقية ، ص ٢٨٥ الإسكندرية ، سنة ١٩٧٦ م.

إن موقع قرطاجنة جعلها منفذا لتجارة إفريقية مع حوض البحر المتوسط وأوروبا وكان دورها يتم بصورة أساسية في تجميع المواد الأولية في تلك المراكز في القيام بدور جديد في توزيعها . الأمر الذي دفع بحارتها إلى مسافات بعيدة لم يصلها بحارة الشرق الأدنى أو البحر المتوسط من قبل . ففي سبيل بحث تجارها عن الأسواق أندفعوا بجرأة ومغامرة في مياه المحيط الأطلسي . ففي أواسط القرن الخامس تمكن " جيملكن " من الإتجاه شمالا مع السواحل الأندلسية حتى وصل إلى الجزر البريطانية وواصل طريقه شمالا حتى وصل إلى أيرلندة نفسها . كما اندفع " حنون " إلى سواحل المحيط الأطلسي الجنوبية مصحوبا" بستين سفينة ، ونزل في العديد من جزر الكناري والخالدات [1].

لقد مكنت سلع إفريقية من الذهب والجلود والعاج والعنبر والعبيد بالإضافة إلى زيت الزيتون والحبوب أساسا اقتصاديا متينا للتجارة الفينيقية ، وكان لابد للبحث عن أسواق تلائم تلك الإمكانيات الجديدة ، خاصة وأن أهلها أدركوا قيمة تلك السلع في العالم القديم كما أنهم أصبحوا بين قوتين اقتصاديين : الأولى تعتمد على تصدير صناعاتها وتقع في حوض البحر المتوسط ، والثانية تعتمد على تصدير حاصلاتها من المواد الخام وهي إفريقية . ولذلك كانت الشعوب والقبائل الإفريقية ترغب في اقتناء الصناعات مثل الزجاج والمنسوجات والخرز أكثر من اقتنائها للعملة [2].

وقد انعكس هذا الوضع على هوية الحضارة الفينيقية حيث أصبحوا رجال تجارة واهتموا بكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد وأهملوا بقية الجوانب الأخرى . فقد كانوا يحسنون عدة لغات ليس من أجل الثقافة بل من أجل التفاهم مع الشعوب ، حتى أنهم لم يتركوا آثارا في الأدب والعلم [3] ، واقتصروا في ميدان الفن على تقليد النماذج المصرية والإفريقية ، بل جلبوا العديد من الفنانين إلى مدنهم .

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٥٤ .

(٣) وإن كانت الأبجدية الفينيقية هي التي سادت العالم السامي قبل أن تبعث الأبجدية اليونانية واللاتينية . ويبدو أن اختراع الفينيقيين للأبجدية راجع من تحدثهم بلغات عدة .
انظر : موسكاتي ، سبتينو ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د . السيد يعقوب بكر ، ص ١٢١ ، بيروت .

وسرعان ما إندمجت بلاد البربر في حضارة قرطاجنة في وعالم البحر المتوسط ، كما اتجهت قرطاجنة إلى الإهتمام بالطرق البرية والدروب الصحراوية التى تصلها بتجارة إفريقية جنوب الصحراء والتى مثلت لها أهمية خاصة ، فانتشرت عملتها البرونزية والفضية ، كما انتشرت اللغة الفينيقية بين قطاعات من سكان شمال إفريقية[١] .

لقد اعتمد أهل قرطاج على إمكانيات إفريقية لبناء قوتهم الإقتصادية والسياسة في البحر المتوسط . حيث عملوا منذ البداية على استغلال الأراضي الإفريقية خاصة وأنها تقع توجد في أراضي خصبة [٢] . وأعانهم هذا الأمر على الصمود أمام خصومهم من اليونان أو الرومان ، حيث أمنت لهم الأرض الخصبة الطعام وقت الخطر والحروب المستمرة .[٣] ولم تنجح محاولات اليونان أو الرومان في البداية من إلحاق هزيمة نهائية بقرطاجنة بسبب وجودها في مجال حيوى إفريقي غني وفر لها استراتيجية إقتصادية وأمنية [٤].

كان مركز قرطاج هام جدا من ناحية أخرى للقلب الإفريقي ، حيث كان يتصل بسهولة عبر أودية بلاد المغرب ، ثم إلى واحات الصحراء حتى يصل إلى خط السافانا [٥] وخاصة وأن البربر قد وفروا لهم سبل الإتصال ببلاد السودان ووضعوا خبراتهم السابقة مع هؤلاء المستوطنين الجدد على السواحل الإفريقية .[٦] على الرغم من أن نفوذ قرطاج السياسي لم يتجاوز الأراضي التونسية ، بالإضافة إلى مراكز ساحلية مرتبطة بها . لكن نشاطها شمل أجناس كثيرة فقد استعانوا بالليبيين في تكوين جيوشهم ، كما استعانوا بالبربر والزنوج في أعمالهم وتجاراتهم ، حتى أن التأثير الثقافي والإجتماعي لقرطاجنة كان كبيرا في بلاد المغرب والمناطق التى تتصل بها . فقد بهرت أمراء البربر مدينة قرطاجنة فتزوجوا من بنات طبقتها النبيلة وسموا أبناءهم بأسماء قرطاجنة ، ومنحوا مدنهم دساتير على نمط دساتير المستعمرات الساحلية القرطاجية ، وعبدوا الآلهة السامية

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) جوليان ، المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٣٦ .

(٣) Hollingsworth, Ashort History of East Coast of Africa, P : 10.

(٤) عصفور ، المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٥) الجوهري ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٦) Wlender, History of Africa South of the Sahara, P : 29.

التى حملها أهل قرطاج معهم . حتى أن نفوذ قرطاج لم يزل بزوالها ، فالمدنية الرومانية لم تتوطد أركانها أول وهلة في المملكات القرطاجية أو البربرية وظلت المدنيه القرطاجية سائدة هناك حتى عصور لاحقة . لقد تركت قرطاجنة آثارا عميقة في إفريقية من الجوانب الدينية بحيث ظلت التأثيرات الدينية القرطاجية حتى ظهورالإسلام عبر العصور الرومانية . كما بقيت النفوذ في بعض المدن الإفريقية تحمل كتابات قرطاجية مع أسماء أباطرة روما. ومثل الذهب أهم لسلع الإستراتيجية الإفريقية في الألف الأول ق . م التى ارتبطت بالمساعي القرطاجية في إفريقية ، وغيرها من القوى الكبرى في العالم وقد ظهرت أهمية تلك السلعة في الدور الفنينيقي في التجارة العالمية في العصور القديمة .

فمنذ بداية الألف الأول ق .م حفلت نصوص التوارة باستيراد مملكة اليهود لكميات هائلة من الذهب الخالص . وكان ذلك زمن الملك شاؤل (١٠٣٠ - ١٠١٠ ق .م) والملك داؤد (١٠١٠ - ٩٧٠ ق.م) وزادت عمليات الإستيرد زمن سليمان (٩٧٠ - ٩٣١ق .م) [١] . وهى الفترة التى شهدت امتداد نفوذ وسيطرة اليهود على قسم كبير من بلدان لشرق الأدنى ، وما ترتب على ذلك من بناء أماكن للعبادة اليهودية احتلت مكانة هامة في الفن والبذخ مثل هيكل سليمان ، الذي أنفق في بنائه حوالى أربع مائة وستون قنطارا من ذهب أوفير ، بالإضافة إلى ألف وستون قنطارا من الفضة [٣] .

واعتمدت مناطق ودول ومدينات العالم القديم على ذهب إفريقية بصورة أساسية فإذا كانت ممالك بنى اسرائيل اعتمدت على السفن الفينيقية في استيراد ذهب إفريقية حينما ورد في أخبار اليوم الثاني " وحمل رجال حيرام وسليمان ذهبا" من أوفير " [٤] ولما كانت حركة تجارة ذهب البحر المتوسط مرتبط بوضوح بمصدره الإفريقي ، سواء الكميات التى حملها قرطاجنة ، أو قوافل التجار إلى مصر ، فإن إفريقية ساهمت بور كبير في تجارة ذهب المحيط الهندي .

---

(١) التوراة ، ص ٤١٩ .

(٢) القنطار = ٣٤٢٧٢ جراما من الذهب .

(٣) التوارة ، أخبار الأيام الأول ، اليوم ٢٨ ، ٢٩ . ص ٥٢٢ .

(٤) التوارة ، أخبار الأيام الثاني اليوم ٨ ، ٩ ، ص ٥٣٤ .

ذلك أن أوفير[1] الذي تردد ذكرها بتصدير الذهب في العالم القديم ظلت مشكلة تشغل بال الجغرافيين والمؤرخين منذ ألفي سنة وحتى الآن ، دول التوصل إلى حل قاطع إلى مكانها المحدد . وقد انحصرت الآراء حول موضوعها إلى ثلاثة : الأول يحددها على ساحل الهند الغربي ، والثاني يحددها على ساحل إفريقية الشرقي ، والثالث يجعلها في أحدى مواضع ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية . [2]

ونرجح الرأى القائل بأن " أوفير " أهم مراكز الذهب في العالم القديم ، كانت تقع على سواحل شرقي إفريقية وذلك للأسباب التالية : -

١ - مازالت توجد منطقة تقع على أحدى البحيرات الإفريقية الداخلية ، في جنوب تنزانيا وتسمى أوفير ، بالقرب من الوجيجي [3] . ومازالت مرتبطة بإنتاج الذهب . كما أن دول شرق إفريقية مثل تنزانيا وموزمبيق تنتج كميات كبيرة من الذهب العالمي والذي يمثل نسبة هامة من تجارة الذهب العالمية . بالإضافة إلى مناجم الذهب الشهيرة في الأجزاء الشرقية من دولة جنوب إفريقية [4] .

٢ - كانت السفن القادمة من أوفير محملة بسلع أخرى مثل العاج والقرود والطواويس وهذه السلع لاتوجد بصورة أساسية سوى في إفريقية ، حيث ارتبطت تجارة العاج منذ القدم بإفريقية أو حتى العصور الحديثة بالإضافة إلى القردة والطواويس .

٣ - كانت السفن المتجهة إلى أوفير سفن محيطية ضخمة ، كما كانت تواجه صعوبات هائلة أثناء رحلتها البحرية الطويلة ، ثم تعود بعد ثلاث سنين حاملة الذهب والعاج والقردة والطواويس [5] . مما يدل على أنها أبعد مكانا من جنوب الجزيرة العربية .

٤ - يحتمل أن تكون رحلة ملكة سبأ إلى بلاط سليمان قد ترتب عليها تدعيما

---

(١) وردت أوفير كحاسم للإبن الحادي عشر من أبناء قحطان ، كما ورد في سفر التكوين .

(٢) راجع : حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ١١٦ ومابعدها .

(٣) المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٢٢٢ ، طبعة وزارة التراث القومي والثقافة

(٤) تنتج جنوب إفريقية حاليا ٦٦٢٥٠٠ كج من الذهب من أقاليمها الشرقية فقط .

(٥) أخبار الأيام الثاني ٩ : ٢١ .

للعلاقات التجارية بين الطرفين . وكان أهل سبا واليمن أكثر سكان المنطقة خبرة بسواحل شرقي إفريقية وبالتالى أصبحت منطقة اليمن محطة هامة للإنطلاق إلى شرق إفريقية وخاصة المنطقة الجنوبية من ساحل افريقية الشرقي الذي سيطرت عليه في الألف الأول قبل الميلاد جاليات من أهل اليمن [١] وأن اليهود قد منحوا امتياز امتياز استغلال الذهب في أوفير مع أهل سبأ [٢].

٥ - هناك فريق من العلماء يرى أن أوفير هى منطقة زمبابوي ، حيث أطلال روديسيا الجنوبية ، وهى منطقة تقع بين نهرى الزمبيزى واللمبوبو ، وقد كشفت على يدى آدم رندرز سنة ١٨٦٨م [٣] . وقد أكد الآثريون الذين عملوا في تلك المنطقة أن العرب كانوا يستمدون كميات وفيرة من الذهب منها ، وأن هؤلاء العرب كانوا على صلة بكل من تجار مصر وتجار اليمن والتجار الفينيقيين . وقد أكدت الدراسات على أن تلك المنطقة تعيش بها جالية كبيرة من أهل حمير وسبأ ، وأن السبئيين كانوا أه حاب الكلمة العليا هناك في نهاية الألف الثاني ق .م . وكانت كميات الذهب تستخرج بكميات كبيرة [٤].

٦ - هناك ترجمة في التوارة لكلمة " أوفير " بأسم " سوفارا " ولم يرد هذا الأمر عبثا في إحدى ترجمات التوارة . ولكن كان ينم عن أسمها القديم الذى أطلقه العرب على تلك المنطقة الجنوبية من الساحل الشرقي لإفريقية باسم سفالة . وظل هذا الاسم ساريا حينما قدم البرتغاليون إلى المنطقة في بداية القرن السادس عشر الميلادي ، ولايزال حتى الآن يطلق على أحدى الموانىء [٥] . ولذلك فإن تلك الترجمة السبعينية للتوراة تؤكد أن أوفير ساحل إفريقية .

٧ - هناك رأى يرى بأنها على ساحل إفريقية الغربي ، وأن اليهود تحالفوا مع الفينيقيين خاصة أهل صور ، من أجل استثمار خبرات أهل صور وعلاقتهم بقرطاجنة ومستعمرات الفينيقيين في غرب البحر المتوسط لعبور جبل طارق إلى ساحل إفريقية

---

(١) بافقيه ، تاريخ اليمن القديم ، ص ٧١٢ .

(٢) حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٣) حوراني ، المرجع نفسه ، ص ١٢٩ .

(٤) حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٥) حوراني ، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ ،

الغربي جنوبا" [1] ، ويرى أصحاب هذا الرأى أن اليهود لم يكن في مقدورهم شراء الذهب أو مقايضته ، ولذلك فقد اهتموا بالوصول إلى مناجمه هناك .

من هنا فقد أصبحت إفريقية تدخل في نطاقين لتجارة الذهب العالمي في العصور القديمة :

- النطاق الأول : عالم البحر المتوسط : حيث المدنيات الشهيرة والحضارات العريقة في مصر وفي اليونان وعلى ساحل بلاد الشام وساحل آسيا الصغري بالإضافة إلى مدينات أوروبا الصاعدة . وقد قام بهذا الدور لفترة طويلة أهل قرطاجنة الذين وفروا تلك السلعة الإفريقية في هذا المحيط الحضاري الهام .

- النطاق الثاني : عالم المحيط الهندي ، ويشمل مدينات وادي السند والهند ، ومدنيات بلاد الرافدين من السومريين والبابليين والآشوريين وسواحل الخليج العربي وفارس ، وقد قام بهذا الدور من الوساطة التجار سفن التجار العرب من أهل الخليج العربي ومن أهل اليمن خاصة أهل أوسان وسبأ وحمير ثم أهل عمان .

جاء العصر الروماني ليحمل أهمية جديدة للقارة الإفريقية في العالم القديم . ذلك أن الرومان تمكنوا من احتلال شمال إفريقية ، وانهوا السيادة القرطاجية بها وسادوا دول البربر وغيرها من قوى الشمال الإفريقي وتمكنوا من التغلب على ثوراتها . وإن كان الرومان قد اقتصروا حتى القرنين الأول والثاني الميلاديين على احتلال السواحل الإفريقية ومراكزها التجارية ، حيث بقى قسم من التلال الجزائرية ومعظم الصحراء الليبية والمغرب الأقصى خارجا عن تلك السيطرة ، واقتصرت السياسة الرومانية في تلك الفترة على بناء سلسلة من القلاع والتحصينات ، وشق طرق لربط مراكز الرومان في تلك المناطق مع بعضها البعض [2] كما بدأوا في إرسال حملات لإستكشاف منابع النيل منذ القرن الأول الميلادي .

ثم بدأ الرومان في العمل على الزحف صوب جنوب الساحل والوصول إلى نقاط

---

(١) موسكاني ، الحضارات السامية ، ص ١٢٢ .

(٢) جوليان ، المرجع السابق ، ط١ ، ص ٢٢٣ .

التجارة مع إفريقية الداخلية ، حيث توطد النفوذ الروماني زمن هادريان ، ثم استأنف عمليات مع النفوذ إلى الجنوب ، لتأمين النفوذ الروماني من هجمات البربر [1] ، والإمساك ببداية خطوط الدروب الصحراوية التى تعبر الصحراء إلى إفريقية الغربية .

أصبحت إفريقية تشكل أساسا فى الإقتصاد الروماني ، لوجود مساحات كبيرة من الأراضي الخصبة بها ، بالإضافة إلى توفر الأيدي العاملة بها . ولذلك أصبحت إفريقية سلة غذاء روما بحق ، بحيث كان أى تذبذب في كميات القمح الإفريقي ونقصه يؤدى إلى حدوث مجاعات في مناطق الإمبراطورية الرومانية الواسعة . وقد حاولت روما تفادي حدوث أزمة في إنتاج هذا المحصول حينما لجأت إلى زيادة المساحة المنزرعة من القمح على حساب المحاصيل الأخرى مثل الكروم والزيتون ، إلى الحد الذي جعل بعض الأباطرة يقرر منع زراعة الكروم حفاظا على أنتاج أكبر كمية من القمح الإفريقي .

كما كانت إفريقية مصدرا هام لتزويد عالم البحر المتوسط الروماني بزيت الزيتون والكروم حيث بدأت تنمو زراعة تلك المحاصيل إلى الجنوب من خط الساحل في العصر الروماني . وكانت إفريقية بالرغم من وفرة سكانها تنتج ما كان يجعلها في مأمن من المجاعات التى أنهكت باقى أجزاء الإمبراطورية الأخرى .

وإذا كان الاهتمام الروماني بالشمال الإفريقي قد أنصب على الجانب الزراعي في المقام الأول ، بالإضافة إلى اهتمامات أخرى تجارية وسياسية ، فإن الرومان قد أهتموا بصورة مبكرة بالتجارة مع شرق إفريقية منذ البداية . ذلك أن أنتشار حالة الأمن والإستقرار الروماني في حوض البحر المتوسط أدى إلى نمو مدنه وأقاليمه وإقبال الناس على شراء السلع الكمالية التى كانت إفريقية وعالم المحيط الهندي هى مصدرها الأساسي ، ولذلك فقد قام الإمبراطور أغسطس (٢١ ق .م - ١٤ م) بالاهتمام بتأمين الطرق التجارة وعبر البحر الأحمر ومصر المتجهة إلى تلك الجهات . وقد استمر ازدهار ميناء الإسكندرية بنفس الدرجة في العصر الهلينستي . كما استمر أداء هذا الميناء بقوة اقتصادية أشمل في العصر الروماني[2] .

---

(١) جوليان المرجع نفسه ، ط١ ، ص ٢٢٥ .

(٢) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٥ .

واستمرت الاهتمامات الرومانية بتجارة إفريقية الشرقية من أجل تأمين تجارة الذهب والقصدير والنحاس والبرونز ، فقام الرومان باحتلال ميناء عدن زمن الإمبراطور كلاوديوس (٤١ - ٥٤م) . وفي عهد الأباطرة تراجان وهادريان اهتم الرومان بالمواصلات البرية والبحرية الموصلة إلى المحيط الهندي حيث سواحل شرق إفريقية ، بحيث امتد النفوذ الروماني جنوبا" في بلاد العرب حتى أصبحت دولة النبط ولاية رومانية ، كما أنشأ تراجان طريقا بريا من أيلة إلى ظفار على ساحل المحيط الهندي عبر الحجاز ، واتجه الرومان إلى إصلاح القناة القديمة التى تصل ميناء الإسكندرية بالبحر الأحمر عبر نهر النيل ، حتى سميت قناة تراجان "[1] وأرسلت الإدارة الرومانية سفنها الحربية لحماية مياه البحر الأحمر من القراصنة . وقد ترتب على تلك السياسة ازدهار الملاحة في البحر الأحمر حتى أنه نافس في هذا المجال الحركة التجارية في الخليج العربي .

وصلت البعثات الرومانية إلى جنوب ساحل إفريقية الشرقي وإلى داخل القارة وبدأ الرومان يتعرفون على جبال كلمنجارو ورويتزوري ، وبحيرات فكتوريا وألبرت في وسط القارة كما ظهرت معالم القارة الإفريقية على خرائط الرومان لأول مرة وبدأت سفن الرومان تصل إلى مناطق بعيدة على ساحل شرقي إفريقية ، فقد وصلت إلى رهابتا Rhapta جنوب زنجبار بالقرب من دلتا الزمبيزي [2] .

وفي محاولة رومانية لاختراق إفريقية والوصول إلى قلبها عبر وادى النيل أرسل الرومان بعثات لاستكشاف منابع النيل سنة ٦٦ م ، ووصلت تلك البعثات حتى النيل الأبيض ، جنوب الخرطوم الحالة، غير أن وجود الستنقعات والأحراش أعاقت طريق الرحلة إلى داخل القارة الإفريقية . وظلت مصر هى محور اهتمام الرومان للتوجه إلى داخل القارة الإفريقية . ومن أجل ذلك فقد حاول الرومان استرضاء الجاليات الإفريقية في مصر والإسكندرية . فقاموا على سبيل المثال ، ببناء المعابد للجاليات الحبشية في مصر . كما شيد الأمبراطور أغسطس معبدا في كلابشة للرب النوبي مندوليس . كما رمم معابد النوبة لاسترضاء أهلها . حتى أن الرومان حافظوا على طرق الاتصال المصرية القديمة بإفريقية .[3] ودخلت الكنيسة في تلك الأهتمامات حيث نشطت في نشر رسالتها إلى

(١) حوراني ، المرجع السابق ، ص ٤٦ ، ص ٤٩ .

(٢) الجمل ، تاريخ كشف افريقية ، ص ٤٠ .

(٣) الجمل ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

الأفارقة عبر تلك الطرق وأصبحت النوبة والحبشة من أهم معاقل الكنيسة في قارة إفريقية ، بعد ذلك .

وزادت الاهتمامات الرومانية بمنفذ وادي النيل للوصول إلى داخل القارة بعد أن اضطربت أحوال الشمال الإفريقي والإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس / م ، بعد سلسلة النكسات التى تعرضت لها ، وكان أهمها في إفريقية قيام قبائل الوندال [1] ، بالنزول إلى الساحل الشمالي لإفريقية وتكوين مملكة لهم هناك ، بعد أن تمكنوا من السيطرة على بعض مناطق من جنوب أوروبا . فقد تمكن القائد الوندالي جيسريك سنة ٤٢٩ م من عبور مضيق عمودي هرقل (جبل طارق بعد ذلك) ونزل إلى الساحل الإفريقي مستغلاً تدهور أوضاعه وانقسامات رجال كنيسته وثورة سكانه من البربر .

وبدأ فى الانتشار في تلك المناطق والحاق الهزائم بالرومان في إفريقية . وتحالفوا مع البربر ضد القائد الروماني بونيفاس ، وتمكنوا من إنزال الهزيمة به ، ثم مع الوندال سلطانهم على شمال إفريقية بعد ذلك وعلى جزر البحر المتوسط مثل كورسيكا وسردينيا والبليار ، وحتى جزر بحر ايجه من الشمال الشرقي للبحر المتوسط . وبدأ الوندال في مواجهة القسطنطينية ، بعد أن أصبحوا سادة البحر المتوسط وشمال إفريقية .

استغل الوندال إمكانيات قارة إفريقية من السلع الزراعية والتجارات القادمة عبر الصحراء ، وحققوا أرباحاً" استفادوا بها في تقوية جيوشهم وزيادة نفوذهم حتى تمكنوا

---

(١) الوندال Vandals من الشعوب الجرمانية الشرقية شأنها في ذلك شأن البرجنديين . غادروا ساحل بحر البلطيق.ثم توجهوا إلى بوهيا في بداية القرن الأول الميلادي . وبعد ذلك انقسموا إلى قسمين : القسم الأول تحرك صوب هنغاريا وعرفوا باسم الوندال الأسدنجيين ،
والفريق الثاني ظل بالقرب من بوهيميا وعرفوا باسم الوندال السلينجين .'وبعد قدوم جماعات الهون انضم الوندال إلى الآلان وأتجهوا إلى داخل الإمبراطورية الرومانية بوصفهم معاهدين . لكنهم أحسوا بضعف الوجود العسكري الروماني في منطقة الراين ودخلوا إلى مناطق الإمبراطورية الرومانية كغزاة سنة ٤٠٦م وعاثوا في تلك المناطق فسادا ، حتى ظهر بينهم قائد عظيم هو جيسريك الذي نظم صفوفهم وقادهم صوب الساحل الإفريقي .
- توينبي ، تاريخ البشرية ، ترجمة نقولا زيادة ، ـ ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

سنة ٤٥٥ م من النزول على الأراضي الإيطالية ومحاصرة روما ودخولها ثم تدميرها وحرقها وأصبح جيسريك الوندالي حاكما لحوض البحر المتوسط حتى وفاته سنة ٤٧٧م[١]

لكن الوندال عاشوا أغرابا مع أهل افريقية بسبب اعتناقهم المذهب الأريوسي، المخالف للمذهب الأثناسيوسي لروما ، والمذهب الروماني المنتشر بين سكان إفريقية ، كما أنهم ظلوا مرتبطين بأوروبا في أحلامهم وتطلعاتهم ولم يعملوا على مد نفوذهم إلى داخل القارة الإفريقية . وبدأت دولتهم تعاني من الخلافات والضعف حتى جاء القرن السادس /م لتبدأ الإمبراطورية البيزنطية تخطط لطردهم من الشمال الإفريقي ، ففي سنة ٥٣٣ م أرسل الإمبراطور جسبتيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) قائده بليزاريوس على رأس حملة كبيرة إلى إفريقية بسبب الخلافات التى وقعت داخل القيادة الوندالية في إفريقية فأستغل القائد البيزنطي إنشغال الوندال في قمع ثورة جزيرة سردينيا فنزل بقواته على الساحل وتمكن من احتلال قرطاجنة ، وهزم الوندال في معركتين [٢] ، وعادت شمال إفريقية إلى النفوذ الروماني من جديد حتى الفتح الإسلامي ، بعد ذلك بقليل .

كانت شمال إفريقية قد بدأت في التغير الإجتماعي منذ نزول الرومان بها ، وحتى قدوم الوندال ، حيث استقر بها العديد من الرومان الذين ارتبطوا بالسياسات الرومانية على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، خاصة المستثمرين في مجال الزراعة والتجارة ، حيث امتلكوا أراضي واسعة من الأراضي الإفريقية الخصبة ، في حين بدأت قبائل البربر في التوجه صوب الجنوب في مناطق الوديان والجبال [٣] . وبدأوا في تجميع صفوفهم وتوجيه ضربات متكررة ضد القوات والإدارات الرومانية في الشمال الإفريقي ، حتى أنهم اعتنقوا المذهب الروماني المناسب لظروفهم . كما تعاونوا مع الوندال في بداية الأمر ظنا منهم بأنهم سيخلصونهم من الوضع الروماني .

دخلت القارة الإفريقية أيضا كعنصر أساسي في مجال المنافسة الدولية في العالم

---

(١) عمران ، محمود سعيد ، دكتور ، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٧٨ .

(٢) عمران ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٣) حوليان ، المرجع لسابق ، جـ١ ، ص ١٣٢ .

القديم . ذلك أن الفرس [1] الذين تزعموا نفوذ القوى الشرقية منذ منتصف الألف الأول ق .م . بدأوا في توجيه سياستهم صوب الإستفادة من ثروات إفريقية في محاولة لاحتكار تجارة العالم القديم . وكانت سياسة الفرس تجاه إفريقية من جبهتين :

الجبهة الأولى : مصر والبحر الأحمر : حيث تمكنوا من الوصول إلى مصر وإخضاعها فترة من الزمن لنفوذهم بعد أن احتلوا مناطق الشرق الأدنى القديم [2] . وبدأوا في تنفيذ سياسات اقتصادية لتجارة مصر والبحر الأحمر وإفريقية . وبذلك تحقق حلمهم القديم في احتكار تجارة الشرق ، برية وبحرية ، المتجهة إلى حوض البحر المتوسط حيث أعدادهم اليونان ثم الرومان ، وقد أزعج هذا الأمر بالفعل اليونان والرومان .

الجبهة الثانية : الخليج العربي وسواحل شبه الجزيرة العربية وشرقي إفريقية : حيث بدأوا في السيطرة على سواحل الخليج العربي ، خاصة في العصر الساساني ، اتخذوا من طيسفون على دجلة عاصمة لهم ، وأصبحت السواحل العربية الغربية من الخليج تحت السيطرة الفارسية لفترات طويلة من الزمن ، وكان لسكان تلك السواحل علاقات ومصالح تجارية مع شرقي إفريقية وسواحل المحيط الهندي . وقد أستغل الفرس تلك الخبرات والعلاقات وبدأوا في توسيع نفوذهم نحو شرقي إفريقية . ومن أجل احتكار تجارة المحيط الهندي حاولوا السيطرة على اليمن ، ودار صراع طويل بينهم وبين الأحباش استمرت حتى ظهور الإسلام ، وحاول الرومان دعم الأحباش للوقوف في وجه الفرس في المنطقة .

ظهر النفوذ الفارسي في إفريقية الشرقية بوضوح زمن الملك الفارسي الساساني أردشير الأول (٢٢٥ - ٢٤١م) الذي عمل على النهوض بالملاحة في منطقة الخليج

---

(١) بدأ عصر إيران الذهبي منذ القرن السادس قبل الميلاد ، حينما ظهرت الدولة الأخمينية ، التى أصبحت أعظم امبراطوريات وحضارات العالم القديم ، ودانت لها أمم الشرق . وظهرت شخصية حاكم الفرس الشجاع " قورش " عام ٥٥٩ ق .م وإستطاع بعد ثلاث سنوات من حكمه أن يكون سيدا على المنطقة ، وتميز بالشجاعة والخبرة في حروبه ، حيث تمكن من القضاء على القوى المجاورة له رغم تحالفها ضده . ومات سنة ٥٣٠ ق.م ، بعد أن أسس امبراطورية واسعة للفرس ضمت بلدان الشرق الأدنى القديم . وخلفه قمبيز على عرش البلاد الذي أطلق عليه من قبل الإغريق " الطاغية " . فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ /٢١٦ .

(٢) تمكن قمبيز من دخول مصر زمن الملك " بسماتيك الثالث " في بداية حكمه .

والمحيط الهندي ، فأنشأ عدة موانىء بحرية وتعقب القراصنة . وترتب على ذلك ازدهار العلاقات الفارسية الإفريقية في المجالات التجارية خاصة تجارة الذهب والرقيق والحديد والعاج وغير ذلك من سلع الساحل الإفريقي .

ففي نهاية القرن الثالث الميلادي قام نرسي (٢٩٢ - ٣٠٢م) بعقد معاهدة مع زند أفريك شاه ملك الزنج على ساحل إفريقية الشرقي الشمالي ، في الصومال ، وفرض الفرس نفوذهم في تلك الفترة على جزيرة سوقطري التى أصبحت مركزا فارسيا أمام السواحل الإفريقية ، وتواري أمامها الوجود اليوناني والروماني في الجزيرة [١] ، وتم بناء معابد فارسية بها ، نظرا لوجود جالية فارسية كبيرة بين سكان الجزيرة ، وبدأت السفن الفارسية منها تدخل موانىء البحر الأحمر الإفريقية أو تتجه صوب ساحل إفريقية الشرقي جنوبا . ومكن لهم هذا الوضع مع القوة الإفريقية الناشئة في الحبشة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي وهى دولة أكسوم التى ظهرت كقوة عالمية منذ القرن الرابع الميلادي [٢] ، وأصبحت حليفة مع الرومان لاعتبارات دينية وثقافية . وكان وجود تلك القوة الإفريقية هى الأمل الوحيد أمام الرومان للوصول إلى تجارات إفريقية والمحيط الهندي بعد أن استحكمت العداوة مع الفرس الذين سددوا منافذ التجارة الشرقية أمامهم .

اتخذ الرومان سلسلة من الإجراءات لدعم الأحباش في أكسوم سياسيا ودينيا وعسكريا أمام الفرس ، فقد أرسل الإمبرطور الروماني جستنيان وفدا إلى مملكة أكسوم ، عارضا خدمات الرومان العسكرية والإقتصادية للأحباش مقابل أن يؤمن الأحباش لهم تجارة المحيط الهندي وإفريقية . وقد تمكن الأحباش من القيام بهذا الدور ، حيث استغلوا الأحوال الأقتصادية السيئة التى تمر بها منطقة جنوب الجزيرة العربية ، ومدخل البحر الأحمر ، حينما انتكست تجارة اللبان والبخور ، بعد تحول سكان البحر المتوسط إلى المسيحية وضعف إقبال الناس على تلك السلع التى أصبحت من موروثات النظام الوثنى ، ففرضتم لنفوذهم على منطقة اليمن واتجهت شمالا صوب الحجاز من أجل مدنفوذهم شمالا . ودار صراع طويل بينهم . بينهم وبين الفرس من أجل التحكم في اليمن ومدخل البحر الأحمر ، واستمر هذا الصراع مستمر انتهى الأمر في القرن السابق الميلادي بظهور

---

(١) النعيم ، المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٢) فخري ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

الإسلام ، وزوال القوى العالمية التقليدية التى كانت تتحكم في إفريقية والعالم القديم .

وهكذا ظل لإفريقية خصوصياتها الهامة في السياسة العالمية بين قوى العالم القديم . وكان منبع الأهتمام بسبب أهمية موقعها وثرواتها الهامة . وإن كانت تلك الأهتمامات قد انصبت على مصالح تلك القوى دون الإلتفات إلى ظروف ومصالح الأفارقة أنفسهم ، الأمر الذي ميز الدور الإسلامي الجديد في القارة .

(٣)

ممالك إفريقيّة قديمة
البربر - الأحباش

أولا" : ممالك البربر في شمال إفريقية في العصور القديمة :

تخلو المكتبة التاريخية في الشرق والغرب عن دراسات جادة عن تاريخ ممالك البربر ولم يظهر البربر بين صفحات تاريخ العالم القديم إلا حينما أصبح لهم احتكاك بنفوذ القوى الخارجية في إفريقية مثل اليونان والرومان وقرطاجنة . ولذلك فقد ظل الباحثون على جهل تام بحركة القبائل البربرية وانتشارها أو انهيارها والأحداث التى واجهتها . لكنه تم تجميع أخبار عن الممالك والإمارات البربرية التى كانت معاصرة لمرحلة التوسع الروماني في إفريقية ، على أساس أنها تمثل قوى محلية عرقلت الأنتشار الروماني فوصلت أخبارها إلى مؤرخى الإمبراطورية . ومن هذه الممالك ثلاث ممالك هى كما يلي :

١ - مملكة الموريين " " بالمغرب الأقصى - مراكش حاليا :

تأسست منذ القرن الثالث قبل الميلاد على أساس تحالف كبير من القبائل البربرية ، ومدت نفوذها إلى منطقة جدالة في الجنوب ، حيث مملكتى ماسولة ومازيسولة . وفي الشرق وصلت حدودها إلى نهر ملوية السفلى . وفى نهاية القرن الثالث تمكنت من توسيع حدودها حتى وصلت إلى مصب نهر المساقة ، في الشمال الغربي لقسنطينية [١] .

ويبدو أن قبائل الموريين كانت لها دورها الإقتصادي في زراعة سهول المغرب الأقصى قبل الميلاد ، وظلت تلك القبائل لاتمثل أهمية على المستوى الأولى ، حتى تمكنت من توحيد نفسها في حلف منذ القرن الثالث حيث عثر على نفوذ تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد تشير إلى حركة واسعة لشراء القمح من تلك المناطق مما يدل على خبرة أهلها في هذا المجال . وكانت الممالك والقبائل البربرية المجاورة لها مثل ماسولة ومازيسولة تتحرك في الأراضي القرطاجية الواقعة إلى الشرقيين الموريين ، في المنطقة التي تسمى

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص : ١٣١ .

نوميديا ويبدو أن هذا الاسم مأخوذ من لهجة البلاد ويبدو أن تلك القبائل كانت من منطقة من المورييم .

٢ - مملكة مازيسولة " في منطقة الجزائر حاليا "

ظهرت بوضوح في أحداث القرن الثالث قبل الميلاد ، ومدت حدودها شرقا إلى المسافة ورأس تريتون ، شمال قسنطينة ، وكانت سيرته (قسنطينة) قسما من تلك المملكة وشكلت هى وصاغة (تقع شرق نهر ملوية) عاصمتين لها .

وأتخذت مازيسولة عاصمتها في منطقة استراتيجية يصعب الوصول إليها ، حيث تقع العاصمة على مرتفع صخري ومحاطة بمنحدرات وعرة ، يجري من بينها نهر المساقة في شكل خور ليس له شواطىء . ولذلك ظلت المدينة منيعة فترة طويلة من الزمن . كما أن المنطقة الصخرية المحيطة بها حفظت مياه الأمطار في مسامها ليستفيد منها السكان في وقت الجفاف .

واحتلت مملكة مازيسولة أهم مناطق بلاد المغرب خصوبة ، حيث الأرض الخصبة بين الأودية ، والمياه المتوفرة من الأنهار والأمطار ، حتى ضرب بسنابل قمحها المثل فى الطول ، كما أن أهلها كانوا لا يبذلون جهدا" كبيرا" في زراعة الأرض بسبب خصوبتها بحيث كانت تدر عليهم أضعاف ماتدره أراضي جيرانهم من نفس المحصول .

ومن أهم زعماء تلك المملكة البربرية " سيفاكس " حيث تمكن من تجميع قوى مملكة ، وأصبح زعيما أقليميا هاما ، كان من الصعب على القوى المجاورة أن تغفل دوره فمدت إليه قرطاجنة يدها ، وتزوج من فتاة قرطاجية . لكن هذا الزعيم واجهته المشاكل من الزعيم البربري المجاور وهو مسينا الذي يمكن من ضم مملكة مازيسولة إلى مملكته البربرية التى تعرف بأسم مملكة فاسولة " [١]

٣ - مملكة ماسولة :

ظهرت تلك المملكة على حدود ممالك البربر الشرقية ، وتقلصت حدودها أمام التوسع القرطاجي منذ البداية ، ولذلك كان لها أهميتها في الحرب البونية التى نشبت في المنطقة

(١) جولبان ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

ومن أهم رجالها "غايا "[1] الذي لم يخلفه في الحكم ابنه الأكبر " مسينسا بل ورثه أخوه ثم ابن أخيه . لكن مسينسا ظهر زمن ضعف المملكة في القرن الثالث ق . م وسرعان ما أصبح هذا البطل زعيما لمملكة ماسولة ، وبدأ يجمع قوى مملكته حتى تمكن من وقف زحف مازيسولة المجاورة ، ووسع حدود مملكته غربا حتى نهر ملويه ، وشرقا حتى توسكة ، بالقرب من طبرقة . وكوت جيشا قويا وأسطولا كبيرا .

بدأ مسينسا يحاول صهر شعبة البربري في دولة موحدة ، لكن المصالح الرومانية وقفت عائقا أمام هذا الزعيم الماسولي ، ولم يتمكن من تحقيق أحلامه . لكنه ترك آثارا هامة في تاريخ ومدينة البربر تطور النظم القبلية إلى نظم عامة. ومن أجل توفير موارد مالية لدولته سعى إلى ضرائب على جماعات البدو في دولته ، كما شجع الزراعة ، ونشر الأمن والإستقرار في ربوع مملكة البربرية . وترتب على هذا الاستقرار ازدهار الزراعة والتجارة وإحياء الأراضي البور .

ولذلك فإنه صاحب أول " ثورة اقتصادية "[2] تقع في تاريخ بلاد المغرب بين سكانها البربر ، فأزدهرت البلاد في عصره ، حتى أنه ترك لكل واحد من أبنائه ٨٧٤ هكتارا" مجهزة بالآلات الزراعية اللازمة للاستغلال . وظهرت في عصره القرى كبداية للاستقرار من قبل الفلاحين والرعاة . كما أصدر لدولته دستورا على غرار قوانين قرطاخة يعتمد على حكام يسمون الأسباط . وظهرت شخصية حضارية جديدة لبلاد المغرب في عهده .

وقد أضفى مسينسا على معتقدات البربر مسحة جديدة ، فقد ظهر في اصلاحاته في مظهر إله ، وظهرت في عهده عبادة الإله الملك . وبُعد مرور عشر سنوات من وفاته أقيم له معبد في توقة (دقة) [3]. وكان مولعا بالفكر والثقافة اليونانية ولذلك فقد حرص على أن يتلقى أبناؤه تربية يونانية . وظهرت آثار الفكر اليوناني عنده حينما جعل في دستوره قانونا يجعل الخلافة من بعده لأكبر الأبناء مثلما هو الشأن في المدن

---

(١) جوليان ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

(٢) جوليان ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٢) على أساس استغلال أراضي افريقية من قبل أهلها ، دون الاعتماد على الرومان وغيرهم في استغلال إمكانيات إفريقية .

اليونانية.

وظهرت على يد مسينسا نظريته الجديدة التى تنادي بأن " إفريقية للإفريقيين " وكان من شأن تلك النظرية أن تجمع قبائل البربر حوله من كل مكان وتسحر رعاياه الميالين بطبعهم إلى كره الأجانب . ومن هنا فقد وضع في خططه الإستيلاء على قرطاجنة قبله بلاد البربر الحضارية . كما بدأ يفكر في إخضاع بلاد المغرب حتى ساحل المحيط الأطلسي .تحت سيطرته . ولذلك فإن روما بدأت تخشى من طموحها في منطقة الشمال الإفريقي وخاصته أن كان يرفى إلى تكوين إمبراطورية بربرية جنوب البحرالمتوسط . ومات مسينسا سنة ١٤٨ق .م . وكان الزعيم البربري من بين أهم شخصيات تاريخ إفريقية عامة والبربر خاصة . الأمر الذي جعل بلاد البربر من جيد إلى نفوذ القوى الخارجية .

وبعد موته وزع مملكة مسينسا بين أبنائه الثلاثة [1] ، حسب مصلحة روما، خوفا من وجود خليفة قوى من بعده يسير على دربه في توحيد بلاد البربر ، وبالتالي إغلاق الأبواب الإفريقية أمام المصالح الرومانية .

وبعد موته بقليل وقعت تطورات خطيرة في تاريخ إفريقية ، حيث سقطت قرطاج أمام روما بعد فترة طويلة من الصراع بينهما ، وقررت روما سنة ١٤٦ ق .م تحويل قرطاجنة وممتلكاتها في الشمال الإفريقي وحوض البحر المتوسط إلى مقاطعة رومانية باسم المقاطعة الإفريقية أوPrarincia Africa ولاية إفريقية .

وعهدت روما إلى حكم إفريقية إلى قاض أو رتبة مساعد قنصل ، ويعين لمدة سنة ، ثم طور هذا المنصب بعد ذلك إلى درجة وال مثل بقية الولاة . وكان هذا الوالي مكلفا بالدفاع عن الحدود ضد البربر من البر والقراصنة من البحر ، والمحافظة على الأمن الداخلي بواسطة جيوش يعين مجلس الشيوخ كل سنة عدد جنودها ، ولكن هذا الوالي كان يستعين بالحلفاء من الإمارات الإفريقية المجاورة وقت الخطر .

---

(١) وهم : الأبن الأكبر " ميسبسا " الذى تولى الإدارة في العاصمة سيرته . والابن الثاني " غلوسة " الذي تولى قيادة الجيش . والأبن الثالث " مستنبعل " الذى تولى القضاء وبعد وفاة الأخوين غلوسة ومستنبعل انفرد ميسبسا بالحكم . وبدأت روما تلاحقه بالعديد من الالتزامات .

وتحولت أراضي قرطاجنة وشمال إفريقية إلى أملاك رومانية . وكان على الرعايا الذين بقيت أملاكهم في حوزتهم بصفة وقتية أن يدفعوا ضريبة . وكان الوالى مهتما في المقام الأول بتأمين جمع الضرائب وتأمين أعمال رجال التجارة [1] . ولذلك أهتم الرومان في إفريقية بالجوانب الإقتصادية أكثر من أهتماماتهم الفكرية والثقافية ، حيث تركوا التأثيرات الحضارية القديمة بين البربر من الحضارة القرطاجية أو اليونانية أو الحضارة المصرية من قبل .

وتعرضت منطقة نوميديا وبلاد المغرب الأقصى ، موريتانيا ، لعدد كبير من الخلافات الداخلية والأطماع الخارجية ، وأصبحت البلاد ساحة لتصفية حسابات الزعماء والشيوخ في روما ، فتدهورت أحوال البلاد وفرضت روما سيطرتها على مساحات واسعة في الشمال الإفريقي . وحينما توجه قيصر إلى إفريقية في منتصف القرن الأول تمكن من السيطرة على مساحات واسعة . وبدأ ينظم البلاد من جديد . وقد تواصلت الهيمنة الرومانية على إفريقية ، واستمر البربر في القيام بثورات ضد الرومان .

ومن أهم الثورات التى وقعت في إفريقية ضد الرومان ثورة البربر بقيادة " تكفاريناس Tacfacinas" الذي تمكن من تنظيم صفوف البربر في زمن الأمبرطور الروماني تيبريوس . وتمكن هذا القائد البربري من دحر الجيوش الرومانية لمدة سبع سنوات . وكان مركزه منطقة نوميديا (الجزائر) ، حيث استغل طاقات البربر وخلق منهم جيشا من الفرسان على غرار الجيوش الرومانية الجيدة التدريب . وأمتدت حركة تكفاريناس إلى الغرب حتى وصلت إلى بربر موريتانيا ، وسيرته في الشرق ، كما امتدت صوب جنوب حيث قبائل بدو البربر . وفي سنة ١٧ م هزم تكفاريناس أمام جيش روماني[2] .

وبعد هزيمته اضطر للإنسحاب صوب الصحراء في الجنوب ليعيد تنظيم صفوفه ويعاود الهجوم من جديد ، واستمر في سياسته القائمه بالهجوم الخاطف والسريع ضد الرومان ، فعجز الرومان عن إلقاء القبض على عدوهم . وفي النهاية ألقى القبض عليه أثناء حصار حصنه فرمى بنفسه وتخلص من الأسر ومات . وقد استغل الرومان اختفائه ليزحفوا بجيوشهم صوب الجنوب ، وفى هذا التوجه الجديد صوب منطقة الشطوط دلالة على أهمية إفريقية للرومان . حيث بدأ الرومان في محاولة تأمين مستعمراتهم بها

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ،صص ١٥٤ . (٢) جوليان ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

واستغلال أراضيها .

كما نشبت ثورات عدة في منطقة مورتيانيا ، في القرن الثاني الميلادي ، اضطر الرومان إلى طلب النجدات من جيوشهم العاملة في سوريا ومصر واستمرت حالة القلاقل تسود افريقية حتى قدوم الوندال[1] .لكن هذا لم يمنع قيام الرومان بمحاولة الاستفادة من أراضى المنطقة في الزراعة وكذلك في الوساطة التجارية بين محاصيل إفريقية وبين سلع إفريقية جنوب الصحراء من جهة وبين مراكز الإمبراطورية الرومانية في حوض البحر المتوسط وحققوا أرباحا طائلة من وراء تلك الوساطة . ولذلك لم يفرط الرومان فيها رغم الأطماع الخارجية والثورات الداخلية .

ثانيا : أكسوم ... قوة إفريقية في البحر الأحمر والمحيط الهندي .

وعلى الجانب الشمالي الشرقي للقارة الإفريقية ، وفى مواجهة حضارات الشرق الأدنى القديم العريقة ، ظهرت أكسوم ممثلة لإفريقية بين قوى العالم القديم . حينما تمكنت فرض نفسها على الساحة الدولية وإيجاد موقع هام لها في مجال المنافسات العالمية القديمة .

ذلك أنه في القرن الرابع الميلادي شهدت في منطقة الحبشة مملكة إفريقية [2] هى مملكة أكسوم ، بعد أن بدأت في الظهور من القرون الأولى للميلاد ، وساعدتها الظروف الإقتصادية والسياسية السيئة التى شهدتها منطقة جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، منذ القرن الأول للميلاد وحتى بداية القرن الرابع . فقد أدت الخلافات والصراعات الداخلية في اليمن منذ القرن الأول للميلاد إلى حدوث فراغ سياسي بها فمدت أكسوم نفوذها إلى اليمن وأصبحت طرفا في الصراع الداخلي،فقد تحالفت مع همدان ضدحمير[3]، حتى جاء الوقت لتفرض سيطرتها القوية على اليمن وتحولها إلى أحدى أقاليمها.

---

(١) جوليان ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

(٢) تشير كثير من الدراسات إلى أن أهل تلك المملكة يرجع أصولهم إلى عناصر عربية يمنية هاجرت من اليمن عبر باب المندب إلى منطقة الهضبة الحبشية وكونت لها إمارة هناك نمت فيا بعد لتصبح دولة أكسوم الحبشية . وبعض النظر عن ذلك فإن معظم العناصر العرقية في الحبشة ترجع إلى أصول سامية . لكننا نشير إلى أنها نمت وترعرت في أرض إفريقية .

(٣) بافقيه ، تاريخ اليمن القديم ، ص ١٩٧ . طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ .

وقبل أن ينتهي القرن الرابع الميلادي وقعت تطورات في العالم القديم ، استفادت منها دولة الأحباش ، فقد بدأت الديانة المسيحية تنتشر بين سكان وأقاليم البحر المتوسط والشرق الأدنى القديم ، مما أدى إلى تخلى الناس عن العادات الوثنية وخاصة في مجال الدفن التى كانت تستهلك مقادير كبيرة من البخور واللبان ، وهما من أهم سلع تجارة الشرق ، [1] فانكست تجارة البخور واللبان وغيرها من السلع التى كانت في المعابد لأغراض العقائد الوثنية وفقدت منطقة جنوب الجزيرة العربية أهميتها في هذا المضمار ، وتدهور أحوال مملكة شبوة وتيماء ومأرب وغيرها من المناطق التى كانت تستفيد من تلك التجارة ، كما تدهورت منطقة ظفار، التى تعتمد بصورة كبيرة في إنتاج اللبان وتصديره[2].

---

(١) قلعجي ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) ارتبطت منطقة ظفار في جنوب عمان بانتاج اللبان منذ القدم . وقد أخفى أهل ظفار أن تكون بلادهم موطنا لانتاج اللبان حتى لاتتعرض بلادهم للغزو الخارجي ، حيث شكل اللبان سلعة استراتيجية في العالم القديم . وينتج اللبان في ظفار من شجرة برية في منطقة الأودية الداخلية من ظفار ويتم ذلك بأن يجرح جسم الشجرة في عدة مواضع ، حيث يبدأ سائله اللبان في النزول . وتسمى تلك العملية باسم التوقيع . وعمليات الجمع بأسم السعف . فالجمع الأول يسمى السعف الأول وهكذا ، وأجود الأنواع منه هى التى يتم جمعها في المرات الثانية والثالثة .

يتم تجميع اللبان في مراكز داخلية مثل واحة أندهور و ثمون ، أو موانىء ساحلية مثل ميناء سمهرام . ويبدأ تصديره . كما كانت هناك ممالك يمنية قامت من أجل خدمة تجارة اللبان مثل مملكة تيماء ، شبوة ، مأرب ، حيث يمر منها قوافل تجارة اللبان إلى منطقة البحر الأحمر وبلاد الشام عبر الحجاز ، والبحر المتوسط ومدينائه .

مثل اللبان أهمية عامة عند حضارات العالم القديم ، فالبنسبة للفراعنة استخدموه في التحنيط ، حيث عثر على كميات منه في مقبرة توت عنخ آمون ، كما استخدموه في الطب والإستطباب وعند اليونان استخدم في المعابد وفي الطب والعلاج أيضا . كما أن الرومان استهلكوا كميات كبيرة منه في معابدهم وفي احتفالاتهم وفي عادات الدفن الوثنية ، خاصة زمن الإمبراطور نيرون الذي استهلك كميات كبيرة أثناء دفن جثمان زوجته بومايا . وإستخدم اللبان أيضا عند اليهود والنصارى لتطهير صفوف المسلمين . أما الإسلام فقد نهى عن استخدام عادات حرق اللبان والبخور في المساجد باعتبارها عادة وثنية ، أى لم يجعلها عادة وقد استخدم الأطباء المسلمون اللبان في علاج كثير من الأمراض مثل الرب والتهاب الكلي والمفاصل وغير ذلك . أنظر : الغساني ، عبدالقادر ، ظفار أرض اللبان ، ص ٢٥ ومابعدها . حوراني ، المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ص ١٧٤ .

في الوقت نفسه زادت شوكة المسيحين في الإمبراطورية الرومانية بعد إعلان ميلانو باعتبار المسيحية ديانة شرعية فوقعت اضرابات في الإسكندرية بين اليهود والثونيين والمسيحيين مما أدى إلى اضطراب أحوال تجارة البحر الأحمر ، باعتبار الإسكندرية [١]. أهم منافذ التجارة في البحر الأحمر في العصور القديمة منذ إنشائها على يد الإسكندر المقدوني ، فتدهور أوضاع تجارة البحر الأحمر ، وتحولت التجارة إلى مناطق أواسط آسيا إلى القسطنطنية عبر فاس وآسيا الصغري . كما ترتب على قرار الإمبرطور الروماني قسطنطين نقل العاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنطنية سنة ٣٣٠م ، تحول طرق التجارة العالمية من البحر إلى الطريق البري عبر أواسط آسيا والأناضول إلى القسطنطنية ، العاصمة الجديدة [٢] . حيث تعتبر تلك الطرق هي الأقرب في الإتصال بين القسطنطينية وبين تجارات الصين .

وبذلك انتكست تجارة المحيط الهندي ، وتدهورت أحوال جنوب الجزيرة العربية اقتصاديا وسياسيا في القرن الرابع الميلادي بصورة واضحة ، الأمر الذي أدى إلى ازدياد نفوذ الأحباش في منطقة مدخل البحر الأحمر الجنوبي وفي منطقة جنوب الجزيرة العربية ، حيث استغلوا تلك الأوضاع السيئة وفرضوا سيطرتهم على اليمن وتطلعوا للتحرك شمالا لاستكمال السيطرة على الطرق التجارية البرية القديمة عبر الحجاز . كما أنهم أصبحوا سادة النشاط التجاري البحري في شمال المحيط الهندي ، فقد اعتمدوا على حلفائهم من التجار العرب وخاصة أهل ظفار في جلب ما يحتاجونه من تجارة الهند والصين وجنوبي شرق آسيا التي يعتمد عليها شعوب ومدنيات البحر المتوسط خاصة في الجوانب الدينية والنواحي الطبية والإحتفالات العامة .

ومد الأحباش نفوذهم في تلك الفترة حتى حدود مصر شمالا [٣]حيث فرضوا سيطرتهم على قبائل السودان الشرقي والبجة والجالا وغيرهم . وعبر السودان الشرقي أمتد النفوذ الحبشي حتى وصل إلى السودان الغربي [٤]، حيث ظهرت علاقات تجارية بين

---

(١) راجع عبدالحميد ، رأفت ، دكتور ، الدولة والكنيسة ، جـ١ ، ص ٦٢ ومابعدها .

(٢) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ٢٢ .

(٣) حينما أسقطوا مملكة مروي النوبية في شمال بلاد السودان الشرقي .

(٤) العارف ، ممتاز ، الأحباش بين مأرب وأكسوم ، ص ٤٣ ومابعدها ، بيروت ، ١٩٧٥ .

مملكة أكسوم وبين مملكة غانة الوثنية . وهو الأمر الذي يدل على أن مملكة أكسوم الحبشية فقلت أهم قوة سياسية وعسكرية في إفريقية وشمال المحيط الهندي الغربي وفي منطقة مدخل البحر الأحمر الجنوبي .

وبفضل الروابط العقائدية والتاريخية القديمة اعتمد الرومان في تلك الفترة على التحالف مع دولة أكسوم لتأمين وصول تجارة الهند والصين وشرقي إفريقية إليهم . وأصبح بذلك الأحباش امتدادا للنفوذ الروماني عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي وفي مياه المحيط الهندي ، بل وفي داخل القارة الإفريقية ، وهو الأمر الذي كان يحلم به الرومان منذ فترة طويلة [١].

وانتقلت حلبة الصراع الدولي من منطقة الهلال الخصيب وشرق البحر المتوسط إلى منطقة القرن الإفريقي وجنوب الجزيرة العربية ومدخل البحر الاحمر . ذلك أن الفرس باعتبارهم القوة الشرقية الأساسية المنافسة للرومان ، كانوا قد تمكنوا من بسط سيطرتهم على الطرق التجارية العالمية من أجل احتكار تجارة العالم القديم التى تمر بأراضيهم أو بالقرب منهم . وظهرت تلك السياسة التجارية الإحتكاريه بوضوح في زمن الأسرة الساسانية التى ظهرت منذ سنة ٢٢٥ م [٢] ، وتمكنت من مد نفوذ الفرس إلى مناطق جديدة بالقوقاز والأناضول بل وبسطوا سيطرتهم من جديد على سواحل الخليج العربي الغربية [٣]. ومن أجل اتمام سياسة إحتكار التجارة العالمية تطلع الفرس نحو البحر الأحمر باعتباره المنفذ التجاري على المحيط الهندي الذي لا يخضع لسيطرتهم .

وبدأ الأحباش يقفون بالمرصاد لمحاولات الفرس التدخل في منطقة اليمن وجنوب البحر الأحمر وإفريقية ، خاصة وإن الوجه العقائدى للصراع بينهما قد أضيف إلى الوجوه السياسية والإقتصادية بعد أن تحول ملوك أكسوم إلى المسيحية وتعصبوا لها . وظل البحر الأحمر وإفريقية تقدم للرومان وسكان البحر المتوسط حاجياتهم من سلع إفريقية والمحيط الهندي ولم يتأثروا بسياسة الإحتكار ضدهم . وتحرك التجار الرومان بحرية في

---

(١) العارف المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٢) فخري ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

(٣) قلعجي ، الخليج العربي ، ص ٤٥ .

موانىء البحر الأحمر وفي اليمن .

كان لمملكة أكسوم الإفريقية الحبشية أثرها في تاريخ الرومان وسياستهم في إفريقية من جهتين هما : -

الأولى : عدم تأثر الرومان بسياسة أعدائهم الفرس في احتكار طرق التجارة العالمية برية وبحرية ، فاعتمدوا على الأحباش في القيام بهذا الدور .

الثانى : بدأ الرومان في محاولات جديدة لاسترجاع نفوذهم القديم في البحر المتوسط والشرق الأدنى وشمال إفريقية . فمن القسطنطنية بدأ أباطرتها في إرسال جيوشهم وأساطيلهم نحو شمال إفريقية لطرد الوندال وغيرهم من الجماعات التى أسست لها نفوذا في إفريقية وجزر البحر المتوسط ، بل أن الرومان بدأوا في إرسال السفارات والمراسلات إلى أدوليس لرسم استراتيجية حبشية رومانية في المنطقة لمد النفوذ الروماني هناك وتدعيم النفوذ الحبشى في اليمن ضد الفرس . ولكن أحوال اليمن غير المستقرة أجلت هذه المشاريع في المنطقة [1].

فقد أدت مجريات الأحداث في اليمن إلى عكس التصور البيزنطي في تلك الفترة حيث احتدمت الخلافات القبلية في اليمن ولم يتمكن الأحباش من توطيد مركزهم فيها . كما أن أبرهة الذي تولى حكم اليمن للأحباش سنة ٥٢٥م، عمل على الإستقلال بشئون اليمن لنفسه وأصبح حاكمها المستقل ، حيث وفدت إليه الرسل من الملوك والأباطرة . وكان أبرهة قد توترت العلاقات بينه وبين نجاشى الحبشة بسبب ممارساته في اليمن

= رغم هزائم حمير أمام الأحباش وانتكاسة اليهود باليمن ، فإن أهل اليمن قد تعرضوا في بعض الأحيان لمضايقات التجار الرومان أو القوافل التجارية المتجهة إليهم . وتذكر بعض الروايات أن أحد زعماء حمير قد أسر قافلة تجارية حبشية متجهة شمالا" نحو الروم وأمر بقتل أفرادها مما أدى إلى ارسال مساعدات عسكرية عاجلة من الإمبراطور زينون إلى الأحباش لتمكينهم من فرض سيطرتهم على منطقة اليمن وجنوب الجزيرة العربية ، وظل اليمنيون يترقبون الظروف حتى تسمح لهم بشن محاولات لطرد التجار الرومان والأحباش من اليمن .

الناصري ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(١) جواد على ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،حـ٣ ، ص ٤٧٢ ومابعدها .

وسياسات القمع والشدة ضد أهلها . لكن نجاشي الحبشة لم يتمكن إرسال قواته العسكرية إلى اليمن لحساسية أوضاعها الدولية .

وعلى أرض اليمن تأسست مملكة حبشية إفريقية ، ذلك أن أبرهة استمر في ترسيخ أقدامه في اليمن وأمعن في الاستقلال عن نجاشي الحبشة ، فتلقب بالقاب الملك التي كان يتلقب ملوك اليمن " ملك سبأوذي ريدان وحضرموت وغيت وأعرابها في النجاد وفي المنخفضات " واستهل هذه الألقاب بعبارة " يحول الرحمن ومسيحه " . وبدأ بالفعل في نشر مسيحيته بين أهل اليمن ، فاشتهر ببناء الكنائس ، وكان أشهرها كنيسة بناها من حجارة قصر بلقيس بمأرب ، وجلب إليها الأخشاب والفضة والعاج من الهند وإفريقية ، حتى أصبحت بهجة للناظرين ، وموضوعا لروايات الإخباريين والرحالة [١].

ومن أرض اليمن حاول أبرهة تحقيق حلم الإسكندر القديم في ربط تجارة المحيط الهندي بالبحر المتوسط مباشرة ، وهو الحلم الذي لم يتمكن الإسكندر[٢] من تحقيقه بصورة نهائية لوفاته . فتوجه أبرهة إلى الحجاز على رأس حملة عسكرية كبيرة سنة ٥٧٠م (أو سنة ٥٧١م) ، حتى أن تلك الحملة روعت أهل مكة لما سمعوه عن أبرهة من قسوة وظلم [٣] لكن هذا الجيش منى بهزيمة قاسية [٤] ، فعاد إلى اليمن ، وبعد تلك الهزيمة بدأت الأحداث تتحرك في منطقة جنوب الجزيرة العربية واليمن ضد مصالح الأحباش .

بعد فشل محاولات اليمنيين الثورة والتخلص من الظلم الحبشي ، بدأوا يفكرون في الاستعانة بقوة خارجية لمساعدتهم ضد الأحباش ، وكان زعيم هذا الرأي هو الزعيم الحميري سيف بن ذي يزن الذي اكتسب شهرة عظيمة بين أهل اليمن منذ ذلك الوقت ،

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤٩٠ .

(٢) حينما أرسل حملاته من الخليج العربي للألتفاف حول سواحل الجزيرة العربية إلى البحر الأحمر وإرساله حملات كذلك عبر نهر السند إلى المحيط الهندي .

(٣) تاريخ الطبري ، جـ٢، ص ١٣٥ .

(٤) هناك تعليلات أخرى غير مقنعة لحملة الأحباش على مكة " أصحاب الفيل " منها قيام رجل عربي بتدنيس الكنيسة التى بناها أبرهة في مأرب فأقسم الأخير على هدم الكعبة انتقاما لذلك .
وقد عرف هذا العام باسم " عام الفيل" وقد ولد الرسول ، صلى عليه وسلم ، في هذا العام .
انظر تفسير ابن كثير ، جـ٤ ، ص ٥٤٨ . تفسير القرطبي ، جـ٢ ، ص ١٩٤ .

خاصة وأنه ينتمي إلى أشراف حمير ، وله اتصالات مع الأمراء والملوك المجاورين .

وبالفعل بدأ سيف في التوجه إلى كسري [1] طالبا العون لطرد الأحباش من بلاده ، فلقى الزعيم اليمني كل حفاوة وتكريم في البلاد الفارسي ، فكانت زيارته وطلبه فرصة كان الفرس يبحثون عنها منذ القدم ، تحقق تلك الحلم الفارسي القديم بالوصول إلى مياه البحر الأحمر ومنطقة القرن الإفريقي . دخلت القوات الفارسية اليمن سنة ٥٧٥م .

بدأ الفرس في عمليات تحويل النشاط التجاري الإفريقي واليمن صوب فارس عبر مناطق ودروب شبه الجزيرة العربية أو السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، حتى أنهم جعلوا من ميناء صحار العماني [2] أهم مراكز التجارية البحرية قاطبة . كما أتخذ الفرس سلسلة من الإجراءات في اليمن لإحكام قبضتهم عليها ، فقد أصبح وهرز قائد القوات الفارسية صاحب الكلمة العليا في البلاد ، وتولى من بعده ابنه المرزبان بن وهرز ، ومن

---

(١) من الروايات الشائعة عن المؤرخين والنسابة عن سبب مجوء سيف بن ذي يزن إلى الفرس الرواية التى تقول : أن أبرهة كان قد أنتزع ريحانة من زوجها أبي مرة وهو والد سيف ، ففر زوجها إلى العراق ، حيث التجأ إلى ملك الحيرة عمرو بن هند ، وظل عنده بينما بقى سيف واسمه " معد يكر بن أبى مرة مع أمه عند أبرهة .

في الوقت نفسه تمكن أبرهة من التمكن من ريحانة فأنجب منها ولدا" سمى سنطورق وسماه العرب المسروق . ونشب حقد بين الأخوين . حيث بدأ معديكر في التفكير فى الإنتقام من الأحباش وطردهم من البلاد . وأدرك منذ البداية صعوبة الاعتماد على القبائل العربية في تحقيق ذلك ، وأهتدى إلى ضرورة البحث عن قوة عالمية تكون معادية للأحباش . وتجنب التوجه إلى الفرس الذين تقاعسوا عن نصرة والده في البداية . وكذلك لم يتوجه إلى الروم لصداقتهم مع الأحباش .

وفي النهاية أدرك ضرورة التوجه صوب الفرس ، وكان واسطة في ذلك النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي رتب له لقاء كسري في طيسفون . فوافق كسري على ذلك وأرسل قوة فارسية إلى اليمن بقيادة وهرزن الكامجار . وتمكنت من تحقيق النصر على الأحباش وفرضت جزية عن أهل اليمن . البطري ، جـ٢ ، ص ١٣٤ ومابعدها .

(٢) ويلكنسون ، صحار ، تاريخ وحضارة ، ص ٥ ومابعدها ، طبعة وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عمان .

- مونيك ، كافران ، مدينة صحار العالمية وعلاقتها بطريق الحرير البحرية ، الندوة الدولية لطرق الحرير . جامعة السلطان قابوس ، ١٩٩٠م .

بعده حفيده البنجان بن المرزبان ، وأخيرا أصبح بازام ، الذي عين من قبل كسرى حتى وصلت رسالة الإسلام إلى أهل اليمن .

ورغم تلك الأحداث ظلت العلاقات الإفريقية اليمنية مستمرة ، حيث ظل تجار اليمن وقريش وغيرهم من تجار العرب مرتبطين بالنشاط التجاري في موانىء البحر الأحمر الحبشية . وهو الأمر الذى أدى إلى الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة ، حيث كان تجار العرب على علم بتلك النواحي ، وكان ميناءي الجار والشعيبة بمنطقة الحجاز أهم موانىء ساحل البحر الأحمر الشرقي صلة بميناء عدول (أوليس) الحبشي وكان الأحباش بينهم وبين العرب مودة وتعاطف .

ومع القرنين السادس والسابع الميلادين تعرضت أكسوم لعدة أخطار أدت إلى ضعفها وإنكماشها . ومن تلك الأخطار مايلى :

(١) زحف قبائل البجة من الشمال وتهديد تجارة أكسوم الحبشية مع قارة إفريقية يراء وقد هددت تلك القبائل الموانىء والمدن والقرى الحبشية وعكرت صفو الأمن والإستقرار في البارد . وبذلك خسرت أكسوم مواردها الهامة من العاج والذهب ، الذي يصلها عبر طرق ودروب برية مع إفريقية .

(٢) الفوضى الداخلية : فقد بدأت قبائل عفر وساهو وغيرهما في التمرد على سلطة دولة أكسوم ، فضاعت هيبة المملكة ، وإنهارات قواها العسكرية وتشتت مواردها العسكرية والأقتصادية . فتحولت المدن والقرى المزدهرة إلى خراب وأنقاض وتحولت المزارع إلى أراضي قاحلة ، وتلاشى مفهوم الدولة في تلك النواحى ، وانقطعت صلة الأحباش بالعالم الخارجي ، وبدأت القبائل المتمردة تشق البلاد من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال . وإرتدت كثير من القبائل إلى الوثنية عن النصرانية ، وكانت قبائل أجاو في مقدمتها ، وهى قبائل صاحبة نقود وسطوة في الهضبة .

وانزوت أكسوم لتصبح فيما بعد قرية ومكانا مقدسا وذكرى عند الأحباش وتركت تلك الدولة آثارا عظيمة من كنائس ومسلات وقصور ومدن وغيرها[١] . لقد كانت أكسوم نموذج للدولة الأفروآسيوية في التاريخ القديم ، ذلك أن معظم الدراسات الحديثة تشير إلى

(١) العارف ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

أصول تلك الدولة السامية ، وأنها هجرة قديمة من اليمن إلى أراضي الهضبة الحبشية ، بعد أن اشتهرت اليمن بهجراتها المستمرة في التاريخ القديم بسبب تغير أحوالها وأوضاعها من عصر لآخر . فقد نقل هؤلاء المهاجرون إلى أرض الحبشة إليهم " المقه" رب القمر عند السبئيين [1]، وكذلك قرص الشمس ، وتفاعلت رموز الديانات العربية مع الديانات الإفريقية في البنية الحبشية . كما كانت لغة أكسوم مثل دينها ،كمزيج من اللغات السامية العربية مع اللهجات الإفريقية ، ومع مرور الزمن تطورت اللغات العربية في الحبشة ، حتى أصبحت لغة أكسوم متميزة عن اللغات العربية وكذلك الإفريقية[2] .

وإذا كانت أكسوم قد شاركت في حلبة المنافسات الدولية سياسيا فإنها ساهمت بدور في الصراع العقائدى الذي شهده العالم قديما ، قبيل ظهور الإسلام . ذلك أن اليهودية كانت قد تمكنت من الانتشار بين قطاعات كبيرة من سكان اليمن وأصبح زعماء حمير يعتنقون تلك الديانة ، [3] منذ زعيمهم أبوكرب أسعد كامل (٣٨٥ - ٤٢٠م) وكانت تلك العقيدة اليهودية التى وصلت إلى اليمن تحمل حقدا دفينا ضد الرومان الذين نكلوا باليهود في أرض فلسطين مرتين الأولى سنة ٧٠م على يد الإمبراطور تيتوس والثانية سنة ١٣٢م على يد ها هادريان ، الذي غير رسم أورشليم إلى اسم روماني هو إليا.

وتحمس ملوك اليمن الحميريين لليهودية ضد المسيحية ووقفوا أمام أية محاولات لنشر المسيحية في بلادهم ، حتى أصبح لليهودية نفوذها الكبير على يد ذونواس . وقد أدى ذلك إلى التعرض للمصالح الرومانية التجارية في منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر .

في الجانب الإفريقي المقابل تحولت الحبشة إلى المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي بحكم صلاتها القوية مع كنيسة الإسكندرية في مصر ، كما وصلت المنطقة ارساليات

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤٧٢ .

(٢) جواد على ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٥ .

(٣) بافقيه ، تاريخ اليمن القديم ، ص ١٩٢ .

(٤) جواد علي ، المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

تبشيرية من بلاد الشام أيضا [1] . وكان المبشر السكندري فرمنتيوس هو أول من وصل الحبشة في سنة ٣٣٠م . وأصبح عيزنا أول ملك حبشي يعتنق المسيحية ، وأنشأ هذا الملك كنيسة في بلاده وجعل عليها الأسقف السكندري فرمنتيوس ، وقد أصبح هذا الأخير يحمل أسما عربيا هو " أبو سلامة " واستغل عيزانا نفوذه الكبير في إمبراطورية لنشر المسيحية .

وكان أى إنحسار للنفوذ الحبشي من اليمن يعقبه موجة من القتل والإبادة الجماعية لنصارى اليمن [2] وقد وقع ذلك في نجران على يد الملك الحميري ذونواس . ويبدو أن الزعيم اليمني كان يدرك الصلة بين أنتشار المسيحية وبين الرومان الذين أعانوا الأحباش على غزو بلاده . وظل هذا الصراع حتى ظهور الإسلام .

---

(١) توجه إلى الحبشة رهبان من طائفة السوريان فرارا" من خلافاتهم الرومان بعد أن رفضوا قرارات مجمع خلقدونية وأفسوس ، وقد عمل هؤلاء الرهبان على نشر المسيحية بين الأفارقة .

(٢) وهم الذين عرفوا في القرآن الكريم باسم " أصحاب الأخدود " وهناك روايات عديدة حول أعدادهم . ويبدو أنها كانت تمثل عمليات إبادة جماعية للنصاري في اليمن .

انظر : تفسير القرطبي ،جـ١٩، ص ٢٨٧ .

تاريخ الطبري ،جـ٢ ، ص ١٠٥ .

(٤)

تجـــارة إفـريقيـــة

شاركت إفريقية بدور هام في تجارة العالم القديم شرقه وغربه ، حيث ساهمت في تجارة المحيط الهندي من خلال منافذها الطويلة عليه من القرن الإفريقي حتى جنوب سفالة . كذلك ساهمت بدورها الهام في تجارة البحر المتوسط والشرق الأدنى .

وانتشرت السلع الإقريقية من الذهب والعاج والجلود والحديد والنحاس وغيرها من النباتات والحيوانات الإفريقية في مدن وموانىء العالم القديم ، وأصبحت تهفو إليها نفوس العالم القديم . حيث كانت لتلك السلع أهمية عند سكان الهند القديمة حفل حضارة هارابا وماهنجودارو بالسند وحضارات الفرس وحضارات بلاد الرافدين وغيرهم من حضارات الشرق الأدنى والبحر المتوسط [١] . في المقابل لم تشكل الواردات الإفريقية سوى نسبة ضئيلة من اقتصادها ، حيث كانت معظم مناطق إفريقية ، باستثناء مصر وقرطاجنة ، تعيش في مرحلة حضارية ترتبط بالأكتفاء الذاتي في أغلب الأحيان . وكانت الموارد تفوق حاجة السكان .

وحرصت الأمم القديمة على الوصول إلى التجارة الإفريقية في منابعها الأصلية ، ولذلك فقد سارع اليونان والعرب والفرس والفينيقيين بتأسيس مراكز تجارية لهم على سواحل إفريقية ومن خلال تلك الموانىء البحرية يتم تجميع السلع الإفريقية وإرسالها إلى بلادهم . وكانت الإسكندرية ، المركز الحضاري اليوناني ، أهم تلك المراكز في العصور القديمة ، وكانت عملية إنشائها من قبل الإسكندر الأكبر تنم عن استراتيجية إفريقية مع أهداف يونانية في الشرق الأدنى . وبالفعل فقد ظلت الإسكندرية أهم مركز تجاري إفريقي على الإطلاق ، وظلت لفترة طويلة في العصور القديمة تتحكم في عمليات تحديد أسعار السلع والمنتجات العالمية [٢] ، وأصبحت أهم مركز للتجار والمستثمرين في العصور القديمة وكانت قارة افريقية تمثل لها ظهيرا قاريا مستمرا

---

١ لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٥ .

٢ بادي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ١٧٥ .

ونظرا" للروابط التاريخية القديمة بين العرب وبين افريقية ، وبحكم القرب الجغرافي كان العرب أكثر الأمم القديمة مشاركة في مجال التجارة الإفريقية [١] ، كما كانوا أنشط الأمم القديمة في تأسيس مراكز تجارية لهم على السواحل الإفريقية وعبر مناطقها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق وحتى الوسطه وكانت إفريقية تشكل لهم المجال الحيوي بصورة مستمرة ، حتى قدوم الإستعمار الغربي الذي سد تلك المنافذ أمام العرب وأثار حفيظة الأفارقة ضدهم .

فمنذ القرن السادس ق.م هاجر السبأيون إلى منطقة القرن الإفريقي المواجهة لبلادهم وأسسوا مراكز لهم على ساحل أرتيريا والحبشة سميت بأسم " تعزية " كما استقر الأوسانيون أيضا في منطقة أزانيا ، التى تقع على الساحل الإفريقي المقابل لجزيرة بمبا وزنجبار ، وتوغلوا بعد ذلك إلى الجنوب . وظل النفوذ العربى واضحا في منطق الساحل الشرقي لافريقية حتى القرن الأول ق .م من سبأ وحتى حمير [٢] . كما تدل النقوش القديمة على هجرات مستمرة من قبائل سبئية وحميرية من اليمن إلى السواحل الإفريقية خاصة السواحل الأرتيرية والحبشية ، وكانت أهم تلك الهجرات هجرات قبلية " الأجاعز " إلى مرتفعات أرتيريا . وتبع تلك الهجرة هجرات أخرى عربية سميت باسم " حبشات" وفى مناطقها ظهرت مملكة أكسوم الحبشية . وقد نقل العرب معهم تجربتهم الحضارية في مجال التجارة والملاحة والفلاحة والعمارة [٣].

وتبع ذلك نجاح تلك الهجرات في استغلال إمكانيات إفريقية الزراعية والرعوية والطبيعية الأخرى ، فقد نقلوا معهم أساليب التحكم في المياه وتنظيم استغلالها ، كما نقلوا معهم آلات زراعية هامة مثل المحراث وغير ذلك ، فأحدث ذلك انقلابا إقتصاديا في إفريقية وبدأت مناطق إفريقية تصدر حاصلاتها من موانئها على ساحل البحر الأحمر [٤]

وكان عرب الخليج أيضا من أهم الأمم القديمة نشاطا بين إفريقية ومراكز العالم

---

(١) دإندسون ، بازل ، إفريقية تحت أضواء جديدة ، ص ٢٢٤ .

(٢) العارف ، أرتيريا بين احتلالين . ص ١٣ .

(٣) العزيز ، حسين ، موجز تاريخ العرب والإسلام ، ص ٥٨ .

(٤) العارف ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

الحضارية الأخرى ، وقد ساعدهم على ذلك خبراتهم الملاحية الطويلة في مجال الإبحار ومعرفة مواقيت هبوب الرياح الموسمية التى تهب على شمال المحيط الهندي وكان لها أثرها الكبير في دفع السفن ذهابا وإيابا بين الخليج وبين سواحل المحيط الهندي صيفا وشتاء . كما ساعدهم أيضا موقعهم الهام بين حضارات العالم القديم من جهة وبين السواحل الإفريقية من جهة أخرى أى موقعهم بين مناطق العرض ومناطق الأستهلاك والطلب في الهند وفارس والعراق والشام [١] .

فزادت رحلاتهم إلى سواحل افريقية منذ العصور القديمة ، وأسسوا لهم مراكز تجارية هناك وتزعموا حركة التجارة بين إفريقية وبين سواحل المحيط الهندي الأخرى [٢] ويذكر البعض عن وجود علاقات تجارية مباشرة بين أهل سومر وبابل وآشور وبين سواحل إفريقية الشرقية ، حيث قام أهل تلك الحضارات برحلات مستمرة إلى إفريقية الشرقية ، دلت على ذلك التنقيبات الآثرية ، ووجود تشابه بين طراز البناء والعادات والمعتقدات وبين ما كان سائدا عند السومريين والآشوريين والبابلين ، منها استخدام رسم القرن للدلالة على القوة والسيطرة [٣].

ويمكننا أهم منافذ ومراكز التجارة الإفريقية في العصور القديمة ، كما يلى :

أولا : المنافذ والطرق الشمالية المطلة على البحر المتوسط :

(١) عنـــابـــة :

أهم المراكز التجارية لتصدير حاصلات منطقة نوميديا من صوب القمح والزيتون وكذلك المواد الأولية الأخرى مثل خشب السندورس العسلي ذو النواتيء الملتفة الجميلة الصالحة لصنع الموائد الممتازة . وكذلك تصدير الأحجار الكريمة والنباتات الطبية المستخدمة في صناعة العقاقير . وكان الرومان حريصون على جلب المرمر من نوميديا . وأصبحت عنابة أهم مراكز تصدير حاصلات أقاليم غرب إفريقية ، وهى منطقة نوميديا ، وإفريقية . ولذلك فقد تحولت من بلدية إلى مستعمره زمن أغسطس .

---

(١) أبو العلا ، محمد ، موقع عمان الجغرافي وعلاقتها السكانية ، ص ٣٦ .

(٢) Hollingswor the Ashort History of East Coast of Africa, London P : 10.

(٣) النوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء من القرن الرابع إلى العاشر الهجريين / ١٠-١٦م ، ص ٦٤ .

وقد أكتشفت آثار في منطقة الحجار بجنوب الجزائر ، تدل على ازدهار العلاقات التجارية بين الرومان وبين شعوب الصحراء الإفريقية وجنوبها . وترجع تلك الآثار إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، مما يدل على توغل النفوذ الروماني إلى داخل إفريقية وحرص الرومان على ضبط أحوال الأمن في نوميديا وإفريقية لتأمين وصول السلع الإفريقية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط . ومن أجل ذلك فقد أهتم الرومان بأشغال الري وهندسة حفر الآبار ومقاومة التصحر والمحافظة على المراكز الصحراوية التجارية . وتشهد الآبار الرومانية والقنوات والصهاريج والأنابيب ، التى عثر عليها حاليا ، على ادراك الرومان لأهمية مراكز التجارة ومحطاتها [١] .

كما أهتم الأفارقة الذين سكنوا تلك المراكز بتجميل منازلهم ومدنهم ، الأمر الذي يعكس مشاركة الأفارقة للعناصر الأجنبية في مجال التجارة ، إذ كانوا يزينون منازلهم بالفسيفساء ، كما ظهرت في تلك المواني الإفريقية مثل عنابة وغيرها قصور ومباني أرستقراطية لأثرياء الرومان المكلفين بإدارة المناطق ، أو كبار المستثمرين الرومان .

(٢) طرابلس :

كانت منطقة طرابلس أهم منافذ تجارة إفريقية الشمالية ولم ينافسها سوى قرطاجنة ، وكانت طرابلس تقع على ساحل سيرتا ، وتوجد بجوارها مراكز تجارية هامة أيضا مثل صبراته في المغرب ، ولبدة في الشرق . ويدل وجود قوس النصر الروماني ، ذو الأربع واجهات على أهمية تلك المدينة في العصر الزوماني . كما أكتشف رجال الآثار الإيطاليون كنائس ومعابد ومسارح في منطقة طرابلس وصبراته [٢] . وتم الكشف أيضا عن ميناء طرابلس وأرصفته .

وتدل الأعداد الكبيرة من الآبار والحمامات العامة على أهمية طرابلس الحضارية والتجارية في منطق شمال إفريقية ، وأهميتها كذلك للمصالح الرومانية في القارة ، حيث كانت ترتبط بمناطق إفريقية ومصر وإفريقية جنوب الصحراء عبر واحات تقع إلى الجنوب منها [٤].

---

(١) چوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ط١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) جوليان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ . (٤) جوليان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٣) صفاقس :

ميناء هام بالقرب من المهدية وقرطاجنة ، ازدهرت في العصر الروماني وجعل منه تراجان مستعمرة ولقبها Trugifera" [١] إشارة إلى خصب أريافها ، وكان لمينائها القديم ثلاثة أحواض ، أحدهم داخلي ، وكانت صفاقس تصدر إلى الرومان الكروم والزيتون وغيرها من حاصلات المناطق القريبة منها .

(٤) بنزرت :

ميناء هام لإفريقية على البحر المتوسط ، ساعد على ازدهاره وجود خليج هادى وجميل يحميهم من الرياح والتيارات البحرية . ولذلك فقد قصدتها سفن كثيرة في العصر الروماني من البحر المتوسط [٢] .

(٥) مدن وادى مجردة ووادي المليان :

ومن أهمها مدينة حيدرة والكاف التى تسيطر على المواصلات البرية التى تربط بين أراضي نوميديا في الغرب وبين سواحل البحر المتوسط في الشمال . وكذلك بأراضي إفريقية من الشرق . وتحتل هذه المدن أهمية خاصة في تجارة الحبوب والزيوت والكروم .وتوجد كذلك في تلك المنطقة مدينة هنشير وهى التى أسسوا أغسطس وبلغت أوج ازدهارها بعد ذلك ، وتوجد بها معابد وأسواق وحمامات كثيرة .

(٦) سبيرته وميناء القالة :

وكانت سبيرته أهم المراكز الإدارية الرومانية في إفريقية ، حيث أصبحت عاصمة المستعمرات الرومانية الأربع في شمال إفريقية نظرا" لأهميتها . كما كان يقع إلى الجنوب منها عدة مراكز برية هامة كمركز لتجارة مناطقها منها خنشلة التى تشرف على الطرق المؤدية إلى الجنوب الصحراوي وتقع شرق جبال الأوراس . ومدينة لمباز وتيمتاد التى كانت تحتل الإشراف العسكرى على منطقة جنوب نوميديا ، وأصبحت مدينة لقدماء الجند ، ثم مدينة جميلة التى تقع وسط أراضي زراعية تغطيها سنابل القمح وتنتشر بها الغابات .

---

(١) جوليان ، نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٢) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٥ .

(٧) شرشـال :

تقع على ساحل المغرب الأوسط وتزدحم بها الآثار ، كدليل على أهميتها في العصر الروماني حيث كانت تتصل بالنجد النوميدي بسهولة ويسر إلى الجنوب منها . وكانت قريبة من موانىء الأندلس .

(٨) موانىء نوميديا الأخرى مثل :

جيجلى ، بجاية ، ماتيفو ، دلس ، تبازة . وهى موانيء هامة لعبت أدوار في تجارة البحر المتوسط حسب أهمية المنطقة الخلفية منها واستقرار الأمن بها .

(٩) طنجـــة :

أصبحت أهم الموانى الغربية في إفريقيـة الشـمالية زمن الإمبرطور كلوديوس ، وأصبحت عاصمة لإحدى الفترات . حيث تربطها بداخل مراكش ، بطرق إلى مدن بسلا وليلي حيث السهول الغنية بالزراعة التى يحتلها الرومان [١] . وقـد دلت الآثار على ازدهارها منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، أى قبل الأحتـلال الرومـاني ، أى منذ النفوذ القرطاجنى بالمنطقة وكذلك النفوذ اليوناني .

ثانيا : الطرق الدروب الشمالية الإفريقية :

وهى الطرق التى سيطرت عليها الإدارات المصرية في العصر الفرعوني والبطلمي وربطت مصر ومنطقة الشرق الأدنى بإفريقية الشمالية والوسطى والشرقية . وهذه الطرق هى :

(١) الطرق والدروب الصحراوية :

أ - درب الأربعين :

ويمثل أهم خطوط التـجارة الإفـريقيـة وأنشطها بين الشـمـال وبين الوسط ، على الإطلاق ، حيث يمثل الطريق الهام بين سكان شمال وادي النيل في مصر وبين منطقة بلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي كذلك ، فيبدأ شمالا من منف أو المراكز المصرية الشمالية ثم ينحرف عبر خط الواحات المصرية الموازية لنهر النيل في صحراء مصر الغربية حتى يصل إلى جنوب الواحات ثم يتجه اتجاها جنوبيا غربيا إلى القرب من مرتفعات ،

(١) جوليان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

تبيستي، أو يهبط مباشرة على دارفوز وكردفان [١]. ويستكمل رحلته صوب الشرق عبر واحة تشاد. ازدهر هذا الدرب زمن الفراعنة . والبطالمة ، واعتمدت عليه الإدارات المصرية القديمة في جلب سلع وتجارات السودان من الذهب والعاج والرقيق والجلود وغيرهم . كما كان هذا الطريق يمثل أهمية خاصة لحركة القبائل العربية التى هبطت من مصر إلى السودان . وقد اتصل بهذا الطريق عدة طرق فرعية منها ما يتصل بموانىء نهرية على وادى النيل أو مدن مصرية في الصعيد المصري مثل خط قوص . أو يتصل شمالا بخط سيوة الصحراوى المتجه للصحراء الليبية صوب الغرب [٢] وقد ساعد على ازدهار هذا الطريق وجود آبار ومياه جوفية وواحات وفرت الأمن للرحلة الطويلة . وقد تعرض بعض الأحيان لغارات الليبين قديما .

ب - الطرق الموازية لنهر النيل :

وهى الطرق التى كانت تلتزم برحلتها مع نهر النيل على ضفتيه الشرقية أو الغربية ، وفى بعض المناطق تستخدم السفن النهرية . وتمثل أهميته لتبادل السلع داخل منطقة وادى النيل ويتفرع من هذا الطريق عدة طرق نحو سواحل البحر الأحمر الإفريقية عبر صحراء مصر الشرقية [٣] عند عيذاب أو برنسيس أو القصير ، كما يتفرع منه طريق وادي العلاقي الذي أعتمد عليه الفراعنة في التوجه صوب البحر الأحمر فترة طويلة في تأمين تجارة الذهب . القادمة عبر لبحر الأحمر أو صحراء مصر الشرقية .

وقد تعرضت الطرق التى تخترق صحراء مصر الشرقية لاعتداءات مستمرة من قبل القبائل التى تسكن عليها أو بالقرب منها خاصة قبائل البجة ، مما دفع فراعنة مصر منذ زمن بيبي الثاني إلى إنشاء مراكز مستمرة لمراقبته . وقامت الأسرة الثانية عشرة الفرعونية بحفر قناة ، عند الشلال الأول لتسيير الملاحة والتجارة إلى البحر الأحمر . كما أنشأت إدارة حكومية للإشراف على منطقة الشلالات وحتى النوبة . ويبدو أن انتشار الحضارة الفرعونية عند أهل النوبة وازدهار المنطقة حضاريا بعد ذلك ساعد على ازدهار تلك الطرق التجارية .

---

(١) Muller J, the Spice Trade of the Roman Empire, P : 42.

(٢) فخري ، المرجع السابق ، ص : ٣٧ .

(٣) عوض ، الشعوب والسلالات الإفريقية ، ص ٢٩٨ .

وظلت قبائل البجة [1] القوية المنتشرة انتشارا واسعا في صحراء البحر الأحمر وهضابه من حدود أرتيريا وحتى شمال البحر الأحمر في صحراء مصر . هي صمام الأمن لتلك الطرق حيث خضعت موانيء طوكر وسواكن وبورسودان ودنجوناب وعيذاب بصورة مستمرة لنفوذهم ، وكذلك منطقة وادي العلاقي حيث ترتبط تلك المناطق بظروف طبيعية صعبة ، بالإضافة إلى فقرها ، ومهارة أفراد البجة في ركوب الإبل ودرايتهم بدروب الصحراء والمنطقة ، خاصة وأنهم يعتبرون تلك المناطق مجالهم الحيوي ولايسلمون بأي سلطة أخرى فيها بسهولة .

واحتلت مسألة البجة حيزا في سياسة الفراعنة [2] . وكذلك في العصر البطلمي الذي زاد اعتماده على تجارة البحر الأحمر ، وأنشأ عدة موانيء ، أصبحت معظمها تحت رحمة البجة ، خاصة أن البطالمة اعتمدوا في جلب الفيلة من إفريقية برا وبحرا ، وظلت تلك المشكلة في العصر الروماني ، خاصة وأن البجة ظلوا على وثنيتهم ، وشكلوا عائقا بين المصالح الرومانية في مصر والمصالح الرومانية في جنوب البحر الأحمر والحبشة ، حيث دولة أكسوم حليفتهم ، عدا بعض الجماعات القليلة منهم التى خدمت قوافل التجارة [3].

ج - الدروب والطرق البرية عبر صحراء مصر الشرقية :

وهى الدروب والطرق التى خضعت لاعتدا ءات جماعات البدو ، حيث كانت قوافل التجارة تحمل سلعا غالية الثمن من الهند وشرق إفريقية مثل العاج والبخور والتوابل

---

(١) تمتد مواطن البجة قديما" على طول سواحل البحر الأحمر شرقا" ونهر عطبرة ثم النيل الأكبر غربا" . ومن المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية الثلث الأول من النيل داخل الأراضي المصرية عند حدود قنا تقريبا . وهى منطقة كبيرة المساحة متنوعة التضاريس من جبال وهضاب وسهول وصحاري . وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام ، لكل منها زعيم يسمى ناظر وهم : البشاريون في الشمال ذات البينة الفقيرة . الأمرار في اتجاه بورسودان . ثم الهدندوة من سواكن حتى سنار في أراضي السودان . وأخيرا تشكل جماعة بنى عامر المجموعة الرابعة منهم وتمتد أوطانها من طوكر إلى داخل حدود دولة أرتيريا . ولغة البجة لغة حامية وهى المسماة البتداوي . وإن كان أكثرهم يتحدث العربية .

انظر : عوض ، الضعوب والسلالات الإفريقية ، من ص ٢٤٦ ومابعدها .

(٢) عرفوا عند المصريين القدماء بأسم المازوي أو الماجوي .

(٣) عوض ، المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

والطيب واللبان وكانت تلك المناطق تمثل حاجزا بين وصول تلك السلع وبين مناطق الكثافة السكانية في دلتا النيل ، وبدأ التفكير منذ البداية في إنشاء قناة ، خاصة زمن الإمبراطور الروماني تراجان[١] .

د - موانىء البحر الأحمر الإفريقية :

(١) ميناء برنيكى :

وهو الميناء الرئيسي لتجارة البطالمة على البحر الأحمر ، حيث كان قريبا من الموانىء العربية المقابلة له وقد أسسه بطيموس الثاني وسماه باسم والدته [٢] . ويصل بين هذا الميناء وبين قفط طريق برى مجهز بمحطات القوافل ، حيث يبعد عنها مسافة ١٢ يوما وقد جذب هذا الميناء التجار العرب من ميناء لويكى كوما على الساحل الزبي. [٣]

(٢) ميناء بطولومايس " جزيرة الريح "

أصبح المركز الرئيسي لتجميع الفيلة الإفريقية قبل إرسالها إلى مراكز التدريب في مصر عند منف [٤] . كما يوجد بالقرب منه ميناء القصير الذي ازدهر فترة في العصر الفرعوني لارتباطه بوادى العلاقي من خلال عدة دروب صحراوية تعتبر آمنة [٥] .

(٣) ميناء ميوس هورموس :

ورد في كتاب " الطواف حول البحر الأرتيري "[٦] وازدهر هذا الميناء في العصر البطلمي . ويقع شمال البحر الأحمر . وعرف باسم ميناء أفروديت بينه وبين ميناء السويس الحالى حوالى ٣٠٠ ميل تقريبا . وقد استخدمه اليوجاليوس عند عودته من حملته إلى مصر . بينه وبين قنا على النيل حوالى شهر عبر صحراء مصر الشرقية . كما

---

(١) Worth C. the Trade and Commerc of tehe Roman Empire, P : 31.

(٢) النعيم ، نورة ، الوضع الإقتصادي في الجزيرة العربية ، ص ٢٦١ .

(٣) الناصري ، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٤) اعتمد البطالمة في تحديث جيوشهم على الفيلة الإفريقية ولذلك فقد استوردوا كميات كبيرة منها برا وبحرا لمنافسة جيوش منافسيهم من السلوقيين الذين اعتمدوا على الفيلة الهندية .

(٥) فخرى ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٦) الناصري ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

ارتبط بطريق آخر يتجه جنوبا إلى قفط بجنوب مصر [١]

(٤) عدول " أدوليس "

أشهر ميناء على البحر الأحمر حتى ظهور الإسلام [٢]، وأشتهر هذا الميناء في العصر البطلمي . وأصبح ميناء إفريقية علي مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندي . كما كان مركزا للتجار من الحجاز واليمن والخليج العربي وغيرها . حتى أصبح مركز تجارة العرب والأفارقة والهنود والمصريين واليونان ثم الرومان . كما كان مركزا لتجميع سلع إفريقية من العاج والجلود والذهب والرقيق . ارتبطت سمعة هذا الميناء عالميا بظهور مملكة أكسوم كقوة عالمية في القرون الأولى للميلاد ، بحيث انتقلت إليه أهمية الموانىء العربية الآسيوية على الجانب الآخر من الجزيرة العربية .

ونظرا لتعرض منطقة مدخل البحر الأحمر لهجمات القراصنة الذين كانوا يتركزون أحيانا في جزيرة سوقطري أو مواقع في المحيط الهندي ، فإن حكام أكسوم كانوا يجردون منه الحملات المستمرة ضد القراصنة الذين يهدون الملاحة في البحر الأحمر . ولذلك فقد قصده الكثير من التجار لحمايته من القراصنة [٣] .

(٥) أفيالتس :

ميناء يقع عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، ارتبط بتوفر السلع الإفريقية والسلع الهندية والعربية فيه .

وبالإضافة إلى تلك الموانىء الإفريقية على البحر الأحمر وجدت موانىء على الساحل الشرقي من البحر الأحمر في الجانب الآسيوي وارتبطت بتجارة إفريقية ومنها :

---

(١) النعيم ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

(٢) يقول الشاعر طرفه بن العبد في معلقته .

كأن حدوج المالكية غدوة ∴ خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين بن يامن ∴ يجور بها الملاح طورا ويهتدى

(٣) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٧٧ ، ٩٤ .

أ - ميناء ليكى كومي :

وهو ميناء صغير ترسو به السفن الشراعية الصغيرة التى تفرغ حمولتها في الميناء لتحمل على ظهور الإبل إلى الطريق البرى عبر الحجاز . وازدهر فترة في العصر الروماني حينما تمكن الإمبراطور تراجان من تأمين تجارته على الطرق البرية والبحرية عبر البحر الأحمر وشرق شبه الجزيرة العربية للوصول إلى المحيط الهندي .

ب - ميناء الجار :

وهو ميناء يقع على ساحل البحر الأحمر القريب من الحجاز . أصبح ميناء المدينة . وهو قريب من ميناء ينبع الحالى . كان بينه وبين المدينة سفر ليلة . وبينه وبين أيلة في الشمال عشر محطات . ورغم صعوبة الظروف في الميناء إلا أنه كان مدخلا لدخول بضاعة مصر والحبشة إلى المدينة . نزل به المسلمون المهاجرون حينما عادوا من الحبشة سنة ٧هـ . وظل هذا الميناء مزدهرا طوال عصر الخلفاء الراشدين ، خاصة بعد فتح مصر زمن عمر بن الخطاب . حيث كانت ترسو به السفن القادمة من مصر . استقر به طوائف من التجار من العرب وغيرهم . لكنه أهمل في العصر الأموى وبعد ذلك ، حيث انتقلت مراكز الخلافة الإسلامية إلى مناطق أخرى [١].

ج - ميناء الشعيبة :

هو ميناء مكة على البحر الأحمر . ومنه بدأت رحلة المهاجرون المسلمون إلى الحبشة بعد أن أشتد أذى كفار قريش ضدهم [٢] . وظلت للميناء أهمية حتى أنشأ ميناء جده في خلافة عثمان بن عفان ، فتدهورت أهمية ميناء الشعيبة .

ومن الملاحظ أن تلك الموانىء التى تقع على السواحل الشرقية أو الغربية للبحر الأحمر ، في العصور القديمة ، مثلت أهم فترات تجارة البحر الأحمر ، ولم تظهر في البحر الأحمر حركة ملاحية فيما بعد تضاهى تلك الفترة لانتقال مركز الأحداث إلى البحر المتوسط أو الخليج العربي فيما بعد[٣] .

---

(١) Schoff, Notes to Periplus, P : 103.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٢، ص ٥ .

(٣) الناصري ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

ثالثا: الطرق والدروب عبر الصحراء الكبرى إلى بلاد السودان :

(١) طريق غرب مصر حتى ولاته في السودان الغربي "

يبدأ هذا الطريق من صحراء مصر الغربية عبر درب الأربعين ، ثم يتجه صوب الغرب عبر مرتفعات تبستى جنوب ليبيا ، مخترقا الواحات التى تقع جنوب الصحراء الكبرى . ويمثل هذا الطريق البديل لطريق الشمال الإفريقي الصحراوى ، وبعيدا عن الإضطرابات والقلاقل التى يتعرض لها هذا الطريق الشمالي .[١] ويتصف هذا الطريق الصحراوي بطوله ، حتى أنه يعتبر أطول الطرق الإفريقية على الإطلاق . ولكنه يمر على سلسلة عديدة من الواحات التى تتوفر فيها الماء . ويصل حتى ولاته في الشمال الغربي لبلاد السودان الغربي [٢] . وقد وجدت آثار في منطقة شمال بحيرة تشاد تشير إلى وجود تأثيرات للحضارة الفرعونية في تلك الأنحاء .

(٢) طريق شمال الصحراء الإفريقية الكبرى :

يبدأ من غرب مصر حيث واحة سيوة ويتصل بواحات ليبيا وهى الكفرة وفزان وإلى الغوط وتوات وتفازة [٣] وقد يتفرع إلى عدة أفرع صوب الشمال ، حيث يدخل برقة وطرابلس وسجلماسة وغيرها من مراكز الشمال الإفريقي على البحر المتوسط .

(٣) طرق الصحراء الليبية إلى بحيرة تشاد [٤] ودارفور جنوبا :

ويبدأ من الشمال الإفريقي ويتجه جنوبا صوب الكفرة أو مرزوق وواحة أير ويصل

---

(١) الزياتي ، وصف إفريقية ، ص ٤١ .

(٢) العمري ، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار ، ص ٦٦ .

(٣) عوض ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

(٤) بحيرة تشاد تمثل منخفضا داخل القارة الإفريقية ، تتكون ترتبها من التربة الخصبة ، حيث يصب فيها العديد من الأودية من المرتفعات الإفريقية المحيطة بها ، مثل نهر شاري والأنهار الأخرى . ونسبة التبخر فيها عالية. وظهرت أهمية تلك البحيرة في أنها توفر المياه اللازمة للجماعات الإفريقية التى تعيش حولها منذ القدم . كما أن طرق الوصول إليها يسيرة بسبب الأودية التى تؤدى إليها . وأصبحت منطقة بحيرة تشاد تمثل مركزا حضاريا هاما ومركز لقاء بين العرب والبربر والزنوج.
انظر : - أبو عيانة ، الجغرافية الإقليمية ، ص ٤٨٤ .
- إبراهيم ، محمد ، إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، القاهرة ، ص ٤٧ .

إلى مرتفعات تبستى التى يتوفر بها المياه الجوفية ، حتى يصل إلى منطقة بحيرة تشاد . أو يتجه شرقا صوب منطقة كردفان ودارفور حيث يلتقى بدرب الأربعين القادم من الصحراء المصرية .

(٣) طريق نوميديا حتى مالي :

ويبدأ من المراكز التجارية والحضارية في منطقة الجزائر ، حاليا ، ويتجه جنوبا عبر الصحراء الكبرى مارا بتوات وتفازه حتى يصل إلى ولاته ويتجه إما إلى تمبكتو أو إلى أودغشت [١] وكان هذا الطريق أقصر الطرق الصحراوية إلى بلاد السودان الغربي والتى أشتهرت بانتاج الذهب وجلب العبيد للرومان ومن قبلهم لليونان والفينيقيين[٢] .

(٤) الطريق الغربي الموازي لسواحل المحيط الأطلسي :

ويبدأ من طنجة ومراكز المغرب الأقصي الشمالية وينحدر جنوبا حتى يصل إلى باغمات ثم يصل ألى أودغشت عبر وادى درعة .[٣] وقد ازدهر هذا الطريق بفضل اهتمام القرطاجانيين به لإكتشاف سواحل المحيط الأطلسي .[٤]

(٥) طرق السودان الشرقي :

وهى الطرق التى تبدأ من موانيء البحر الأحمر أو روافد النيل وتتجه صوب الغرب إلى منطقة دارفور وكردفان وقد سلكتها قبائل عربية عديدة قبل الإسلام وبعده . من خلال تدفقها عبر البحر الأحمر أوباب المندب صوب الساحل الإفريقي . [٥] ومازالت معظم قبائل السودان الشرقي والسودان الأوسط ترتبط بأنسابها القديمة إلى الحميريين خاصة إلى سيف بن ذي يزن [٦] . الأمر الذي يدل على أن هناك طرق تجارية نشطة عبر باب المندب والهضبة الحبشية أو ساحل أرتيريا ثم تعبر روافد النيل وتتجه غربا صوب منطقة تشاد

---

(١) قداح ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقية الغربية ، ص ١٤٠ .

(٢) إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) الزياتي ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) قداح ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٥) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٦) عوض ، الشعوب والسلالات ، ص ٣١٦ .

أودارفور وكردفان . وقد ساهم هذا الطريق منذ القدم بتغذية إفريقية بالدماء السامية حينما تغيرت الظروف المناخية في شبه الجزيرة العربية .

ويتضح في محطات تلك الطرق اختلاط واضح فى الأعراق ، حيث تم امتزاج دماء الساميين والحاميين والزنوج واليونان والقرطاجانيين والرومان وغيرهم من الأمم التى ساهمت واتصلت بالتجارة الإفريقية . ومازالت آثار هذا الإختلاط واضحا في العصور الحالية كما يلاحظ الباحثون .

رابعا" : الموانىء الإفريقية على الساحل الشرقي للقارة :

وهى من الجنوب إلى الشمال كما يلي :

(١) مدغشقر " مالاجاشي حاليا "

أصبحت جزيرة مدغشقر أو قنبلو[١] محطة تجارية هامة للسفن العربية خاصة المتجهة إلى سواحل إفريقية الشرقية ، وأستقرت بها منذ البداية جاليات عربية وآسيوية مما جعل البعض يطلق عليها اسم " شبه القارة الأفروآسيوية [٢] . حيث تتنوع أصول سكانها ولهجاتهم وثقافتهم ، فهم أمم مختلفوا الأشكال . [٣] فهم يرجعون إلي أصول عربية وهندية وزنجية .

---

(١) جزيرة كبيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من إفريقية في مياه المحيط الهندي . وهى دولة مستقلة حاليا ، عاصمتها تاناريف ، يفصلها عن اليابس الإفريقي مضيق يسمى مضيق موزمبيق بعرض حوالى ٤٠٠ كم . ومساحتها ٨٥٧,٠٠٠ كم٢ ، استقلت عن فرنسا سنة ١٩٦٠ م ، تمتد على شكل مستطيل من الشمال إلى الجنوب ، وأقصى طول لها حوالى ١٦٠٠كم ، وأعظم إتساع لها ٦٠٠كم . وأهم قبائلها : التانالا ، الأنتانكارانا ، الساكالانا ، والهوفا ، والانتيموورونا ، ويبدو تأثير الوجود العربي في المجموعة الأخيرة .

انظر : - نجم الدين ، أحمد ، افريقية جنوب الصحراء ، ص ٢١٩ .

- أبو عيانة ، الجغرافية الإقليمية ، ص ٥٩٦ - ٦٠٣ .

(٢) أبوعيانة ، المرجع نفسه ، ص ٥٩٧ .

(٣) المسعودى ، أخبار الزمان ، ص ٥٩ ، طبعة بيروت

دافدسون ، إفريقية تحت أضواء جديدة ، ص ٢٤٤ ،

وتدل الآثار المكتشفة على أن السفن العربية قد وصلت تلك الجزر منذ العصور القديمة خاصة سفن أهل اليمن وعمان . ويبدوا أن تطور الظروف السياسية في منطقة الخليج العربي قد أدت إلى هجرات مستمرة لجاليات عربية من المنطقة إلى جزيرة مدغشقر[١] . كما أن تدهور الظروف الإقتصادية والأمنية في منطقة اليمن وجنوب الجزيرة العربية أدت إلى هجرات يمنية مستمرة إلى منطقة مدغشقر . فقد وفدت إليها أعداد كبيرة من منطقة صلالة ، التى تقع جنوب عمان ، بحيث أنهم سموا مدينتهم الجديدة بأسم " سالالا " تينما بأسم صلالة العمانية الأولى ، ويدعى البعض بأن مدينة مسلج الواقعة على خليج بوبني في مدغشقر ، هى تحريف الإسم مسقط العمانية أيضا .

وقد لاحظ المسعودي خلال رحلاته لتلك الجزيرة سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م في مركب سيرافي أن هناك نشاطا مزدهرا للسفن العربية في المنطقة ، خاصة سفن أهل عمان التى توجد بأعداد كبيرة . كما أشار إلى نشاط سفن أهل سيراف أيضا ، بينما أغلبية أهلها كانوا وثنيون من الزنوج .[٢]

ورغم الظروف الصعبة القاسية التى تواجه السفينة التجارية المتجهة إلى مدغشقر من قسوة الأحوال المناخية والحرارة العالية والأمطار الغزيرة والأمواج العالية العاتية ، الذى يقول عنها المسعودي " موجه عظيم كالجبال الشواهق وموجه لاينكسر" [٣] لكن السفن اتجهت إليها لجلب سلعها الهامة . [٤]

(٢) جزر القمر : " الكومور " [٥]

عبارة عن أرخبيل من الجزر البركانية بين أقصى الحافة الشرقية لافريقيا والساحل

---

(١) المسعودي ، المصدر نفسه .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٠٧ .

(٣) آورد المسعودي في ذلك شعرا

بربري وجفوني ∴ وموجك المجنـون

جفوني وبربري ∴ وموجها كما ترى .

(٤) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ١٢٣ .

(٥) مساحتها ٢٣٦ ,٢كم٢ (٨٦٣ ميل٢) . العربي ، العدد ٤٣٣ ، ص ٣٩ ومابعدها .

الغربي لجزيرة مدغشقر . وهى تقع في مضيق موزمبيق وتضم جزر رئيسية هى :

- هنزوان (انجوان) وأشهر مدنها متسمودو ، وهى أكبر الجزر في الأرخبيل مساحة والثانية سكانا في الوقت الحاضر .

- انجاريجة (القمر الكبرى) وأشهر مدنها موروني (العاصمة الحالية) وإيكوني وميسساميهولى . وبها النشاط السياسي في الوقت الحاضر .

- مايوته (ماهوري أومايوت) أقرب الجزر إلى مدغشقر ، وأرضها خصبة وكانت مركز للبلاد والنشاط الإقتصادي .

- موالي (مهيلى أو الجزيرة الخضراء) أصغر الجزر مساحة وأقلها سكانا وأهم مدنها خمبوني .

وقد وفد إلى تلك الجزر عناصر من أجناس شتى من العرب وجنوب شرقى آسيا والهند بغرض التجارة . ويقال أن أول من وصل إليها وفد من الحبش المالايزى ، ثم وصل العرب وحدث اختلاط بين تلك الأعراق فنتج عن ذلك ما يعرف بالجنس القوموري الحالي . وقد نزلها العرب قبل الإسلام بدليل ظهور كتابات عن وجود عربي بها بكثرة في بداية عصر الإسلام [1] ، كما كان سكانها على صلات قوية بالتجار العرب في منطقة الساحل الشرقي لافريقية .

(٣) سفالة الزنج " سوفالا "

ظلت منطقة سفالة التى تقع عند نهر الزمبيزي [2] ، آخر المحطات الهامة للرحلات التجارية التى تصل إليها السفن التجارية القادمة من منطقة اليمن وعمان والخليج العربي وغيرها . ويرجع ذلك إلى عوامل مناخية [3] ، حيث يميل المناخ إلى التغير بشكل يختلف عن المنطقة العربية أو منطقة شمال المحيط الهندي التى يتركز فيها النشاط التجاري

(١) المسعودي ، خروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٢٢/١٢٣ .

(٢) حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٣) الحويري ، ساحل شرق إفريقية ، ص ١٢٢ .

وحركة التجار . كما أن المنطقة التى تقع إلى الجنوب منها خالية تقريبا من السكان . ولم تعمر إلا في العصور الحديثة على يد عناصر البوير الأوروبية التى شكلت عنصرا من عناصر دولة جنوب إفريقية الحالية .

وارتبطت تلك المحطة الإفريقية التجارية بتجارة الذهب منذ العصور القديمة ، ولعلها كانت ضمن مراكز لحضارة قديمة في تلك المنطقة ، وأصبحت منفذ تلك الحضارة على العالم الخارجي . ولذلك كانت مقصدا للسفن التجارية العربية منذ العصور القديمة وحتى بداية العصور الإسلامية " وغاية مقاصد السفن القادمة من عمان وسيراف وينتهى بحر الزنج في بلاد سفالة وفي بلاد الواق واق ، وهى بلاد تنتج التبر بكثرة ومناخها دافىء وتربتها خصبة "[1] . وقد تعددت شهرة سفالة بالذهب النقي [2] عند البيروني والإدريسي وياقوت الحموي وغيرهم .

وبجانب الذهب الذي ارتبطت به سفالة على ساحل المحيط الهندي ، فإنها اشتهرت أيضا بتصدير خام الحديد وبكثرة . وشكل هذا الخام أهمية خاصة لحضارات المحيط الهندي خاصة الهند وبلاد الرافدين في العصور القديمة ، وهى حضارات كانت قد بلغت مستوى هام من التقدم التقنى وينقصها عناصر من المواد الخام . وبذلك اعتمدت صناعة الحديد الهندية في العصور القديمة والوسطى على حديد سفالة بالدرجة الأولى من خلال التجار العرب وأهل الخليج العربي[3] .

كانت الطريقة المتبعة عن عمليات التبادل التجاري بين ذهب أهل سفالة وبين سلع التجار من أقمشة وعملات وغير ذلك [4]، تتم عن طريق المقايضة بما يعرف باسم "

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) Foge, A History of Africa, P : 125.

(٣) يبدو أن أهلها كانوا يعيشون في مرحلة إكتفاء ذاتى ، ولم تظهر عندهم الحاجة إلى استخراج الذهب ، وقد دأب التجار الأجانب على حث أهلها على استخراج الذهب وكانوا يستخرجونه بطرق بسيطة بسبب قربه من سطح الأرض وتوفره في الأودية القريبة من سفالة من جهة الخلف ، وذلك بحفر حفر يتجمع إليها الماء جارفا معه الذهب . وقد ذكر البرتغاليون مناطق هامة لذهب سفالة التى تسمى " ماتوكا "

(٤) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٢٥ .

"التجارة الصامته " بأن توضع كميات السلع التى يحملها التجار قريبة من كميات الذهب المراد استبدالها وتتم عملية الفحص من قبل الزنوج ، فإن رضوا يتم قرع الطبول بطريقة معينة على أساس الموافقة على الصفقة وتحمل كميات الأقمشة ويعودوا إلى مناطقهم ، بينما يحمل التجار ذهبهم إلى سفنهم عائدين إلى بلدانهم . وقد ظلت سفالة أهم منفذ للذهب الإفريقي في العصور القديمة وفي العصور الوسطى وفي العصور الحديثة ، حيث كان ذهبها من عوامل توجه البرتغاليين إلى شرق إفريقية واستقرارهم هناك [١].

(٤) موزمبيق :

من المراكز التجارية الإفريقية الهامة التى تقع جنوب ساحل إفريقية الشرقي ، وقد كانت امتدادا أيضا لحضارة المنطقة في العصور القديمة . وارتبطت بتصدير الذهب لفترة من الفترات . وقد ترددت عليها السفن ، خاصة من العرب لحمل الذهب منها مقابل توفير التوابل والملابس واللآلىء والياقوت لسكانها ، وهى سلع كانت لا تتوفر في تلك المنطقة ، وكانت عمليات التجارة بها تتم أيضا عن طريق المقايضة في العصور القديمة .

وكانت منطقة سفالة إحدى أقاليم موزمبيق منذ العصور القديمة ، ويبدو أن التجار قد ارتبطوا بمحطة أخرى جنوب سفالة وتعرف بموزمبيق وكانت الرحلة إلى سفالة وموزمبيق شاقة وطويلة ولذلك كانت تحتاج إلى نوع كبير من السفن التجارية [٢] ، لخطورة الرحلة وطولها . فقد استقرت بها جاليات عربية كبيرة قبل الإسلام [٣] . وفي العصور الإسلامية تحول أهلها إلى الإسلام ، بحيث أصبحت مرتبطة بالنشاط الإسلامي في إفريقية [٤].

(٥) كلـــــوة : [٥]

مركز تجاري إفريقي على المحيط الهندي ، ظهر بوضوح بعد ذلك فص العصور

---

(١) جيان ، وثائق ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ -

(٢) حوراني ، المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

(٣) حوراني ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٤) اندهش البرتغاليون في العصور الحديثة حينما شاهدوا حاكمها مسلم وحوله رجاله ومستشاروه من العرب ، ولذلك فقد قامت موزمبيق نزول البرتغاليين إلى أراضيها منذ البداية .

(٥) حاليا مدينة بنفس الإسم على ساحل دولة تنزانيا .

الوسطى ، نظرا لموقعه المتوسط على ساحل إفريقية الشرقي . وقد قصدته سفن عديدة من أهل الخليج العربي ومنطقة شيراز [١] من إيران ، حتى أصبح هؤلاء الشيرازيين هم حكام المنطقة في العصور الوسطى ، ونظر لامكانيات الإقليم ومنطقته فقد تمكن من تكوين إمبراطورية شملت معظم الساحل الشرقي لافريقية اعتمدت في نشاطها الأساسي على التجارة [٢] .

كما كانت منطقة كلوة مركزا هاما من مراكز قبائل البانتو الزنجية ، حيث اتجهت إلى الاستقرار بالقرب من الساحل لاتمام عمليات التبادل التجاري وكثيرا ما وقع نزاع بين تلك الجماعات الزنجية وجماعات التجار . وكانت تلك المنطقة مركزا هاما لتجار عدن وتجار منطقة ساحل الحجاز قبل الإسلام وبعده [٣] . حيث كانت مصدرا لتصدير العاج والجلود والذهب وغير ذلك من سلع إفريقية . ومازالت طراز الأبنية فيها تشابه مع نمط العمارة الخليجية العربية من قلاع وأسوار .

(٦) ممبـــاســـا : [٤]

أدى توافر ميناء الصالح لاستقرار السفن بمنطقة ممباسا . ويبدو أنها كانت مركزا لإمارة قديمة ، تسمى " أمفيت " بمعنى حرب [٥] . ثم أخذت اسمها الحالي من اسم قائد برتغالي يسمى " منفسة " وقد شهدت ممباسا هجرات مستمرة من التجار العرب وخاصة من أهل عمان واليمن . كما كانت مركزا لانتاج الحبوب وتصديره وكذلك العاج والذهب ويصدر منها تلك السلع إلى موانىء المحيط الهندي [٦] كما اشتهرت بتصدير الحديد والنحاس والجلود إلى موانىء الهند . حتى ظهر فيها فيما بعد طائفة من الصناع المهرة

---

(١) عاصمة إقليم فارس في إيران قديما وحتى العصور الوسطى .
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٨٠ .

(٢) أحمد على ، كلوة تاريخها وحضارتها من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر /م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ص ٥٦ .

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٦٦ .

(٤) ميناء كيني على ساحل المحيط الهندي .

(٥) المغيري ، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار ، ص ٨٣ .

(٦) عثمان ، شوقي ، تجارة المحيط الهندي ، ص ١٦٨ .

في صناعة المعادن . وظلت على نفس شهرتها حتى قدم إليها البرتغاليون في العصور الحديثة وجعلوا منها عاصمة لهم لمنطقة شرق إفريقية .

(٧) زنجبـــــار [١] :

شكلت موقع تجاري هام على ساحل إفريقية الشرقي ، حيث أصبح موقع الجزيرة القريب من الساحل الإفريقي استراتيجياً، فأصبحت في مأمن من اعتداءات جماعات الزنوج على التجار . كما اشتهرت بخصوبة أرضها وتوفر كميات المياه بها . وأصبحت مقصدا لتجار شبه الجزيرة العربية والهند للوصول إليها وحمل سلعها وقد أستقر بها العرب منذ القرن الأول ق .م ، كما وفدت عليها قبائل عربية من منطقة حضرموت واليمن ، حتي تحولت إلى مركز إسلامي تجاري في العصور الوسطى وحتى العصور الحديثة [٢].

ساعدت الرياح الموسمية التى تهب على شمال المحيط الهندي على انتظام الرحلات البحرية بين منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية من جهة وبين زنجبار جنوبا من جهة ثانية ، فتبدأ السفن العربية رحلتها في فصل الخريف لتصل إلى ساحل الصومال وتسير بمحاذاة ساحل شرق إفريقية حتى تصل إلى زنجبار بعد أن تعبر أرخبيل لامو . وتستغل السفن أيضا الرياح الصيفية الموسمية في العودة إلى سواحل جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي [٣] .

وتتناثر حول جزيرة زنجبار عدد من الجزر الصغيرة أهمها : أنغوما ، كهاتي ، مونغوه ، ومكاتي ، اميلا ، وخميس ، انغومية ،أوسوبي ، ككوتا ، كاشاني ، انجاو . وهي جزر قليلة السكان أو خالية ، لكن ترجع أهميتها إلى توفر المياه العذبة بها . وكذلك وجود أشجار النارجيل بكثرة [٤] . وقد ظهرت أهمية زنجبار بعد ذلك في العصور

(١) يتكون اسمها من قسمين هما : زنج ، يار . بمعنى بر الزنج بالفارسية . وأصلها السواحيلي "أنغوجاء" بمعنى امتلأ المنسف ، وتقع قبالة ساحل تنزانيا على بعد ٢٥ ميلا فيها . وبينها وبين مسقط ٢٢٠٠ ميل بحري . وبينها وبين ساحل غرب الهند في جوجيرات ٢٥٠٠ ميل بحري . وتشكل مع تنجانيقا اتحاد دولة تنزانيا . انظر المغيري ، جهينة الأخبار ص ١٥ ، ص ١٦ .

(٢) زكريا ، والعقاد زنجبار ، ص ٤ ، ٥ .

(٣) محمد أبو العلا ، موقع عمان الجغرافي وعلاقتها المكانية ، ص ٣٥ .

(٤) المغيري ، المصدر السابق ، ١٦ .

الإسلامية . وفي العصور الحديثة خاصة زمن دولة البوسعيد في عمان ، حيث أصبحت أهم مراكز شرق إفريقية اقتصاديا وسياسيا على الإطلاق .

(٨) بـــات " بـاتـــا " :

هى احدى جزر أرخبيل لامو ، أصبحت مركزا للهجرات العربية من الخليج العربي واليمن في صدر الإسلام مما يدل على وجود علاقات سابقة ، منذ العصور القديمة بينها وبين منطقة الخليج العربي واليمن والهند وفارس وأصبحت منطقة باب مركز الهجرات العربية والإسلامية المبكرة في صدر الإسلام ، ومنها بدأت عمليات المد الإسلامي . ولذلك فقد أصبحت مركز التجارة الإفريقية في المحيط الهندي في تلك الفترة ، حيث كان المهاجرون الجدد معظمهم من التجار وعلى دراية بسلع إفريقية وأهميتها . حيث جعل منها المهاجرون من أهل عمان منذ القرن السابع الميلادي المركز الأول لنشاطهم . وكانت عمان أهم الوسطاء في تجارة إفريقية المتجهة إلى الهند أو إلى بلاد الرافدين [١].

(٩) مقديشو : (وبلاد بونت القريبة منها)

أول المراكز التجارية لساحل شرق إفريقية المطل على المحيط الهندي من جهة الشمال وتأتي أهميتها من قربها من مدخل البحر الأحمر الجنوبي حيث الحركة التجارية النشطة باستمرار في العصور القديمة لخدمة التجارة البرية أو البحرية المتجهة شمالا صوب الشام أو مصر حيث مدينات العالم القديم في البحر المتوسط . كما تأتى أهميتها في قربها من السواحل العربية في جنوب الجزيرة العربية من أهل اليمن وجنوب عمان ، وهم من أنشط جماعات التجار قديما كما أنها كانت على صلات وثيقة بتجارات موانى الحبشة .

وأصبحت المدينة مركزا للتجار من كل صوب فيصفها ياقوت الحموي بقوله " أول بلاد الزنج جنوب اليمن على ساحل البحر ، وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم إنما يدبر أمورهم المتقدمون علي إصلاح لهم [٢] ، ومنذ القدم نزلت سواحلها جماعات التجار من المصريين واليونان والفينقيين ومن العرب والهنود وغيرهم من الزنوج [٣].

---

(١) Chittick, the East Coast of Madagascar, Cambridge, Vol. 3, P:198.

(٢) معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٧٣ .

(٣) جيان ، المرجع السابق ، ص ١٨٦.

ويبدو أن رحلات الفراعنة التى أرسلت إلى منطقة ساحل الصومال الشمالي وهى منطقة بونت ، كانت تحتل تلك المنطقة مكانة هامة في تجارة إفريقية والمحيط الهندي منذ الألف الثالث ق .م [١] وتحوى النصوص والآثار المصرية على أول رحلة أرسلت إلى بلاد بونت هى البعثة التى أمر بإرسالها الملك ساحورع من الأسرة الخامسة (حوالى ٢٥٠٠ق.م) ، وقد وصلت تلك الرحلة إلى تلك البلاد ، ودونت أخبارها على جدران معبد أبو صير . كما ورد ذكر لتلك المنطقة من أرض الصومال في نصوص حجر بالرمو ، وفيه تفصيل لما عادت به الحملة من خيرات بلاد بونت من جلود الحيوانات والعاج وريش النعام وبعض الأحجار نصف الكريمة ، إلى جانب سلع ومواد المعابد من البخور والعطور والتى كانت من أهم أسباب تلك الرحلات إلى تلك المناطق البعيدة . كما وجد فى أحدى مقابر أسوان أن أحد الموظفين يذكر أن ذهب مع سيده إلى تلك البلاد إحدى عشرة مرة [٢] .

ونظرا لأهمية موقع بلاد بونت على ساحل الصومال وأهمية السلع التجارية التى تجلب منها فقد أهتم ملوك الأسرة الحادية عشر (حوالى ٢١٠٠ ق . م) بالتجارة مع تلك المنطقة من ساحل الصومال ، حيث أرسل الملك منتوحتب الرابع مدير خزانته واسمه "حننو" لإحضار البخور ، فذهب ومعه ثلاثة آلاف رجل جنوبا حتى البحر الأحمر عن طريق وادى الحمامات ، ونجح في مهمة . كما وردت صعوبات الإبحار إلى بلاد بونت في نصوص فرعونية أخرى مثل قصة الملاح الغريق [٣].

وكانت أشهر رحلات المصريين وتجاراتهم مع ساحل الصومال زمن الملك حتشبسوت في الأسرة الثامنة عشر (١٤٩٠ ق.م) حيث أمرت الوزير " نحسى" بالتوجه إلى بونت وأعدت سفنا كثيرة كبيرة الحجم لتلك الرحلة التى غادرت طيبة في النيل ، وربما تكون قد غادرت النيل إلى البحر الأحمر عبر قناة وادى الطميلات المستخدم في هذا العهد ، ووصلت إلى بلاد بونت ، وعادت محملة بخيرات بونت من البخور والعطور والأخشاب وحيوانات إفريقية كما أحضرت الرحلة إحدى وثلاثين شجرة من أشجار المناطق الموسمية والإستوائية لزراعتها في حديقة معبد آمون بالدير البحري [٤] وقد أهتم المصريون بتدوين

---

(١) فخري ، المرجع السابق ، ص ٦٦، ١٣٧.

(٢) فخري ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) فخري ، المرجع نفسه ، ص ١٣٨ .

(٤) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ،ص ١٢٧ ، ١٥٨ .

أخبار تلك الرحلة ومراسم استقبال مندوب الملكة لزعماء بونت والهدايا التى قدمها لهم ، كما رسموا أيضا القديمة الساحلية التى رسوا عندها ، وكذلك رسموا أنواع الأسماك التى شاهدوها أثناء الرحلة البحرية [١].

ومهما يثار حاليا من اختلاف حول تحديد موقع بونت فإنها تقع على ساحل الصومال بالقرب من مقديشو الحالية ، على أساس أن ملامح أهل المنطقة التى وجدت على جدران الدير البحري تشبه كثيرا جنس المصريين ، وكذلك معظم السلع التى حملتها الرحلات والبعثات تشبه وتتفق مع منتجات إفريقية من الحيوانات والجلود والعاج والأحجار والأخشاب ، ولكن الخلاف يقع حول اللبان والبخور الذي حملته تلك الرحلات . علي أساس اشتهار منطقة ظفار في جنوب عمان وجنوب الجزيرة العربية بتلك السلع الهامة للعام القديم . مما يدل على أن تلك المنطقة كانت مركزا لتجمع تجار من ظفار وبلاد الشحر واليمن وجزيرة سوقطري ، بالإضافة إلى هجرات من تلك الجهات إلى الساحل الصومالي وتعميره . الأمر الذي يؤكد منطقة الصومال في تجارة إفريقية وتجارة العالم القديم [٢].

وفي العصور الوسطى أصبحت مقديشو ، التى بناها مهاجرون حرت من منطقة الخليج العربي سنة ٢٩٥هـ /٩٠٧م مركزا هاما[٣] لتجارة الذهب والعاج [٤] ، من خلال منافذ ودروب لها داخل القارة الإفريقية مما دار عل أهلها وتجارها أموالا طائلة ظهرت بوضوح في جمال عمارة منازلها التي كانت تتكون من عدة طوابق [٥] . وأصبحت مقديشو بحق مركزا لتجمع تجارات المحيط الهند وإفريقية والبحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية ، حتى قصدتها سفن أهل الصين والهند . فهناك آثار تدل على أرسال أسرة تانغ الصينية بعثة تجارية إليها سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م . ووجدت بها عدة عملات صينية [٦].

---

(١) حوراني ، المرجع نفسه ، ٣٢٩ .

(٢) قدري ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٣) سنوضح ذلك مع الفصل القادم بالتفصيل .

(٤) متز ، آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هـ ، تعريب الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٥) حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٦) بدر الدين الصيني ، العلاقات التجارية مع العرب ، ص ١٦٦ .

ويبدو من دراستنا لموانىء ساحل إفريقية الشرقي أن هناك ملاحظات منها :

١ - اعتمدت حركة النشاط التجاري مع شرق إفريقية ومراكز المحيط الهندي التجارية وكذلك البحر الأحمر على هبوب الرياح الموسمية ، وأوقات هبوبها صيفا أو شتاء . حيث كانت السفن شراعية تحت رحمة الرياح . وساعد اكتشاف مواعيد هبوب تلك الرياح على يد هيبالوس اليوناني إلى زيادة حركة الملاحة وتنظيم الرحلات مع موانىء شرق إفريقية ، حيث ارتبطت بمواعيد للذهاب والإياب . وكان التجار العرب أقدر تجار العالم القديم في هذا المجال .

٢ - رغم عدم وجود ذكر واضح يتلاءم مع النشاط اليوناني في منطقة شرق إفريقية إلا أن اليونان والرومان قد تركزوا في محطة تجارية هامة مقابلة لساحل إفريقية الشرقي من جهة الشمال وهي جزيرة سوقطري والتي أصبحت مركزا هاما لليونان حتى العصور الوسطى وظل لهم نفوذهم التجاري عدة قرون في الجزيرة [١] .

٣ - ترتب على سيادة العنصر العربي على ساحل شرق إفريقية من الشمال إلى الجنوب بسبب عوامل طبيعية وحضارية ، ظهور لغة جديدة استخدمت بصورة أساسية في مجال المعاملات التجارية [٢] وهي اللغة السواحيلية التي أصبحت صورة عن تنوع أصول التجار على الأرض الإفريقية [٣] من عرب وفرس وهنود بالإضافة إلى أصحاب الأرض من الزنوج ، وأنضم لها حديثا اللغات الأوروبية الحديثة [٤] .

٤ - إذا كانت منطقة شرق القارة الإفريقية قد وفرت لمدينات العالم القديم كميات من الذهب والعاج والحديد والنحاس والجلود وغير ذلك من مواردها الطبيعية ، فإنها قدمت عنصرا بشريا من عناصر الإنتاج في العالم القديم والوسيط وهو الرقيق ، حيث بدأت السفن التجارية تحمل أعدادا كبيرة منهم بعد ذلك [٥].

---

(١) الحارثي ، والسالمي ، اليسرى في إنقاذ جزيرة سوقطري ، ص ٢٤ ومابعدها .

(٢) عوض ، الشعوب، والسلالات الإفريقية ص ١٠١ .

(٣) العقاد وزكريا ، المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٤) محمود ، حسن ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ص ٣٩٢ .

(٥) أصبحت الأعداد الكبيرة من هؤلاء الرقيق يمثلون القوى البشرية العاملة خاصة في منطقة جنوب العراق والخليج العربي .

٥ - لم تكن السواحل الإفريقية الشرقية . في حاجة إلى سلع مقابلة من التجار أو نقود مقابل سلعها الهامة بقدر ما كانت في حاجة إلى نظم حضارية من قبل الجاليات التى استقرت بأرضها من أجل تطوير تلك المناطق . وهو الأمر الذي ظل مفقودا" لفترات طويلة حيث كان معظم التجار همهم الأول والأخير حمل سلعهم والعودة إلى بلادهم آمنين غانمين بغض النظر عن أوضاع الأفارقة ومستوياتهم الحضارية . ولم تتبدل تلك الصورة إلا في العصر الإسلامي على يد المسلمين الذين تركوا بصمات واضحة في حضارة الأفارقة ، وأنتهي هذا الدور الإسلامي من جديد على يد المصالح الأوروبية في العصور الحديثة وهى ردة حضارية بمعنى الكلمة .

هذا ، وهناك عدة موانىء على سواحل شبه الجزيرة العربية والخليج العربي ارتبطت بصورة أساسية مع تجارة شرق إفريقية ، يمكننا أن نوجز دورها في التجارة الإفريقية فيما يلي أهمها:

(١) عـــــــدن :

احتلت عدن مكانة مرموقة في تجارة العالم القديم والوسيط والحديث حتى أصبحت بحق :" دهيلز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات "[١] وذلك بسبب موقعها المتوسط بين البحر الأحمر والمحيط الهندي من جهة وبين اليابس الآسيوي واليابس الإفريقي من جهة ثانية ، فارتبطت أيضا بحضارات الهلال الخصيب من خلال طريق اليمن الشام عبر الحجاز البري [٢] . ويبدو أن صلاتها القديمة مع إفريقية وجزيرة سوقطري وبلاد الحبشة جعلت كدامي مؤرخيها يعتقدون أن اليابس العماني كان متصلا بتلك النواحي الإفريقية من قديم الزمن [٣] .

وأصبحت عدن بالفعل هدفا" لليونان وتجارهم من أجل تأمين الوصول إلى تجارة وسلع الهند وقد أهتم بها الإسكندر من خلال إرسال حملات هيرون الصولي للإلتفاف حول سواحل الجزيرة العربية والوصول إلى مدخل البحر الأحمر الجنوبي من أجل ربط تجارة المحيط الهندي مع تجارة البحر المتوسط . كما يذكر مؤرخوها القدامي اهتمامات الملوك

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٨٤ ، طبعة بيروت .

(٢) ابن الفقيه ، البلدان ، ص ١٠٥ .

(٣) أبو مخرمة ، أبو محمد عبدالله الطيب ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٢٥ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤١١ هـ ، سنة ١٩٩١م .

اليهود وخاصة سليمان بتجارة عدن وسلعها الهندية والإفريقية [١] .

وقد حملت إليها السلع الإفريقية من الجلود والعنبر واللؤلؤ والأخشاب والعاج والرقيق كما نزلت بها بضائع الهند من التوابل والأعشاب الطبية والحرير والمنسوجات الأخرى [٢] . ، بالإضافة إلى سلع مصر والبحر الأحمر من المرجان والأصباغ والزئبق والمنسوجات والزجاج . حتى أصبحت أهم مراكز شمال المحيط الهندي التجارية وطارت إليها أفئدة التجار حتى قيل عنها " من يذهب إليها بألف درهم يرجع بألف دينار ، ومن ذهب إليها بكندر يرجع بمثله كافوراً [٣]

(٢) ســـوقطـــري :

برغم دورها القديم في تجارة إفريقية والمحيط الهندي باعتبارها بوابة إفريقية ومحطة التجار ، إلا أنها ازدهرت بصورة واضحة في العصر الهلينستى ، حتى سماها التجار اليونان باسم " الجزيرة السعيدة "[٤] لأهميتها لتجار الإسكندرية ومصر والبحر المتوسط في تجميع تجارات إفريقية والجزيرة العربية والهند ، فاستقرت بها أعداد كبيرة من التجار العرب واليونان والأفارقة والهنود ،[٥] وغلبت على سكانها الثقافة اليونانية بسبب وجود جالية كبيرة بين سكانها من اليونان . [٦] وتبدو أهمية الجزيرة في بعدها عن الساحل العربي والإفريقي ، مما هيأ لها تجنب الإضرابات والقلاقل السياسية التى كانت تتعرض لها موانىء عدن وشرق إفريقية والتى كانت تهدد التجار وتجاراتهم . كما كانت تعد مركزاً" لاستراحة المسافرين والتجار والتزود بالمؤن والمياه .

هذا ، وقد ارتبطت سوقطري بسلع افريقية مثل العنبر والصمغ والجلود وغير ذلك ،

---

(١) أبو مخرمة ، المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٨٠ .

(٣) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٤) ترجمة الاسم السنسكريتي الهندي القديم وهو : DUIPA SUKHATRA

انظر : حوراني ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .

(٦) حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

كما ارتبطت بوجود سلع خاصة بها مثل المر والصمغ والصبر [١] . ويبدو أنها تدهورت منذ القرن الرابع الميلادي أثناء التغيرات السياسية والإقتصادية التى شهدتها منطقة جنوب الجزيرة العربية في تلك الفترة وتدهور تجارة البخور واللبان ، وامتداد دولة أكسوم الحبشية . حتى أصبحت فيما بعد مركزا للقرصنة على مستوى البحر الأحمر والمحيط الهندي ، حينما اتخذ منها القراصنة الهنود مركزا لشن غارات علي سفن التجار في البحر والموانىء . حتى أصبح التجار يتفادون المرور عليها أو بالقرب منها ، ويحرصون على الالتزام بالساحل الغربي ، أو السواحل الإفريقية ، حتى لايتعرضوا لاعتداءات القراصنة .[٢] وهؤلاء كانوا ينتشرون في شمال المحيط الهندي منذ منطقة الديبل في غرب الهند ويكون انتشارهم انتشارا منظما على شكل قوارب سريعة تتباعد عن بعضها البعض بمسافات معينة على شكل دائرة تمتد لعدة أميال قد لاتنجو سفينة تجارية من تلك الدائرة في شمال المحيط الهندي في أغلب الأحيان .

(٣) ظفار : أو ميناء سمهرام

ميناء جنوب عمان ، وهو أيضا إقليم واسع يمثل النمط الموسمى في جنوب الجزيرة العربية مع منطقة اليمن [٣] . ظهرت أهمية تلك المنطقة منذ العصور القديمة بسبب شهرتها في إنتاج وتصدير اللبان والبخور وهى سلع هامة للعالم الوثني ، وتدل الآثار على أهمية ميناء سمهرام القديم في منطقة ظفار في تجارة اللبان حيث مثل أهم السلع الإستراتيجية للعالم القديم [٤] ، وتصديره وتصدير سلع إفريقية هامة من خلال ارتباط أهل ظفار بالساحل الإفريقي منذ العصور القديمة وحتى العصور الحديثة .

واتضح دور أهل ظفار في تجارة إفريقية والعالم القديم ، حينما تدهورت أحوال المنطقة قبل الإسلام ، وفرضت دولة أكسوم الحبشية سيطرتها على جنوب الجزيرة العربية ،

---

(١) عبارة عن نبات مثل السوسن الأخضر ، غير أن ورق الصبر أطول وأعرض وأسمك ، وهو كثير الماء تستخدم عصارته للعلاج . وكان يتم جمعه وتجفيفه على جلود ثم تصديره .
انظر الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٢٨ .

(٢) حوراني ، المرجع لسابق ، ص ٢٣٠ .

(٣) حميدة ، آسيا الموسمية ، ص ٣٧٨ .

(٤) الغساني ، ظفار أرض اللبان ، ص ١٣ ومابعدها .

فاستغلت وجود أهل ظفار في شرقيها لجلب تجارة الهند والصين إليها [1] ، ثم تصدير تلك السلع إلى حلفائهم الرومان . كما أهتم الرومان منذ القرن الأول الميلادي بالارتباط بتجارة ظفار ، حيث عقد الإمبراطور تراجان معاهدة صداقة مع حاكم ظفار ، [2] ، جنوب عمان واهتم بطرق البرية عبر الحجاز للوصول إليها .

ورغم الإكتشافات الهامة التى اكتشفت في المنطقة حديثا ، فإنه قد تم إكتشاف مدينة إرم القديمة لقوم " عاد" في المنطقة ، وتم الاستعانة بصور جوية من الأقمار الصناعية وأتضح منها أهمية تلك المنطقة في العصور التى سبقت التاريخ . ولم تبدأ بعد الحفريات لتلك المدينة الهامة التى يعلق الكثير الآمال حول كشف حقائق عن تاريخ المنطقة وحضارتها في التاريخ القديم والفترة التي سبقته .

(٤) جزيرة مصيرة :

جزيرة أمام ساحل عمان الشرقي ، كانت محطة هامة لسفن الخليج المتجهة من شمال المحيط الهندي إلى شرق إفريقية [3] وكانت مركزا للتجار وتنقلاتهم بين موانىء سواحل عمان واليمن والهند وشرقي إفريقية .

(٥) صور :

ميناء هام يقع على الساحل العماني عند منطقة رأس الحد . ارتبط أهل صور بالمهارة في ركوب البحر والوساطة التجارية بين سلع إفريقية من الذهب والعاج والجلود وغيرها وبين الهند التى كانت تحتاج بعض خامات إفريقية . وارتبط أهلها منذ القدم

---

(١) بدر الدين الصيني ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

(٢) وردت في كتب التراث موضعين لاسم ظفار هما :

- الأول في اليمن قرب صنعاء ، وهى التى ينسب إليها ملوك حمير " من دخل ظفار حمر "
- الثاني : في جنوب عمان ومازالت تسمى باسم ظفار وعاصمتها صلالة . وتقع خلفها رمال الأحقاف من صحراء الربع الخالى .

انظر : البكري ، معجم ماستعجم ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

(٣) أشار ابن بطوطة إلى نشاط أهلها في هذا المجال .

الرحلة ، ص ٥٨٠ .

بالمغامرة الوصول إلى موانىء بعيدة في شرق إفريقية ، ويبدو أنهم وصلوا قبل غيرهم من عرب عمان إلى جزر القمر ومدغشقر . كما يذكر المغيري أسماء لجماعات من تجار صور وصلوا حتى مناطق بعيدة داخل إفريقية [١] . ونظرا لنشاط هؤلاء التجار فقد أصبحوا أشبه بفينيقي البحر المتوسط ، حتى يمكن تسميتهم بفينيقي المحيط الهندي .

ومازالت الدراسات تؤكد وجود صلة قديمة بين أهل صور وبين الفينيقيين إذيحتمل أن يكون الفنينقين هجرة سامية من منطقة جنوب الجزيرة العربية .

(٦) ميناء صحار :

ظهرت أهمية الميناء العماني منذ إنشائه على يد الفرس في القرن الثالث الميلادي ليصبح أشهر ميناء في تاريخ الخليج العربي . ذلك لأن الفرس أدركوا حاجتهم إلى ميناء يصلهم مباشرة بسواحل إفريقية وجنوب الجزيرة العربية ، يمكن أن يستفيدوا من خلاله من خبرة أهل عمان في الملاحة ومعرفة نواحي إفريقية والهند وغيرها [٢] . ومن أجل تحصين هذا الموقع بن الفرس مركزا عسكريا يسمى " دستجرد " [٣] ويبدو أنه كان لحماية الميناء من القبائل المجاورة وحماية حركة التجارة فيه [٤] .

وقد خدمت الظروف الطبيعة الميناء من حيث وجوده في أخصب منطقة في عمان زراعيا وهى منطقة الباطنة واتصاله المباشر بمناطق الظاهرة عبر أودية عديدة . الأمر الذي جعل الميناء يستقبل أعدادا هائلة من التجار وتجاراتهم لتوفر خدمات التجار فيه واتساعه فأصبح بحق أعمر مكان بالشرق وخزانة الهند والصين ، وأصبح هذا الميناء منطلقا لسفن المنطقة المتجهة الى شرق أفريقيا ، وكثيرا ماكانت السفن تحمل منة سلع أفريقية المكدسة به بدلا من ان تتحمل مشاق الرحلة الى أفريقية . وبلغ أوج إزدهارة في القرن الرابع الهجري في العصر العباسي.

---

(١) جهينة الأخبار ، ص ٢٠ .

(٢) ويلكنسون ، صحار تاريخ وحضارة ، ص ٥ ومابعدها .

(٣) ويلكنسون ، المرجع السابق .

(٤) حيث كانت المنطقة تشهد سراعا بين النفوذ الفارسي المتزايد في العصر الساساني على السواحل العربية . وظلت تلك الأوضاع حتى ظهور الإسلام .

(٧) ميناء التيز : (ميناء إقليم مكران)

ميناء يقع على ساحل مكران المطل على ساحل بحر العرب ارتبط هو الأخر بتجارة المحيط الهندي وافريقية ، حيث يمثل واجهة مكران ومنطقة بلوشستان على المحيط الهندي[١] . ومنفذا لدخول السلع الإفريقية إلى تلك النواحي . وأصبح هذا الميناء ميناء مكران الأساسي [٢]، لاستيراد سلع المحيط الهندي . وقام التجار العرب بدور كبير في حركة هذا الميناء التجاري في العصور القديمة .

(٨) الـد يـبـل : (ميـنـاء السـند)

ميناء هام على دلتا نهر السند عند مصبة في بحر العرب [٣] . أصبح منفذا لتجارة إقليم السند الزراعي الغني بزراعته . ونظرا لخبرة العرب بهذا الميناء فقد حملوا سلع إفريقية ، واستقرت فية جاليات عربية كثيرة قبل الإسلام ، حتى أصبح كلام سكانة (سندي عربي) وهي اللغة التي عرفت بالأوردية ، فيما بعد ، وبذلك وصلت سلع إفريقية إلى السند عبر ميناء الديبل .

لكن هذا الميناء تأثر بنشاط جماعات القراصنة الذين يعرفون باسم (الميد) حيث كان مركزهم في المياة التي تقع بالقرب منة في مثلث جوجيرات [٤] . وقد أرسلت الحكومة الساسانية حملاتها المستمرة ضد هؤلاء القراصنة واستمر هذا الوضع في العصر الإسلامي حيث كانت حملة الحجاج بن يوسف الثقفي لفتح السند ، والتي قادها محمد بن القاسم الثقفي سنة ٩٢هـ هدفها الأول القضاء على القراصنة في تلك النواحي وتأمين حركة السفن التجارية في بحر العرب . ولم تزهر الملاحة العربية في العصور الوسطى إلا بعدتلك الحملة التي وضعت حدا للقرصنة .

كما وجدت موانى على ساحل الهند الغربي ارتبطت هي الأخرى بحركة التجارة

---

(١) مجهول ، مخطوط في علوم البحار ، قم ٢٥١٦ عام / ٣٨ك خاص ، ورقة ٤٧، المديرية العامة للوثائق والمخطوطات ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦٠ .

(٣) يقع بالقرب من ميناء كراتشي الباكستاني حاليا .

(٤) شوقي ، تجارة المحيط الهندي ، ص ١٨٩ .

والسلع الإفريقية منها .

موانيء جوجيرات :

وهي : بروح (بروحي) ، تانة (بومباى حاليا") ديو ، سفالة الهند ، سندان ، سومنات ، حيمور ، كمباى ، كمكم .

موانيء ساحل مليبار :

وهى : ألبي ، بوناى ، تريفندوم . سنداهور ، سـيل ، شـاليـات ، صنداهور ، كاليكوت ، كنوز ، كيسن ، هيلي ، كوشن ، سوارت ، منجرور .

وقد ساهم العرب بدورهم الكبير في حركة النقل والإتصال بين تلك الموانى ، وبين ساحل إفريقية الشرقي ، فكانت سلع الهند وصناعتها تصل إلى شرق أفريقية على ظهر السفن العربية وتعود تلك السفن محملة بسلع إفريقية وموادها الخام . وقد حقق العرب من تلك الوساطة أرباحا طائلة جعلتهم يتجهون بكل نشاطهم الى البحر بعيدا عن قسوة بلادهم ، وقد عبر عن ذلك شاعر معاصر من الخليج [1] :

أواه ياأرض الحرائق والسمـــوم
البحر أحنى من صفاقك والشراع .

(١) أنظر أبو العلا ، جغرافية الخليج العربي ، ص : ٣٢٠ .

الفصل الثالث

الفرقة في العصر الإسلامي

(١)

العَـرب و إفـريقيـة

الصـلات بين منطقـة شبـه الجزيرة العربيـة وبين القـارة الإفـريقيـة صـلات قـديمة ووثيقة،[١] ومن الصعب تحديد بداية لها، ذلك أن منطقة شبه الجزيرة العربية كانت تشكل جزءً من قـارة جندوانا القديمة التي شكلت إفريقية فيما بعد، ثم انفصلت عنها بظهور أخدود البحر الأحمر، الذي يمتد داخل القارة الإفريقية حتى الوقت الحاضر. ومازالت الظواهر الجغرافية على الساحلين الشرقي (العربي) والغربي (الإفريقي) للبحر الأحمر متشابهة تماماً [٢]. وأصبحت بذلك الشعوب التي ظهرت في الدرع العربي (شبه الجزيرة العربية) مرتبطة بالقارة الإفريقية[٣].

ورغم تغيـر الظروف في منطقـة شبـه الجزيرة العربيـة وحلول الجفـاف بهـا، وقيـام الجماعات السامية التي سكنتها بالتحرك في كل صوب للبحث عن مواطن جديدة للعيش والإستقرار، فمنها ما اتجه صوب سواحلها المطلة على الخليج العربي ومارس أنشطة جديدة بجانب الزراعـة والرعي مثل الملاحة، ومنها ما اتجه شمالاً صوب بلاد الشام وأقام فترة على حدود ممالكهـا، ثم دخلهـا في فتـرات ضعف تلك الممـالك، ومنهـا ما اتجه إلى بلاد الرافدين. الأمـر الذي أزعج حكام سومر وبابل وأكـاد وآشور، مما حدى للبعض منهم إلى إنشـاء تحصينات عسكرية على حدوده الجنوبية الغربية مع الصحراء العربية لحمايته من غـارات القبائل العربيـة، ومنهم من أرسل حملات ضد مراكز تلك القبائل في شمـال شبه الجزيرة العربية [٤].

حتى بدأ العصر الفارسي الساساني في بلاد الرافدين وظهرت فيه إجراءات شديدة ضد غزو القبائل العربية. فقد قام سابور بحفر خندق طويل يمتد من كاظمة حتى هيث على طول الصحراء ليمنع القبائل العربية من الإغـارة المستمرة على القرى الجنوبية. وقد سمى

---

(١) قلعجي ، الخليج العربي ، ص : ٦٧ .

(٢) متولي ،وأبو العلا ، جغرافية الخليج العربي ، ص : ١٢ .

(٣) Church , H; Africa and Islands, P : 19, London, 1973.

(٤) Cameron, G; History of Early Iran, P : 67, New York.

هذا الخندق باسمه خندق سابور [١]. كما قام سابور بإرسال حملات تأديبية ضد قبائل البحرين فنكل بهم ودمر مياههم وثقب أكتاف الأسري منهم ، حتى سمى باسم «سابور ذي الأكتاف» [٢]. وأنشأ الفرس إمارة عربية على حدودهم مع شبه الجزيرة العربية هى إمارة الحيرة كنقطة مراقبة لأوضاع الصحراء العربية.

ورغم ذلك ظهرت الجماعات السامية في بلاد الرافدين وأسست لها كيانات منذ القدم، وجعلت من منطقة الشام والعراق مناطق ذات دماء سامية عبر العصور التاريخية[٣]. وقد ظهرت نتائج ذلك بصورة واضحة في انسياب الجيوش العربية الإسلامية في تلك المناطق بعد هزيمته جيوش الفرس أو الرومان[٤]. وسماهم العرب باسم «أبناء العمومة».

من هنا أصبحت افريقية هى المجال الحيوي للجماعات السامية خاصة العربية منها للأسباب التالية :

١ ـ عدم وجود حكومات مركزية قوية على الحدود الافريقية الآسيوية باستثناء حكومة مصر، والتي كانت تتركز في الوادي والدلتا للنيل وتبتعد عن نقطة الإتصال عبر البحر الأحمر أو شبه جزيرة سيناء، مما أعطى مجالاً لتلك الجماعات للزحف جنوب مصر من سيناء أو البحر الأحمر ثم التمركز في الصحراء الشرقية حتى إذا آنسوا من أنفسهم قوة ومن المصريين ضعفاً تسللوا إلى داخل البلاد[٥]. حتى سادوا مناطق في شرق مصر قبل عمليات الفتح الإسلامي.

٢ ـ الظروف الطبيعية القاسية التي كانت تتعرض لها مناطق جنوب الشام وشبه الجزيرة العربية في الوقت نفسه تمتعت منطقة وادي النيل باستقرار نسبي في

---

(١) قلعجي ، المرجع السابق ، ص : ٦٨ .

(٢) قلعجي ، المرجع نفسه ، ص : ٦٩ .

(٣) البدر ، سليمان ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول ق.م ، ص : ٦٤ .

(٤) Olmested, History of the Persian Empire, P : 167.

(٥) فخري ، المرجع السابق ، ص : ١٢١

مجال الزراعة والتحكم في إنتاج الغذاء، مما جعل الجماعات السامية ترتبط بها وتسعى للإقامة على أرضها [1].

٣ ـ تعتبر اليمن الموطن الأصلي للشعوب العربية، وقد تمكن العرب بها بعد فترة الجفاف التي سادت شبه الجزيرة العربية، من تنظيم مصادر المياه والتحكم فيها من خلال ما ارتبطوا به من تشييد السدود كسد مأرب [2]، لكن وقعت تغيرات في تلك النظم منذ الألف الثاني ق. م جعلت الشعوب العربية تفكر هي الأخرى في الرحيل والبحث عن أوطان جديدة للاستقرار . وبحكم الموقع الجغرافي أصبحت القارة الإفريقية هي المتنفس الهام لتلك الجماعات عبر البحر الأحمر أو

---

(١) أحمد ، خليفة ، دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، ص : ١٩ .

(٢) قال الله تعالى ، في كتابه الكريم " ۞ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ۞. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ۞ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ۞ " (سورة سبأ : ١٥ - ١٧) .

تعد قصة دمار سد مأرب من أكثر المواضيع التي تناولها المفسرون والباحثون والأثريون في تاريخ العرب القديم . ونسبوا أسباباً عديدة إلى أسباب خراب السد يصل بعضها إلى حد الأسطورة ، وتدل معظمها على أنه سبب الخراب جاء من الفئران التي أتت على حجارة السد في النهاية .

وإذا حاولنا دراسة هندسة البناء وأهميته ، فإننا نجد أن إنشاء السد كان ضرورة لمنطقة تتلقى كميات كبيرة من الأمطار الموسمية ، تقع في شرق اليمن ، وتسير سيولها إلى منطقة قرب مأرب حيث تدخل بين الجبال في منخوات تعرف باسم جبل بلق ، ويعرف الوادي النهائي الذي تصب فيه السيول قبل الفتحة باسم وادي ذنة . وجبل بلق ، ذو صخور بركانية وارتفاعه ٣٠٠م ومتوسط الفتحة حوالي ٢٣٠م . من هنا إختار أهل سبأ هذا الموقع لبناء السد فبنوا جداراً قوياً أمام الوادي لوقفه . وبنوا جدران قوية جعلوا لها فتحات متعددة يخرج منها الماء لكل قناة تسير لرى ناحية معينة . وكان هذا السد يحقق أهداف منها :

١ - السيطرة على مياه السيول الغزيرة . ٢ - تخزين المياه أمام السد .

٣ - تأمين رى منطقة مأرب الجافة وذات الأرض المرتفعة .

ويبدو أن السد قد تعرض للانهيار أكثر من مرة حتى كانت آخر محاولة لإصلاحه ٥٤٢ م زمن أبرهة الحبشي . كما كان سيل العرم قبيل ميلاد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ،

عبر باب المندب، خاصة بعد انهيار سد مأرب .

لقد حفلت أخبار العصور القديمة بتعرض أوطان الساميين إلى فترات عديدة من الجفاف والجدب، مما اضطرهم إلى الخروج من تلك الأوضاع والتوجه صوب وادي النيل في إفريقية، في أغلب الأحيان.بل أن هجوم الهكسوس[1] الكاسح على مصر كان هروباً من أوضاع اقتصادية متردية أصابت غرب آسيا في القرن الثامن عشر ق. م. وبلغت قمة الأوضاع المتردية لمنطقة شبه الجزيرة العربية في العصور القديمة في القرن السادس ق.م، حيث بدأت جماعات عربية وسامية أخرى في التوجه صوب إفريقية للاستقرار بها.

ومن دراستنا لمعابر عبور الجماعات العربية إلى قارة افريقية قبيل الإسلام، وفي صدر الاسلام، يمكننا تحديدها :

المعبر الأول : سيـناء :

حيث كانت أهم المعابر وأنشطها عبر عصور التاريخ، بحيث كانت عمليات الفتح الاسلامي لشمال القارة عبر هذا المنفذ وحده. وبحكم ارتباط سيناء بشبه الجزيرة العربية في ظروفها الجغرافية وأوضاعها القبلية واتصالها البري المباشر مع غرب آسيا وشبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى استواء سطحها ووجود الكثبان الرملية التي تحتفظ بكميات كبيرة من المياه الجوفية [2]، كل هذه العوامل جعلت من سيناء معبر العرب الأساسي إلى إفريقية.

وشهدت سيناء استقرار جماعات عربية وسامية فيها قبل الإسلام[3]، كما عبرتها قبائل عربية في طريقها إلى مصر. فقد استقرت قبائل قضاعة في صحراء مصر الشرقية، واستقرت جماعات من الأزد في مصر أيضا بعد عمليات انهيار سد مأرب، ونزل بها جماعة من العباسية [4] بحيث أن جيش عمرو بن العاصي لم يجد مقاومة وهو في طريقة

(١) ظل حكمهم محصورا في شمال مصر،حوالى قرن ونصف حتى طردهم أحمس الأول .
فخري ، المرجع السابق ، ص : ٤٢ .

(٢) شقير ، نقوم ، تاريخ سيناء ، ص : ٤٥ .

(٣) التوراة ، سفن التكوين ، الإصحاح الثاني عشر .

(٤) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر والمغرب ، ص : ١٤ ومابعدها .

إلى العاصمة عبر سيناء، إذ كانت قواته تتحرك وسط قبائل عربية في غالبتها. وبمجرد فتح مصر سنة ٢١هـ تدفقت تلك القبائل نحو الفسطاط ودلتا مصر وصعيدها [١]. فقد نزل بالفسطاط في السنوات الأولى للفتح حوالي أربعون ألفاً. بالإضافة إلى القبائل التي تحركت صوب الصعيد جنوباً، أو التي انتشرت في قرى الدلتا وكفورها، وفي الإسكندرية.

وخلال القرنين الأول والثاني الهجريين أصبحت مصر أشبه بمستودع كبير للجماعات العربية التي بدأت في الانتشار في قارة إفريقية بفعل عوامل سياسية أو اقتصادية، بحيث أن عملية اختيار والي مصر شكل أهمية لدى الأمويين ثم العباسيين لما يمتلك من موارد بشرية هائلة من العرب بالإضافة إلى الإمكانيات الإقتصادية. واستمرت عمليات تدفق القبائل العربية على مصر حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث تحولت لغة وثقافة مصر إلى العربية رغم عراقتها وجذورها العميقة. وإن كانت الثقافة المصرية قد ظلت واضحة المعالم في الثقافة العربية الجديدة.

وبعد تمكن الوجود العربي من مصر باعتبارها بوابة إفريقية الرئيسية، بدأ يتطلع صوب الغرب ، وقد حدث ذلك بعد الفتح مباشرة، بل أن بطل الفتح نفسه وهو عمرو بن العاص قد تحرك بقواته صوب الغرب واخترق برقة وطرابلس [٢]، لكنه عاد بسبب أوضاع مصر[٣]. وفي خلافة عثمان بن عفان، بدأ الاستعداد لإرسال حملة، هي الأولى من نوعها لفتح افريقية. وقد ضمت تلك الحملة في معظمها أصحاب رسول الله، صلي الله عليه وسلم، وسميت بجيش إفريقية، وبلغ عدد هذا الجيش عشرون ألفا. وتمكن هذا الجيش من تحقيق تقدم جديد على جبهة إفريقية الشمالية، فقد ثم هزيمة الروم في معركة سبيطله [٤]. لكن أحداث الفتنة التي شملت العالم الإسلامي أدت إلى انسحاب الجيش إلى مصر، وهى الفتنة التي وقعت منذ السنوات الأخيرة للخليفة عثمان بن عفان وانتهت بمقتله، واستمرت أحداثه حتى في خلافه الإمام على بن أبي طالب، حيث استمرت سيوف المسلمين ضد بعضها البعض حتى ٤٠هـ.

---

(١) ابن عبد الحكيم ، المرجع السابق ، ص : ٢١٧ .

(٢) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، ص : ١٩٤ .

(٣) محمود ، حسن . الإسلام والثقافة العربية في إفريقية . ص : ٨٦ .

(٤) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص : ٨٦ ، ٨٧ .

ومن أجل إزالة المرارة من نفوس العرب من جراء الطريقة التي وصل بها الأمويون إلى الخلافة، ومن أجل استغلال طاقات العرب الحربية في الفتح والجهاد بدلاً من الفتنة سارع معاوية إلى إرسال الجيوش لفتح افريقية بقيادة معاوية بن حديج [١]. وأصبح للعرب خبرتهم بأرض إفريقية الشمالية ولمسوا التعامل مع أهلها مباشرة، فتمكن معاوية ابن حديج من التوغل في إفريقية حتى وصل حضرموت (سوسة) واقتحم حصونها، ثم قفل راجعاً إلى مصر محملاً بالغنائم [٢].

واستمرت عمليات الزحف الإسلامي في العصر الأموي ثم التراجع صوب مصر على جهة شمال إفريقية مستمرة طيلة العصر السفياني، حتى جاء إلى عمليات الاستقرار النهائي في شمال افريقية زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وبدأت لأول مرة إدخال جماعات بربرية في خدمة الجيوش الإسلامية كان لها دورها الهام في عمليات الفتح الإسلامي لأسبانيا سنة ٩٢هـ بقيادة طارق بن زياد. وأخذت عمليات الإنصهار الكبيرة بين العرب والبربر. كما أن الأعداد الكبيرة التي حملت من الجواري والغنائم البربرية إلى الشام، كانت، رغم مايحيط بها من تفسيرات، هجرة قسرية إلى المنطقة العربية.

المعبر الثاني : باب المندب :

احتل أهم المعابر العربية إلى القارة الافريقية، قبل الإسلام، ولم يتخل عن مكانته إلا حينما بدأت تتحرك الجيوش الإسلامية إلى داخل إفريقية الشمالية عبر مصر وسيناء. ذلك أن اليمن كانت مركزاً للجنس العربي في العصور القديمة [٣]، وبفعل عامل القرب المكاني أصبحت الحبشة ومنطقة القرن الإفريقي هي أقرب المناطق المناسبة للاستقرار والخروج من الأوضاع المتردية التي بدأت منطقة اليمن تتعرض لها [٤].

ظلت الهجرات العربية مستمرة عبر باب المندب إلى أرض «كوش» حيث تمكت من

---

(١) ابن تميم ، أبو العرب ، كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص : ٢٥،٢٦، دار الكتاب اللبناني بيروت، بدون تاريخ .

(٢) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ، ص : ١٨ .

(٣) قلعجي ، الخليج العربي ، ص : ٤٨ .

(٤) بافقية ، تاريخ اليمن القديم ، ص : ١٦٦.

وضع أساسس الحضارة الحبشية، حتى ظهرت مملكة أكسوم التي بلغت درجة كبيرة على المستوى العالمي كممثلة للقبائل والجماعات الإفريقية حتى نهاية العصور القديمة [1]. ومنذ ذلك العهد لم تنقطع صلات العرب بالحبشة بل أن لغتهم وكتاباتهم ليست إلا الكتابة واللغة الحميرية التي كانت منتشرة في تلك الفترة. ويبدو أن هناك صلات بين ملوك أكسوم الحبشية وبين اليمن، فبمجرد ظهور أكسوم كقوة افريقية مدت سيطرتها مباشرة على اليمن، وأصبحت ألقاب هؤلاء الملوك «ملك أكسوم وحمير وريدان وسلحين»[2]

ورغم تحول الأحباش إلى المسيحية وتعصبهم لها، إلا أن أبناء عمومتهم في اليمن ظلوا على عبادة القمر والشمس والكواكب الأخرى، ونشطت بيزنطة في إرسال مبشرين لنشر المسيحية من أجل تدعيم نفوذها السياسي والاقتصادي في اليمن وجنوب الجزيرة العربية، وفي منتصف القرن الرابع الميلادي كانت هناك في عدن كنيسة، وفي أرض حمير كنيستان.لكن ظلت منطقة نجران على وثنيتها إلى آخر القرن الخامس الميلادي ولم يبشر بالتبشير بها ، إلا راهب سوري اسمه «فميون». ولذلك تصادمت الديانتان اليهودية والمسيحية على أرض اليمن، خاصة نجران. حينما تهوّد الملك الحميري «ذو نواس» وأعلن الحرب والإضطهاد على المسيحيين، حتى وقعت مذبحة الأخدود سنة ٥٣٣م [3].

واهتم الروم والأحباش بأحداث اليمن في تلك الفترة فأرسل الإمبراطور جستينان إلى النجاشي جيشاً لمساعدة مسيحي اليمن قوامه ٧٠,٠٠٠ مقاتل، وبعد حرب دامت عامين، وجد ذو نواس أنه لا أمل له في التغلب على أعدائه ففضل الانتحار والغرق في البحر، حينما ألقى نفسه فيه مع جواده [4]. وأصبح للأحباش، زمن أبرهة، اليد الطولي في اليمن جميعها فبدأت خطط حبشية لإصلاح وترميم سد مآرب سنة ٥٤٣م، وبنيت

---

(١) فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ص : ١٤٢ .

(٢) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص : ٤٤٩ ومابعدها .

(٣) ورد ذكرها في القرآن الكريم :

"والسماء ذات البروج ۞ واليوم الموعود ۞ وشاهد ومشهود ۞ قتل أصحاب الأخدود ۞ النار ذات الوقود ۞ إذ هم عليها قعود ۞ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ۞ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ۞ " (سورة البروج : ١-٨)

(٤) جواد علي ، المرجع السابق .

كنيسة كبيرة في صنعاء عرفت عند العرب باسم «القليس[1]» بالغ الأحباش في عمارتها وزخرفتها لجذب أنظار القبائل العربية إلى المسيحية.

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت منطقة اليمن والحبشة أهم مناطق الصراعات الدولية قبل الإسلام وامتد هذا الإهتمام إلى الحجاز أيضا. ذلك أن الرومان ركزوا سياستهم على تلك المناطق للوصول إلى خيرات وتجارات المحيط الهندي، بعد أن فشلت حملتهم في القرن الأول ق.م، وبعد السياسات التي وضعها الإمبراطور تراجان، من أجل الاهتمام بتجارة ظفار واليمن والحجاز لضمان وصول تجارة المحيط الهندي براً وبحراً إلى البحر المتوسط[2]. وكان الأحباش بالفعل أداة لتنفيذ تلك السياسة في المنطقة. ولم يعكر صفو هذا التحالف الروماني الحبشي على أرض اليمن، إلا حينما لجأ سيف بن ذي يزن إلى الفرس لتخليص بلاده من الأحباش. وعلى أرض اليمن بدأت مرحلة جديدة من الصراعات الدولية حتى ظهور الإسلام، فتغيرت الأوضاع من جديد.

ومن جهة ثانية امتدت العلاقات العربية واليمنية إلى الفراعنة أيضا عبر البحر الأحمر وعبر سواحل غرب البحر الأحمر، كامتداد لأوضاع الحبشة والمنطقة. حيث استخدم اليمنيون والعرب الطرق الموصلة بين البحر الأحمر والنيل ومنها طريق وادي الحمامات للتوجة شمالاً إلى دلتا النيل. ويبدو أن هناك تأثيرا عقائديا ظهر في العقائد الفرعونية من عرب جنوب الجزيرة العربية. ذلك أن الإله حورس، كان رمزا اتخذته إحدى القبائل كمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع المهاجرين إلى مصر في الألف الثالث ق.م، ووصف في نصوص الأهرام بكلمات تحمل معنى الشرق[3]. ولذلك فإن هناك إشارات عن موطنة الأصلي في بلاد بونت التي توجد عند جنوب البحر الأحمر. كما أن اسمه حورس في اللغة العربية مع نفس أوصاف الصقر، وقد أوردها في مادة «حر» [4]ويتضح أن العرب قد حملوا معهم إلههم حورس إلى الشمال الشرقي لافريقية عبر ساحل البحر الأحمر وأرتيريا وهى مناطق كانت تابعة لنفوذ الحضارة الفرعونية.

---

(١) أصلها "أكليسا" بمعنى كنيسة ، ثم صرفها العرب إلى القليس .

(٢) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص : ٧٢ .

(٣) فخري ، المرجع السابق ، ص : ١٣٥ .

(٤) الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ، مادة حر ، مادة صقر .

وبذلك أصبحت منطقة القرن الإفريقي وأرتيريا وساحل البحر الأحمر الإفريقي ذات خصائص ودماء عربية منذ العصور القديمة، رغم امتداد الهيمنة السياسية والعسكرية للأحباش على اليمن وجنوب الجزيرة العربية، حتى فرض العرب نمط حياتهم وحضارتهم على تلك المناطق[1]. من خلال استمرار تدفق الجماعات العربية إلى تلك المناطق الإفريقية من اليمن ومن منطقة ظفار في جنوب عمان.

وتؤكد الدراسات الإفريقية الحديثة، على أن العرب، خاصة القحطانية منهم، هم الذين مونوا السواحل الإفريقية الشرقية بالعناصر الحضارية التي ساهمت في تطوير القارة الإفريقية منذ البداية، من خلال هجراتهم واختلاطهم بالسكان الأفارقة، رغم معارضات القوى القديمة من البطالمة والرومان [2]. وامتد هذا التأثير غرباً عبر وادي النيل إلى منطقة بحيرة تشاد. كما ساهم أهل الحجاز في تنشيط المراكز الإفريقية المواجهة لهم في ساحل البحر الأحمر وأدوليس، حيث كانت حركة ميناء الشعيبة والجار من أنشط موانئ وسط البحر الأحمر للتجارة الإفريقية. الأمر الذي أظهر أهمية العلاقات العربية الإفريقية القديمة في دعم انتشار الإسلام ومساندته. وكانت عمليات الهجرة الأولى من المسلمين إلى الحبشة حينما اشتد أذي قريش تحمل في مضمونها الكثير من متانة العلاقات العربية الإفريقية قبل الإسلام، ومدي مايكنه الأفارقة من تقدير واحترام للعرب. رغم وجود علاقات عربية وثيقة مع أمم أخرى من فرس وغيرهم. الأمر الذي يدل على أن الدور الحضاري العربي في إفريقية قبل الإسلام كان دوراً ايجابياً ومقدراً من قبل الأفارقة [3]. حتى أن تلك العلاقات كتب لها الاستمرارية والدوام طوال فترات تاريخية طويلة، ولم يعسكر صفوها إلا حينما وصلت الأطماع الغربية حديثا إلى تلك الجهات.

المعبر الثالث : سواحل افريقية الشرقية وجزرها :

اندمج العرب بصورة أوثق مع الأفارقة في جبهة ثالثة من القارة، وهى منطقة الساحل الشرقي لإفريقية منذ العصور القديمة. ذلك أن العرب تكونت لديهم معارف راسخة عن الملاحة البحرية في المحيط الهندي، وامتلكوا ميزات هامة في هذا المضمار

(١) الغنيمي ، حركة المد الإسلامي ، ص : ١٥ .
- بافقية ، تاريخ اليمن القديم ، ص : ٢٢ .
(٢) جواد علي ، المرجع السابق ، ص : ٤٥٩ .
(٣) مسعودي ، قضايا إفريقية ، ص : ٧٧ .

بحكم رصيد خبرتهم وعلاقتهم مع إفريقية والهند. ورغم توضيح المصادر اليونانية لأوضاع الملاحة في المحيط الهندي وشرقي إفريقية، إلا أن العرب كانت لديهم معارفهم الأقدم في هذا المجال وكانوا يتوار ثونها ويخفونها عن الأمم الأخرى، الأمر الذي يؤكد سيطرة العرب على الملاحة في المحيط الهندي قبل أن يصل هيبالوس Hippalus اليوناني في القرن الأول ق.م [1].

وكان للعرب لهم تجربتهم في بناء السفن بما يتلاءم مع رحلاتهم الطويلة التي ينطلق بها البحارة إلى الهند والصين وإلى جنوب سواحل افريقية الشرقية، وهى السفن التي يشد ألواحها بليف أو خيوط من ليف ولا يدخل في تركيبها مسمار واحد. واتضح أن تلك السفن لها القدرة على السير لمسافات طويلة في البحار المتلاطمة الأمواج دون أن تتفكك ألواحها أثناء رحلتها الطويلة. وتسمى تلك السفن باسم «السفن المجلفطة»[2] وبذلك فإن العرب كانت لهم رحلاتهم البحرية الطويلة إلى سواحل شرق إفريقية حتى سفالة الزنج [3].

وكان لأهل عمان دورهم الكبير في هذا المضمار في العصور القديمة، حيث اعتمد عليهم حكام بلاد الرافدين في جلب سلع افريقية إليهم، وأصبحت «سفن مجان» هي الوسيط الهام بين إفريقية وبين مناطق الشرق الأدنى وحضاراته، كما كان لأهل عمان دورهم الكبير في تطوير فنون الملاحة في المحيط الهندي في العالم القديم، من جراء رحلاتهم المستمرة إلى شرق إفريقية. الأمر الذي يفسر لنا توجه هجراتهم وحكامهم إلى شرق إفريقية في صدر الإسلام، بعد ذلك.

وبحكم تلك الروابط العربية الإفريقية الوثيقة قبل الإسلام، فقد حدثت هجرات

---

(١) حوراني ، المرجع السابق ، ص : ٧٠ ومابعدها .

(٢) هي السفن التي لا يدخل في تركيبها مسمار واحد ، وتشد ألواحها إلى بعضها البعض بخيوط من ليف من ثقوب بتلك الألواح ثم تطلى بمادة زيتية وتدهن . وهي التي عرفت باسم السفن المجلفة أو المدسرة ، ويشق منها كلمة Galfter الغريبة .

انظر : الشامي ، أحمد ، دكتور ، العلاقات التجارية ، ص : ١٩ ومابعدها .

(٣) يطلق العرب ، حتى اليوم ، على المناطق الجنوبية اسم سفالة ، وتوجد في مناطق عديدة من بلاد العرب وسواحل الهند وكذلك على ساحل شرقي إفريقية .

حوراني ، المرجع السابق ، ص : ١٣٧ .

عربية مستمرة إلى مناطق شرق إفريقية من سواحل أو جزر. وكان أهل سبأ أوأوسان أهم الجماعات العربية التي استقرت بكثرة على السواحل الإفريقية [١]، ووصلت إلى مسافات بعيدة جنوب سواحل إفريقية [٢]، واستقرت جماعات من عمان ومن أهل أوسان في جزيرة بمبا وجزيرة زنجبار[٣]. وقد لاحظ ذلك التجار اليونان الذي ظهروا في المحيط الهندي في العصر الهلينستي. وأصبحت منطقة بمبا وزنجبار أهل المحطات التي استقرت بها الجماعات العربية للتجارة [٤]. وحق أن يسمى شمال المحيط الهندي باسم «بحر العرب».

وأصبحت للرحلات العربية القديمة إلى شرق إفريقية دوراً هاماً في حمل ثروات إفريقية الإستوائية إلى المناطق التي تحتاجها في الشرق الأدني القديم والبحر المتوسط. وأصبح طرفي الرحلة العربية الطويلة إلى بلاد الصين وجنوب شرقي آسيا تسمى «واحد الواق» وإلى أقصى جنوب افريقية تسمى أيضا «واق الواق» [٥] وحتى أصبحت الثانية تسمى باسم واق واق اليمن دلالة على أصل التسمية والنشاط التجاري العربي.

ومن تتبعنا للعلاقات العربية الإفريقية قبل الإسلام نلاحظ مايلي :

١ - كانت العلاقات ترتكز أساساً على الجوانب التجارية دون التدخل أو المساس بالجوانب السياسية أو غيرها، وكان دور التاجر العربي دوراً نزيهاً بعيداً عن الإنتهازية والإستغلال وقد كان لهذا الأمر دوره في مكانه العربي في نفوس الأفارقة وما كان يكنه الأخير للعربي من الإحترام والتقدير.

٢ - تعتبر منطقة القرن الإفريقي أهم مناطق التواجد العربي في القارة الإفريقية، وذلك بفضل عوامل تاريخية وجغرافية. حتى اعتبر البعض منطقة القرن الإفريقي مستودعا للجماعات السامية [٦] خاصة العربية للقارة الإفريقية. ومن هذه المنطقة تحركت الجماعات العربية صوب داخل القارة في كل اتجاه،

(١) العبادي ، محاضرات في تاريخ اليمن قبل الإسلام ، ص : ١٧٥ .

(٢) بافقية ، المرجع السابق .

(٣) حوراني ، المرجع السابق ، ص : ٨٢،٢٤ .

(٤) حوراني ، المرجع نفسه ، ص : ٢٣١ .

(٥) حوراني ، المرجع نفسه ، ص : ٢٣١ .

(٥) لاحظ مشاهدات ابن بطوطة في رحلته ، ص : ٧٠٠ ،مابعدها

شمالاً وغرباً وجنوباً. وكان لهذا أثره في عمليات انتشار الإسلام فيما بعد، حيث كانت تلك القبائل العربية على صلة بأخبار قبائلها الأم في شبة الجزيرة العربية أوجيوشها التي تحركت لنشر الإسلام. وكانت هزيمة الجيوش الرومانية كفيلة بإظهار الصورة الحقيقية لمجتمع ما في إفريقية ودمائه العربية. وحتى المناطق التي لم تصلها الجيوش الإسلامية، فقد تحول أهل إلى العربية والإسلام دون أن يدروا وبالتدريج وكانت قبائل البجة خير دليل على ذلك.

٣ - نقل العرب إلى أوطانهم الإفريقية أمراضهم العصبية، فظهرت العصبية القبلية بشكل مباشر أو غير مباشرين عرب إفريقية. فإذا كان العرب ينقسمون إلى عصبيتين هما : عرب الشمال (العدنانية، النزارية، القيسية) وعرب الجنوب (القحطانية، اليمنية) فإننا وجدنا عرب السودان الشرقي، يظهر بينهم تلك العصبية في صورة جديدة، فعرف عرب الشمال عندهم باسم الجعليين أو العباسيين، وعرب الجنوب باسم الجهينيين [١]. حتى أن هذين الفرعين كانا يمثلان تسعة أعشار العرب في السودان [٢].

٤ - تميز الدور العربي في التجارة الإفريقية العالمية بالوصول إلى منابع الإنتاج للسلع الإفريقية، والمساهمة، أحياناً في عمليات الإنتاج مع السكان المحليين، عكس الدور العربي في التجارة العربية مع الهند أو مع الصين، حيث كانت المراكز التجارية على سواحل الهند أو الصين تتكدس فيها السلع المنتجات انتظاراً لمرور السفن العربية لتتم عمليات التبادل والشراء [٣]. وكانت الجاليات العربية على سواحل الهند أو الصين أو فيما بينهما تعيش في تلك المراكز التجارية.

٥ - رغم تغير ظروف العلاقات التجارية بين العرب وإفريقية بين الإزهار أحيانا والتدهور أحيانا أخرى السبب مواقف القوى الخارجية أو الداخلية في القارة الإفريقية مثل البطالمة أو الرومان، إلا أن نشاط الجماعات العربية استمر في

---

(١) عوض ، المرجع السابق ، ص : ٢١٦ .

(٢) عوض ، المرجع نفسه ، ص : ٣٢٠ ومابعدها .

(٣) آشتور ، التاريخ الاقتصادي والإجتماعي ، ص : ١١٩ .

التنقل داخل القارة الإفريقية، كما كانت عمليات التفاعل مستمرة مع الأفارقة. فبرغم وجود ممالك في النوبة وفي منطقة السودان الشرقي والأوسط بأن الجماعات العربية ظلت في حركتها وراء تجارتها أو مراعيها، حتى إذا ما آنست من نفسها قوة، تظهر ذلك في شكل سياده على منطقتها.

٦ - تمثل الدور الإنساني والحضاري للتاجر العربي في إفريقية في القناعة التي التزم بها في تحديده للعائد من سلعة الإفريقية أو السلع التي حملها من أماكن أخري إلي الأفارقة [١] فبرغم ما تكلفة عمليات الشحن والتفريغ والملاحة والحراسة والمؤن ،فإن ربحه كان في الغالب لا يتعدي ضعف سعر السلعة وهو سعر مناسب للتكاليف التي تتكلفها السلعة ،والمشاق التي يواجهها ، أهمية ذلك الدور وإنسانيته ، حينما تبرم الأوروبيون في نهاية العصور الوسطي وبداية العصور الحديثة من استغلال تجار البندقة وجنوة وغيرهم من تجار إيطاليا من الأسعار المرتفعه لتلك السلع التي حملتها سفنهم إلي أوربا من موانى المسلمين القريبة منهم ، والتي كانت تصل إلي الأوروبيين بعد أن يحصل تجار إيطاليا علي أكثر من عشر أمثال السلعة رغم قرب المسافة ، وبساطة الحصول عليها .بل كان هذا الامر سببا في اهتمام حكام البرتغال وأسبانيا بالكشوف الجغرافية والملاحة البحرية للوصول إلي منابع تلك السلع وكسر احتكار البنادقة وغيرهم من تجار المدن الايطالية [٢] .

٧- ظل الذهب هو السلعة الأساسية التي ظلت تتدفق من إفريقية في كل اتجاه ،وعبر كل العصور فقد حملته قوافل التجار الفراعنة والفينيقيين واليونان والرومان ، كما نقلته سفن أهل اليمن وعمان . وكان للذهب الإفريقي دوره الكبير في الإستقرار الإقتصادي ثم النقدي في العالم القديم [٣] . ثم تأتي من المواد الخام كالحديد والنحاس وهي مواد هامة للتطور الحضاري في العالم القديم ، بحيث اعتمدت مدنيات الهند وبلاد الرافدين علي تلك السلع الهامة

---

(١) An Economic History of West Africa P : 45.

(٢) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص : ٦٨ .

(٣) آشتور ، التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ص : ٩٨ .

لها واعتمدت روما وغيرهم من قوي البحر المتوسط علي تلك السلع أيضا [1]

في المقابل شكل الملح أهم السلع التي اتجهت إلي داخل القارة الإفريقية ، خاصة في المناطق الإفريقية التي تقع علي خط السافانا وتبتعد عن الساحل . ذلك أن الجماعات التي تعامل معها تجار البربر وشمال إفريقية في منطقة جنوب الصحراء كانوا من سكان منطقة السافانا المحصورة بين الرمال في الشمال والغابات في الجنوب ،كانوا يلجأون إلي طرق معقدة وبدائية في سبيل استخلاص الملح من النباتات .وأصبح للملح أهمية في الحياة اليومية للإنسان ، خاصة في المناطق الحارة .من هنا أصبحت تلك السلعة بالنسبة للزنوج تساوي قيمة الذهب بالنسبة لسكان البحر المتوسط.

٨ - ظلت إفريقية مرتبطة بسلع هامة في مجال التجارة العالمية عبر العصور القديمة ،واستمرت مرتبطة بها أيضا في العصور الوسطي ،ولم يقع التغير الكبير في مجال السلع الإفريقية إلا بعد قدوم الأوروبيين إلي تلك القارة ، ووقوع الإنقلاب الصناعي .حيث انطلق الأوروبيون للبحث عن كنوز جديدة للقارة ومعادن جديدة تفيد آلاتهم الجديدة . فبينما ظل الذهب والحديد والنحاس والرقيق أهم السلع التي تخرج من القارة للعالم القديم والعالم الوسيط [2] تغير الأمر في عصر الإنقلاب الصناعي حيث احتاجت الآلات الأوربية إلي خامات جديدة ،كما أصبحت تلك الآلات تعارض تجارة الرقيق علي أساس أن الآلة حلت محل الأيدي العاملة ، في العالم الجديد ،فبدأت نظريات جديد ةفي أوربا تعمل علي وقف تجارة الرقيق تحت شعارات إنسانية براقة ، ولكن المقصود كان هو إخلاء سوق العمل أمام الآلآت الآوربية لتسويقها . والمتتبع لتلك الآراء يجب أنها لم تزيد من حكوماتها إلا بعد الإنقلاب الصناعي.

٩ - ساهم الأفارقة أيضا ،من جنوب الصحراء ،في مجال التجارة العالمية .وذلك أن الإمارات والجماعات الزنجية التي ظهرت علي سواحل إفريقية الشرقية ، أوجنوب الصحراء الإفريقية الكبري المعتمدة في حياتها علي التجارة .ذلك

---

(١) لوفران ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ١ ، ص : ٦٨ .

(٢) لومبارد ، الجغرافية ، التاريخية ، ص : ٣١٣ .

أن تلك الجماعات شكلت وسيطابين مناطق الغابات الإفريقية والأدغال والأحراش وبين مراكز التجارة العالمية ، وكانت بحكم بئيتها علي صلة بقبائل الزنوج داخل الغابات والمناطق التي من الصعب علي التاجر الأجنبي الوصول إليها ،ولذلك فقد حدث اختلاط بين الأفارقة جنوب الصحراء وبين سكان شمال إفريقية في بلاد المغرب ومصر . حيث كان هؤلاء في حالة حركة دائمة بين الشمال وبين الجنوب بعد زحف الجفاف علي مناطقهم منذ الألف الأول قبل الميلاد.

وقد استمدت الجماعات الإفريقية قوتها الاقتصادية من نشاطها التجاري ووساطتها بين نطاق الغابات الإفريقية وبين السواحل الإفريقية الشمالية والشرقية [١]. ولكن لم تورخ لتلك النشاطات في العصور القديمة وظلة غامضة مجهولة حتي بداية دخول الإسلام إلي تلك المناطق وظهورهم علي مسرح أحداث العالم الاسلامي .وإن كان الباحث يلاحظ وجود عناصر زنجية ضمن أحداث حضارات البحر المتوسط في العصور القديمة وغيرها من حضارت العالم القديم [٢] .

١٠- ظلت الطرق البحرية عبر المحيط الهندي والبحر المتوسط هي المستخدمة لنقل تجارة إفريقية إلي حضارات العالم القديم ومدنياته عبر منافذ بحرية محدرة .إلا أن هذين المعبرين قد تبادلا الأهمية في نقل تجارة إفريقية .فقد ظلت مياة المحيط الهندي هي التي تشهد حمل السلع الإفريقية إلي حضارات السند والهند وفارس وبلاد الرافدين ، خاصة من خلال التجارة العرب الأمر الذي أدي إلي اهتمام ملوك وحكام سومر وبابل وآشتور وأكاد وفارس بأوضاع سواحل الخليج العربي «البحر المر » أو«البحر السفلي» فهو الممر الأساسي لحمل تلك السلع الهامة إليهم كما أصبحت تلك المنطقة تشهد امتداد الاطماع الدولية القديمة إليها [٣] .

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص : ٢٥٦ ومابعدها .

(٢) البدر ، الخليج العربي في الألفين الثاني والأول قبل الميلاد ، ص : ٧٥ ومابعدها .

(٣) لوفران ، المرجع السابق ، ص : ١٨.

وبظهور الرومان كقوة عالمية في حوض البحر المتوسط ،أصبح البحر المتوسط «بحر الروم »يفوق في أهميته المحيط الهندي في حمل السلع القادمة من إفريقية لأهميتها في حياتها اليومية والعامة وفي الجوانب الدينية .

وبظهور الإسلام أصبح المنفذين البحريين : المحيط الهندي والبحر المتوسط علي أهمية واحدة علي اساس أن الدولة الإسلامية الجديدة شملت اليابس العالمي شماله المحيط بقلب القارة الإفريقية كما أصبح البحر المتوسط والمحيط الهندي ،خاصة شمال ،بحارا عربية إسلامية . وقد تمكن بذلك الإسلام من ربط الطرق العالمية القديمة البرية والبحرية لأول مرة في التاريخ ،وهو الأمر الذي فشل منه قبل الإسكندر الأكبر المقدوني [1] .

---

(١) قلعجي ، المرجع السابق ، ص : ٣٦ .

(٢)

إفريقية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

منذ بداية العقد الثالث من القرن السابع الميلادي شهدت منطقة شرق إفريقية وغرب آسيا تطورت جديدة أثرت علي التاريخ ومسيرة البشرية منذ ذلك الوقت .ذلك أن ظهور رسالة الإسلام في منطقة الحجاز ودعوتها إلي نظام إنساني عالمي سماوي جديد ،جعلت من القارة الإفريقية موقعا علي مستوي الأحداث العالمية منذ البداية .وبدأت مرحلة جديدة وهامة في التاريخ الإفريقي .

لقد استفادت الدعوة الإسلامية منذ البداية من رصيد العلاقات العربية الإفريقية ،وأصبحت إفريقية علي دراية بنبض منطقة مكة والمدنية وعلي علم بأحداث الحجاز ، حيث كانت حركة السفن التجارية مستمرة بين الطرفين عبر البحر الأحمر [١] . وكانت حركة الأفراد والجماعات بين الطرفين مستمرة بين الساحلين العربي والإفريقي للبحر الأحمر .فكان ميناء الشعيبة وميناء الجار في أوج ازدهارهما التجاري مع ميناء عدول "أدوليس" الحبشي [٢] . كما كانت الحركة التجارية نشطة في ذلك الوقت بين موانيء عدن والمكلا وقنا وسمهرام وغيرها من موانى الجزيرة العربية من موانى الحبشة والقرن الإفريقي . بالإضافة إلي تبعية جنوب البحر الأحمر للنفوذ الحبشي بعد استنجاد اليمنيين بالفرس .

ويبدو أن الأحباش قد نشطوا أيضا علي السواحل العربية في تلك الفترة للتجارة وفي مجالات الأعمال الأخرى .ووصل إلي عرش الحبشة في تلك الفترة شخصية تربت على أرض العرب .فتذكر الروايات أنه ظهر صراع علي عرس الحبشه بين ملكين من ملوكها .الأول يدعي «أبحر»مع ابنه ويسمي «أصحمة»[٣] . وكان الأخير معاصرا للرسول صلي الله علية وسلم ، وثار الأحباش علي أبحر وقتلوه ،وأبعدوا ابنه أصحمة ،ووصل إلي

---

(١) النعيم ، نورة ، الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية ، ص : ٢٦١ ومابعدها .

(٢) الناصري ، المرجع السابق ، ص : ٤٨ .

(٣) عابدين ، بين الحبشة والعرب ، ص : ٧٢ ومابعدها .

كرسي الملك ملك مغتصب حينما توفي الملك المغتصب ،لم يكن له ولد يحلفة علي العرش فاستدعي الأحباش أصحمة ،بعد أن كانوا قد باعوه إلي تاجر عربي ، فحمله معه إلي بلاده يرعي له الغنم . وحنيما عاد أصحمة إلي كرسي الملك لم ينس المعاملة الحسنة التي لاقاها في بلاد العرب ،فظل متعاطفا مع العرب ومع قضاياهم .

وكان أصحمة علي موعد مع الدين الجديد ،فتدل الروايات علي أن الأحباش ملوكا وأفرادا كان لديهم الإحساس بظروف بلاد العرب وتطورات أحداثها .كما كانت بلاد العرب أيضا تحس هي الأخرى بنوايا أهل الحبشة ومايكنة ملوكها من تقدير للعرب . من هنا بدأت افريقية تشارك منذ البداية في نجاح الدعوة الاسلامية ،وسبقت بذلك مناطق أخرى ،ذلك أنه حينما اشتد أذي كفار قريش للمسلمين ،أصبحت أرض الحبشة هي الأمل الوحيد أمام المسلمين للخروج من دائرة الإضطهاد والبلاء من المشركين وقد أخبر الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،أصحابة بالأمل الجديد بقوله «لو خرجتم إلى أرض فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ،وهي أرض صدق ،حتي يجعل الله لكم فرجا مما أنتم » [1] .

وبذلك شهدت إفريقية، ممثلة في أرض الحبشه ،أول هجرة في تاريخ الإسلام .وهو أمرله مدلولاته الجديدة .وأمن المهاجرون من المسلمين الأوائل علي أنفسهم في جوار نجاشي الحبشة [2] ،وكان أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة مهاجرا ، عثمان بن عفان

---

(١) ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك (ت٢١٣ هـ.) ، السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرؤف سعد ، جـ ١، ص: ٢٨ ، بيروت ١٩٨٧م .

(٢) قال عبد الله الحارث حينما أحسن النجاشي جواره وجوار من معه من المهاجرين :

كل أمرىء من عباد الله فضطهد .. ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة .. ينجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز .. ى في الممات وعيب غير مأمون

وقال أيضاً :

وتلك قريش تجحد الله حقه .. كما هجدت عاد ومدين والحجر
فإن أنالم أبرهة فلا يسعني .. من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عبد الإله محمد .. أبين مافي النفس إذ بلغ النقر.

ابن هشام ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص : ٢٨٦/٢٨٧ .

وزوجته رقية بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم ،وأبو حذيفة بن عقبة بن ربيعه وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ،والزبير بن العوام ،ومصعب بن عمير ،وعبد الرحمن بن عوف ،وبلغ عدد هؤلاء الأوائل من المهاجرين إلي الحبشه عشرة .ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتي اجتمعوا بأرض الجبشة بأعداد كبيرة فكثروا بها . فمنهم من خرج بأهلة ،ومنهم من خرج بنفسه لاأهل معه [1].

ويذكر ابن هشام في سيرته أعدادا كبيرة من المهاجرين حسب قبائلهم ،فمنهم من بني هاشم ،ومن بني عبد شمس ، ومن بني نوفل ومن بني أسد ،ومن بني عبد قصى ،ومن بني عبد الدار بن قصى ، ومن بني زهرة ، ومن بني هذيل ،ومن بني تميم ، ومن بني مخروم ، ومن بني جمح ،ومن بني سهم ،ومن بني عدي ، ومن بني عامر ، ومن بني الحارث ، حتي أحصاهم ثلاثة وثمانين رجلا ،سوي أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا ،أو أولادهم الذين ولدوا بها .

لقد كان قرار الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،بخروج المسلمين من مكة إلي أرض الحبشة يدل علي حكمة ،فقد جعل مقدمة المهاجرين عشرة من المسلمين ،وكانوا بمثابة استطلاع للموقع الجديد ،واختبارا لنوايا النجاشي واستعداداته . كانوا في غالبيتهم من التجار الذين ترددوا علي موانيء الحبشة قبل ذلك ولهم دراية بأحوالها . وقد أقام هذا الوفد شهرين في بلاط النجاشي حتي حصل علي موافقتة ، وبعد ذلك تدفق المسلمون بأهلهم علي الأرض الجديدة ،التي جعلها الله وطنا جديدا للمسلمين الأوائل [2]. وكان لذلك الأمر أثره علي مسار الدعوة الإسلامية في خطوتها الأولي ومتنفسا من اضطهاد كفار قريش وعنادهم .حيث تربي علي تلك الارض الإفريقية جيل في بيئة متسامحة .

واحتلت الأرض الإفريقية ،الممثلة في أرض الجبشة ، وزعيمها النجاشي مكانة هامة في التاريخ الإسلامي [3] ،حتي الآن ،فقد وجد المسلمون علي أرضه بيئة آمنة ،وأحسوا

---

(١) الناصري ، المرجع السابق ، ص : ٥٨ .

(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ص : ٢٩٣ .

(٣) روى عن الرسول أحاديث كثيرة تثنى على هذا الموقف .

كما روت عائشة "لما مات النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نورا"

ابن هشام ، المصدر السابق ، ص : ٢٩٣ .

بالأمان علي عقيدتهم ،فكان ذلك نصرا هاما للإسلام وأتباعه .

أحس كفار قريش بخطورة موقف لجاش الحبشه علي موقفهم من الاسلام الذي يرمي إلي القضاء علي الإسلام والإجهاض علي دعوته ، خاصة بعد هزيمة بدر ،فقرروا إرسال رجلين من زعمائهم إلي النجاشي لاستدراك ذلك الأمر ،وهما :عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وكان لهما سبقاً في التردد علي الحبشة ،وبعثت قريش معهما هدايا كثيرة للنجاشي ،ولرجال الدين المسيحيين في مملكتة من البطارقة ، ولم يتركوا بطريقا إلا أهدوا له هدية ،حتي يشيروا رجال النجاشي ضده وضد المسلمين ،لعلمهم بموقف النجاشي وتأييدة للمسلمين [1] .

وصل الوفد وبدأ اتصالات برجال الكنيسة والإدارة في الحبشة ، وبينوا لهم أن هؤلاء المهاجرين خطرا عليهم ،وأنهم رافضون لدين أهل الحبشة من المسيحية .وعقدت مفاوضات بين وفد قريش وبين نجاشي الحبشة ، حتي أنه قرر أن يقاوض ويواجه هؤلاء المهاجرين بنفسه لمعرفة الحقيقة ، وانتهت تلك المفاوضات بنصر جديد للإسلام علي أرض إفريقية تمثل فيما يلي :

١- اقتناع النجاشي بمبادىء الإسلام ، والاستمرار في توفير الحماية للمسلمين المهاجرين ورفض تسليمهم لقريش بعد اقتناعه بآرائهم وأفكارهم .

٢ - اتضحت صورة عيسي ابن مريم ،عليه السلام ،بشكل واضح عند النجاشي، فمن خلال النقاش مع المهاجرين المسلمين عدل النجاشي فكره ومعتقده ، حينما سمع صدرا من صورة مريم ، من القرآن الكريم ،حيث شهد بأن عيسي ابن مريم عبد الله ورسوله وروح منه ،وكلمة ألقاها إلي مريم .

---

(١) أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم . كتاباً إلى النجاشي أوضح له فيه مدى ثقته بموقفه مع المسلمين ، بقوله ، صلى الله عليه وسلم :

"أما بعد فكأنك من الرقة علينا فما ، وكأنا من الثقة بك منك.."

- الأحمدي ، علي بن حسين ، مكاتيب الرسول ، جـ ١ ،ص : ١٢١، ١٣١، بيروت، بدون تاريخ .

(٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ص : ٢٩٤ .

٣ - انتهي الأمر بتحول النجاشي إلي الإسلام ، وإعلان ذلك ، ٩هـ ، وحتي أن الرسول ،صلي الله عليه وسلم ، نعاه حينما علم بوفاته ،وصلي عليه بالبقيع واستغفر له . وكان تحول النجاشي للإسلام بعد تلك المناقشات مترتبا علي رسائل الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،له والتي أوضحت له أهمية وحقيقة الدين المستقيم .

فقد أوردت المصادر نص رسالة الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،إلي النجاشي ،والتي جاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ، إلي النجاشي الأصحم ،ملك الحبشه ،سلام عليك ،فإني أحمد الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسي ابن مريم روح الله ، وكلمة ألقاها إلي مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسي فخلقه من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيدة ونفخه ، وأني ادعوك إلي الله وحدة لاشريك له ، والموالاة علي طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بي ، وبالذي جائني فإني رسول الله ، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، فإن جاؤك فأقر ودع التجبر ، وإني أدعوك وجنودك إلي الله ،عز وجل ،وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا ، "السلام علي من اتبع الهدي[1]" .

ويتضح من محتويات الرسالة الشريفة أنها توضح النهج الصحيح الذي يجب أن ينهجه النجاشي ، كما تحدد له مفهوم المسيحية الصحيح ،ورسالة الإسلام ، باعتبارها خاتمة الرسالات . ورغم وجود نصوص أخري للرسالة، إلا أنها تتفق في كل النصوص حول تصور الرسول ،صلي الله عليه وسلم . لعيسي ابن مريم .كما وصلت رسائل أخري من المسلمين وصحابة الرسل ،صلي الله عليه وسلم ، وممن لهم علاقة بنجاشي الحبشة [2].

توطدت العلاقات بين نجاشي الحبشه ، وبين الرسول ، صلي الله عليه وسلم ،حيث

---

(١) الأحمدي ، المصدر السابق ، ص : ١٣١ .

(٢) كتب أبو طالب رسالة إلى النجاشي ، يوصيه بجعفر وأصحابه ، يقول فيها :

تعلم مليك الحبش أن محمداً .. نبي كموسى والمسيح بن مريم
إتى بالهدى مثل الذي أتيانه .. وكل بحمد الله يهدي ويعصم
وإنكم تتلونـــه في كتـابكم .. بصدق حديث لا حديث المرجم
فلا تجعـلوا لله نداً واسلـموا .. فإن طريق الحق ليس بمظلم

انظر : الأحمدي . ،مرجع السابق ، ص : ١٢٥ .

بعث النجاشي بهدايا كثيرة إلي الرسول منها الثياب والطيب وغيرها من سلع بلاده ، كما أرسل النجاشي إلي المدنيه المنورة وفدا من رجال الكنيسة للإطلاع علي عقيدة الاسلام ، وقد أسلم هؤلاء القساوسة ،وتدل مجريات الأحداث في الحبشه علي ظهور صراع بين رجال الدين من ناحية وبينهم وبين النجاشي من ناحيه ثانيه .

ومن أجل تامين طرق الاتصال بين المدنيه المنورة وبين الحبشة ، حيث كان طريق البحر الأحمر هو المتبع في الاتصال مع ميناء أدوليس الحبشي ، أرسل الرسول ،صلي الله عليه وسلم ، قوة من المهاجرين بقيادة حمزة بن عبد المطلب ووجهها إلي سيف البحر في ثلاثين راكبا من المهاجرين ،فلقي أبا جهل بن هشام علي الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ،ولم يقع بين الطرفين قتال بسبب وساطة مجدي بن عمرو الجهيني [1].

وتدل تلك المواجهة علي اهتمامات الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،بالتجارة مع إفريقية ،فإذا كانت مواجهة بدر تعود إلي أسباب استراتيجية لتجارة قريش مع الشام ،نظرا لوقوع المدنية المنورة علي الطريق البري بين مكة والشام ، فإن الرسول ،كان يدرك أهمية تجارة قريش مع مواني، إفريقية علي البحر الأحمر ،ولذلك عقد الراية إلي حمزة بن عبد المطلب .ورغم عدم وقوع مواجهة مع رجال قريش ،إلا أن كبر حجم أعداد رجال قريش المترديين علي تلك المواني العربية المطلة علي البحر الاحمر والمتصلة بالتجارة الإفريقية تدل جحم النشاط التجاري الكبير بين الحجاز وإفريقية .

وإذا كان تجار قريش ، المعاندين للدعوة الإسلامية ، ظلوا مسيطرين علي مواني، الحجاز التصلة بالتجارة الإفريقية،فإن الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،اعتمد علي المراسلات المستمرة بينه وبين المهاجرين في الحبشة .حيث اعتمد الرسول علي شخصية لها درايتها بالبحر الأحمر والحبشة وهو عمرو بن أمية الضمري ،الذي تربطه بنجاشي الحبشة علاقة طيبة ،حيث أقام النجاشي عنده ،حينما كان مطرودا من أرضه . وقد وصل عمرو ابن أميه الضمري إلي الحبشة في زيارة أخيرة ،وبدأ في تجميع المسلمين لحملهم إلي المدنية، بعد أن تمكن المسلمون من تكوين دولتهم في المدنية . وقدم المهاجرون علي سفينتين ،ونزلوا ميناء الحجاز علي البحر الأحمر . وكان ذلك يوم فتح خيبر [2].

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، جـ ٢، ص : ٢٣٢ .

(٢) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ص : ٢٣٣ .

ويبدو أن هناك صراعاً دار علي السلطة في الحبشة انتهي بنهاية النجاشي كما بدأ الإسلام ينتشر بين أهلها من خلال المجموعات التي استقرت بين أهلها من المهاجرين وإقامتهم هناك لعدة سنوات تمكنوا خلالها من توضيح الإسلام لأهلها ،خاصة وأن هؤلاء المهاجرين ،كان معظمهم علي دراية بأحوال منطقة الحبشة ورجالها ،وشئون قبائلها.

وامتد التأثير الإسلامي المبكر أيضا للساحل الإفريقي المقابل لمنطقة الجحاز ،وهو ساحل البحر الاحمر الإفريقي ،والذي يقع تحت نفوذ قبائل البجة [1] ،حيث وقع تحول تدريجي لسكانها نحو الإسلام ،استمر حتي ظهر أثره في العصر العباسي رغم استمرار تلك القبائل علي حياتها ونمطها القديم .

ويبد أن الأحداث كانت قد بدأت تتجه إلي العزلة في منطقة الحبشة والقرن الإفريقي ،منذ طرد الأحباش من اليمن وتعرض دولتهم لمشاكل داخلية وصراعات قبلية ،ولم يكن لنشاط المهاجرين الأوائل من المسلمين الدور الكبير لإخراج أهل الحبشة من عزلتهم وتوجيههم للمشاركة في أحداث العالم الجديدة التي ترتبت علي ظهور الإسلام . وظلت أنوار الإسلام تصل إلي تلك المنطقة علي يد التجار الذين ظلوا يترددون علي موانى الحبشة .بينما السلطة المركزية فيها غائبة بسبب غارات قبائل "أجاو"الوثنية [2].

وأصبحت جزر البحر الأحمر الجنوبية والوسطي والشمالية تحت هي الأخرى نفوذ التجار المسلمين ، وكذلك الموانئ والمراكز الساحلية .ومن هذة المراكز بدأ الإسلام يشق طريقة إلى داخل الهضبة الأثيوبية ومنطقة أريتريا وبلاد السودان .وبدأ هذاالمنفذ يقوم بدوره الكبير في نشر الحضاره الإسلامية في إفريقية منذ القرن الثامن الميلادي . وانتهز التجار المسلمو ن ،وكذلك القبائل العربية خلو منطقة جنوب البحر الأحمر الإفريقية من قوة مركزية سياسية لتمد نفوذها إلي داخل إفريقية ، فقد فقدت أكسوم جزر دهلك وغيرها من جزر البحر الأحمر ،وتركتها تحت نفوذ القبائل العربية والتجار العرب الذين حولوها إلي مراكز للعبور إلي داخل القارة الإفريقية وبلاد السودان [3].

---

(١) قبائل إفريقية تسيطر على سواحل البحر الأحمر الإفريقية من شمال أرتيريا جنوباً ، حتى سواحل جنوب مصر على البحر الأحمر شمالاً .

(٢) العارف ، الأحباش ، بين مأرب ، وأكسوم ، ص : ٧٧ .

(٣) العارف ، المرجع السابق ، ص : ٧٨ .

وترتب علي النشاط الإسلامي المبكر علي يد التجار والقبائل العربية ظهور مراكز إسلامية داخل الهضبة الحبشية مثل مملكة "أوفات" في إقليم شوا والتي مدت نفوذها حتي بلغت ميناء زيلع حيث الطرق البرية إلي البحر الاحمر .كما ظهرت إمارت أخري إسلامية في تلك المنطقة من القارة الإفريقية مثل مملكة "عدل "ومقرها زيلع .وكانت تلك المراكز الإسلامية بمثابة نقاط حضارية لنشر الإسلام داخل القارة الإفريقية [١].

علي أن أعظم المراكز الإسلامية العربية التي ظهرت منذ عصر الرسول والخلفاء الرشداين هي سلطنة "هرار"فوق الهضبة الشرقية .ويبدو أنها تأسست منذ القرن السابع الميلادي حتي أصبحت بحق مركز هام للعرب والمسلمين يعد ذلك .ثم نمت وتوسعت لموقعها التجاري داخل الهضبة . ومازالت تحتفظ هرار بلغة خاصة تسمي لغة "هدارة" ترجع إلي أصول سامية [٢]. ومن تلك المراكز بدأ الاسلام يشبت خطاه في الحبشة وبلاد السودان الشرقي وقلب القارة .

من جهة ثانية استقبلت القارة الافريقية رسالة أخرى ،من الرسول ،صلي الله علية وسلم ، من نافذة ثانية .فقد أرسل الرسول رسالة إلي والي مصر من قبل ، البيزنطيين ، وهو المقوقس .جاء فيها بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ،إلي المقوقس عظيم القبط .سلام علي من اتبع الهدي .إما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ،أسلم تسلم ،يؤتك الله أجرك مرتين .فإن توليت فإنما عليك إثم القبط (ويا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [٣].

ويتضح من تفحص الروايات والمصادر أن المقوقس أكرم وفد الرسول ،صلي الله عليه وسلم ،إليه ورد علية بلطف ،وأهدي إلية الكثير من الهدايا .من تلك الهدايا جارية اسمها مارية ،وهي التي أنجبت للرسول ابنه إبراهيم .وجارية أخري اسمها سيرين ، وثالثة سوداء ، وبغلة شهباء ، وفرسا ،وحمارا أشيها .

---

(١) Spencer The Islam in Ethipia , P. : 152 .

(٢) عوض ، الشعوب والسلالات ، ص : ٢٥٣ .

(٣) الأحمدي ، المصدر السابق ، جـ ٣، ص : ٩٧ .

ورغم أهمية المعبر المصري لدخول الإسلام إلى القارة الإفريقية ،وخاصة ،منذ خلافة عمر بن الخطاب ،وبعد القضاء علي حركات الردة في شبه الجزيرة العربية ،في خلافة أبي بكر ،وبدايةتوجيه الجيوش لمواجهة الحواجز التي تعرقل وصول الإسلام إلى الشعوب المجاوره والممثلة في جيوش الروم والفرس .فقد بدأ هناك اتصال بين القوي المعارضة للإسلام في مصر مع تلك القوي في الحبشة ، واستمر ذلك عبر مراحل التاريخ حتي حل محل هذا الإتصال ظهور القوي الأوربية الحديثة .

وانعكس هذا الصراع بين التحالف الحبشي مع أعداء الإسلام في مصر ،علي تهديد وجود المسلمين في مصر ذاتها ،وقد ظهر ذلك في محاولة تهديد تدفق مياه النيل من روافده في الحبشة إلي مصر [1] ،وكثيرا ماكانت السلطات الإسلامية في مصر توسط الكنيسة في الإسكندرية لوقف تلك الاعمال ورفع الأذى ، وخاصة في العصر الفاطمي حينما قام الخليفة الفاطمي المنصور بالله بطلب بطريرك كنيسة الإسكندرية ، وأرسله الي الحبشة لمنع حكامها من التعرض لمياه النيل ، وكذلك رفع الأذي عن المسلمين بها .ولكن تلك التحالفات لم تؤثر في التحول الجارف لسكن وادي النيل إلي الإسلام .

وتدل أوضاع إفريقية زمن الرسول ،صلي الله عليه وسلم ، علي دلالات تاريخة هامة للباحثين منها مايلي :

١ -أن مكاتيب الرسول ،صلي الله عليه وسلم ، التي أرسلها بعد صلح الحديبية[2] ،لدعوة أمراء وحكام المناطق المجاورة للإسلام ،لقيت صدرا رحبا في إفريقية ،أكثر مما قابلته في مناطق أخري مثل فارس وبلاد الروم .وقد وردت احاديث كثيرة تثني من قبل الرسول علي موقف النجاشي ،وعلى أن هناك خيرا ينتظر الإسلام في أرض مصر .

---

(١) العارف ، المرجع السابق ، ص : ٨١ .

(٢) هو الوثيقة التي وقعت بين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين سهيل بن عمرو . ممثل كفار مكة في ٦هـ / ٦٢٨م ، حينما منعت قريش المسلمين من دخول مكة للحج . وقد احتوى على شروط قبلها الرسول . واستفاد منها الرسول في بداية تحويل دعوة الإسلام إلى جهات أخرى غير الجزيرة العربية ، وقد نزلت سورة الفتح عند الإنصراف من الحديبية،وفيها وعد من الله للمسلمين بفتح قريب لمكة.

٢- كان ظهور الدعوة الإسلامية وسط ثلاث قوي عالمية قوية ،تحيط بمنطقة الدعوة الإسلامية في الجحاز وهي : قوة الفرس الساسانين وقوة الروم البيزنطيين وقوة أكسوم الحبشية وكانت تلك القوى تتحكم في سياسات العالم. القديم لفترة طويلة ، وشبه الجزيرة العربية خاصة .ومع ظهور الإسلام بدأ زوال القوة الإفريقية ممثلة في دولة أكسوم وجنوحها صوب العزلة والصراعات الداخلية القبلية والعرقية . وقد أدي ذلك إلي تركيز خلفاء الرسول ، صلي الله عليه وسلم ،علي مواجهة القوتين الباقيتين في فارس والروم لتبليغ رسالة الإسلام إلي شعوبهما وكسر الحاجز العسكري للقوتين .

٣- أدي انهيار مملكة أكسوم الحبشية مع ظهور الإسلام ،بسبب عوامل داخلية وصراعها مع الفرس ،إلي الاعتماد علي دور التجار والهجرات القبلية في نشر الإسلام من هذا المنفذ للقارة الإفريقية . وقد اعتمد التجار العرب علي رصيد العلاقات الطويلة مع الأحباش قبل الإسلام .وكان هذا الدور يوازي دور الجيوش الإسلامية في شمال إفريقية . بل أن هذا المنفذ ، فيما بعد ،بالدور الإسلامي في القارة في منطقة الوسط والغرب .

٤ - وصلت إفريقية رسائل من الرسول ،صلي الله علية وسلم ، تشير علي توجيهة لأنظار المسلمن إلي إفريقية باعتبارها المجال الأرحب للدعوة الاسلامية .وبالفعل لم يكد ينتهي القرن الاول الهجري وبداية الثامن الميلادي ،حتي أصبحت منطقة شمال إفريقية جزء من دولة الإسلام ،وساهم سكانها في نشر الإسلام مع إخوانهم العرب ،وخاصة فتوحات الاندلس . واعترف الباحثون الغربيون حديثا علي ان الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي تتناسب مع الافارقة وادت الي تطوير وتقدم القارة الإفريقية الواسعة .بل وبدأ عصر إفريقية التاريخي مع الإسلام .

بدأت عمليات الفتوحات الإسلامية الكبري في القارة الإفريقية منذ خلافة عمر بن

---

(١) طرخان ، مملكة مالي ، ص : ٧ .

(٢) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر وبلاد المغرب ، ص : ٨٠ ومابعدها .

الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٤ ، ص : ١٠٤ ومابعدها .

الخطاب (١٣هـ-٢٣هـ). وقد بدأت تلك العمليات تأخذ اتجاهين :بري وبحري .حيث كان لابد من الاستفادة من سواحل مصر الطويلة علي البحر الاحمر ،لربطها بالحجاز ،خاصة وأن الروم ظلوا يهددون السواحل المصرية المطلة علي البحر المتوسط في تلك الفترة.

وبدأت أحداث الفتح الإسلامي لمصر منذ سنة ١٩هـ/ سنة ٦٤٠م ، حينما توجه عمرو بن العاص جنوب مصر بعد فتح بيت المقدس وانهيار الوجود البيزنطي في الشام في أعقاب معركة اليرموك . ظل عمروبن العاص في التوجة جنوبا حتي وصل إلي الفرما ، ثم توجه منها إلي الغرب ، ملتزما بالطريق الشمالي في سيناء لدخول مصر ،ومتفاديا الطريق الساحلي ، حتي وصل إلي شرق الدلتا في منطقة بلبيس ،المواجهة بين الطرفين ،وتمكن عمروبن العاص من دخول حصن بابليون وهزيمة الروم.

اتجه عمرو إلى الشمال ليضم العاصمة الثانية لمصر وهي الإسكندرية ،والتي كانت تمثل أهمية خاصة في عالم البحر المتوسط والشرق الأدني .بالإضافة إلى وجود أسطول بيزنطي قوي بها .وكان مع عمرو قوة قواتها عشرون الفا .بينما كانت الحامية البزنطي في الإسكندرية تزيد عن خمسين ألفا،وأسطول حربي كبير يتكون من عدد كبير من السفن الحربية .وتقدم عمرو بجنودة وضرب الحصار علي مدينة الإسكندرية من الخلف وقاومت المدينة لفترة طويلة ،حتي استسلمت في النهاية وعقدت معاهدة الفتح مع عمرو[1] سنة٢١هـ . وبذلك أصبحت مصر جزءمن العالم الإسلامي ،ومدخلاً هاما لفتح إفريقية..

ومهما يكن من تفصيلات المعارك الحربية التي وردت في المصادر والمراجع حول عمليات فتح مصر ثم الامتداد إلي شمال إفريقية ، فإن هناك ظروفا كانت مناسبة في مصر وإفريقية أدت إلى نجاح التقدم الإسلامي وساعدت علي تحول تلك الشعوب إلى الإسلام وتمسكها به .ومن تلك الظروف والعوامل مايلي :

١ - كانت جبهة مصر وشمال إفريقية حتي المحيط الأطلسي تعتبر ، في نظر العرب ، جبهة واحدة ، حيث كانت خاضعة للنفوذ البيزنطي وكان انتصار المسلمين في اليرموك وفي الشام وفلسطين ،لايتم تأمين ذلك إلا بإزاحة الوجود البيزنطي من

---

(١) ابن عبد الحكيم، المصدر السابق ، ص : ٨ .

سواحل شمال إفريقية [١]. وقد عاني ولاة الشام الكثير من هجمات الأساطيل البيزنطي فكان لابد من حسم هذا الشريط الساحلي الذي يشمل شرق وجنوب البحر المتوسط وكانت مصر أهم المعاقل في هذا الشريط الساحلي لوجود قاعدة ضخمة للأسطول البيزنطي في الإسكندرية.

٢ - اعتمد عمرو بن العاص ، بعد مؤتمر الجابية ،علي القبائل اليمنية في التحرك جنوب مصر وهي القبائل التي لها خبرتها في قتال الحصون واختطاط المدن والزراعة والصناعة ، وقد ساعدته تلك القبائل في التحرك بين القرى والمدن المصرية ، ومواجهة القلاع والحصون البيزنطية بها .

٣- لما كانت منطقة سيناء وشرق مصر مسرحا لكثير من القبائل العربية البدوية منذ قرون سابقة ، كما ذكرنا ،فقد اتصل العرب بتلك القبائل التي تضم علي حدود مصر ولها نفوذها في شرق الدلتا حصوصا قبائل لخم وراشدة [٢].وقد انحاز هؤلاء العرب إلي أبناء عمومتهم وقدمت تلك القبائل خدمات هامة لجيش عمرو في استكشاف الطرق وحماية مؤخرة الجيش .

٤ - كان الانتشار العسكري البيزنطي يعتمد علي التمركز في المدن الهامة في الدلتا والصعيد مما أدى إلي فراغ عسكري في الجوانب الشرقية والغربية من البلاد ، وأصبح من السهل كسر هذا الإنتشار من وسطه عند حصن بابليون ،وبالتالي يتم عزل قوات الدلتا عن الصعيد .وقد اعتمد العرب في دخولهم مصر علي الخطة الفارسية القديمة ،التي ترمي إلي احتلال حصن بابليون ،وعزل قوات الجنوب ثم التحرك لحصار الإسكندرية من الخلف .وقد استعان العرب في ذلك ببعض الجنود الفرس الذي لهم خبرة بعمليات مصر العسكرية في السابقة[٣] .

---

(١) فروخ، عمر ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص : ١١٤ ، دار العلم للملايين .

(٢) فيصل ، شكري ، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، ص : ١٢٥ ومابعدها ، دار العلم للملايين .

(٣) محمود ، حسن ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ص : ٨٤ .

ولما أشرق العرب علي رمال إفريقية من غرب مصر ، لم يجدوا أمامهم قوات معادية منظمة ،خاصة بعد أن دخلوا الإسكندرية ،وقد حرص الخليفة عمربن الخطاب علي أن يكون التوجة غربا منظما ، خشية من تفرق جنودة وسط تلك الصحراء الواسعة والسهول المترامية والسواحل الطويلة [1] .ولذلك اكتفى عمر ابن العاص بتأمين حدود مصر الغربية ، رغم أن قواته واصلت التقدم غربا حتي برقة وطرابلس [2].

٥ - رغم تبعية مصر وشمال إفريقية للإمبراطورية البيزنطية ،وتحول سكانهم إلي الديانة المسيحية ،التي أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية منذ نهاية القرن الرابع الميلادي ،الان كنيسة مصر وكنيسة شمال إفريقية أصبح لهما فكرهما الخاص المرتبط بحضارة وظروف كل منهما ولذلك فقد عانى أتباع المسيحية في مصر وشمال إفريقية ألوانا من الإضطهاد المذهبي والآهوتي حتي ظهور الإسلام ،وتطور الأمر إلى الحركة اضطهاد ديني [3] للكنيستين وأتباعهما .فقد تكتل الشعب المصري خلف كنيستة التي ظهرت متأثرة بتعاليم مدرسة الإسكندرية القديمة ومذاهب فلاسفتها ، وآمنت بالطبيعة الواحدة للمسيح ،وبذلك استقلت بالرأي عن كنيسة الدولة البيزنطية ، وترجم الإنجيل إلى اللغة القبطية ،وأصبحت الكنيسة المصرية امتداداً للحضارة المصرية القديمة في نظامها وتقاليدها ،وكان هذا الأمر يتعارض مع سيادة بيزنطية ،ولذلك وجد قبط مصر في الفتح العربي رحمة بهم من اضطهاد بيزنطية لهم [4].

أما البربر وسكان شمال إفريقية فقد قاموا الانتهازية الكاثوليكية وارستقراطية روما ، وناهضوا تحالف الولاة الرومان مع الأساقفة والملاكين والتحار في المنطقة ،من أجل تحقيق مكاسب علي حسابهم ، فاعتنقوا المذهب الدوناتي .وقد لاقي أتباع هذا المذهب المناهض للكاثوليكية الوانا عديدة من الاضطهاد علي يد أباطرة روما وبيزنطية ،خاصة

---

(١) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ٢ ، ص : ١٦ .

(٢) مؤنس ، حسين ، فتح العرب للمغرب ، ص : ٦٨ .

(٣) بكر ، فتح العرب لمصر ، ص : ٦ ومابعدها .

(٤) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص : ٧٢ .

بعد وقوع أعمال عنف بين أتباع المذاهب علي أرض شمال إفريقية [١] .وكان آخرها سياسة الإمبراطور جستنيان الذي عمل علي إعادة الأحوال إلي ماكانت علية قبل غزو الوندال لشمال إفريقية وزوال سيادة الرومان عليها .ولذلك أنزل أشد الاضطهاد لسكان إفريقية من البربر والوثنيين منذ سنة ٥٣٣ م [٢]، واضطهد أتباع المذهب الدوناتي .من هنا فقد أسلم البربر أيديهم الى العرب لتخليصهم من هذا الاضطهاد والظلم ووجدوا فيهم مخلصين من هذا العهد .

ومنذ عهد عمر بن الخطاب وضع الأساس الأول في سياسة الدولة الإسلامية في إفريقية علي أساس اعتبار مصر هي المنطلق والمركز الأساسي للتوغل داخل القارة الإفريقية ، وبالفعل بدأت القبائل العربية في التدفق علي مصر والاستقرار بها ، وأصبحت تلك القبائل بمثابة الاحتياطي الاستراتيجي لاستمرار عمليات الفتح والتوغل صوب الغرب والذي بلغ مداه في العصر الأموي .

ولما كان عمر بن الخطاب حريصا علي أمن البحر الأحمر ، خاصة بعد فتح مصر وحرصه علي سلامة السفن العاملة بين موانيء الحجاز ومواني، مصر والتي أصبحت تحمل القمح وغيره من سلع مصر ومنتجاتها . فإن الخليفة عمر اضطر إلى ارسال قوة بحرية تتكون من عدة سفن بقيادة علقمة بن مجزز [٣]، وأرسلت تلك القوة إلى ساحل الحبشة وكان لها هدفان هما :

الهدف الأول : حماية التجار المسلمين المقمين علي الساحل الإفريقي ومواني، الحبشة من اعتدا مات الاحباش وتدعيم الوجود الإسلامي هناك .

الهدف الثاني : مواجهة خطرانتشار القراصنة في مياة البحر الأحمر الجنوبية ، خاصة بعد خلو تلك المنطقة من قوة مركزية بعد زوال مملكة أكسوم [٤].

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص : ٣٤ .

(٢) عمران ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) الطبري ، تاريخ ج ٢، ص : ١١٢/١١٣ .

(٤) العارف ، المرجع السابق ، ص : ٨٤ .

أرسلت تلك الحملة سنة ٢٠هـ/ سنة٦٤١م، ولكنها منيت بهزيمة وخسائر جسيمة ، حيث غرقت السفن كلها . الأمر الذي جعل عمر بن الخطاب يفكر مليا في عمليات البحر [١] أوعمليات التوغل في غرب إفريقية . ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يهدف إلى تدعيم الوجود الإسلامي في البحر الأحمر والمياة الشمالية من المحيط الهندي من أعمال القراصنة التي انتشرت في تلك السواحل وتهدد حركة السفن العربية والإسلامية ، وكان تأخر الخليفة عمر عن الرد علي تلك الخسائر البحرية يدل علي بعد نظره حيث أنه كان يركز أساسا علي الجبهات الشمالية التي تتركز فيها قوات الفرس وقوات الرومان .وكان لتلك السياسة آثارها الناجحة فيما بعد ، حيث تم في خلافة عمر حسم الوضع

---

(١) مازالت قضية ركوب العرب البحر ، وغزو المسلمين للبحر زمن عمر بن الخطاب لم توضع من قبل الباحثين حيث رددت معظم الدراسات بأن العرب أمة بعيدة عن غزو البحر ، حتى خلافة عثمان بن عفان . وقد استندت تلك الآراء على أمرين هما :

- الأول أن حياة العرب قبل الإسلام ارتبطت بالصحراء ، وأنهم نشطوا في مجال التجارة البرية عبر شبكة الطرق التي تمر ببلادهم ، واشتهروا بذلك فلما امتدت فتوحاتهم في عصر الإسلام وشملت سواحل هابوا البحر لفترة طويلة .
- الثاني : رسالة عمر بن العاص في وصف البحر التي أرسلها لعمر بن الخطاب ، وذكر له فيها أن "البحر خلق عظيم وأن الناس فيه دود على عود" فأقسم عمر بن الخطاب ألا يحمل فيه مسلماً أبدا.

لكننا نرى أن العرب أكثر الامم القديمة خبرة في البحر والملاحة قبل الإسلام وحتى في خلافة عمر بن الخطاب . فعرب عمان والبحرين واليمن لهم دورهم الواضح في تجارة العالم القديم البحرية وفي الملاحة في المحيط الهندي قبل الإسلام ، واستمر هذا الدور بوضوح حتى العصر الإسلامي الجديد . كما كانت هجرات المسلمين مستمرة في العصر المكي إلى الحبشة عبر مياه البحر الأحمر ، وكذلك كانت حركة التجارة مستمرة عبر موانيء البحر الأحمر في صدر الإسلام .

وتعد الحملة البحرية الكبرى التي أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة واليه على الخليج العربي عثمان بن أبي العاص الثقفي على سواحل الهند الغربية وسواحل السند وقد ضمت تلك الحملة عرباً من عمان وغيرهم ممن لهم الخبرة في تلك المياه ، وكان ذلك ١٥هـ/٦٣٦م كما قام عثمان بحملة أخرى بحرية على سواحل فارس بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب بعد معركة جلولاء ١٦هـ/٦٣٧م مما يدل على النشاط البحري الواضح للعرب والمسلمين في صدر الإسلام وفي خلافة عمر بن الخطاب .

انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص : ١٥٢ ومابعدها .

- البلاذري ، فتوح البلدان ، جـ ٢ ، ص : ٥٣ .

العسكري لصالح المسلمين أمام الفرس والروم .

بدأت خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ) بتطور جديد على جبهات القتال في إفريقية وسواحل البحر الأحمر . وذلك أن زمام المبادرة البحرية انتقلت لأول مرة إلى أيدي المسلمين بعد انتصارهم في معركة ذات الصواري ،أمام سواحل الإسكندرية سنة ٣٤هـ /سنة ٦٥٥م. حيث أن البيزنطين خططوا لاسترجاع الإسكندرية من جديد ، فهاجموها بخمسمائة مركب أو أكثر ، فتصدي لهم واليها عبد الله بن أبي السرح ، من قبل الخليفة عثمان وجمع لمواجهتهم أسطولا كبيرا ،ودارت معركة كبري عرفت بذات الصواري لكثرة أشرعة السفن بها [١] .

وقد ترتب علي تلك المعركة البحرية انقلاب موازين القوي في البحر المتوسط وشمال إفريقية لصالح الدولة الإسلامية ،وبدأت النواة الأولى للقوات البحرية الإسلامية في البحر المتوسط ،والتي سيكون لها دورها الهام في السيطرة علي جزر البحر المتوسط والمساهمة في تامين السواحل الشمالية لقارة إفريقية والمساعدة علي غزو سواحل أوربا الجنوبية .

وعلى الجبهة الإفريقية بدأعبد الله بن سعد في الاستعداد لغزو إفريقية والتوجة غربا، ووصلته الإمدادات من المدينة ، حيث ضم جيشة العديد من الصحابة منهم عبد الرحمن ابن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، كما انضم إليه مروان بن الحكم .وتوجه الجيش إلي بلاد المغرب الأدني حيث يوجد البطريق جرجير يقود تحالفا من القبائل البربرية وقوة رومانية ،[٢] واتخذ من سبيطلة مركزا له .وبدأ عبد الله بن سعد يتعرف علي جنوب المنطقة ثم عاد لينقض برجالة علي الجيش البيزنطي في سهل سبيطلة ويتمكن من إنزال الهزيمة السريعة به ، وقتل جرجير علي يد عبد الله بن الزبير .في الوقت نفسه عرض عليه البيزنطيون في السواحل دفع جزية مقابل ارتحالة عن منطقة المزاق [٣] .

ورغم أن حملة عبد الله بن سعد لم تستمر أكثر من عام إلا أنها تمكنت من كسر

---

(١) ابن عبد الحكيم ، المصدر السابق ، ص : ٩٠ .

- الطبري ، جـ ٤ ، ص : ٨٨ ومابعدها ، وإن كان الطبري قد جعل تلك المعركة ضمن أحداث ٣١ هـ

(٢) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص : ٩٢ .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص : ١٧ .

الهيمنة البزنطية علي شمال إفريقية ، وكما تعرف المسلمون علي طبعية البلاد وقبائلها ، وتحسسوا جيوب المقاومة بها . لكن أحداث الفوضي والفتنة التي حلت بالعالم الإسلامي منذ الفترة الأخيرة من سني الخليفة عثمان بن عفان ،[1] وكانت مصر طرفا فيها ، الأمر الذي عرقل وأخر عمليات إتمام الفتح لمنطقة شمال إفريقية . وتحولت القوات عن حبهاتها إلي المواجهة في معركة رهيبة ،تعد أول صورة من صور الحرب الأهلية في العالم الإسلامي ، وتمثل مهزلة كبرى في التاريخ الإسلامي ، لما ترتب عليها من انقسامات بين المسلمين مازالت لها آثارها حتي الان .

---

(١) حدثت انقسامات بين الصحابة وبعض المسلمين حول سياسة الخليفة عثمان بن عفان في سنى حكمه الأخيرة ، حيث اهتمه البعض بأن قرب أقاربه من بني أمية وحظى بعضم بجزء كبير من خراج الولايات خاصة إفريقية . كما اعترض البعض على يعيينه لبعض الولاة الذين يمتون إليه بصلة . فتجمعت خيوط المعارضة في المدينة وانتهت بحصار دار الخليفة عثمان بن عفان لفترة طويلة استمرت أربعين يوماً وانتهت الأمور بقتل الخليفة عثمان بن عفان في داره على أيدي الثوار الذين قدموا من البصرة والكوفة ومصر مطالبين بتصحيح الأوضاع في ولاياتهم .

ورغم سرعة انتقال السلطة إلى الإمام علي بن أبي طالب سنة ٣٥ هـ إلا أن العملية التي تم بها قتل الخليفة عثمان أدت إلى ظهور تيارات جديدة تحاول الثأر من قتله ، واتخذها البعض الفرصة للوثوب إلى الخلافة وهكذا سادت الفوضي والفتنة العالم الإسلامي

انظر : بيضون ، التيارات السياسية ، ص : ٦٥ ومابعدها .

(٣)

إفريقية في السياسة الأموية

حظيت إفريقية باهتمام كبير في السياسة الإسلامية طيلة العصر الأموي ، ذلك أن موقع عاصمة الأمويين في دمشق جعل الإهتمام الأكبر للأمويين يتجه صوب حوض البحر المتوسط ، حيث تشكل السواحل الإفريقية خيرا كبيرا فيه .

لقد انتهت الأزمنة السياسية التي تعرض لها الإسلامي منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان سنة ٣٥ هـ حتي مقتل الإمام علي سنه ٤٠هـ بوصول معاوية بن أبي سفيان إلى الخلافة ، بعد أحداث معركة صفين المريرة [١] .وبدأ الخليفة الجديد يشمر سواعده لدفع العرب نحو استئناف حركة الفتوحات الإسلامية من جديد لإزالة المرارة التي علقت في نفوس المسلمين من أحداث الفتنة ، وطريقة وصول الأمويين إلى الخلافة .ومن أجل شغل العرب بالجهاد وتوجيه حماسهم نحو نشر الإسلام [٢].

---

(١) هي المعركة التي وقعت بين الإمام على من جهة وبين والي الشام معاوية بن أبي سفيان . وصفين قرية صغيرة على الحدود العراقية السورية . ذلك أن معاوية علق البيعة للإمام علي بعد تسليمه قتلة الخليفة عثمان . وهي مهمة الخليفة . الأمر الذي أثار عليه الإمام علي والمسلمون معتبرين عدم البيعة للإمام على خروجاً عن الصف الإسلامي ، وينبغي رد الخارج بالسيف . فتحرك الإمام علي من الكوفة بعد أن كان قد فرغ من معركة الجمل واتجه إلى الشمال الشرقي للاقاة جيوش معاوية من الشاميين ودارت بين الطرفين معارك متتالية في صفين كاد النصر أن يكون للإمام علي لولا نصيحة عمرو بن العاص لمعاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح طلباً للتحكيم . وانتهى الأمر بتجميد الموقف وتحوله لصالح معاوية بعد ذلك .

وقد أحدث هذا الأمر انقساماً بين جند الإمام لم يتمكن من رأب صدعه ، ذلك أن وجد نفسه بين تيارين من جنده أحدهما يرفض التحكم والآخر يقبله . وحينما تأكد أن الإمام أرسل وفداً للتحكم خرج من جيشه جماعة المحكة الرافضين للتحكيم رافعين شعار لاحكم إلا لله وعرفوا بالمحكمة وأصبح في العالم الإسلامي ثلاث قيادات : الإمام علي ، المحكمة ، معاوية ، وبعد قتل الإمام علي سنة ٤٠هـ صار الأمر لمعاوية .

(٢) بيضون . المرجع السابق ، ص : ٧١ .

ويمكننا تقسيم النشاطات الإسلامية علي الجبهة الإفريقية إلي مرحلتين هما :

المرحلة الاولي : مرحلة العصر السفياني :

وقد استمرت تلك المرحلة ما يقرب من ربع قرن تميزت خلالها العمليات الإسلامية بالمد والجزر ،ثم تاسيس حاضرة جديدة للإسلام لأول مرة في القيروان .

المرحلة الثانية : مرحلة العصر المرواني :

وتميزت باستقرار أوضاع المنطقة الإفريقية لصالح المسلمين ، وبدأت مراحل الاندماج بين العرب والبربر ومشاركة البربر في أحداث العالم الإسلامي .

بدأ معاوية بالاهتمام بفتح إفريقية فأرسل جيشا كبيرا يضم مشاهير المسلمين منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهما ، وجعل علي رأس الجيش معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ/سنة٦٦٥م [١] .في الوقت الذي لم تستغل فيه المراكز البيزنطية في إفريقية فترة توقف الفتوحات لتجميع صفوفها ، بل زادت القسطنطينية في سياسة الاضطهاد للفرق الدينية المخالفة لها فأصدار الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤٢- ٦٦٨م) مرسوما جديدا اسمه النموذج Le Type يقضي بإنزال صارم العقاب علي كل من لايتبع الرموز القديمة من دون إشارة إلي أصحاب المشيئة الواحدة أو المشيئة المزدوجة ، وأثار عليه بذلك المسيحيين الأرثوذكس في شمال إفريقية .[٢]

تحرك جيش معاوية بن حديج صوب الغرب حتي وصل إلي بنزرت ، وبدأت أول المواجهات بينه وبين البيزنطيين . ومن تلك المنطقة وجه معاوية بن حديج قوة بحرية من قبله صوب جزيرة صقلية يقودها عبد الله بن قيس ،عادت بغنائم كثيرة [٣] كما أرسل قوات من جيشه نحو الداخل يقودها عقبة بن نافع الفهري سنة ٤٦هـ توغلت في الداخل صوب واحة فزان ووصلت إلى غدامس واتجهت إلي قفصة وقسطيلية بالمغرب الأدني من

---

(١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص : ٢٦ .

(٢) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ٢، ص : ١٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، المصدر نفسه ، ص : ٢٦١ .

جهة الخلف ،وكانت تلك العمليات بمثابة التفاف حول خطوط الرومان وتحصيناتهم [١] في الوقت نفسه تمكن معاوية ومعه القوة الأساسية من الجيش من هزيمة جيش بيزنطي في حضرموت "سوسة" واقتحم حصن جلوبي مذكة ثم عاد إلى مصر بعد أن كانت تلك المناطق قد استسلمت له .

حملت حملة معاوية بن حديج معها إلي إفريقية أهم شخصية إسلامية أثرت في تارج الإسلام وثقافتة في إفريقية وهو عقبة بم نافع ،الذي استفاد من تجربته السابقة في تلك المنطقة منذ أن كان مع والده . وبالإضافة إلى أعمال عقبة بن نافع العسكرية الموفقة في إفريقية ضد الروم والبربر ،فإن سياسة عقبة وأعماله بإفريقية قد تمخض عنها نتائج هامة أهمها :

١ - أنشاء قوة بحرية للمسلمين لمواجهة القوة البحرية البيزنطية التي تتخذ من صقلية مركزا لها [٢] ، والتي كانت تهدد دائما الوجود الإسلامي بإفريقية وخاصة سواحلها والمدن الشمالية بالمنطقة .

٢ - أنشاء حاضرة للإسلام في إفريقية في سهل فسيح متصل بالداخل وقريب من الساحل ،وهي القيروان ،التي أصبحت عزا للعرب والإسلام حتى الوقت الحاضر . كما رأى عقبة . وتمكنت تلك المدينة من تأمين خطوط الاتصال بين قوات المسلمين في مصر وإفريقية [٣]. وأصبحت المدينة منذ سنة ٥٠ هـ/ سنة ٦٧٠م منارة للإسلام وثقافتة وحضارته .

٣ - التقرب إلى البربر ، سكان البلاد الأصيليين ،وكان من نتيجة ذلك انصهار العرب مع البربر وبداية التحول الجماعي للبربر إلى الإسلام والمشاركة في أحداث العالم الإسلامي . وأصبحت شخصية عقبة أول الشخصيات التي ترتبط بوجدان البربر من القادة العرب المسلمين حتي اليوم .

---

(١) ابن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص : ٢٦٢ .

(٢) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص : ٨٦ .

(٣) شكري ، المجتمعات الإسلامية ، ص : ١٦٥

(٤) شكري ، المرجع نفسه ، ص : ١٦٧ .

٤ - أصبحت إفريقية تحت قيادة عقبة بن نافع تحتل حيزا هاما في السياسة الأموية ،ولذلك فقد أصدر الخليفة معاوية بن أبي سفيان قرارا بفصل ولاية إفريقية عن ولاية مصر .وجعل علي إفريقية عقبة بن نافع . بينما على مصر واليه معاوية بن حديج . وهي خطوة هامة نحو ترسيخ الإدارة الإسلامية في إفريقية .لكنة عاد فجمعها وعزل عقبة وولي مكانه أبا المهاجر دينار ، مولي بني مخزوم [١] بعد أن عين علي مصر واليا جديدا .

بعد انتصار ات عقبة الأولى بدأ يفكر في إنشاء معسكر جديد لقواتة وللعرب في إفريقية لتخفف عنهم طول طرقها وتسهل التعامل مع ظروفها ، واختار منطقة تشبه إلى حد كبير بيئة العرب التي ألفوها في شبه الجزيرة العربية ،كما أنها كانت بعيدة عن البحر بمسافة تمكنها من الاستعداد لأي خطر قادم منه . بالإضافة إلي ذلك فإنها تقع علي الطرق البرية للقوافل المتجهة إلى الواحات الصحراوية وإفريقية جنوب الصحراء، كما أنها تقع علي الطرق البرية التي تربط بين مراكز شمال إفريقية .وبعد تخطيط المدينة الجديدة وتأسيس المسجد الجامع بها أقبل الناس علي السكني بها وزاد عدد سكانها.

ورغم تقلب الأحوال الإدارية في إفريقية في سنوات حكم معاوية وابنه يزيد ، إلا أن إنشاء القيروان حمل في طياته خطوة إدراية هامة للعرب في القارة الإفريقية ، فأصبحت القيروان مدينة الإسلام ومقر الولاة والعمال ، وإليها اتجهت قوافل التجار ، وقصدها العرب ومختلف الأجناس ، وأصبحت مطمعا لكثير من ولاة بني أمية لتزايد مواردها ، بعد أن كانت الأنظار موجهة صوب مصر .وأصبحت القيروان قبلة المغرب وإفريقية ومشعل الحضارة وكعبة العلماء [٢] . ونفذ تأثيرها إلى إفريقية جنوب الصحراء ،بل قصدها علماء من المشرق ومن مصر.

كان للقيروان الفضل الأول في تثبيت الإسلام بين البربر وسكان إفريقية ، ونشر الحضارة العربية والإسلامية بينهم ،بعد أن ظلوا يتقلبون بين العرب وبين الروم لمرات عديدة ،فأسلموا أيديهم وقلوبهم للإسلام بصورة نهائية وأصبحت مدينة هامة للإسلام في غرب البحر المتوسط وإفريقية ، وقاعدة عسكرية للزود عن الإسلام وعقيدته في تلك الأنحاء

(١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص : ٢٦٥ .

(٢) شكري، المرجع السابق ،ص : ١٦٨ .

،فلولا قاعدة القيروان لقضي عن زهير بن قيس البلوي وجيشه حينما ارتد البربر وهبوا لمساندة الروم وانقضوا على الجيش الإسلامي .[١]

ونظراً لبعد نظر عقبة في سياسته بإفريقية أصدر الخليفة يزيد بن معاوية قرارا بإعادة عقبة إلى إفريقية ثانية سنة ٦٢هـ/ سنة ٦٨١-٦٨٢م. فعاد من جديد ليستغل إنجازاته السابقة ويشن غاراته علي البربر والروم وانطلق نحو الغرب حتي وصل إلى طنجة ،بعد أن هزم الروم والبربر في باغاية ولاماباز وتاهرت [٢] وأضاف القائد العربي إلى أحضان الدولة الإسلامية مساحات جديدة وأوصل حدود الدولة الإسلامية حتي سواحل المحيط الأطلسي لأول مرة . وتمكن من كسر مقاومة البربر خاصة قائدهم كسيلة [٣] وشل تحالفهم المستمر مع الروم .بعد هزيمتهم في أكثر من معركة .

وأثناء عودة عقبة بن نافع بوغت في منطقة بسكرة عند رجوعه بغارة شديدة قام بها جمع من البربر والروم ،بعد ان كان قد قسم جيشه إلى ثلاثة فيالق واتجه هو على رأس كتيبة إلى جنوب الأوراس .لكن كسيلة ، وهو قائد بربري من قبيلة أوروبة ،كان قد عرف خط سيره وانسلخ عنه في مكان مجهول ووحد القبائل البربرية مع الروم وحاصر عقبة وهجموا علية في حدود الصحراء قرب تهودة علي مصب الوادي الأبيض وقتل قتيبة مع رجاله سنة٦٣هـ /سنة ٦٨٣ م[٤] . وكان هذا الأمر بمثابة كارثة حلت بجهود المسلمين في إفريقية ، إذ دخل كسيلة القيروان وبقي فيها لمدة ثلاث سنوات ، وأصبح صاحب السلطة الحقيقية على إفريقية وبلاد المغرب [٥] وظهرت حركات ردة بين البربر من جديد .وانسحب المسلمون إلى برقة بقيادة حنش الصنعاني [٦] .

جاء العصر المرواني بدماء عربية وإسلامية جديدة إلى إفريقية .وذلك أن عبد الملك

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص : ٧١ .

(٢) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ٢ ، ص : ٢٠ .

(٣) مؤنس ، المرجع السابق ، ص : ٨٤ .

(٤) دفن جثمان عقبة في مسجد الواحة التي تحمل اسم "سيدي عقبة" على بعد خمسة كيلومترات جنوب تهودة تحت قبة متواضعة البناء يفد إليها المسلمون من بلاد المغرب .

(٥) مؤنس ، المرجع السابق ، ص : ٨٥ .

(٦) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ ١، ص : ١٢ .

ابن مروان (٦٥- ٦٨هـ / ٦٨٥- ٧٠٥م)بعدأن وطد نفسه في الشام ومصر سارع إلى إرسال جيش كبير إلي شمال إفريقية سنة٦٩هـ بقودة زهير بن قيس البلوي ، ووصل الجيش إلى القيروان واشتبك مع كسيلة ،وتمكن الجيش من هزيمة كسيلة وجموعه وقتله في المعركة .ولكن زهير قتل بعد ذلك أمام جموع جديدة من الروم وصلت إلي منطقة برقة ،حيث أنه ترك قوة بالقيروان واتجه صوب برقة حيث قتل [١] .

وبعد أن أخمد الخليفة عبد الملك ثورة ابن الزبير في الحجاز والعراق ،تفرغ لأوضاع إفريقية فأعاد تجهيز جيش من جديد إليها بقيادة حسان بن النعمان . وقد بادر القائد الجديد إلي انتهاج سياسة عسكرية جديدة في إفريقية ، حيث اتجه إلى إزالة الوجود البيزنطي من قرطاجنة سنة ٧٥هـ ،واتجه بقواته صوب جبال الأوراس حيث مركز المقاومة البربرية بقيادة الكاهنة "دهية "، وقبل أن يشتبك معها أمن نفسه من البحر بهزيمة تعزيزات بيزنطية وصلت المنطقة من جديد ، وجعل من مدينة تونس مركزا للصناعة البحرية الإسلامية على البحر ، وبدأت الخطوات الأولى للسيطرة الإسلامية النهائية على مياه البحر المتوسط وسواحله وجزره [٢] .

كانت الظروف السياسية قد استقرت نهائيا للأمويين في المشرق الإسلامي والعراق ، فأمد الخليفة مروان جيش حسان بتعزيزات جديدة وصلته قبل الاشتباك النهائي مع الكاهنة ودرات المعركة الحاسمة بين جيش حسان وجيش الكاهنة عند منطقة تسمى بئر الكاهنة وانتهت بمقتل الكاهنة وهزيمة البربر [٣] . وبذلك خلصت منطقة شمال إفريقية بصورة نهائية للمسلمين سواء المدن أو القرى أو سكان الجبال والصحراء .

اُستدعى حسان إلى دمشق وخل محله موسي بن نصير سنة ٨٦هـ، في ولاية إفريقية .التي استقلت نهائيا عن ولاية مصر .وبدأ الوالي الجديد يعد العدة لتوسيع نطاق ولايته ، فأخضع قبائل المغرب الأقصى حتي المحيط الأطلسي وتوغل إلى سجلماسة ودخل طنجة وهي أهم مراكز قبائل البربر خاصة قبيلة صنهاجة ، كما فرض نفوذه على قبائل غمارة

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ٢، ص : ٢٥ .

(٢) جوليان ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص : ٢٦ .

(٣) جوليان ، المرجع السابق ،جـ ٢ ، ص : ٣٠ .

وبرغوانة ومكناسة وهسكورة [1] وبدأت أعداد من تلك القبائل تنخرط في خدمة الجيش الإسلامي [2] .

وجاءت أولى مساهمات البربر الواضحة في التاريخ الإسلامي في ولاية موسى بن نصير منذ سنة ٨٦هـ مع بداية عهد الخليفة الأموي الجديد الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥- ٧١٥م)، ذلك أن موسى جعل من مدينة طنجة مركزا أساسيا للبربر في منطقة الغرب ، وأسكن منهم حوالي سبعة عشر ألفا ، وولى عليهم طارق بن زياد . وبدأت عمليات فتح الأندلس سنة ٩٢هـ/سنة ٧١١ م، تتقدمها حملة طارق بن زياد،الذي تمكن من النزول بجنده على الساحل الأندلسي في المكان المعروف باسمه الآن .ودارت المعارك الهامة في فتح الأندلس بينه وبين القوط وكان أهمها معركة "وادي لكة" التي انتصر فيها طارق وجيشه علي الملك لزريق [3].

وأصبحت معركة "وادي لكة" التي انتصر فيها القائد المسلم طارق بن زياد توازي في أهميتها معركتي القادسية مع الفرس ، واليرموك مع الروم ، لما أسفر عنها من انهيار جبهة القوط في الأندلس أمام المسلمين وبدأت مدنهم تتهاوى أمام جيوش المسلمين فسقطت مالقة وغرناطة وطليطلة . وانساحت الجيوش العربية في أرض الأندلس في كل اتجاه . وكان للبربر دورهم الكبير في تلك الفترة ، حيث كانت لهم خبرة سابقة بالسواحل الإفريقية والأندلسية ، وقد شكل البربر معظم الحملات الأولى للفتح الإسلامي للأندلس .كما شاركوا في حملة موسى بن نصير التي عبرت إلى الأندلس عبر اشبيلية وساحل باجة ، والتقي في النهاية مع طارق في طليطلة [4].

وأضافت سياسة موسى بن نصير انجازات إسلامية أخرى في إفريقية وأوساط البربر تضاف إلى إنجازات عقبة بن نافع وحسان بن النعمان ، لقد أسس مراكز خاصة للبربر ، وقربهم إليه ، وحببهم في الإسلام وعرفهم بمبادئه ، وأشركهم في جيشه ، فأحس البربر بنظام جديد في بلادهم وروح حضارية سامية لم يألفوها من قبل فاقبلوا علي الإسلام،

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص : ٣١ .

(٢) محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٢ ، ص : ١١٤ .

(٣) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص : ٢٧٥ .

(٤) اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص : ٢٨٥، دار صادر ، بيروت .

وأرسل لهم من يعلمهم دينهم الجديد فرسخت مبادئه في عقولهم وقلوبهم ، وبدأت ثقافة الإسلام تسري بين دماء البربر[1].

وكانت سني حكم عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) أيضاً ذات أثر كبير في ترسيخ الإسلام بين البربر وسكان إفريقية ، حيث عمل واليه اسماعيل بن أبي المهاجر علي استمالة البربر إلي الإسلام والدعوة إليه بين قبائلهم ومناطقهم [2]، وأمده الخليفة عمر بن عبد العزيز بعدد من التابعين يعلمون الناس أمور دينهم ويفقهون أهل إفريقية منهم :موهب بن حد المعافري ،الذي مات بإفريقية ، وحبان بن أبي جبلة، واسماعيل بن عبيد الله ،وطلق بن جابان،وبكر بن سوادة ،وعبد الرحمن بن رافع التنوخي ، الذي تولى قضاء إفريقية ، وأبو عبد الرحمن الحبلي ،واسمه عبد الله بن يزيد ، الذي مات بإفريقية وله مسجد بها يعرف باسمه ،وسعيد بن مسعود التجيبي [3] . وقد تمكن هؤلاء الدعاة وهم من خيار الفقهاء والتابعين من نشر الإسلام بين أهل إفريقية وتحريم المنكرات التي كانت سائدة بين أهلها مثل الخمر [4] . وانتشر هؤلاء الدعاة في مضارب البربر وقراهم وأوديتهم . حتى ساد الإسلام بين قطاعات واسعة من سكان شمال إفريقية .

ورغم تلك الجهود الإيجابية من قبل معظم قادة الأمويين في إفريقية ،فإن هناك ممارسات من قبل بعض الولاة وقعت في بلاد البربر ، لاتمت بصلة إلي الإسلام ، وأصبحت تقلق عمليات الاستقرار الإسلامي والعربي في إفريقية منذ بداية القرن الثاني الهجري . فقد حرص بعض ولاة بني أمية على جمع الأموال من البربر بطرق غير مشروعة . الأمر الذي أحدث صدمة في نفوس البربر المسلمين الذين لاحظوا أن هناك بوناً شاسعا بين مباديء وبين ممارسات هؤلاء الولاة . كما عانى البربر من عدم مساواتهم مع العرب ، خاصة أثناء اشتراك البربر في عمليات عسكرية مع العرب .

وبدأ البربر يتبرمون من تلك السياسة ،الأمر الذي جعلهم يتقبلون فكر إسلامي حمل

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص : ٨٩ .

(٢) حسن محمود ، المرجع نفسه .

(٣) ابن قيم ، أبو العرب محمد بن أحمد كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص : ٢١ . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٤) ابن قيم ، المصدر نفسه ، ص : ٢٢ .

إليهم مع دعاة المعارضة الأموية سواء من قبل جماعات المحكمة [1] أومن قبل فرق الشيعة ،وأصبح البربر هم حماة تلك الأفكار ورجالها ، وقدموا في سبيل نصرتها الكثير من التضحيات ، حيث وجدوا في كثير منها بساطة الإسلام وعدالته ،الأمر الذي فقدوه في بعض عصور ولاة بني أمية . ومازالت تلك المنطقة متأثره بتاريخ تلك الفرق وأفكارها وآثارها حتي الوقت الحاضر ،خاصة جماعة الأباضية التي ينتشر أتباعها في طرابلس وجبل نفوسة وجربة ووادي ميزاب ويعتبر الموقع الأخير أهم مراكزها .

لقد عانى سكان المغرب في بعض فترات ولاة بني أمية من أمور أهمها ما يلي :

١- سعي بعض القواد وراء الغنائم في بلاد البربر :

فقد عانى البربر من سلوك بعض الولاة في السعي للحصول علي الذهب والجواري البربريات ،كما قام بعضهم بإرهاق السكان بالجبايات ، معتبرين إفريقية دار حرب حتي بعد اعتناقهم للإسلام ،الأمر الذي لايتفق مع الشرع الإسلامي ، بحجة المحافظة علي مصادر تمويل الجيوش والأموال التي ترسل إلي دارالخلافة وبيت المال .خاصة زمن الوالي

(١) أطلق على تلك الجماعة أسماء كثيرة منها : المحكمة : لرفعهم شعار لاحكم إلالله ورفض التحكم ، أو الحرورية نسبة إلى قرية حروراء ، أو الوهبية نسبة إلى عبد الله بن وهب . أو الخوارج لخروجهم من جيش الإمام علي ،أي أنهم الجماعة التي خرجت من جيش الإمام علي ، حينما قبل وقف القتال مع معاوية وإلى الشام وقبل التحكم معه وأرسل ممثلاً له في التحكيم والتفاوض . فخرجت تلك الجماعة وعرفت باسم المحكمة لأنها رفعت شعار "لا حكم إلا الله" أي لا يجوز الحكم في أمر سبق فيه حكم الله . واستقرت فترة في حروراء بالقرب من الكوفة ، ثم اتجهت إلى النهروان وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي إماماً عليها . وبعد فشل التحكم وقعت بينهم وبين الإمام علي معركة شديدة في النهروان قتل فيها معظمهم وإمامهم عبدالله بن وهب الراسبي . ثم قام أحد رجالاتهم وهو أبو بلال مرداس بن أوية التيمي وأخذ يدعو إلى فكر جماعة سراً في البصرة فانضم إليه الكثير ، لكنه تعرض للاضطهاد ، وقتل أيضاً سنة ٦١ هـ في آسك .

بعد قتل أبي بلال زعيم المحكمة (أو الخوارج) في البصرة انقسمت جماعة إلى فريقين هما :

- فريق متطرف : ويعرف باسم الأزارقة والنجدات وأسسوا دولاً في الأهواز واليمامة .

- فريق معتدل : ويعرف باسم القعدة المعتدلة وهم : الأباضية ولهم إمامات في عمان وبلاد المغرب . كما ظهرت لهم إمامة في حضرموت واليمن والحجاز ، والصفرية ولهم نفوذ في الموصل. وقد تمكن الفريق المعتدل من تأسيس دول في بلاد المغرب .

يزيد بن أبي مسلم ،الذي وصل إلي المغرب ليطبق سياسة الحجاج في المشرق بفرض الجزية علي الموالي ، رغم إسلامهم وقد أوقف هذا العمل في خلافة عمر بن عبد العزيزفيما بعد .

وأدى هذا الأمر إلى شعور البربر بالمهانة في كثير من الحالات فقد أحسوا أن همّ هولاء الولاة والقادة هو الحصول علي الإماء والجواري والعبيد والخصيان والذهب والمال كما شعر البربر بالمرارة حينما وجدوا آذان الخلفاء والولاة لاتصغي إلي شكواهم،رغم إسلامهم وبلائهم من أجل الإسلام ، فلمسوا الفرق الواضح بين مبادىء الإسلام وبين ممارسات هؤلاء الولاة مما أدي إلى ميلهم إلى أفكار جماعات المحكمة أو الشيعة ،رغم أن بلاد المغرب كانت أكثر الولايات الإسلامية طاعة وخضوعا للأمويين حتي خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ).خاصة حينما فشلوا في عرض شكواهم علي الخليفة من خلال الوفد الذي أرسلوه من بينهم وتركوا رسالتهم عند الوزراء ، وهي تتلخص في التفرقة بينهم وبين الجند العرب في الغنائم .وبأن جند البربر يكونون دائما في المقدمة ،وقيام بعض الولاة بسبي بناتهم وبقر ماشيتهم بحثا عن الفراء الأبيض [1] .

بدأت أولى ثورات البربر العارمة سنة ١٢٢هـ ،بقيادة ميسرة المطغري ،[2] وعمت أرجاء كثيرة من إفريقية ،حتي سميت ثورة البربر [3] واستمرت فترة من الزمن ،حيث انضمت إليه قبائل عدة من البربر .وتمكن ميسرة من دخول طنجة والسوس وقتل ولاة عبيد الله بن الحبحاب ،الوالي الأموي ،واتجه إلى القيروان ، لكن الوالي ابن الحبحاب كان قد استعد له بجيش كبير قسمه قسمين : الأول بقيادة حبيب بن أبي عبيدة ،والثاني بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري لكن ميسرة اضطر إلى الانسحاب والتراجع غربا صوب طنجة ،حيث وقعت الخلافات بين جيشه فعزل وقتل ، وبويع مكانه خالد بن حميد الزناتي .

بدأ خالد بن حميد في تجميع صفوف من البربر أمام الجيش الأموي الكبير الذي

---

(١) راجع فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عصر بن أمينة ، ص : ١٤ ، ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكي ابراهيم ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥م .

(٢) الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص : ١٠٩ ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس ١٩٦٧م .

(٣) ابن عذاري ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص : ٥٢ .

حاصره ووقعت بين الطرفين معركة حامية سميت باسم "غزوة الأشراف" [1] لكثرة من قتل فيها من فرسان العرب وأبطالهم .ويبدو أن تلك الثورة، كانت تخضع لأفكار جماعة الصفرية منذ البداية ،[2]وهي التي نشرت فكرها في تلك النواحي منذ نهاية القرن الأول الهجري، ووجدت في حالة البربر فرصة لتكوين إمامتها . وبالفعل ظلت هذه المنطقة لفترة طويلة مرتبطة بنفوذ الصفرية والقبائل البربرية الموالي لها ، حتي العصر العباسي الثاني [3]. وتمكنت من تكوين دول مستقلة لها بساعد البربر .

٢- الصراعات القبلية والعصبية :

عانت بلاد المغرب أيضا من الصراعات القبلية والعصبيات التي سادت بين العرب طيلة العصر الأموي . حيث أدى الصراع بين العنصر القحطاني والعنصر النزاري إلى انصراف الولاة عن شئون البربر وتركيز همهم في أغلب الأحيان على تقوية نفوذهم القبلي وتصفية الخصومات القبلية علي حساب البربر .وهو الأمر الذي لم تدرك خطورته الخلافة الأموية رغم علمها بالأمر ونظرتها إليه نظرة قاصرة من وجهة نظرها ومصلحتها . وقد وضع ذلك جليا زمن موسى بن نصير [4]، وهو من زعماء اليمنية ،الذي وصل إلى المنطقة في فترة سيادة العنصر القحطاني . وحينما عزل سنة ٩٦هـ/سنة ٧١٥م، وعين الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٩هـ/ ٧١٥م) محله محمد بن يزيد ،وهو من القيسية.أخذ الوالي الجديد يعمل على القضاء علي نفوذ اليمنية ، وتقوية مكانة القيسية في إفريقية ، لكنه لم يلبث أن عزل وذاق من نفس المصير ، علي يد الوالي الجديد يزيد بن أبي مسلم الذي وصل إلي إفريقية سنة١٠١هـ/ سنة ٧٢٠م ليقبض على الوالي القيسي السابق ، ويشبعه تعذيبا ، واستمرت القيسية تعاني من الاضطهاد فترة طويلة .[5]

وقد أهملت في تلك الفترات أحوال البربر وبلادهم ، وأصبح شغل هؤلاء الولاة إرضاء خلفائهم من الغنائم وتقوية نفوذهم القبلي ، دون النظر إلى أهمية المشاركة البربرية

---

(١) الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص : ١١١ .

(٢) محمود اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، ص : ٨٥ ومابعدها .

(٣) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص : ٢٧٢ ومابعدها .

(٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص : ٣٨ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص : ٢٤٣ .

الجديدة في الإسلام والاهتمام بهذا العنصر الجديد الذي انضم بطاقاته وحماسته إلى الإسلام ، بعد أن وجد منذ البداية في الإسلام ومبادئه مخرجا من معاناته في الماضي فأسلم يده للمسلمين . لكنه شعر بالمرارة من جراء سياسة بعض هؤلاء الولاة [1].

من هنا فقد نشطت دعاة المحكمة والشيعة بين أهل إفريقية من قبائل البربر موضحة لهم صورة الإسلام الحقيقية من أجل الوصول بأفكارها إلي إعلان إمامات إسلامية .ومنذ سنة ٩٥هـ /سنة ٧١٥م خرج من سجن الحجاج في البصرة العديد من الدعاة من رجال المحكمة ووصل منهم شخصيتان كان لهما دور كبير في تاريخ إفريقية وهما :

- سلمة بن سعد الحضرمي .
- عكرمة مولي ابن العباسي .

وتذكر المصادر أنهما وصلا إلى بلاد المغرب علي بعير واحد بعد سنة ٩٥هـ،[2]واستقر الأول في جبل نفوسة ، ونشط في الدعوة الأباضية بين قبائل البربر وقال عبارته الشهيرة "وددت أن يظهر هذا الأمر .يعني إمامة للأباضية . بالمغرب يوما واحدا من غدوها إلى الليل فما أبالي ضربة عنقي"[3] . وبالفعل انضم إليه الكثير من البربر ،حيث أصبح زعماء الحركة الإباضية من بعده من البربر ، وترددوا لأخذ العلم والنصيحة من الإمام بالبصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة . وانتشرت المدارس السرية للفكر الأباضي ، لتتوج تلك الجهود بإعلان إمامات أباضية كان أهمها إمامة تاهرت الرستمية سنة ١٦٢هـ .وكانت القبائل البربرية هي وقودها وسندها وحماتها .

وإلي الغرب ، وفي القيروان ، استقر عكرمة ، مولي ابن العباس ،ليجعل منها ومن بلاد المغرب الأوسط والأقصي بيئة خصبة لفكر الصفرية ،حيث اتصل بقبائل البربر مثل مطغرة ومكناسة وبرغواط وزناتة ، وسادت أفكاره بين تلك القبائل ،حيث ظهرت دولتهم الصفريه الكبري في سجلماسة [4].

---

(١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص : ٢٦٩ .

(٢) أبو زكريا ، كتاب السيرة وأخبار الأمة ، ص : ٤٠ .

(٣) أبو زكريا ، المصدر السابق ، ص : ٤٢ .

(٤) محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، ص : ٧٨ .

ومهما يكن من أمر ،فإن دعاة الأباضية والصفرية والشيعة ،قدموا خدمات هامة للإسلام في إفريقية في العصر الأموي ،ذلك أنهم حافظوا علي الطابع الإسلامي الجديد في تلك البيئة ، وضموا البربر إلي الصف الإسلامي ،في وقت عصيب من تململ البربر من انحراف بعض الولاة .وإن كان دعاة الأباضية قد لقوا ترحيبا أوسع بين صفوف البربر بسبب ما يتميز به فكرهم من الفطرة والبساطة التي تلائم فكر البربر وتتفق مع روح الإسلام .[1] وأحس البربر أن الإسلام ليس مقصورا علي ولاة بني أمية فقط .

من جهة ثانية كانت هناك عوامل أخري ساهمت في عمليات التحول الشامل لسكان مصر وإفريقية إلي الإسلام منها سياسة التسامح التي ظهرت في معاملات المسلمين مع أهل الذمة ،وكذلك عمليات تعريب الدواوين ، واشتراط تعلم اللغة العربية لتولي تلك الوظائف ، ثم اشترط الإسلام أيضا في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وكانت تلك الدواوين تضم العديد من سكان البلاد الاصلين .

وإلى جانب ذلك أصبحت مصر وإفريقية مسرحا لهجرات عربية كبيرة ، وفدت إليها عُبر سيناء من شبه الجزيرة العربية ، واستقربها المقام في مصر وإفريقية ، واتخذت تلك الأوطان الجديدة مقرا ومقاما ، فاختلطت بالسكان الأصليين ، وشاركتهم حياتهم العامة ، فكانت عاملا هاما في التعريب ونشر الإسلام . وقد تميزت أغلبية تلك القبائل خلال العصر الأموي بعدم الاستقرار فكانت في حالة حركة وتنقل بين مناطق مصر وإفريقية .

وكانت القبائل القحطانية اليمنية لها الغلبة والسيادة علي معظم نواحي مصر لزيادة عدد أفردها حتي استقدم أحد ولاة مصر سنة ٤٣هـ نحوا من اثني عشر ألفا من عرب الشمال خوفا من سيادة عرب الجنوب واستبدادهم بنفوذ مصر ،وكذلك من أجل تحقيق نوع من التوازن القبلي الذي يميز السياسة الأموية . وحتي سنة ١٠٩هـ قدمت إلى مصر آلاف من قبيلة قيس ،ونزلت في منطقة بلبيس بشرق مصر [2]، حتي كثر عدد القيسية النزارية في مصر ليصل عددهم في نهاية العصر الأموي إلى حوالي أربعون ألف أسرة عربية معظمهم من عرب الشمال . كما بدأت العديد من القبائل العربية تزحف للإقامة في برقة

---

(١) جهلان ، عزون ، الفكر السياسي عند الأباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف أطفيش ، ص : ٤٢ جمعية التراث ، الجزائر ، بدون تاريخ .

(٢) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص : ٧٦ .

وطرابلس والقيروان وغيرها من مناطق إفريقية الشمالية . وكان استقرار العرب في المدن أكثر من الريف والقرى حتي مطلع القرن الثاني الهجري ، حيث بدأت بعض القبائل تتجه نحو الريف . وبدأت عمليات اختلاط واسعة بينهم وبين السكان الأصليين [1].

كما يمكننا اعتبار قضية السبي ،رغم مايحيط بها ، هجرة مضادة إلي المنطقة والقلب العربي في الشام وشبه الجزيرة العربية ، خاصة الحجاز ،حيث تميز سبي المغرب بأعداده الكبيرة حتي أنها كانت تماثل في عددها أعداد القبائل العربية المتجهة إلي منطقة إفريقية ، فيذكر أن مروان بن موسى بن نصير قد عاد بسبي بلغ مائة ألف ، وبعث والده جيشا آخر بقيادة ابنه فأصاب مائة ألف أيضا [2]. وكان لتلك الهجرات القسرية إلى بلاد العرب نتائج هامة في نشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر .

وتراجعت الثقافة اليونانية واللاتينية في إفريقية أمام الثقافة العربية الإسلامية وانحصرت فترة من الزمن في ترانيم الكنائس ، كما انفرضت اللهجات واللغات المحلية أمام اللغة العربية [3]. التي أصبحت لغة الدين والحكومة والإدراة والتعامل والحياة الدنية بين الناس في مصر وإفريقية حاملة بعض المصطلحات من اللغات القديمة .

ومع امتداد الفتوحات الإسلامية إلى الأندلس من البر الأوروبي ، ومشاركةالبربر الفعالة في أحداث العالم الإسلامي ،أصبحت إفريقية ومركزها جزء من العالم الإسلامي ، بعد أن كانت تعيش على هامش الأحداث في العصر اليوناني والروماني . واتجه البربر مع العرب صوب الجنوب لعبور الصحراء للوصول إلي مناطق جديدة من قارة إفريقية .

وهكذا فإن العصر الأموي قد أدى إنجازات هامة علي مستوي القارة الإفريقية في صهر البربر في بوتقة الإسلام وترسيخ الحضارة الإسلامية بين مناطق إفريقية لأول مرة .

---

(١) أحمد لطفي السيد ، قبائل العرب في مصر ، ص : ٥٥ ومابعدها .

(٢) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص : ٢٥٤ .

(٣) شكري ، المجتمعات الإسلامية ، ص : ١٧٨ .

(٤)

أوضاع إفريقية في العصر العباسي

ورث العباسيون [١] الخلافة الإسلامية سنة ١٣٢هـ /سنة ٧٤٩م ، بعد الأمويين ،وبحكم طبيعة دعوتهم والعناصر التي ساندتهم فإنهم اتجهوا منذ بداية عصرهم إلى الإهتمام بأقاليم المشرق الإسلامي ، بحكم اعتبارات سياسية واقتصادية ، فبعض النظر عن الدعم الكبير الذي قدمته الأقاليم الشرقية لنصرة الثورة العباسية ضد الأمويين ، وبغض النظر عن الجوانب الحضارية التي تميز الأقاليم الفارسية ، فإن العباسيين أدركوا منذ البداية أهمية استغلال موقع ومكانة العالم الإسلامي للسيادة الحضارية علي العالم ،

---

(١) ينحدر العباسيون من نسل العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقد ادعوا أحقيتهم في الخلافة ، وأحقيتهم في إرث الرسول ، بقولهم أن العصب يحجب البنت ، وقد قوى حزبهم حينما ادعوا أن ولاء الكيسانية قد انتقل إليهم سنة ٩٨ هـ /سنة ٧١٦ م . في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي . ذلك أن أباهاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب أوصى بحقه في الإمامة إلى علي بن عبد الله بن عباس وابنه محمد . وأمده بأسماء داعي دعاة الكوفة .

وقد ظلت الدعوة العباسية سرية ونظمت بصورة جيدة في زمن محمد العباسي الذي اتخذ واجهة دينية باسم " آل البيت" وبعد وفاة محمد بن على العباسي سنة ١٢٥هـ/سنة ٧٤٢-٧٤٣م أوصى إلى ابنه إبراهيم بأن يكون إماما للدعوة العباسية ، فاختار إبراهيم اللون الأسود شعاراً للعباسيين . ذلك أن راية الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت سوداء أثناء فتح مكة . كما كانت راية على بن أبي طالب . وبدأت ثورة العباسيين في خراسان بفضل نشاط الدعاة والأتباع وضعف السلطة الأموية هناك. وتحولت الدعوة إلى ثورة كبرى ، ورفع أبو مسلم الخراساني الرايات السوداء . وكانت الغلبة للعباسيين وزحفت جيوشهم صوب العراق والشام وتمكنت من احراز انتصارات عسكرية حاسمة علي الأمويين وهرب آخر خليفة أموي أمامهم وهو مروان الثاني ، لتدخل جيوشهم دمشق سنة ١٣٢ هـ ويبويع أبو العباس السفاح في الهاشمية كأول خليفة عباسي في نفس العام . ويقسم المؤرخون العصر العباسي إلى فترتين هما : الأولى تمثل سيادة العنصر العربي في القرن الأول من دولتهم ، والثانية سيادة العناصر الفارسية والتركية .

انظر : - اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص : ٩٢ ومابعدها .

- المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص : ١٨٢ ومابعدها .

- الشامي ، أحمد ، دكتور ، الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، ص : ١٦ ومابعدها .

ولذلك فإن عصرهم يعد من أخصب مراحل التاريخ الإسلامي بصورة عامة ، لما تمخض عن إنجازات حضارية مازالت تبهر البشرية حتي الوقت الحاضر .

وكان اختيار العباسيين لحاضرتهم الجديدة في بغداد يحمل اهتمامات اقتصادية عالمية واهتمامات إفريقية أيضا [1].ذلك أن الخليفة للمنصور ،ثاني الخلفاء العباسين بدأ في العمل لبناء حاضرة عباسية تليق بمركزهم ، وجعل من شروطها أن تكون مشرعة الدنيا ومركز التجارة ،تفد إليها قوافل أواسط آسيا ، وسفن عمان والبحرين القادمة من الصين والهند وإفريقية .وافتتحت المدينة سنة ١٤٦هـ [2] لتصبح أهم مركز حضاري عالمي لفترة طويلة ، وطارت شهرة بغداد بين شعوب العالم .

أدي قيام الخلافة العباسية وتوجهها إلى المشرق وتأسيس عاصمة لها في بغداد إلى آثار هامة علي الساحة الإفريقية نحصرها فيما يلي :

١-زيادة اهتمام العباسيين بأوضاع الخليج العربي لتأمين مصالحهم التجارية في المحيط الهندي بحكم خبرة أهل الخليج وعلاقاتهم التجارية، وأصبحت منطقة شرق إفريقية تمثل حيزا هاما في تجارة المحيط الهندي ، ولها سلعها الأساسية التي لايمكن الاستغناء عنها في فترة ازدهار العالم الإسلامي .

ولذلك نشطت الحركة التجارية بين عاصمة العباسيين وبين شرق إفريقية عبر الخليج العربي .وحملت السفن الخليجية المزيد من سلعها سواء من العاج أو الرقيق ، في فترة الحاجة إلي أيدي عاملة جديدة من رقيق إفريقية للعمل في موانيء البصرة والخليج ، والقيام باستصلاح أراضي البطائح في منطقة شط العرب . وقد امتلأت تلك المناطق بعشرات الآلاف من العبيد الذين عاشوا وسط ظروف إنسانية صعبة وأصبحوا عرضة للانفجار ضد الخلافة العباسية للمطالبة بتحسين أحوالهم [3].

٢- علي الصعيد السياسي أدى إهمال الإدراة العباسية شئون إفريقية الشمالية إلى قوة نفوذ والي الأمويين السابق عبد الرحمن بن حبيب ،الذي شكل إمارة له هناك معتمدا

(١) بدرالدين الصيني ، العلاقات التجارية ، ص : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص : ٣٧ . شاكر مصطفى ، دكتور، دولة بني العباس ، ص : ٣٢٩ .

(٣) علي ،أحمد ، ثورة العبيد ، ص : ٦٨ ومابعدها .

علي نفوذه القبلي وانتمائه إلى بيت عقبه بن نافع ،وكذلك إلى وقوع حركات تمرد ونهب من قبل قبائل البربر [1] وإلى زيارة قوة نفوذ أتباع حركات المعارضة من الأباضية والصفرية .الأمر الذي هدد بانفصال هذا الجزء عن العباسيين .ولما كانت منطقة ساحل إفريقية الشرقي قد ارتبطت حضاريا بدور الوسيط العماني والخليجي والتي سنحاول توضيحها في الفصول القادمة ، فإننا نحد أن العباسيين بدأو ينتبهوا إلى خطورة إهمالهم لشئون إفريقية في البداية ، وظهرت منذ خلافة المنصور بعض الاهتمامات التي قد لاتتناسب مع حجم وحيز إفريقية على الساحة الإسلامية والدولية.

ذلك أنه بدأ يعالج امتداد نفوذ عبد الرحمن بن حبيب ، وازدياد نفوذ إمامات المحكمة والبربر خاصة وأن هناك خلافة أموية ظهرت علي طرف إفريقية الشمالي الغربي في الأندلس ، وبدأت إفريقية الشمالية مطمعا للخلافتين في بغداد وفي قرطبة . ولقد أحس العباسيون منذ البداية أن ابن حبيب ،الذي أعلن ولاءه للعباسيين [2] يمكن أن يمثل خطرا علي العبايسين بعد دوره في حماية بعض أفراد بني أمية الذين هربوا إلى الأندلس أو دخلوا إفريقية بل أنه لم يوافق علي فرض نفوذ العباسيين في مناطقه ،كما رفض مطالبهم المالية منذ البداية .وفشل والي مصر العباسي صالح بن علي في القضاء على ابن حبيب من خلال الحملات التي أرسلها بقيادة أبي عون الأزدي ،أو الحملات البحرية علي سواحل إفريقية [3]، خاصة بعد ضم إفريقية لولاية مصر سنة ١٣٦هـ /٧٥٣-٧٥٤ م. ورغم ذلك فقد لقي ابن حبيب مصرعه علي يد أحد أفراد أسرته [4] وأصبحت إفريقية ساحة واسعة لنفوذ دول مستقلة جديدة تتبع أفكار المحكمة أو الشيعة .

ويبدو أن المنصور وغيره من خلفاء بني العباس لم يتفهموا ظروف إفريقية وسكانها وتطلعات رجالها ، واستمروا علي منوال الأمويين في تغيير الولاة وتجريد الجيوش كلما ظهرت لهم بها حاجة. فبدلا من الاعتماد على نفوذ عبد الرحمن بن حبيب ومكانة أسرته بين البربر على أساس أنه من نسل عقبة بن نافع ، وما تحتله تلك الأسرة من مكانة في مجال التعامل الإفريقي ، حرضوا أفراد أسرته عليه ، ليقتل وتنتهي مركز الأسرة من بعده

(١) جوليان ، تاريخ شمال إفريقية ، جـ ٢ ، ص : ٣٨/٣٩ .

(٢) دبوز ، تاريخ المغرب الكبرى ، جـ ٢ ، ص : ٦ .

(٣) فاروق عمر ، الخلافة العباسية ، ص : ١٢٩ .

(٤) ابن عذاري ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص : ٦٣ ومابعدها .

، وتخلو بذلك الساحة من زعامات عربية لفترة طويلة [1].خاصة وأن العباسيين كانوا في تلك المرحلة في حاجة إلى الجند علي جبهات المشرق ومنطقة الخليج العربي وهي جبهات ذات مساس بالأمن العباسي مباشرة . وكان ابن حبيب يمكن أن يكفيهم بمجرد الاعتراف به وبنفوذه وتقوية مركزه وسط بحر متلاطم من أفكار المعارضة وآمال قبائل البربر. ويعتبر المنصور أهم شخصية عباسية يحاول البحث عن حل لقضية إفريقية . لكن محاولاته ظلت تعتمد علي القوة العسكرية . فبعد أن أعلنت إمامات أباضية وصفرية بين البربر، سارع المنصور إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٣هـ/ سنة ٧٦٠م .وتمكن هذا القائد العباسي من إحراز نصر عسكري علي إمامة طرابلس الأباضية التي أعلنت منذ سنة ١٤٠ هـ [2]، وقتل الإمام الأباضي أبو الخطاب عبد الأعلي بن السمح المعافري ،ورغم ذلك ظلت المنطقة علي ولائها للأباضية ، بعد هزيمتهم في معركة تاورغا سنة ١٤٤هـ/ سنة ٧٦١م أمام ابن الأشعث [3]. فلم يحاول الوالي العباسي الجديد كسب ود البربر بل انتهج سياسة قاسية نحوهم فظل السكان مرتبطين بفكرهم الأباضي [3].

وقعت في تلك الظروف منازعات بين أتباع العباسيين في إفريقية ، فاضطر المنصور إلى تعيين الحسن بن حبيب الكندي واليا ، رغم شكوكه في إخلاصة لهم في المنطقة، ورغم ذلك ظلت المنطقة قلقة للعباسيين .حتي تطور الأمر بإرسال المنصور حملة أخري سنة ١٥١هـ/ سنة ٧٦٨م بقيادة عمر بن حفص العتكي [4]، وهو ينتمي إلى بيت المهلب بن أبي صفرة ،من أزد عمان ، وقد عرف هذا البيت بشدة كراهيته للأمويين بعد الخسائر التي لحقت بهم منذ ولاية الحجاج للعراق واضطهاده للمهالبة ، ثم النكبات التي حلت بالمهالبة في خلافة يزيد بن عبد الملك خاصة هزيمتهم في العقر سنة ١٠٢هـ. ولذلك استعان العباسيون برجال هذا البيت لاستقرار الأوضاع في إفريقية .

تمكن أول ولاة الأزد ،من التوغل في إفريقية بين مناطقها وقبائلها . دون أن يحاول التقرب أو الاندماج مع البربر أو يعير انتباها للقبائل العربية المستقرة هناك . مما أثار

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص : ٣٩ .

(٢) خليفات ، نشأة الحركة الأباضية ، ص : ١٠٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص : ٣١٧ .

(٤) أبو زكريا ، كتاب السيرة ، ص : ٧٢ .

كراهية السكان له . وانتهي الأمر بوقوع ثورة كبرى ضده ، تمكن خلالها البربر من احتلال القيروان ، وقتل نائب الوالي . فسارع عمر بن حفص بطلب تعزيزات جديدة من بغداد ، لكنه قتل أيضا قبل أن تصله النجدة سنة ١٥٤هـ / سنة ١٧٧م . الأمر الذي أقلق المنصور من مصير إفريقية .

ومن أجل الحفاظ علي هيبة الخلافة العباسية في إفريقية ، أعلن المنصور الجهاد ضد البربر ، وأرسل جيشا جرارا يقوده قائد مهلبي جديد هو يزيد بن حاتم المهلبي [١]، وتحرك القائد المهلبي في خمسين ألف مقاتل من عرب الشام والجزيرة ، ليواجة قوات بربرية منتشرة في مناطق واسعة من إفريقية . ولإبراز أهمية تلك الحملة أنفق عليها الخليفة أموالا طائلة بلغت حوالي ثلاث و ستين ألف ألف درهم [٢]. كما رافق الخليفة الحملة حتي وصلت بيت المقدس في سنة ١٥٤هـ/ سنة ٧٧١م .

وصل جيش يزيد المهلبي إلى إفريقية ، وأحرز سلسلة من الانتصارات علي جماعات الأباضية في منطقة طرابلس ، حيث كانت أول مراكز المعارضة في الشمال الإفريقي من جهة حدود مصر . وقتل الإمام الأباضي أبوحاتم الملزوزي سنة ١٥٥هـ /سنة٧٧٢م. وقد أثرت تلك المعركة علي الوجود الأباضي في طرابلس ، حيث اتجهت الأنظار إلى البحث عن مكان آمن آخر في إفريقية لتأسيس إمامة أباضية يكون بعيدا عن خط الجيوش بين مصر والقيروان ، فأصبحت تاهرت هي المركز الأساسي لهم في إفريقية . ورغم ذلك ظلت منطقة جبل نفوسة وطرابلس تشكل مقاومة ضد العباسيين ، حيث انسحب بعض أفراد القبائل البربرية إلى الجبال وأعادوا تنظيم صفوفهم ، وبدأوا في شن هجمات ضد القوات العباسية ، أوالقيام بثورات مثل ثورة أبي يحيي بن قرياس ، في طرابلس سنة ١٥٦هـ [٣]

في الوقت نفسه بدأت جماعات الصفرية تنسحب هي الأخرى إلى خطوط الواحات بالصحراء بعيدا عن مركز القيروان والساحل التي يتمسك بها العباسيون ، وأصبحوا قوة في الصحراء وواحاتها [٤]. وشكلوا مع الفرق المعارضة الأخرى حزاما حجب ساحل إفريقية عن صحرائها من الناحية السياسية .

---

(١) ابن عذاري ، المصدر السابق، جـ ٢ ، ص : ٧٩ .

(٢) فاروق عمر ، الخلافة العباسية ، ص : ١٣١ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦، ص : ١٢٣ . (٤) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ٢، ص :٤٨.

لقد كان هذا التعامل القاسي من قبل العباسيين للأفارقه ، سببا في تحول البربر بصورة كبيرة إلى اعتناق الأفكار المعارضة للعباسيين ، وسارع زعماء تلك الأفكار إلى إرسال دعاتهم إلى قبائل البربر يعرضون عليهم أفكارهم في صورة سهلة وبسيطة ، وتأسست بين قبائل البربر مدارس سرية لتلك الأفكار لتخريج الدعاة الذين نشطوا بين قبائلهم . وتغلغلت تلك الأفكار بين البربر ودافعوا عنها اقتناعا بأفكارها وإعجابا بالتزام قادتها ، أو كتوع من البروز بشكل مستقل عن الخلافة العباسية وبسبب سوء سياسة العباسيين في إفريقية من الناحية السياسة والعسكرية ، فقد بدأت علاقات البربر مع الخلافة العباسية والمشرق الإسلامي تتحة إلى التباعد ، حتي فقد البربر العديد من الروابط التي شدتهم إلى المشرق الإسلامي منذ دخولهم الإسلام . فمنذ أواسط القرن الثاني الهجري / القرن الثامن الميلادي ، إذ غمرت منطقة الشمال الإفريقي موجتان انحدرت أحداهما من الصحراء الغربية ، وهي قبائل البربر خاصة صنهاجة . والثابية قدمت من المشرق وهم بني هلال [1]. وحاول الأفارقة لأول مرة في التاريخ تشكيل دول لهم على النمط الشرقي ، مرتبطين في تأسيس تلك الدول بالأساس الإسلامي .

لقد كانت زحفة بني هلال وبني سليم من مصر نحو المغرب ، وبأمر من الخليفة الفاطمي ، بعد أن بدات مناطق البربر تسترجع شخصيها وتراثها البربري القديم الكامن في اعماقها في ظل استقلالها السياسي عن المشرق الإسلامي وسلطة العباسيين في بغداد ثم سلطة الفاطميين في القاهرة . الأمر الذي أغضب الخليفة الفاطمي ورمي بهم ببني هلال عقابا لهم . ومنذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ساد عرب بني هلال إفريقية الشمالية وأزاحوا كيانات البربر وتنظيماتهم ونشروا لغتهم العربية ونمطهم الشرقي من جديد .في وقت كاد أن يدير البربر ظهرهم للعرب . وإن كان هذا لايعفي تلك الزحفة من أعمال السلب والنهب والتدمير التي حدثت خلالها ، ومازالت واضحه الأثر بين صفحات التاريخ الإفريقيي [2] .

وإذا حاولنا تحديد أهم الدول العربية والبربرية التي شهدتها منطقة الشمال الإفريقي منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فهي كما يلي :

---

(١) حسن محمود ، الإسلام والثقافة الإسلامية في إفريقية ، ١٠٠، ٢٣٢ ومابعدها .

(٢) جوليان ، المرجع السابق ، ص : ٥٣ .

أولاً: دولـــة الأدارســـــة :

تنسب تلك الدولة إلى إدريس بن عبد الله . الذي ينتسب إلى آل البيت . وقد جاء إلى طنجة سنة ٧٨٨م هاربا من المشرق بعد فشل ثورة من ثورات العلويين ضد العباسيين وواصل رحلته بصحبة مولاه راشد حتي بلغ طنجة البعيدة عن نفوذ الخلافة العباسية .ونزل بين قبيلة اوربة في منطقة وليلي ،وهي منطقة بربرية . ولما زاد نفوذه في المنطقة بعد تاييد قبيلة أوربة له ، بدأيفكر في جعل منطقة المغرب الاقصي منطلقا له في تاسيس درلة له . وشرع يؤسس مدينة سماها فاس [١] واخذ يوسع دولته معتمدا علي تاييد قبائل بربرية عديدة من شمال المغرب . وأخذ يهاجم تامسنا واحتل تلمسان .

توفي إدريس سنه ٧٩٢م . وتولي من بعده ابنه إدريس الذي تربي في أحضان البربر من أم بربرية تدعي ((كنزة)) وسط رعاية بربرية وتقدير باعتباره من أحفاد آل البيت . وأدخل دولته دماء عربية من الأندلس،وتخلص من زعيم بربري منافس له وهو أبوليلي رأس قبيلة اوربة . وأخذ يعمر مدينة فاس التي أسسها والده.فبني بها المسجد الجامع وقصرا وسوقا وأسكن فيها أعوانه من العرب . واستغل الأدارسة موقع مدينتهم الجديدة علي الطريق بين سهول جبال الأطلس وبين المغرب الاوسط ، حيث تتحكم في الطريق بين طنجة وتفيلالت [٢].

وعلي يد الأدارسة تأسست أول حاضرة إسلامية في الركن الشمالي الغربي من إفريقية حيث توافد عليها القبائل والجماعات والتجار من القيروان وقرطبة ومختلف نواحي إفريقية ، واستقربها جماعات لها خبرتها الحضارية وفنونها الراقية [٣]، وأصبحت المدينة مركزا إسلاميا جديدا في بلاد البربر ينافس القيروان ، وقدمت إليها وفود طلاب العلم والعلماء حيث مسجد القرويين. [٤] كما تمكن الأدارسة من توحيد قبائل البربر في تلك الأنحاء تحت زعامة إسلامية ودولة مركزية .

لكن تلك الدولة ضعفت بعد وفاة إدريس سنة ٨٢٨م حيث تتازع أولاده العشرة فيما

---

(١) جوليان ،المرجع السابق ، ص : ٥٥ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ جـ١ ، ص : ١٩٣/١٩٤ .

(٣) البكري ، المغرب ، ص : ١٤٣ .

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ١، ص : ٢٣٦ .

بينهم وتداعي صرح الأدارسة السياسي ، لكن ظلت فاس تقوم بدورها الكبير في الإشعاع الحضاري علي مستوي القارة الافريقية ، سواء الشمال أو في غرب إفريقية جنوب الصحراء.وظلت دولة الأدارسة تتداعي حتي سنة ٩٢١م حينما وصلتها جيوش الفاطميين، ثم أسقطت نهائيا سنة ٩٧٤م علي يد أحد قواد قرطبة . [١]

ثانيا : دولـــة الأغـــالبـــــة :

أسسها إبراهيم بن الأغلب أحد ولاة العرب في إفريقية من قبل العباسيين ، حيث عهد هارون الرشيد (١٧٠ -١٩٣-هـ/٧٨٦-٨٠٩ م) إليه بولاية إفريقية لقاء خراج سنوي قدره أربعون الف دينار . وقد تمكن الأغالبة من فهم المحيط الإفريقي المحيط بهم فاستغلو ثورات البربر لصالحهم ، في الوقت نفسه لم يقطعوا صلتهم بخلافة بغداد ، بل أنهم استمدوا من ثقة الخليفة العباسي مزيدا من الشرعية والهيبة في منطقة متناحرة متلاطمة التيارات والمذاهب،واستغلوا ظروف إفريقية وموقع إمارتهم ليفرضوا سيطرتهم البحرية علي وسط البحر المتوسط بعد أن كونوا أسطولا كبيرا لهم فرضوا سيطرتهم بواسطته علي صقلية وجنوب ايطاليا [٢]، وجعلوا لأول مرة من إفريقية دولة بحرية لها نفوذها القوي في أحداث البحر المتوسط وجنوب أوربة .

ذلك أن الأغالبة أدركوا صعوبة التوسع في الأقاليم الإفريقية المتاخمة لهم ، وأصبح البحر هو المجال الحيوي لهم ، خاصة وأنهم تمكنوا من بناء جيش واسطول قويين من قوات عربية وبربرية . ورغم أن صقلية كانت صعبة المنال علي المسلمين منذ البداية ،إلا أن زيادة الله تمكن من إرسال أسطول قوي تحت قيادة القاضي أسد بن الفرات وقام باحتلال بالرمو

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، ص : ٥٩ .

(٢) الدوري ، صقلية ، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ، بغداد ، ص : ١٦٢ ومابعدها .

(٣) احتلها النورمان من المسلمين منذ سنة ١٠٦١م حينما احتلوا مسينا ، ثم احتلوا بالرمو سنة ١٠٧٢م بسبب الخلافات القائمة بين القادة المسلمين في تلك الفترة واستطاع روجرز النورماندي أن يتلك الجزيرة باستثناء مدينتين قصريانة وجرجنت حتى استسلما سنة ١٠٩١م .

- جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ٢، ص : ١٤١ .

- عمران ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص : ٢٨٠ ، ٢٨١ .

عاصمة صقلية ومسينا ، وفي سنة ٨٤٣م احتلوا يلفيديو وهي بالجزيرة أيضا ، وبعد أن أكمل الأغالبة احتلال إفريقية عبروا البحر واحتلوا تورمينا رغم تدخل لويس الثاني الكارولنجي، وجمهوريات ايطاليا التجارية مثل البندقية .

ثالثا : الفاطميـون في المغـرب :

يرجع الفضل في تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب إلى عبيد الله الشيعي ، الذي فر من المشرق واستند إلى قبيلة كتامة البربرية . ويرجع الفاطميون إلى الدعوة الإسماعيلية الشيعية ، التي بدأت الامامة بإسماعيل ثم ابنه محمد ، الذي أصبح الامام السابع . واستتر الأئمة الاسماعيليون ، بينما تولى المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد سرا ، ويظهرون الدعاة جهرا ، وذلك حسب معتقداتهم [١].

وقد لجأ أئمة الاسماعيلية إلى نشر دعوتهم في الخفاء وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية ليتجنبوا اضطهاد العباسيين [٢] . واتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلمية بالشام مركزا لنشر هذه الدعوة ، وكانوا يبعثون من هذه المدينة الدعاة إلى كافة الاقطار الإسلامية ويعهدون في تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور وهو دور الستر ، نواب الأئمة أو الحجج، وهؤلاء يبعثون دعاة لنشر المذهب الإسماعيلي في أرجاء العالم الاسلامي [٣]. وقد عاش في تلك المدينة التاريخية الأئمه الأربعة المستورون من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم الذين خططوا للدولة الفاطمية التي ظهرت في المغرب وشمال إفريقية ومصر . كما أوجدوا الحركة الإسماعيلية القرمطية في الشام والعراق والبحرين وفارس واليمن .

تختلف الدعوة السرية التي لجأت إليها الإسماعيلية عن التقية عند الشيعة الإمامية التي ترمي إلى مكافحة المخالفين لهم وترك مظاهرتهم وستر اعتقاداتهم .[٤] وقد

---

(١) الملل والنحل ، ص : ١٩٢ .

(٢) فقد هرب محمد بن اسماعيل إلى الرى ومنها إلى جبل دماوند قرب الري ، واستقر في قرية أخذت اسمه ليصبح أسمها محمد أباد ، وظل مختضيا بها فترة طويلة .

(٣) حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص : ٤٠ .

(٤) المظفر ، عقائد الإمامية ، ص : ٨٥ .

بدأت الدعوة الاسماعيلية بجهود ميمون القداح وابنه عبد الله . وكان ميمون هذا مولى للإمام جعفر الصادق . ودخلت تلك الدعوة طورا جديدا علي يد عبد الله بن ميمون [1] وأصبحت الأهواز مركزا لنشاطه ومنها أرسل الدعاة إلى أماكن متفرقه ، وكان يخفي دعوته وراء ستار التشيع والعلم . ثم ارتحل الي البصرة ، واستقر به المقام في سليمة [2] ، حيث رزق بابنه احمد ، الذي خلف والده في الدعوة . حيث ظهر حمدان قرمط بن الأشعث في تلك الفترة . وبعد موت أحمد خلفه ابنه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ، الذي بعث داعيتين من دعاته إلى المغرب وهما : أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد وأخية أبو العباسي محمد .

غير أن بذور الشيعة الإسماعيلية أخصبت في أرض المغرب ، إخصابا غير متوقعا ، ووجدت في قبيلة كتامة البربرية سمادا لنموها وترعرعها . وكانت قبيلة كتامة تستقر في منطقة القبائل الصغري شرقي جبال بابور بين جيجلي وقسنطينة ، وهي منطقة ذات موقع متوسط ، لها اهميتها الإستراتيجية منذ العصور القديمة ، كما أن العباسيين والأغالبة لم يتمكنوا من بسط سلطانهم علي تلك المنطقة [3].

وكان أفراد قبيلة كتامة علي علاقة غير موفقة بالولاة العرب منذ البداية ، مما أدي إلى احتضان تلك القبيلة للأفكار المعادية للأمويين والعباسيين منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي من خلال وصول الدعاة إلى مناطقهم أو التعرف علي تلك الافكار من خلال موسم الحج ، حيث اتصل الداعي أبو عبد الله ، الذي أصبح له دور في الدعوة في بلاد المغرب ، واتصل بحجاج كتامة واصطحبوه إلى بلادهم سنة ٨٩٣م واستقر بينهم في حصن منيع في منطقة القبائل الصغري [4].

تمكن أبو عبد الله من توحيد كلمة كتامة مع باقي دعاة الاسماعيلية ، وكون منهم جيشاً قوياً هجم به علي افريقية ، فاستولي على المسيلة سنة ٩٠٢م ، ثم سطيف سنة ٩٠٤م ، واحتل كل الأماكن الهامة المؤدية إلى إفريقية ، فاحتل رقادة سنة٩٠٩م . وبدأ

---

(١) عارف تامر ، القرامطة ، ص : ٨٦ .

(٢) مدينة صغيرة بالشام قرب حماة في شرقي نهر العاصي ، أصبحت مركز الدعوة الإسماعيلية .

(٣) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، جـ ٢، ص : ٧٣/٧٢ .

(٤) الليثي ، سميرة ، جهاد ، الشيعة ، ٢٤١ .

يستميل الناس اليه بأن أسقط كل الضرائب غير المنصوص عليها في القرآن الكريم ، وامر بضرب العملة ، وعين قاضيا شيعيا ، وبدأ يفرض تعاليم فكره علي الناس [1]

وبعد تلك الانتصارات أخذ يبحث عن المهدي ، الذي يدعو باسمه ، في الوقت الذي أدرك عبيد الله المهدي أن سلمية لم تعد مكانا مناسبا لملاحقة العباسيين له ، فاتجه الي بلاد المغرب عبر مصر وطرابلس ، متخفيا في ذي تاجر ، واحتمي ببني مدرار في سجلماسة ، وبدوا أنه أودع السجن ، وتمكن جيش كتامة من تخليصه من الأسر . ودخل عبيد الله مدينة رقادة سنة ٩١٠م في موكب عظيم ، وتلقب رسميا بالمهدي ، وسمي بأمير المؤمنين [2] . وبذلك ظهرت للإسماعيلية إمامتهم الرسمية في المغرب الأقصى .

ولاشك أن تتويج عبيد الله في مدينة رقادة التي كانت تابعة للأغالبة وسط حشد من قوات بربرية من رجال كتامة ، قد حمل معاني كثيرة منها مايلي :

١- وضع حد للنفوذ العربي في المنطقة ، وظهور قيادات بربرية شاركت في صنع أحداث المرحلة الجديدة . وأصبحت السلطة في شمال افريقية بيد القبائل البربرية ، لابيد القوات المتحركة من الشرق او من مصر ، وظهور بدايات لصراعات مذهبية جديدة في المنطقة . كانت امتداداً لخلافات ظهرت من الشرق .

٢-نبتت وترعرعت خلافة جديدة نافست الخلافة العباسية في أرض البربر ، وعلي كواهل رجالها ، وزحفت بوقودها البربري الي مصر والشام .

٣- كان لمغامرات قبيلة كتامة في العصر الفاطمي أثر كبير في انفراضها ، حيث استنزفت قواها وأثرت فيها معارك المغرب ومصر وصقلية . وضعف نفوذها فيما بعد بين قبائل البربر .حيث أن المهدي كان يعتبر المغرب ليس غايته القصوي ، بل يعتبره نقطة انطلاق بوصفة الحاكم الشرعي للعالم الاسلامي ، من وجهة نظرة .

عموما ، ما أن استقام الامر للمهدي في إفريقية وقضي علي ثورات البربر

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص : ٧٣ .

(٢) جوليان ، المرجع نفسه ، ص : ٧٤ .

والأغالبة وأطاح بدويلات المغرب ، حتي بدأ يوجّه أنظارة صوب مصر ، وقد استفاد من فشل حملاته الأولي التي أرسلها منذ سنة ٩١٣م في احتلال الإسكندرية والفيوم و تهديد الفسطاط ، ومنذ سنة ٩٦٩م تمكن جوهر زمن المعز من دخول مصر علي رأس جيش يزيد عن مائة ألف رجل واختط عاصمة جديدة للفاطميين هي القاهرة . ولحق به المعز حاملا معه أثاث قصوره ومخلفات أجداده مؤكدا عزمه علي ترك إفريقية نهائيا والاستقرار بمصر [١] وظلت مصر تحت النفوذ الفاطمي لمدة قرنين من الزمان . وترك المعز لرجال صنهاجه حكم المغرب ، بعد أن رحلت معه بطون كتامة إلي مصر .

ويبدو أن البلاد قد نهضت علي يد أمراء صنهاجة ، حيث بدأت مرحلة جديدة من تاسيس مدن مغربية علي الطراز الشرقي الإسلامي مثل عاصمتهم أشير ، ومدينة الجزائر ومليانة والمدية . وأصبحت أشير ، عاصمة صنهاجة بحق مركز المبادلات التجارية لفترة طويلة بين السهول والجبال والصحراء ، وكذلك قبلة الفقهاء والعلماء وتردد علي بلاطهم العلماء والشعراء والأدباء . ويرجع ذلك إلى الإزدهار الاقتصادي الذي شهدتة إفريقية ، فعمت المزروعات معظم مناطقها ، وكانت باجة تحتاج في كل يوم إلى ألف من الإبل لحمل الحبوب ، وقت الحصاد [٢]. لكن التمرد الذي وقع في المغرب علي سلطة الفاطميين دفع الخليفة الفاطمي بتوجيه عرب بني هلال وبني سليم إليهم لتأديبهم .

رابعا : دولـــة الصـفريـــة (بني واسول) :

نجح دعاة الصفرية في نشر فكرهم بصورة كبيرة بين قبائل المغرب الأقصي مثل مطغرة ومكناسة وزناتة وبرغواط ، كما انتشر بين قطاعات كبيرة من الأفارقة السود الذين عاشوا في تلك المناطق بحكم العلاقات الحضارية بين شمال إفريقية وإفريقية جنوب الصحراء وبذلك سمحت الظروف بظهور أول إمامة لجماعات المحكمة بلاد المغرب سنة ١٤٠هـ سنة٧٥٧م كما قاموا بثورتهم من قبل منذ سنة ١٢١هـ / سنة ٧٣٩م [٣].

وكانت قبيلة مكناسة هي العصبية التي ارتكزت عليها دولة بني مدرار الصفرية ،

---

(١) جوليان ، المرجع السابق ، ص : ٧٧ .

(٢) جوليان ، نفسه ، ص : ٧٩ .

(٣) وهي إمامة الظهور ، التي المرحلة التي يتمكن فيها رجال المحكمة من تأسيس دولة وتنصيب خليفة أو إمام يطبق الشرع ويقيم الحدود .

وتنتشر القبيلة في وادي ملوية [1]، الذي يصيب في البحر المتوسط ، وتقع مدينة سجلماسة في أعلاه ، كما تسكن بعض بطونها في نواحي تازا وتسول بالمغرب الأقصي [2] .ومن بطون مكناسة :صولات وبوحات وبنو ورفلاس وقيصارة وورقطنة وورصطف ، وهم من البربر البتر من سكان الصحراء . كما ساهمت عناصر أخرى من سكان سجلماسة في قيام دولة الصفرية من بربر صنهاجة وزويلة وزناتة ، وجماعات من الأفارقة من جنوب الصحراء الكبري الذين استقروا في تلك النواحي ، خاصة في إقليم تافيللت ، بعد اعتناقهم المذهب الصفري علي يد أبي القاسم سمكو بن واسول [3]، حتي أن اول من تولى الإمامة في الدولة كان سودانيا يدعي عيسي بن يزيد الأسود . ويرجع السبب في ذلك إلى أهمية موقع سجلماسة علي الطرق الصحراوية المتحهة إلي بلاد السودان الغربي .

حيث تقع سجلماسة في منطقة تافيللت علي طرف الصحراء ، وتبعد عن مدينة فاس في اتجاه الجنوب الشرقي حوالي ٣١٥كم ، كما تقع في الجهة المقابلة تاهرت عاصمة الرستميين . وتعد سجلماسة آخر مرحلة في اتجاه الطريق الصحراوي بين افريقية الشمالية وإفريقية جنوب الصحراء وتصل القوافل التحارية إلى نطاق السافانا في بلاد السودان الغربي في حوالي شهرين [4] وهي نفس المدة الزمنية التي تقطعها القوافل التجارية بين سجلماسة والقيروان في الشمال الافريقي عن طريق نفزاوة وقسطيلية . ونظرا لازدهار سجلماسة علي يد بني مدرار ، فإن الطرق التي كانت تربط شمال إفريقية ، ببلاد السودان جنوب ، خط الصحراء ، أصبحت تتجة معظمها نحو المرور بسجلماسة حتي الطرق التي كانت تربط بين مصر وبلاد السودان اهملت في تلك الفترة واتجهت القوافل نحو الغرب إلى سجلماسة [5].

وأصبحت سجلماسة في مطلع القرن الثالث الهجري مدينة متسعة الأرجاء ، ذات أحياء مختلفة يحيط بها سور يحتوي علي إثنى عشر بابا ، وانتشرات في ضواحيها القري الزارعية والحدائق علي مد البصر . وتحدث الرحالة والزوار عن بيوتها الرفيعة

---

(١) ابن خلدون ، جـ٦ ،ص : ١٢٩ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص : ١٣٠ .

(٣) ابن خلدون ، المصدر السابق .

(٤) البكري ، المصدر السابق ،ص : ١٤٨ .

(٥) الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ص : ١٥١ .

وأبنيتها الرائعة ، وقصورها العالية ، وأسواقها العامرة [1].

ولذلك فقد اتجهت سياسة بني مدرار إلى الحفاظ علي هوية المنطقة ومصالحها الاقتصادية مع الحفاظ علي الاستقلال السياسي والمذهبي . وقد ساعدهم على ذلك موقع دولتهم في اقصي بلاد المغرب [2]، وهي المنطقة التي أسقطها ولاة بني العباس من حسابهم ، واكتفى الطرفان الصفري والعباسي في شمال افريقية على الإكتفاء بمناطق نفوذه . حيث اقتطع هذا الجزء نهائيا عن النفوذ العباسي واستقل به أمراء بني مدرار ، وأصبحت دولتهم مركزا للنشاط الصفري ، وهم الذين ينكرون خلافة العباسيين والأمويين من قبلهم [3]. واستفاد بنو مدرار من نكبات الصفرية السابقة علي أيدي العباسيين في الجزيرة والموصل وابن كاوان [4]، في المشرق الإسلامي ، ولذلك فقد اضمروا العداء للعباسيين وعمالهم وأقاموا علاقات مع ألد أعدائهم وهم بنو أمية بالأندلس . لكنهم لم يقدموا علي تجهيز الجيوش لمحاربتهم في إفريقية .

لكن بني مدرار واجهوا أمراء الأغالبة ووقفوا أمام تزايد نفوذهم في الشمال الإفريقي حيث هادنوا حكام تاهرت الرستميين وحالفوا خلفاء الأندلس الأمويين ، وشكلوا تحالفا ضد النفوذ الأغلبي والعباسي ، الأمر الذي أعطي لهم نوعا من الاستقرار وحفظا لتوازن المصالح الاقتصادية وأمن لمرور قوافل التجارة في بلادهم .

ورغم تكون حلف جديد بين إمامات الصفرية والأباضية في بلاد المغرب وبين حكام الأندلس إلا أن هذا التحالف لم تظهر آثاره الواضحة إلا في صورة علاقات ودية ، والكف عن التدخل في شئون بعضهم البعض ، فقد فشل هذا التحالف في حماية بلدانهم من الخطر الشيعي الذي تمكن من اسقاط دولتي الصفرية والأباضية ، دون أن يتم القيام بعمل مشترك من أمراء الصفرية والأباضية وأموي الأندلس .

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ٩٠ .

(٢) اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، ص : ١٢٨ .

(٣) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : ٢٧٢ .

(٤) جزيرة في الخليج العربي ، وقد أطلقت على احدى جزر البحرين في العصور الإسلامي ، اتجه إليها الصفرية في نهاية العصر الأموي ، لكن العباسيين أرسلوا حملة بقيادة خازم بن خزيمة التيمي تمكن من هزيمتهم .

خامسا : الأبـاضيـــة : ودورها المميز في تاريخ القارة الإفريقية :

مازالت الدراسات التاريخية ، قديمها وحديثها ، قاصرة عن وضع تصور شامل لدور رجال الأباضية في تاريخ افريقية ، سواء في شمال القارة أو في شرقها او في وسطها . وكان ظهور دراسات من بعض رجالها عن دورهم في بلاد السودان ، حاليا ، يعد بداية هامة لتتبع هذا الدور [1].

ذلك أن الفكر الأباضي كان أنسب الأفكار الإسلامية التي وصلت إلي بلاد البربر لشرح حقيقة الإسلام وماهيته ، بعد فترة طويلة مر بها البربر بين مد وجزر خلال العصر الأموي . منذ بداية القرن الثاني الهجري / القرن الثامن الميلادي ، وانتشرت افكار الأباضية بين قبائل البربر بعد أن نجح سلمة بن سعد الحضرمي في نشرها بين سكان جبل نفوسة ، ولاقت الدعوة نجاحا منقطع النظير ، واقترنت بساطتها بفطرة البربر واصبحت هي الصورة المعبرة عن إسلام العديد من قبائل البربر لفترة طويلة . خاصة وأنها جاءت في فترة الممارسات القاسية من قبل بعض ولاة بني أمية وبني العباس .

لقد اقبلت قبائل هوارة ولماية وزناتة وسدراته ولواته وزواغة ونفوسة ، علي اعتناق الفكر الأباضي [2]. ونظرا لنشاط تلك القبائل واتساع مجالها الحيوي في مناطق إفريقية والمغربين الأدنى والأوسط . وقدمت تلك القبائل رجالها من أجل نصرة الحركة وانتشارها ، حيث حملت أسماء بعثة العلم الأولى إلي البصرة أسماء هؤلاء البربر منذ البداية . ونشط رجال البربر في الدعوة للفكر الأباضي في مناطقهم وأسسوا مدارس سرية علي غرار مدرسة الإمام أبوعبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة [3].

---

(١) تقوم مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، بسلطنة عمان بنشر العديد من تلك الأبحاث في الآونة الأخيرة ، من قبل بعض علماء تونس والجزائر وغيرهم . وأهمها :

- الوجود الأباضي بالأندلس ، للأستاذ يحيى محمد بكوش .
- دور فقهاء الأباضية في إسلام مملكة مالي . للدكتور أحمد إلياس حسين .
- دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا ، للدكتور محمد ناصر .

(٢) ابن خلدون ، جـ ٦ ، ص : ٢٤٣ .

(٣) أبو زكريا ، كتاب الأمة ، ص : ٥٧ ومابعدها .

وأصبح لرجال تلك القبائل تصورهم الخاص لاخراج شمال إفريقية من حالة الفوضي والصراعات التي ظهرت في المنطقة منذ نهاية العصر الأموي . وكان هذا النظام الجديد قد وضعت أسسه منذ البداية من الإمام أبو عبيدة بالبصرة ، حيث عادت بعثة حملة العلم من البصرة ومعها صلاحيات وإرشارات ونصائح للخروج بالمنطقة من أوضاعها والتحول إلى نظام الإمامة . وأخذ هؤلاء الدعاة يهيئون القبائل للثورة ويتشاورون مع زعمائها حول أنسب الطرق لتحقيقها [١] .

ومنذ بداية العصر العباسي نجح الأباضية في إعلان إمامة ظهور لهم في طرابلس وامتدت تلك الإمامة سنة ١٤٠هـ لتشمل جبل نفوسة وطرابلس ودمر وجزيرة جربة وقابس وسرت ، بل أن الإمام أبو الخطاب عبد الأعلي بن السمح المعافري تمكن من دخول القيروان وإعادة الأمن والاستقرار إليها وطرد قبائل ورفجومة منها [٢]. وبذلك حققت الأباضية أهم مكاسبها السياسية في إفريقية بضم القيروان لها لما تشكله القيروان من أهمية خاصة في تاريخ إفريقية الإسلامية [٣] كما اتضح للبربر صورة جديدة من صور التسامح الإسلامي علي يد رجال الأباضية خلال ماصدر عنهم من سيرة حسنة وممارسات ملتزمة ، حتى قال أحدهم ((وأين مثل أبي الخطاب في عدله وفضله))[٤]

أدركت خلافة العباسيين خطورة اتساع نفوذ الأباضية في إفريقية ، وانتشار أفكارهم بين البربر ، فسارع المنصور إلى إرسال جيش كبير بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي ، توجه به إلى طرابلس وتمكن من الانتصار علي الجيش الأباضي ، بعد اتباع أساليب الخداع ، وقتل الأمام الأباضي أبو الخطاب في المعركة سنة ١٤٤هـ / سنة ٧٦١م،[٥] وبعد معركة تاورغا تمكن ابن الأشعث من دخول القيروان ، وأخذ بتعقب رجال الأباضية ، ولكن بعد أن كان الفكر الأباضي قد ترسخ بين البربر وانتشر بين قطاعات كثيرة منهم . ولم يتمكن الأغلب بن سالم التميمي أو عمر بن حفص ، ولا حتي يزيد بن حاتم المهلبي من وقف الانتشار للفكر الأباضي في المنطقة .

---

(١) أبو زكريا ، المصدر السابق ،ص : ٥٨ .

(٢) خليفات ، نشأت الحركة الأباضية ، ص : ١٢٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص : ٣١٦ .

(٤) أبو زكريا ، المصدر السابق ، ص : ٦٩ .

(٥) ابن عذاري ، البيان ، جـ١ ، ص : ٧٢ .

ذلك أن العباسيين ركزوا جهودهم علي الشريط الساحلي لإفريقية ، واقتصرت جهود ولاتهم ، في أغلب الأمر علي ضمان استتباب سياسة ونفوذ العباسيين في تلك المناطق ، فاستغل دعاة الاباضية طبيعة إفريقية وبلاد المغرب من سهول وجبال وأودية وصحراء وانسحبوا إلى مناطق الجبال وواحات الصحراء نحو الجنوب ، وهي مناطق نفوذ القبائل البربرية ، ولها خبرتها ونفوذها في تلك الرجاء البعيدة عن الساحل .

واستغل أحد قيادة الأباضية هذه الظروف ليحقق نصرا جديدا للأباضية وللإسلام في العمق الإفريقي نحو الجنوب ، خاصة بعد مقتل الإمام الأباضي الجديد وهو أبو حاتم الملزوزي، حيث بدأ عبدالرحمن بن رستم [1] في استغلال امتداد نفوذ القبائل البربرية الموالية لفكر الأباضية نحو الجنوب، في إقامة إمامة أباضية جديدة تكون مركزا له ولأتباعه، فاتجه صوب الجنوب مخترقا الجبال والوديان واستقر به المقام في تاهرت ،وأخذ يخطط في بناء مدينة جديدة في منطقة المغرب الأوسط، بعيدا عن القيروان، مستغلا موقع المكان وإمكانياته المائية وخصوبة أرضه .

وبالإضافة إلي ذلك فإن هذا المكان توافرت فيه عوامل أساسية ليكون مركزاً

---

(١) هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام ، من أصل فارسي ، قدم مع أبوه إلى مكة للحج ، فتوفى والده هناك ، فتزوجت أمه برجل من أهل القيروان . وكان عبد الرحمن صغيراً ، فحملته أمه معها إلى القيروان . وفي القيروان بدأ حياة علمية جادة فتعرف على سلمة بن سعد الحضرمي ، وأصبح من رجال الأباضية . أرسل ضمن بعثة العلم الأولى إلى البصرة للتتلمذ على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة .

بعد عودة عبد الرحمن من البصرة ساهم بدور كبير في ثورات الأباضية في منطقة شمال إفريقية فاشترك في ثورة طرابلس ، وعين قاضياً لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري على القيروان سنة ١٤٠ هـ ، ثم أصبح والياً على القيروان سنة ١٤١هـ بعد أن دخلها الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى . وبعد هزيمة الأباضية في تاورغا سنة ١٤٤هـ وماتم بعد ذلك من ملاحقة العباسيين للأباضية في المنطقة أدرك عبد الرحمن بن رستم أن المغرب الأدنى أصبح غير مناسب لإقامة إمامة أباضية ، فاتجه نحو المغرب الأوسط ليؤسس إمامة أباضية منذ سنة ١٦٠هـ ، وكان للإمامة الرستميين في تاهرت دوراً هاما في تاريخ المنطقة .

انظر : أبو زكريا ، المصدر السابق ، ص : ٨٥ ومابعدها .

ابن عذاري ، جـ١ ، ص : ٧٣ .

للأباضية، ومن تلك العوامل مايلي :

١- يتناسب موقع تاهرت مع الامتداد الكبير لنفوذ القبائل البربرية الموالية للأباضية ، والتى يمتد نفوذها من المغرب الأدنى إلى المغرب الأوسط .وكان لابد من اختيار موقع يتناسب مع هذا الامتداد الجغرافي لأتباع الحركة. خاصة وأن الصفرية قد أسسوا عاصمة لهم في جوف الصحراء في سجلماسة، أصبحت مركزا لأتباعهم في بلاد المغرب .وأصبحت تاهرت هى مركز الأباضية الجديد في منطقة شمال افريقية .أو "المعسكر المبارك " [١] لهم. كما تذكر مصادرهم .

٢- وجود قبائل بربرية موالية لعبدالرحمن بن رستم في المنطقة،مثل لماية ولواتة وهوارة ،ونفوسة التى رحل بعض أفرادها إلى الموقع فيما بعد. حتى أصبح لكل قبيلة منهم درب أوحى ارتبط باسمهم مثل: عدوة نفوسة، ودرب النفوسية. وأصبح من السهل على الرستميين تشكيل قوة عسكرية للدفاع عن كيانهم من تلك القبائل .

٣- كان موقع تاهرت[٢] يشكل أهمية كبرى كعامل من عوامل اختيارها منذ البداية، وكعامل من عوامل تطورها وازدهارها فيما بعد. حتى أصبحت المدينة قصبة المغرب، فوفدت إليها الوفود من كل الأمصار من المشرق والمغرب والسودان، حتى أطلق عليها اسم "عراق المغرب" لازدهارها ولكثرة السكان الكوفيين والبصريين والفرس بها. وابتنى الناس القصور والدور، وظهرت فئة اجتماعية جديدة من اندماج هؤلاء الفئات أصبحت تتمتع بقدر كبير من الثروة والنفوذ واتسع عمران المدينة حتى وصلت حدودها إلى

---

(١) أبو زكريا ،المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) أسس ابن رستم عاصمة بالقرب من مدينة قديمة تسمى تاهرت، يبدو أنها كانت عاصمة لملكة أهلية للمنطقة في العصر الروماني، حتى أنها كانت تعتبر من المدن الهامة في بلاد المغرب عند الفتح الإسلامي، ويبدو أنها لعبت دورا هاماً في التحالف البيزنطي البربري ضد عمليات الفتح الإسلامي الأولى خاصة زمن عقبة بن نافع. وكانت منطقة تاهرت كثيفة السكان قبيل الفتح الإسلامي، ولكنها هجرت بعد الانتصارات التى حققتها الجيوش الإسلامية. وقد كره ابن رستم أن ينزل في مدينة بيزنطية واتبع سبيل السلف في اختيار موضع جديد لعاصمة مستفيدا من نفس المزايا القديمة لتاهرت السابقة. ويبدو أن تاهرت القديمة هى تاهرت الحالية.
الجنحانى ،المرجع السابق، ص ١٠٦.

مسافات بعيدة في الغابات والصحراء .

كانت أهمية تاهرت منذ البداية ترتكز على جوانب اقتصادية هامة،أدت إلى أهميتها الاستراتيجية فيما بعد. وكان أول تلك الجوانب الاقتصادية أنها تقع في منطقة خصبة من الناحية الزراعية بحيث تمكنت من توفير احتياجات سكانها في المستقبل زمن الازدهار .فهي تقع على نهرين أو ثلاثة أنهار، كما تميزت المدينة بمناخ جيد من حيث كثرة الغيوم[1] وغزارة . الأمطار .

وبذلك كان عبدالرحمن بن رستم موفقاً في اختيار تلك المنطقة كمركز مناسب لإعلان إمامته [2]. وإذا كان ابن رستم واجه في البداية تحديات اقتصادية في بداية تأسيسه للمدينة، فإنه استفاد بعد ذلك من أهمية مركزها الإستراتيجي، وأصبحت مدينة تاهرت قصبة بلاد المغرب الأوسط [3]، ومركزا للاتصال بين شمال افريقية وبين بلاد السودان ،فقصدتها جماعات التجار من كافة الأجناس والمناطق [4]، وتدفقت حولها العديد من القبائل البربرية للاستقرار بها أو حولها، وازدهرت المدينة حتى شبهت بعراق المغرب أو ببصرته .[5]

وساعد على ازدهار المدينة أيضا سياسة الرستميين الملتزمة بالشورى وإقامة العدل والحرص على الاهتمام بالنواحي الفكرية ورعاية العلماء وحماية التجار، فبالرغم من الاعتماد على العصبية القبلية في بداية تكوين دولتهم، فإن القضايا السياسية والجوانب الاقتصادية والاجتماعية التزمت بالأساس الإسلامي، وتوارث الخلافات أمام الزود عن هذا الأساس . ورغم أن معظم القبائل التى أيدت الرستميين ترجع إلى الأصل البربري البتري

---

(١) يقول الشاعر : .

ما خلق الرحمن من طرفه ∴ أشهى من الشمس بتاهرت

(٢) يقصد بكلمة تاهرت في اللغة البربرية: "محطة أو إقامة"

بكير، بحاز، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الإقتصادية والحياة الفكرية ،الجزائر، سنة ١٩٨٥، ص ٩٠.

(٣) الجنحاني ، المرجع السابق ، ص١٢٣.

(٤) ابن الصغير، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ١٠٥.

فإنها ارتقت فكريا وسياسياً بفضل إخلاصها لفكرها والدفاع عنه. فعمت الحياة السياسية في تاهرت وحدة المذهب والاتجاه، واشتهرت سيرة حكامها وعدلهم حتى طار خبرهم فبلغ المغرب والمشرق [١].

ومهما يكن من أمر، فإن الدور الذي قامت به تاهرت في بلاد المغرب خاصة، وإفريقية عامة قد تعرض لتجاهل وصمت من قبل العديد من الكتابات قديمها وحديثها[٢]، الأمر الذي يجعل المؤرخ أو الباحث المنصف يعمل بقدر استطاعته وموضوعيته أن يحدد الإسهام الأباضي في تاريخ المغرب وافريقية ويبرز الدور الحقيقي لرجالهم في الاتصال الحضاري بين أقاليم افريقية من جهة وبين مناطق العالم الإسلامي من جهة ثانية .

لقد نهض الرستميون بأقاليمهم واستغلوا بصورة جيدة إمكانياتها الفلاحية والرعوية والتجارية والسياسية والاستراتيجية [٣]، بصورة لم تشهدها تلك المنطقة من المغرب الأوسط بعد ذلك وحتى الوقت الحاضر .

فمن المعروف أن منطقة تاهرت والمناطق المحيطة بها هى مناطق انتاج للحبوب والثمار المتنوعة بسبب خصوبة الأرض وتوفر الظروف المناسبة لذلك، وانعكس الوضع الاقتصادي المزدهر على استغلال مساحات واسعة من الأراضي المحيطة، وظهور ضياع عديدة وبساتين متنوعة [٤]، وهى صورة جديدة لم تكن موجودة قبل تأسيس دولة الأباضية في تاهرت ، خاصة وأن إدارة تاهرت والمناطق المحيطة بها قد نظمت عملية استغلال المياه من الأنهار وشقت قنوات جديدة وامتدت عمليات الاستغلال إلى الجبال المحيطة بتاهرت وأزيلت العديد من الغابات لاستغلالها في السكنى .[٥]

من جهة ثانية حافظ الرستميون على قطاع الرعى الذي تشتهر به المنطقة سابقاً،

---

(١) الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص ١٨٢.

(٢) بكير بن سعيد، حركة أهل الدعوة والاستقامة، ص ٩١،٩٢، الجزائر، سنة ١٩٩٢م.

(٣) لومبارد، المرجع السابق ،ص ٢١٣.

(٤) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٨٧.

(٥) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ، ص٣٤.

وطوروا عملية استغلاله. ذلك أن المناطق التى امتد نفوذ الأباضية فيها كانت مجالاً للقبائل البربرية البترية وهم يعتمدون على التنقل والترحال للرعى وراء الماء والعشب والكلأ. ولذلك فقد أصبحت تاهرت زمن الرستميين أهم مناطق تصدير الدواب والماشية والغنم والبغال والأصواف[1]، ويصدر منها تلك الأصناف إلى مناطق المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وجودة لحومها ويبدو أن نمو قطاع الزراعة والرعى قد وفر أساساً اقتصادياً قوياً لزيادة سكان مدينة تاهرت ونموها المستمر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، بحيث لم تعاني المدينة في نقص في المواد الغذائية بكافة أنواعها. كما أن رجال التجارة بها قد استثمروا جزء كبيرأمن عوائد تجارتهم في قطاع الزراعة وتربية الماشية والرعى، يدل ذلك على حاجة السكان لأعداد كبيرة من العبيد في تلك المجالات .

وكانت تاهرت تشهد تجارة إقليمية بين قبائل البربر الرحل الذين يفدون إليها في أيام محددة لبيع ماشيتهم وشراء ما يحتاجونه من الحبوب والتمور وبضاعة الشرق والمنسوجات الصوفية التى تصنع بها. كما كانت تتحرك منها قوافل تجارية للوصول إلى موانىء البحر المتوسط لتصدير سلعها إلى الأندلس، التى ارتبطت بها بعلاقات حميدة، رغم الاختلاف . المذهبي بين الطرفين ، وكان ميناء تنس هو المنفذ لذلك. [3]

وقد أدى هذا الأمر إلى تغيرات حضارية وديموغرافية في المنطقة. فقد ظهرت أعداد كبيرة من العجم في المنطقة وأصبح لهم دوراً في مجريات الأحداث الأجتماعية والسياسية، بالاضافة أيضا إلى عنصر العرب. كما ظهرت عشرات الألوف من العديد الذين حملوا من جنوب الصحراء من بلاد السودان الغربي والأوسط للحاجة إليهم في الأعمال المنزلية والتجارية وقطاعات الزراعة والرعى والحراسة، وكان هذا عاملاً حاسماً لتحول أعداد كبيرة من السودان إلى الإسلام، وإزدهار الواحات والقرى في المغرب.[4]

كما غيرت القبائل البربرية من البتر أنماط حياتها لتتكيف مع الأوضاع الجديدة، فتحولت إلى حياة الإستقرار وبدأت ترتبط بالأرض وتمارس الزراعة مع تربية الماشية

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٨٦.

(٢) الطالبى، محمد، دكتور، العلاقات بين إفريقية والأندلس في القرن الثالث الهجرى، ص ١٨.

(٣) الاصطخري، المصدر السابق،ص٨٣.

(٤) طبقات الدرجينى،جـ١، ص ٧٧.

والأغنام وتؤسس قرى وحواجز جديدة، ويعمل بعض أفرادها في قطاع التجارة، حيث لمست تلك القبائل الأمن والإستقرار من قبل حكام تاهرت فركنت إلى الاستقرار بعد حياة التنقل والابتعاد عن المراكز والمدن لتكون في مأمن من بطش الحكام.[١]

ومن أجل استغلال الرستميين لامكانيات الجاليات المتنوعة التى استقرت على أرضهم فإنهم نهضوا بقطاع الصناعة أيضا، فظهرت في تاهرت طوائف متعددة من الصناع سواء من الحدادين والدباغين والنساجين والنجارين وغيرهم من الصناعات التكميلية مثل صناعة الأصباغ التي اشتهر بها اليهود، وبلغت الصناعات الرستمية جودة عالية في عصرها خاصة صناعة المنسوجات. وكذلك صناعات أدوات الزراعة من الفؤوس والمناجل والمحرايث وآلات الحصاد وعصر الزيوت وطحن الغلال، حتى ظهر في تاهرت باب يسمى "باب المطاحن" وتعددت جنسيات الصناع الذين وفدوا إلى دولة بنى رستم من كوفي وبصرى وفارسي واندلسي وقروي وغيرهم [٢]. كما تعددت عقائدهم ومللهم.

وأصبحت بالتالى تاهرت قوة اقتصادية هامة في بلاد المغرب والشمال الافريقي، الأمر الذى حتم عليها الدخول في علاقات نشطة من القوى المجاورة من أجل تصريف فائض انتاجها واستيراد ما يلزمها من المواد الخام، وخاصة وأنها كانت تتوسط قوى اقتصادية متنوعة . سواء في بلاد المغرب أو في حوض البحر المتوسط أو مع واحات الصحراء الافريقية وبلاد السودان [٣]. وساعد على ذلك الاستقلال النقدي للرستميين حينما قاموا بضرب عملات خاصة بهم من الدرهم والدينار، الأمر الذى أعطاهم شخصية اقتصادية مستقلة ومميزة .

وتشير كثير من الدلائل إلى قيام الرستميين بضرب نقود ذهبية من الدنانير،أو برونزية من الدراهم، خاصة وأن عبدالرحمن بن رستم قد سبق وأن ضرب نقوداً في القيروان، قبل أن ينتصف القرن الثاني الهجري، وقد عثر على بعض منها [٤]. وقد ساعد الرستميون في ذلك عدة عوامل منها الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي في مناطقهم، خاصة في عصورهم الأولى، بالاضافة إلى توافر مقادير كبيرة من الذهب المصدر

---

(١) بكير، الدولة الرستمية، ص ١٥٧.

(٢) ابن الصغير ،أخبار الأئمة، ص١٣. (٣) دبوز، المغرب الكبير ،جـ٣، ص ٣٨٣ .

(٤) حسن، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية، القسم الأول ، ص ٢٢٥.

إليهم من بلاد السودان .[1] ويعتبر هذا الذهب هو العنصر الأساسي في الاستقرار النقدي في بلاد المغرب وفي غرب البحر المتوسط في العصور الوسطى. وتميزت تاهرت بقربها من مراكز انتاج هذا المعدن الاستراتيجي،[2] الأمر الذي أعطي الرستميين أهمية في حركة تبادل الذهب وتحرك قوافله. وتدادرك الفاطميون، بعد ذلك، أهمية احتكار تجارة هذا الذهب. وحقق لهم ذلك أساساً قوياً في بناء دولتهم وتوسعها .حيث ترتب على امتلاك الثروات الذهبية لتلك الدول التمتع بسمعة عالية واعتراف دولي.[3]

(١) لومبارد، الجغرافية التاريخية ،ص١٥٥.

(٢) آشتور، التاريخ الاقتصادي والأجتماعي، ص ٩١ .

(٣) لومبارد ، المرجع السابق، ص ١٥٧ .

(٥)

حركة التجارة الافريقية في العصر الإسلامي

أدي استقرار العرب وغيرهم من الجماعات الإسلامية في الشمال الافريقي، وعلى طول السواحل الشرقية، إلى قيام مراكز حضارية إسلامية نشطة أصبحت مركزا للإشعاع الحضاري على مستوى القارة،ومن أهم تلك المراكز الفسطاط والقيروان وسجلماسة وفاس وتاهرت وغيرها. وتمكن المسلمون من اختراق الحاجز الصحراوي الافريقي الذي شكل عقبة لفترات زمنية طويلة. وأصبحت الصحراء عامل وصل بعد أن كانت عامل فصل وقطع في الماضي . وأصبحت الصحراء الافريقية تشهد حركة ونشاط بصورة مستمرة لأول مرة في تاريخ القارة. وتمكن المسلمون من ربط افريقية جنوب الصحراء ووسط القارة مع سواحلها بعدة طرق ومسالك ودروب، أصبحت أشبه بشرايين للقارة. [١]

ويمكننا تحديد أهم تلك المسالك والطرق كما يلى :

أولا : الطرق والمسالك التى تربط الصحراء وواحاتها من الشرق إلى الغرب .

وهي الطرق البرية التى تخرج من القيروان أو تاهرت أو سجلماسة أو فاس نحو مصر وبلاد الشام والعراق والحجاز. بغرض التجارة أو تأدية فريضة الحج وحتى لتحركات الجيوش العسكرية. وازدهر هذا الطريق بدرجة كبيرة زمن الأغالبة [٢]. وأصبحت القيروان لفترة زمنية طويلة هى مركز تلك الطرق، حيث ارتبط تحديد المراحل والمسافات بين محطات تلك الطرق مع القيروان. فقد حدد الجغرافيون المسافة والرحلة بين تاهرت والقيروان في حوالى خمسة وعشرين يوماً تقطع في عدة مراحل عبر قسطيلية وقفصة. كما أن هناك عدة طرق تربط بين تاهرت والقيروان، وكانت تسلكها القوافل حسب ظروف معينة، وارتبط ازدهار الطرق بين تلك المحطات في الشمال الافريقي حسب الظروف السياسية وعلاقات القوى السياسية في بلاد المغرب .

وارتبطت هذه الطرق والدروب بسلسلة من الموانيء الشمالية التى تطل على البحر المتوسط، حيث تصلها الطرق من الصحراء أو تربط بين الطرق الساحلية بعضها بالبعض

---

(١) لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص ٢٥٧.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ، ص٨٧.

الآخر. وقد حرصت كل دول الشمال الإفريقى على الارتباط بالموانىء الساحلية للبحر المتوسط[1] باعتباره أهم مراكز الحضارات والفعاليات السياسية .

وقد أكد الأئمة الرستميون على هذا الاعتبار في بناء عاصمتهم تاهرت، حيث حرصوا على أن تتصل عاصمتهم بجميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة والدروب وأن يتوافد إليها الناس من كل الأقطار[2] ولذلك فقد حرصوا على توفير كافة الضمانات الأمنية لمرور القوافل التجارية أو اقامة التجار. وكان هذا الاهتمام موجهاً من قبلهم صوب جهتين بصورة أساسية : أولاهما صوب موانىء البحر المتوسط شمالاً، والآخر صوب الصحراء في الجنوب. وهى طرق طويلة وشاقة ، وعمل الأئمة الرستميون على توفير الراحة للقوافل بعاصمتهم حتى ظهر فيها باب يسمى "باب المنازل".

وارتبطت تلك الشبكة الافريقية أيضا بموانىء الشام وحواضره ومدن العراق أيضا عبر الفسطاط ثم رفح والرملة وطبرية ودمشق وحلب. أو تتجه صوب الأنبار في العراق. وتقدر المسافة بين القيروان وبغداد بحوالي ثلاثة آلاف ميل، تقطع على مراحل.

ومن جهة ثانية ارتبطت المراكز الحضارية في الشمال الإفريقي بالأندلس، حيث كانت تلك الحواضر في صراع مستمر مع العباسيين باستثناء الأغالبة، فتلاقت أهدافهم السياسية مع أموي الأندلس، خاصة حكام تاهرت وسجلماسه. فاعتمد الأمويون على حواضر الشمال الافريقي في توفير سلع بلاد السودان لهم، وخاصة من الذهب ، فيذكر لومبارد أن الأمويين في الأندلس ظلوا يضربون عملات فضية حتى ضمنوا بصورة مستمرة تدفق ذهب السودان إليهم، فتحولت عملاتهم إلى العملات الذهبية، التى رمزت إلى الخلافة وحملت لقب "أمير المؤمنين".[4] وبذلك وضع الأمويون في الأندلس أساساً قوياً لرصيد عملتهم من الذهب الإفريقي .

ولذلك حاول الأمويون الوصول إلى تجار تاهرت وسجلماسه لضمان تدفق سلع

---

(١) ابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص ٨٤.

(٢) ابن الصغير، المصدر السابق ، ص ١٣.

(٣) ابن الصغير المصدر نفسه.

(٤) لومبارد ، الجغرافية التاريخية، ص ١٥٧ .

السودان وافريقية، ونشطت جزيرة جربة وميناء تنس ومرسى وهران [1] في تصدير سلع افريقية إلى الأندلس ومراكز البحر المتوسط، في المقابل نشط ميناء اشكوبرش على الساحل الأندلسي لاستيعاب حركة التجارة مع إفريقية . ومع موانىء أوروبا شمال البحر المتوسط [2].

في الوقت نفسه نشطت التجارة وحركة القوافل بين حواضر شمال افريقية وواحاتها رغم الإختلافات السياسية والمذهبية. وازدهرت القرى والمزارع والواحات التى تمر بها تلك الطرق. وكان الرستميون أنشط من غيرهم في الربط بين الوحات الجنوبية وبين حواضر الشمال الإفريقي. حتى أنهم تمكنوا من تشكيل منظومة طرق برية واسعة لفترة زمنية طويلة امتدت حتى نهاية القرن الثالث الهجري، فوفدت إليها الوفود والتجار من كافة الأجناس والملل. وحملت أليها ألوان وأنواع متعددة من التجارات والسلع مثل المرجان والعنبر والذهب والزيوت والحرير والزئبق والزعفران، ووصلت إليها قوافل التوابل والبهارات والعطور.[3]

ونظرا لظروف انتشار جماعات الأباضية على مستوى العالم الإسلامي، فقد أتاح هذا الأمر امتداداً لحركة تجارة تاهرت إلى موانىء البحر الأحمر واليمن وسواحل عمان والبصرة. وكان ارتباط تاهرت بالمشرق الإسلامي يتم عبر مصر من خلال طريقين إما الساحلى الشمالى، أو طرق الواحات الصحراوية. ومن مصر تتجه قوافل تجارة تاهرت عبر البحر الأحمر إلى الحجاز واليمن[4]، ومن اليمن يتم الاتصال بعمان إما بحراً عبر موانىء اليمن وعمان المطلة على بحر العرب، أو براً عبر الطريق البري الذي يربط حضرموت بنزوي، بداخلية عمان، ويتجه شمالاً صوب البحرين وكاظمة والبصرة. وقد نشطت في تلك الفترة واحات فزان وزويلة وسيوه ، وموانىء البحر الأحمر.

وساعد على هذا النشاط التجاري لتاهرت، أن قبائلها البربرية كانت من التبر ولها

---

(١) اليعقوبي، البلدان ، ص ١٠٥. ابن حوقل ، صورة الأرض، ص ٧٨ .

(٢) بكير، الدولة الرستمية ، ص١٩٣.

(٣) المقدسي، صورة الأرض ، ص ٢٤٥، وما بعدها . اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٤) الحربي، مناسك الحج ،تحقيق حمد الجاسر، ص ٥٧٢.

خبرتها بالصحراء فامتد نشاطها عبر مسافات طويلة من صحراء افريقية ،وأصبح لقبائل لماية وهوارة ومزاته وتفوسة ونفزاوة دور في انسياب التجارة الافريقية عبر سلسلة الواحات . وبلغ الأمر أن بعض أهل نفوسة قد حفظوا القرآن الكريم وتعلموا أصول الدين الإسلامي من وجوهم على طرق التجارة التى ترد عليها أعداد كبيرة من القوافل التجارية الإسلامية. الأمر الذي يدل على النشاط التجاري الكبير لمناطق الشمال الإفريقي، وازدهار القرى والمدن التى تقع على تلك الطرق.

ثانيا : الطرق الصحروية مع بلاد السودان (جنوب الصحراء الكبرى).

كان للتجربة العربية في معرفة طرق اجتياز الصحراء أثرها الكبير في ازدهار الطرق الصحروية للتى تشق الصحراء الكبرى إلى بلاد السودان. وساعد على نجاح تلك العملية تحول قبائل البربر إلى الإسلام واندامجهم مع العرب، فأضيفت الخبرة البربرية مع التجربة العربية للوصول إلي بلاد السودان، وقدمت صنهاجه دوراً كبيراً على طرق الصحراء الغربية إلى بلاد السودان الغربي، على سبيل المثال، وكذلك كان لقبيلة زويلة البربرية دوراً موازيا للسيطرة على الطرق الصحروية الطرق الصحراوية إلي بلاد السودان الأوسط وبحيرة تشاد ، والى بلاد كوكو وماحولها من بلاد النيجر.

،يمكن تحديد أهم الطرق والدروب التى ربطت بين شمال افريقية وبين بلاد السودان، عبر الصحراء الأفريقية الكبرى بما يلى:

(١) طريق سجلماسة إلى بلاد السودان الغربى عبر أودغست :

وهو الطريق الذي يبدأ من عاصمة بنى واسول الصفرية من سجلماسة ويتجه صوب الجنوب في الصحراء الكبرى لمسافات طويلة حتى يصل إلى أودغست في مدة تقترب من الشهرين تقريباً [١]. وبعد أودغست تدخل القوافل التجارية مملكة غانا بعد عشرة أيام تقريباً . ورغم انتشار القبائل البربرية على طول هذا الطريق فإن قبيلة صنهاجه كان لها اليد الطولى عليه لفترات زمنية طويلة [٢]، حتى أودغست نفسها تعتبر من مناطق نفوذ قبلية صنهاجة ، كما زستقرت على طول هذا الطريق قبائل مكناسة ولواته وزناته ونفوسة وغيرها بجوار صنهاجة.

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) اليعقوبى ، المصدر السابق، ص ١١٠.

ويتفرع طريق سجلماسة أودغست إلى فرعين اثنين هما :

أ - طريق سجلماسة تغازي - تيشيت جهة الجنوب الشرقي إلى أودغست . وتأتى أهمية هذا الطريق إلى أن يلتقى عند تغاذي بالطرق الصحراوية القادمة من وارجلان وبلاد الجريد من الشمال. وقد نشط زمن الدولة الرستمية [1] وتعتبر تغازي أهم محطاته [2].

ب - طريق سجلماسة - الوير إلى أودغست جهة الجنوب الغربي. وهو يقترب من بلاد التكرور والطريق الساحلى من المغرب الأقصى.

وبالفعل فإن مدينة أودغست [3] الصحراوية أصبحت رمزاً في تايريخ افريقية للمدن الإسلامية التى ظهرت وتطورت نتيجة التوغل الإسلامي من العرب والبربر صوب الصحراء إلى بلاد السودان ، واستمدت أهميتها وقوتها من موقعها الاستراتيجي على طريق القوافل بين الشمال الافريقي وبين بلاد السودان. وكان أى تغير أو تذبذب في تلك الطرق كفيلاً بطمسها وتدهورها .[4] وساعد على ازدهار أودغست قيام دول بلاد المغرب المستقلة في الشمال مثل دولة الصفرية في سجلماسة ، دولة الأباضية في تاهرت .

ويمرور الزمن تحولت أودغست من مجرد مركز عبور واستراحة للقوافل التجارية إلى مدينة تجارية عالمية من جراء قيامها بدور الوسيط التجاري بين سلع ومنتجات الشمال الإفريقي وحوض البحر المتوسط وبين سلع ومنتجات بلاد السودان وجنوب الصحراء ،وكان مؤشر هذا الدور يتمثل في سلعتين هامتين متقابلتين هما الملح المتجه من الشمال إلى

---

(١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٨.

(٢) على بعد خمسة وعشرين يوماً من سجلماسة . (رحلة ابن بطوطة، ص : ٦٧٤)

(٣) أودغست : مدينة تقع على حافة الصحراء الكبرى من الجنوب . وتقع بين جبلين ، ولذلك شبها معظم الجغرافيين بمكة، إلى الجنوب من سجلماسة ، وتمكن سكانها من استغلال الأمطار التى تسقط على جبالها ، وتنظيم أمور الرى في الوادى الذى امتدت على ضفاف المدينة ولذلك فقد انتشرت فيها مزارع النخيل .

وهي تقع حاليا في جمهورية موريتانيا.

انظر : ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩١ ، ياقوت الحموى، معجم البلدان ، ط، ص ٢٧٧.

(٤) الجنحاني، المرجع السابق، ص ٢١٢.

الجنوب والذهب المتجه من الجنوب إلى الشمال.[1] وكان تغير مسلك إحدى هاتين السلعتين كفيلا بتهديد مركز أود غست.

حملت القوافل الهابطة من الشمال إلى بلاد السودان عبر أودغست مواد غذائية مثل التمر والزبيب والزيوت والقمح والمنسوجات والنحاس والخرز. ويحمل من أودغست الذهب الذي أعتبرأجود ذهب أهل الأرض وأصحه كما يحمل منها العبيد ، كما تصدر أودغست إلى بلاد الأندلس الصمغ الذي يستخدم في صناعة الديباج وغيره ، وصدرت أيضا أنواع جيدة من الجلود . ونظرا لازدهارها الكبير فقد تعاملت بالذهب الخالص أو الدينار السجلماسي الذي كان شائعاً على طول تلك المحطا. [2]

وتستأنف أغلب القوافل التجارية رحلتها إلى مملكة غانة إلى الجنوب من أودغست وعلى بعد عشرة أيام . وإلى مملكة غانة هفت نفوس التجار وتحملوا من أجل الوصول إليها المشاق، وذلك لتوفر الذهب بها ورخص أسعاره، حتى ذكر البعض أن الذهب كان يلمع ليلاً من كثرته، إذا حسرت المياه الزائدة عن الرمال . حتى سميت منطقتها باسم إقليم التبر[3] وظهرت في غانة منذ البداية بدايات استقرار جماعات التجار المسلمين من أجل تأمين حمل تلك السلعة وخدمة قوافل التجار، حتى ظهرت فيها منذ القرن الثاني الهجرى /التاسع الميلادى حوالى إثنا عشر مسجداً، وكثرت فيها أحياء التجار المسلمين، رغم أن ملوكها ظلوا على وثنيتهم فترة طويلة.[4]

ومن غانة تتجه بعض القوافل شرقاً إلى إمارات ومناطق نهر النيجر، أو إلى بلاد جوجو(كوكو)، لحمل سلعها من الجلود والعبيد، ولكن كانت غانة هى المقصد الأساسي للقوافل التجارية. ولم يتم تنظيم خطوط تجارية إلى الجنوب منها على يد البربر والمسلمين إلا بعد تحول جزء كبير من سكان غانة إلى الإسلام فيما بعد.

---

(١) الحميرى، الروض المعطار، ص ٥٩ .

(٢) ابن بطوطة، ص ٦٨١.

(٣) أبو سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ص ٩٢، ٩٣.

(٤) البكري، المصدر السابق ، ص ١٥٨.

وبسبب أهمية طريق سجلماسة - أودغست - غانة التجاري في العصر الإسلامي فقد استقرت عليه العديد من الجماعات المختلفة الأجناس والعقائد والمذاهب، ولذلك فقد شهدت مراكز هذا الطريق صراعات بين تلك الجماعات، فمثلاً كان لنشاط ومكانة تجار تاهرت من الأباضية على مراكز الطريق في الشمال أثراً في شك حكام سجلماشه من الصفرية في هؤلاء التجر، حتى أن أمراء بنى مدرار اعتبروا هؤلاء التجار أهم عقبة أمامهم [1]، فبطشوا بهم خوفا من وثوبهم إلى السلطة. رغم وجود أقليات صفرية في تاهرت ورغم وجود احتكارات كبيرة في معظم سلع السودان في يد تجار الأباضية إلا أن تلك الجوانب لم تؤثر على علاقة تاهرت بسجلماسة من الناحية السلبية ،حيث أن كلاهما يعيش في محيط معادى له. وقد توجت العلاقات الحسنة بين حكام تاهرت وحكام سجلماسة بالمصاهرة بين مدرار بين اليسع من أروى بنت عبدالرحمن بن رستم.

ويتضح من هذا الأمر سيطرة تجار الأباضية على تلك المراكز التجارية منذ القرن الثالث الهجري، بحيث أصبحت لهم . اشارات واضحة عند الجغرافيين الذين زاروا المنطقة فيما بعد، كما ظهر لهم أثر واضح في نشر الإسلام في بلاد السودان، دون التركيز على الجوانب المذهبية.

(٢) طريق نول لمطة الساحلى إلى بلاد التكرور :

ازدهر طريق نول لمطة الموازي لساحل المحيط الأطلسي منذ القرن الثالث الهجرى بعد ظهور دول مستقرة في المغرب الأقصى، وبعد ترك القوافل لطرق غانة مصرعبر الصحراء بسبب طوله وكثرة عواصفه الرملية. وأصبحت نول لمطة من مراكز تجارة الذهب القادم من بلاد السودان وكذلك الملح. ولذلك فقد ارتبطت بعلاقات وثيقة مع مدينة فاس شمالاً وموانىء سبتة ومليلة وجزر البحر المتوسط. وانعكس هذا الازدهار الاقتصادي في امتداد العمران بها رغم إحاطتها بالصحراء وتحول سكانها من البداوة إلى الاستقرار

---

(١) البرادي، الجواهر المنتقاة ، ورقة ٩٣.

أبوزكريا، المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢) ناصر، محمد، دكتور، دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب افريقيا، ص ٢٨، ومابعدها، مكتبة الضامري، مسقط.

والتحضر.[1] وتخصص هذا الطريق فيما بعد في حمل تجارة العنبر والرقيق.[2] وأصبح له أهمية سياسية بجانب أهميته الاقتصادية في زمن دولة المرابطين.

وبجانب قصر هذا الطريق، بالنسبة للطرق الأخرى الموازية له، فإن جماعات التكرور، كان لهم دور في تأمين وصول القوافل التجارية إلى أقاليمهم، خاصة وأنهم تحولوا مبكراً إلى الإسلام، وكانت لهم سيطرة واسعة على أقاليم عديدة في غرب السودان.[3]

(٣) طريق تاهرت - وارجلان - إلى كوكو :

لعبت تاهرت في عصر الرستميين دوراً هاماً في التجارة الافريقية لمدة طويلة حيث أصبحت عقدة طرق تجارية تمتد إلى الجنوب وإلى الشرق وإلى الغرب. فالى الشرق تتجه منها القوافل صوب القيروان وبلاد الجريد وطرابلس ومصر. وإلى الغرب تتجه الطرق صوب فاس وسواحل المغرب الأقصى.أما إلى الجنوب فتتجه منها القوافل إلى جهتين هما :

الأولي : صوب الجنوب الشرقي إلى وارجلان ثم إلى الصحراء الكبرى حتى تصل القوافل إلى بلاد السودان.

الثانية : إلى سجلماسة ثم غانة، وقد فصلنا هذا الأمر.

وبالنسبة لطريق تاهرت وارجلان المتجه إلى بلاد السودان عبر الصحراء الكبرى، فإنه شهد نشاطاً تجارياً عظيماً بحكم وجود مدينة وارجلان عليه ذات الأهمية الدينيةوالاقتصادية والسياسية في بلاد المغرب، وكذلك وجود تاهرت المرتبطة بالنجاح في إدارة الصفقات التجارية الكبيرة .وكانت وارجلان بحكم موقعها على شمال الصحراء الكبرى ملتقى المسافرين القادمين من الشمال الافريقي إلى واحات الصحراء وإلى بلاد

---

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢) أبو سعيد، المصدر السابق ،ص٩١. لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص٢٦٦.

(٣) مؤنس، الإسلام الفاتح، ص ١٠٤.

ناصر، المرجع السابق ، ص٨.

السودان،[1] وكانت مركزاً لتحركات القوافل في كل اتجاه، حتى خرج منها أو التقى بها أكثر من عشرين اتجاهاً، من الشمال ومن الجنوب.[1] وانعكس هذا الأمر في ارتفاع مستوى معيشة قبائلها، وأصبح أهلها من الأغنياء وتجارها من أشهر التجار،[2] . وشهدت المدينة نهضة شاملة.

وبجانب أهمية وارجلان احتلت تاهرت نفس الأهمية في التجارة مع بلاد السودان عبر الصحراء، ولعبت القبائل البربرية التى ساندت الدعوة الأباضية دوراً كبيراً في السيطرة على الطرق التى تتجه أو تخرج من وارجلان وتاهرت مثل هوارة ونفوسة وغيرهما، وامتد نفوذ تلك القبائل في الصحراء جنوباً.[3] وإلى طرابلس والقيروان صوب الشمال الشرقي، وأصبحت معظم منطقة الشمال الإفريقي مرتبطة بنشاط القبائل الأباضية المتمركزة في تاهرت ووارجلان والخاضعة لنفوذ الرستميين [4]، وزاد من أهمية هذا الأمر أن القيروان التى تعتبر حاضرة افريقية الإسلامية أصبحت ضمن تلك المنظومة من الطرق التجارية .التى امتدت إلى واحة فزان وغيرها من واحات الشمال الإفريقي ،[5] وإلى الأودية التى تمتد في تلك المناطق مثل وادي ريغ الفسيح الذي كان يستريح فيه التجار ودوابهم. وقد سيطر على طرق هذا الوادي جماعة من بني برزال ،وهم من الأباضية ، وكانت مدينتهم المسيلة التى تبعد عن تاهرت حوالى ستة أيام وعن وارجلان اثنى عشر يوماً عبر وادي ريغ . وقد أدى تبعية هذا الوادى إلى جماعة بنى برزال الأباضية إلى تأمين خروج القوافل من الصحراء صوب تاهرت ووارجلان[6]، وإذا كانت وارجلان هى البوابة الكبيرة لإفريقية [7] جنوب الصحراء فإن وادى ريغ أصبح هو صمام الأمان لها .

تتجه القوافل طريقها صوب الجنوب إلى بلاد كوكو (جوجو) ومنطقة شمال نهر النيجر، ويتم التوقف عدة مرات في الطريق في محطات للاستراحة مثل محطة تادمكة،

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١١.

(٢) الإدريسي، المصدر نفسه، ص١٢.

(٣) اليعقوبي ، البلدان، ص ١٠٣.

(٤) ابن خلدون، جـ٦، ص٩٣.

(٥) حسين، أحمد ، دور فقهاء الأباضية في إسلام مملكة مالي، ص ١٦.

(٦) ابن خلدون ، المصد السابق .

(٧) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٦.

كما ترتب عمليات التحرك لتجنب حرارة الشمس ، فيكون السير في آخر النهار، وآخر الليل اتقاء لحرارتها. ومن تادمكة يبدأ التجار الاستعداد لدخول بلاد السودان حيث توجد مدينة كوكو على بعد تسعة أيام من تادملة، وهى مدينة مزدهرة بأسواقها ومتاجرها ، ومركز هام للتجار من كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأصبحت كوكو، أهم مراكز تجارة الذهب الافريقي في العصور الإسلامية.[١]

وظل طريق وارجلان - تادمكة -كوكو هو أنشط الطرق التجارية لتجارة الذهب وسلع بلاد السودان لفترة طويلة ، خاصة أيام الدولة الرستمية في تاهرت، والتى حرص أئمتها على تدعيم علاقاتهم وروابطهم بمراكز هذا الطريق وبتجار وحكام كوكو، حتى أن أفلح بن الإمام عبدالوهاب قد فكر في زيارة بلاد كوكو، زمن والده، وحقق هذا الأمر في زمن حكمه حينما بعث سفارة على مستوى عال إلى تلك البلاد برئاسة محمد بن عرفة محملة بالهدايا.[٢] ونجحت تلك السفارة في تدعيم العلاقات التجارية بين مراكز تاهرت ووارجلان مع بلد كوكو وبلاد السودان. وقد حفلت السير والروايات الأباضية بأسماء عديدة من تجارهم ورجالها كان لهم الدور الهام في الوساطة التجارية بين بلاد السودان والعالم الإسلامي [٣]، وقد قام هؤلاء التجار بدور بارز في نشر الاسلام في تلك المناطق[٤]، وتردد أيضا ذكرهم في مختلف المصادر.

ونظراً لارتباط أغلبية التجار المسلمين بحكام كوكو وإجراء صفقات الذهب عن طريقهم ، فإن كوكو قد أصبحت أعظم مدن وأقاليم السودان العربي والأوسط، وتمكنت من الخروج عن سلطان ملوك غانة وتوقفت عن دفع الجزية، وبدأت في بسط نفوذها على

---

(١) ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا، ص ٩١.

- ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٤، ص ٤٩٥.

(٢) ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص ٣١.

(٣) ناصر، المرجع السابق، ص ١٣ ومابعدها.

(٤) من هؤلاء أبو موسى الذي قصد غانة وأنشأ حلقة للدراسة بمساعدات مالية من تجار الأباضية . والشيخ على بن يخلف الذي لفت نظر ملك مالى بإسلامه ودينه.

انظر : سير الشماخى ، جـ٢، ٥١٧.

- ناصر ، المرجع السابق ، ص ١٣ ومابعدها.

مناطق واسعة من الأقاليم المجاورة لها [1] ، وفرضت الجزية على عدة ممالك مجاورة . وظهر فيها بوضوح نفوذ التجار المسلمين الذين اختلطوا بأهلها وتشبهوا في ملبسهم بزى السودان، وانتهى الأمر بإسلام ملك كوكو في القرن الرابع الهجري [2].

(٤) طرق طرابلس وجبل نفوسة إلى السودان :

وهى الطرق التى تربط شمال إفريقية ببلاد السودان جنوب الصحراء ، خاصة السودان الأوسط والجزء الغربي من السودان الشرقي. وكان طريق طرابلس إلى بلاد الكانم هو أقصر الطرق التى تربط شمال إفريقية بالسودان الأوسط ويبدأ هذا الطريق من مراكز الأباضية في طرابلس وجبل نفوسة ، ويتجه صوب الجنوب نحو زويلة بعد ثلاثة عشر يوماً . وقد أصبحت زارية أهم مراكز هذا الطريق ومركز تجارته ومحط قوافله [3]. ومن كثرة الرحلات التجارية على هذا الطريق غلب السكان البربر عليه، خاصة بعد وفود العديد منهم على شكل هجرات مستمرة واستقروا في واحاته ومراكز[4] وامتزجوا بسكانه. واستخدم هذا الطريق في جلب أعداد كبيرة من العبيد إلى طرابلس حيث يتم توزيعهم إلى مصر والمشرق الإسلامي. وكانت واحة فزان أهم محطات هذا الطريق ، حيث توسطت الرحلة بين طرابلس وبين بلاد كانم.

كما يتوجه طريق اخر من طرابلس إلى واحة غدامس وإلى بلاد كوكو صوب الجنوب الغربي، حيث يبدأ من جبل نفوسة ومن مدينة شروس، ويتجه جنوباً إلى غدامس بعد مسيرة سبعة أيام في الصحراء، ويلتقى بعد فترة بطريق وارجلان المتجه إلى تادملة بعد مسيرة أربعين يوما. وقد ازدهرت غدامس كمركز تجاري هام بسبب وقوعها على هذا الطريق الذى يتصل بتجارات السودان الغربي الهامة خاصة من الذهب .

---

(١) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ٢٢ .

(٢) الإدريسي، المصدر السابق ، ص ١١.

(٣) اليعقوبى ، المصدر السابق ، ص ٩٨.

(٤) الجنماني ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧.

(٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٧ ، ص ١٢٢ .

هذا، وقد واجهت القوافل التجارية العاملة بين شمال إفريقية وبلاد السودان العديد من الصعوبات الطبيعية والصعوبات السياسية ، نذكر منها ما يلي:

أولا : الصعوبات الطبيعية :

١ - ندرة المياه في الصحراء الواسعة .

فمن المعروف أن منطقة الصحراء الإفريقية الكبرى تعد من أشد مناطق العالم جفافاً، خاصة العروض الوسطى من الصحراء. فتندر بالتالى الحياة النباتية والحيوانية [١]. وهى عملية شاقة للتجار والمسافرين ودوابهم، قد تعرضهم للموت عطشاً . وبسبب خبرة العرب والبربر في تلك الصحراء فإنهم قاموا بحفر آبار على طول الطرق التى تخترق الصحراء ، في المسافات التى تبتعد عن الواحات [٢]. لكن ظلت مسالة السيطرة على تلك الآبار محل نزاع مستمر بين القبائل البربر من أجل الاستفادة من عوائد التجارة المارة. كما أن التجار أهتموا بتلك المسألة أيضا فاصطحبوا معهم الأدلاء لمعرفة الطرق والآبار ، كما أنهم خصصوا نسبة كبيرة من الدواب لحمل المياه [٣]، قد تصل إلى النصف.

٢ - البرودة القارسة :

فمن المعروف أن مناخ الصحاري الداخلية مناخ متطرف قاري ، حيث يميل المدى الحراري إلى الارتفاع وقد يزيد متوسط هذا المدى عن ثلاثين درجة في اليوم والليلة ، الأمر الذي يجعل فصل الشتاء على تلك الطرق في غاية البرودة. وتتعرض قوافل التجارة للبرودة ليلاً . كما أن واحات الشمال الافريقي مثل وراجلان وتاهرت[٤]. وفزان تدخل أيضا في نطاق البرودة الشديدة في فصل الشتاء.

(١) أبو عيانة ، المرجع السابق ، ص ٤٤٩ ومابعدها .

(٢) مثل واحة كوار وفزان وغيرهما.

أبو سعيد ، كتاب الجغرافيا، ص ١١٤ ومابعدها.

(٣) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١.

(٤) يقول الشاعر القاهرتي أبوبكر بن حماد في ذلك :

ما أطول البرد وريعانه ∴ وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا مابدت ∴ كأنما تنشر من محت

فنحن في بحر بلا لجة ∴ تجري بنا الريح على السمت

- ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٨ .

٣ - الحرارة الشديدة :

فبسبب وقوع منطقة الصحراء الكبرى الإفريقية ضمن العروض المدارية الجافة بين خط الإستواء ومدار السرطان شمالاً، ترتفع درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً خاصة فى فصل الصيف حتى تصل إلى ٥٨ درجة في بعض مناطقها ، حيث سجلت تلك الدرجات حديثاً فى إحدى واحات ليبيا . ويساعد على اشتداد درجة الحرارة قارية المكان وبعدها في الداخل عن المسطحات المائية . وقد أدى ذلك إلى قيام التجار وقوافلهم بالتحرك في أوقات مغيب الشمس عند الفجر وبعد العصر. وقد أدت تلك الحرارة إلى إزهاق أرواح العديد من دواب القوافل وأفرادها .

٤ - العواصف والرياح والزوابع الرملية : [١]

تتعرض الصحراء عموماً للزوابع والعواصف من حين لآخر بسبب تحرك مناطق الضغط الجوي، ويساعد على شدتها تفلك التربة وعدم وجود غطاء نباتي ، الأمر الذي يساعد على شدتها وسرعتها ، وقد تؤدى برمالها الناعمة إلى طمس الطرق والدروب وإلى إتلاف أمتعة المسافرين وإلى نفور الإبل والدواب، وقد تؤدي أحيانا إلى هلاك قوافل تجارية كاملة .

٥ - التعرض لهوام الأرض والحيوانات المفترسة :

تعبر القوافل في رحلتها الطويلة مناطق واحات ومرتفعات وغابات وهى بيئة مناسبة لوجود أعداد كبيرة من هوام الأرض والحيوانات المفترسة مثل النمور والأسود ، خاصة في المناطق الخالية من السكان . ولذلك كانت القوافل التجارية تسير في أعداد كبيرة يصل بعضها إلى أكثر من اثنى عشر ألف راحلة حتى تتمكن من مواجهة تلك الأخطار . وتروي المصادر الأباضية أن موضع مدينة تاهرت التى بناها عبدالرحمن بن رستم كان مرتعاً لأنواع من السباع والوحوش داخل الغابات الكثيفة ، بحيث اقتضت الضرورة اقتلاع ذلك كله وانتهى الأمر بحرق الغابة وتسوية الأرض وتهيدها للبناء . وكذلك كانت معظم مناطق وأودية إفريقية الشمالية [٢].

---

(١) تعرف بأسماء محلية في كل منطقة بالصحراء : الخماسين في مصر. الهرمتان في ليبيا. السيروكو في الجزائر.

(٢) الباروني ، الأزهار الرياضية ، جـ٢ ، ص ٦ . البلادري ، جـ٢ ، ص : ٢٣٠ .

ثانياً : الصعوبات السياسية والأمنية :

رغم وجود دول إسلامية واضحة الحدود والمعالم في الشمال الإفريقي ، فإن منطقة الصحراء وبلاد السودان لم تعرف نظماً سياسية متمكنة من فرض هيبتها ونفوذها الواضح على أقاليمها وشعوبها داخل حدود واضحة المعالم . حتى أن الباحث يلاحظ تعدداً في أنظمة حكم بلاد السودان وحكام الأقاليم بين مصدر وآخر ، الأمر الذي عرض منطقة السودان لغزوات مستمرة من قبل جماعات بعضها ضد البعض الآخر في أغلب الأحيان فكل جماعة أو قبيلة من قبائل بلاد السودان عاداتها وتقاليدها ونظمها ، وبمجرد شعور إحدى تلك القبائل بقوتها فإنها ما تلبث أن تمد نفوذها على المناطق المجاورة لها .

انعكس هذا الأمر بصورة سلبية على حركة القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان ، حيث كان من الصعب على تلك القوافل التعامل بصورة محددة مع نظام سياسي معين، حتى بداية العصور الحديثة ، الأمر الذي جعلها تعتمد على جاليات عربية أو بربرية داخل نطاق تلك المناطق ، يتم الاتفاق معها عبر شبكة من الوسطاء البربر والعرب يقومون بتلك المهام [1] ، مهمتهم الأساسية تسهيل وصول القوافل إلى بلاد السودان وترتيب نزولهم ، وكانوا يجنون من وراء ذلك أرباحاً كبيرة لأهميتهم في التعامل بين الطرفين وتفادي وقوع العديد من المشاكل .

ورغم ذلك فقد واجهت القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان العديد من الصعوبات الأمنية ، فكثيرا ما تعرضت لجماعات زنجية مهاجرة من الغابات الإستوائية صوب الشمال ، وكان من الصعب التفاهم مع تلك الجماعات ، وبعض تلك الجماعات وصف بأنهم من أكلة لحوم البشر . مما أدى إلى قيام القوافل بإسناد مهمة حماية أمنها وتحركاتها إلى قبائل بربرية لها خبرتها في تلك المناطق .

لكن تلك الصعوبات العديدة التى كانت تعترض التجارة ، كان يهون أمامها العوائد الكبيرة التي كانت تجنيها من تجارة بلاد السودان حينما تعود تلك القوافل محملة بالذهب والأحجار الكريمة والعنبر وريش النعام ، وغيرها من سلع بلاد السودان ، وهي سلع لها أهميتها عند شعوب البحر المتوسط وأوروبا في تلك الفترة . وارتبطت شهرة

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٨٧.

وارجلان [1] وتاهرت وسجلماسة وغيرها بتلك السلع .

★ ★ ★

قضيـــة تجـــارة الـــرقيـــق الإفـــريقي :

ورغم شهرة بلاد السودان بالذهب ، إلا أنها ارتبطت في التاريخ بصورة عامة بتجارة الرقيق [2] حتى العصور الحديثة ، وكان لابد علينا أن نوضح مفهوم تجارة الرقيق في العصور الإسلامية بعيداً عن الصورة التى ترددت في المصادر الغربية

لقد نشطت تجارة الرقيق الإفريقي في العصر الإسلامي ، خاصة في عصور الخلافة العباسية بفعل عوامل اقتصادية وإجتماعية وسياسية ، وتمكنت قوافل التجار من جلب أعداداً كبيرة منهم عبر دروب الصحراء الشاقة ، لتمتلأ بهم أسواق تاهرت والقيروان وفاس وسجلماسة ووارجلان وطرابلس والفسطاط وغيرها من موانىء افريقية الشرقية ،

---

(١) يقول أحد علماء وارجلان وشعرائها وهو أبو يعقوب ، يوسف ، من القرن السادس الهجرى في وصف سلعها وخيراتها وأخطار تجارتها :

جزى الله وارجلان خير مـــاجـــزى ∴ بهـ بلـــداً عن طالـب الخير سائر
هو جنة الدنيـــا وأبـواب مكـــــة ∴ ومعـــدن تبـــر غـــانـــة والـدنانر
فمن كان يبغى الحج فليأت وارجلان ∴ يجـد سبلـها رحبـاً وخفرة خافر
فلا وجود للـــدنيـا لمـن قل مالـــه ∴ ولا مـــال إلا مـــا أتى بالمتـاجر
ويفتـــخر الجال بالمـــــال والنـــدا ∴ وقد ســـرقـــوها من جميع المخاطر
ولن يكسب المال الحـــلال سوى أمرء ∴ يجـوب الهـــوامي نحـو غانة صابر
وليس يهاب الحـــر والقر والشـــوا ∴ ولا الشمس ولا الظلماء ذات الدياجر
ويستصغر الأهوال من حيث أقبلـت ∴ ولو أنـــها أمثـــال وخـــز الخنـــازر

انظر بكير ، الدولة الرستمية ، ص ٢٢٣/٢٢٢ .

(٢) وصف رقيق السودان عند الجغرافيين المسلمين بقولهم :

" الخدم السود الذين يباعون في بلدان الإسلام فهم ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة، إلا أنهم على حدة أشد سواداً من الجميع "

أنظر : الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٣٥ .

واستأنفت تلك الأعداد طريقها إلى مناطق عديدة من العالم الإسلامي [١] مشرقه ومغربه وشماله إلى جنوبه .

ورغم تجاهل صفحات التاريخ الإسلامي لدورهم في الحياة الإقتصادية والاجتماعية إلا أن هناك إشارات واضحة على تأثيراتهم في المجالات الاقتصادية والإجتماعية السياسية وظهرت ثوراتهم في التاريخ الإسلامي منذ القرن الأول الهجري ، حينما تحولت أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام ولمسوا مبادئه وعدالته [٢] .

ففي سنة ٧١ هـ ظهرت إشارات إلى ثورة منهم في البصرة ، في أواخر أيام مصعب ابن الزبير في العراق، حينما اجتمع منهم عدد كبير وشرعوا في الثورة والتمرد ، فانبري والى البصرة خالد بن عبدالله بحربهم [٣]. وفي زمن الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق ، ثار الزنج وولوا عليهم رجلا منهم يسمى رياح أو رياح ، ولقب بشير زنجي ، أى أسد الزنج، لكن الحجاج أرسل إليهم زياد بن عمرو الذى أرسل ابنه من قبله على رأس جيش لقتالهم ، فلما هزموه ، أرسل زياد جيشاً آخر أباد الزنج .[٤]

ومع الثورة الحضارية التي شملت العالم الإسلامي في العصر العباسي ، وما ترتب على ذلك من ازدهار الحياة الاقتصادية لمناطق الخليج العربي والعراق بصورة خاصة . والعالم الإسلامي بصورة عامة ، أصبحت هناك حاجة ماسة لاستقدام أعدادا كبيرة من الرقيق للأعمال المختلفة في مدن ومراكز العالم الإسلامي ، وتنوعت مصادر جلب هؤلاء الرقيق لكن رقيق بلاد السودان كان أهم هؤلاء الرقيق أثراً على مستوى العالم الإسلامي .وقد تنوعت المصطلحات التى أطلقت على رقيق السودان ، أو عبيد افريقية ، فقد سماهم ابن حاقان باسم الزنجٌ وأطلق عليهم أبو حامد الغرناطى اسمٌ بنى قوقوٌ، ونعتهم ابن القطان باسمٌ جناوةٌ وهو الاسم الذي ورد عند ياقوت الحموي في معجمه، كما ظهر لهم في بعض المصادر اسم المماليكٌ [٥]. وقد أدى الإكثار من الرقيق إلى عوامل منها :

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

(٢) علبي ، أحمد ، الزنج ، صلبان التاريخ الإسلامى ، مجلة العربي ، العدد ٢٤٢ ، ١٩٧٩م ، ص ١٥٥ ومابعدها .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤، ص ٣٨٨. (٤) ابن خلدون ، العبر ، جـ٣ ، ص ٩٨ .

(٥) المقري ، ازهار الرياض ، جـ٥ ، ص ١٤٢ .

١ - حاجة قصور الحكام والأثرياء إليهم في خدمات البلاط أو القصور .

٢ - تحول مجتمعات ومدن بلاد المغرب إلى الاستقرار وحياة الترف منذ نهاية القرن الثاني الهجري ، مما أدى إلى الإعتماد على الرقيق في الأعمال المنزلية من مختلف فئات المجتمع المغربي ، وكذلك الأندلس ومعظم مناطق العالم الإسلامي.

٣ - حدوث نهضة اقتصادية خاصة في مجال الزراعة وعمليات استصلاح الأراضي في المرتفعات وإزالة الغابات ، مما استدعى الاستعانة بأيدى عاملة جديدة في قطاع الزراعة .

٤ - استغلال أعداد كبيرة من الرقيق كقوات حربية من قبل الدول المتعددة التى ظهرت في منطقة شمال المغرب ، وهى دول متنافرة سياسياً ومذهبياً من أغالبة سنة في القيروان ، ورستميين أباضية في تاهرت ، ومدراريين صفرية في سجلماسة، وأدارسة شيعة في فاس ، ورغم عدم نشوب حروب طويلة بين تلك الأطراف إلا كل طرف كان حذراً من الأطراف المحيطة به .

٥ - استخدام الرقيق كحراس وأدلاء للقوافل التجارية .

٦ - الاستعانة بهم في عمليات تحميل وتفريغ القوافل والبضائع التى تجلبها .

لقد كانت منطقة غرب افريقية ، منجماً لثروات بلاد المغرب ، فقد تأسست ثروات دول المغرب على انتفاعها بالتجارة مع غرب افريقية عبر الصحراء ، وجنوا من وراء ذلك الثروات الطائلة وتطورت مدنهم وقرارهم فبنوا القصور وتحول سكان مدنهم إلى مرحلة الترف فاكتظت دور وقصور الحكام ورجال الدولة بالرقيق خاصة الكتاب والوزراء والقضاة والولاة، حتى أصبحت عادة امتلاك . العبيد من الأمور العادية عند أهل المغرب والأندلس . كما امتلك هؤلاء مساحات واسعة من الأراضي الزراعية أو الصالحة للزراعة وكان لابد من الاعتماد على أعداد كبيرة من هؤلاء الرقيق في تلك المزارع والبساتين لفلاحتها[١].

---

(١) أبو حامد الغرناطي ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

واستخدم أيضا الرقيق في الأعمال الدفاعية والحرفية ، فقد تميزوا بالشجاعة والقوة في الحروب وتحمل أهوالها ، وأثبت بعضهم تفوقا في العمليات الحربية وفي تسديد الضربات ضد الأعداء [1]، حتى جاءت دولة المرابطين بعد ذلك لتعتمد عليهم بصورة كثيفة ، بحيث أجبر الأمير على بن يوسف رعيته على تقديم عدد من السودانيين الذين يعملون كخدم في المنازل إلى جيشه ، مع ضرورة الانفاق على تسليمهم وتوفير مايلزمهم من المؤن والعتاد من أجل تكوين جيش كبير ضد القوى المسيحية التى تهدد الأندلس .

وظهر الاعتماد عليهم في مجال خدمات القوافل من حيث أعمال التحميل والتفريغ وأعمال الحراسة والدلالة ، وهي أعمال كانت مناسبة لهم ، خاصة في ظل ازدياد أعمال القوافل المتجهة إلى غرب افريقية وزيادة نشاطها ، ويذكر أحد الجغرافيين صورة لتجار أودغشت أن لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم أو أكثر [2] كما زادت الأعمال المرتبطة بالتجارة في مدن وأسواق بلاد المغرب، وكان لابد لتلك القوافل من توفير حراسة لها في ظروف صعبة عبر الوديان والصحاري والقفار . وكان لهؤلاء أيضاً خبرة في معرفة دروب إفريقية جنوب الصحراء .

لكن الأعداد الكبيرة منهم ظلت مرتبطة بالخدمة في البيوت ، حتى كثرت أعدادهم بصورة واضحة وأصبحوا عبئاً ثقيلاً في بعض الأحيان .[3] واشتهرت بعض السودانيات باتقان أصناف من الحلوى مثل القطائف والهريسة وغيرها من صنوف الطعام ، كما ظهرن في البيوت والقصور كجوارى لجمالهن .

وبعد فترة ظهرت في بلاد المغرب شكلا جديداً من أشكال الرقيق ، الذى ترتب على الحملات لعسكرية ضد ممالك الأندلس المسيحية منذ نهاية القرن الرابع الهجري .

حتى أن الأمير المرابطي على بن يوسف رجع من إحدى حملاته العسكرية سنة ٥٣٢هـ مصحوباً بسبعة آلاف من السبى . وقد انخفض سعر بيع العبيد في تلك الفترة نتيجة لكثرة السبى في المعارك . ومن الرقيق البيض والسود امتلأت بيوت أهل المغرب

---

(١) المغرب ، ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣) السقطى ، رسالة في الحسبة ، ص ٤٩ = ٥٠.

حتى بيوت الفئات المتوسطة والشعبية أحيانا.

ويتضح أن أوضاع عبيد بلاد المغرب في زمن دولة الرستميين وما بعدها كانت حسنة ، حتى أننا لم نسمع في المصادر على ثورات ضد أسيادهم ، كما وقع في منطقة البصرة ، في القرن الثالث الهجري ، فقد كان العبيد يتصرفون بحرية بين أيدى أسيادهم، ويذكر النويري أن أحد القضاء اتصل بعبد ليتوسط له عند سيدته زوجة أحد الأمراء من دولة المرابطين من أجل رده إلى منصبه الذي عزل منه[1].

كما حالف الحظ بعض العبيد وحصلوا على حريتهم ، وقد تعددت المناسبات والفرص التى كانت مدعاة لعتقهم ، سواء من الكفارة التى دعت إليها الشريعة الإسلامية ، أو الانتصار في معركة من المعارك ، ففي معركة الزلاقة تم عتق الآلاف من الرقاب . وكذلك كان بإمكان بعض العبيد أن يحصلوا على حريتهم بعد أن يثبتوا بالدليل والحجة حريتهم ، فكان بمقدور العبد الحصول على حريته بالمال ، أو بوصية من مولاه .

ويبدو من تفحص بعض النصوص أن هناك أعداداً منهم عاشت في ظروف اجتماعية وصحية بائسة، فقد سخر البعض في الأعمال المنزلية بلا انقطاع ، كما أصبح البعض عرضة للأمراض الفتاكة التى أودت بحياة معظمهم ، وخاصة في ظروف الاضطرابات السياسية التى شهدتها بلاد المغرب في نهاية القرن الثالث الهجري ، وكذلك في نهاية عصر دولة المرابطين ، حتى أن عبدا في الأندلس قد أقدم على قتل أحد الفقهاء .[2]

وبالنسبة لبقية أرجاء العالم الإسلامي فإن الرقيق السوداني. قد ظهر بدوره بعد انتهاء العمليات العسكرية في الفتوحات الأولى التى تمت بصورة أساسية في القرن الأول الهجري ، ولم يكن من السهل تمويل العالم الإسلامي بالأعداد المطلوبة منهم ، في ظل تسامح الشريعة الإسلامية ، الأمر الذى أدى إلى انصهارهم في المجتمع الإسلامي وذوبانهم بين طبقاته بمرور الزمن .

وأصبحت مناطق بلاد السودان ، وإفريقية جنوب الصحراء، هى المنجم الأساسي

---

(١) نهاية الأرب ، جـ٢٤، ص ٢٦٦ ، القاهرة ، ١٩٨٣م.

(٢) ابن الحاج ، النوازل ، ص ٢٤ .

لحليب الأعداد المطلوبة منهم بصورة مستمرة ، قبل أن تظهر مصادر أخري للرقيق في بلاد الصقالبة ومناطق القوقاز .[١]

ويمكننا تقسيم معابر تجارة الرقيق الإفريقي إلى العالم الإسلامي كما يلي :

أولا : معابر الصحراء الكبرى إلى شمال افريقية .

وهو منفذ جلب الرقيق الإفريقي من بلاد غرب السودان ووسط السودان ، إلى أسواق تاهرت ووارجلان والقيروان وطرابلس وسجلماسة وفاس والأندلس [٢] ، حيث توجد مراكز تجميعهم في عواصم ومدن شمال افريقية ، بعد جلبهم من بلاد التكرور والنيجر الأعلى . واعتمد حكام غانة وجاو ومالى على قبائل افريقية بدائية تخصصت في التوغل في الغابات والأدغال وتوفير الأعداد المطلوبة من العبيد بكافة الحيل. وكانت أسواق تاهرت أشهر أسواق الرقيق الإفريقي على الإطلاق ، بسبب تحكم تجار الأباضية في مراكز جلبه وتجارته ، واعتماد هؤلاء التجار على قبائل بربرية موالية لهم لتأمين تجارته ، وقد وصل نفوذ هؤلاء التجار في كثير من الأحيان إلى أسواق مصر عبر برقة .[٣]

ونتيجة لذلك أصبح للعبيد الأفارقة دور واضح في مجالات الحياة في دول بلاد المغرب خاصة دولة بنى واسول الصفرية ، وتاهرت الرستمية وكان لهؤلاء العبيد دور في التخفيف من ضغط القبائل البربرية والعناصر العربية التى ساهمت في بروز كيانات سياسية في الشمال الإفريقي ، حيث تم الاستعانة بهم كجند وحرس للولاة والحكام ، بجانب أعمالهم الأخرى في الأعمال التجارية والمنزلية وأعمال الفلاحة والمهن الأخرى .

ثانياً : معبر النوبة - مصر :

حيث يتم جلب أعداد كبيرة من الرقيق من مناطق أعالي النيل وبلاد البجة ومناطق السودان الشرقي والبحيرات التى تقع إلى جنوبه . وكان هذا الطريق هو المعبر الأساسي لدخول النوبيين والأحباش إلى مصر منذ البداية بالإضافة إلى اشتراك بعض مواني البحر

---

(١) لومبارد ، الجغرافية التاريخية ، ص ٢٦٥.

(٢) الجنحاني ، المغرب الاسلامي ، ص ٣٠ .

(٣) لومبارد ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ .

الأحمر لمساندة هذا الطريق في بعض فترات التوتر والاضطراب في بعض مناطقه.

وقد لعبت الأديرة القبطية في مصر ، في عصر ما قبل الإسلام ، دوراً في انتشار عمليات إخصاء العبيد [١] ، التى انتشرت بعد ذلك على نطاق واسع ، وساهم فيها تجار الرقيق خاصة العبيد العاملين في المنازل .[٢] كما اشتهر هذا الطريق بجلب أعداد النوبيين حسب معاهدة البقط، منذ اتفاق عبدالله بن أبي السرح من حاكم النوبة ، وما اشتملت عليه من إرسال اعداد محددة من أبنائهم كل عام إلى والي مصر .[٣]

ثالثا : موانىء البحر الأحمر والقرن الإفريقي :

حيث يجلب منها العبيد من مناطق السودان الشرقي والحبشة والصومال إلى مدن وموانىء الحجاز واليمن ، وقد اشتهر ميناء زيلع بهذا الأمر في العصور الإسلامية ، بعد تجميع العبيد في منطقة بربرة . واعتبر ميناء عدن أهم الموانىء التى يتم استقبال العبيد من تلك المناطق بها ، حيث أصبح هناك أسواق مخصصة في الميناء للعبيد .

ونظرا لشهرة أسواق عدن المتخصصة ببيع العبيد والجواري ، فقد قدم إليها التجار من الإسكندرية وموانىء البحر الأحمر والمحيط الهندي لجلب الجواري والعبيد منها. وأصبح هناك نظماً متبعة للبيع والعرض .[٤]

---

(١) تتم عملية الإخصاء للعبيد ببتر الأعضاء التناسلية للعبد، وذلك على مرحلتين الأولى بشق الصفن لاستخراج الخصيتين ، ثم بتر القضيب بعد ذلك على لوح خشبى مع وضع أنبوب رصاصى أجوف للحفاظ على فتحة البول بعد التحام الجرح ، وقد انتشرت تلك العملية في العصور الوسطى. ومن أشهر الخصيان كافور الاخشيد الذي حكم مصر ، وأسس الدولة الاخشيدية بها . وفيه يقول المتنبى :

صار الخصى إمام الآبقين بها ∴ فالحر مستعبد والعبد معبود

ومن المعروف أن هناك تغيرات فسيولوجية ونفسية تطهر على العبد بعد إجراء تلك العملية تجعل العبد يفقد العديد من صفات الرجولة والذكورة.

- لومبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥ (هامش)

(٢) لومبارد ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٣) سيتم تفصيل ذلك في الفصل الرابع من الكتاب.

(٤) وذلك بأن تبخر الجارية وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمنزر ، ويأخذ المنادي بيدها ويدور بها =

رابعاً : سواحل إفريقية الشرقية :

أصبحت تلك السواحل أهم منافذ تجارة الرقيق الإفريقي للمشرق الإسلامي، منذ بداية العصر العباسي ،وأصبحت موانىء الخليج العربى هى أهم الطرق لحمل الرقيق إلى مناطق العراق والمشرق الإسلامي. رغم ظهور أهمية لتلك السواحل منذ العصر الأموي ، إلا أن الإزدهار الاقتصادي الكبير الذي عم العالم الإسلامي في العصر العباسي زاد من حاجة سكان المدن الإسلامية لجلب أعداد جديدة من العبيد بصورة مستمرة ، لاستخدامهم في استصلاح الأراضي البور ، البطائح، وكذلك في أعمال الموانىء مثل الشحن والتفريغ

وأصبح ميناء البصرة أهم مركز لتجمع الأعداد الكبيرة من الرقيق الإفريقي، الذي أصبح عصب الحياة الإقتصادية في العالم الإسلامي . وأدت كثافة الرقيق في البصرة إلى قيامهم بثورتهم الشهيرة العارمة في جنوب العراق والتي استمرت حوالى أربعة عشر عاما (٢٥٥ - ٢٧٠هـ/٨٦٨- ٨٨٣م) وتمكنوا خلالها من احتلال جنوب العراق [١]، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تسمى المختارة، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بغداد ، حتى تمكن الخليفة العباسي المعتضد من مواجهتهم. [٢]

وقامت سفن أهل عمان[٣]، بدور كبير في هذا المجال نظراً لانتشارهم الواضح على سواحل إفريقية الشرقية، ودورهم الملموس بين أهل البصرة ،بالإضافة إلى موقع بلادهم المتوسط بين الجانبين .[٤]

ومع بداية العصور الحديثة نشطت السفن الأوروبية في شحن أعداد هائلة من العبيد

= وينادي عليها ويحضر التجار يقلبونها ويتم تحديد السعر بعد ذلك . وإن حدث بينهما خلاف يتم إحالة الموضوع عند الحاكم.

انظر : ابن مخرمة ، أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله ، تاريخ ثغر عدن ، ص ٦٦، مكتب مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية ، سنة ١٤١١هـ/سنة ١٩٩١م.

(١) الطبري ، تاريخ ، جـ٩، ص ٦٦٣ .

(٢) علبي ، أحمد ، ثورة العبيد في الإسلام ، ص ١٠٠ وما بعدها ، بيروت ، ١٩٨٥.

(٣) سيتم تفضيل هذا الدور في الفصل الخامس .

(٤) أبو العلا ، المرجع السابق ، ص ٨ .

إلى العالم الجديد ، وشهدت البشرية أفظع صور القسوة في عمليات جمع العبيد وترحيلهم وشحنهم عبر المحيط الأطلسي، حتى قدرالبعض أن عمليات تفريغ للقوى البشرية قد تمت في تلك الفترة ، الأمر الذي أفقد الشخصية الإفريقية هويتها في ظل صور الرعب والإهانة التى ألحقت بها على يد تجار أوروبا . ورغم ذلك ظهرت دعوات جديدة في أوروبا بتحريم تجارة الرقيق لأسباب إنسانية ، وسارعت دول أوربية لتأييد تلك الآراء من أجل تحقيق مكاسب اقتصادية ، خاصة بعد وقوع الإنقلاب الصناعي وحرص دول أوروبا على تفريغ السوق أما تصدير الآلات التى تنتجها مصانعها .

ومنذ القرن التاسع عشر بدأت بريطانيا في مطاردة سفن التجار التى تتردد على موانىء شرقي افريقية لحمل العبيد إلى مناطق العالم الإسلامي الأخرى . وقد اتخذت بريطانيا من هذا الأمر وسيلة لبداية فرض نفوذها على شرقي إفريقية.[1]

وإذا كان الدور الإسلامي قد ظهر بجلاء في احترام للقيم الإنسانية في مسألة التجارة الأفريقية وحرصه على الأمانة في المعاملات ، حتى وصف لومبارد تجار الأباضية في بلاد السودان الغربي بأنهم خبرتهم التجارية " حاذقة وشريفة في المعاملات" كما ظهرت إنسانية الدور الإسلامي في تجارة الرقيق الإفريقية ، أمام الصورة البشعة التى اقترنت بتلك التجارة على يد الأوروبين حديثاً.[2]

من جهة ثانية أفسح المسلمون المجال في التجارة الإفريقية أمام فئات التجار من مختلف الأصقاع والأديان في ظل حرية التجارة ونزاهة المعاملات . وكان التجار اليهود[3] أكثر التجار من غير المسلمين نشاطاً في مجال التجارة الإفريقية ، في ظل تسامح حكام الدول الإسلامية التى تتحكم في منافذ وطرق التجارة مع بلاد السودان . خاصة حكام تاهرت من الأباضية ، وحكام سجلماسة وفاس وقرطبة.

ومن مظاهر هذا التسامح والحيوية التى تمتع بها التجار والوسطاء اليهود في ظل

---

(١) العقاد ، زكريا ، زنجبار ، ص ٩١.

(٢) قداح ، نعيم ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في افريقيا الغربية ، ص ٢٠٣ ومابعدها ، الطبعة الثانية ، الجزائر ، سنة ١٩٧٥م.

(٣) كان الأساس الذي أدى إلى انتشار اليهود منذ عصور ما قبل الإسلام على خطوط التجارة =

الدول الإسلامية ، ظهور جاليات يهودية كبيرة في معظم مراكز التجارة في إفريقية ، وقيامهم بدور هام في مجال التجارة والمياه الإقتصادية ، حتى أن بعض تلك الجاليات قد تمكنت من احتكار بعض التقنيات الصناعية في بعض المراكز مثل تصنيع المعادن .

الثمينة والصياغة والدباغة وصناعة الزجاج ، وازدهر دور تلك الجالبات مع ازدهار الحياة الاقتصادية ، ففي القيروان أصبح لليهود سوق بها ودكاكين خاصة بحرفهم ، وأخذوا مع النصارى في الإلمام بتجارة الزيت في المدن الساحلية بإفريقية وجزر البحر المتوسط [1] وفي تاهرت الرستمية ، التي شكلت قلباً للتجارة الإفريقية ، فكان لليهود درب خاص بهم في المدينة يعرف بدرب الرهادنة [2] وكانوا يسافرون من المغرب إلى

= هو الضربات التي نالتهم على يد حكام بلاد الرافدين مثل بنوخذ نصر البابلي وسرجون الآشوري ، بالإضافة إلى الضربات القوية التي نالتهم من الرومان فيما بعد. بعد أن وصلت مكانتهم إلى المجد زمن داود وسليمان. فتشتت اليهود في البلاد على شكل جاليات استقرت على طرق التجارة البرية والبحرية ، فوصلت مجموعات منهم إلى موانىء شمال إفريقية والأندلس وإلى موانىء البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي . كما نزحت جاليات منهم واستقرت على الطرق البرية التي تربط أواسط آسيا والمشرق بمناطق أوروبا ، وكذلك على الطرق البرية بين شمال افريقية وبلاد السودان . وبمرور الزمن تمكنت تلك الجاليات من إحكام سيطرتها حركة مرور السلع ، رغم ظروفها السياسية الصعبة .

وفي عصر الرومان زاد اضطهاد الأباطرة الرومان لليهود ، فأدى ذلك إلى الضغط عليهم واتجاههم إلى مراكز صحراوية في جزيرة العرب وإلى عبورهم باب المندب للاستقرار على الهضبة الحبشية وساحل أرتيريا . كما سلكت جماعات يهودية طرق الصحراء واستقرت داخل الواحات الإفريقية الممتدة من غرب مصر إلى بلاد والمغرب الأقصى.

ولم يشهد اليهود تسامحاً وأحتراماً من قبل الدول والحكومات القديمة مثلما شاهدوه على يد المسلمين الذين التزموا في علاقاتهم معهم بالشريعة الإسلامية ، فعاش اليهود في ظروف حسنة ، وانطلقوا إلى المساهمة في الإنشطة التجارية والإقتصادية والمشاركة في مجالات الحياة الإسلامية العامة .

انظر : المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٤٨ ومابعدها ، المكتب الثقافي الهندي ، بيروت ، سنة ١٩٨٥م – لومبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠ – ٢٧٣ .

(١) الحنجاني ، المرجع السابق ، ص ٩٠/٩١

(٢) هم اليهود الذين يتكلمون اللغات العربية والفارسية والرومية وغيرها. وأصولهم غير إفريقية ،

المشرق في حرية وأمان ويجلبون سلع المشرق إلى المغرب ويحملون سلع المغرب من الخدم والجواري والديباج والجلود إلى المشرق وأوروبا جريا وراء الربح والتجارة [1]. كما شاركهم نفس الدور التجاري النصارى في تاهرت والقيروان وسجلماسة وغيرها من مراكز التجارة الإفريقية .

وتمكنت تلك الجاليات من كسب ثقة التجار والحكام في مجال التعاقدات التجارية وعمليات الإقراض ، وتمكن اليهود من خلق تنظيم تجاري وإجتماعي يؤلف بينهم ويقوى مركزهم ، يتألف هذا التنظيم من كفلاء ومراسلين وبيوتات تجارية ذات فروع عديدة وتتمتع تلك التنظيمات برعاية حكام دول المغرب الإسلامي ، لما لمسه هؤلاء الحكام من دور اليهود في مجال التجارة الخارجية وانسياب حركة السلع التجارية كما كان لدى اليهود نظماً متقدمة في مجال التسويق والإئتمان ، فلديها ساع مهمته إعلامها بسرعة وصول القوافل التجارية مع تقرير عن حمولة القافلة وسلعها وعدد أفرادها وإمكانياتها بالتحديد ، ويشرف على العقود والأسواق ، وعملاء لايواء التجار والمسافرين في فنادق ونزل ، وحكام للفصل في المنازعات التجارية ومعقب لافتداء الأسرى . الأمر الذى أعطى لليهود مكانة بارزة في اقتصاد تلك الدول الإسلامية .[2]

ومهما يكن من أمر فإن هذا الجو الإسلامي المتسامح هو المناخ الذي استغله اليهود لتحقيق تلك المكاسب والنظم بعد أن لمسوا عدالة المسلمين وتسامحهم ، بعد أن ذاقوا الآلام والاضطهاد في ظل الحكومات والأمم الأخرى .

واستغل اليهود المناخ الإسلامي ليحتكروا تجارة السلع المربحة مثل المنسوجات الحريرية وتجارة الحبوب بالجملة من مصر ، وتجارة السكر من الشرق خاصة من العراق والهند ، وتجارة التوابل من ساحل مليبار بغرب الهند ، بالإضافة إلى الذهب الإفريقي والمعادن الثمينة ، كما سيطروا على تجارة الرقيق والجواري [3] وتحكموا في بعض الأحيان

---

(١) ابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) لومبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦.

(١) حقق الوسطاء اليهود أرباحاً كبيرة من تجارة الرقيق السوداني والمغربي ، فقد كان يتم شراء العبد أو الجارية بسعر زهيد ويتم بيعه بأسعار غالية في مصر والمشرق الإسلامي، ورغم تذبذب أسعار تجارة الرقيق من مكان لآخر ومن عصر لآخر فإن القرن الثالث الهجري قد شهد ارتفاعاً في أسعار =

في الصرافة وحركة النقود والعملات وارتباط التجار اليهود في نفس الوقت بشبكة تجارية عالمية تمتد من الهند وفارس إلى المغرب والأندلس والراين في قلب أوروبا . وأصبحت إفريقية نقطة هامة في تلك المنظومة التجارية ، وحققت مراكزها ازدهاراً تجارياً كبيراً ، وسعى سكانها وراء التجارة والمكاسب المادية وتغيرت أنماط حياة القبائل البربرية بها ، وأصبح سكان المدن الإفريقية على درجة كبيرة من الثراء ، وظهرت مظاهر للترف واللهو ، الأمر الذى أدى إلى ظهور تيار من علماء المدن الإفريقية يذكر الناس بعواقب الانشغال بالدنيا ولهوها وحصادها والبعد عن الحياة الإساسية في المفهوم الإسلامي.

إن تجربة التجارة العربية عبر المعابر الصحراوية التى أضافها العرب بعد الفتح للخبرة البربرية في إفريقية أدى إلى نشاط الجاليات الأخرى التى ساهمت مع العنصرين البربري والعربي وبداية وضع مناطق إفريقية جنوب الصحراء في مستوى الحضارة العالمية لأول مرة وفتحت بلدانهم ومناطقهم لتيارات الحضارة الإسلامية . وأصبحت عمليات التبادل التجاري بين بلاد السودان والعالم الخارجي تتم بصورة متوازنة حسب الميزان التجاري والحضاري ، فحققت إفريقية أرباحها من وراء سلعها وكسبت جوانب حضارية جديدة انعكست عليها بظهور دول ومراكز حضارية راقية في العصور الوسطى ومازالت تلك التجربة الإفريقية موضع اعجاب من قبل الباحثين المنصفين من الأوروبيين ومن أهل القارة الإفريقية أيضاً .

ومهما يكن من أمر فإن العرب والمسلمين كان لهم الفضل الكبير في تهيئة هذا المناخ التجاري الذى ارتبط به العرب منذ العصور التي سبقت الإسلام واستمر في التطور والزدهار في العصر الإسلامي واستفاد منه الأفارقة [1] .

= الجواري بلغت في بعض الأحيان حوالى ألف دينار ، خاصة إذا كانت الجارية من المغنيات أو ذات جمال وأدب ، في الوقت الذى كان يباع فيه العبد بأقل من عشرة دنانير.

المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص١٠٠.

(١) كان للعرب خبرتهم القديمة في تنظيم القوافل وحركتها عبر الصحراء الطويلة وخلال المراكز التجارية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في بعض آياته الكريمة . فقد كان لهاشم بن عبدمناف، جد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أكبر خبرة في تنظيم القوافل . واستطاع تجار قريش عقد اتفاقيات مع القبائل والقرى المجاورة لهم والتى تمر خلالها قوافل التجارة وقد عرف ذلك باسم الإيلاف .

الفصل الرابع

امتداد الإسلام إلى جنوب الصحراء الكبرى

(١)

في السودان الشرقي

برغم اتصال مناطق السودان الشرقي المبكر بشبه الجزيرة العربية منذ القدم ، إلا أن تحول مناطقها إلى الإسلام استغرق فترات زمنية طويلة ، امتدت حتى بداية العصور التاريخية الحديثة ، ولا يرجع هذا الأمر إلى إعراض أهلها بقدر ما يرجع إلى تنوع أقاليمها وتباين تضاريسها واختلاف أنحائها وتغير أحوالها بسبب الهجرات المستمرة التى توالت في المرور بأقاليمها .

وتحدد مراحل انتشار الإسلام في السودان الشرقي في أربعة مراحل وهي :

االأولي : مرحلة الإشعاعات الإسلامية المبكرة من مصر بعد الفتح الإسلامي لها .

الثانية : اختراق الهجرات العربية لمناطق السودان ، ودور التجار المسلمون.

الثالثة : ظهور الكيانات السياسية في السودان الشرقي وجهودها لنشر الإسلام والثقافة العربية حسب امكانياتها وظروفها.

الرابعة : الغزو المصري زمن المماليك ثم محمد علي .

لقد شهد السودان هجرات عربية مستمرة في أراضيه منذ عصور ما قبل الإسلام ، ورغم ذلك ظلت عملية اختراق الجيوش الإسلامية لمناطق السودان في عصر صدر الإسلام أمراً شاقاً. فبعد أن تمكن عمرو بن العاصي من فتح مصر ووجه أنظاره صوب غربها حينما أرسل حملة إلى برقة ، فإنه بالتالي أراد أن يؤمن حدوده من الجنوب فوجه حملة إلى أرض النوبة [١] ، إلا أن تلك الحملة لم تمكن من تحقيق هدفها ، وأدرك المسلمون منذ تلك الفترة خطورة تلك المنطقة على حدود مصر من جهة الجنوب . وفي خلافة عثمان بن عفان ، عاود

---

(١) ظهرت مملكتان في أرض النوبة جنوب مصر هما : مملكة الشمال وتتكون من مريس والمقرة وعاصمة تلك المملكة دنقلة . ثم مملكة علوة وتجاورها الحبشة من الجنوب وعاصمتها سوبا وكانت تلك الممالك مرتبطة عقائديا وحضارياً بمصر منذ القدم .

- المقريزي ، الخطط ، جـ١، ص ١٩٠، ١٩١.

- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص ٣٣٥ .

واليه علي مصر عبدالله بن سعد بن أبى السرح غزو بلاد النوبة من جديد مستفيداً من حملته السابقة سنة ٢٠هـ /٦٤١م .

وكانت تلك المحاولة الجديدة سنة ٣١هـ/٦٥١م ، ووصلت تلك الحملة إلى دنقلة في الوسط [١] . ولكنها لم تتمكن من أحراز نصر حاسم على أهل النوبة ، وعادت بخسائر منى بها أفرادها حتى أن أهل النوبة سموا " رماة الحدق" من شدة الدقة في التصويب بالسهام. وإصابة العديد من المسلمين في أعينهم .

انتهى الأمر بين الطرفين الإسلامي والنوبي إلى توقيع معاهدة سميت بمعاهدة "البقط"[٢]. وكانت تلك المعاهدة فاتحة خير لبداية تدفق الإشعاعات الإسلامية الإسلامية المبكرة إلى أراضي جديدة وبصورة هادئة منذ أواسط القرن الأول الهجري. ذلك أنها أحتوت على بنود كانت من كل جهة في صالح الإسلام وثقافته . حيث جاء فيها :

١ - أن يحفظ نصارى النوبة من ينزل بلدهم أو يمر بطرقهم من المسلمين المعاهدين حتى يخرج عنهم، وأن يردوا كل من خرج إليهم من عبيد المسلمين إلى أرض الإسلام ولا يستولوا عليه . ولا يتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه .

٢ - أن يحفظوا المسجد الذي ابتناه المسلمون بمدينتهم ولا يمنعوا مصلياً وعليهم تكرمته . (وهو المسجد الذي بناه المسلمون من قبل في دنقلة .)

٣ - يدفع ملك النوبة "ملك مقرة الشمالية" إلى بيت المال في مصر ثلاثمائة واثنين وستين رأسا من الرقيق من أبناء مملكته كل عام ، وإلى والى مصر أربعين رأسا كل عام ، وإلى حاكم كورة أسوان عشرين رأساً ،[٣] وإلي مندوب الوالى ومبعوثة خمسة من الرقيق

---

(١) عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، ص : ٣١ ، بيروت ، سنة ١٩٦٧ .

(٢) البقط ليست أسم جنس وإنما هي مشتقة من الكلمة اليونانية Pactum أى معاهدة أو اتفاقية . حيث كانت الثقافة اليونانية منتشرة بين أهل النوبة ومرتبطة بطقوس كنائسها .

(٣) لأن حاكم النوبة المسلم هو الذي يتولى عمليات التسليم والتبادل للمواد الأخرى .

٤ - يتولى المسلمون امداد النوبة بألف أردب من القمح سنوياً ، وثلاثمائة إلى السفراء . ويرسل المسلمون كميات من العدس ومن الأقمشة إلى ملك النوبة .

٥ - يتم تنظيم التعاون بين كنيسة النوبة ، وبين الكنيسة المصرية الأرثوذكسية في الأسكندرية ، وهى الكنيسة الأم، التى تشرف على تعيين البطارقة والكهنة في كنائس النوبة .[١] للارتباط اللاهوتي بينهما .

وحملت تلك المعاهدة في بنودها العوامل والوسائل الكفيلة بنشر الإسلام وثقافته في مناطق النوبة والسودان الشرقي . ذلك أن منطقة النوبة كانت هي صمام الأمان ، ومدخل السودان الشرقي من جهة مصر التى أصبحت مركزا هاماً من مراكز الإسلام وثقافته . لقد فتحت تلك المعاهدة منطقة النوبة ومناطق السودان الشرقي على مصراعيها أمام حركة التجار المسلمين وقوافلهم ، في ظل احترام معتقداتهم ومساجدهم . فكثر عدد التجار المسمين المترددين على تلك الجهاد ونشطت حركة التبادل بين الطرفين حتى أصبحت تلك المناطق مسلمة دون أن يشعر حكامها بذلك إلا في النهاية .[٢]

فمن مصر وصوب الجنوب اتجهت القوافل التجارية إلى بلاد السودان الشرقي عبر أسوان وكرسكو إلى صحراء العتمور وإلى أبى حمد .وصارت مناطق النوبة شمالها وجنوبها معبراً لمرور تلك القوافل ، حيث يتم الإقامة في بلدانها للإستراحة والتزود وللتبادل ، ومن كثرة هؤلاء التجار أسس المسلمون مسجداً في دنقلة ، الأمر الذي يدل على أن عدد المسلمين أخذ في التزايد في تلك المرحلة المبكرة [٣] . وكانت معاهدة البقط قد ضمنت حرية حركة هؤلاء التجار وانتشارهم في بلاد النوبة وأثبتت لهم بذلك حقوق تواجد وإقامة . وتمكن المسلمون بذلك من الإستفادة من موارد النوبة من الذهب ومن الجلود ومن الموارد الزراعية التى تشتهر بها أراضي النوبة الخصبة في الجنوب .[٤] والتى تقع بين النيلين الأبيض والأزرق .

---

(١) انظر : المقريزي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص : ١٩١.

- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص : ١٢ .

(٢) Trimingham, Islam in the Sudan, P. : 59.

(٣) عوض ، الشعوب والسلالات ، ص : ٣١٤ .

(٤) عوض ، المرجع نفسه ، ص : ٣١٥ .

من جهة ثانية احتوت معاهدة البقط على نقطة هامة في العلاقات السياسية والدينية بين الطرفين حيث أشارت إلى اعتراف ملك النوبة بسيطرة المسلمين على كنيسة الإسكندرية وبالتالى أصبح هناك نفوذاً لهم داخل النوبة بسبب تبعية كنيسة النوبة للإسكندرية من حيث حركة التعيينات والترقيات في السلك اللآهوتي بها . وبذلك تحكم المسلمون في إدارة كنائس النوبة بإخضاعهم سلطة كنيسة الإسكندرية [١] . كما أخضوا النوبة لهم اقتصاديا بالتحكم بتوريد الحبوب من القمح والعدس لهم سنوياً . مما زاد من نفوذ التجار المسلمين في بلاد النوبة [٢].

ويبدوا أن الكتاب المسلمين ، القدامى ، لم يدركوا أهمية تلك المعاهدة أو آثار شروط البقط بسبب تأخر ثمارها الطيبة في نشر الإسلام في السودان الشرقي ، حيث وصفوها بأنها "موادعة النوبة" وأنها ليست بجزية ولا خراج [٣]. وهى معاهدة صلح ليتمكن كل طرف من حماية حدوده في ظل حركة التغيرات المتلاحقة التى شهدها العالم في القرنين السابع والثامن الميلاديين أبان حركة المد الإسلامي .

لكن تلك المعاهدة قد جعلت النوبة والسودان الشرقي أراضي إسلامية بصورة غير مباشرة [٤]. فبجانب تحكم المسلمين إداريا وإقتصاديا في بعض جوانب الحياة في النوبة ، فإنه مع مرور الزمن والتزام النوبيين بتسليم الأعداد الكبيرة من أبنائهم سنويا إلى والى مصر فإن تلك الأعداد كانت تعود بعد فترة إلى أوطانها مشبعة بالثقافة الإسلامية العربية ، وأصبحت تلك الأعداد بمثابة عناصر لنشر الإسلام وحضارته ، ذلك لأنها كانت تعمل بعد وصولها وسط محيط إسلامي كبير فعادت مرتبطة بعقيدته وتعمل على نشرها في أوطانها . حتى أن أهل النوبة فيما بعد كانوا يتسابقون في تسليم أبنائهم ضمن أعداد كل عام ليضمنوا لهم مستويات حضارية متقدمة .

وأصبحت بعض الجماعات العربية التى بدأت في الاستقرار في مصر ، في التوجه جنوباً صوب أرض النوبة والسودان الشرقي ، بسبب ضغوط سياسية واقتصادية ، فيما

---

(١) حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص : ٢٨٣ .

(٢) حسن محمود ، المرجع نفسه ، ٣١٥ .

(٣) ابن خرداذبة ، المصدر السابق ، ص١٢.

(٤) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤.

بعد، حيث فقدت بعض تلك القبائل امتيازاتها السياسية والعسكرية فاتجه بعضها للإنتشار فى الريف المصري أو إلى بلاد السودان الشرقي . كما أن سكان مصر بدأوا في التحول إلى الإسلام ولغته حتى أن اللغة العربية اقتحمت أسوار الكنائس لتتلى بها صلواتهاوطقوسها وشعائرها. [١].

وقامت الكنيسة المصرية ، دون أن تدرك ذلك ، بدور كبير في تقوية الوجود الإسلامي في النوبة ، حينما قام رجالها بتلطيف العلاقات بين الطرفين النوبي والإسلامي ، أثناء فترات التوتر بين الجانبين ، وكثيرا ما كانت تتوسط لإزالة أسباب التوتر وإعادة الأمن والإستقرار بين الجانبين ، في الوقت الذي سيطر فيه ولاة مصر على بطريرك الكنيسة المصرية وسيطروا على سياسة الكنيسة الخارجية [٢].

ومهما يكن من مزايا شروط معاهدة البقط في انسياب إشعاعات الإسلام مبكرة، إلا أنها أعطت مزايا هامة للتجار المسلمين بأراضي النوبة حيث جعلت مسئولية أمنهم في النوبة على عاتق ملكها وضمنت حفظ أموالهم وسلامة بضاعتهم أثناء مرورهم فى أراضي النوبة ، كما ضمنت للمسلمين حرية في إقامة شعائرهم الإسلامية داخل أراضي النوبة وكان بناء مسجد دنقلة دليلاً على ذلك منذ البداية .[٣]

من هنا فقد بدأت القوافل التجارية الإسلامية ، خاصة من مصر ، في التحرك بأمان وثقة بين مناطق النوبة ، حتى أنها بلغت من الكثرة والتنوع إلى أنها أدت إلى شهرة بلاد النوبة وسلعها في مصر والشام والعراق والمغرب، وأصبحت كميات ذهب مصر وعاجها ورقيقها مرتبطة بخطوط التجارة مع النوبة [٤]. الأمر الذي يؤكد أهمية النوبة في اقتصاد العالم الإسلامي في مرحلة صدر الإسلام . كما ترددت جماعات من تجار النوبة على أسواق مصر والعالم الإسلامي ، وعاد هؤلاء حاملين صور جديدة عن حضارة الإسلام.

كما حملت قوافل التجارة مع النوبة سلعة هامة ، كانت بمثابة عامل سريع المفعول

---

(١) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ٢١/٢٢.

(٢) مسعد ، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٣) مسعد، المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٤) مسعد ، المرجع نفسه ، ص ١٥١.

لتحول أهل النوبة وبلاد السودان الشرقي إلى الإسلام . وهي سلعة الرقيق . حيث كان خط القوافل عبر النوبة من خطوط تجارة الرقيق ، وكان يمون بصورة أساسية طلبات وأسواق الرقيق في مصر ، في ظل الإزدهار الاقتصادي الذي عم مصر والعالم الإسلامي بصورة كبيرة منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وما ترتب على ذلك من زيادة الطلب على أعداد جديدة من الرقيق . فزادت أعداد هؤلاء الرقيق في بيوتات المسلمين وفي مجالات الحياة الاقتصادية الأخرى .

زادت من أهمية الطلب على الرقيق السوداني إلى مصر عبر النوبة ، التطورات السياسية التى حدثت في مصر في العصر العباسي ، حيث أصبح ولاة بنى العباسى لا يركنون غالباً إلى القبائل العربية بسبب طموحاتها السياسية ، وإتجهت الإدارات المصرية إلى جلب أعداد كبيرة من هؤلاء الرقيق للاعتماد عليهم كقوة عسكرية [1]، خاصة زمن الطولونيين وزمن الإخشيد ، بعد أن ثبت لدى هؤلاء صعوبة الأعتماد على القبائل العربية لدورها في عمليات التمرد والفتن . وزاد إقبال أهل النوبة على تزويد قوافل التجارة بتلك الأعداد من أجل الاستفادة بمزايا الإزدهار الاقتصادي الإسلامي في مصر [2]

وتطور هذا الأمر لتزايد الطلب على رقيق النوبة زمن الفاطميين في مصر، حيث زادت أعداد النوبيين والسودان العاملين في الجيوش الفاطمية في القرن الخامس الهجري ، بجانب القبائل البربرية التى شكلت دعامة جيوشهم منذ البداية ، وكان لجند النوبة والسودان دور كبير في حفظ الأمن والاستقرار في مصر ومناطق النفوذ الفاطمي ، وبرز منهم قيادات هامة في مصر وإدارتها .

وأصبحت القاهرة وأحيانها تعج بأعداد كبيرة من أهالي النوبة ومناطق السودان الشرقي، وكانت تلك الأعداد تتزايد أمام انحسار وجود القبائل العربية على الساحة السياسية في مصر وتحرك القبائل العربية خارج القاهرة ومدن مصر الكبرى والبحث عن مناطق أخرى للعيش ، حتي انتهى الأمر باسقاط العرب من العطاء ، وظلت الدول التى حكمت مصر تكثر من هؤلاء الرقيق والجند لإقصاء العرب عن مجريات الأمور في القاهرة

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧.

(٢) حسن محمود ، المرجع السابق .

وفي الاتجاه المضاد حدثت هجرات عربية معاكسة لطرق حمل الرقيق النوبي من السودان ، حيث ظلت بعض القبائل العربية في التحرك جنوباً للبحث عن أوطان جديدة ، ووصلت إلى منطقة وادى حلفا ، على الحدود الشمالية للنوبة ، وكان هذا الإقليم يعتبر جزءً من مملكة دنقلة النوبية [١] ، ومرور الزمن انسلخ هذا الجزء عن جسم النوبة وأصبحت القبائل العربية تهمين على أموره وامتد نفوذ القبائل العربية لتشمل منطقة إمارة "مريس" [٢] . وأصبحت الكلمة العليا في شمال النوبة للقبائل العربية التى أخذت تتجول في شمال السودان وصحراء العتمور . [٣]

جاء خطر آخر من جهة الشرق لممالك النوبة ، حيث أخذت قبائل البجة التى تسيطر على مواطن واسعة تمتد من أرتيريا في الجنوب وحتى جنوب مصر على طول السواحل الغربية للبحر الأحمر ، أخذت تلك القبائل في التحول إلى الإسلام واللغة العربية بحكم علاقاتها التاريخية القديمة مع سواحل شبه الجزيرة العربية . وبدأت التأثيرات العربية تبدو بينهم منذ القرن الثاني الهجري /التاسع الميلادي . وظهر ذلك من اسم عظيمهم " كنون ابن عبدالعزيز " الذي فاوض والي مصر العباسي عبدالله بن الجهم زمن الخليفة العباسي المأمون [٤] . ولكن ظلت المصادر تشير إليهم بحذر بسبب مناوئتهم للسلطة المركزية في مصر منذ البداية ، كعادة قبائل البدو الذين يرفضون في الغالب الخضوع للسلطات المركزية الأجنبية عنهم .

وكانت معاهدة البجة مع والى مصر العباسي تشبه في شروطها ومرماها معاهدة البقط بين النوبة وبين والى مصر للخليفة عثمان بن عفان . حيث نصت تلك المعاهدة على شروط مشابهة لمعاهدة البقط السابقة منها :

١ - إلزام زعماء البجة على حماية المساجد الإسلامية التي بنيت في مناطقهم ، وعدم التعرض للمسلمين في بلدانهم . وكان عددهم في تلك الفترة كبيراً .

---

(١) عوض ، الشعوب والسلالات ، ص ٣١٥.

(٢) كلمة قبطية معناها الجنوب .

(٣) صحراء في شرق مملكة دنقلة تجاه البحر الأحمر .

(٤) المقريزي ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣١٣ .

٢ - يسهل عظيم البجة دخول عمال أمير المؤمنين إلى بلاده لجمع الصدقات لمن أسلم من قومه وبقية المسلمين . ويبدو أن عددهم كان كبيرا بدليل حرص الطرف الإسلامي على تفصيل هذا البند لما له من أهمية في زيادة موارد بيت المال عند المسلمين .

٣ - يضمن عظيم النوبة أمن وحرية العابرين في أراضيهم من المسلمين ، أو المقيمين في مناطقة .[١] منهم وخاصة جماعات التجار .

وقد قام بترجمة المعاهدة إلى لغة البجة [٢] رجلان من سكان الحجاز هما : زكريا ابن صالح المخرومي من سكان جدة ، وعبدالله اسماعيل القرسي . الأمر الذي يشير إلى العلاقات القديمة بين الطرفين منذ عصور ما قبل الإسلام، وإلى تواجد تأثيرات ثقافية بين الطرفين . وقد أدت تلك المعاهدة إلى تحول جماعي إلى الرسلام بين جماعات البجة رغم ارتباطهم بعاداتهم ونظمهم القديمة بعد ذلك لفترات طويلة [٣] . كما أن البجة باعتبادهم الحد الشرقي للنوبة أصبحوا عاملاً لتسهيل انهيار ممالك النوبة المسيحية والتحول بين مناطق السودان الشرقي إلى الإسلام ، حيث أن البجة كانوا دائمي الحركة والتجول في مجالهم باستمرار حسب طبيعتهم .

ويبدو أن الأمر الذي دفع العباسيين إلى الإهتمام بمنطقة البجة والنوبة ، هو وجود قبائل عربية ذات نفوذ في تلك الجهات بالإضافة إلى أن تلك المناطق أصبحت ملجأ لهروب الكثير من المناوئين للعباسيين بما فيهم أفراد من البيت الأموى منهم آل الغمرين يزيد بن عبدالملك بن مروان الذي هرب إلى جبال الفونج وأسسوا أسرة حكمت المنطقة فيما بعد [٤] كما هرب إلى تلك المناطق عبدالله بن مروان بن محمد آخر رجال بني أمية [٥]. مما أثار مخاوف عباسية من نجاح في المستقبل للنفوذ الأموي في أرض البجة والسودان

---

(١) المقريزي ، المصدر نفسه .

(٢) يتحدث البجة لغة حامية تسمى التبداوي أو بداويت وتحتوى على مفردات عديدة من العربية .

(٣) عوض ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

(٤) عبدالرحمن زكي ، المسلمون في العالم ، ص ٩ ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨م.

(٥) عابدين ، المرجع السابق ،ص : ٢٣ .

الشرقي خاصة وأن تلك الجهات تملك أمكانيات وموارد اقتصادية هامة للعالم الإسلامي .

دفعت تلك الشكوك الإدارة العباسية في مصر إلى دفع جيش قوي بقيادة الوالى عبدالله بن الجهم ضد قبائل البجة ولتأمين تلك الجهات وضمان تبعيتها للعباسين . كما أصبحت العلاقات المصرية النوبية في تلك المرحلة العباسية في غاية التوتر بسبب تلك الشكوك والمخاوف العباسية ، ولكنها كانت ذات أثر حسن لانتشار الإسلام وزيادة التفاعل بين المسلمين وأهالى تلك المناطق .[1]

تدهورت العلاقات بين بعض القبائل العربية وولاة العباسيين في مصر ، فاضطرت إلى اللحاق بغيرها إلى أراضي جنوب مصر والنوبة ، وتعمقت بعضها في المناطق النوبية حتى تمكنت قبائل عرب ربيعة ، فيما بعد ، من تأسيس إمارة عربية بزعامة أبي مروان بشر بن إسحق ، وامتدت تلك الإمارة إلى الجنوب من إمارة مريس ، داخل بلاد النوبة[2]، وقد اعترفت بتلك الإمارة الخلافة الفاطمية فيما بعد ، حتى أن الفاطميين اعتمدوا عليها في بعض المهام في تلك النواحي لتأمين مصر من الجنوب وضمان طرق القوافل ، ومنح الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، أحد زعمائها وهو أبو المكارم هبة الله لقب " كنز الدولة "[3] نظير القبض على أحد المتمردين عليه . وعرف بنو ربيعة فيما بعد باسم " بنو كنز "

وأصبحت منطقة النوبة ومناطق السودان الشرقي أشبه باسفنجة تمتص الهجرات العربية ، خاصة الوافدة إليها من مصر ، كما أصبحت للقبائل العربية بها تأثير واضح في مجرى الأحداث السياسية والعسكرية في القاهرة ، ذلك أن تلك القبائل أصبحت لها أهميتها في ضمام أمن الدول التى تحكم مصر من جهة الجنوب ، كما تورطت بعضها في الأحداث السياسية في القاهرة ، حيث حاول بنوكنز الإطاحة بالأيوبيين وإعادة الأمير الفاطمي داؤد بن العاضد كخليفة من جديد ، لكن تلك المحاولة فشلت وتمكن صلاح الدين الأيوبي من الأطاحة بها سنة ١١٧٦م. وانتهت بقتل زعيم المحاولة وآلاف من رجال قبيلته من بني كنز بأرض النوبة ، مما اضطر تلك القبيلة إلى تلك القبيلة إى مد أوطانها

---

(١) نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء ، ص : ١١٠/١١١.

(٢) المقريزي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص : ١٩٨ .

(٣) المقريزي ، المصدر نفسه .

من جديد صوب الجنوب .[1] والتوغل في أراضي السودان الشرقي .

عادت العمليات العسكرية من جديد بين المسلمين بين ممالك النوبة المسيحية في العصر الأيوبي، ذلك أن الصراع بين الأيوبيين والصليبيين [2] ، بلغ أشده منذ البداية ، وأصبحت مصر أهم مركز لمواجهة الخطر الصليبي في المنطقة بعد استيلاء الصليبيين على إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، فعبأت مصر والبلاد الإسلامية المجاورة للخطر كل قواها وإمكانياتها واشترك في ذلك المسلمون والنصاري . لكن ملوك النوبة أظهروا روح التشفي من المسلمين فانغمسوا في محاولات للتعاون مع القوى الصليبية وتجلى ذلك في أمرين واضحين هما :

الأول : القيام بسلسلة من الهجمات على جنوب مصر ، في وقت انشغالها وتوجيه جيوشها على جبهة الصليبيين في الشمال .

الثاني : التعرض لقوافل التجارة الإسلامية التى نشطت عبر أراضي النوبة والسودان وصحراء العتمور . والتى ترتبط بميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر [3] .وذلك لتفادي أعمال الصليبين في شمال البحر الأحمر ، خاصة زمن حاكم حصن الكرك أرناط ، الذي هدد الملاحة في خليج العقبة وشمال البحر الأحمر .

الأمر الذي دفع الأيوبيين إلى إرسال حملات قوية ضد النوبة ، إلا أن تلك الحملات لم تتمكن من ضم مناطق بلاد النوبة إلى دائرة النفوذ الأيوبي ، لانشغال الأيوبيين بالحرب المستمرة مع الصليبيين في الشام وعلى الأراضي المصرية.

---

(١) المقريزي، المصدر السابق ، ص ١٩٩ ومابعدها .

(٢) بدأت الحملات الصليبية بعد مؤتمر كليرمونت بفرنسا، حيث دعا البابا أوربان الثاني إلى تسيير حملات صليبية من الغرب بحجة حماية المسلمين في الشرق وتخليص بيت المقدس . وقد بدأت تلك الحملات منذ ١٠٩٥م واستمرت حوالى قرنين من الزمان لينتهي الوجود الصليبى بالشرق سنة ١٢٩٣م على يد المماليك . وقد واجه هذا الخطر الفاطميون ثم الأيوبيون ثم المماليك وكان الصليبيون قد تمكنوا من تكوين أربع إمارات صليبية في الشرق هي الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس .

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

جاء المماليك (١٢٥٠-١٥١٧) ليضعوا نقطة تحول في الوجود الإسلامي في النوبة والسودان الشرقي وفي تاريخ وادي النيل الذي تحول بشكل رسمي إلى الإسلام لأول مرة في تاريخه . فقد بدأت الإدارة المملوكية في تحريك أعداد كبيرة من قواتها صوب بلاد النوبة [١] ، وكانت تلك الحملات تضم آلاف المقاتلين من القبائل العربية ، منهم أبناء القبائل العربية في الجنوب والتى كان لها خبرة في أرض النوبة وبلاد البجة والسودان الشرقي منذ بداية العصور الإسلامية .

ففي سنة ١٢٧٦م أرسل الظاهر بيبرس حملة قوية تمكنت من التوغل جنوباً في أراضي النوبة لأول مرة منذ صدر الإسلام، وأجبرت تلك الحملة ملك النوبة على الهرب ، وانتهت إلى عقد معاهدة بين الطرفين [٢]، حصل فيها المسلمون على مكاسب جديدة بأرض النوبة والسودان ، وفتحت مجالات جديدة للقبائل العربية التى حرص المماليك على إبعاد نفوذها من مصر منذ البداية [٣]. وفى سنة ١٢٨٨م تحرك جيش مملوكي قوى زمن السلطان المنصور قلاوون ، وانضمت إليه أعداد كبيرة من قبائل أبي بكر وبني عمر وبني شريف وبنى شيبان وبني كنز وبني هلال [٤] وتوغلت تلك الحملة داخل أراضي جديدة من النوبة والسودان الشرقي . وفي السنة التالية خرجت جموع عربية من صعيد مصر يمحة وجهها صوب بلاد النوبة لتستقر بها . وتتخذها مقراً ومقاما .

وانتهى الأمر بسقوط مملكة النوبة أمام المماليك وانساح العرب في أراضي النوبة وأقاليم السودان الشرقي [٥]. وبدأت صورة جديدة في الظهور على أرض النوبة والسودان تنبع العالم الإسلامي ، وهي بداية ظهور ممالك إسلامية على أرض النوبة والسودان [٦] وكانت تلك الإمارات والمشيخات والممالك الإسلامية منسجمة مع النسيج السوداني رغم

---

(١) نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية ، ص ١١١.

(٢) المقريزي ، المصدر السابق ، جـ١، ص ٣٢٥ ومابعدها .

(٣) نوري ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٤) لاحظ التقسيمات القبلية في السودان تختلف في مسمياتها عن التسميات الواردة في الأنساني العربية . راجع الفصل الأول .

(٥) عابدين ، المرجع السابق ، ص ٣١.

(٦) يوسف فضل ، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان ، ص ٢١٣ ، السودان، سنة ١٩٧٢.

ارتباطاتها القبلية . ولذلك كانت عاملا كبيرا في تحول سكان السودان الشرقي إلى الإسلام وثقافته بصورة شاملة .

ورغم ما يذكر من محاولة توظيف طاقات القبائل العربية المناوئة للأيوبيين وللمماليك في غزو النوبة والتوغل في السودان لتفريغ طاقاتها القتالية بعيدا عن أطماعها في مصر ، إلا أن المماليك نجحوا لأول مرة في ضم جزء جديد إلى العالم الإسلامي . ففرضت الجزية على من بقى على دينه من أهالى النوبة . وأنشأ المماليك ديواناً خاصاً لديهم لمراجعة متعلقات النوبة المالية ، وأصبح ملك النوبة 'صاحب النوبة' من رعايا مصر والعالم الإسلامي ويخطب في جميع بلاده بأسم الخليفة المسلم وحاكم مصر ، كما عين نائباً لسلطان مصر المملوكى في مدينة دنقلة النوبية [1]. وبدأت القبائل العربية في الإستقرار في ربوع البلاد بصورة آمنة دون أن تشعر بخطر يتهددها [2]

وصلت القبائل العربية جنوباً على حدود علوة النوبية الجنوبية واقتربت من سوبا ، عاصمتها ، على النيل الأزرق ، وهى مدينة مزدهرة تفوح منها الرياحين والبساتين وكانت قد احتلت أهمية كبرى في نظر القبائل العربية لإمكانياتها الزراعية والرعوية ، وكذلك لأهميتها في انتاج الذهب والجلود كما بدأت بعض العناصر النوبية الهارية من العرب والمسلمين في الشمال في التوجه داخل مملكة علوة ، واعتصم بعضها في جبال النوبة [3]

في الوقت نفسه فتحت مملكة علوة أبوابها منذ فترات سابقة أمام قوافل التجارة العربية لحمل مواردها واستيراد ما يلزمها من الخيول العربية ، التى أعتمد على استيرادها من الخارج على التجار العرب ، حتى أن تلك الخيول وصلت لأول مرة إلى تلك المناطق ، وأصبحت لها مكانة هامة في حياة النوبيين ، وذلك منذ القرن الثاني الهجري[4]. وأصبح التواجد التجاري العربي يحتل أهمية في مملكة علوة ، حتى أن هؤلاء

---

(١) المقريزي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٦ .

(٢)حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤.

(٣) مازالت جماعات نوبية قديمة تعيش في جبال النوبا ، وترتبط ، بثقافتها القديمة وقطها القديم وديانتها المسيحية المتوارثة .

- الجوهري ، يسري ، إفريقية الإسلامية ، ص ١٨٧.

(٤) عوض ، المرجع السابق ، ص ٣١٧.

التجار المسلمين أقاموا لأنفسهم رباطاً أشبه بمستعمرة إسلامية ينزلون فيه في عذوهم ورواحهم ويؤدون فيه فرائض دينهم وسط بيئة غريبة عنهم [1]. وأصبحوا صورة حسنة للإسلام وحضارته وثقافته في مملكة علوة وأقاليمها .

وتحت ضغط القبائل العربية على حدود مملكة علوة خاصة قبيلة جهينة التى ظهرت على الساحة السياسية ، وهى إحدى قبائل قضاعة، حيث تمكنت من بسط سلطانها على مناطق واسعة في جنوب مصر والنوبة وشرق السودان وغربه ، وأصبحت أهم رموز العرب والمسلمين في السودان الشرقي على الاطلاق لفترة طويلة ، وخاصة العرب القحطانية . في مقابل الجماعات العدنانية التى تكتلت في التحالف الجعلي في السودان .

كان انتشار قبائل جهنية في أقاليم السودان الشرقي يتمحور في محورين هما :

المحور الشرقي : ويضم إقليم البطانة في السودان بين عطبرة والنيل الأزرق ورقليم الجزيرة ، بالإضافة إلى أوطانها الممتدة إلى الشرق نحو البحر الأحمر ومع مواطن قبائل البجة . ويبدو أن تلك المجموعات قد وفدت من مصر ومن البحر الأحمر .[2]

---

(١) الرباط : لغة مصدر رابط يرابط بمعني أقام ولازم المكان . وهو من السبل التى أت إلى انتشار الإسلام في بلاد السودان . وللرباط أهمية عند جماعات الصوفية والفقهاء وعند طلاب العلم والحجاج خاصة في بلاد السودان والصحراء الشاقة ، بسبب صعوبة السفر وطول الرحلة في تلك الأماكن .وقد عرفت بلاد المغرب الربط منذ الفتح الإسلامي بسبب تعرض سواحلها لغارات الأسطول البيزنطي . ثم تطورت الربط إلى مراكز للعلماء والفقهاء وللدعوة الإسلامية .

وظهرت أهمية الربط من تاريخ بلاد السودان الغربي في نجاح عبدالله بن ياسين من تأسيس رباط في منطقة التكرور في القرن الخامس الهجري /الحادى عشر م، تمكن به من نشر الإسلام في تلك الأرجاء وترسيخه في مناطق جديدة ، حتى أطلق على دولتهم اسم دولة المرابطين والتي لعبت دوراً هاماً في الدفاع عن الإسلام ونشره .

استمر تأسيس الربط في بلاد السودان لتأمين طلاب العلم ورحلاتهم وكذلك الحجاج المسلمين عبر تلك الطرق الطويلة . كما أصبحت مركزاً للتجار المسلمين أثناء إقامتهم في بيئات بعيدة عن أوطانهم أنظر : محمد الهيلة ، الزاوية وأثرها في المجتمع ، المجلة التونسية للعلوم الإجتماعية ، العدد (٤٠)

(٢) عوض ، السلالات ، ص ٣٢٢ .

المحور الغربي : وهي مجموعات جهنية التي يمث وجهتها صوب السودان من جهة صحراء مصر الغربية عبر درب الأربعين [١] ، وانتشرت في مناطق أم درمان وكروفان ودارفور .

ومن التوزيع الجغرافي لانتشار قبائل جهنية في السودان ، فإننا لا نوافق الأستاذ الدكتور /حسن محمود فيما ذهب إليه من القول بأن هجرات جهنية بدأت من شمال النوبة وتوغلت صوب الجنوب من أجل البحث عن مراعي جديدة لها[٢]. ذلك أن الجماعات العربية بدأت في التوجه بكثافة نحو أراضي النوبة بعد الانتصارات التى حققتها الجماعات العربية السابقة مثل بني كنز . وقبيل تلك الفترة كانت عربية قد عبرت البحر الأحمر ونزلت على سواحل البحر الحمر الغربية ونزلت مواطن البجة واختطلت بهم منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وكان لهم دور في تحول المزيد من أهل البجة إلى الإسلام. بدأت تلك القبائل تستغل عمليات انهيار ممالك النوبة للتوجه صوب الغرب للاستقرار في أراضي النيل [٣]. في نفس الوقت الذي بدأت فيه جهنية تظهر بقوة على مسرح الأحداث في السودان الشرقي من جل إبراز كيان جديد لها وسط حطام ممالك متهالكة . حتى أن ملك علوة أضطر إلى مصاهرة زعماء جهنية لحمايته من غزوات جماعات الزعاوة القادمين من الغرب ، بعد أن أحس بقوة وترابط قبائل جهنية [٤].

جاءت مرحلة الانهيار النهائي لمملكة النوبة الجنوبي في سوبا ، مع بداية القرن السادس عشر الميلادي، حينما تحالف العرب في مملكة علوة وفي وسط السوان مع جماعات افونج القادمين من الجنوب وتمكنوا من دخول العاصمة سوبا[٥]. بعد أن جلس العرب على عرش مملكة مقرة في القرن الرابع عشر الميلادي من قبل . وبذلك أصبحت بلاد السودان الشرقي تحت النفوذ العرب وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ وادي النيل الجنوبي من الإنصهار بين العرب والسكان الأصليين ، رغم استمرار العصبية القبلية التى حملها العرب معهم ، وما ترتب عليها من ظهور صور من الصراعات حول مواطن الرعي ومناطق

---

(١) الجوهري ، المرجع السابق ، ص ١٩٨.

(٢) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ص ٢٩٥.

(٣) الشاطر بصيلي ، معالم تاريخ سودان وادي النيل ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٤) عوض ، المرجع السابق ، ص ٣١٨.

(٥) ابن خلدون ، تاريخ ، جـ٥ ،ص ٤٢٦.

النفوذ. وهي صور من الصور السلبية في الحياة العربية .

ورغم الدور الذي قامت به الدول العربية الإسلامية في السودان ، إلا أن الصورة العامة التى طبعت الإسلام وثقافته في السودان الشرقي اتخذت طابعاً سلمياً خالصاً حيث قام العلماء والدعاة وأتباع الطرق الصوفية بدورهم الهام والبارز في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية وسط ظروف صعبة . وكان أول من أشتهر من هؤلاء العلماء رجل اسمه "غلام الله بن عائد اليمني" [1] الذي قدم من اليمن في أواسط القرن الرابع عشر /م واتجه إلى دنقله وأتخذها مقراً ومقاماً وبدأ في إنشاء المدارس لتعليم الأولاء مبادىء الإسلام وقراءة القرآن الكريم . كما ظهر في القرن الخامس عشر الشيخ حمد أبو دنانة صهر الشيخ عبدالله الجزولي الشاذلي . كما أتجه بعض الفقهاء إلى دعوة إتباعهم لحمل السلاح في المناطق التي ينتهك فيها حرمة الإسلام خاصة في مناطق جبال النوبا بسبب غارات أهل جبال النوبا على المسلمين مما دفع الفقيه بدوي أبو صفية البدري" إلى مجاهدة هؤلاء المعتدين .[2]

وفي القرن السادس عشر الميلادي ، قدم من مصر الشيخ /محمود العركي زمن دولة الفونج، الذي قام بدور كبير في سبيل نشر الإسلام في السودان . كما أسهم الشيخ إبراهيم البولاد بن جابر بن غلام الله بن عائد في نشر الإسلام على مذهبه المالكي ، وتولى من بعده أولاده الأربعة إتمام تلك المهمة ، وكان لهم دورهم الكبير في تأسيس قواعد التعليم الديني في مختلف أرجاء السوان الشرقي . وكانت أختهم فاطمة لا تقل عنهم تفانياً في هذا الدور، وقد خلفها في دورها الكبير ابنها محمد الذي تفقه على يد أخواله ، وتأسست من بعدها أسرة دينية نشطة في نشر الإسلام بكل طاقاتها في السوان الشرقي [3]. وكان هؤلاء العلماء والفقهاء يمنحون امتيازات واسعة من الحكام ، ولهم مكانة عالية في نفوس الشعب [4]. حتى أن سلطان دارفور لم يتمكن من القبض على الفقيه سراج حينما وشي به عند السلطان عبدالرحمن الرشيد [5].

---

(١) فضل ، المرجع السابق ، ص ١٢٣.

(٢) عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق ، ص ٥٦ ومابعدها.

(٣) النوري ، المرجع السابق ، ص ١١٢.

(٤) نعوم شقير ، تاريخ السوان ، جـ٢ ، ص ٧٧.

(٥) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠.

واتجه العديد من العلماء إلى مناطق كردفان ودارفور لنشر الإسلام في المناطق الغربية للسودان الشرقي ، ومن هؤلاء الشيخ / التمر . والغلاتي ، والشيخ حسين عماري الأزهري، والشريف ، وانتشرت على أيديهم المساجد والخلوات . وذكر الرحالة الأوربيون أنهم شاهدوا أعداداً كبيرة من الصبية يترددون دائما على خلوات العلماء ومساجد القرى لأخذ العلم على يد العلماء والفقهاء [١]. كما كانت القبائل ترسل أبنائها إلى تلك الأماكنت للتعلم . واشتهرت مراكز بهذا الأمر مثل دنقلة ودامر والضاشر . وكانت أعظم تلك المراكز في ديار الفونج [٢].

قدمت الطرق الصوفية هى الأخرى جهوداً طيبة في سبيل نشر الإسلام وثقافته في بلاد السودان الشرقي ، وتمكنت تلك الطرق من ترسيخ الإسلام في نفوس الشعب وفي عمليات نشر الإسلام في أقاليم جديدة بالسودان ، وتمكنت تلك الطرق من مزج الشعب السوداني في قالب إسلامي واحد بغض النظر عن العرف أو القبيلة وقربت الطرق الصوفية بين الأجناس والقبائل ، وإندمج الناس في ربطهم زواياهم [٣].

وكانت مملكة الفونج أكثر من غيرها تشجيعاً لشيوخ الصوفية ، ووجد هؤلاء الدعاة في أنحاء لمملكة التربة الخصبة لنشر تعاليم طرقهم تحت رعاية زعماء الفونج الذين شجعوهم وأعانوهم ووفروا لهم الرعاية والتقدير [٤]. وكان أول القادمين إلى ديار الفونج من رجال التصوف هو الشيخ /تاج الدين البهاري البغدادي الذي وصل إلى السودان في بداية الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وتمكن من نشر الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ/ عبدالقادر الكيلاني [٥]. وكان قد سبقه لنفس الغرض في السودان الشرقي الشيخ إدريس ود الأرباب (١٥٠٧- ١٦٥١).

وقد دخلت السودان أيضا طرق صوفية قادمة من المغرب ومن الحجاز ومن مصر ، وكان من أشهرها الطريقة القادرية التى أسسها عبدالقادر الجيلاني في القرن الثاني عشر

---

(١) Burchardt, Travels In Nubia, P.P. 7-72.

(٢) عابدين ، المرجع السابق ، ص ٨٤.

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣.

(٤) النوري ، المرجع السابق ، ص ١١٣.

(٥) عابدين ، المرجع السابق ، ص ١٤١ ومابعدها .

الميلادي ، ودخلت السودان منذ سنة ١٥٤٠م [١]. ثم الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي في القرن السادس عشر الميلادي ، ثم رسخت في السودان الشرقي على يد الشيخ خوجلي عبدالرحمن المحسى فيما بعد .

وأصبحت الصوفية لها اليد الطولى في المجتمع السوداني في العصر الحديث ، ولها سلطتها الأجتماعية والسياسية والإدارية في البلاد . وكانت كلمتهم مطاعة حتى لدى الحكام والمشايخ وإن كانت قد إتجهت بعضها إلى الخرافة والشعوذة في بعض الأحيان ، خاصة في المناطق التى لا يتوافر بها مدارس وفقهاء على درجة من العلم لتوضيح جوانب الدين الإسلامي الحقيقية [٢].

ومهما يكن من جهود العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية في السودان الشرقي من أجل نشر الإسلام ، وما سبق ذلك من دور للتجار العرب ،والمسلمين ، فإن قيام ممالك وإمارات إسلامية على أرض السودان الشرقي كان تتويجاً لتلك الجهود ، وثمرة من ثمرات الكفاح الإسلامي السابق منذ فتح مصر.

ويمكننا استعراض أهم تلك الدول والممالك والمشيخات ودورها في ترسيخ الإسلام وثقافته ونشره ، كما يلي :

أولا : دولة الفونج الإسلامية :

اتخذت تلك الدولة من سنار عاصمة لها في شرقي السودان، وقد ظهرت على أنقاض مملكة علوة النوبية المسيحية منذ أوائل القرن السادس عشر /م سنة ١٥٠٥م. ويرجع الفضل في ظهورها إلى زعيم الفونج عمارة دونقسٌ وإلى عبدالله جماع شيخ عرب القواسمة الجهني [٣]. وامتدت تلك الدولة من سواكن شرقاً إلى النيل غرباً ، ومن جبال

---

(١) عابدين ، المرجع نفسه ، ص ١٤٤.

(٢) فضل، المرجع السابق ، ص ١٣١.

(٣) مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ٢٠٦. القاهرة ، سنة ١٩٦٠م.

فازوغلي جنوباً إلى الشلال الثالث شمالاً . وعرفت باسم السلطنة السوداء[1] أو السلطنة الزرقاء لوقوعها على النيل الأزرق. [2].

وكلمة فونج اصطلاح سياسي وليس قبلي يقصد به السيادة على سنار والمناطق الواسعة التى خضعت لها. ذلك أن الظروف السياسية والفراغ السياسي الذي ساد السودان الشرقي بعد هزائم ملوك النوبة وتغلغل الوجود العربي والإسلامي في المناطق السودانية أدى إلى ضرورة قيام نظام سياسي وإداري جديد يتناسب مع الظروف الجديدة في السودان ، كما أدى تدهور العلاقات بين حكام مصر في العصرين المملوكي ومن قبل في العصر الأيوبي مع شيوخ وزعماء القبائل العربية في النوبة والسوداء إلى ضرورة تكتل تلك القبائل في شكل سياسي جديد لتنسيق علاقاتها مع مصر والقوى الخارجية . وبالفعل كان ظهور دولة الفونج شكلاً من التكتل بين الفونج والقواسمة [3] .

وتنحصر النظريات التى دارت حول أصول الفونج في ثلاثة هي :

النظرية الأولي :

ترى أن الفونج يرجعون إلى أصول عربية من سلالة بنى أمية حينما هربت من وجه العباسيين بعد هزيمة مروان الثاني . وترجع تلك النظرية أصولهم إلى آل الغمر بن يزيد بن عبدالملك بن مروان حيث هربت جماعة إلى الحبشة سنة ١٣٢هـ. كما يرجع البعض من أصحاب تلك النظرية أصولهم إلى سليمان بن عبدالملك بن مروان ، حينما دخلت الحبشة جماعة من أهله وسكنت بها ثم توجهت إلى جبال الفونج . كما يذهب البعض الآخر من أصحاب تلك النظرية إلى إرجاع أصول الفونج إلى عبدالله بن مروان آخر بني أمية الذي هرب الى السودان . ومهما يكن من تعدد الأصول العربية لتلك الأسرة التى حكمت مملكة الفونج فإنها تجمع على أن عمارة دنقس يرجع أصله إلى أصول عربية أموية ، وأن هذه

---

(١) يرى الكثير من الباحثين أن أصل الفونج من الزنوج ، حيث تمكن هؤلاء الزنوج من اجتياح مناطق نفوذ بعض القبائل العربية ، لكننا نرى أن أصل الفونج خليط من الوجود العربي من الزعماء المحليين . وإن كان وقع اختلاف في أصل الأسرة الحاكمة للدولة .

أنظر : عوض ، السودان الشمالي ، ص ٢٧٢.

(٢) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٨٤.

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣١٨.

الأصول قدمت من الحبشة إلى السودان واستقرت بها [١].

النظرية الثانية :

ترجع تلك النظرية أصول حكام الفونج إلى أصول البرنو الذي قدموا من الغرب صوب السودان وتمكنوا من التغلب على بعض أجزاء مملكة النوبة وأسسوا دولة قوية في سنار ، وتبع ذلك توافد أعداد كبيرة من البرنو إلى تلك المنطقة ونزلوا على النيل الأبيض في قرية يسكنها الشلك ثم توسعوا بعد ذلك على حساب العرب والنوبيين، حيث كانت القبائل العربية حتى تلك الفترة على درجة كبيرة من التفكك ، كما كانت مناطق مملكة علوة النوبية على درجة كبيرة من الإنهيار والتفكك . ولم يتمكن الطرفان العربي أو النوبي من وقف زحف وتوسع البرنو [٢].

النظرية الثالثة :

ترجع أصولهم إلى الزنوج من جماعات الشلك بالجنوب على ضفاف النيل الأبيض ، وأنهم كانوا قد تقدموا صوب سنار وهزموا العرب أمامهم سنة ١٥٠٤م . وإن كان هذا الرأي لم يثبت صحته .[٣]

وإن كنا نميل إلى أصول الفونج ترجع إلى أصول عربية بعض النظر عن انتمائها إلى إلى البيت الأموى أو غيره من بيوتات العرب الهامة التى دأبت الأسر الجديدة التى ظهرت في مناطق السوان عامة على الإنتماء إليها من أجل إضفاء نوعاً من الشرعية القبلية على سلطتها . وأن تلك الأصول العربية التى يرجع إليها الفونج قد أختطلت وذابت في المحيط السوداني الواسع التى عاشت فيه فترة طويلة من قبل .

---

(١) عابدين ، تاريخ الثقافات العربية في السودان ، ص ٤٩/ ٥٠ .
- أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ،ص : ١٠٠ .

(٢) عابدين ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .
- أرنولد ، المرجع السابق ، ص ١٠٠.

(٣) فضل ، حسن ، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي ، ص ٢٤ ، الخرطوم سنة ١٩٧٢.- عوض ، السوان الشمالي ، ص ٢٧٢.

بعد ظهور عمارة دونقس وتحالفه مع الشيخ عبدالله جماع ، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ السودان الشرقي ، حيث اتفق الطرفان على الإندماج السياسي والعسكري [1]، وبدأت عملياتهما في القضاء على نصارى سنار ، وغيرها من المناطق المناوئة. وبدأ عمارة في بناء عاصمة لدولة في سنار سنة ٩١٠هـ - ١٥٠٥م ، واتجه عبدالله جماع إلى مدينة قرى عند جبال الروبات في الشرق وجعلها عاصمة لملكه وللعرب . واستمرت سنار عاصمة للدولة حتى دخلها الجيش المصري سنة ١٨٢١م زمن محمد علي . وحكمها خمس وعشرين سلطاناً أولهم هو عمارة دونقس ، الذي أسس مجد دولته وشهرتها ووضع أسسها الإدارية في صورة بعيدة عن المركزية .

خلف عمارة ابنه عبدالقادر الذي شهدت الدولة ازدهارا وتوسعاً في عهده حيث امتدت جنوباً إلى أرض الحبشة ، وإلى كردفان في الغرب . وفي عهد السلطان بادي أبو دقن (١٦٤٥- ١٦٨٠م) شهدت سلطنة الفونج عصرها الذهبي حيث هزم الفونج قبائل الشلك التى تسيطر على النيل الأبيض ، وسيطر الفونج على طرق القوافل والطرق العسكرية[2] في المنطقة .

كما دخل الفونج في صراع مع جيرانهم من ملوك مملكة تقلى الإسلامية وفرضوا الجزية عليها كما استمرت علاقاتهم متوترة مع حكام الحبشة ، وتمكن خلالها الفونج من إلحاق هزائم متعددة بالأحباش [3].

وأصبحت دولة الفونج أهم سلطنات الشرق الإفريقى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وأمتد نفوذها حتى السودان الأوسط إلى بحيرة تشاد، كما أثرت

---

(١) كان عبدالله جماع هو الذي أسس دولة العبدلاب العربية في السودان ، وكانت حدودها تمتد من أربجي في الجنوب حتى الشلال الثالث في الشمال ، أي أنها شمال أرض الفونج . وكان له نفوذ واسع على القبائل العربية والبجة والبدو . لكن حدث صدام بينه وبين عمارة دونقس انتهى بهزيمة عبدالله جماع في معركة أربجي سنة ١٥٠٤م، وتقرر بعض المعركة الاندماج بين الدولتين وأن يكون عبدالله نائباً عن عمارة في حكم منطقة الشمالية . ثم اتفقا على محاربة أعدائهما سوياً.
فضل ، تاريخ الممالك الإسلامية في السودان ، ص٢٤- ٣٧.

(٢) فضل ، المرجع السابق، ص ٦٨.

(٣) فضل ، المرجع نفسه ،ص ٧٠.

في أحداث القرن الإفريقي ، لكن نفوذهم بدأ ينحسر في القرن الإفريقي بعد وصول الكشوف الجغرافية الأوروبية إليها وبداية دعم النظام الحبشي ضد جيرانه .[١]

لكن النزاعات الداخلية داخل أقاليم امبراطورية الفونج الواسعة وانفصال بعضها عن سلطة سنار، ووصول بعض الوزراء من الهمج إلى إدارة الدولة ، كما أن العبدلاب كانوا قد انفصلوا عن الفونج منذ فترة ووقعت بين الطرفين معارك كان آخرها معركة كركوج سنة ١٦١١م والتى أنتهت بهزيمة العبدلان وانفصالهم عن الفونج . وقد شجع هذا الإنفصال عدة قوى للتمرد عن جسم الدولة مثل جماعة الشايقية . وانتهى الأمر بخضوعها لمحمد على [٢]. حينما أخذت جيوشه تجتاح المنطقة .

ثانيا: مملكة العبـــدلاب :

مملكة عربية ظهرت علي يد الشيخ عبدالله جماع ، وقامت في شمال مملكة الفونج، على أساس تحالف مع الفونج. واتخذت من قرى [٣] عاصمة لها . وكان قيامها يرجع إلى الأصول السياسية التى عمت السودان بعد زوال ممالك النوبة وسيادة النفوذ العربي والإسلامي بها. وبعد انفصالها عن الفونج بدأت في تنظيم أصول مناطقها ، لكنها أصيبت بالضعف والتدهور منذ نهاية القرن الثامن عشر /م [٤]

ثالثا: مملكـــة تقـــلي :

ارتبطت منذ بداية ظهورها بالمناخ الإسلامي الذي ساد منطقة كردفان غرب السودان . ففى القرن السادس عشر /م، وفي منطقة جبال النوبا بكردفان تمكن رجل من زهاد الجعليين استقر به المقام في تلال تقلي من اجتذاب الناس بورعه وتقواه وزهوه ، حتى وصل إلى زعامة المنطقة بعد مصاهرته زعيم الإقليم ليصبح ابنه جيلي ملكاً سنة ١٥٧٠م . وبدأ في مد نفوذه على المناطق المجاورة شرقاً ، وتكونت مملكة طلت واضحة المعالم حتى القرن التاسع عشر [٥].

(١) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٨٩.

(٢) نعوم شقير ، تاريخ السودان ، جـ٢، ص ٧٣.

(٣) مدينة على النيل الأبيض .

(٤) نعوم شقير ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٥) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

رابعاً : سلطنـــة دارفـــور :

ظهرت كمملكة إسلامية مستقلة في الشمال الغربي للسودان . ويرجع الفضل الكبير في ظهورها إلى الزعيم /سليمان سولون ، الذي تمكن من تأسيس أركان نظامها وقوتها في المنطقة لتصبح علامة بارزة في تاريخ السودان الشرقي منذ القرن الخامس عشر. [1]

ويبدو من دراسة جغرافية وتاريخ منطقة كردفان ودارفور أنها كانت تمثل أهمية خاصة في تاريخ منطقة افريقية جنوب الصحراء، وبين مناطق السودان الشرقي والأوسط وواحات الصحراء الإفريقية ، حيث كانت ملتقى للطرق الصحراوية القادمة من درب الأربعين في صحراء مصر الغربية ومن جنوب مصر ، وكذلك الطرق الصحراوية القادمة من واحات ليبيا من طرابلس وجبل نفوسة . وأصبحت تلك المنطقة لشبكة هامة من الطرق من الشمال والغرب والشرق .

ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي شهدت منطقة الشمال الغربي للسودان هجرات جديدة من عناصر بربرية قدمت إليها من خطوط الواحات الصحراوية ، وكانت تلك جماعات "الطنجور" التى اندفعت إلى منطقة دارفور على إثر غارات قبائل بنى هلال وبنى سليم على بلاد المغرب وخالطت تلك الجماعات جماعات بربرية سابقة عليها من "الراجو" وصاهروهم . لكن جماعات الطنجور أصبح لهم السيادة في المنطقة حيث أصبح "أحمد المعقور" [2] زعيماً للمنطقة . ،وقد نتج عن هذا الإختلاط عنصر جديد في تاريخ السودان هو عنصر "شعب الفور" .

وصلت منطقة دارفور أيضا دماء عربية جديدة قادمة عبر أراضي وسهول السودان من جهة الشرق ، واستقرت إلى جوار شعب الفور ، وحدث اختلاط واندماج بين العنصرين العربي والفوري . وترتب على هذا الإندماج وصول العرب إلى زعامة المنطقة حينما أصبح "سليمان سولون" (١٤٤٠- ١٤٧٦م) هو حاكم المنطقة والمؤسس الحقيقي لسلطنة دارفور[3] . وبدأ يعمل على صبغ المنطقة بصبغة عربية، وتمكن من القضاء على تمرد جماعات الفور

---

(١) شقير ، المرجع السابق ، جـ٢، ص ٢.

(٢) شقير ، المرجع نفسه .

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥.

الذين لجأوا إلى جبال مرة . وبدت الصبغة الصبغة الإسلامية تظهر أيضا في المنطقة بفضل أعمال سليمان سولون وخلفائه من بعده . ومدت سيطرتها إلى منطقة كردفان خاصة زمن السلطان يراب في القرن الثاني عشر [١].

بلغت سلطنة دارفور أقصى اتساعها ومجدها زمن السلطان عبدالحميد الرشيد الذى حكم في نهاية القرن الثامن عشر الميادي، ونقل عاصمة إلى الناشر ، حيث أهمية الاستراتيجية لطرق القوافل التجارية . واتصل بالسلطان العثماني ، الذى اعترف بسيادته ، ومنحه لقب" الرشيد" وامتدت دولة في زمنه من بئر النطرون في الصحراء الكبرى شمالاً حتى بحر الغزال جنوباً .

ومن نهر النيل شرقاً وحتى منطقة وادى غرباً [٢] وكان من الممكن توسيع حدود مملكته لولا بداية وصول القوات المصرية . حيث كان يمثل ظهوره بداية تدهور معظم القوى الإقليمية في السودان.[٣] .

خامساً : ممالك ومشيخات وإمارات أخرى ظهرت حتى الفتح المصري في السودان الشرقي :

١ - مشيخة خشم البحر : شرق النيل الأزرق .

٢ - مشيخة الحمدة .

٣ - مملكة الجعليين : في شندي .

٤ - مملكة الشايقية

٥ - مملكة الميرافات .

---

(١) حسن محمود ، المرجع نفسه .

(٢) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

(٣) شقير ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

قامت الجماعات العربية والدول والإمارات والمشيخات الإسلامية بدور كبير في سبيل نشر الإسلام والثقافة العربية في بلاد السودان الشرقي وأرجائه ، حيث بدأت منذ نهاية العصور الوسطى مرحلة جديدة من الإنصهار بين الجماعات العربية والبربرية وجماعات البرنو وغيرها من جماعات البجة والجماعات السودانية الأصلية . وبدأت الدماء العربية تذوب في تلك الدماء مشكلة دماء إسلامية جديدة [١]. فقد انصهر الكواهلة مع جماعات البجة في الشرق ، واندمج الفور مع العرب في الغرب ، كما انصهرت الجماعات الجديدة مع جماعات زنجية أخرى . وظهر جيل جديد من المولدين مرتبط بالدين الإسلامي ، ومتحدثاً باللغة العربية ، وظهرت لأول مرة بدايات لوحدة قومية لأقاليم السودان الشرقي تحت راية الإسلام وثقافته ، بعد أن ظل لقرون طويلة ممزقاً بين الجماعات العرقية المتباينة والمتناحرة [٢].

وبدأت على أرض السودان الشرقي تظهر علامات لحياة حضارية جديدة مستمرة من روح الإسلام ، وذات صبغة مشتركة ، بعيدة عن التنوع الجنسي والإقليمي وأقبل أبناء الجماعات السودانية على تحصيل الثقافة الإسلامية ، فتأسست عندهم المساجد، التى أصبحت أول مراكز الإشعاع الحضارى الإسلامي ، وظهرت الكتاتيب ، والزوايا والربط والمدارس ، واحتلت تلك المؤسسات الثقافية الإسلامية مكانة بارزة في نفوس أهل السودان . وبدأ أبناءهم يرتحلون لطلب العلم من مراكزإسلامية خارج أوطانهم ، فتوجهت منهم أعداد إلى الأزهر ، وأصبح لهم في الأزهر مكانة هامة وشهرة في علوم الفقه وغيره من العلوم الإسلامية [٢].

وتشكلت قاعدة كبرى من العلماء والفقهاء والمثقفين من أهل السودان ، وكان لهؤلاء دور كبير في العمل على نشر الإسلام في بقية أرجاء البلاد وخاصة مناطق الجبال والمناطق المنعزلة. حيث بدأ كل واحد منهم ينتهج نهجاً خاصاً في سبيل نشر الإسلام.ففي منطقة الفونج ظهر الفقيه بدوي أبو صفية ، الذي ركز جهوده على جبال النوبا فكان يأتى ببعض أهل النوبا يعلمهم القرآن الكريم ومعالم الفقه والتوحيد ، ثم يعيدهم الى بلادهم ليتولوا نشر الإسلام بين ذويهم . وهو بذلك يمثل مدرسة للدعوة الإسلامية في غرب

---

(١) حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٢) ممتاز العارف ، الأحباش بين مأرب وأكسوم ، ص ٨ ومابعدها .وقيادة حركة

السودان الشرقي . حيث كانت هناك جيوب للوثنية . حيث أفتى العلماء بحرب هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يشنون حملات إبادة ضد المسلمين ، حتى يؤمنوا بالله .

ويتضح من دراسة أوضاع نشر الإسلام وثقافته في القرنين السابع عشر والثامن عشر أن الروح الصليبية التى سادت العلاقات بين المسلمين وأوروبا في بداية العصور الحديثة من جراء التوسع والكشوف الجغرافية وما أصاب العالم الإسلامي من خسائر ، كانت تلك الأوضاع قد أثرت بالفعل على مجرى الأحداث في السودان حيث تعرضت حدوده الجنوبية والشرقية لضربات من قبل ملوك الحبشة ، الذين تحالفوا مع القوى الأوروبية لتوجيه ضربة إلى المسلمين في السودان والبحر الأحمر . لكن ممالك السودان خاصة سلطنة الفونج وزعامات عدول ومصوع على البحر الأحمر تمكنت من رد تلك الضربات والحفاظ على مكتسباتها الإسلامية .

وكانت سلطنة الفونج أهم دول السودان الشرقي في الإسهام لنشر الإسلام الجهاد الإسلامي في أرجاء السودان وحماية حدوده الجنوبية والشرقية من الإحباش، وصهر أجناسه في بوتقة الإسلام والعروبة [1]. كما أصبحوا يمثلون حركة الجهاد الإسلامي ضد الإمتداد الصليبيى الذي ظهر في الحبشة وتمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالأحباش سنة ١٧٤٤م رغم التدريب والمعدات الأجنبية المتوفرة لقواتهم . وكان لهذا النصر دوى هائل في أنحاء العالم الإسلامي من المغرب ومصر والشام وحتى الهند[2] ، ووصلت وفود التهاني للفونج على هذا الإنجاز ، وأحتلت دولتهم سمعة دولية كبرى .

اتصل زعماء الفونج بالتيارات والمؤسسات الثقافية في العالم الإسلامي فكانت لهم صلات بعلماء الأزهر الشريف وعلماء الحجاز وعلماء العراق والشام وفقهاء المغرب ، ووجهوا دعوات لكثير منهم لزيارة بلادهم ، كما رحبوا بهم في أى وقت وأحاطوهم برعايتهم وحمايتهم في السودان ، الأمر الذي جعل للعلم والعلماء مكانة هامة في نفوس أهل السودان . كما أسس زعماء الفونج العديد من المساجد الكبرى في سنار وفي غيرها من المدن والتى أصبحت بمثابة مراكز جديدة للثقافة الإسلامية .

---

(١) العارف ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ ومابعدها.

(٢) شقير ، المرجع السابق ، ص ٨١ .

اهتم زعماء الفونج ايضا ومشايخ المنا طق الأخرى بإرسال أبنائهم لتلقى العلم في الأزهر وأرسلوا بعثات من أبنائهم لهذا الغرض ، وبلغ من كثرتهم أن أنشىء لهم رواق خاص بالأزهر سمي "رواق دارفور" كما بدأ علماء من الأزهر في التوجه إلى السودان لنشر العلم والدعوة الإسلامية . كما حرص ملوك الفونج على المساهمة في المناسبات الإسلامية الكبرى، فكان لهم مشاركة في موكب محمل الحرمين، الذي كان يحمل من مصر ، حيث كان الفونج يرسلون مساهمتهم من ريش وعاج وخيرات بلادهم ، ثم تباع تلك السلع وترسل أثمانها في صرة إلى الحجاز مع موكب الحج المصرى. (١)

من جهة ثانية حرص زعماء المسلمين وسلاطين الدول الإسلامية في السودان على تطبيق الشريعة الإسلامية في بلادهم (٢). ففى مجال الأحوال الشخصية طبقت تعاليم الإسلام في الزواج وغير ذلك ، وفي جوانب أحكام الإسرة. كما كانت عمليات جمع الزكاة والعشور تتم بصورة تنسجم مع الشرع الإسلامي . كما أقيمت الحدود الشرعية . رغم أن سلاطين تلك الممالك قد أقروا العديد من صور التراث والبيئة السودانية المحلية والتى لاتتعارض مع الإسلام ومبادئه ، وخاصة فيما يتعلق بحفلات التتويج للزعماء وملابس السلاطين وبعض الإحتفالات الوطنية المتوارثة . وإن كان الكثير منها قد بدأ يتلاشى مع مرور الزمن بفضل الدعاة ورجال الطرق الصوفية والعلماء . كما ظهرت تأثيرات من البنية السودانية في تطبيق بعض الحدود مثل مسألة حد السارق (٣) وفدية القتل(٤).

وفي خلال العصر العثماني وما شهدته الثقافة الإسلامية من ركود ، تأثرت الأوضاع الثقافية في السودان بهذا الأمر ، حيث اتجهت مؤسسات الفكرية إلى العزلة ، وبرزت مناطق السودان الشرقي كأهم مراكز الصوفية ، وصار الكثير من العلماء والمفكرين يعتقدون أن علم الباطن هو أساس علم الظاهر ، وفضل الكثير منهم علم الباطن دون غيره وسادت الحياة الثقافية في السودان طرق عدة للجماعات الصوفية لكل آدابها

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(٢) شقير ، المرجع نفسه ، ص ١٤١.

(٣) ارتبطت عملية التطبيق مع ظروف البيئة السودانية . ذلك أن القوانين في مسألة حد السرقة في بعض مناطق الغرب في السودان الشرقي أصبحت تقضي بدفع ست بقرات أو ما يعادلها ثمناً وإذا لم يدفع يتم الحبس.

(٤) أصبحت فدية القتل مائة بقرة في الغالب . انظر : شقير ، المرجع السابق ، ص ١٤٥.

ونظمها وأزكارها وأعلامها وكراماتها [1]، واحتل بعض رجالها منزلة التقديس أحياء وأمواتاً.

وكان للمغاربة دور في تغذية تيار الصوفية في السودان ، فقد شهدت أرض السودان رحيل عدد من رجال العلم بالمغرب منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، مثل الشيخ التلمساني، الذي نزل على الشيخ/ محمد بن عيسى سوار الذهب، واشتغل بالتدريس في علوم القرآن وعلم الكلام ، ونزل من بعده إلى أرض السودان بعض متصفة المغاربة مثل سؤساي والليدي (٢). كما ظهرت تأثيرات للصوفية عبر وادي النيل بين مصر والسودان رغم استمرارية رواق سنار ورواق دارفور في تخريج علماء من الأزهر .(٣)

ومهما يكن من أمر في مسألة التدهور الفكري الذي واكب سيادة الطرق الصوفية على المناخ الثقافي السوداني وعلى الحياة الثقافية في أقاليمه ، حيث عادت من جديد بعض الأساطير والخرافات على سطح الحياة الإجتماعية إلا أن الطرق الصوفية تمكنت من صهر المجتمع السوداني في صبغه إسلامية واحدة من خلال توحيد نظمها وأورادها وفكرها، وتمكنت الصوفية من طمس الوثنية بأساليب سمية هادئة . فقد كشف الصوفي دور الساهر في المجتمع الوثني القديم [4] . وكانت أكثر الطرق الصوفية نجاحاً في العصور الحديثة هي الطريقة القادرية التي دخلت السودان مع القرن السادس عشر/م.

وقد أدى هذا الأمر إلى لون جديد من الزعامات الشعبية في السودان توارث أمامها الزعامات القبلية أو السياسية . فكان لزعماء الطرق الصوفية مكانة هامة في نفوس الناس وكانت لديهم القدرة على فض النزاعات الكبرى بين الأحياء والقبائل بما يحتلونه من مكانة هامة في نفوس الناس ، وكان بإمكان تلك الزعامات أن تعيد توحيد السودان الشرقي في ظل التناحر الإقليمي وتنوع الإمارات ، خاصة بعد أن تمكنت من توحيده فكرياً ووجدانياً وإجتماعياً ، كما كان باستطاعتها أن توفر له الأمن والإستقراروتحفظ له

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٣٥

(٢) عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، ص ٨٢.

شقير ، المرجع السابق ، ص ١٧٦.

(٣) حيث ارتبط هؤلاء العلماء والخريجين بمذاهب معينة كالمالكية والشافعية مثلا

(٤) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤.

توازنه الإقليمي والقبلي ، لكن تلك الزعامات الجديدة نزلت إلى مستوى الصراعات القبلية والطائفية والإقليمية وانحدر معظمهم إلى مستوى ثقافي متدني ، حتى أن الناس لم يعد بإمكانهم أن يفرقوا بين الخرافة والإيمان الحقيقي [1].

وظهرت جوانب أخرى ظلت مستمرة في تغذية المجتمع السوداني الإسلامي بالفكر السليم متمثلة في معاهد العلم من مساجد ومدارس وخلوات وكتاتيب خاصة في الدامر مركز الجعليين وسنار والفاشر وقري ، وكان معظمها تحت إشراف حكومي أو زعامة سياسية أو قبلية ، كما كان لبعض الفقهاء مساجد صغيرة قرب منازلهم . وكان الفونج أشهر الزعامات السودانية تشجيعاً للحركة الفكرية منذ البداية .

ومع التغيرات الجديدة التي وقعت في العالم الإسلامي بظهور محمد على كقوة جديدة على أرض مصر وما أرتبط به من أحلام في تكوين إمبراطورية في المنطقة على حساب الدولة العثمانية ، اتجهت أنظاره إلى جنوب النيل فبدأ يخطط لغزو السودان والاستفادة من إمكانية البشرية والإقتصادية [2] الأمر الذي أنعكس على الأوضاع الثقافية والفكرية .

بأت طلائع الجيش المصري في الوصول إلى بلاد النوبة سنة ١٨٢٠م وتمكنت من دخولها في ظل قوات عصرية التدريب، ثم إتجهت إلى سنار ، عاصمة الفونج ، فدخلتها سنة ١٨٢١م، وفازوغلي سنة ١٨٢٢م، وكردفان سنة ١٨٢١م ، وأخضعت شرق السودان وغربه وأصبح السودان جزء من دولة محمد على منذ سنة ١٨٢٥م، وتلاشت الزعامات المحلية أمام قوات محمد على ومشاريعه . وبدأ السودان يرتبط مباشرة بأحداث البحر المتوسط والشرق الإسلامي .

بدأت حركة إصلاحات جديدة في السودان زمن محمد على، من أجل النهوض بالبلاد وخدمة مصالح دولته الكبرى ، فأدخل نظم الحضارة الغربية إلى البلاد ، وطور نظم التعليم على النسق الغربى ، وبدأ في تكوين بعثات من أبناء السودان للالتحاق ببعثاته التى تعود إرسالها إلى أوروبا ، وأسس مدارس عصرية مثل مدرسة الزراعة وغيرها .

---

(١) حسن محمود . المرجع نفسه ، ص ٣٤٧.

(٢) شقير ، المرجع السابق ، ص٩٠.

مصر مثل مدرسة قصر العيني ومدرسة الألسن ، حتى أن مدرسة المبتديان كان بها وحدها أكثر من مائة طالب سوداني .[١]

كان على محمد علي أن يختار مركزا جديدا لإدارته في السودان فأنشأ مدينة الخرطوم [٢] وجعلها مركزاً لحكمه في السودان منذ سنة ١٨٣٠م ، وأقامت بها حامية عسكرية كبيرة ، وتلاحقت بها المؤسست الإدارية والثقافية مما أدى إلى زيادة عدد سكانها خلال فترة وجيزة ، بل أنها أصبحت قبلة للعلم والثقافة من كافة إرجاء السودان الشرقي.

وقع تطور ثقافي جديد على أرض السودان في عهد خلفاء محمد على حينما قرر عباس الأول إنشاء مدارس في الخرطوم ومدن السودان وجعل رفاعة الطهطاوي مشرفاً عليها . وأقبل طلاب دنقلة وسنار وغيرها على الإنضمام للدراسة في تلك المدارس . وكان ذلك أول عهد السودان بالنظم الفكرية والتعليمية الحديثة ، وإن كانت ظلت تابعة للإشراف المصري من حيث البرامج وخطط التدريس ونظم الإمتحانات والقياس وتقييم المؤهلات وإستخدمت الحكومة المصرية في السودان العديد من أبناء تلك المدارس والمعاهد للعمل في إداراتها وأجهزتها .

كما أصبحت كسلا مركزا للثقافة وقبلة للعلم في ذلك العهد بالنسبة لشرق السودان منذ سنة ١٨٤٠م ، وأصبحت مركزا لنشر اللغة العربية وعلومها [٣]. كما رحل بعض العلماء المصريين إلى أرض السودان مع الجيش المصري فقد صحب إسماعيل بن محمد معه نخبة من رجال العلم مثل القاضي محمد الأسيوطي الحنفي ، والسيد أحمد البلقي والشيخ السلاوي . وتزايد وفود هؤلاء العلماء المصريين إلى أرض السودان في ظل إدارة محمد علي وأولاده .[٤] وأوقفت الأوقاف للمساجد ودور العلم والمدارس ومنح المشتغلون بالثقافة والفكر منح وهبات كبيرة.

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥.

(٢) أصبح سكانها أكثر من ٥٥ ألفاً بعد مرور حوالى نصف قرن على إنشائها بعد أن كانت لا تزيد عن خمسمائة منزل سنة ١٨٣٩م أثناء زيارة محمد على للسودان.

(٣) شقير المرجع السابق ، جـ٣، ص ٢٧.

(٤) Trimingam, Islam in the Sudan, P.P : 214-221.

وترتب على هذا العهد انتشار واسع للغة العربية والدماء العربية في كافة أرجاء السودان، [1] واستكملت مجهودات الفونج من قبل، وأسقطت الحواجز السياسية والأقليمية تحت قوة الحاميات العسكرية واندمجت المشيخات والإمارات والأحياء العربية في وطن سوداني واحد ومستقر . وعم الأمن والاستقرار وأصبحت القبائل العربية تتحرك في أمن بلا حواجز عرفية وتمضي وراء المرعى في أى إتجاه ونفذ بعضها إلى أقصى الشرق صوب البحر الأحمر أو إلى أقصى الغرب صوب بحيرة تشاد . واختطلت الدماء من جديد بصورة عامة وتهيأ الجو لظهور سودان جديد ذات ملامح جغرافية وثقافية وحضارية محددة وهو السودان الحالي .[2]

وشجعت الإدارة المصرية بعض الطرق الصوفية التى لاحظت ارتباط أهل السودان بها . فظهرت الطريقة السامانية التى دخلت السودان سنة ١٨٠٠م على يد أحمد الطيب تلميذ الشيخ محمد بن عبدالكريم السوداني وإنتشرت بين عرب الكواهلة . كما نشطت أفكار السيد أحمد بن إدريس الفاسي المصلح الديني الذي تأثر بالأفكار الوهابية ، وتتلمذ على يديه رجال من السودان مثل محمد المجذوب الصغير، والشيخ/ ابراهيم الرشيدي . وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. وشجع محمد على الطريقة السعدية وهى فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهى فرع من الدرقاوية . الأمر الذي يسر جهود الإدارة المصرية في السودان وأعانها على نشر الفكر والثقافة العربية والإسلامية . وبدأ النفوذ المصري يتجاوز حدود السودان صوب أوغندا ومنطقة البحيرات خاصة زمن الخديوى اسماعيل من أجل إكتشاف منابع النيل ووصل النفوذ المصري بالفعل إلى منطقة البحيرات عبر السودان وعبر زنجبار . وتم معاهدة مع ملك أوغندا سنة ١٨٧٤م يعترف فيها بالحدود السودانية المصرية .[3]

وبسبب استخدام الإدارة المصرية في السودان ومنطقة البحيرات العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، الذين قدموا للعمل مع الحكومة المصرية وعمل معظمهم في الإدارة والجيش والتعليم ، ومن هؤلاء : فردريك كايو (١٨١٩- ١٨٢٢) وبريم (١٨٤٧ - ١٨٥٣) ، وكومب (١٨٤٦). وبيكر . وأدى ذلك إلى ظهور العديد من الدراسات

---

(١) عابدين ، المرجع السابق ، ص ٩٨.

(٢) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩.

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٦١. (نقلا عن

والبحوث الميدانية عن السودان وعاداته وثقافاته وظروفه وإمكانياته في المكتبات الأوروبية لأول مرة بالتفصيل ، فأدى ذلك إلى توجيه أنتباه الغرب إلى إمكانيات تلك المناطق من إفريقية .

ترتب على الظروف الجديد التى حدثت على أرض السودان ظهور ثورة ذات صيغة صوفية شعبية هي الحركة المهدية التى تنتسب إلى محمد أحمد ، المولود في جزيرة مزار التابعة لدنقلة سنة ١٨٤٣م، أخذت تلك الثورة شكلاً سياسياً جديداً ترمي إلى الدعوة لتخليص شعب السودان من ظلم الإدارة الجديدة [١]ودعت إلى طرد الأجانب ، وتمكنت تلك الثورة من توحيد الشعب السوداني ، وتطور الأمر إلى إعلان الجهاد لتحرير البلاد من الإحتلال ، وتمكنت خلال تلك الظروف الصعبة من الحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية للسودان ، رغم تحالف حكام مصر مع الإنجليز لمواجهة الثورة المهدية .

لقد كانت المهدية نوعاً من التغييز الجديد يتلاءم مع ظروف السودان وطبيعة تطوره بل أنها استكملت الدور الذي قام به الجيش المصري بحقه، فإذا كان محمد على وأبنائه قد أزالوا الفوارق السياسية والأقليمية للسودان ، وقام المهدي بثورته زمن الخديوى توفيق فإنه بدأ يحاول أن يزيل المذاهب المتعددة في السودان ويجمع السودان على دين واحد ومذهب واحد وطريقة واحدة ، فألغى المذاهب الأربعة ، وروض الناس على الزهد في الدنيا ومجاهدة النفس حسب نهج صوفي واع ، وأحرق كل كتب الفقه والتفسير ، ولم يبق في السودان إلا الكتاب والسنة وكتب التصوف للاستنباط .

وبدأ أن يطبق الحدود الشرعية من قطع يد السارق، ورجم الزاني ، ويعاقب على ترك الصلاة، وصلت أحياناً إلى القتل ،كما فعل المرابطون في المغرب، وفي نفس الوقت فتح باب الجهاد في سبيل الدين ، وحصل على البيعة لقيادة الناس للجهاد وأقام حكومة سلفية صرفة فأنشأ بيت المال وفرض الزكاة والعشور ، وقسم رايات الجيش.[٢]

---

(١) حيث أحس السودانيون بوطأة الحكم المصري ، الذي أدى إلى تغيير سريع في بنية المجتمع السوداني وعاداته ، وخرجت في كثير من قرارتها عن المألوف ، كما أنها فرضت الضرائب على الناس نقداً رغم ما تعارف عليه أهل السودان بنظم أخرى غير النقد وكانت الحكومة تقرب فى بعض الطوائف على هواها ، ولم تلتزم بالعدالة في حكمها . لذلك ردد المهدي في منشوراته بهذه المفاسد.

(٢) نقوم شقير . جـ٣، ص ١٣٩.

وطارت المهدية إلى الافق العالمي حيث وجدت لها انصارا ومتعاطفين في مصر والحجاز وفي المغرب وفي كافة أرجاء العالم الإسلامي ، واعتبرت بحق حركة إسلامية إصلاحية ناجحة تلامت مع ظروف بيئتها في النشأة ثم انطلقت إلى الأفق الإسلامي العالمى الرحب [1]، وقد اهتزلها المسلمون جميعاً ، ورأوا فيها رغبة مخلصة لاصلاح أحوال المسلمين في السودان وفي غيره من مناطق العالم ، وتوجهت الوفود إلى السودان لمباركتها . بل بدأت تتجه المهدية من السودان إلى تحرير مصر من الإنجليز، وإلى فتح باب الجهاد في الحبشة في الجنوب .

لكن الإنجليز وحكومة مصر تحالفا ضد المهدية وعملا على قهرها رغم انتصارات المهدية في البداية [2]، وأعقب ذلك امتداد النفوذ الإنجليزي المباشر والقوي في السودان وأخذ يمتد إلى أرجاء أخرى من افريقية ، وحرمت الساحة الإسلامية من حركة إسلامية فعاله في السودان.[3]

ومن دراستنا لعملية الانتشر العربي والإسلامي في السودان الشرقي نلاحظ مايلي:

١ - أن الجيوش الإسلامية دخلت السودان في وقت متأخر، بعد مراحل طويلة من المزج والانصهار بين العرب وسكان السودان الأصليين . فتمت عمليات المزج والانصهار والتغير ورسم أوضاع جديدة ، فلما دخلت الجيوش بعد انتصار سريع وجدت السودان أشبه ما يكون بقطعة من العالم الإسلامي .

٢ - مازالت الدراسات التى كتبت عن السودان قديمها وحديثها يغلب عليها طابع الوصف والاستكشاف ، الأمر الذي يؤدى إلى طمس دور هذا البلد في مسيرة الحضارة العالمية والإسلامية ، ويؤدى إلى ركاكة الوجود العربي . الأصيل والمثمر بأرضه ، وهذا ما يهدف إليه أعداء الإسلام .

٣ - لايمكن فصل عمليات نشر الإسلام وثقافته في السودان ، وكذلك طبيعة تركيب المجتمع السوداني الحالي عن الطرق الصوفية ، التى مازالت تمثل

---

(١) عابدين ، المرجع السابق ، ص ١٢٨.

(٢) شقير ، المرجع السابق ، ص ١٣١.

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٧٢.

المجازا سودانياً حيا لنجاحهم المستمر في صهر مجتمع متلاطم من النواحي العرفية والسياسية والحضارية حتى أن محمد على وخلفائه ، رغم ايمانهم بالتطور والعصرية ، أدركوا خطورة مقاومة الطرق الصوفية ، ولم ينكروا دورها بل وفروا لها الحماية والرعاية [1]،

٤ - تمكنت القبائل العربية التى توجهت في البداية إلى أرض النوبة والسودان تحت ضغوط سياسية وعسكرية الانتشار في ربوعه ، واستغلال إمكانياته حسب كل منطقة استقرت فيها القبائل ، سواء للرعى إو التجارة أو الزراعة أو التعدين ، وكان انتشارها فاتحة خير لاستغلال أراضي هذا الإقليم الواسع . ومازالت السودان تتميز عن غيرها من الدول العربية والإسلامية بالانتشار العادل للكثافة السكانية والتى تبلغ ٩ . ٩/كم٢ لعدد سكان يبلغ حوالي ٢٥مليون نسمة علي مساحة هائلة تقدر بحوالى مليونين ونصف من الكيلو مترات المربعة . ومازالت المدن السودانية الرئيسية حتى الوقت الحاضر لا تعاني من ضغوط سكانية .

٥ - اذا كان غرض محمد على وأولاده خيرا للاستعانة من الأوروبيين في تطوير السودان إلا أن ذلك كان بداية اهتمامات غربية بالسودان وتوجيه أنظارهم نحو احتلاله واستغلال إمكانياته الزراعية والرعوية والغابية الغنية.[2]، إذ تبلغ مساحة السودان الشرقي حوالي مساحة دول غرب ووسط أوروبا تقريباً ، ومازالت الإهتمام الأوروبى قائماً نحو السودان رغم تغير الظروف والأحوال.

٦ - لا صحة إطلاقاً لما يتردد حول غلبة الدماء الزنجية على السودان ، فمازالت الدماء العربية تمثل ٦٥٪ من دماء البلاد عامة ، والقبائل الحامية والزنجية مجتمعة لا يزيد وضعها عن ٢٥٪ ، والجماعات النوبية حوالي ٤٪. ولم تم

---

(١) مثال ذلك : أم درمان في الغرب عدد سكانها ٥٥٠ ألف نسمة. وسكان ميناء بورسودان حوالى ٢٥٠ ألف نسمة. ووادي مدني حوالي ١٤٠ ألف ، والأبيض حوالى ١٢٠ ألف نسمة ، وجوبا حوالى ٨٠ ألف نسمة . أما الخرطوم ورغم أنها العاصمة فسكانها حوالى نصف مليون نسمة فقط.

- انظر عادل يونس ، العالم الإسلامي اليوم ، ص ٤٨، ٩٧. طبعة ابن سينا بالقاهرة .

(٢) انظر أطلس العالم ، شارل بدران

فصل الدماء الحامية عن الدماء الزنجية لتدنت الزنوجية إلى ٥٪ . الأمر الذى يؤكد عروبة السودان قلباً وقالباً .

٧ - سيظل السودان، رغم ما يتعرض له حالياً ، هو الأمل المعقود للعالم الإسلامي لحل مشكلة الأمن الغذائي العربي والإسلامي . وأنه يمثل حقيقة سلة الغذاء الآمنة والطبيعية للعرب والمسلمين . ويرجع ذلك إلى إمكانياته الهائلة ، فمساحة الأراضي الزراعية تبلغ حوالي ٢٥٠ مليون هكتار من الأراضي الزراعية ، لا يزرع منها حاليا سوى ٧ مليون هكتار . ويوجد به ٢١٥ مليون هكتار من الغابات الطبيعية ، بالإضافة إلى ٢٥ مليون هكتار من المراعى المستديمة . كما أنه لا يعاني من قلة في موارده المائية أو اضطراب في ظروفه المناخية، ولا يحتاج إلا إلى إمكانيات مادية وبشرية لاستغلال طاقاته . ورغم ذلك فإن ظروف ارتباطه بالمجاعة وعدم الاستقرار ترجع إلى ظروف عابرة .[١]

٨ - مهما يقال عن التجربة المصرية في السودان منذ محمد على، فإنها ساهمت في استمرارية السيادة العربية وحماية الثقافة الإسلامية ، وسيادة الدم العربي . لكنها لم تتفهم ظروف السودان بصورة واقعية وفتحته أمام الأجانب الذين حملوا تقاريرهم إلى دولهم حول ثرواته وأسراره . مما جعل قلوب الناس هناك تربط بين الدور المصري والإنجليزي .

٩ - كان للسودان منذ القدم أثراً في حماية الدويلات الإسلامية الصغيرة التى قامت على ساحل البحر الأحمر في ارتيريا وزيلع وغيرها ، فقد وفرت لها عمقاً عربياً وإسلامياً أمام عمليات الإبادة التي تعرض المسلمون لها في تلك الإرجاء على يد حكام الأحباش خاصة منذ العصور الحديثة . واستمرت عمليات تحول الناس إلى الإسلام في تلك المناطق .[٢]

---

(١) تحتوى صادرات حكومات السودان الحالية نسبة كبيرة للمواد الغذائية . الأمر الذي يخلق شكوكاً حول الظروف الصعبة التى تواجه السودان حاليا.

- انظر أحمد هيبة ، الإنتاج الغذائي في الوطن الإسلامي ، ص ٣٥ وما بعدها، القاهرة ، ١٩٨٠.

(٢) العارف ، المرجع السابق ، ص ٨٤.

وقبل أن تنتهى من تتبع عمليات انتشار الإسلام في السودان الشرقي ، كان علينا أن نشير إلى أوضاع المسلمين على ساحل البحر الأحمر الإفريقي الجنوبي ، ومناطق الحبشة . وهى المناطق التى شهدت هجرات عربية وإسلامية مبكرة . الأمر الذي أدي إلى ظهور كيانات إسلامية متعددة على يد التجار والدعاة [1]. وقد وفد النفوذ الإسلامي إلى تلك الأرجاء عبر منفذين هما :

الأول : من مصر والسودان عبر الشريط الساحلى لبلاد البجة .

الثاني : من اليمن والحجاز عبر البحر الأحمر . [2]

وقد تمكنت الجماعات العربية المهاجرة إلى سواحل أرتيريا والحبشة ومدخل البحر الأحمر الإفريقي الجنوبي من الحفاظ على هويتها ، دون أن تستعين بجيوش إسلامية رسمية منذ البداية وأصبحت بلاد عفر والدناقل أرضاً إسلامية ، حيث تمكن التجار العرب من إتخاذ عيذاب ، كرأس معبر من الحجاز إلى إفريقية واستولوا على زيلع وهرر ليتمكنوا من الوصول إلى أعالى هضبة الحبشة ، وبمرور الزمن ظهرت إمارات ومشيخات إسلامية صغيرة ، وبدأ الإسلام ينتشر من قبائل حبشية مثل سوامة وماحولها من قبائل البدو ، ودخل الإسلام كذلك بلاد كوش مثل فتجر وداورة وهدية ويلي وأصبحت تلك المشيخات حاجزا لامتداد النفوذ الحبشي فيما بعد .

الأمر الذي أدي إلى استمرارية الصراع بين تلك المشيخات ، وبين حكام الحبشة حتى العصور الحديثة ، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين ، حتى تمكن أحد القادة المسلمين وهو الإمام أحمد الجرافى من فتح الحبشة وإزالة ملكها سنة ١٥٢٧م . ومنذ القرن السادس عشر أصبحت لقبائل الجالا دورا هاماً في الوجود الإسلامي في أراضي الحبشة .[3]

وخلال القرن التاسع عشر تحولت قبائل الجالا إلى الإسلام على يد التجار المسلمين ودعاتهم واشترك معهم رجال الطرق الصوفية وأصبحت القبائل الساكنة في حوض نهر جبة إسلامية مثل : جما وجيرة وليمو وحيمة وأبا جفار . كما حدث في القرن التاسع عشر أيضا تحول معظم قبائل أرتيريا إلى الإسلام ، وكانت من قبل مسيحية ، ومن أهمها

(١) غيث ، فتحي ، الإسلام والحبشة ، ص ٨٢.

(٢) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(٣) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٧٩/ ١٨٠.

قبائل ماريا وبيلين وأبو غوص ومانسا ويورك ، وقد ذابت تلك القبائل في الإسلام والعروبة . وبدأت تلك المناطق تدخل في صراع شديد مع حكام الحبشة منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .[1]

وهناك أربع مناطق في تلك النواحي من مدخل البحر الأحمر الإفريقي ينتشر فيها الإسلام وهي :

١ - منطقة الساحل الإفريقي للبحر الأحمر ، وسكانها من أهل حاقي ، مثل زيلع وثقافتها عربية .[2] واستمرت منطقة الجزيرة العربية تمدها بالدماء العربية والثقافة الإسلامية باستمرار وتنتشر الجاليات الإسلامية كقوة أساسية في بنادرها .

٢ - منطقة الهضاب العليا الوسطى التى تسيطر عليها إداريا الحبشة المسيحية . ويسكن فيها جماعة الجبرتيه المسلمون وقبائل الجالا وهم مسلمون أيضا .

٣ - السهول الشرقية الجنوبية وهضبة هرر . وهناك منازل للبدو من قبائل عفر والصوماليين وتستقر بعض قبائل الجالا في تلك الجهات ، وهى منطقة إسلامية بالكامل ، رغم تعدد اللهجات واللغات الحامية فيها .

٤ - منطقة جنوب غربي الحبشة وهى منطقة الجيبة حيث دخلت الإسلام جماعات من سكان سدامة والميشاجللو [3]. وقد دخل الإسلام إلى تلك الجهات بشكل هادىء وبطىء بسبب ظروفها الجغرافية .

وأهم الكيانات التي ظهرت هناك هي كما يلي :

أولا : مملكة الشوا الإسلامية .

وهى مملكة ظهرت في إقليم شوا داخل أراضي الحبشة ، وكونت لنفسها كيانا

---

(١) العارف ، المرجع السابق ، ص ٧٢ وما بعدها .

(٢) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ . (٣) مؤنس ، نفسه ، ص ١٨١ .

سياسياً مستقلا نسب إلى اسم منطقتها [1] . وكان حكامها من العرب من بنى مخزوم [2] ، الذي ينتمي إليهم خالد بن الوليد .

ظهرت تلك الدولة منذ سنة ٨٩٦م ، فى ظل ظروف صعبة حيث أنها تكونت وسط بيئة معادية فى الهضبة الحبشية ، وقد استمرت حوالى أربعة قرون في جو معزول عن العالم الإسلامي والعالم الخارجي ، وقد تمتعت خلال تلك الفترة الطويلة بنوع من الإكتفاء الذاتي بسبب مواردها الزراعية والرعوية الكبيرة وملاءمة مناخ الهضبة للاستقرار .

انتهت دولة الشوا الإسلامية بسبب عوامل تفكك داخلية من خلال الصراع بين مناطقها ، مما أدى إلى وقوعها تحت يد عناصر جديدة ودول فئية مثل دولة أيفات التى كانت قد بدأت في الظهور وأخذت في التوسع الخارجي فاصطدمت بدولة شوا واحتلتها سنة ١٢٨٩م بعد عدة معارك بين الجانبين . [3]

ثانيا : مملكة وفات :

وتسمى أحيانا جبرة ، وإليها ينتسب الجبرتي. وقامت على ساحل البحر الأحمر شرق الحبشة. وكانت تضم العديد من القرى الزراعية المتصلة الغنية . وقد امتلكت جيشاً قوياً بلغ عدده خمسة عشر ألفاً من الفرسان ، وعشرون ألفا من المشاة . ويتبع تلك المملكة مدينة زيلع التجارية الشهيرة . والتى كانت نواة للتوسع العربي والإسلامي في الإقليم منذ البداية . وانتشرت في قرارها المعالم الإسلامية من المساجد وغيرها .

ثالثا : مملكة هدبة :

تلي مملكة أوفات من الجنوب ، وطولها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام ، وملكها من أقوى ملوك المنطقة إذ يملك قوة عسكرية قوامها نحو أربعين ألف فارس ، سوى الرجالة .

---

(١) العارف ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ مابعدها .

(٢) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٣) غيث ، المرجع السابق ، ص ٨٥ ومابعدها .

رابعاً : مملكـة داوارو :

تلى مملكة أوفات ، سابقة الذكر ، وبها قوة عسكرية من الفرسان والمشاة .

خامساً : مملكـة أرابيني :

هي مملكة مربعـة المساحـة ، يبلغ طولها أربعة أيام في أربعة كذلك . ولديها قوة عسكرية [١].

سادساً : مملكـة شـرحـا :

وهى تلى مملكة هدبة ولديها قوة عسكرية .

سابعاً : مملكـة بـالي :

تلى مملكة شرحا وطولها عشرون يوما وعرضها ستة أيام . وهى من أخصب الممالك السابقة وأطيبها هواء .

ثامناً : مملكـة داره : [٢]

هى أضعف الممالك السابقة من حيث الرجال والمساحة .

ويبدو أن الممالك كنت تتبع في السيادة إلى سلطان وحاكم الحبشة الذي كانت لديه السلطة في تغيير حكامها عدا مملكة شوا . أما مملكة أوفات فقد كان لها الزعامة عليهم بسبب إمكانياتها الإقتصادي والعسكرية . ويبدو أنها بدأت تتعرض للإزالة في العصور الحديثة على يد ملوك الحبشة بعد ظهور التعاون الصليبي الحبشي في منطقة القرن الإفريقي وجنوب البحر الأحمر . [٣]

وفي القرن العشرين استمرت عمليات التدهور لأحوال المسلمين في الحبشة [٤].

(١) النوري ، المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٣) غيث ، المرجع السابق ، ص ٨٧.

(٤) العارف ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ ومابعها .

حيث استمرت عمليات النقل والإبادة وارتكاب المذابح كان أشهرها مذبحة هرر سنة ١٩٤٧م ، حينما حاول شعب هرر المسلم المطالبة بحقوقه ومساواته بالطوائف الأخرى . كما وقعت مذابح أخرى في كمباشا وفي جرسم وفي سلطنة أوسا سنة ١٩٤٤م ، وفي مقاطعة القرافي ، وبين قبائل دايا سنة ١٩٤٢م .

تاسعاً : قضية أرتيريا :

تقع أرتيريا في الجزء الجنوبي الغربي من ساحل البحر الأحمر الإفريقي . وتتصل بحدودها مع السودان والحبشة والصومال . ومساحتها حوالي ٤٥ ألف كم٢ . وعدد سكانها حوالي ثلاثة ملايين . يبلغ عدد المسمين بينهم حوالي ٧٠٪ من السكان والباقي من المسيحيين . ظلت مركزا إسلامياًنشطا طوال تاريخها الوسيط . وفى العصور الحديثة أصبحت تابعة للدولة العثمانية منذ سنة ١٥٥٧م . إلى ١٨٦٤م .

انتقلت إدارة ساحل أرتيريا إلى حكومة مصر زمن ١٨٦٤م . ثم اتجهت إليها الأطماع الأوروبية حيث سيطرت عليها الحبشة سنة ١٨٨٩م، وظلت تحت الحكم الإيطالي حتى سنة ١٩٤١م . حيث نقلت إدارتها إلى بريطانيا بعد هزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية ، وإمتدت السيادة البريطانية على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر من الشمالي إلى الجنوب .[١]

وفي زمن السيادة البريطانية نشطت عمليات المضايقات ضد مسلمي أرتيريا ، وظهرت أحزاب في الحبشة تنادي بضم أرتيريا إلى الحبشة ، وصدر قرار الأمم المتحدة في هذا الشأن بعد عمليات مقاومة من جانب المسلمين ، حيث أصدرت الأمم المتحدة قرارها سنة ١٩٥٠م بإنشاء حكومة أرتيريا تتمتع باتحاد فيدرالي مع أثيوبيا ، وفي سنة ١٩٥٢م تقدمت القوات الأثيوبية لتمثل أرتيريا وتحولها مديرية أثيوبية يحكمها ممثل عن الإمبرطور . وكان هذا عملاً قاسياً ضد الوجود الإسلامي، حيث بدأت عمليات النزوح والهجرة للمسلمين بعد أعمال العنف ضدهم ، الأمر الذي أدى إلى انخفاض عدد ونسبة المسلمين إلى النصف ليلة الإستقلال سنة ١٩٩٢م. وطمست الشخصية الإسلامية في المنطقة وتدهورت أحوال المنطقة ، حتى لاحظ ذلك المراقبون الذين زاروها في يوم الإستقلال

---

(١) مسعود ، جمال - جمعه ، وفاء ، إفريقية التى يراد لها أن تموت جوعاً ص ١١٤ ومابعدها .دار الوفاء، المنصورة ، مصر .

. حيث ظلت المناصب الكبري والإمتيازات لغير أهل أرتيريا وحولت الساحل إلى مصالح أثيوبية دون النظر إلى مصالح المنطقة وهويتها الحضارية [1] وحرمت السلطات الأثيوبية تدريس اللغات الرسمية في أرتيريا وهما اللغة العربية واللغة التقرينية ، ومنعت استعمالها في المكاتب والإدارات الحكومية ، كما أغلقت المدارس العربية ومنعت دخول الكتب والمجلات العربية إليها .[2]

وبعد تشكيل جبهة التحرير الأتيرية استمرت عمليات الكفاح المنظم لاستعادة حرية البلاد واستقلالها وتكبدت في سبيل ذلك العديد من التضحيات ، حتى أنتهى الأمر بحصول البلاد على الاستقلال سنة ١٩٩٢م ، وأصبحت عضواً في الأمم المتحدة . ومازال أمام أهلها طريقاً طويلاً من أجل البناء وإعادة هوية المنطقة إليها قبل دخول الأوروبيين والأحباش اليها ، وممارساتهم ضد الإسلام وثقافته .

اتجهت أعداد كبيرة من أهالي أرتيريا للعيش خارج حدود بلادهم بعد عمليات الدمج بالقوة مع اثيوبيا سنة ١٩٦٢م حينما صدر قرار الغاء الإتحاد الفيدار إلى ودمجها كاملاً كأحدى أقاليم أثيوبيا في فبراير سنة ١٩٦٢ ، فهرب العديد من أصرار أرتيريا منهم الشيخ/ عمر قادر ، والشيخ ابراهيم وولدياب ماريام . بعد عمليات الإبادة الأثيوبية . وإن كانت أعداد منهم قد بدأت في العودة إلى أرتيريا من الدول الإسلامية المجاورة .

---

(١) مسعود ، المرجع نفسه ، ص ١١٨.

(٢) العارف ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ومابعدها .

(٢)

انسياب الإسلام في السودان

- الأوسط -

أولاً - كانم وبرنو :

تمتد منطقة السودان الأوسط حول بحيرة تشاد ، وإلى الجنوب مباشرة من خط الصحراء بين طرابلس وجبل نفوسة إلى بحيرة تشاد. وعلى امتداد دوائر العرض مع بلاد السودان الشرقي والغربي . أي أنها تمثل منطقة القلب المتوسط بين بلاد السودان الشرقي والغربي من جهة ، وبين واحات الصحراء في الشمال وغابات وأدغال افريقية في الجنوب . وبسبب هذا الموقع المتميز فإنها أصبحت أسرع من غيرها في تلقي المؤثرات الإسلامية منذ البداية .

تقع منطقة بحيرة تشاد وسط عدة أودية من معظم الجهات تحمل إليها المياه العذبة والتربة المتجددة باستمرار ، [١] مما أدى إلى استمرارية مركزها الاقتصادي ، ووفدت إليها جماعات عديدة للاستقرار حولها والاستفادة من مميزاتها . كما أصبحت تلك الأودية بمثابة معابر مستمرة للجماعات وقوافل التجارة بين أجزاء بلاد السودان . حتى أعتقد البعض أن تلك المنطقة قد شهدت أعرق الحضارات الإفريقية منذ عصور الحجرية وقبل أن يحل عصر الجفاف . وكان من أهم شعوبها شعب "صاو" أو "ساو" صاحب الحضارة ، المواطن الذي ينتسب إليه شعب كانم الحالي ، وشعب التوجو . وهم لاينسبون أنفسهم إلى العرب أو البربر أو الطوارق أو المصريين ، مما يدل على أصالتهم في المنطقة [٢].

بدأت طلائع العرب والمسلمين إلى السودان الأوسط منذ منتصف القن الأول الهجري ، ففي سنة ٤٦ هـ/٦٦٦م وصلت قوات المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كاوار [٣] وهو الإقليم الذي يصل بين طرابلس في الشمال وبين كانم في السودان الأوسط في الجنوب

---

(١) أبو عيانة ، الجغرافية الإقليمية ، ص ٢٤٩. الجوهري ، إفريقية الإسلامية ، ص ٣٤٤.

(٢) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٤١ .

(٣) واحة بها مدن وقرى وأسواق شهيرة . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤، ص ٤٣٣.

. وأصبح هذا الطريق منذ ذلك الوقت يحمل المؤثرات الإسلامية الهامة إلى السودان الأوسط . ومن قبل عقبة ، وصل والده نافع بن عبدالقيس الفهري إلى منطقة فزان في خلافة عثمان بن عفان . الأمر الذي يدل على خبرة عقبة بن نافع في تلك النواحي .

وبسبب خبرة عقبة بن نافع أصبحت أعماله لها دورها الكبير في إرساء الأسس لنشر الإسلام في الواحات الصحراوية والسودان الأوسط . فقد استفاد يزيد بن معاوية من جديد من خبرة عقبة ، وعمل على تثبيت الإسلام في مناطق الواحات وإقليم كوار المتد جنوباً حتى السودان الأوسط . وهى البلاد التى تقصدها قوافل التجار باستمرار لجلب الشب والعبيد والذهب ، خاصة تجار جبل نفوسة وطرابلس ، في مقابل تصدير القمح من سهول إفريقية ووديانها .[١]

وقد أدى التداخل عمليات التجارة وحركة القوافل المستمرة بين شمال إفريقية وبين بلاد كانم ، إلى اضطراب الروايات حول تحديد فترة بعينها لدخول الإسلام إلى تلك البلاد . فيذكر البعض أنه قد حدث في بداية القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي ، في خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩- ١٠١هـ/٧١٧- ٧٢٠م) حينما قدم بعض جنوده إلى السودان الأوسط ونشروا الإسلام هناك . وهناك من يذكر أن الإسلام وصل إلى بحيرة تشاد على يد رجل يدعى أبن يزيد الفزاريّ قدم من واحة فزان أو من وادي النيل في القرن الأول الهجري ، وارتبط اسمه باسرة هناك فيما بعد [٢]. أى أن الإسلام قد وصل إلى تلك الجهات مبكرا مع خطواته الأولى في الشمال الإفريقي بسبب قوة الارتباط بين الطرفين عبر الصحراء الكبرى . وإن كنا نرجح الرأى القائل بوصول الإسلام إلى تلك النواحي مع خلافة عمر بن عبدالعزيز .[٣] خلال عمليات التبادل التجاري النشط عبر واحات الصحراء .[٤]

ولما كانت الطرق البرية الصحراوية التى تربط واحات مصر وواحات شمال إفريقية تتجه إلى وسط السودان ، من خلال ارتباط واحات سيوه وفزان وبلما ، فإن حركة القبائل

---

(١) عبدالكريم ، المرجع السابق ، ص ٢٦١.

(٢) Palmer, the Barma Sahara Sudan, P : 39.

(٣) طرخان ، امبرطورية البرنو ، ص ٦٦.

(٤) كاني ، مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقية ووسط السودان ، ص ١٢، ١٣ ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، السنة الثالثة ،ليبيا . سنة ١٩٨١.

العربية التى كانت تحدث في مصر وفي شمال افريقية أصبح لها صدى سريع ومؤثر في السودان الأوسط . الأمر الذي أدى إلى اختلاطات عرفية سريعة في منطقة كانم منذ البداية بين العرب وبين البربر وبين الزنوج . فقد اتجهت إلى بحيرة تشاد جماعات عربية بسبب عوامل اقتصادية وسياسية .[1]

وقد ترتب على تلك الموجات المهاجرة منذ البداية في منطقة كانم ظهور شعب جيد له سماته الخاصة ، ترجع معظمها إلى العنصر العربي ، وتمكن هذا الجيد من هزيمة الجماعات الوثنية خاصة جماعات الزغاوة [2]، وأصبح هذا الجزء من السودان الأوسط يمثل صورة جديدة من صور التأثيرات الإسلامية في المنطقة . وظلت الجماعات الإسلامية في المنطقة تعيش وسط محيط وثنى لفترة طويلة حتى انتهى الأمر بإسلام أول حاكم في بورنو وهو الماى هيوم حلمي (١٠٨٦ - ١٠٩٧م)، الذي أصدر دستوراً عن الإسلام لخلفائه ، يتضمن كيفية دخول الإسلام إلى السودان الأوسط [3].

وكان للفقيه المسلم والداعية محمد بن ماني الدور الكبير في تحول ملوك وزعماء البرنو إلى الإسلام وقد عاش هذا الداعية عمراً مديداً بلغ حوالى مائة وعشرين عاماً . وارتبط بعلاقات ، حسنة مع زعماء وملوك البرنو حتى أصبح المعلم الروحي لهم . فكان

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤، ص ٢٦٠. (مادة كانم).

(٢) قبائل الزغاوة من الشعوب التى تجمع بين الصفات الزنجية والحامية ، وتكتب أحياناً زواوة أو زوارة ، هاجرت من شرق المغرب الأوسط إلى واحات فزان ، ثم هاجرت أغلب جماعاتها صوب الجنوب إلى دارفور . وكان ظهورهم شرق بحيرة تشاد حوالى سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م .

- عبدالكريم ، جودت ، المرجع السابق ، ص ٦٢.

(٣) نص دستور جلي على ما يلي :

١ - أن أول بلد يدخله الإسلام في السودان هو بلاد البرنو وقد دخلها على يد الفقيه محمد بن ماني الذي عاصر خمس سنوات من حكم الماى بولووست سنوات من حكم آركى وأربع سنوات من حكم الملك كاداي هوامي وأربع عشرة سنة من حكم هيوم جلي .

٢ - أن الملك هيوم جلي قد قام بنشر الإسلام مع الفقيه محمد بن ماني لدى عدد من القبائل والأسر التى أسلمت ، وبعد إسلامها أوصى الملك هيوم جلي بحرمة أموالها ودمائها ودعا على من يتعدى على حرمتها بنار جهنم . وأنهى دستوره بالسلام . كما بداه بالبسملة والحمد الله .

- طرخان ، المرجع السابق ، ص ٦٨.

يعلمهم مبادىء وأسس الإسلام والقرآن الكريم ويدرسهم بعض سوره . فقد أقرأ الملك بولو الجزء بين الأخيرين من القرآن الكريم . أما الملك أوكى فقد قرأ بعد سورة يس إلى نهاية سورة الناس . في حين قرأ الملك هيوم القرآن الكريم كله . كما درس السيرة النبوية الشريفة على يد هذا الفقيه .

وانعكست عملية إسلام حكام برنو على سياستهم الداخلية والخارجية فقد قاموا بنشر الإسلام ومبادئه وشجعوا القبائل على دخوله ، كما أسسوا العديد من المساجد والتزموا بالكف عن شن الحروب على القبائل المسلمة ، وحرموا أموال الأسر المسلمة لذلك .أصبحت مناطق السودان الأوسط هدفاً لهجرات العديد من القبائل العربية والبربرية المسلمة منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادين عبر دروب الصحراء المصرية وواحات الصحراء الليبية حتى غلبت معظمها على جماعات الزغاوة أيضا في مناطق شرق بحيرة تشاد جهة منطقة دارفور ، وظلت قبائل الزغاوة بين مد وجزر للتحول إلى الإسلام حتى انتهى الأمر بإسلامها [١] كما كان للتجار العرب دور كبير في نشر الأسلام في تلك الجهات ، خاصة تجار طرابلس عبر واحات ليبيا وإقليم كوار [٢] .

أى أن عملية التواجد الإسلامي في السودان الأوسط كانت قائمة منذ القرن الأول الهجرى/ نهاية السابع الميلادي ، بدليل ازدهار عمليات التبادل التجاري بين الطرفين منذ البداية وترد العديد من تجار العرب والبربر المسلمين على بلاد كانم واستقرار البعض منهم هناك [٣] ، ولكن كانت عملية إسلام الملك هيو جلي هى التى لفتت أنظار الناس جميعاً إلى الإسلام وبدأ التحدث عن الدين الإسلامي بصورة واضحة [٤]. فبدأت تغيرات تحدث في أسماء ملوك كانم وبرنو تحمل في بداياتها أسماء إسلامية ، وعمد آخرون منهم إلى تبديل أسمائهم الوثنية إلى أسماء وألقاب عربية وإسلامية.[٥]

ومنذ القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي بدأ حكام برنو يتلقبون بألقاب

---

(١) مقلد ، حركة المد الإسلامي في غربي افريقية ، ص ١٢٥، جامعة القاهرة .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعسنى ، جـ٥ ، ص ٢٨١.

(٣) Palmer, the Bamu,, P : 16.

(٤) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٥) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٠٥.

إسلامية مثل "أمير المؤمنين" [1] كما أضيفت أعمال إلى هؤلاء الحكام قبل ذكر إسمائهم مثل : أنه أول من حطم المعبد الوثني الضخم الذي كان في كانم حيث لم يجرؤ أحد من الملوك قبله على تحطيمه. وكان أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين الماي دوغة.

وفي عهد الملك كاداى "عبدالقديم" (١٢٥٩ - ١٢٧٨م)" نشطت الدعوة الإسلامية كما نشطت في عهد خلفه عثمان بن زينب (١٢٧٩ - ١٣٠٠م) الذي لقب عند العرب باسم الهادي العثماني ، والذي ينسب إلى عثمان بن عفان ، وقد تسمى بـ" خليفة المسلمين" [2] وجعل ترتيبه في الخلافة بعد الخليفة عمر بن عبدالعزيز الأموي .[3]

ومع بداية القرن السادس الهجري قام حكام برنو بأداء فريضة الحج ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتردد اسم حكامهم من بين حكام الدول الإسلامية في العواصم الكبرى للعالم الإسلامي ، وبدأت برنو ترتبط بعلاقات فكرية وحضارية مع العالم الإسلامي في مصر والحجاز وشمال إفريقية ، كما ارتبطوا بعلاقات سياسية مع حكومات تلك المناطق لأهمية تلك الدول على دروب الحج من السودان الأوسط إلى الحجاز [4]. وأول ملك من البرنو قام بهذا الأمر هو الملك دونامة الذي خلف الملك هيوم جلي في الحكم. ويذكر أن هذا الملك قد قام الملك بأداء تلك الفريضة أكثر من مرة . ويرجع إليه الفضل في أنه بنى أول مسجد كبير في بورنو في مدينة بالاك في شرق كانم [5].

ونتيجة لذلك فقد ازدهرت الطرق التجارية البرية عبر صحراء مصر الغربية وجنوبها إلى بلاد برنو ، وأصبحت القوافل من الجانبين تسلكها ذهاباً وإياباً . خاصة وأن حكام برنو بدأوا يرتبطون بتجارات مصر مباشرة ، وبدأوا في التنسيق مع حكام مصر للقضاء على جماعات البدو وقطاع الطرق الذين يتهددون قوافل التجارة [6] . وازدهرت في تلك

---

(١) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ٧٠ .

(٢) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ٧١.

(٣) كاني ، المرجع السابق ، ص ١٣ .
- طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٤) Palmer, O.P. Cit, P : 62.

(٥) كاني ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٦) القلقشندي ، المصدر السابق ، ص ١١٥.

الفترة مراكز تجارية مثل مدينة قوص في جنوب مصر ، التى أصبحت مركز للقوافل المتجهة أو القادمة من السودان الأوسط عبر درب الأربعين ثم الاتجاه مع نهر النيل وأصبح يوجد في تلك المدينة نقابات تمثل تجار كل سلعة أو جهة ولهم تنظيماتهم المعترف بها في العصر الأيوبي والعصر المملوكي . وقد نمت تلك المدينة بفضل تجارتها مع السودان الأوسط نمواً ملحوظ وازدادت المدينة مساحة وكثافة لتصبح مخزناً لسلع السودان الأوسط وإمارات الهوسا المتجهة إلى مصر .

وانتشرت اللغة العربية في المعاملات التجارية بين تجار وأهالي برنو وكانم ، كمظهر من مظاهر انتشار الإسلام ، وأمتزجت التقاليد الإسلامية مع تقاليد وعادات البرنو حتى سهل انتقال تلك المناطق إلى مرحلة الحضارة الإسلامية [١] وأنصهرت لغات القبائل في لغة واحدة هي اللغة العربية باعتبارها لغة الدين الإسلامي والقرآن الكريم ، بجوار بعض اللهجات المحلية ، وأصبحت اللغة العربية هى لغة التعامل والثقافة [٢].

كما بدأت اهتمامات رسمية بالثقافة العربية من قبل ملوك كانم وبرنو ، فقد حرص هؤلاء الملوك على تنشأة أبنائهم تنشأة إسلامية سليمة ، فقد استدعى الملوك إلى بلا فهم علماء لهذا الغرض منهم العلامة ديلن بن بكرو الذى أشرف على تربية ابن السلطان سلما في بداية القرن السابع الهجري [٣]. وقام بتدريس مبادىء الإسلام ثم العلوم الإسلامية وقرأ عليه العديد من الكتب والمصادر في هذه العلوم. حتى أصبحت قصور حكام كانم منارة للعلوم الإسلامية ، الأمر الذي يجعل البعض يعتقد بأن لفظ كانم يرجع إلى كانوري أى حملة النور [٤] وانتشرت اللغة العربية في البلاد وطبعت البلاد بالطابع الإسلامي منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، كما يلاحظ ذلك على شواهد القبور التى ترجع إلى تلك الفترة .

وبدأت أفواج من شباب كانم وبرنو تتوجه إلى مراكز الثقافة الإسلامية في القيروان والقاهرة وطرابلس للدراسة للتتلمذ على يد العلماء والفقهاء ، وكانت أكثر تلك البعثات

---

(١) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٢٣٩ .

(٣) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٢٩.

(٤) مقلد ، المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

تتجه صوب القيروان الأمر الذي أدي إلى ارتباط أهل كانم وبرنو بالمذهب المالكي ، كما اتجه البعض للدراسة في الأزهر [١] . كما اتصل علماء كانم وبرنو بالحركة الإسلامية العامة التى سادت بلاد السودان من الغرب إلى الشرق منذ القرن الخامس عشر ، فاتصلوا بعلماء تنبكتو وجنى ومالى وسنار وكردفان . وساهموا في عمليات نشر الإسلام وثقافته ، في ظل حماية ورعاية حكامهم .

وأصبحت مدينة ً يحيمي ً عاصمة البلاد من أهم مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الأوسط، وانتشرت المساجد العديدة ومراكز العلم من كتاتيب . وانزوت بذلك العادات والتقاليد الوثنية وتغيرت صورة المجتمعات في بلاد البرنو وكانم [٢] .

وإذا حاولنا تتبع أحوال امبرطورية البرنو ً [٣] وكانم في ظل الإسلام ، فإننا نلاحظ أن الإسلام قد أضاف للنظام السياسي في المنطقة قوة ونفوذا وأصالة في التنظيمات الإدارية بفضل علاقات حكام المنطقة مع النظم الإسلامية والإنظمة المجاورة في العالم الإسلامي . كما أضاف الإسلام تماسكا في بنيان المنطقة بعد عصور التفكك العرقي والقبلي ، فأصبحت البرنو بفضل الإسلام من أقوى دول السودان . كما ازدهرت تلك الدولة ثقافياً واقتصادياً من خلال علاقاتها الوثيقة بالعالم الإسلامي . وأصبح سلطان البرنو من أحد سلاطين الدنيا الأربع. ووضعه مؤرخو السودان إلى جانب خليفة بغداد وسلطان مصر وسلطان امبرطورية مالى المجاورة . ونتيجة لذلك فقد ظهرت على خرائط الجغرافيين قبل غيرها من ممالك السودان ، عند الأوروبيين . السودان، عند الأوروبيين ، حيث ظهرت منذ القرن الرابع عشر الميلادي [٤] وعرفت دولتهم باسم دولة أورجانا ، نسبة إلى أركانا أى رئيس قبيلة .

---

(١) يبدو أن طلاب كانم وبرنو لم يكن مخصص لهم رواق باسمهم بل كانوا يدرسون في رواق التكرور بالأزهر ، وهو الإسم الذي أطلقه المصريون على كل نواحى بلاد السودان .

(٢) مقلد ، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ .

- مؤنس ، الإسلام الفاتح . ص ١٤١ .

(٣) تقع البرنو في بداية الأمر غرب بحيرة تشاد ، وفي فترات الازدهار تتوسع صوب الشرق حتى وصلت أحيانا إلى بلاد النوبة . ويرجع شعبها إلى عناصر الزنوج والصو ثم العرب والبربر.

- دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٩ .

ويتضح من مدلول كلمة برنو [1] أن قبائلها كانت لها شهرة حربية واسعة منذ القدم ، حيث ارتبطت قبائل الكافوري التى عرفت بالبرنو بالشجاعة في الحروب . وقد تمكنت تلك القبائل من السيطرة على طرق القوافل التجارية التى تربط بين غرب السودان وبين شرقه وبين الواحات في الشمال وبين مناطق الغابات الإستوائية . وأضافت الظروف الطبيعية والمناخ عوامل مساعدة لامتداد سيادة تلك القبائل حيث توافرت في مناطقها المياه والأرض الخصبة المنبسطة ، مما ساعد على قيام مراكز تجارية نشطة وقرى زراعية عريقة . وجذبت تلك العوامل قبائل أخرى للهجرة إلى مناطق البرنو.

وكانت قبائل "الصو" من أشهر القبائل التى هاجرت إلى غرب بحيرة تشاد ، حينما تركوا مواطنهم في واحة بلما في إقليم كاوار في القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي . ووفدت أيضا جماعات من قبائل البربر. ومن هذا الخليط ظهرت قبائل الكاغبو الذين أسسوا امبراطورية البرنو، بالإضافة إلى قبائل الكافوري الذين اختلطوا بالبربر أيضا .

وينقسم تاريخ دولة البرنو إلى قسمين اثنين هما :

الأول : العصـــر الكـــائمي :

ويمتد من بداية ظهور دولة البرنو حتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر م.

الثاني : العصـــر البـــرنوي :

ويمتد من أواخر القرن الثامن الهجري /الرابع عشر م ، وحتى القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر م . وفيه تمكنت برنو من إخضاع كانم لسيطرتها . [2]

ويبدو أن بداية ظهور البرنو كقوة سياسية في غرب بحيرة تشاد حتى إمارات الهوسا غرباً قد بدأ مع القرن الثامن الميلادي ، حيث كانت تضم مجموعة من القبائل التى ترجع أصولها إلى الزنوج والتبو والليبيين ، استقروا حول بحيرة تشاد بعد حياة التنقل والترحال الطويلة في الصحراء . وقد أمتد نفوذ تلك القبائل تدريجيا . ومن هذه القبائل

---

(١) أطلقت كلمة برنو على قبائل الكافوري وهي تحريف لكلمة باران أو بارام التى تغني في لغة الصحراء الرجال أو المحاربون .

نوري ، المرجع السابق ، ص ١٦٣

(٢) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٦٦.

ظهرت قبائل الزغاوة التى أسست في البداية دولة البرنو الأولى في إقليم كانم في الشرق ، والتى شملت نفوذها أراضي الصو [١].

وفي القرن التاسع الميلادي تمكنت أسرة جديدة قدمت من الشمال تنتسب إلى أصول عربية وخاصة إلى سيف بن ذي يزيد الحميري من الوصول إلى حكم البرنو والتغلب على الزغاوة وأتخذ حكامها لقب "ماى" أى الملك . [٢] وأنزوى الزغاوة في بعض مناطق جنوب كانم ومناطق أخرى حول بحيرة تشاد . وقد حكم البرنو حوالى أحد عشر ملكاً من سلالة سيف بن ذى يزن ، كما تذكر رواياتهم ، وكان آخرهم عبدالجليل بن شو الذي عرف باسم سالما وقد حكم حتى سنة ١٠٧٥. [٣]

واتخذ هؤلاء المايات من جيمي عاصمة لهم ، ثم نقلوا عاصمتهم إلى مدينة ساميا عند الزغاوة ويعتبر دجو بن إبراهيم الملقب باسم الماى دوجو برمي أهم حاكم من تلك السلالة تمكن من توسيع حدود امبرطورية البرنو بعد سلسلة من الانتصارات الحاسمة على جيرانه . ومن بعد حكم تسعة مايات هم : أرشو بن دجو ، كانوري بن أرشو ، بيومان بن كانوري ، بولو بن بيوما ، أركو بن بولو، شو بن أركو ، جيل بن شو (سالما) ثم حكم الملك هيو الذي بدأت منذ عهده ارتباط الدولة بالاسلام . والطابع الإسلامي في كافة مظاهرها .

بلغت قوة البرنو في زمن الملك هيوم في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، وذلك لتمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة على قبائل البولالا [٤] التى غارت على دولته وكانت تلك القبائل وثنية ومدعومة من قوى وثنية مجاورة . وبعد الانتصار البرنوى عليهم في المناطق الجنوبية من البلاد أجبرهم الملك على دفع الجزية ، وقد أعطى هذا العمل شهرة وسمعة للملك هيوم ولدولة وقواته العسكرية .

---

(١) Palmer , the Barnu, P : 288.

(٢) طرخان ، امبرطورية البرنو ، ص ٥٣ .

(٣) يبدو أن سيف بن ذي يزن الحميري اليمني قد تزوج من نساء السودان الأوسط بدليل ترد اسمه هناك ، واصرار رواياتهم على الإرتباط .

(٤) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٥٣ ومابعده .

استمر خليفة وابنه دو منه (١٠٩٨ - ١١٥١) في الاهتمام بقواته العسكرية وحماية حدود امبراطورية من القبائل الوثنية التى تتحرش به من جهة الجنوب [١]، فأخذ يتتبع تلك القبائل حتى تمكن من القضاء عليهم ودخلت بعضها الإسلام وأجبر البقية على دفع الجزية . وقد بلغت القوات البرنوية في هذا العهد حوالى ربع مليون مقاتل منهم مائة ألف مارس بالاضافة إلى جنود مرتزقة من القبائل الأخرى ، ولذلك زادت شهرة قبائل البرنو وأصبحت أقوى قوة عسكرية في إفريقية جنوب الصحراء. [٢]

وظل اهتمام ملوك البرنو منصباً على الجيش وعلى تنظيم العلاقات مع القبائل المجاورة حيث أنهم يعيشون في حالة حرب مستمرة من جراء الخطر الوثيني التابع في الجنوب . فقد اهتم الملك عبدالله بكر وسالما بن بكر (عبدالجليل) . بهذا الأمر . وتمكنت تلك القوات من الحفاظ على هيبة البرنو وتوسيع حدودهم إلى إمارات الهوسا في الغرب . [٣] ونتيجة لذلك فقد طارت سمعة حكام البرنو إلى شمال افريقية وغيرها من مناطق العالم الإسلامي ، فقد توثقت علاقات البرنو مع الدولة الحفصية في تونس ومع حكام مصر . حيث وصلت حدودهم إلى جنوب مصر وإلى غرب كردفان وإلى حوض النيجر . وإلى واحة نزان شمالاً .

ويبدو أن حكام البرنو قد رفعوا راية الجهاد ضد القبائل الوثنية في الجنوب وفي الشرق وفي الغرب حتى تمكنوا من تحويل بلاد السودان الأوسط إلى الإسلام وأصبحت بلادهم مركزاً هاماً من مراكز الإسلام وثقافة . وتمكن هؤلاء الملوك من الوقوف حاجزاً أمام المد الوثني من قبائل الجنوب التى طمعت في خبرات مدن وأقاليم البرنو المزدهرة ، أو أرادت تقويض الوضع الإسلامي في المنطقة . [٤]

ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي ظهرت المنافسات الداخلية ، وزادت عمليات التحرش الخارجية من القبائل المعادية من الجنوب والشرق ، والتى كان الملوك السابقين قد تمكنوا من هزيمتها وإبعاد خطرها . مما أدى إلى إعادت تشكيل إدارة الإمبراطورية من

---

(١) Palmer, O. P. Cit, P : 156.

(٢) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٦٦.

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٦٤ .

جديد بعد الماى عثمان بن زينب . فقد نقلت العاصمة من جيمي إلى بيرني في المغرب وكان ذلك زمن الماي على بن زينب الملقب بالغازي [١].

كما بدأت تظهر حركة منازعات خطيرة داخل البيت الحاكم فقد قتل الماي ابراهيم بن بيري ولده، ثم قتل هو أيضا بعد ذلك . كما حارب الماي داود بن فاطمة (٣٧٦ - ١٣٨٦م) ابنه وظلت الحرب بينهما فترة طويلة . في الوقت نفسه زادت اعتداءات قبائل البولالا والصو على أقاليم الامبراطورية . وبدأت قبائل الصو ترفع راية العصيان ضد حكام برنو وترمي إلى الإستقلال بأقاليمها .

كانت قبائل البولالا هى الخطر الأول على الامبراطورية الإسلامية وتمكنت تلك القبائل من قائدا عبدالجليل بن سيوكوما من إجراء انتصارات على البرنو . بعد أن تمكن من قتل العديد من حكام البرنو ومن جيوشهم . وتمكن البولالا في النهاية من احتلال إقليم كانم حتى منتصف القرن السادس عشر، حينما تمكن إدريس بن على سنة ١٥٢٦م من استعادتها [٢] .

وقد اعتبر عصر الماى على بن زينب (١٤٧٦ - ١٥٠٣) بسبب محاولاته إعادة هيبة البرنو لدى جيرانها في الغرب والشرق والجنوب ، وخاصة منطقة الهوسا الذين تعرضوا لحلفائه . كما اتجه هذا الماى إلى إحياء معالم الجهاد الإسلامي في منطقة السودان الأوسط لإعادة وحدة امبراطورية برنو الموحدة ، حتى لقب بالغازي . ومن زمن الماى إدريس بن على (ابن عائشة) تطورت قدرات الجيش البرنوي في المنطقة وتمكن من إحراز انتصارات على القبائل الوثنية في نهاية القرن السادس عشر [٣] . وكذلك أمن حدود دولته من الغرب بانتصاراته على الهوسا ، وخصص الكثير من وقته لحرب القبائل الوثنية في الجنوب وخاصة قبائل "تلالة" التى كانت تسكن جزائر بحيرة تشاد ، وكانت تلك القبائل أشد خطرا على المسلمين بسبب وجودها داخل أراضي البرنو . وقد نجح الماى إدريس من تشريدهم وطردهم إلى المستنقعات . [٤]

---

(١) Palmer, O. P. Cit, P : 213.

(٢) Ibid, P : 228.

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١١٨.

(٤) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ١٢١ .

وقد اهتم الماى إدريس بالحركة الثقافية في بلاده ، فقد أمر ببناء العديد من المساجد من الطين اللين بعد أن هدم المساجد القديمة المبنية من القش [1] . واعتبر عصره عصر إيمان وقوة للمسلمين . وبوفاته دب الضعف في أوصال البرنو ، حيث بدأت القوى الوثنية التى كانت تتربص بالبرنو في التحالف مع الأوروبيين وتحصل على ما تحتاجه من السلاح منها كما تعرضت أقاليم البرنو للجفاف والمجاعات وكان آخر تلك المجاعات الشهيرة زمن الماى محمد بن الحاج حمد في منتصف القرن الثامن عشر . كما ظهرت اضطرابات في كافة أقاليم الدولة من غارات البربر والطوارق الأمر الذي أنهك قوى البلاد . [2]

اضطر سلاطين البرنو في النهاية إلى الإستعانة بقائد يدعى محمد الكانمي كان يعيش في القاهرة ، فتوجه صوب بلاده وحاول إعادة مجد البرنو ولكن الوقت قد أنتهى حيث سيطرت إمارات الهوسا على أجزاء من البرنو من الغرب وأصبح سلاطين البرنو لا حول لهم ولا قوة . وتوفى محمد الكانمي سنة ١٨٣٥ دون أن يحقق هدفه . كما تعرضت أقاليم البرنو لغارات من السودان الشرقي ، حينما تمكن رانج بن الزبير سنة ١٨٩٣م من احتلال باجيرمي وشرق برنو ، وظل هناك حتى طرده الفرنسيون سنة ١٩٠٠ منها .

تأثرت البلاد بالحركات الاصلاحية التى ظهرت في الصحراء الليبية من قبل رال السنوسية فأنتشرت فيها الزوايا ، وكثر نشاط الدعاة للحفاظ على الأوضاع الإسلامية من زحف الوثنية . كما تأثرت بالأفكار التى ترددت عن المهدية بالسودان الشرقي . لكن الأستعمار الفرنسي الذي وصل إلى البلاد عمل على التعدى لكل تلك التيارات الإسلامية ، بل أنه عمل على الحفاظ على وضع القبائل الوثنية [3]. وعملت فرنسا على إضعاف سلطة سلاطين البرنو . وبدأت عمليات استغلال خيرات البلاد خارج حدودها لصالح المستعمر الجديد .

كان سلاطين برنو قد أصبحوا تابعين لسلطان كانم منذ سنة ١٨١١ م وانتهت بذلك امبراطورية البرنو وعادت مدينة صغيرة مقرها العاصمة وتابعة لحكام كانم . وتبع سلطان

---

(١) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٢) Palmer, O. P. Cit, P : 245.

(٣) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

كانم بعد ذلك للنفوذ الفرنسى [1].

وتشغل حاليا دولة تشاد معظم مساحة امبراطورية كانم والبرنو السابقة وهى دولة داخلية حبشة ، تقع في وسط إفريقية بين دائرتي عرض ٨ - ٥٣ شمالاً ومساحتها ١,٢٨٤,٠٠٠ كم٢ . ويبلغ عدد سكانها حوالى خمسة ملايين نسمة ومازال إقليم كانم في تشاد أهم أقاليمها الزراعية الحالية ، ويقع شرق بحيرة تشاد. [2]

تصل نسبة المسلمين في تشاد الحالية إلى حوالى ٨٥٪ من السكان [3] . كما تبلغ نسبة الأقلية المسيحية حوالى ٦٪ . [4] بينما مازال ٩٪ من السكان على وثنيتهم وأهم اللغات المستخدمة في تشاد هي اللغة الفرنسية التى فرضت في عصر الاستعمار الفرنسي على الإدارة الحكومية والحياة الفكرية والثقافية . وبالإضافة إلى ذلك توجد اللغة العربية ولغة الهوسا ولغة الكانيمو . ويشكل العرب ٣٠٪ من سكان تشاد من الناحية العرقية . والقبائل السودانية حوالى ٢٥٪ [5].

---

(١) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ١٣٩ .

(٢) أبو عيانة ، الجغرافية الإقليمية ، ص ٤٨٤ .

(٣) عادل يونس ، العالم الإسلامي اليوم ، ص ٧٨ .

(٤) ظهروا بعد عمليات التنصير خلال العصر الاستعماري الأوروبي .

(٥) عادل يونس ، المرجع السابق ، ص ٨٦ .

ثانيا - إمـــارات الهـــوســـا : [1]

شكلت الهوسا أو الحوصة إقليما ممتداً بين جبال العير وبين شرق النيجر . حينما استمر الصراع بين قوتين من قوى السودان هما : امبراطورية البرنو من الشرق وملوك مالي وصنغي من الغرب ، وبالإضافة إلى قوى البربر والطوارق من الشمال والقوى الوثنية المتحفزة من الغابات في الجنوب . فظهرت في تلك المنطقة إمارات الهوسا.

ساعدت الظروف الاقتصادية المنتعشة التى عمت بلاد السودان منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، على ظهور إمارات الهوسا السبع بين السودان الأوسط والسودان الغربي على حدود البرنو من الغرب ومالى وصنغي من الشرق . بفضل موقع إماراتها المتميز على خطوط تجارة القوافل وحركة القبائل بين بلاد السودان ، أي أن شعوب تلك الإمارات عبارة عن خليط من شعوب السودان والبربر والزنوج قدموا إلى شرق نهر النيجر سعيا وراء الاستفادة من أعمال التجارة ، أو البحث عن مراعى جيدة في منطق السهول الفسيحة التى تمتد نحو الشرق [2].

وفي تلك الفترة وفرت جماعات عديدة من البربر تحت ضغط قبائل بني هلال وبني سليم من الشمال من واحة أير [3] وإتجهت للاستقرار في منطقة إمارات الهوسا ، وبدأ اختلاط واسع منذ البداية بين تلك العناصر [4] ، الأمر الذي أعطى لشعب الهوسا صورة إسلامية مبكرة قبل غيره من كيانات السودان الأوسط والغربي [5] .

---

(١) تتكون من مقطعين هما : هاو : بمعنى راكب ، وسّاً بمعنى ثور . أى راكبي الثيران وهى كلمة تطلق على شعوب إفريقية منتشرة بين السودان الأوسط والسودان الغربي ، وهى حالياً تعنى لغة تسود بين العديد من سكان الكاميرون ونيجيريا وتشاد والنيجر ويتحدث بها حوالي ثمانون مليوناً من سكان تلك الدولة ، ويرى البعض أن اسمها مشتق من الشرق .

- عادل بونس ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٢) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٣) واحة تقع إلى الشمال مباشرة من إمارات الهوسا في الصحراء الكبرى ، وكانت مركزاً لجماعات عديدة من البربر .

- انظر الخارطة بالملاحق .

(٤) مؤنس ، الإسلام الفاتح . ص ١٤٧ . (٥) مؤنس . المرجع السابق . ص ١٤٨ .

وترتب إمارات الهوسا كما يلي : كانو ، كاتسينا ، زارية ، رانو ، صوبير ، بيرم ، دارا [1] ويبدو أنها كانت قرى صغيرة تعتمد على الزراعة والرعى ، ثم تحولت إلى مراكز تجارية هامة بسبب موقعها ، وأصبحت مطمعاً للعديد من الجماعات للهجرة إليها فزادت مساحتها وعدد سكانها في فترة وجيزة ، وتطورت حضاريا بفضل إلتقاء العديد من العناصر على أرضها . ثم تطورت سياسيا وأصبح لكل منها إدارته السياسية ومكانته الإقليمية ، ثم أصبح لها قوتها العسكرية للحفاظ على تلك المكاسب . [2]

والحق أن إمارات الهوسا السبع أصبحت متنفساً للضغوط التى تواجهها الجماعات المسلمة في مالي وصنغي ، في الغرب ، قبل تحول حكامها إلى الإسلام ، وكذلك للمسلمين في الشرق قبل تحول ملوك البرنو إلى الإسلام أيضا . كما كانت متنفساً للضغوط التى تعرضت لها منطقة شمال افريقية أبان هجرات بني هلال وبني سليم نحو الغرب [3] . ولذلك ظهرت فيها مظاهر الحياة الإسلامية منذ البداية خاصة في الإمارات الشرقية المجاورة لحدود البرنو . وهى الإمارات التى خضعت كثيراً لتقود حكم ملوك البرنو . كما كان ملوك البرنو بعد اسلامهم يشجعون الدعاة وعمليات نشر الإسلام في تلك الإمارات .

وكان لقبائل الونقارة الفضل الكبير في انتشار الإسلام بصورة عامة بين إمارات الهوسا وقد قدمت تلك القبائل إلى إقليم كانوا . كما قصدها العديد من العلماء من شمال إفريقية للدعوة إلى الإسلام ونشره بين أهلها ، وأسس بعضهم مراكز لهذا الغرض بدعم من التجار ، الذين كانت لهم مراكز عبر تلك الإمارات . فأنتشر فيها المذهب المالكي الذي أخذ يدرس بين أهلها . [4]

ولما كانت تلك الإمارات تمثل دولة حاجزة بين قوى السودان الأوسط والغربي ، فإنها تعرضت باستمرار لعمليات غزو من الجانبين ، حتى أنها كانت في كثير من الأحيان منقسمة بين نفوذ القوتين الشرقية والغربية ، الأمر الذي دفع أمراء الهوسا إلى توحيد

---

(١) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٥٢.

(٢) مؤنس ، لمرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٣) جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ص ٩٨ .

(٤) نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية ، ص ١٠٦ .

جهودهم لصد هذه الأخطار ، وقد وقعت بينهم وبين البرنو معارك خاصة زمن الماى إدريس الذي احتل إمارة كانو . [١]

ويبدو أن ظروف ظهور إمارات الهوسا دفعت حكامها وسكانها نحو الإهتمام بالأنشطة التجارية للاستفادة من خيرات بلادهم ، ولتجنب الصدام المستمر مع القوى المجاورة ، فأشتهرت تلك الإمارات بنشاطها التجاري المميز ، حيث ارتبطت بشهرة في الوساطة التجارية وعقد الصفقات بين التجار [٢] . بل أن زعمائها أرتبطوا بعمليات التحكيم التى كانت تدور بين القبائل الإفريقية لإنهاء حالات الحرب والتوتر وإقرار السلم في المناطق المجاورة ، وأرتبط أهلها بالحكمة والتجربة والفكر . [٣]

حتى أن الرقيق الذى كان يجلب من تلك الإمارات تميز عن غيره من الرقيق السوداني فارتبط بالذكاء والبراعة والحكمة واتقان العمل ، لدرجة أن الأوروبيين حينما دخلوا أراضي تلك الإمارات وجدوا سكانها على درجة كبيرة من الوعى الحضاري أكثر من غيرهم من سكان البلدان المجاورة .

وفي ظل تلك الأوضاع المميزة للإمارات انتشر التعليم والثقافة الإسلامية وظهرت الحركات الإصلاحية خاصة منذ القرن الخامس عشر على أيدى زعماء مثل : محمد رونقات ومحمد كوارد ، ومحمد رابو وهم حكام إمارات كانو وكاتسينا وزارية . كما وصلت مجموعة من العلماء للدعوة إلى الإسلام وترسيخ مفاهيمه بين الناس ومن أشهرهم محمد بن عبدالكريم المغيلي ، الذي لاقت أفكاره شهرة ورواجاً بين سكان الإمارات ، وقد عاصر هذا العالم حاكم كانو وهو محمد رونقا ، الذي تبني العديد من آراء التلمساني الإصلاحية والتى كان أثرها في النواحي الإجتماعية والسياسية في إمارته . كما ألف عنها الكثير العالم المصري جلال الدين السيوطي (١٤٤٥ - ١٥٠٥م) الذي ألف عن ممالك السودان وأهتم بإمارات الهوسا .[٤] فترة جديدة وأهتم حكام الإمارات بإنشاء

---

(١) نوري ، المرجع نفسه . ص ١٧٥ .

(٢) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٤) نوري ، المرجع نفسه ، ص ١٠٦ ، ١٠٧

المدارس وبناء المساجد ونشر التعليم بين سكان إماراتهم ، [1] واستضافوا العديد من العلماء فبدأت نهضة ثقافية شاملة عند الهوسا برز على أثرها العديد من العلماء من أبناء البلاد الذين قادوا حركة الاصلاح في بلادهم ، كما كان لهم تأثير في نشر الإسلام في المناطق المجاورة [2] ومن أهمهم العالم محمد . ابن محمد الكاتسنياوى في القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم المصلح الشهير عثمان بن محمد بن فودى [3] الذى تمكن في القرن التاسع عشر من نشر أفكاره الاصلاية ودعا إلى قيام نظام الخلافة الإسلامية وحماية الإسلام في بلاد السودان من أعدائه ، وقد تبنى مبدأ الخلافة الإسلامية على أرض الهوسا وعرفت باسم" خلافة سوكوتو" [4] وبسبب أوضاع امارات الهوسا المختلفة وما تتمع به كل إمارة من ظروف داخلية أثرت في عمليات نشر الإسلام بها وفي تطورها الحضاري ، فإننا سنحدد ظروف كل إمارة وأوضاع الإسلام والمسلمين بها كما يلى :

---

(١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٤٧

(٢) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٣) ولد عثمان سنة ١٧٥٤م وتربى وشب على حب الإسلام والتبحر في علوم وثقافته . واشتهر بالتقوى والورع والزهد ، مما أدى إلى إجتماع الناس حوله ، فأسلم على يده العديد من سكان المناطق الوثنية . وصار لأتباعه قدراً هاماً في المنطقة ، فلما استوثق من قوة اتباعه أعلن الجهاد الإسلامي سنة ١٨٠٤م وانضم إليه الكثير من سكان المنطقة والمناطق المجاورة له واتخذ لنسه لقب الشيخ وأمير المؤمنين وأخضع عدداً من إمارات الهوسا نها جديد وكاتسينا وزارية ونوبه وكبه وأنشأ بذلك سلطنة إسلامية واسعة جعل من سوكوتو عاصمو لها .

اتجه عثمان بعد ذلك شرقاً لضم بلاد البرنو فتصدى له قائد يدى محمد الكانمي استدعى من قبل حكام برنو للاستفادة منه ضد غزو عثمان ، وانتهى الأمر باتفاق الجانبان على التصالح ووقف القتال .

اتجهت قوات عثمان بعد نشر الإسلام في الغرب جهة النيجر منذ سنة ١٨١١م وأعلن على الوثنين حرباً طويلة وتمكن من نشر الإسلام في مناطق الغابات حتى الكاميرون ، وكان ذلك بفضل قائده آر إدماوُ الذي توفى سنة ١٨٤٧م وكان عثمان قد توفى سنة ١٨١٨م وإنقسمت سلطنة إلى قسمين بين أخيه عبداله (عبداللاى) وابنه محمد . الأول في الولايات الشرقية والثاني في الغرب .

- انظر مؤنس ، المرجع السابق ، ص

- انظر مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٣٠، ١٣١ .

(٤) كاني ، المرجع السابق ، ص ٢٠ - ٢١ .

(١) إمـــارة كاتستيـــا :

من أهم إمارات الهوسا من الناحية التجارية ، حيث كانت مركزاً تجارياً هاماً بين تجارة لسودان الغربي من جهة وتجارة السودان الأوسط ومصر من جهة ثانية ، خاصة زمن مالي وصنغي . فقد كان الطريق التجاري الرئيسي الذي يبدأ من البهنسا في صعيد مصر ويتجه إلى الجنوب الغربي نحو الفرافرة والواحات المصرية ثم واحات الصحراء الليبية ، يصل هذا الطريق إلى مالي عن طريق كاتسينا . الأمر الذي جعل الإسلام يظهر فيها قبل غيرها من إمارات الهوسا ، وخاصة منذ القرن الرابع الهجري . وإن كان أول من أسلم من حكامها هو الساركن محمد كورا في سنة ١٣٠٠م [١].

استقر بتلك الإمارة مجموعة من العلماء والدعاة كان لهم فضل هام في نشر الإسلام في تلك الإمارة وماحولها ، حيث كان يتم عقد حلقات التدريس في المسجد الكبير للامارة . كما بدأت في تلك الإمارة عملية نسخ الكتب الإسلامية ، مما جعلها مركزا من مراكز تطوير الحركة العلمية في افريقية الغربية والوسطى ، وقد زارها جلال الدين السيوطي [٢] من القاهرة وأقام بها فترة للتدريس ، وكان السيوطي صديقاً لأميرها ، الساركن ابراهيم ماجي . وألف السيوطي فيها كتاباً بناء على طلب الساركن وأهاء إليه بعنوان رسالة الملوك وهذا اعتراف من السيوطي بمكانة تلك الإمارة .

---

(١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٢) هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد سابق الدين السيوطي . لقب بجلال الدين . إمام ومؤرخ وحافظ وأديب تربو مؤلفاته على الستمائة مجلد . ولد في القاهرة سنة ٨٤٩هـ - ١٤٤٥م ونشأ يتيماً ، فمات أبوه وعمره خمس سنوات . فلما بلغ الأربعين اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل منزوياً عن أصحابه جميعاً، ومن ثم كانت الفرصة مواتية له لاجراج هذا الوحيد الضخم من المؤلفات .

حفظ القرآن الكريم دون ثماني سنين ، وحفظ أهم مصادر الحديث والفقه واللغة . وأخذ العلم عن مشاهير لمصر . وبدأ في التبحر في علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع . وأشتغل طول عمره بالتدريس والفتيا ، ثم أعتزل التدريس والفتيا وألف كتابه النفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس .

توفي القاهرة سنة ٩١١هـ - ١٥٠٥م .

- انظر حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ١٨٨ ومابعدها ,

ونستخلص من تاريخ الإمارة أن حكامها كانوا يشجعون العلم ويبذلون لأهله وطلابه ، ويرحبون بالعلماء الذين قدموا إليهم من مصر والقيروان وبلاد المغرب ، ويغرقون عليهم الهبات والمنح ، فأستقر بها العديد منهم ، كما استقرت بها جاليات إسلامية من التجار العرب والبربر لانجاز معاملاتهم في المنطقة .

ويمكن تحديد العوامل التى أدت إلى النشاط الإسلامي في الإمارة وسرعة تطورها الحضاري قبل غيرها من إمارات الهوسا بما يلي :

(١) موقع الإمارة على دروب التجارة عبر نطاق السافانا وبين دروب الصحراء الشمالية وطرق الغابات والأدغال في الجنوب . فكانت همزة وصل بين أقاليم متنوعة وأخباس شتى . فسارع العديد من التجار المسلمين إلى الاستقرار بها منذ البداية وأسسوا مساجدهم ومارسوا حياتهم الإسلامية .

(٢) قرب الإمارة من بلاد البرنو من جهة الشرق ، وهى البلاد التى أصبح حكامها من أهم حماة الإسلام ورسالته في بلاد السودان قبل غيرهم من حكام المناطق المجاورة وعمل حكام البرنو على نشر الإسلام في المناطق المجاورة ومنها إمارات الهوسا وبالتالي استفادت كاتسينا من هذا الأمر [١].

(٣) اضطراب أحوال التجار المسلمين في مدينة تمبكتو في القرن السادس عشر ، وبالتالي هجرة العديد من تجارها وعلمائها وفقهائها إلى كاتسينا ، وأتخذوا مقرا ومقاما ، كما بدأت ، وفود من التجار العرب والبربر تتوجه للإقامة بها بعد أن أصبح الإسلام عاماً بين سكانها .

(٤) اهتمام أمراء كاتسينا ورعايتهم للحركة الإسلامية بها ومباركتهم نشر الإسلام وثقافته بين سكانها وبين سكان القبائل المجاورة لهم ، واحترام العلماء الذين قدموا إليها فقد تولى رجل من العرب الذين قدموا إليها من برنو منصب رئيس القضاة في إمارة كاتسينا سنة ١٥٢٠م ويدعى محمد بن أحمد [٢]، وكان لهذا المنصب أهمية في الإمارة.

(١) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٥٩.

(٢) مقلد ، المرجع نفسه ، ص ١٦٠.

(٢) إمـــارة بيـــرم :

ترجع أهميتها إلى أنها أول إمارات الهوسا التى استقرت بها شعوب الهوسا قبل ظهورهم كقوة اقتصادية وسياسية في المنطقة بين السودان الشرقي والسودان الغربي . كانت في بداية عهدها قرية صغيرة ، تطورت ونمت بفضل وحدة قبائلها لتصبح قوة في المنطقة خاصة وأنها كانت تقع وسط محيط زراعي ، ويتوافر حولها أراضي زراعية خصبة شرق نهر النيجر مما أتاح ظروفاً مناسبة لنموها . بالإضافة إلى استفادتها من أهمية موقعها التجاري بين إمارات الهوسا .[١]

ويسبب بعدها النسبي عن طرق التجارة الإقليمية بين مناطق السودان وبين بلاد البربر ، واقتصار دورها على تجارة إمارات الهوسا ، فقد لاحظ الرحالة تأخر ظهور الإسلام بها ، حيث ظل غالبية سكانها على الوثنية حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي [٢] ، وإن هذا الأمر لم يمنع وجود جماعات مسلمة بها من بين سكانها الأصليين

وكانت أهم مؤثرات نشر الإسلام وثقافته بها قادمة إليها من إمارات الهوسا المجاورة ، خاصة مع بداية القرن الخامس عشر . وبدأ تحول شعبها إلى الإسلام وأصبح لهم دور في الحياة الثقافية لإمارات الهوسا . وقد لمس أهلها الأثر الكبير الذي انعكس على حياتهم بعد اعتناقهم الإسلام .

(٣) إمـــارة جـــوبير :

تقع في شمال إمارات الهوسا . أدى قربها من مواطن الفولانيين [٣] إلى سرعة انتشار الإسلام بين سكانها ، حيث أصبح الفولانيون أهم دعاة الإسلام في غرب السودان

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧٠٤ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧٠٤ .

(٣) الفولانيون شعب من الرعاة موطنه حوض السنغال ، ثم انتشر حتى وصلت مواطنه إلى بحيرة تشاد ، واشتهر منهم أربعة فروع في السنغال وغينيا والهوسا ونيجيريا وقد دخلوا الإسلام على أيدى المرابطين منذ القرن الحادي عشر وأصبحوا عماد الإسلام في بلاد السودان الغربي حتى أصبحت مراكزهم في الغرب أهم مراكز الإشعاع الإسلامي في بلاد السودان الغربي ، وأصبحوا حلفاء للمرابطين . وقد تمكنوت من حماية السودان الغربي من هجمات الطوارق من الشمال وقبائ =

منذ نهاية العصور الوسطى ، وتحولوا إلى قوة إسلامية واضحة منذ القرن السادس عشر . فأصبحت إمارة جوبير من أهم مراكز الإسلام في إمارات الهوسا.

ظهر بها الداعية عثمان بن محمد بن فودي ، وصول شعبها إلى قوة إسلامية قوية في المنطقة وجعل منها ركزاً لأفكاره ومبادئه ، وقاد حركة الجهاد الإسلامي في المنطقة فتغيرت أنماط الحياة في الإمارة وبعدت عن التقاليد الوثنية . وأصبحت الإمارة يغلب عليها عنصر الفولانيين منذ القرن التاسع عشر حيث استقروا بها وامتزجوا بسكانها ثم صارت لهم الغلبة عليها ، وهو الأمر الذي عمل بانهيار اتحاد إمارات الهوسا .

(٤) إمـــارة دارا :

تقع إلى الشرق من حوض نهر النيجر . ظلت على وثنيتها حتى العصور الحديثة حينما تمكن الفولانيون من تحويل شعبها إلى الإسلام بعد إخضاعها سنة ١٨٠٥م بعد انتصارات زعيم الفولانيين إبراهيم سايرو في النيجر ، ولم تنجح محاولات أميرها لاستعانة بالسلطان أحمد بن دونامة سلطان برنو .

تمكن الفولانيون بفضل إعلانهم راية الجهاد الإسلامي ، واستقرارهم في الإمارة من تحويل شعبها - إلى الإسلام في القرن التاسع عشر . وأصبح شعبها جزءً من خلافة عثمان بن محمد الإسلامية . وزالت عاداته الوثنية .

(٥) زاريـــة :

إمـارة تقع إلى الجنوب من إمـارات الهـوسـا ،قـرب خط الاسـتـواء والغـابات الإستوائية[1] كانت في البداية قرية صغيرة من قرى الهوسا ،تسرب إليها الإسلام عن

= الموشي الوثنية من الجنوب وفي منتصف القرن الثامن عشر استقرت جماعة منهم في إمارة جوبير ، بعد أن تمكن زعيم منهم وهو إبراهيم سايدور من أن يبسط سلطان على وسط النيجيـر ، ويمد سلطانهم إلى شرق النيجر وإمارات الهوسا. وأصبح بذلك الفولانيون أنشط جماعات السودان في العصور الحديثة . وقد ولد من بينهم في إمارة جوبير المصلح والزعيم عثمان بن محمد بن فوديو . وظلت إمارة جوبير مركزا هاماً لأفكار عثمان وأتباعه .

- انظر : مؤنس ، المرجع السابق ص ١٢٩، ١٣٠ .

(١) طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، ص ١٠٤.

طريق التجار الذين قدموا إلى مناطق الغابات . وكان تحول أهلها إلى الإسلام تحولا بطيئا بسبب وجودها في محيط الجنوب الوثني .

وبسبب موقعها وفدت إليها جماعات من البربر والتجار المسمين واستقروا بها واختلطوا بسكانها مما أدى إلى تحول سريع بين أهلها إلى الإسلام . وبدأ أبناء الإمارة التوجه إلى المراكز الإسلامية في الشمال من أجل التعرف على الرسلام وثقافته من مراكز إمارات الهوسا الأخرى مثل كانو وكاتسينا ، كما توجه البعض منهم للدراسة في الأزهر والتحقوا برداق التكاررة حيث درسوا المذاهب المالكى المنتشر في بلاد السودان عامة. [1]

ويتضح أهمية إمارة زاريا كمركز متقدم من مراكز الهوسا والحضارة الإسلامية نحو خط الغابات الإستوائية ، حيث تقع إلى الجنوب من بلاد السودان بالقرب من المناطق الوثنية ، وقد دعم مركزها وفود العديد من العلماء لنشر الإسلام في المناطق المجاورة لها، وكانت زارية هى مركز هذا النشاط . وقد أدى هذا النشاط إلى تحول قبائل الصو والجوكون والسكورافا الوثنية إلى الإسلام .

(٦) رانـــو :

إمارة تقع بالقرب من إمارة كاتسينا وإمارة كانو [2] . بدأت تشهد تطوراً على أرضها منذ بداية العصور الحديثة ، لأهمية موقع بلادها على طرق التجارة بين إمارات الهوسا ومناطق السودان الغربي والسودان الأوسط .

وفد إليها العديد من العلماء والدعاة والفقهاء من برنو وكانو ومالى وصنغي للدعوة ونشر الإسلام بين سكانها ، الذين ظلوا على وثنيتهم ، كما أصبحت مركزا لاستقرار العديد من التجار المسلمين . ومنذ القرن السادس عشر أصبحت مركزاً من مراكز الحضارة الإسلامية بعد تحول شعبها إلى الإسلام واتصاله بمراكز الحضارة الإسلامية المجاورة وأصبح لهم دور في نشر الإسلام في مناطق الوثنية الأخرى [3].

---

(١) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٦١ .

(٢) انظر الخارطة بالملاحق .

(٣) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٤٧.

(٧) كـــانو :

هى أكبر وأهم إمارات الهوسا على الإطلاق من حيث المساحة والنشاط السياسي والدور الإسلامي في المنطقة ، وقد استفادت الإمارة من إمكانياتها الإقتصادية وموقعها الاستراتيجي على طرق التجارة الرئيسية بين بلاد السودان . كما استفادت من موقعها على حدود بلاد البرنو ، حيث تقع إلى الشرق من إمارات الهوسا . ولذلك فهى تعتبر من أقدم إمارات الهوسا تحولاً إلى الإسلام ، كما تحتل مركزا بارزاً في الأنشطة الإسلامية لبلاد الهوسا.

أصبح لإمارة كانو أهمية خاصة في بلاد الهوسا وبلاد السودان عامة ، بحيث أصبح علماؤها ورجالها من أبرز مثقفى ورواد الحركة الفكرية لبلاد السودان وتوازي مكانتهم مكانة علماء تمبكتو وصنغي ومالى وبرنو وغيرها [١] الأمر الذي عجل بتحول حكامها إلى الإسلام . وكان أول من أسلم من حكامها هو باجودا .

أخذت مظاهر الحياة الإسلامية في كانو مظهرا نشطاً فقد ارتحل شبابها لطلب العلم إلى مراكز الحضارة الإسلامية في الدول المجاورة من بلاد السودان وإلى القاهرة وإلى القيروان وإلى بلاد المغرب الأقصى . كما واظب ملوكها على الخروج لأداء فريضة الحج عبر طرق القوافل التجارية إلى مصر ثم إلى الحجاز . كما اتصل حكامها بحكام الدول الإسلامية المعاصرة لهم .[٢]

انتشرت المساجد في ربوع كانو ومن أمثلتها المسجد الجامع في الإمارة والمساجد الأخرى ، وكان لتلك المساجد دورها في ازدهار الحركة الإسلامية ونشر اللغة العربية التى أصبحت اللغة الرسمية في المعاملات اليومية والرسمية وفي الإدارات الحكومة . وأجتذبت تلك الإمارة أعداداً كبيرة من العلماء إليها للتدريس في مسجدها الجامع [٣] الذي كان لا يقل أهمية عن جامع تمبكتو وجامع جاو.

---

(١) مقلد ، ص ١٥٥.

(٢) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٦١.

(٣) من هؤلاء العلماء الذين قدموا إليها وأقاموا بها:

- أحمد بابا التمبكتي في الفقه المالكى . مخلوف بن على.
- محمد عبدالقادر المغيلي من واحة توات . - عبدالرحمن زيت من مالى .

ارتحلت أيضا جماعات من التجار للإقامة في كانو بعد مالمسوا مظاهر الاستقرار والأمن بها ومارسوا من خلالها عملياتهم التجارية في مناطق الهوسا ، وكان لهؤلاء التجار دورهم البارز في تشجيع النهضة الثقافية ، ونشر العادات الإسلامية وتعديل سلوك الجماعات الوثنية بالإمارة من خلال تعاملاتهم معهم . ومع بداية القرن الخامس عشر الميلادي أصبحت كانو أهم مركز الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا والسودان الغربي حول منحني نهر النيجر ، واستمرت تؤدى دورها الهام حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

وبذلك تمكن الإسلام من استغلال طاقات الشعوب الوثنية في منطقة الهوسا وشرق نهر النيجر وتمكن من توجيه خطاها الحضارية ودفها نحو الإمام لتستجيب لنظم الحضارة الإسلامية التى بدأت تشع على بلاد السودان المجاورة أوسطه وغربه

وفجر الإسلام طاقات شبابها وإمكانيات أرضها وميزات موقعها ، وما أصبحت تلك الإمارات علامة من علامات الحضارة الإسلامية ، حتى قدمت إليها الأطماع الإستعمارية لتردها من جديد إلى أوضاعها القديمة المتردية وتتصدى لمسيرة التيار الإسلامي بها .ومازالت آثار الحضارة الإسلامية واضحة هناك في نماذج العمارة التى دخلت إليها من مصر والمغرب والإندلس [1] وفي التراث الكبير للحياة الثقافية للعصر الإسلامي في بلاد الهوسا .

---

(١) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٦٥.

(٣)

انسياب الإسلام إلى السودان الغربي [١]

ارتطت منطقة غرب السودان جنوب الصحراء الكبرى بمنطقة الشمال الأفريقي لأول مرة على يد المسلمين ، وأصبحت تمثل جزءاً مؤثراً في تاريخ ومجريات بلاد المغرب ، بعد أن كانت تلك المناطق التى تقع جنوب الصحراء تمثل عالما منفصلاً عن شمال إفريقية ، وكانت عمليات الإتصال بين الطرفين شاقة ومحفوفة بالخاطر ، بسبب بحر الرمال الكبير الذي يفصل بين الطرفين ويصل في بعض الأجزاء ثلاثة آلاف كيلو متر إتساعاً بين الشمال والجنوب .

ومنذ القرن الأول الهجرى / السابع الميلادي نجح العرب في تنظيم شبكة عالية للطرق الصحراوية مع جنوب الصحراء وبلاد السودان الغربي معتمدين على خبرتهم في ريادة الصحراء حتى أصبحت منطقة غرب السودان جزءً من العالم الإسلامي قبل غيرها من مناطق السودان الأخرى ، الأمر الذي جعل البعض يقول بأن العصر التاريخي لإفريقية السوداء يبدأ مع الإسلام [٢] لما ترتب على ذلك من نقل دول ومناطق جنوب الصحراء الإفريقية إلى درجات التقدم الحضاري . وتعد دولة مالي الاسلامية التى ظهرت في السودان الغربي النموذج على آثار الإسلام ونظم في تلك النواحي .

---

(١) يطلق على إقليم السودان الغربي حالياً اسم دول غرب إفريقية الناطقة بالفرنسية ، وهى الدول التى خضت غالبيتها في العصور الحديثة للاستعمار الفرنسي . ويضم هذا الإقليم حوالي ١٤ دولة هي :

• مالي ، بوركينا فاسو ، النيجر ، السنغال ، غامبيا ، غينيا بيساو، غينيا ، سيراليون، ليبيريا ، ساحل العاج، غا ، توجو ، بنين ، نيجيريا ، كما تعتبر منطقة جنوب موريتانيا جزءاً من هذا الإقليم وتبلغ مساحة دولة حوالي خمسة مليون كم٢ أي حوالى ضعف مساحة دول غرب ووسط أوروبا . وتضم دولة حوالى ٢٠٠ مليون نسمة معظمهم من المسلمين . وأكثر دولة سكانا هي نيجيريا وأقلها سكانا غينيا بيساو . وأكبر دولة مساحة هى النيجر وأقلها مساحة هى غمبيبا .

- انظر : أبو عيانة ، المرجع السابق ، ص ٣٩٥ ومابعدها .

(٢) طرخان ، دولة مالي الإسلامية ، هى ٧.

وللباحث أن يقارن بين آثار الإسلام الماضية وبين أحوال دول غرب القارة في الوقت الحالي بعد تخلصها من حقبة الإستعمار ليتضح للباحث الفرق الواسع بين بناء الإسلام لغرب السودان وبين تدهور أوضاعه على يد الإستعمار [1]. الأمر الذي يثير العديد من التساؤلات والاستفسارات عن حقيقة الدور الغربي في افريقية . ويكفي أن تكون مدينة كوبى صالح عاصمة غانة ، إحدى مراكز الحضارة في الغرب السوداني ، أصبحت اليوم أطلالاً ، بعد أن كان بها نهضة علمية وثقافية تنبعث من اثنى عشر مسجدا في سنة ٦٠هـ - ٦٧٩م .

كان صوت الإسلام قد وصل صداه إلى السودان الغربي منذ بداية ظهوره في شمال افريقية في بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجرى وساهم العرب والبربر في البداية في حمل شعلة ، ثم تلقفتها شعوب المنطقة من الفولانيين [2] والتكرور الذين أصبحوا عماد الإسام ورسالته في غرب القارة حتى العصور الحديثة وظهر منهم وعادة ومصلحون عملوا على نشر الإسلام ورسالة باعتباره المنقذ من التخلف والفوضي .

كما ساهم الهوسا والسوننكة في تلك العمليات في غرب القارة . وجمعت بين تلك الشعوب اللغة العربية والدين الإسلامي رغم وجود لهجات محلية عديدة منتشرة بين قبائلهم ، إلا أن اللغة العربية شكلت الأساس في المعاملات منذ القرن الثاني الهجري . وأصبح ظهور أي شعب في السودان الغربي يتحتم عليه الارتباط باللغة العربية من أجل

---

(١) يحتوى هذا الإقليم الذي يسمى غرب إفريقية في الوقت الحالى على أفقر دول افريقية والعالم. بل أنه الإقليم الوحيد الذي يضم دول عديدة تحت خط الفقر . حيث يحتوي على أكثرمن دولة تصنف في مجموعة الدول الفقيرة جداً من مجموع ٤٩ دولة على مستوى العالم فى هذا التصنيف . يطلق خبراء المنظمات الدولية والأمم المتحدة على دول غرب افريقية اسم" منطقة الفقر الجهنمية" حيث يوجد ترابط بين مشاكل الجوع والفقر وقيمة الحياة ويصل متوسط دخل الفرد السنوي في بعض الدول إلى حوالى مائة دولار .

- انظر عادل يونس ، العالم الإسلامي ، ص ٢٩ ومابعدها .

أبو عيانة، المرجع السابق ، ص ٢٩ ومابعدها .

(٢) يدعي الفلاتيون أنهم من أصل عربى فيذكر البعض منهم أنهم قدموا من صعيد مصر ، والبعض الآخر أنهم من سلالة عقبة بن نافع ولكنهم عموماً من الشعوب السودانية .

- مقلد ، حركة المد الإسلامي ، ص ٧٤.

السيادة ، باعتبارها لغة العصر والحضارة ، وقد حدث ذلك حينما ظهر شعب الصنغي على ضفاف نهر النيجر .

ويكفى أن نذكر مدى الدور الذي قام به مسلموا السودان الغربي في أحداث العالم الإسلامي حينما قامت الشرارة الأولى لدولة المرابطين من بين جماعات التكرور[1] بحوض السنغال.الأمر الذى يؤكد لنا أهمية الوجود الإسامي في بلاد السودان منذ البداية.

ومهما يكن من أمر فإن تمكن الإسلام من قلوب البربر في شمال افريقية وواحات الصحراء الإفريقية ابتداء من عهد عقبة بن نافع وحتى عهد موسى بن نصير ، جعل هؤلاء البربر مع إخوانهم العرب يتجهون صوب الجنوب بعد آن كسر الإسلام جميع الحواجز السابقة في المنطقة وأعاد الأمن والاستقرار إلى ربوعها . بل أن هناك من يذكر أن جيوش عقبة بن نافع وموسى بن نصير قد وصلت إلى عاصمة مملكة غانة الوثنية في الجنوب [2] ، ولكن دون أن تقدم لنا أدلة على ذلك . ويبدو أن تلك القوات كانت طلائع من جيوش

---

(١) التكرور اسم شعب يسكن إحدى أقاليم غرب السودان في منطقة نهر السنغال . وقد أطلق هذا الإسم عليهم من قبل جيرانهم من شعوب الجولف المجاورة لهم في حوض السنغال .

ترجع أصول التكرور إلى هجرة جماعات من واحات إقليم فزان بالصحراء الليبية وهاجروا عبر السودان الأوسط إلى موطنهم الحالى . وأختلطوا بالشعوب الزنجية . ويعتبر التكرور من أنشط وأسبق الجماعات السودانية في حمل الإسلام ولغته . حتى أن مؤرخى العصور الوسطى من المسلمين يطلقون كلمة تكرور على كل شعوب السودان الأوسط العربي لشهرة هذا الشعب في حمل الإسلام في تلك الجهات.

قام عبدالله بن ياسين بدور كبير في ترسيخ الإسلام بين شعب التكرور ، وتمكن من خلق قوة جديدة من بينهم حينما اعتصم بينهم وكون جماعته التى سميت باسم " المرابطين " ومن بلاد التكرور بدأت أشهر دول الإسلام في المغرب وهى دولة المرابطين التى امتدت نحو الشمال واتخذت من المغرب الأقصى مركزاً لها وعبرت جبل طارق لتعيد مجرى الإسلام إلى شبه جزيرة الإندلس . وقد زادت قوة المرابطين بمساندة قبائل صنهاجة لها .

وبعد انقسام دولة المرابطين أصبح التكرور هم عماد القسم الجنوبي الذي قاده أبوبكر بن عمر وغزا به غانة .

- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٩٤ ومابعدها .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٢٨٤.

المسلمين الأمر الذي يدل على ارتباط السودان الغربي بأحداث شمال افريقية منذ البداية .ومنذ بداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بدأت العلاقات تزدهر بين شمال الصحراء وبين جنوبها من بلاد السودان ، حيث كانت الحملات تتعرف على أخبار البلاد وتعود محملة بكميات من الذهب . ويبدو أن هناك أفراد من تلك الحملات قد استقرت في مناطق السودان الغربي بدليل الإشارات المتكررة في المصادر حول أصول عربية مبكرة في مملكة غانة [١] .وقد مهدت تلك الحملات الطرق التجارية أمام القوافل ، حيث بدأ التجار المسلمون في تنظيم تلك الرحلات التجارية وكان معظم هؤلاء التجار من الشام والعراق ومصر . فقد توافد إلى تلك البلاد تجار البصرة والكوفة وبغداد وغيرها بعد ماسمعوا عن أخبارها وإرباح تجارتها ونقاوة ذهبها [٢]، حتى ذكر ابن حوقل بأنه شاهد بأكثر من أربعين ألف دينار في أودغست [٣]. الأمر الذي يدلل على كثرة وكثافة العمليات التجارية بين المسلمين وبين بلاد السودان الغربي .

كما لاحظ الرحالة انتشار العلماء المسلمين على طول مراكز الصحراء خاصة أودغست التى أصبحت مركزا بين شمال إفريقية وبين مملكة غانة في السودان الغربي[٤]. وقد أصبح هؤلاء العلماء والتجار أشبه بمستشارين للأمراء والحكام في بلاد السودان الغربي خاصة عند حكام غانة [٥]، كما أعتمد ملك غانة على الجالية الإسلامية في بلاده لتطوير أوجه الحياة في مملكته ، حتى أن هؤلاء المسلمين أسسوا لهم حياً مستقلاً في العاصمة مقابل الحى الوثنى الذي وقد أشتمل هذا الحى الإسلامي على عدد من المساجد بلغت أكثر من اثنى عشر مسجداً بالإضافة إلى المسجد الجامع الذي تقام فيه الجمعة .

ورغم تطور الأحداث في منطقة السودان الغربي في القرن الرابع الهجرى إلا أن المسلمين ظل لهم ظل لهم وضعهم الإجتماعي المميز في بلاد السودان الغربي وأصبحوا قدوة حسنة لشعوب السودان الأخرى حتى أقبلت تلك الشعب على اعتناق الإسلام .وانتهى الأمر بقيام العديد من الدول والإمارات الإسلامية في تلك المناطق من قبل شعوب المنطقة ومن أهمهما :

---

(١) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٦٠.

(٢) نورى، المرجع السابق ، ص ٨١.

(٣) صورة الأرض ، ص ٩٢.

(٤) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٩. (٥) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٩.

أولا : مملكـــة غـــانـــة [1]:

تعد مملكة غانة أول مملكة من بلاد السودان الغربي ترد في المصادر العربية ، وتمتد حدودها حسب تلك المصادر من جنوب موريتانيا الحالية وغرب مالي الى ساحل المحيط الاطلسي ونهر السنغال [2] غرباً ، كما تمتد جنوباً حتى نطاق الغابات الإستوائية حيث كان لحكامها نفوذهم وتعاملاتهم القوية مع كيانات تلك الغابات ، بحيث ان الحصول على سلع تلك الغابات كان يتم بترتيب مع حكام غانة . وفى بعض الأحيان مدت تلك المملكة نفوذها حتى الصحراء الكبراء شمالاً لتضم بعض واحاتها [3] .

وقد وردت عبارات تدل على عظمة ونظام وثراء تلك المملكة فى المصادر الإسلامية فيقول عنها ابن حوقل ،، إن ملكها ايسر من على وجه الارض بما لدية من الاموال المدخرة من التبر المثار [4] ، كما وصف ابن خلدون ملوكها بانهم كانوا اعظم ملوك المنطقة [5] ، وذلك بقوله "أنه لما فتحت افريقية والمغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدو فيهم أعظم

---

(١) ليس المقصود بمملكة غانة ، موضوع حديثنا ، دولة غانة الحالية ، بل كانت منطقة شمال غانة تمثل جزء صغيرا من مملكة غانة القديمة . ويجو أن اسم غانة أطلق حديثاجد الاستقلال على دولة ساحل الذهب ، وهو الاسم الذي أطلقة الأوربيون على تلك الدولة لأهميتها في تصدير الذهب من أقاليم مملكة غانة ، وولة غانة الحيث ثة دلة صغيرة المساحة (حوالى ٢٣/٥٣٩كم٢) ويتركز المسلمون فى غانة في المناطق الشمالية .

انظر : أبو عيانة ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .

الجوهري ،افريقية الإسلامية ، ص ٣٣٧.

(٢) اسم نهر السنغال مشتق من قبيلة صنهاجة القوية والتى تمكنت من بسط سيطرتها على ارجاء واسعة من جنوب المغرب الاقصى وحتى نهر السنغال Senegal فاشتق اسم النهر منها ، وقد أطلق البرتغاليون على الهر اسم صنهاجال ، وتردد في المراجع الغربية اسم سنغال . اما المصادر الاسلامية فقد ذكرت بإسم نهر غانة .

انظر :ابن سعيدكتاب الجغرفيا ، ص ٩٧ .

- مؤنس الإسلام الفتح ، ص ٩٦/٩٥ .

(٣) انظر الخرائط في الملاحق : ٣١٥ .

(٤) صورة الارض ، ص ٩٨ . طبعة بيروت .

(٥) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٦ ، ص ٤١٢.

من ملك غانة ، كانو ا ، مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب ، وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك ، وحاضرة ملكهم غانة ، مدينتان على حافتى النيل [1] ، من أعظم مدائن انعالم وأكثرها معتمراً [2] .

وارتبطت تلك الدولة عند المسلمين بانتشار العدل فى ربوعها ، لما شاهده التجار المسلمون والرحالة من التسامح والعدل والإنصاف الذي يتميز به حكامها أمام الرعية ، وقد صاحب هذا العدل انتشار الحرية والأمن والاستقرار مماشجع قدوم العديدمن التجار من كافة انحاء العالم الإسلامى البحر المتوسط اليها.[3]

وهناك أسباب ساعدت هذه المملكة على طول فترة حكامها واستقرارها مما يلى :

١ - وجود قوات عسكرية كافية لدى ملوك غانة ، وقدمكنتهم تلك القوات من التصدى للقبائل الزنجية في الجنوب ، وقمع حركات التمرد من قبل الشعوب والقبائل لتى تتبع المملكة . وكان ملوك غانة دائمى الإنفاق على هذا المجال . قد بلغ تعداده حوالى ٢٤٠ألفاً من قبيلة الملك .

٢ - الإنفتاح والحرية التجارية التى طبقها ملوك غانة ، حيث استطاعوا ن تفتحوا حدود بلادهم من كل اتجاه امام التجار ، ونظموا لذلك السبل التى تكفل حمايه التجر وتجارتة . كما استفادوا بذلك من امكانيات المناطق والدول المجاورة مقابل تصدير لسع والمنتجات التى تنتجها بلأدهم .

كما نظموا جباية الضرئب من قوافل التجارة . فكانوا يجبون على كل حمل من لملح يدخل ديناراً ذهبياً . وعلى الحمل الذى يخرج دينارين . بالإضافة إلى ضرائب أخرى حسب نوع كل سلعة . [4]

---

(١) ذكر الجغرافيون والرحالة المسلمون اسم نهر النيل على نهر النيجر ونهر السنغال ، اعتقاداً منهم ان النهر النيل يصل إلى تلك الجهات . انظر : ابن سعيد المصدر السابق ، ص ٩٥ ومابعدها .

(٢) ابن خلدون ، المصدر السابق ،

(٣) نعيم قداح، حضار ة الإسلام وحضارة أوروبا في افريقية الغربية ، ص ٢٩ ومابعدها ، الجزائر ، سنة ١٩٧٥م

(٤) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٤٥.

٣ - سياسة ملوك غانة مع الرعية وما اتسمت بة تلك السياسة من العدل ، الأ مر الذى اشاع . الأمن والإ ستقرار في ربوع المملكة لفترات طويلة . وادي لك الى ازدهار البلأ ونموها وسط محيط بدائي . وقد انعكس هذا الأمر في أشكال الإحتفالات الملكية ومواكب الملك بين ر عيتة وجلوس الملك في سرادقه الكبيرة ليستمع الملك إلى مطلب الشعب [١] كما تمتع التجار بحرية كاملة في ممارسة شعائر دينهم ، فقد كان يوجد مسجد لهم بجوار المعابد والهياكل الوثنية . كما كان لكبار التجار أحياء خاصة في العاصمة .

ورغم صمت المصادر والمراجع عن تحديد تاريخ معين لظهور مملكة غانة في السودان الغربي إلا أن المصادر الإسلامية تردد أن عدد ملوكها حتى سنة ١٥٣هـ - سنة ٧٧٠م م بلغ أربعة وأربعون ملكا . أى أن التاريخ التقريبي لبداية ظهورها فهو منذ القرن الثاني للميلاد حينما تمكنت جماعات من البربر من سكان شمال إفريقية من اختراق الصحراء والنزول في غرب السودان ، والأمتزاج مع شعوب زنجية أخرى مثل شعب الماندنجو [٢]، وتمكنت تلك الجماعات من تكوين نظام سياسي وإدارى جديد ظهر بقوة في القرنين الثالث والرابع الميلاديين واستمر حتى العصور الحديثة .[٣] ويؤرخ البعض الآخر لبداية ظهورها القرن الرابع الميلادي [٤].

كان الغانيون ، مثل غيرهم من القبائل الإفريقية حتى العصور الإسلامية ، وثنيون وتقوم الوثنية عندهم على تقديس القوى الطبيعية كالأشجار الضخمة والحيوانات القوية المفترسة . ويدل هذا الأمر على ارتباط المجتمع بالبيئة الطبيعية وبالأجداد القدماء ، حيث يعتقدون أن الميت قد يعود في شكل شجرة أو حيوان . واحتلت الحيات المكانة المقدسة عند أهل غانة ، حتى أنهم اعتقدوا أن الحيات تخرج كل عام من جحورها تحتفل بعيد تتويج الملك وأن التعرض لها يعرض مصير البلاد للخطر . ومازالت تلك المعتقدات لها صداها في بعض المجتمعات الإفريقية .[٥]

---

(١) نعيم قداح ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢) Fage, Intraduction to the Hostory of West Africa, P.P. L. 8,20.

(٣) دافيدسون، إفريقية تحت أضواء جديدة ، ص ١٨٣.

(٤) نوري المرجع السابق ، ص ١٤٤.

(٥) قداح ، المرجع السابق ، ص ٦٩ (هامش)

وعلى قمة هذا النظام الوثني كان يتربع الملك الغاني على أساس أنه ممثل الآله بين الرعية ، وأنه واسطة بين الرعية والآله ، وهو مصدر الرزق للشعب وكان هذا الملك ينتمي إلى أقوى القبائل كما يشترط فيه القوة ، التى هى عنصر مقدس في تلك المجتمعات [١] ويعيش الملك في قصر مبنى من الحجارة تحيط به بيوت حاشيته وأهله وخدمه . ثم تأتى بيوت السكان من اللبن والمسقوفة بالقش . وكان جيش البلاد من قبيلة الملك ، ومن المرتزقة ويتولى قيادة الملك .وللملك احتفالات في مناسبات خاصة يلبس فيها أقراطه وقلائده وقبعاته المطرزة ويحيط به الحرس والخدم . واستمرت تلك الأنظمة حتى تحول المملكة إلى الإسلام .[٢]

وكان النظام الإجتماعي لغانة يقوم على القبيلة التى تنحدر من أب واحد وينتمى معظم شعب غانة إلى قبيلة الساراكوله ، وهى تتفرع إلى عدة عشائر أهمها عشيرة سيسيه التى ينحدر منها الملك والعائلة المالكة . كما ترتبط تلك القبيلة بالقبائل الأخرى بقرابة شديدة . وقبل الإسلام ساد مبدأ التخصص بين القبائل . فهناك قبيلة تختص بصناعة الحديد وهى تشكل مع عشائرها وحدة لتلك الحرفة . وكانت تلك هى قبيلة كوروما التى شكلت أهمية كبيرة في غانة لأهمية المجتمع إلى تلك الصناعة قديماً . كما توجد عشائر أخرى تعمل في مجال الزراعة أو الرعى أو الصيد . وكان الملك وقبيلته يمثل قمة هذا النظام من كافة النواحى ، وهو يتمتع بالاحترام والتبجيل الكامل ، حيث يقابله الشعب بالإنحناء ووضع التراب على رؤسهم دلالة على خضوعهم له . وقد شاهد ذلك التجار والرحالة المسلمون .[٣]

وبجانب هذا النظام الصارم في غانة امتلكت أقاليم المملكة إمكانيات اقتصادية هامة حيث سيطرت غانة على أقاليم شاسعة في غرب السودان ، تحتوي على إمكانيات زراعية بفضل الأنهار والأودية ، وكذلك على مراعي شاسعة ، حتى أنها كانت تكتفى ذاتيا في مجال المواد الغذائية من بساتينها ومزارعها ومصائد أنهارها ، وكان أهم محاصيلها من الحبوب والقطن .

---

(١) قداح ، نفسه ، ص ٦٩ .

(٢) قداح ، المرجع السابق ، ص ٦٩.

(٣) مقلد ، المرجع السابق ، ص ٦٤.

وقد اكتسبت تلك المملكة أهميتها منذ التاريخ القديم بسبب توفر معدن الذهب بأرضه وبكميات وفيرة ، حتى أن ملك غانة كان يسمى " كاياماغان " أى ملك الذهب لأنه يجلس على عرش ذهبي ، كما يوجد المعدن في أرضه بكميات كبيرة وبأسعار رخيصة أثارت لعاب التجار من كافة الأنحاء ، فتحملوا المشاق وراء ذلك.[١]

وبسبب ذلك أصبحت غانة مركزاً هاماً لبلاد السودان تقدم أليها القوافل من كافة الأرجاء من الجنوب محملة بالرقيق ومنتجات الغابات الإستوائية ، ومن الشمال تفد القوافل العربية والبربرية محملة بالمنسوجات والملح والتمر والمصنوعات الأخرى وتعود محملة بالذهب والرقيق والعاج وبيض وريش النعام والصمغ والجلود وجوز الكولا . وقد زرع صيتها فى أرجاء العالم بعد أن وصل المسلمون إلى بلاد المغرب.[٢]

ومنذ البداية استقرت جماعات من الجنود والتجار المسلمين في بعض مناطق مملكة غانة من جهة الشمال ، بسبب سمعتها وازدهار أوضاعها وكذلك للعمل في مجال التجارة والتبادل التجاري . والدليل على ذلك أن هناك مدناً إسلامية ظهرت في القرنين الثالث والرابع الهجريين وأن بعضها كان يبلغ في تعداد حوالى ٣٠٠ ألف نسمة حل سكانه من المسلمين وأصبح مدن وأقاليم غانة الشمالية يسودها العنصر العربي والبربري [٣]، بحيث جاء القرن الرابع الهجري ليشهد محاولات من جماعات الطواراق لفتح مملكة غانة ، لكنها لم تتم .

ولدواعي خدمة القوافل التجارية ولدت مدينة على حدود مملكة غانة الإسلامية وهى مدينة أودغست التى أصبحت أهم مراكز التجارة قاطبة في القرنين الثالث والرابع الهجريين واستمرت تؤدى دورها كذلك عدة قرون.[٤] وكانت عبارة عن قرية صغيرة تطورت وأصبحت مدينة عامة بالسكان العرب والبربر والزنوج العاملين في مجال التجارة والتبادل بين السودان وشمال إفريقية . وانتشرت فيها المساجد الإسلامية والزوايا وقصدها العديد من العلماء والفقهاء . وحدثت نهضة اقتصادية شاملة للمناطق المحيطة بها من

---

(١) الحميري ، محمد عبدالمنعم ، الروض العطار، ٦٣، تحقيق دكتور إحسان عباس

(٢) قداح ، المرجع السابق ، ص ٧٢.

(٣) مقلد ، المرجع السابق ، ص ٦٩.

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩١.

أجل إمدادها بما تحتاجه من المواد الغذائية وحاجات التجار والمسافرين وكانت تلك المدينة متصلة المسالك مع مدن شمال إفريقية وبلاد غانة . [١]

وقد ازدهرت المدينة بصورة عامة بفضل سكانها من المسلمين واتضح هذا الإزدهار في الجوانب الآتية :

١ - الاتساع والامتداد العمراني فقد زادت أحيائها رغم إحاطتها بالجبال من جهتين ، وأصبحت المدينة تضم أحياء متصلة ذات مباني حسنة ومنازل راقية [٢]، لأول مرة في تاريخ الصحراء

٢ - تنوع الأسواق بها ، وتنوع سلعها ومواد تجارتها ، حتى وصف سوقها بأنها عامرة الدهر كله لايسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثره جمعه وضوضاء أهله[٣]

٣ - ثراء أهلها ، حتى بلغ الأمر أن أهلها كانوا لايتعاملون إلا بالدنانير الذهبية وأصبح مع الشخص الواحد من أهلها ألف خادم أو أكثر [٤] وأن هؤلاء العبيد كانوا يمثلون القوة المنتجة في المدينة سواء في الزراعة أو تربية الحيوان أو حراسة القوافل وفي مجالات الحرف الأخرى . كما اشتهرت بحسن جواريها التى ضرب بهن المثل في الجمال وفي المهارة في العمل[٥] ، كما كان يحمل منها العنبر[٦] الوارد إليها من المحيط الأطلسي القريب من جهة الغرب .

وبسبب موقع المدينة الهامة فإنها أصبحت مركزاً لتجار المسلمين القادمين من وارجلات وتاهرت وسجلماسة وفاس ، ولذلك أصبحت المدينة عبارة عن مدينة إسلامية

---

(١) الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ٢٠٩.

(٢) البكرى ، المغرب ، ص ١٥٨.

(٣) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٨.

(٤) البكري ، المصدر نفسه ، ١٥٩ .

(٥) الحميري ، المصدر السابق ، ص ٦٣.

(٦) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٦٤.

ممتدة على حدود بلاد السودان . وهو الأمر الذي كان يخشاه كثيرا ملوك وحكام مملكة غانة من ظهور أطماع لزعامات أودغست داخل أراضي مملكة غانة وخاصة من قبائل البربر القوية والسيطرة على الأقاليم المتاخمة لمملكة غانة مثل لمتونة وهم من الملثمين ، وفروع قبائل صنهاجة . وكانت تحكم بالفعل من قبل شيوخ صنهاجة ، الذين مدوا سلطانهم بالفعل إلى أقاليم غانة الشمالية ، حيث كان يؤدى له الجزية حكام شمال مملكة غانا . حتى قام ملك غانة في القرن العاشر الميلادي بغزو المدينة وتعين حاكم وثنى من قبله عليها . وظلت خاضعة له حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي [١]

وتدل عملية المد والجزر على السيادة على أودغست بين المسلمين وبين مالك غانة على نجاح المد الإسلامي داخل مملكة غانة ذاتها بسبب ما يلي :

١ - كان غزو ملك غانة للمدينة يهدف إلى إبعاد نفوذ قبائل الطوارق والملثمين الذين كانوا في حركة دائمة لاختراق الصحراء ودخول مملكة غانة وكانت لهم جهود واضحة لنشر الإسلام في الواحات الصحراوية ومناطق شمال غانة ، حتى أحس بذلك ملك غانة من خلال حدوث تمرد بين حكام أقاليم على سلطانه .

٢ - لم يتعرض ملك غانة بأي أذى للتجار ولحركة القوافل التجارية داخل بلاده وخاصة الإسلامية منها فقد أصبح اقتصاد الدولة مرتبطاً بالتجارة ،وموارده وكان هؤلاء التجار يتجولون في كافة أرجاء المملكة في حرية تامة وأمن وأمان ، كانوا خير سفراء للإسلام في أى مكان أقاموا فيه ، حيث كانت لهم حرية ممارسة شعائرهم الإسلامية علانية ، فقاموا ببناء المساجد في مملكة منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، واتخذ مستشارين لإدارة ملكه. [٢]

وظلت أودغست كمنطقة حاجزة ، بين نفوذ الشمال الإسلامي ، وبين نفوذ ملوك غانة الوثني ، حتى أنتهى الأمر بضمها إلى عبدالله بن ياسين سنة ٤٤٦هـ /١٠٥٤م مؤسس دولة المرابطين ، وضمت نهائياً للنفوذ الإسلامي ، وبسبب هذا الصراع الطويل حول

---

(١) البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٨

(٢) مقلد ، المرجع السابق ، ص ٩٠ ومابعدها.

المدينة تحولت مكانتها الهامة في مجال التجارة إلى مدينة ثانوية . وبدأت تفقد أهميتها السابقة وأخذت القوافل التجارية تبحث عن طرق أخرى آمنة غير طريق أودغست ، ففي القرن السادس الهجري زراها الإدريسي ووضعها بأنها "مدينة صغيرة بين جبلين شبه مكة في صحراء ماؤها قليل ، وعامرها قليل ، وليس بها كبير تجارة" (١)

ورغم ذلك فقد أتاح سيطرة دولة المرابطين على أودغست (٢) ومراكز التجارة الصحراوية الأخرى ، سيطرتهم على موارد هامة من عوائد التجارة ، خاصة من الملح والذهب والرقيق وأصبحت طرق التجارة القادمة من دول الشمال الإفريقي تحت رحمتهم ، الأمر الذي أضاف لهم نفوذاً سياسياً عالياً ، ومورداً إقتصادياً لا ينضب ، بحيث أصبحت أهم منافذ الذهب العالمي وهو ذهب السودان العربي تحت رحمتهم . وقد أتاحت تلك الموارد قوة واضحة لدولتهم فظهرت دولة المرابطين منذ البداية على أسس اقتصادية ثابتة وموارد مالية متجددة ، ومواقع استراتيجية ، وأصبحت دولتهم من أعظم دول عصرها منذ القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي ، كما احتلت عاصمتهم مراكش مركزاً هاماً بين مدن العالم الإسلامي وحوض البحر المتوسط .

ويبدو أن اهتمام الباحثين بالشق الشمالي لدولة المرابطين قد ترتب عليه إهمال تفاصيل الجهاد ونشر الإسلام في السودان الغربي ، حيث أتجه زعماء القسم الجنوبي من دولة المرابطين إلى اعلان الجهاد على الوثنية في بلاد السودان الغربي ، حتى أن أصبح من المقبول تقسيم تاريخ انتشار الإسلام وثقافته في بلاد السودان الغربي إلى قسمين هما :

الأول : قبل عصر المرابطين (من القرن الأول الهجري إلى القرن الخامس الهجري).

وفيه كانت عمليات امتداد الإسلام تتم بيسر وهدوء من خلال جهود التجار والدعاة

---

(١) نزهة المشتاق ، ص ٣٢.

(٢) بعد اعلان الجهاد من قبل ابن ياسين وتوحيد كلمة صنهاجة تحت زعامته وانضمام قبائل جدالة ولمتونة وسوفة وتارجا وبنى وراث إليه . قسم ابن ياسين قواته إلى إتجاهين :

- الأول أتجه شمالاً صوب قبيلة زناته فأزالها عن المغرب الأقصى وضم المغرب الأقصى.

- الثاني جنوبي صوب مملكة غانة وبدأ يحتل معظم أراضيها . انطلاقاً من حوض السنغال في الشمال الغربي لغانة .

والعلماء والفقهاء . ومن خلال العلاقات النشطة بين دول شمال افريقية كالرستميين والصفرية والأدارسة والأغالبة مع حكام غانة وأمراء مناطقها [1] وإن كان هناك مراكز تجارية غلبت عليها الصفة الإسلامية قبل عصر المرابطين .

الثاني : عصر المرابطين وما بعدهم :

فقد بدأ زحف المرابطين إلى أودغست سنة ١٠٥٥م ثم اتجهوا صوب الجنوب [2] حتى تمكنوا من دخول مدينة كومبي صالح (غانة) العاصمة سنة ١٠٧٦م [3] وأنتهى بذلك عصر الوثنية بها وبعد تحول شامل بين سكانها نحو الإسلام ، وقفت جيوش المرابطين على أبواب الغابات الإستوائية في الجنوب . وبدأ العلماء والفقهاء الذين توافدوا على غانة في نشر الإسلام بين مدنها وقبائل . وظلت غانة تحت نفوذ المسلمين حتى تمكنت جماعات الصوصو، من سكان حوض النيجر ، الإغارة عليها ودخلوها ٦٠٠هـ /١٢٠٣م ، فاتجهت جموع كثيرة من مسلمي غانة إلى الشمال هرباً من جماعات الصوصو ، فظهرت مراكز تجارية جديدة في الشمال مثل ولاته.

بدأت قبائل غانة في تحمل جهود نشر السلام بين الجماعات الوثنية المجاورة حتى أن بعض القبائل تخصصت بكامل أفرادها في عمليات نشر الإسلام خاصة في جهة الغرب حيث إمارة وارام الوثنية وجهة الشرق بين جماعات حوض النيجر الوثنية ، وكذلك جهة الجنوب ، حيث قبائل الموش الوثنية . وشهدت منطقة غرب إفريقية تحولاً عن عاداتها الوثنية القديمة إلى الإسلام وحضارته وثقافته [4]. وفي العصر الإسلامي حدث تحول أيضا في الحياة السياسية فقد اندمجت المناطق كلها تحت سيطرة مركزية واحدة ، بعد أن تمتعت الأقاليم في السابق بنوع من التبعية الرمزية لحكام غانة الوثنيين . وانتشر الأمن والعدل[5] .

---

(١) مقلد ، المرجع السابق ، ص ٨٢ ومابعدها .

(٢) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٠٠.

(٣) كانت عبارة عن مدينتي على ضفتي نهر . وهي أكبر مدن السودان الغربي ، وبها أغنى التجار في بلاد السودان.

- الحميري ، الروض المعطار ، ص ٤٢٥.

(٥) الحميري ، المصدر السابق ، ص ٤٤٦ . (٦) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٤٢٥.

وفي مجالات انتشار اللغة العربية حدث تطور جديد ، فقد أصبحت اللغة العربية لغة التفاهم بين طبقات أهل السودان وقبائلهم بالإضافة إلى كونها لغة المعاملات التجارية والمراسلات فظهرت الحاجة إلى العلماء من أجل تدريسها في المساجد ، وظهرت المؤسسات الخاصة بتعليمها . وقد انبرى العديد من العلماء لتلك المهام منهم هارون بن أبى عمران[١] ، وهو من شيوخ الأباضية من زناته اتجه صوب الجنوب إلى غانة عابراً الصحراء وتوغل إلى أبعد نقطة يصلها المسلمون صوب الجنوب وهى غيارو ، التى وضعها البكري بأن بها أفضل الذهب من بلاد غانة [٢]. وكان غرض هذا العالم هو الدعوة ونشر الرسلام واللغة العربية بين القبائل الوثنية . وقد استمر حتى توفى ودفن هناك .

كما كان كثيراً من التجار والمشتغلين بالتجارة من أهل العلم ، فلم يكن قد تم ترتيب أرزاق للعلماء والفقهاء بصور منتظمة ، ومن هؤلاء فلحون بن اسحق من بنى واسين وكان مستقراً ببلاد الجريد ثم اتجه إلى غانة وبالذات إلى مدينة غيارو وأستوطن بالمدينة [٣]. وبفضل جهود التجار والعلماء والحكام في تلك الفترة أصبح المسلمون في غانة يتحكمون في تجارة الذهب ، فازدهرت غانة وأقاليمها [٤].

وقد أثار هذا الإزدهار والحيوية التى دبت في أقاليم مملكة غانة الحقد من قبل حكام الأقاليم الوثنية المجاورة من الشرق والجنوب طمعاً في الإستفادة من هذا الإزدهار والثراء الذي ميز تلك الدولة على يد المسلمين ، فقام ملك الصوصو . وهو سومانفرو كانتيه بحشد قوات عديدة من قبائل الصوصو ودخل العاصمة كومبي صالح سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، وأشاع الفوضى والدمار في بعض المناطق التى هاجر سكانها من المسلمين صوب الشمال[٥] ، إلا أن الوجود الإسلامي بها تمكن بفضل القبائل المحلية التى أسلمت من طرد ملك الصوصو سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وعادت غانة إلى الحياة الإسلامية [٦].

---

(١) ناصر ، محمد ، دكتور ، دور الأباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا ، ص ١٤ مطبعة الضامري .

(٢) البكري ، المصدر السابق . ص ١٧٦.

(٣) ناصر ، المرجع السابق ، ص ١٤.

(٤) الحميري ، كتاب الجغرافيا ، ص ٩٠ .

(٥) طرخان ، امبراطورية غانة ، ص ٥٣.

(٦) قداح ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقية الغربية ، ص ٣١ .

وهكذا فإن الزعيم المرابطي أبو بكر عمر يرجع إليه الفضل في التحول السياسي الجديد الذي وقع في غرب السودان ، حيث حول تلك المناطق إلى الحضارة الإسلامية وضمها إلى خارطة الدولة الإسلامية وأبعدها عن الوثنية ومحيطها وأوصل الإسلام إلى حدود الغابات الإستوائية . ويوازي هذا العمل في أهميته ، إن لم يفوق ، دور القسم الشمالي من دولة المرابطين الذي عبر زعيمهم يوسف بن تاشفين ليوقف المد المسيحي في الأندلس ، وأنقذ الأوضاع المتردية للمسلمين هناك .[1]

ورغم ما قام به الصوصو من اعتداءات على مملكة غانة الإسلامية ، إلا أن الإسلام قد انتشر بينهم بعد ذلك . كما أن قبائل من بلاد السودان التى أسلمت قد بدأت في التصدي لمحاولات الوثنيين وتمكنوا من طردهم ثانية صوب الشرق والجنوب [2] وبدأت قبائل الماندنجو المسلمة تعمل من أجل الحفاظ على المكاسب الإسلامية التى تحققت وتبني دولة إسلامية جديدة هي دوة مالي التى سيكون لها دور بارز في ترسيخ الهوية الإسلامية في السودان الغربي حتي العصور الحديثة [3].

وكانت عملية انفتاح الحدود بين ممالك المسلمين في السودان الغربي مع الجماعات الوثنية المجاورة لها من الجنوب ، ووجود جيوب وثنية داخل أقاليم السودان العربي جعلت عملية الجهاد الإسلامي مستمرة ضد تلك القبائل حتى العصور الحديثة . فمنذ دخول المرابطين غانة وحتى ظهور مملكة مالى وصنغي ظلت للوثنية وجودها في الجنوب ، ولكن كانت عمليات تحولها إلى الإسلام تتم بصورة مستمرة حتى انحصرت في جيوب صغيرة صوب الجنوب . لكن تلك المناطق بدأت تقوى من جديد بعد وصول الأوروبيين إلى غرب افريقية واتخاذهم مراكز لهم في الجنوب حيث الساحل ، وجعلوا أنهم ركيزة لمناهضة ووقف المد الإسلامي في تلك الجهات . كما أن الدول الإسلامية قد بدأت تعاني من التفكك ،والإنقسام والدخول في حلقات مستمرة من الصراعات [4].

وكانت قبائل الغانتى التى تمتد أوطانها صوب الجنوب ، يغلب عليها الطابع الوثني

---

(١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

(٢) طرخان دولة مالى ، ص ٣٢.

(٣) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ٤٦.

(٤) طرخان . مالي ، ص ١٩٥ ومابعدها .

حتى بداية القرن العشرين ، وحينما قدم الإنجليز وفرضوا الحماية على تلك المناطق سنة ١٩٠١م جعلوا كل منطقة ساحل الذهب تخضع لتلك القبيلة رغم قلة عدد المسلمين بها[١]. من أجل تحقيق مصالحهم .

وفي غينيا الإستوائية يتمتع الوثنيون والجماعات التى تحولت إلى المسيحية بعد عمليات التنصير في القرن العشرين ، بامتيازات واسعة ، فللمسيحيين هناك حق الاعتراض على الموازنة والتوزيع المالي في البلاد للميزانية .[٢]

كما تجاهلت الدول الاستعمارية الثقافة الإسلامية التى ترسخت في المنطقة ، وكذلك اللغة العربية التى كانت تمثل اللغة الأساسية في التعامل بجانب اللغات المحلية للقبائل ، فمنعوا تدريس اللغة العربية . ومازالت الكتب العربية التى بدأت بعد عصر الإستقلال تتم بصور فردية لا تستند إلى أى دعم حكومي [٣] .

---

(١) ضناوي ، محمد على ، دكتور ، الإقليات المسلمة في العالم ، ص ١٧٢ ومابعدها ، مؤسسة الريان ، بيروت ، ١٩٩٢م.

(٢) ضناوي ، المرجع نفسه ، ص ١٧٣.

(٣) طعيمة ، صابر ، دكتور ، محنة الأقليات المسلمة ، ص ٧٠ ومابعدها ، بيروت سنة ١٩٨٨م.

ثانياً : مملكة مـالي : [1]

تعد مملكة مالي أولى الكيانات السياسية الإسلامية التى ظهرت منذ البداية باسم الإسلام في بلاد غرب السودان منذ بدايتها [2] . وهى أهم الدول الإسلامية التى تركت أثراً واضحاً لحضارة الإسلام وثقافته في غرب إفريقية حتى الوقت الحاضر . يتجلى ذلك في تراث علمائها الضخم باللغة العربية في علوم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية الأخرى كما تشهد بذلك آثارها الإسلامية المتواجدة في دول غرب افريقية .

يرجع ظهور مملكة مالي إلى قبائل الماندنجو التى سادت المنطقة الفسيحة الممتدة من

---

(١) أخذت مالي تسميتها من تلك القبائل التى عرفت بالمالنك أو الماندنجو وهو تحريف لكلمة ماندي ، وقد يقصد بها العاصمة عند قبائل السوننكة ، أو الرعايا عند جماعات الفولانيين وقد ظهرت مالي بأسماء عديدة لدى كتاب العصور الوسطى منها : مل أو ميليت أو مايلي :

وليست مالى الحديثة هى مملكة مالي التى ظهرت على أنقاض مملكة غانة . فمالي الحالية جزء من مملكة مالي السابقة ، وهى الآن دولة قارية حبيسة ، لا تطل على أية مسطحات مائية ، وتشغل الصحراء معظم مساحتها ، رغم كبر مساحتها التى تصل إلى مليون وربع من الكيلو مترات المربعة . وعاصمتها الحالية هى باماكو . أما مدينة تمبكتو الشهيرة في الماضي فقد فقدت أهميتها وأصبحت مدينة صغيرة متواضعة .

بينما كانت مملكة مالي منذ القرن الثالث عشر الميلادي أكبر مساحة في دول بلاد السودان فقد امتدت حدودها حتى وسط إمارات الهوسا في الشرق ، وإلى سواحل المحيط الهندي وبلاد التكرور في الغرب ، كما أخضعت معظم واحات الصحراء ومراكز التجارة الشمالية لنفوذها وأمتد نفوذها في الجنوب حتى الغابات الإستوائية . وأصبح ملكها من أعظم ملوك عصره بجانب خليفة بغداد وسلطان مصر .

انظر مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٠٣ .

طرخان ، دولة مالي ، ص ٣٠.

أبو عيانة ، الجغرافية الرقليمية ، ص ٤٥١ ، ص ٤٥٢ .

الجوهري ، افريقية الإسلامية ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) يعتبر أبو سعيد في كتابه 'الجغرافيا' من أهم من كتب عن بلاد السودان بوصفه الرقيق وللقرى والمدن والقبائل والجزر ، لكنه لم يتمكن من تحديد الكيانات السياسية وحدودها .

انظر ، ص ٨٩ ومابعدها (الأقليم الأول).

نهر النيجر شرقاً وحتى نهر السنغال في الغرب . وقد قدمت تلك القبائل من الشرق زمن ملوك غانة الوثنيين وخضعوا لهم . إلا أنهم أخذوا يعملون على توحيد صفوفهم وأنتهى الأمر بظهور إمارة لهم جديدة في إقليم كانجايا منذ القرن السابع الميلادي .

الأول : الـزعـامـات الشمـاليـة :

التى ظهرت في منطقة كيري بأعالي نهر السنغال بزعامة أسرة التراور [١] . وكوناتي التى سادت في دودو جو وشكلت مملكة عرفت بأسم مملكة دوً ويطلق على المملكتين الشمالتين أسمً دوني كيري Do-ni Kiri . وكان للزعامة الشمالية دور كبير في نشر الإسلام في الأجزاء الشمالية والغربية من السودان الغربي حتى العصور الحديثة .

الثاني : الـزعـامات الجنوبيـة :

وهى المرتبطة بأسرة Keita والتى تربط نسبها ببلال، مؤذن الرسول، صلى الله عليه وسلم ، وظهرت عظمة مالي كامبراطورية عالمية على يد تلك الزعامة خاصة زمن ماري جاطة وخلفائه . وكانت بداية تلك الإمبراطورية في إقليم كانجايا . وبدأت عاصمة تلك الزعامة من مدينة جارب بهذا الإقليم .

يعتبر بداية العصر الذهبي لامبراطورية مالي عصر ماري جاطة [٢] الذي اتجه صوب الجنوب بعد هزيمة أسرته أمام الصوصو ، فأعاد تنظيم قومه وجمع حوله بقايا جماعاً الماندنجو والقبائل الصديقة وأعلن الجهاد المقدس ضد الصوصو ، وكون إمارة جديدة للماندنجو في سانكاران وياولي ، ومنها بدأ يشق طريقه صوب الشمال بجيش حسن التدريب والتنظيم بلغت فرقه المحاربة حوالي اثنتي عشرة فرقة ، بالإضافة إلى طوائف من الفدائيين الذين كان لهم دور في حفظ الأمن والاستقرار في دولته [٣].

---

(١) اعتنق مؤسس تلك الإسرة الإسلام ويسمى منسا نوكن تراورا .

(٢) اسمه سندياتا ، وهو الابن الثاني عشر لنادي فاغمان الذي دخلت بلاده قبائل الصوصو واحتل إقليم كانجايا أثناء ضعف مملكة مالي وقد عمد الصوصو إلى قتل كل أفراد الأسرة الحاكمة للأقليم ولم ينجو سوى سندياته الذى قاد قومه إلى الصوصو وتحرير بلاده .
ابن خلدون ، تاريخ ، جـ٦، ص ٤١٣.

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٤١.

وفى معركة كيرنيا Kirind ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥م تمكن الماندنجو بزعامة ماري جاطة من انزال هزيمة ساحقة بالصوصو ، وتمكن الماندنجو من فتح إقليم كانياجا [١] وهو المركز الرئيسى لدولة الصوصو ، وإقليم سانساندبع وإقليم سيجو ، وأقاليم أخرى لتصبح جماعات الماندنجو أقوى جماعات ودول بلاد السودان .

وتمزقت جماعات الصوصو في أقاليم السودان الغربي ، فاتجهت جماعات منها صوب ارض حوض السنغال ، حيث اصطدموا بجماعات الولف هناك ، حتي قضي عليهم الولف في القرف الرابع عشرالميلادي . كما اتجهت جماعات منهم صوب الشرق والشمال . واتجهوا بعد ذلك إلى الدخول في الإسلام ، وخلوا في جماعات اخري . [٢]

تابع ماي جاطة انتصاراتة ليضم جني ، كأحد المراكز التجارية علي النيجر الزعلى ، والتى تتحكم في تجارة مدينة ولاتة الصحراوية ، وفي سنة ٦٣٨ هـ سنة ١٢٤٠م دخل ماري جاطة مدينة كومبي صالح ، والتي كان هجرها العلماء والتجار إلي ولاته نحو الشمال منذ إجتياح الصوصو لها منذ سنة ١٢٠٣م . وأصبحت مالي امبراطورية تتحكم في احداث غرب السودان وفي تجارتة . وتمتد اقاليمها حتى حوض نهر السنغال غرباً وإلى حدود الصحراء شمالاً .

ومن أجل اكتمال الشكل الجديد لامبراطورية مالي قام ماري جاطة بتأ سيس عاصمة جديدة له تليق بمركز الماندنجو وباتساع حدودهم وبقوتهم ، وهي مدينة نياني [٣] علي إحدى فروع نهر النيجر ، وهي التي اشتهرت باسم مالي أو ملي ، صار اسمها علماً علي دولة الماندنجو ، وأصبحت من أهم مراكز السودان الغربي التجاريه حيث اصبحت قبلة للقوافل التجاية لفترة طويلة ، ومركزاً هاماً للتجار من كافة الأنحاء . كم قصدها العلماء والفقهاء والدعاة . وهي أول مدينة توَسس في غرب السودان علي النمط الإسلامي وبالروح الإسلأمية [٤] ذلك لأن الماندنجو عرفوا الإسلام قبل ان تبني إمبراطوريتهم بقرون .

---

(١) قداح ، المرجع السابق ، ص ٤٨.

(٢)طرخان ، المرجع السابق ، ص ٤١.

(٣) زكي ، تاريخ الدول الإسلأمية، ص ٩٧ .

(٤) قداح ، المرجع السابق ، ص٥٠ .

توفى ماري جاطة سنة ٦٥٣ هـ/سنة ١٢٥٥م بعد أن قام ببناء امبراطورية إسلامية واسعة في بلاد السودان الغربي لأول مرة ، وتحمل مع قومة عبا الدفاع عن الإسلام ضد الجماعات الوثنية خاصة في الجنوب [١] ، وأعاد تلك الجماعات الوثنية إلى الانحسار والانكماش داخل نطاق الغابات أو الجزر المنعزلة في مناطق المستنقعات .

تولى بعد ماري جاطة في حكم مالي منسا ولى سنة ١٢٥٥م ، ويذكره القلقشندي باسم منسا علي [٢] ويعد منسا علي من أعظم سلاطين القرن الثالث عشر في إفريقية جنوب الصحراء . فقد استفاد من خدمات قادة أبية ماري جاطة، حيث تمكن عدد من هؤلاء القادة من تأسيس إمارات تابعة لمملكة مالي ومنها مملكة بانبوك التي أسسها القائد سرماكيتا ، ومملكة سانجاران التي أسسها القائد ساني نيانجا وهومن سلالة أسرة التروريين التى تأسست في الشمال [٣] . وبذلك بسطت مالى سيطرتها التابعة على حقول الذهب ومنابعه.

كما تمكنت مالي في هذا العصر من بسط سلطانها على دويلة صنغي الناشئة في حوض النيجر الأوسط . غير أن جاو Gao استعصت على جيوش مالي وقد أخذ منا على رهائن من صنغى ليضمن خضوعها واستسلامها وكان ملكها هو زاياسبي ، وكان ولداه على كولسن وسليمان نار من الرهائن لدى مالي . [٤]

وبعد وفاة منسا على بن ماري جاطة تعرضت البلاد لفترة من الفوضى حتى نهاية القرن الثالث عشر ، أي من سنة ١٢٧٠م وحتى سنة ١٣٠٠م . وقد تولى في هذه الفترة ملوك هم منسا ولى ، ثم أخوه خليفة الذي ثار عليه الرعية وقتلوه سنة ١٢٧٥م. ثم حكم من بعده أبوبكر بن بنت ماري جاطة حتى ١٢٨٥م ، وفى هذه الفترة خرج رهائن صنغى وهما على كولسن وسلمان نار وأعادا توحيد قومهما . ومن بعد أبو بكر تولى سنكره وهى من موالي أسرة كينا ، وقد تمكن من إخضاع صنغى من جديد ودخول العاصمة الصنغية جاو ، وفتح كوكو ووصل ملكه حتى ساحل المحيط الأطلسي وهابته أمم السودان

---

(١) زكي ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٥ - ص ١٩٣ .

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٦٤.

(٤) الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص ٢١٣.

. وقام بأداء فريضة الحج سنة ١٣٠٠م زمن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلادون . وخلال عودته قتل على أيدى الدناقل سنة ١٣٠٠م[١].

ربعد موت سيكره تولى الحكم فيها منسا قو بن ماري حاطة (١٣٠٠ - ١٣٠٥م) ثم خلفه من بعده ابنه هامادوا (محمد) (١٣٠٥ - ١٣١٠م) ثم تولى من بعده شخص يدعى أبابكر من نسل أخت ماري جاطة لمدة سنتين حتى سنة ١٣١٢م .

ومنذ سنة ١٣١٢م تولى الحكم في مالى أعظم سلاطين مالى على الإطلاق وهو السلطان موسى (٧١٢هـ/١٣١٢ - ٧٣٨هـ - ١٣٣٧م) . واشتهرت مالي في زمنه وأصبحت ذات ثروة وعظمة وقوة ونفوذ في إفريقية والعالم الإسلامي . وقد وصفه ابن بطوطه بأنه يحب البيض ويحسن إليهم [٢] وأشتهر بشقافته وورعه وإجادته للغة العربية ، وفتح بلاده للاجئين من مسلمي الأندلس وعلمائهم من الإضطهاد المسيحى . وتوافدت على بلاده ومن ثم أعداد كبيرة من التجار والعلماء .

يبدو أن نفوذ مالي قد استتب زمن موسي ، فقد تمكن من إخماد تمرد صنغى الأخير سنة ١٣٢٥م، ودخل جاو، وتنبكتو سنة ١٣٢٩م ، وبنى في الأخيرة دارا للحكم ، وقد تعرضت تلك المدينة لغزو قبائل الموشي الوثنية سنة ١٣٣٠م لكن مالي أعادتها من جديد . وفرض موسي الجزية على دولة جنى [٣] . وبذلك أصبحت مالى تتحكم في طرق القوافل شرقاً وشمالا ، وفي مناجم الملح والنجاح والذهب . وأصبحت مالى تضم أربع عشرة مملكة أو إقليم هي :

غانة - زاگون - ترنكا - تكرور - سنغانة - بانبغو - زرنطانيا - بيرا - دامورا - زاغا - كابرا ، براغودى ، كوكو، مالي . حتى قدرت مساحة مالى بمساحة أوروبا زمن

---

(١) القلقشندي ، المصدر السابق ،ص ٢٩٤ .

(٢) عرف السلطان موسى بأسم : منساكنكن موسى ، أو كونكور موسى . وقد استخدم هذا اللقب من قبل الفرنسيين . وكنكن كلمة منسوبة إلى أم السلطان وهى نانا كانجو بينما عرف عن أهل مالى باسم كى ملْ أو ً مل كى كنكن موسىً أى بمعنى حاكم مالي .

- انظر : طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٣، ٧٤ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٩٤.

(٣) السعدي ، تاريخ السودان ، ص ٢٤.

كنكن موسى [1]، وأصبحت أعظم امبراطوريات القرن الرابع عشر /م [2] .

تولى من بعد السلطان موسى ابنه مغان الأول (محمد) (١٣٣٧- ١٣٤١م) وقد تعرضت الدولة في عصره لغارات مستمرة من قبل قبائل الموش الوثنية ، وقامت تلك القبائل بأعمال نهب وتخريب فهاجمت تنبكتو وإحرقتها . كما هربت رهائن صنغى ونجح الأميران الصنغيان من انتزاع جاو ، وأخذا يترقبان الفرصة لاستعادة بقية أراضي إماراتهما .

تولى عرش مالي بعد محمد عمه سليمان (١٣٤١ - ١٣٦٠م) الذي نجح في استرجاع بعض المناطق التى فقدت زمن ابن أخيه السابق ، لكنه فشل فى استرجاع جاو عاصمة صنغي . وانصرف السلطان سليمان إلى الإصلاح الداخلي فعني بإقامة المساجد ، وجلب إلى بلاده العلماء والفقهاء . وأدى فريضة الحج سنة ١٣٥١ [3]. وفي عهده زار ابن بطوطه مالى مرسلاً من قبل سلطان بني مرين في مراكش ، وهو أبو عنان فارس المتوكل بن على (٧٤٩هـ/١٣٤٨م - ٧٥٩هـ /١٣٥٨م) . وذلك بهدف تنشيط التبادل التجاري بين الطرفين . وقد بدأت الرحلة أواخر سنة ٧٥٢هـ، ١٣٥١م ، ودخل مالي سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، وغادرها سنة ٧٥٤هـ / سنة ١٣٥٣م [4]

ويرجع الفضل الكبير لحكام مالي وأمرائها في ترسيخ الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية بين سكان بلاد السودان الغربي ، فقد كان الحكام من أكثر الناس تمسكاً بالإسلام وتحمساً لنشره ، فأصبح دين مملكتهم الرسمي [5]. وبلغ من عدل ملوكها مايرون حينما نزل على مسنى سليمان أثناء رحلة من أن الملك المالى كان دائماً ينبه أمراء البلاد بالبعد عن الظلم والفساد بقولهً إنى برىء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمني به ، فذنوب ذلك الظالم في عنقه ، والله حسيبه وسائلهً . كما أن منسا سليمان عزل والى مدينة ولاته التجارية الشهيرة بسبب حصول الوالى على مبلغ من أحد

---

(١) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٩.

(٢) زكي ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣)طرخان ، المرجع السابق ، ص ٩٥.

(٤) انظر الرحلة ، ص ٧ ومابعدها.

(٥) حسين ، أحمد إلياس ، دور فقهاء الأباضية في إسلام مملكة مالي ، ص ٩٢، ندوة العلماء الأفارقة

التجار بطريقة غير مشروعة ، فرد إليه الملك ماله وعزل واليه . وكان صاحب الحاجة يدخل مباشرة على الملك المالى .[1]

ويلغ المسجد مكانة هامة في حياة ونفوس سكان مالي ، فقد كان الخائف عندهم يستجير بالمسجد أو بدار الخطيب . وقام المسجد بدور كبير في حياة الناس هناك فبجانب تأدية الصلاة به ، فقد كان عقد مجالس العلم وتدريس مختلف علوم الدين ، وخاصة كتب الفقه المالكي ، وقد قام ملوك مالي ببناء العديد من المساجد في مختلف مدن المملكة خاصة المدن الكبرى مثل ملى وجاو وتنبكتو وكوكو ، وتوافدت أعداد كبيرة من العلماء إلى تلك المساجد للتدريس بها ونشر الإسلام واللغة العربية .

واحتل العلماء والفقهاء مكانة هامة لدى ملوك غانة وبين جميع طبقات المجتمع المالى المسلم وكان لهم دور في القضاء على المفاهيم الوثنية القديمة وإصلاح أحوال المجتمع المالى وإنتشرت طاهرة بناء المساجد على النظم المعمارية الإسلامية حيث بدأ نماذج العمارة المغربية والإندلسية والمصرية تدخل إلى السودان الغربى . فانتشرت حلقات العلم في المساجد وأصبح حفظ القرآن مفروضاً على كل أبناء مالي من قبل آبائهم ، حتى أنهم كانوا يضعون قيداً في رجل من لم يحفظ القرآن من أولادهم .[2] وبفضل جهود العلماء والفقهاء أصبح أهل مالى أشد سكان بلاد السودان تمسكا بالدين الإسلامية.

وكان لسكان مالي من قبائل الماندنجو الفضل في تحويل قبائل الهوسا ، في الشرق، إلى الإسلام في القرن الثالث عشر [3] ، فقد كان علماء مالي ودعاتها يتجهون بأعداد كبيرة نحو أراضي الشرق إلى إمارات الهوسا معهم كتبهم يعلمون بها أهل الهوسا أسس الإسلام وأحكام الشريعة الإسلامية ومبادىء اللغة العربية ، حتى أنه وجد في مدينة جني أثناء خضوعها لمالي حوالى ٤٢٠٠ عالم .

وقد التزم دعاة الماندنجو بالحكمة الموعظة الحسنة حتى أنهم ألفوا قلوب القبائل الوثنية حولهم ، فإذا دخل داعية منهم إلى قرية وثنية التف حوله الناس، وتميز هؤلاء

---

(١) الرحلة ، ابن بطوطة ، ص ٧٠١.

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧٠٣.

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ٥٥..

الدعاة أيضا بالتفاني في نشر الإسلام ، بالإضافة إلى خبرتهم في تلك النواحي ، فكانوا يمتزجون بسكان المناطق التى يفدون إليها ، حتى أن الإسلام في تلك المناطق الجديدة لم يؤثر على نمط الحياة اليومية بل أدى إلى تعديل سلوكهم ، فاكتسبت تلك الأقاليم أنماط جديدة متقدمة دفعتهم إلى الأمام .

ولاحظ من زار تلك المناطق أن أهالى مالي أصبحوا أكثر الناس ارتباطاً بأخلاق الإسلام ومبادئه ، فمن أفعالهم قلة الظلم بينهم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه . وقد ترتب على ذلك انتشار الأمن والاستقرار في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق أو ظالم أو غاصب "[1] حتى أن الناس هناك لايتعرضون لمال من يموت في بلادهم من الأجانب ، فإما يعود المال إلى أهله وبلده، أو يدفن بجواره ، إذ كان مجهولاً . ولاحظ الرحالة أن مساجدهم تكون مكثفة بالمصلين يوم الجمعة حتى أن الإنسان إذا لم يبكر في الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة لا يجد مكاناً له[2].

وإلى جانب دور العلماء والفقهاء والدعاة من أهل مالي قام الأباضية تجاراً وعلماءً بدور بارز في نشر الإسلام وثقافته في بلاد السودان العربي خاصة بعد سقوط الإمامة الرستمية في نهاية القرن الثالث الهجري على يد الفاطميين الشيعة . وقد عرف هؤلاء الأباضيين عند أهل مالي باسم " صنغنغو، بينما يطلق على علماء المالكية من البيض اسم "نوري" [3]

وقد نشط تجار الأباضية في التردد على بلاد السودان الغربي منذ القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي ، وأصبحت مراكزهم في طرابلس وجبل نفوسة ووارجلان وتاهرت من أهم المراكز التجارية مع بلاد السودان ، وأحتفظت زعاماتهم بعلاقات حسنة مع أمراء جنوب الصحراء ، ولذلك سيرة القوافل بكثرة بين الجانبين . ولذلك فقد كان لهؤلاء دور في ترسيخ الإسلام ونشر ثقافية بين أقاليم مالي ، مثلما الحال في غانة من قبل.

---

(١) ابن بطوطه ، الرحلة ، ص ٦٩٤.

(٢) ابن بطوطة ، المصدر نفسه ، ص ٧٠٣.

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٨٧.

ومن أوائل رجال الأباضية الذين سافروا إلى مملكة مالي العالم على بن يخلف المزاتي التاجر النفوسي سنة ٥٧٥هـ [١] ، وانتهى به المقام إلى مدينة مالى ، فأكرمه ملك مالى ، وكان الملك قلما يجلس مجلساً إلا أحله معه إكراماً له وأعجاباً به وبخلقه وسيرته . وكان لهذا العالم الأباضي دور في إسلام ملك مالي . وعلمه أصول الدين الإسلامي ، وصلى بالناس صلاة الاستسقاء حينما أصحاب البلاد جفاف شديد . وأخذ العالم الأباضي يعلم سكان المدينة الإسلام والقرآن وشرائع الدين [٢] ويبدو أن على بن يخلف قد تمكن من تحويل زعامة من مالي إلى الإسلام وليس ملك مالي نفسه . [٣]

وقد لاحظ ابن بطوطة أثناء رحلاته في مملكة مالى وجود أتباع للأباضية في زاغري (زغاري) يسمون من قبل أهل مالي باسم صنغنغوّ وهو الأمر الذي يدل على قدم الجهود الأباضية في بلاد السودان الغربي حتى آنتهى الأمر بظهور أتباع لهم في أحد المراكز التجارية في مالي . ويدل أيضا على أن تجار الأباضية الذين قدموا من وارجلان وتاهرت وسجلماسة كانوا يقيمون بالقرب من مواقع استخراج الذهب في ذلك الوقت.

كما نشطت صلات رجال الأباضية مع مركز تجاري آخر بالسودان الغربي وهى مدينة تادمكت التى تقع عل الطريق التجاري بين واجلان في الشمال وبين كوكو وغيرها من مراكز السودان الغربي ، وقد ازدهرت علاقات تجار الأباضية معها منذ العهد الرستمي في تاهرت [٤]. وقد استقر بعض تجار الأباضية ووصل بعض إلى درجة كبيرة من الثراء بسبب أهمية المدينة في تجارة الذهب السوداني [٥]

على أن المذهب الذي ساد على السودان كان المذهب المالكي [٦] وذلك بفضل

---

(١) ناصر ، المرجع السابق ، ص ١٩ ومابعدها .

(٢) الدرجيني ، الطبقات . جـ٢ ، ص ٥١٧.

(٣) إلياس ، المرجع السابق ، ص ٥٧.

(٤) ناصر ، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٥) ذكر أن أبانوح سعيد بن يخلف وصل إلى تادمكت ودخل بيت تملي حيث شاهد أكياساً مركومة من الذهب . وكان تملي يبعث كل عام إلى بلاد والجريد بثمانية آلاف دينار زكاة ماله . بعد أن كان فقيراً قبل سفره .

(٦) اتباع مالك بن أنس (٩٣هـ - ١٧٩م) الذي نشأ بالمدينة وتعلم بها ، كان مشهورا بتقيده بالقرآن والحديث وابتعاده عن التأويل وقلة القياس .

الروابط التاريخية والحضارية الوثيقة التى تربط بين القيروان وشمال افريقية وبين جنوب الصحراء ، كما أن استمرارية تدفق هجرات القبائل وجموع العلماء والفقهاء من مراكز شمال إفريقية كان لها دورها الكبير في هذا الإطار.

ازدهرت الحركة العلمية والثقافية بين مدن مالى وأقاليمها ، وقام سلاطين مالى بدعوة العديد من العلماء من بلاد المغرب ومن مصر ومن الأندلس ، وخاصة بعد تلاحقت الكوارث على مسلمى الأندلس ففرت أعداد كبيرة من علمائها وفقهائها إلى بلاد السودان ، حيث وجدوا هناك ترحيباً كبيراً من حكامها وأهلها ، ولذلك فقد كان هجرة المسلمين من أسبانيا خيراً لبلاد السودان الغربي . وانتعشت المراكز التجارية تقع على طرق القوافل ، حيث استقر بها اعداد من العلماء أيضا وسط سكانها . وبفضل رعاية حكام مالى ازدهرت العلوم والفنون الإسلامية ، ونظمت رواتب شهرية ثابتة للعلماء والفقهاء والخطباء ، بل ازدهرت مهنة نسخ الكتب وتجارتها ، حتى كانت تجارة الكتب في عصر ملوك مالي تدر دخلاً كبيرا لإقبال الناس على اقتنائها والانتفاع بها ، كما تدل على كثرة المتعلمين بالدولة وتقدير الناس للعلم وأهله .[١]

وساعد على ازدهار الحركة العلمية بمالي اضطراب الأحوال السياسية والأمنية في الشمال الافريقي منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وقدوم العديد من علماء المسلمين من مختلفالمذاهب للاستقرار في مدن مالى واتخاذها مقراً ومقاما . فازدهرت اللغة العربية بين سكان أقاليم مالي وترسخت المفاهيم الإسلامية وانزوت العادات الوثنية من الحياة العامة . وأصبحت العربية لغة الثقافة والفكر والتخاطب والمراسلات [٢] بل أنها أصبحت لغة التخاطب بين القبائل الإفريقية ، وكان الخط العربي المستخدم هو الخط المغربي [٣] وزاد من انتشار العربية اتجاه العديد من أبنائها لتحصيل العلم من مراكز الحضارة الإسلامية في الأزهر والقيروان وفاس ومراكش [٤]

وقد واصلت العربية انتشارها بين اللهجات المحلية ولاسيما لهجات جماعات

---

(١) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٢)حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩.

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٢٩٨..

(٤) حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٤.

الهوسا والماندنجو والفولاني ، فاستخدمت الحروف العربية في كتابة اللغة الفولانية ولغة الهوسا ، ولاتزال قبائل الفولاني تستخدمها حتى العصور الحديثة . كما دخلت العربية بين اللهجات المحلية في صورة آلاف المصطلحات خاصة في المجالات الدينية والثقافية والإقتصادية والسياسية ونظم الإدارة ، وفي أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات ، ومازال الكثير من أهالى دول غرب افريقية يعتز بأصوله العربية عبر مخطوطات مدونة بالعربية تتناقلها الأجيال [1]

وبينما كانت مدن غرب السودان تعج بالحركة العلمية والثقافية ، كانت أوروبا قد بدأت في الخروج من عزلتها وتبحث عن ذهب السودان ، وكانت مدنها تنقصها الكثير من استقرار وازدهار مدن غرب السودان في مالي . فكان في تنبكتو مسجد سنكري الذي أصبح جامعة شهيرة تدرس العلوم الإسلامية ، وقدم للتدريس فيه علماء من العرب والبربر ومنهم المؤرخ الفقيه أحمد بابا صاحب كتاب تاريخ السودان . ومنهم الفقيه الحاج عبدالرحمن بن أبي بكر الذي تولى القضاء آخر دولة مالي . أما مدينة مالي ، العاصمة ، فقد كانت تضم طائفة كبيرة من العلماء من كافة الأقطار الإسلامية منهم الفقيه محمد الجزولى وشمس الدين النقوشي المصري والفقيه القرى ، عبدالواحد .

وانتشرت المدارس في مالي في جميع المدن والأقاليم تؤدى رسالتها الثقافية بجانب المساجد ودور العبادة الإسلامية ، مثل مدارس زاغة ، وقد لاحظ ابن بطوطة إقبال أهل تلك المدينة على العلم بقوله" ولهم ديانة وطلب علمٌ فأنتشرت اللغة العربية حتى أصبحت اللغة الرسمية في بلاد السودان ، وهكذا لم تكتفى قبائل مالى بدخول الإسلام ، بل انصهرت في المحيط الهندي .

ورغم الروح الإسلامية العربية التى طبعت الثقافة الإسلامية في السودان الغربي ، فإننا نلاحظ أنها ذات طابع مغربي بحث ، بسبب الدور المغربي الواضح في نشر الإسلام وثقافته في تلك المناطق من افريقية [2] فقد غلبت التقاليد المالكية من حيث المذهب وكلها تدور حول فقه الإمام مالك والعلوم المساعدة الأخرى التى تخدم هذا الفقه ، والمصادر التى توضحه للناس ، وقد حملت تلك المؤلفات من القيروان مع البربروالتجار

---

(١) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٥٤.

(٢) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤.

إلى غرب السودان حتى غلبت المالكية على الفقه والثقافة والتراجم ومعظم جوانب الإنتاج والتأليف الفكري في دولة مالي وغرب السودان . حتى أن المدارس الثقافية هناك لاتعدو أن تكون مدارس مغربية بحتة ، فكأن العالم والفقيه هناك لا تختلف مشهجتيه عن زميله في فاس أو مراكش أو القيروان في الأسلوب وحتى في الخط المستخدم .[1]

وبذلك ارتبطت المناهج وطرق التدريس في مملكة مالي مع مناهج ونظم التعليم المالكية المغربية والأندلسية . مثل كتب القاضي عياض وسحنون وشروح ابن القاسم وخليل ، وموطأ مالك ، والمدونة وغير ذلك.

أما التأثيرات الأندلسية فقد وصلت بصورة سريعة خلال ثلاثة معابر هى :

(١) تجار سجلماسة وتاهرت وهى مراكز كانت مرتبطة بعلاقات حسنة مع حكومات الأندلس الأموية وتجمع بينها العداء مع العباسيين في الشرق .[2]

(٢)ارتباط الأندلس ببلاد المغرب زمن المرابطين والموحدين ، وبالتالى دخلت الأندلس أعداد كبيرة من سكان مالي وغرب السودان كجند في الجيوش أو تجار . كما رحل إلى بلاد السودان العديد من علماء المغرب الذين أثروا وتأثرو بالثقافة الأندلسية .

(٣)هجرة العديد من علماء الأندلس أمام المد المسيحي في الأندلس فرحلت أعداد كثيرة منهم إلى بلاد المغرب ومدن مملكة مالي خاصة تنبكتو [3].

وصلت تأثيرات ثقافية من مصر من خلال رحيل العديد من أبناء مالى للدراسة في الأزهر في رواق التكرور ، ووصلت التأليف المصرية معهم ومن خلالهم . كما زار حالي ومناطق الهوسا علماء من مصر مثل السيوطي . كما حرص ملوك مالي أثناء رحلة الحج

---

(١) حسن محمود، المرجع نفسه، ص ٢٤٥.

(٢) بكوش ، يحيى محمد، الوجود الأباضي بالأندلس ، ص٧ . محاضرة في دار العلم بغرداية سنة ١٩٨٤م ، والجزائر .

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٤٥.

على زيارة الأزهر وإصطحاب العديد من العلماء من مالي للأضطلاع على ما تحتويه مكتبته ومؤلفاته [١].

لقد كانت رحلات الحج التى يقوم بها ملوك مالي فرصة هامة للأضطلاع على المستويات الحضارية في بقية أنحاء العالم الإسلامي إبتداء من السودان الأوسط وحتى بلاد الحجاز عبر مصر ومستوياتها الحضارية ، فكانت تلك الرحلة فرصة لاقتباس آخر ما وصلت إليه تلك البلاد من تقدم ثقافي وفني وإجتماعي [٢] وكانت أشهر رحلات الحج التى قام بها ملوك مالي رحلة منسي موسي سنة ٧٢٤هـ /سنة ١٣٢٤م [٣]. وتدل الأوصاف التى وردت في المصادر والمراجع لها على أنها كانت أشبه بموكب ملكي يليق بمدى ما وصلت إليه إمبراطورية مالي من غنى وثراء وازدهار ، فقد كان بالموكب ستون ألف جندي وعشرات العبيد والجواري ، ومائة جمل من الذهب ، وكانت لتلك الرحلة أثرها في انخفاض أسعار الذهب في مصر ، حتى لقب منسي موسى بمُلك الذهبُ ولم يترك منسى موسى صاحب وظيفة إلا وبعث إليه بهديته من الذهب [٤] ورغم ما فيها من مبالغة إلا أنها تدل على مقدار ماوصل إليه ملوك مالي من ثراء ، وما بلغته دولتهم من ازدهار . وقد أدهشت تلك الرحلة الأوروبيين المتواجد في مصر فبدأوا في التفكير في الوصول إلى مالي ومناجم ذهبها .

كانت رحلات الحج التى يؤديها ملوك مالي فرصة للاستفادة من تجارب بقية أقطار العالم الأسلامي من خلال إجتماع المسلمين وزعمائهم في موسم الحج، فقد استفاد منسى موسى من إحدى رحلات حجه باصطحاب المهندس المعماري القرطبي أبي اسحق إبراهيم الساحلي الذي قدم معه إلى مالى وأشرف على تأسيس عدة نماذج معمارية جديدة منها عمارة مسجّد جار وتنبكتو [٥] حيث أدخل البناء بالطوب المحروق ، وبنى قاعة الإجتماعات بقصر مانسى موسى في مالي من الحجر والجبس وزخرفتها بالخشب المطعم بالذهب والفضة ، وأدخل نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل[٦] وكانت

---

(١) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٥٠.

(٢) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٠١.

(٣) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٠٧. (٤) السعدي ، تاريخ السودان، ص ٨٠.

(٥) وهى المساجد التى أصبحت جامعات إسلامية فيما بعد في مالى وتنبكتو وتادمكة

(٦) طرخان، المرجع السابق ، ص ١٥٤، ١٥٥.

تلك المباني غير معروفة في مالي من قبل .

وعلى مستوى العادات والتقاليد لدى قبائل مالي فإنها قد توارت أمام الفكر الإسلامي الذي أبقى على العادات والتقاليد التى لا تتعارض معه. وإن كانت هناك بعض المراسم ظلت لدى أهل مالي متبعة حتى العصر الإسلامي ، منها ما لاحظه ابن بطوطة من أنهم يرمون أنفسهم بالتراب على رؤسهم وأجسادهم أثناء حديثهم مع الملك كنوع من الخضوع والإجلال لشخصه [1].وإن كانت هذه الظواهر قد بدأت في التغير أمام جهود العلماء والدعاة .

فقد ترتب على تحول العديد من سكان بلاد السودان ، خاصة في مالي ، الحاجة إلى العديد من الدعاة والعلماء والفقهاء ليبينوا للناس مبادىء الدين الإسلامي وشعائره ، الأمر الذي أدى إلى خلط بين تعاليم الإسلام وبعض العادات الوثنية ففي منطقة روفسيك على ساحل المحيط الأطلسي (البحر المحيط الغربي) توجد قبيلة ليبو التى تعمد أفرادها على الصيد البحري ، رجالها متدينون مسلمون بينما النسوة وثنيات في كثير من أفعالهن ، حيث يقدمن القرابين للمحاريب في البيوت . كما أن هناك اعتقاد واسع في مالي بالسحر والتعاويز والخوف من الشيطان . ومازالت بعض قبائل وادي النيجر في مالي تنتشر بينهم رقصة المطر ، خاصة قبائل السوزاى والجرما ، وذلك للتقرب إلى إله المطر بالأنغام والرقص[2] .

ورغم ذلك فهناك آثار هامة للإسلام في إفريقية في مجال القضاء على كثير من عادات الوثنية وإصلاح مظاهر إسلامية محلها فأصبحت طقوس الدفن إسلامية في كل الجهات في مالي ، وأصبح الإسلام يمثل أهم روابط تجمع بين سكان غرب السودان ، ليقلل من الرباط القبلي الذي يقوم على العصبية ، وأصبح أنتماء أبناء مالي إلى الإسلام يشعرهم بالفخر [3] وأصبحت الصلاة أهم مظهر من مظاهر الحياة الإسلامية في مالي فالجميع يسارع إلى الصلاة في أوقاتها، خاصة يوم الجمعة ، من هنا انتشرت آلاف

---

(١) الرحلة ، ص ٦٩٣، ومابعدها.

(٢) قداح، المرجع السابق ، ص ١١٤.

(٣) وهنا تتضح عظمة الإسلام لملاءمة كل إنسان في أي مستوى وأى زمان مكان فقد وجد فيه الإفريقي بساطة وفطرته فأتخذه ثوباً وعقيدة ومنهجاً.

المساجد في المدن والقرى وحتى على الطرق العامة حيث انتشرت مُصليات عبارة عن دوائر رملية من الحجارة ، أوكوخ كبير من القش . حتى وجد في مدينة جني ثلاثمائة مسجد عدا المسجد الجامع لها . [١]

كما يحتفل في مالي بالمناسبات الإسلامية كعيد الفطر وعيد الأضحي وليلة الإسراء والمعراج في احتفالات ضخمة ، ويذهب الملك لحضور صلاة العيد في موكب رسمي . وتعد فريضة الحج من أشق فرائض الإسلام عند أهل مالي بسبب بعد الديار عن الحجاز ، ورغم ذلك ظل بعض أهل مالي يتحملون المشاق في سبيل تأديتها ، حتى أصبح الفقراء منهم يذهبون إلى الحج مشياً على الأقدام [٢].

ورغم ذلك فقد كانت عملية التغيير الإجتماعي لدى أهل مالي عمليه متدرجة ، وكان لأهل مالي قابلية لتغييرها بمجرد علمهم بمخالفتها للشريعة الإسلامية وقد ضرب منسي موسى بنفسه مثالاً على ذلك ، ففى أثناء رحلته إلى الحج ، ظهر منه تصرف غير شرعي وحينما علم بعدم شرعية هذا التصرف أنكره مباشرة ، وكان رده " والله ماكنت أعلم بذلك" [٣] .

دخلت تقاليد شرقية إلى مملكة مالي مع تحولها إلى الإسلام ومن تلك التقاليد ظهور الأعلام والرنوك كشعارات للسلطان ، وظهور ملوك مالى للجلوس في أوقات محددة ،[٤] واتخاذ المواكب السلطانية ، واتخاذ السلطان قبة للجلوس فيها ، وظهور العلماء والفقهاء في مجالس السلطان ومواكبه .

أدى ارتباط مملكة بالعالم الإسلامي إلى تغيرات اقتصادية على أرضها وفي منطقة

---

(١) قداح ، المرجع نفسه ، ص ١١٢.

(٢) قداح ، المرجع السابق ، ص ١١٣.

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٢٩٦.

(٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧٠٠.

(٤) عند جلوس السلطان يخرج ثلاثة من العبيد يدعون نائبه الفرارية وهم الأمراء ثم يأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية.

- ابن بطوطة ، ص : ٧٠٠ .

غرب إفريقية قاطبة . فقد تمكنت مملكة إقليمية من استغلال إمكانيات السودان الزراعية والمعدنية والغابية والحيوانية، كما استفادت من سيطرتها على طرق التجارة العالمية . فانعكس ذلك بالنمو والثراء على المنطقة، وحقق اقتصاد إقليم افريقي لأول مرة في ظل الإسلام تحولاً في ميزانه التجاري لصالحه، حيث حققت صادراته أرباح هائله حسب أسعارها الدولية، وأصبح ملك مالى يلقب بـ "لورد الزنوج" [1] حينما وصلت شهرتهم ودرجة ومكانت وازدهار بلادهم إلى تجار أوروبا . وكان ذلك منذ زمن منسي موسي .

فقد قامت مملكة مالي في منطقة خصبة تتوافر بها عدد من أفرع الأنهر، المتصلة بنهر النيجر والسنغال ، بالإضافة إلى عدد من الأودية التي تحمل مياة لأمطار الوفيرة . فأنتجت أقاليم مالى العديدة من المحاصيل مثل الحبوب ، التى كانت رخيصة بسبب توافرها ، كما زرع أهلها القطن ، والخضروات ،وانتجت بلادهم نبات يسمى الفوني يطحن ويعمل منه خبزاً. واستغل أهلها مراعيهم لتربية الحيوانات كالأغنام والجمال والبغال وكان لهذا الجانب اثره في الإكتفاء الذاتي الذي تمتعت به معظم مدن وأقاليم مالي . وكان ذلك مراعاة لإنتشار الإستقرار في ربوع مالي وصورة حسنة لجذب التجار للاستقرار بها وإدارة أعمالهم منها . وقد استوردت مملكة مالي الصناعات التي تحتاجها من العالم الإ سلامي مثل : السيوف والمنسوجات خاصة الحرير ، والخيول ، التي كانت أثمانها مرتفعة . وكانت أهم سلعهم هي الصناعات النسيجية التي تردد تجار مالي لإستيرادها من مصر كما استوردوا الزجاج والملح . [2]

على أن أهم صادرات مالي والتي شكلت عصب الحياة الاقتصادية بها كانت سلعتى الذهب والرقيق .وقد ساعد موقع مالي وامتدادها علي السيطرة علي تجارة تلك السلع فضمت أقاليمها أهم مناجم الذهب في بلاد السودان الغربي [3] ، كما أن مملكة مالي كانت تمثل المنفذ التجاري للقبائل الوثنية البدئية والمنتشرة في الغابات التي تقع الي جنوب مالي من النطاق الإ ستوائي .

كان لتجار مالي طرقهم الخاصة لجلب العبيد من الغابات إلي مراكز بيعهم

---

(١) نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية،ص ١٤٩.

(٢) طرخان المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٣) طرخان ، المرجع نفسة ، ص ١٣٩، ١٤٠ .

وتجميعهم ، بحيث كثرت أعدادهم في مدن مالي ، وأصبحوا عماد الحياة الاقتصادية بها ، فهم جند في الجيش ، وعمال في الحرف ، وزراع في المزارع ، وخدم في المتاجر . وقد اعتمدت الإدارة السلطانية علي كثير من العبيد المحررين ، فوصل بعضهم إلى درجة قائد في الجيش والحرس المالكي [١] ، وأصبح لهم رئيس يسمي ، صندكي أى رئيس العبيد . ولقبت طبقة العبيد المحررين باسم (البولا) من هنا فقد أصبحت تجارة الرقيق لها نظمها وتقاليدها في مجتمع مالي المسلم ، حيث احتفظ للعبد بحقوقة ومكانتة .

ومن مالي توجهت قوافل الرقيق بأعداد كبيرة إلى مدن بلاد المغرب وإلى الأندلس وإلى مصر وإلى كافة أرجاء العالم الإسلامي ، حاملة معها الجواري الحسان والخادمات التي يجدن أنوعاً متعددة من الطعام [٢] . ولذلك وفد التجار من مختلف الأقطار إلى أسواق تاهرت وسجلماسة ، فيقول ابن حوقل عن جنسيات تجار سجلماسة ،، وسكنها أهل العراق وتجار البصرة ومكة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق ، فهم واولأدهم وتجارا تهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرجاح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة كلما يدانيها التجار في بلأد الإسلأم سعد حال [٣] ،،

هذا وقد تباينت أسعار الرقيق من مكان لآخر ، ومن فئة إلى أخرى ، حسب حاجة المنطقة ومميزات العبد أو الجارية ، ومهما كان رخص تلك السلعة في اقاليم مالي فإنها قد بلغت أسعارا غالية في بلاد المشرق ومصر والأندلس ، فقد بلغ ثمن الجارية النظيفة في أغلب الأحيان حوالي مائة دينار ، بينما كان سعر الغلام عشرة دنانير والخادم أقل من ثلاثين . أما اذا ربيت الجارية تربية خاصة إلى جانب جمالها وادبها فقد يصل سعرها إلى ألف دينار . فقد وجهت أم الأمراء زوجة المعز لدين الله الفاطمي بصبية ربتها مع أحد الوكالاء لها لتباع في مصر فطلب فيها ألف دينار [٤] .

سيطرت مملكة مالي علي مناجم النحاس والذهب في غرب السودان ، فقد توافرت كميات كبيرة من النحاس الأحمر الجيد في حقول منطقة تكدة ، حيث كان يستخرج من

---

(١) الأدريس ، نزهة المشتلق ، ص ٩٤ .

(٢) القادري إبراهيم ، الإسلام السري في بلاد المغرب ،ص ٢١٤.

(٣) صوره الأرض ، ص ٩٠.

(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١،ص ٦٠ .

مناجم خارج المدينة ثم ينقل إلى المدينة ليتم صهرة في شكل قوالب [1] . ويصهر في شكل قضبان مختلفة الأشكال إلى مملكة برنو المجاورة وإلى بلاد المغرب ومصر وحوض البحر المتوسط . كما كان يصدر منة كميات صوب الغابات الإستوئية حيث يتم استبداله بأعداد من العبيد . وكان معدن النحاس غالي الثمن حيث يباع بثلثي وزنه ذهباً . أي أنة كان مورداً هاماً من موارد مالي لتوفير أعداد العبيد وكميات الذهب من المناطق المجاورة التي تستبدل النحاس بالذهب .

ظل الذهب الاستراتيجية التى يعتمد عليها اقتصاد مالي المزدهر . حيث أصبح ذهب مالي بمثابة السلعة النقد الدولية في حوض البحر المتوسط ، خاصة الجزء الغربي منه ، من هنا فإن عمليات استخراج الذهب كانت تتم بصورة سرية ومنظمة ، وكان لدى الملك المالي أجهزة خاصة للإشراف على استخراج الذهب وتجميعه وتصديره.[2] وكان وراء هذا النظام خوف حكومة مالي على مبابع الذهب . وقد حاول بعض التجار القادمين إلى البلاد أن يتعرفوا على مراكز استخراج الذهب فقبضوا على أحد العبيد العاملين في هذا المجال وعزبوه حتى مات ، ولم يصرح لهم بشيء عما أرادوا [3].

وقد ظهرت لدى حكومة مالي اعتقاد بأن الذهب يختفى إذا ماتحولت منطقة إلى الإسلام ولذلك فقد جعلوا عمليات الاستخراج والمبادلة في يد الوثنيين من العبيد ، فيقول القلقشندي ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه إذا ما فتحت مدينة من هذه المدن وفشا بها الإسلام ، ونطق بها داعي الآذان إلا قل بها وجود الذهب ثم يتلاشي حتى يعدم ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرضوا منهم ببذل الطاعة وحمل مقرر عليهم [4] ولذلك ظلت عمليات الاستخراج والصهر لهذا المعدن في يد الوثنيين من رعايا ملك مالي ، حتى أشار ابن بطوطة إلى تخوف سلطان مالي من امتداد أيدي المسلمين إلى مناجم الذهب حتى لا ينضب .

---

(١) برعت مملكة مالي في تقنية استخراج النحاس والذهب . فقد أوكلت عمليات استخراج الخام للعبيد خاصة الوثنيين ، وكان يتم عزل التجار عن معرفة مواقع المناجم حتي تظل ثروات البلاد في مأمن من الأطماع الخارجية .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٩٩ .

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٢٩.

(٤) القلقشندي ، صبح الأعسن ، جـ٥ ، ص ٢٩٤.

كانت عمليات تجارة الذهب تتم عن طريق ما يعرف باسم « التجارة الصامتة - (Silent - Trade) التى كانت سمة عامة لمعظم السلع الإفريقية [١] فكان العاملون في حقل الإنتاج لايتصلون بالتجار بل تتم عمليات المقايضة من على بعد، فيتم تجميع كميات الذهب في أكياس في مكان بعيد متفق عليه، ثم يحضر التجار بالسلعة المراد الاستبدال بها، ويحضر زعيم من السودان فينظر في كمية السلعة ويتم التراجع إلى الخلف عدة مرات من قبله فإن وافق على الصفقة تقرع الطبول.

أصبح ذهب مالي السلعة العامة في تجارة إفريقية الشمالية حتي وقت قريب [٢] ، فقد أصبحت دول أوروبه الحديثة تنظر إليه كنوع من توفير الأمن النقدي لها ولسمعة عملتها واستمرت حكومة مالي في الحفاظ على مناجمه في منطقة ونقارة [٣]، وقد سميت بأرض الذهب ، كما وجدت كميات كبيرة منه في تغازي [٤]، على حدود الصحراء الكبرى ، وهى المنطقة التى توافرت بها كميات الملح أيضا ، حيث كان يستشتخرج منها على هيئة ألواح صلبة .[٥]

وقد وفرت هيبة حكومة مالي في منطقة غرب السودان نوعاً من الأمن والإستقرار بما تمتلكه من قوات عسكرية نظامية ومدربة ، كانت في حالة استعداد مستمر لمواجهة اعتداءات القبائل الوثنية أو القبائل الطامعة في خيرات البلاد أو الأقاليم التى تحاول التمرد على سلطنها [٦] وأصبحت طرق التجارة من مالي وإليها آمنة في أغلب الأحيان ، كما كانت تحركات القوافل تتم في أمن وسلام . ولم يعكر صفو هذا النظام سوى اعتداءات القبائل التى تتمركز نحو الشمال في الصحراء ، فكثيرا ماكانت تنتهز فرصة انشغال مالي بمشاكلها الداخلية لتنقض على قوافل التجارة . كما استغل الطوارق ضعف

---

(١) لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٤.

(٢) آشتور ، التاريخ الأقتصادي ، ص ١٠١.

(٣) تضم منطقة ونقارة أربعة أقاليم هى : بامبوك في السنغال الأعلى ، وبورعلى النيجر الأعلى ، ولوبي على نهر الفولتا ، وأشانتا شمال غانة الحالية.

(٤) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٨٥.

(٥) زكي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ١١٠.

(٦) طرخان ، دولة مالي ، ص١١٥.

مالي في العصور الحديثة ، وهددوا الطرق التجارية ومراكز التجارة [1]

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي بدأت عوامل الضعف والتدهور تظهر في مملكة مالي ، فضعفت سلطة الحكام ، وبدأت مظاهر الإنقسام الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة ، في وقت بدأت فيه الدول الأوروبية تضع الخطط للإنقضاض على إفريقية الغربية وتخطط للوصول إلى ثروات مملكة مالي [2] ، بل وصل الأمر إلى طلب ملوك مالي العون من البرتغاليين لحمايتهم من القوى المجاورة ، وكان هذا الطلب حجة شرعية للتدخل البرتغالي والأوروبي في أقاليم مالي في خفم الكشوف الجغرافية الأوروبية .

ومن تلك الأخطار الأخيرة التى تعرضت لها مملكة منذ بداية العصور الحديثة وأدت إلى زوالها مايلي :

(١) الطـــــوارق : [3]

قام الطوارق بشن غارات من جهة الشمال على إمارات وإقاليم مملكة مالي ، خاصة

---

(١) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ١١٠.

(٢) طرخان ، المرجع نفسه ، ص ٨٨، ٨٩.

(٣) الطوارق : شعب قوى وعريق ينتمى إلى أصول بربرية ، ونسبوا إلى إحدى قبائل صنهاجة الصحراء التى تسمى تارجا أو تاركاً ، حيث هاجر بعضها إلى نواحي تلمسان في العصر المرابطي وبقى معظمهم في الصحراء في مواطنهم الأولى في المنطقة التى تمتد من وادى درغة جنوبي المغرب الأقصى ووادى السنغال ، وامتدت منهم فروع ناحية الشرق ، ثم تفرقت في نواحي الصحراء الكبرى .

خينما لحق الهاربون من بنى عمومتهم من بقايا قبائل صنهاجة الصحراء أثناء هروبهم أمام الموحدين فتزايدت أعدادهم وازدادت قوتهم وسادوا معظم الأقاليم الصحراوية حتى قلب الصحراء الكبرى وأصبح يطلق على هؤلاء الصحراويين جميعاً اسم تارجا أو تاركا . وقد عرب هذا الاسم ليصبح إلى طارق والنسبة إليه طارقي وجمعه طوارق .

وأصبح شعب الطوارق من أكثر شعوب أفريقية دراية بالصحراء الكبرى في العصر الحديث وقد اشتهروا باسم الملثمين نسبة إلى لثام يغطون به وجوههم ، ويلابسهم الزرقاء ، وأصبحوا القوة الإسلامية التى وقفت أمام المد الفرنسي في الصحراء الكبرى حديثاً ، ولم يتمكن الفرنسيون من بسط سيطرتهم عليهم وعجزوا عن دخول واحاتهم وأراضيهم فهادنوهم وسموهم بأسم أمراء الصحراء الزرقُ وإليهم يرجع الفضل في المحافظة على الصحراء أمام بعثات التبشير التي قدمت مع الأوروبيين

أودغست وتمبكتو وولاته ، وتمكنوا من احتلال ولاته سنة ٨٢٧هـ /١٤٣٣م ، ووضعوا أيديهم على مركز تجاري هام مع مملكة مالي ، كما دخلوا مدينة تمبكتو الشهيرة واستباحوها وبذلك سيطروا على منافذ التجارة الصحراوية الشمالية مع مملكة مالي وهددوا استقرارها وزعزعوا اقتصادها . وأصبحت القوافل التجارية غير آمنة في رحلاتها إلى مالى

وحينما ظهرت مملكة صنغى كقوة على أنقاض مملكة مالي ، أصبح الصراع محتدماً بين الطوارق وبين صنغى على عدد من الأقاليم في مالي وأصبحت حركاتهم تشمل معظم الأقاليم الشمالية لمملكة صنغي . وإن كانت مملكة صنغي قد تمكنت من إخراجهم من الإقاليم السابقة وألحقت بهم العديد من الهزائم [١].

(٢) قبائل الموشى Mossi :

وهى القبائل التى تقيم جنوبي منحنى نهر النيجر في منطقة فولتا العليا وهم أهم قبائل تلك المنطقة و تمتد سيادتهم داخل الغابات الإستوائية في الجنوب . ظلت سيادتهم على أقاليم جنوب مالي ومن قبلها غانة منذ القرون الأولى ، حتى ظهرت لهم مملكة كبرى في القرن الرابع عشر الميلادي ، وظلوا في حالة حرب مستمرة مع ملوك مالي ، حيث ظل الموشى على وثنيتهم لمدة طويلة ثم أرسلموا أخيراً . واشتهروا بالغزو والنهب وبالعلاقات العدائية ضد جيرانهم وخاصة مالى . ويلقب ملوك الموش بأسم" موغوناباً [٢]

وقد بدأ الصراع شديداً بين الموشى وملوك مالي بسبب الاختلافات العقائدية بينهم ، حيث ظل الموشى يكنون حقدا ضد المسلمين حتى أسلموا، كما ظل الموشى يطمعون في خيرات مملكة مالي" ويحاولون الإنقضاض على مراكزها الحضارية المزدهرة [٣] . وتمكن ملوك مالي زمن قوتهم من إلحاق الهزائم بالموشى ، لكن الموشى ظلوا يهددون مدن مالي حتى تمكنوا سنة ١٤٠٠م من غزو منطقة بحيرة دبو Debo في النيجر وهى منطقة هامة على طرق التجارة في مالي .

---

(١) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٦٧.

(٢) مازال هناك العديد من أصحاب الثروة والنفوذ في جمهورية بوركينا فاسو ينتمون إلى حكام الموشى القدماء .

(٣) طرخان، المرجع السابق ، ص ١٦٧، ١٩٠ .

(٣) الفـولانيـــون : [١]

تمكنت الجماعات الفولانية من تهديد سلطة ملوك مالي في الشمال وفي الغرب ، وذلك بفضل سيطرتهم على تلك الأنحاء وكثرة قبائلهم ، ومنذ القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادي أنهى الفولانيون نفوذ مالي في أعالى نهر السنغال حينما احتلوا بامبوك [٢] ، وأبادوا أعداداً كبيرة من الماندنجو في حوض نهر فاليم ، أحد روافد نهر السنغال . وكان لتلك الأعمال أثرها في إنهاء سلطة مالى في أقاليم الغرب .

حتى أنه بسبب ضغط الفولانيين المستمر على الماندنجو اضطرت مالى إلى الأستغاثة مرة أخرى بالبرتغاليين سنة ١٥٣٤م [٣]

(٤) قبـــائـــل صنغـــى : [٤]

ظل ملوك مالي حذرين في علاقتهم بقبائل صنغى ، ولذلك استمروا يحتفظون برهائنهم في قصورهم بمالى ، حتى تمكن الأخوان على وسليمان من الفرار من مالى ، واعادة قوة صنغى وحصل أمراء صنغى منذ القرن الرابع عشر على لقب شى أو" أوشن" أى خليفة السلطان فتحرروا من سيطرة مالي وأسقطوا الجزية. [٥]

بدأت سياسة حكام صنغى تتجه صوب التركيز على الهجوم المستمر على مملكة مالي وعلى مدنها المجاورة لهم من الغرب ، وواصلوا أعمالهم حتى دخلوا العاصمة مالي ، وقاموا بأعمال وحشية ضد أقاليم ومدن مالي ، رغم أنهم كانوا على الإسلام أيضا .

ومنذ سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٤م تمكن سن على من تأسيس إمبراطورية صنغى ، حينما

---

(١) شعب من الرعاة موطنهم الأصلى حوض السنغال في الغرب وقد أنتشرت جماعتهم في كافة أرجاء السودان الغربي وبلاد الهوسا وحتى الكاميرون في الجنوب ، دخلوا الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي بفضل المرابطين .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، جـ٦ ، ص ٢٠٢ ومابعدها .

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٤) سيرد تفصيل لأصلها وتطور نفوذها في الصفحات القادمة .

(٥) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

قام باحتلال تنبكتو سنة ٨٧٣هـ /١٤٦٨م ، وهى مدينة لها مركزها التجاري الهام في المنطقة . ثم دخل جنبي سنة ١٤٧٧م ، وأصبحت صنغى سيدة حوض النيجر الأوسط . ثم تمكن من إخضاع مالي . واتفق الطرفان على أن تحتفظ مالي باستقلالها الإسمي وتدفع الجزية لملوك صنغي [١]

وبسبب هذا الضغط المستمر من قوات صنغى اتجه ملوك مالي إلى الاتصال بالقوى الإسلامية الكبرى ، فاتصلوا بالعثمانيين الذين ظهروا كقوة إسلامية كبرى على سواحل بلاد المغرب والبحر المتوسط . وبدأت السفارات البرتغالية تصل إلى بلاط مالي لمساعدتها في كبوتها ولدراسة المنطقة التى طالما حملت بالوصول إليها قوى أوربية منذ القدم . وكانت تلك السفارات البرتغالية تقوم بدراسة الطرق والإمكانيات وظروف مالي .

ورغم تمكن حكام صنغى من دخول مالي عدة مرات إلا أن الباحث يلاحظ ترد اسم مالي وحكامها في ظل اسم امبراطورية صنغى ، وحتى بعد دخول اسكيا الحاج محمد مالى سنة ١٤٩٢م [٢] ، ثم دخولها مرة أخرى سنة ١٥٠١م وتخريبها وفرار ملك مالي إلى مدينة زلن الجنوبية . والسبب في ذلك يرجع إلى أن من عادة ملوك السودان أن يبقوا على الحكام الوطنيين في مناطقهم بشرط الولاء ودفع الجزية . وظل اسم مالي رغم انسلاخ أقاليمها لحساب مملكة صنغى [٣]

(٥) خطر التكرور :

وهم جماعات مختلفة من المهاجرين البربر والزنوج ، في حوض نهر السنغال ، تحالفوا مع الفولانيين [٤] ووجهوا ضربات ضد قبائل الماندنجو سنة ١٥٣٠م . مما أفقد مالي زعامتها في الأقاليم الغربية لدولتهم ، واتجهوا للاستنجاد بالبرتغاليين على أثر عمليات الإبادة ضد جماعات الماندنجو من قبل الفولاني والتكرور .

---

(١) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) زكي ، المرجع السابق، ص ١٢٥/١٢٦.

(٣) اسم عام أطلقه الرب على معظم سكان السودان الغربي . بينما أطلق التكرور على أنفسهم اسم " فوتا نكوبي " أى سكان فوتا .

- ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ١٣٨ .

(٤) يتحدث التكرور اللغة الفولانية .

حاول ملوك مالي تنظيم قواتهم من جديد في منتصف القرن السادس عشر على يد محمد الثاني . لكنه هزم وهرب . وفقدت مالي أراضي جديدة سنة ٩٧٨هـ /سنة ١٥٧٠م وفي سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م وصلت قوات الغزو المراكشي للبلاد من قبل سلطان مراكش الشريف مولار أحمد الذهبي بقيادة جودر باشا . وقضى بذلك على امبراطورية صنغى ، حينما دخلت القوات المراكشية مدن مالي وصنغي . وأصبح لقب سلطان مراكش" سلطان مراكش وجاو وتنبكتو وجني"

كما حاول ملوك مالي التحالف مع الفولانيين سنة ١٠٠٧هـ /١٥٩٨م ، حيث قام حمد آمنة من الفولانيين بدعم من أمراء مالي بمهاجمة جيش المراكشيين في جني ، لكنهم هزموا أمام أسلحة الجيش المراكشي المتطورة الحديثة ، وسارع بعض أمراء مالي المهزومين بالاستقرار في باماكو التى أصبحت عاصمة دولة مالي الحالية .

وفي بداية القرن التاسع عشر أظهرت حركة إسلامية إصلاحية على يد أحد رجال قبيلة الفولاني ويدعي عثمان دون فوديو[1] الذي تمكن من تكوين إمارة إسلامية في جنوب مالى . ثم قام الحاج عمر سنة ١٨٣٨م [2] بمحاولة تكوين دولة إسلامية حديثة لكن الفرنسيين تصدوا لمحاولة إحياء الحركة الإسلامية في المنطقة وقاموا قواته . وبعد وفاته فإنهم استغلوا فترة الانقسامات في المنطقة ومدوا سلطانهم إلى شمال وادى النيجر وبدأوا في إنشاء خطوط جديدة لربط السودان الغربي بخليج غانا نحو الجنوب وتغيرت وجهة البلاد صوب الجنوب بعد أن كانت صلاتها صوب الشمال مع العالم الخارجي .

---

(١) سبق الحديث عن حركته .

(٢) اسمه عمر سيد وتال . ولد ١٧٩٧م ببلدة بودور في إقليم الفوتافور(السنغال) من جماعات التكرور . ونشأ نشأة إسلامية صحيحة ، وقضى حياته في العلم والتعرف على رجال الإصلاح في المنطقة فلقى عثمان دون فوديو وحماد والشيخ . ثم ذهب للحج ، وعاد ليصبح خليفة الطريقة التيجانية في السنغال ، وأشتهر بورعة وتدينه فتجمع الناس حوله ، ووثق صلاته مع علماء المسلمين وزعمائهم في السودان الأوسط الغربي . ولما خاف زعماء البلاد من نفوذه أتجه إلى جبال الفوتاجالون وهناك تجمع حوله الأنصار وتزايدت أعدادهم باستمرار . كون الحاج عمر جيشاًمن التكرور وهاجم الماندنجو (مالي) والبمبارة ، وانتزع منهم بلدة فيورو ، ثم سيطر على حوض السنغال بجيش قوامه ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، لكنه اصطدم بالفرنسيين فتراجع وأتجه شرقاً ليحتل بلدة سيجو ثم تنبكتو ومات سنة ١٨٦٤م.

ظهرت محاولة أخرى في نهاية القرن التاسع عشر لإحياء الوجود الإسلامي بالسودان الغربي وتكوين دولة إسلامية بزعامة ساموري، على انقاض دولتي مالي وصنغى . لكنه نهض في وقت كانت القوات الفرنسية قد رسمت خططها لبسط سلطاتها الكامل على غرب افريقية . ورغم مواجهة ساموري القوية للفرنسيين إلا أن القوات الفرنسية أرغمته على الإنسحاب إلى المرتفعات وإتجه إلى فولتا العليا . ثم أتجه إلى ليبيريا وحيثما أسر نفى إلى الجابون ومات سنة ١٩٠٠م . وبموته أنتهى أمر الدول الإسلامية في غرب افريقية وبسط الاستعمار سلطانه عليها [١] .

ظلت الطرق الصوفية تقوم بدورها بالحفاظ على الهوية الإسلامية في السودان الغربي ضد محاولات التنصير . وكان أهمها طريقتان هما : القادرية [٢] (المريدية) والتيجانية [٣] ، حيث مكنت تلك الطرق المسلمين هناك روحاً جديدة . وظلت تلك الطرق تعمل ضد الوثنية حتى الوقت الحاضر رغم ظروفها الصعبة التى تواجهها منذ سيطرة الاستعمار الفرنسي على مقاليد الأمور في غرب إفريقية . كما تحاول تلك الطرق الحفاظ على جوهر الدين وترسيخ الإسلام بين الأفارقة .

جاءت الطريقة السنوسية [٤] هى الأخرى إلى الساحة الإسلامية في غرب السودان ، وتمكنت منذ بداية القرن العشرين من القيام بمجهودات فائقة في محاربة البدع والرجوع إلى

---

(١) مؤنس الإسلام الفاتح ، ص ١٣٧ .

(٢) تأسست في العراق وانتشرت في شمال إفريقية في القرن الثاني عشر ثم وصلت إلى تنبكتو في القرن الخامس عشر . وانتشرت حتى الآن بين سكان غرب افريقية . وفي مطلع القرن العشرين أصبح الشيخ عبدالله سيديا زعيم القادرية مهادنا للفرنسيين ، الأمر الذى أفقدها شعبيتها واتخذت شكلا جديدا في الطريقة المريدية .

(٣) نشأت في الجزائر على يد أحمد بن محمد التيجاني (١٧٣٧ - ١٨١٥/ ثم انتقلت إلى فاس وعبرت الصحراء إلى غرب السودان وكان لها أسلوبان في العمل : الأول سلمى ، والثاني : بالجهاد لدعم الأفكار وحفظ الدين . وهى من أكثر الفرق الصوفية تأثيراً في غرب افريقية في العصور الحديثة . وكان آخر دعاتها ساموري نوري في أعالى النيجر . وكان هدفه القضاء على الوثنية ومقاومة الإستعمار الفرنسي . وإن كانت الفرقة قد انقسمت إلى فرق عديدة .
قداح ، المرجع السابق ، ص ٨٩- ٩١.

(٤) تنسب إلى محمد بن على السنوسي ، وهو فقيه جزائرى من مستغانم ولد سنة ١٧٨٧م =

فكر الإسلام الصحيح . وكانت فرنسا أسبق الدول الأوروبية إدراكاً لخطورة تلك الفرقة على نفوذها في الجزائر فاضطر زعيمها محمد بن على إلى أن يستقر في واحة جغبوب .

وحينما مات المؤسس كانت الطريقة قد انتشرت في الصحراء الكبرى . ومنها إلى بلاد السودان الغربي والأوسط . وكانت الحركة السنوسية قد دعمت الطوارق في شمال النيجر . فوصلت دعوتهم إلى مالي وحوض النيجر وبقية مناطق غرب إفريقية [١] وكان لهم الفضل مع الفرق الأخرى في عمليات نشر الإسلام في إفريقية الإستوائية ، حيث الغابات الكثيفة التى وقفت حائلاً منذ البداية أمام المد الإسلامي . فقد جاء الدعاة إلى تلك المناطق لنشر الإسلام واللغم العربية في القرن العشرين، وأسسوا مدارس لهذا الغرض ، فترسخ الإسلام بفضلهم في السيراليون وداهومي وفي توجو ولبيبريا . كما تمكنوا من نشر الإسلام بين الزنوج العائدين من أمريكا ، وتحولت قبائل الأشانتي إلى الإسلام .

وكان للسنوسية الفضل في مقاومة تجارة الرقيق وتحويلها إلى وجه إيجابي . ذلك أن الجماعة كانت تشترى الرقيق ويعلمونهم في الزوايا القرآن الكريم وأصول الدين الإسلامي والفقه مع منهجية الدعوة الإسلامية ، ثم يحررونهم ليصبحوا دعاة متحمسين للإسلام . ولم تتمكن فرنسا بقواتها من مواجهتهم أو ملاحقتهم . وشكلوا أهم دعاة للإسلام في مواطنهم في دول افريقية الاستوائية .[٢]

ورغم جهود الفرنسيين وبعثاتهم التبشرية في غرب افريقية فإن نسبة المسيحيين التى ولدت بين الجماعات الوثنية لم تزد عن ٢٠٪ من السكان في مالى [٣]. بينما مازالت الوثنية تضم ٥٪ من السكان [٤] .ومازالت جماعات الماندنجو تمثل ٥٠٪ من السكان في مالي حاليا، بينما الصنغى حوالى٧٪ ،والفولاني ١٧٪[٥] من السكان ، أما الطوارق فيمثلون ٦٪، والبربر ٦٪أيضا. بالإضافة إلى عرقيات أخري من الديولا والمور.

= وتوفي سنة ١٨٧٩م . درس في جامعة القرويين وفي الأزهر . تأثر بفكر القادرية والوهابية وبدأ بنشر مذهبه بالجزائر سنة ١٨٣٧م ، ويقوم على أساس إصلاح أحوال المسلمين والرجوع بهم إلى الإسلام الحقيقي .

(١) قداح ، المرجع السابق ، ص ٩٢ . (٢) قداح ، المرجع نفسه ، ص ٩٣ .

(٣) عادل يونس ، العالم الإسلامي المعاصر ، ص ٤٨. (٤) عادل يونس ، المرجع نفسه ، ص ٤٨.

(٥) يبلغ عدد الشعب الفولاني في كل دول غرب إفريقية حوالي خمسين مليون نسمة .

ثالثا: مملكـــة صنغـــي :

كانت قبائل الصنغى تعيش على امتداد وادى نهر النيجر الأوسط . ثم اضطرت في القرن الرابع الهجري /التاسع الميلادي إلى التمركز حول منطقة جاو [١] . وبسبب أهمية موقع جاو على طرق قوافل التجارة ، فقد أصبحت مركزاً من مراكز استقرار التجار المسلمين والدعاة ، مما أدى إلى تحول العديد من قبائل صنغى إلى الإسلام ، حتى أصبح حكامها من المسلمين منذ القرن الخامس الهجرى /الحادي عشر الميلادي . وأول من أسلم من حكامها "مسلم دام" [٢]

ظلت صنغى تابعة لمملكة غانة اسمياً حتى القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي. ثم خضعت لملوك مالي حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، من خلال دفع الجزية . وبعد ذلك بدأت صنغى في إعلان استقلالها وسيادتها وأصبحت إمبراطورية كبرى في السودان الغربي وقد تحولت شعوب صنغى إلي الإسلام قبل تكوين دولتهم المستقلة وذلك بسبب موقع مدنهم في وسط بلاد السودان الغربي والتى أصبحت معبراً للتجار المسلمين ، كما أسلم الكثير من الصنغى وأصبحوا دعاة للإسلام في مواطنهم . وأصبحت مدينتهم جنى أهم مراكز لانتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي منذ القرن السادس الهجري ، بحيث كان بها في هذا القرن ما يقرب من ٤٢٠٠ عالم من علماء المسلمين. وقد نذز ملكها [٣] وعلمائها حياتهم في خدمة الإسلام بالمنطقة ، وقاموا بجهود كبيرة ضد القبائل الوثنية المجاورة وأصبحت المدينة في حالة جها ومستمر ضد الأعداء . وأصبحت مراكز قبائل الصنغي الأخرى أهم مراكز نشر الدعوة الإسلامي في السودان الغربي مثل مدينة ولاتة [٤] تنبكتو [٥] التى هاجر إليها العديد من علماء المسلمين ودعاتهم، حتى أصبحت

---

(١) جاو : من المراكز التجارية على نهر النيجر ، أصبحت مركزا لتجارة الذهب والرقيق - انظر الزياتى ، وصف افريقيا ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

(٢) السعدي ، المصدر السابق ، ص ٤ .

(٣) كان ملكها يسمي كنبرو .

- انظر السعدى ، المصدر نفسه ، ص ٢ .

(٤) زادت أهميتها بعد اضطراب الأحوال في مدينة أودغست التجارية الشهيرة

(٥) تأسست سنة ٦٠٠، وأصبحت أعظم مدن مالى وصنغى .

- الزياتي : وصف افريقيا ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

تنبكتو المدينة الأم لنشر الدعوة الإسلامية في ظل أعداد المسلمين بها وأعداد علمائهم وفقهائهم . الأمر الذي جعل الصنغي حماة للإسلام وتعاليمه منذ بداية دولتهم .

ويبدو أن زعامة الصنغي في البداية ترجع إلى أصول بربرية [1] قدمت من طرابلس عبر واحات الصحراء ، ثم انتقل الحكم الى عائلة "سن" في القرن الرابع عشر الميلادي . وهي أيضا فرع من العائلة الأمازيغية السابقة التى قدمت من طرابلس . وقد حكم من تلك الأسرة ثمانية عشر حاكماً كان آخرهم الملك على بير (١٤٦٥ - ١٤٩٢م) حتى جاء الأسكيا محمد الكبير ليقود ثورة ضد عائلة "سن" وأقام عائلة حاكمة جديدة هى حكومة الأسكيين السوننكية .

كان ظهور دولة صنغي في وقت تعج فيه بلاد السودان الغربي بالقوى من كل جانب فمن الشرق ظهرت جماعات الطوارق القوية التى تلوذ بالصحراء ومن الصعب ملاحقتها في صحرائها الواسعة . ومن الغرب توجد جماعات الماندنجو القوية عماد امبراطورية مالي القوية والتى تسيطر على معظم أقاليم السودان الغربي ، ومن الشرق تتصل حدودهم مع إمارات الهوسا ومملكة البرنو .

وبسبب ما تميز به الصنغى من التماسك والتنظيم الداخلي لقبائلهم، منذ القرن، السابع أصبح الصنغى أهم القوى المؤثرة في أمن واستقرار حوض النيجر ، بحيث تمتعوا بالاستقلال الإسمي زمن مملكة غانة ثم زمن مملكة مالي . وبدأ الصنغى في توسيع حدودهم صوب الجنوب في نطاق الغابات وفي الشرق في نطاق السافانا في أقاليم الهوسا . ونظراً لأهمية أقاليم في حركة التجارة في المنطقة فقد اختلطوا بالعرب والبربر منذ البداية ، كما استقرت في مدنهم جاليات عديدة من المسلمين من التجار والدعاة والعلماء ، الأمر الذي أعطى للصنغى أهمية في نشر الإسلام قبل إعلان دولتهم . [2]

---

(١) مازالت الدراسات قلقة حول تحديد أصول الصنغي . فهناك رأي يزعم بأنهم هجرة من جنوب مصر اتجهت إلى النيجر بدليل أنهم جلبوا معهم فنون معمارية مصرية إلى وطنهم الأخير بالنيجر ورأى آخر يرى بأنهم هجرات عربية قدمت إلى السودان الغربي .

وإن كنا نرى أنهم خليط من أصول بربرية وعربية مع زنجية ظهرت في السودان الغربي .

- طرخان ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ . مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٠٩.

(٢) خاصة جاو (كوكو) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٥٠٢ .

تزامت ظهور قوة الصنغى مع قوة مملكة مالي ولذلك ظلت العلاقات بين الطرفين في حالة مد وجزر مستمرين فقد قام ملوك مالي بغزو مدن الصنغي ، وحرصوا على إخضاع حكامهم وأخذ رهائن من أمرائهم . فيما أخذ الصنغى يترقبون عوامل الضعف والتفكك التى تعترى مملكة مالي ليحاولوا الإفلات من سيطرتها . ففي ٧٥٦هـ /١٣٣٥م تمكن على كلن من الهروب من بلاط مالى وقام بإعادة تجميع شعبه من جديد وتوحيد مناطق الصنغى ، وطرد الحاميات العسكرية لمالي المرابطة منها خاصة جاو[١] كما انتهزت صنغى فترة تعرض مالي لأخطار خارجية من الطوارق والفولاني والتكرور والموشى ، لتحول نفسها إلى إمبراطورية إسلامية في السودان الغربي .

بدأت فترة التوسع والفتوحات الصنغية زمن الإسكيا محمد الكبير [٢] لتشمل كل وادي النيجر والمناطق الساحلية واتجهت قواته إلى الشرق لتضم عدد من مدن بلاد الهوسا سنة ١٥١٧م . وتوغلت قواته صوب الشمال لتتعقب جماعات الطوارق وتفرض عليها جزية سنوية تؤديها لصنغي واتجه الإسكيا محمد بقواته صوب الجنوب حيث قبائل الموشى الوثنية ، التى تقطن مناطق يصعب على الجيش الصنغى اجتيازها بسهولة فأعلن ملك الصنغي الإسكيا [٣] محمد الجهاد الإسلامي ضد تلك القبائل وتمكن من تحقيق انتصارات عليها ، فاتسعت رقعة الامبراطورية نحو الجنوب ، كما ضمت أملاك دولة مالي إلى مملكة الصنغي .

توفي الإسكيا محمد سنة ٩٤٩هـ /١٥٥٢م ، وتولى ابنه موسى محله قبل وفاة الإسكيا محمد فحكم موسى (٩٣٥هـ /١٥٢٨م - ٩٣٨هـ /١٥٣١م) ثم أعقبه سبعة

---

(١) نوري . المرجع السابق ، ص ١٥٥.

(٢) كان إسكيا محمد الكبير ضابطاً في الجيش الصنغى قبل أن يتولى الحكم ، ولذلك فقد تمكن من اصلاح الخلل الذي كان يقري الجيش فألغي النظام القبلي في الجيش وجعله جيشاً نظامياً يقوم به أفراد تحت الخدمة باستمرار وجعل الانضمام إليه ممكنا من كل أهل صنغى . وأصبحت قوات صنغي زمنه أفضل قوات نظامية في بلاد السودان .
- السعدي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٣) لقد تلقب به حكام الأسرة الثانية من حكام صنغي وأدلهم محمد أبوبكر الطوري وزير سن على ومعنى اسكيا في لغتهم أى المغتصب ، حيث أطلق عليهم من بنات سن على .
طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

ملوك تسموا جميعا بالإسكيا كان آخرهم الإسكيا اسحق الثاني ٩٩٧ هـ - ١٥٨٨م - ١٠٠٠هـ ١٥٩١٠م) . حيث بدأت إمبراطورية صنغي في التدهور والانحلال .

والواقع أن هناك عوامل عجلت بزوال مملكة صنغي سريعاً منها مايلي :

(١) الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة :

خاصة بعد وفاة الإسكيا محمد ، فقد عزله أبناءه ونصبوا محله إبنه الكبير موسى . وظهرت صور عديدة للصراع على كرسي الحكم حيث كان الأخ يقتل أخاه ، كما ظهرت ثورات متعددة في البلاط . وأصبح الأساكي في حالة شك مستمرة ممن حولهم منأمرائهم.

(٢) الحروب المستمرة :

ضد القبائل الوثنية المجاورة والدول المجاورة لها مما أنهك قواها العسكرية وشتت برامجها في الأزدهار . وشغلب حكامها عن الإصلاحات الداخلية[١]

(٣) الأطماع في ثروات مملكة صنغى الهامة من الذهب :

فقد تمكن الصنغي من احتلال مراكز انتاج الذهب التى كانت من قبل خاضعة لمالي ، وأصبحت صنغي بذلك هدفاً لقوى بلاد السودان وقرى أوروبا الناشئة ، وبدأت تلك القوى تتحين الفرص للأنقضاض على صنغي[٢]

(٤) الثورات الداخلية في الأقاليم :

فقد ثارت مدن ، صنغي ، خاصة الواقعة في أطراف الدولة من أجل الاستقلال . ففى تنبكتو ثار ثائر من عائلة الأساكي ضد الأسكيا أسحق الثاني . وقد كلف تمرد تنبكتو الإسكيا اسحق الكثير من المال والرجال مما أدى إلى تدهور أوضاع البلاد وانتشار الفوضى في كثير من الأقاليم .

---

(١) نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء ، ص ١٥٧.

(٢) زكي ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٥) الغزو السعدي من المغرب .

بدأ المنصور الذهبي[١] بمالديه من قوات حديثة التدريب والتسليح في الزحف نحو الجنوب بعد أن أمن نفسه مع القوى المحيطة به في الشمال الافريقي وأوروبا بعد شهرته إثر انتصاراته في معركة وادي المخازن على البرتغاليين ، فأرسل جيشه لاحتلال تغازي وفرضت قواته مثقال من الذهب على كل حمل يخرج منها إلى السودان [٢] ، فتوثرت علاقاته مع حاكم صنغي الذي كان يعتمد على داردات الملح من تغازي . وقد ساعد المنصور في هذا الأمر بعض المنشقين على اسكيا اسحق [٣] الذين قدموا خدمات للجيش المغربي أثناء توجهه نحو الجنوب . وأحوال صنغي وما كانت عليه من الإنقسام والتدهور . وتطور الأمر إلى تدهور العلاقات بين المنصور الذهبى واسكيا اسحق الذي رفض إعلان التبعية له ، مما دفع المنصور إلى إعلان الحرب ، وأعد لذلك جيشاً كبيراً تحرك سنة ٦٩٩هـ وقد فوض المنصور جودر باشا قائداً عليها ، واجتازت الصحراء ووصلت إلى نهر النيجر بعد أن قطعت مسافة تقدر بحوالى ألفى كيلو متر قطعتها في أربعة أشهر .

وقعت مواجهة شديدة بين القوات المغربية وقوات صنغي بالقرب من جاو انتصرت فيها القوات المغربية المسلحة بالأسلحة النارية الحديثة [٤] ، بينما كانت قوات صنغي تعتمد على السيوف والرماح والقسي ، ودخلت القوات المغربية العاصمة جاو بعد أن فر سكانها إلى المدن المجاورة .

وكانت تلك الحملة المغربية لها آثارها السلبية على أوضاع المسلمين في السودان الغربي،فقد انشغل قوات المغاربة بجمع كميات الذهب والعاج التى سترسل إلى مراكش[٥]

---

(١) هو السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله بن أبي عبدالله ، ولد في فاس سنة ٩٥٦هـ /١٥٤٨م وبويع بالإمامة سنة ٩٨٦هـ /١٥٧٨م بعد انتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م وتمكن من تدمير معظم قواتهم . وقد عاصر السلطان العثماني مراد بن سليم . وعاهد ملك أسبانيا الملك فيليب الثاني . وقد توفى سنة ١٠١٢هـ .

(٢) نوري ، المرجع السابق ، ص ١٥٩.

(٣) طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٤٠. مؤنس، الإسلام الفاتح . ص ١١٦ ومابعدها .

(٤) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١١٧.

(٥) نوري ، المرجع السابق . ص ١٥٩.

وتدهورت أوضاع الأمن في صنغى والسودان الغربي ، مما شجع القبائل الوثنية على العودة إلى السلب والنهب والتعرض للمسلمين ، وأصبحت قوافل التجارة نادرة،خوفاً من الاضطراب الذي عم البلاد ، وتدهورت الأوضاع الثقافية والمسيرة الفكرية في البلاد ، ودفع بآلاف من سكان البلاد نحو الشمال كعبيد .

ومهما يكن من أمر ، فإن عهد ملوك صنغي كان يمثل مداً للإسلام ونفوذه في بلاد السودان الغربي. لقد كانت صنغى أول دولة إسلامية في غرب السودان تمد نفوذها بصورة رسمية نحو الجنوب داخل نطاق الغابات التى تقطنها جماعات وثنية بدائية ، وقد عجز عن تحقيق هذا الأمر ملوك غانة ومالي من قبل ، حيث الأمطار الكثيفة والرطوبة العالية والحرارة المرتفعة والأشجار والأدغال المتشابكة . كما مد صنغي نفوذهم داخل الصحراء وواحاتها شمالاً ، وفرضت الأتاوات على قبائل الطوارق هناك [1]

لقد أصبحت مدن جاو وتنبكتو وغيرها منارات للإسلام بفضل دعم وتشجيع حكام صنغي ، فقدم إلى مدنهم العديد من علماء بلاد المغرب وشمال إفريقية ومصر ، ونهض حكام صنغي بتقديم الرعاية للعلم والعلماء والطلاب ، فبنوا المساجد وأرسلوا البعثات[2]إلى جامعة فاس والقرويين والزيتونة والأزهر للوقوف على آخر الإنتاج العلمي والفكرى في تلك الجامعات .

كما حرص حكام صنغي على الإستفادة من خبرات الدول الإسلامية المجاورة في المجالات التنظيمية والإدارية ، وأطلعوا على نظم الإدارة والحكم في المغرب الأقصى وفي مصر أثناء عصر المماليك . وكانت رحلة الحج التى قام بها ُ إسكي محمدٌ (١٤٩٣ - ١٥٢٨م) فرصة هامة ليستفيد من الخبرات والنظم التى وصلت إليها الشعوب الإسلامية التى مر بها أثناء رحلته ، كما اصطحب معه العديد من العلماء ورجال الدول لهذا الغرض [3].

ويبدو أن ملوك صنغي كانوا يدركون الخطر المحدق بالمسلمين في السودان الغربي ،

---

(١) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١١٢ .

(٢) ناصر ، المرجع السابق ، ص ١٥.

(٣) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

حينما أحسوا بالتحركات الأوروبية نحو بلادهم ، ولذلك فقد عملوا على تشكيل جبهة إسلامية ضد تلك الأخطار ، نلاحظ ذلك من خلال حرص اسكى محمد على لقاء الخليفة العباسي بالقاهرة حيث خلع عليه الخليفة لقب الخليفة الأول في السودان الغربي كما وثق علاقاته مع أمراء الحجاز بما لهم من مكانة في نفوس المسلمين . فاشترى أرضا ومباني في مكة المكرمة والمدينة المنورة ليجعل منها مقراً لبعثات الحج التى سترسل من بلاده في المستقبل ووفر بها سبل الراحة للحجاج .

استحدث حكام صنغي تطوراً علمياً وفكرياً جديداً في بلادهم حينما أنشاوا جامعة "سنكري" في مدينة تنبكتو . وهى بذلك أول جامعة إسلامية في غرب إفريقية ، بل أنها سبقت معظم جامعات أوروبا الشهيرة . وكان إنشاء تلك الجامعة الإسلامية متمشياً مع الحركة العلمية النشطة في بلاده وزيادة عدد المتعلمين والطلاب المتخرجين من مساجد المدن الكبرى ، ووجود أعداد كبيرة من مشاهير العلماء والفقهاء في دولة [1] وقد أنفق إسكى محمد على تلك الجامعة أموالاً طائلة ، واعتنى بعلمائها وأوقف الرواتب والأعطيات لهم . وأصبحت تلك الجامعة قبلة العلم والطلاب في السودان الغربي . وساعدت تلك الجامعة على ترسيخ الإسلام ومبادئه بين شعوب السودان وصبغ المنطقة بالصبغة الإسلامية ودمجت الجميع تحت مظلة الإسلام بعيداً عن العصبيات القبلية .

وكانت تلك خطوة هامة نحو عمليات التعريب التى تواصل على تأديتها العلماء والدعاة والتجار منذ البداية ، فبدأت المناهج تدرس باللغة العربية في كل المعارف والعلوم[2] وصارت العربية هى الكتابة والتدوين والتفاهم . حتى أصبحت تجارة الكتب من حيث البيع والنسخ تفوق مرابح تجارة الذهب ، وأصبحت المصاحف والكتب الدينية العربية موضع فخر بين الناس . وكانت ثروة الرجل تقدر بعد مالديه من الكتب العربية بخزائنه وعدد الخيل في مرابطه .

وأفاض حكام صنغي بأموالهم على العلماء والفقهاء ، رغم مشاكلهم الداخلية والخارجية ، وكان العلماء في أروقة المساجد والمعلمون في قاعات الدروس وتحت الشجر[3] بينما كان الملوك والأمراء يتحاربون . وكان ملوك صنغي قد حاولوا عزل العلماء

---

(١) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ١٢٢.

(٢) قداح ، المرجع السابق . ص ٩٢. (٣) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

والحياة الفكرية عن مشاكلهم وحروبهم فهاجر إلى مدن صنغي العلماء حاملين معهم مؤلفاتهم وفنونهم وعلومهم ، حتى في الطب والصيدلة وقد تخرج على أيدى هؤلاء العديد من العلماء من أهل صنغي [١].

وقد ذكر أحمد بابا التنبكتى في كتابه "نيل الابتهاج بتطرير الديباج" [٢] عدداً كبيراً من أبناء صنغي الذين وصلوا إلى درجات علمية راقية وكانت لهم مهارة في عمليات الجراحة فقد كان أطباء صنغي يجرون عمليات استخراج حصى المثانة،وماء العين . كما ظهر منهم مهندسون بارعون في مجال العمارة خاصة عمارة المساجد[٣]. ومازالت آثار تلك المساجد في مدن بلاد غرب إفريقية تشهد بذلك .

ومثلت مساجد صنغى الكبري وجامعة سنكري قمة الهرم التعليمي بالبلاد ، فقد كان على طلاب العلم القادمين من المناطق البعيدة والذين تلقوا مبادىء العلم بلهجات مناطقهم ، عليهم أن يجيدوا اللغة العربية إذا أرادوا استئناف دراساتهم في المراحل العليا في جامعة سنكرى . الأمر الذي جعل بلاد السودان الغربي تصل إلى أعلى مستويات التعريب على يد حكام صنغي ، ولم تصل إلى تلك المرحلة من قبل أو من بعد . حيث بدأت المناهج تختلف في العصر الاستعماري فانحصرت العربية من جديد . وصلت الفرنسية عى لغة الإدارة والحكومة محل العربية .

وكان لتلك النهضة الفكرية آثارها في المجالات السياسية الاقتصادية والاجتماعية. ففي المجال السياسي ظهرت دولة صنغي بمظهر إسلامي قوى بين قوى العالم الإسلامي المعاصرة لها وأقاموا علاقات قوية مع الدول الإسلامية في بلاد المغرب ومصر والعراق والحجاز ونشطت البعثات والوفود بين صنغي ودول العالم الإسلامي الأخرى . وأصبحت غرب السودان تحس لأول مرة ينبض الحياة السياسية في العالم الإسلامي الواسع الأرجاء[٤]

وفي المجال الثقافي والفكري نشطت بعثات الطلاب ، من أقاليم صنغي ، في

---

(١) نوري ، تاريخ الإسلام ، ص ١٥٨.

(٢) قام بتحقيقه ناطق صالح مطلوب ، للحصول على درجة الماجستير من كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٢ . (٣) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٤) مقلد ، المر الإسلامي ، ص ١٢٠ .

الالتحاق بالجامعات الإسلامية في مصر والمغرب وتونس والعراق ، ووفدت أعداد كبيرة من العلماء من مصر وبلاد المغرب، وأصبحت مدن صنغي تضم جاليات كبيرة من علماء وفقهاء الدول الإسلامية . وضم رواق التكرور في الجامع الأزهر أعداداً كبيرة من طلاب السودان الغربي زمن صنغي ، وتمكن طلابها من الوصول إلى درجات متقدمة من التحصيل العلمي بالأزهر ، حتى وصل أحد طلابها إلى درجة التدريس في الجامع الأزهر وهو الفقيه المعتز عبدالرحيم وحرص أهل صنغي على اقتناء آخر مؤلفات العقلية الإسلامية في بلاد المشرق ومصر وبلاد المغرب . وأصبحت غرب إفريقية جزء من الحركة العلمية في العالم الإسلامي [١].

وأصبحت الحركة العلمية في بلاد صنغي ترتوى بأضواء منارات العلم الإسلامية في بقية مراكز العالم الإسلامي ، حتى أصبح من الصعب على الباحث في تلك الفترة أن يميز بين مستويات الفكر الإسلامي في تلك الأنحاء وغيره من مناطق العالم الإسلامي الأخرى في كافة مجالات العلوم والفنون الإسلامية [٢].

وفي المجال الإجتماعي ، تمكن الإسلام من إحداث صحوة جذرية بين شعوب وقبائل السودان الغربي ، وفجر طاقات شعوبها من أجل بناء بلادهم على نظم جديدة مستندة إلى رسالة سماوية ، وعمل الإسلام منذ البداية على إلغاء العصبيات والفوارق الإجتماعية التى ترتبط بالفكر الوثنى البدائي السابق . وأعاد الإسلام للمرأة في المجتمع السوداني قيمتها وكيانها وأصلح من شأنها . كما بدأ الإسلام يحدد مكانة وحقوق الرقيق في المجتمع الصنغي على أساس عادل . وبذلك انهارت كل أركان الوثنية أمام التفوق الإسلامي وأمام سمو فكر عقيدة الإسلام وشريعة . ففي الإسلام تأخذ الحقائق شكلاً حقيقياً ملموساً بعيداً عن الغيبية التى تميز القصائد الوثنية . وبالتالى اخترق الإسلام الأذهان الإفريقية على كل المستويات الإجتماعية بسهولة مما حمل الإفريقيين على الإقبال عليه ، وفسر له الكون تفسيراً بسيطاً فطرياً وأعطى لكل إنسان أهمية في تعمير هذا الكون حسب الدور المكلف به [٣] وبذلك ائتلف الإسلام مع الفطرة السودانية ودافع عن محرماته مثل تحريم الخمر دفاعاً مقنعاً ، وأبقى تعدد الزوجات الذي كان يسود الحياة

---

(١) حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ص ٢٥ ومابعدها .

(٢) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٣) قداح ، حضارة الإسلام ، ص ١٠٢ ومابعدها .

الإفريقية سابقاً ، حسب حدود معينة ، وضيق الإسلام على المشتغلين بتجارة الرق ، حينما أعطى للعبد حقوقاً ، وفتح أبواب عديدة لتحريره [١] وكانت تجربة الدعوة السنوسية إحدى التجارب الإسلامية لذلك [٢]

وكانت دعوة الإسلام للمساواة ومحاربته التمييز العرقي والعنصري ومساواته في جوانب الحياة والعدالة والحكم عاملا هاماً على تحمس الأفارقة له . بل أنهم أصبحوا دعاته وحماته من أجل الحفاظ عليه والدفاع عنه . ولا يزال الأفارقة المسلمون يعتبرون الإسلام هو كيانهم وذاتهم رغم جعلهم بكثير من شرائعه ومبادئه وظل الإسلام يكتسب نظراً تلو الآخر في إفريقية حتى العصور الحديثة بعد دخول الاستعمار . حيث اتضح رسوخ الإسلام بين أهالى السودان الغربي رغم السياسة الثقافية القاسية التى انتهجتها السلطات الفرنسية ضد المسلمين [٣] بل تطور الأمر إلى اعتقاد الزنجي أن الإسلام دين السود حيث وجد فيه الخلاص والأمل في الدنيا والأخرة ورغم ما في هذا الاعتقاد من مغالطة ، على أساس أن الإسلام دين الإنسانية جمعاء لكن الإفريقي وجد في الإسلام فخراً بذاته وبأسرته وبمجتمعه .

وكان تبني حكام صنغي فكرة إعلان الجهاد الإسلامي ثمرة من ثمرات صهر المجتمع الإفريقي تحت راية الإسلام للحفاظ على مكتسباته والدفاع عنه ضد أخطار القبائل الوثنية وكانت تلك الدعوة بمثابة رباط اجتماعي [٤] صهر جميع طبقات المجتمع السوداني في بوتقه الإسلام . إلا أن قدوم الإستعمار أخيراً حاول اشعال نار العصبية من جديد من أجل القضاء على فكرة الجهاد الإسلامي.

لقد كان للإسلام الفضل الأول والأخير في بناء حضارة إنسانية على أرض السافانا الإفريقية ، وتدوين أخبارها بصورتها المحلية الواقعية ، وأبعد عنها أشباح الأساطير والخرافات ، فلم تعرف غرب افريقية أدب مكتوب قبل عهد صنغي [٥] ، ومازالت أجزاء

---

(١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) قداح ، المرجع نفسه ، ص ٩٥ .

(٣) طعيمة ، صابر، محنة الأقليات الإسلامية، ص ٤٦ ، ٤٧.

(٤) نوري ، تاريخ الإسلام في افريقية جنوب الصحراء ، ص (١٦).

(٥) قداح. المرجع السابق ، ص ١١٢.

من مملكة صنغي السابقة تحرص على مكتسباتها السابقة في الأدب والشعر ، ويكفي ما وصل إليه أدباء موريتانيا والسنغال ومالي . حاليا، من درجة كبيرة في النبوغ في العلوم والدراسات الإنسانية بفضل مكتسباتهم السابقة عن الإسلام .

* * *

ومع نهاية القرن العاشر الهجري/ نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، تعرضت غرب إفريقية ومملكة صنغي لأخطار خارجية أودت بها وبكافة الكيانات السياسية المجاورة لها في المنطقة أمام الأجتياح المراكشي لبلادهم . فأختفى الأمن والأستقرار وعادت بلاد السودان الغربي إلى التمزق من جديد وتعرضت أقاليمها إلى انتكاسات اقتصادية وسياسية وإجتماعية وثقافية .

ويحدد أستاذنا الدكتور /حسين مؤنس أن هذه الفترة التى بدأت بالقرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، وكانت نهاية للدول الإسلامية الكبرى في المشرق الإسلامي وفى الغرب [1] ففي الشرق استغل نادر شاه قواته الكبيرة العدد والجيدة في التسليح لتجتاح مدن الهند الإسلامية وتخريب دلهي ، لينتهى بذلك مجد الإسلام في الهند [2] وتبدأ الهند مرحلة جديدة مع الإستعمار البريطاني [3] كما التفت نادر شاه غرباً إلى العراق ، ودخل في صراع مرير مع العثمانيين، انتهى هذا الصراع باختفاء قوة المماليك بعد أن قدمت خدمات مجيدة للإسلام أمام المغول والصليبيين . وأخيرا في الغرب صوب السعديون فوهات بنادقهم الحديثة في صدور مسلمي غرب السودان وتحملت جيوشهم قساوة الصحراء من أجل أحمال الذهب والعاج [4]، واختفى أمامهم مجد الإسلام في غرب السودان . وهكذا أصبح المسلمون بأسهم بينهم شديد .

---

(١) الإسلام الفاتح . ص ١١٦.

(٢) النمر ، عبدالمنعم، تاريخ الإسلام في الهند ، ص ٣٩٢ ومابعدها ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١.

(٣) الساداتي ، أحمد محمود ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، ص ٤٣٩ ومابعدها ، جامعة القاهرة ، الطبعة الثالثة .

(٤) لقب السلطان أحمد المنصور السعدي بالذهبي لوفرة كميات الذهب التى حملت إليه من صنغي .

لقد كانت للحملة المغربية آثارها السلبية على مملكة صنغي وأوضاع المسلمين بها من النواحي التالية :

(١) أنها شغلت حكام صنغي والمسلمين هناك عن حالة الجهاد الإسلامي ضد الجماعات الوثنية وأعداء الإسلام بالمنطقة حيث أصبحت عملية المواجهة مع الجيش المراكشي هي شغل صنغي الشاغل .

(٢) عادات الفوضى السياسية تدب في أنحاء غرب إفريقية بين شعوب المنطقة التي بدأت تتألف حول الإسلام ، فعادات إلى التمزق من جديد ، وخاصة أن معظمها كان حديث العهد بالإسلام . وضاعت جهود حكام صنغي في توحيد تلك المناطق والقبائل .

(٣) أصبحت مناطق الواحات الشمالية ومراكز التجارية تحت رحمة جماعات الطوارق ، وأصبحت تلك المنطقة منفصلة عن جسم مملكة صنغي . فانقطعت قوافل التجارة وتدهورت أحوال البلاد الإقتصادية .

وبالرغم من نجاح حملة السعديين عسكرياً على صنغى سنة ١٥٩١م ، إلا أن السعديين أدركوا صعوبة سيطرتهم على مناجم ذهب السودان التى تقع في الجنوب ، وكانت عملية السيطرة عليها تحتاج إلى جهود كبيرة . فتدهورت العلاقة بين سلطان مراكش وقوائده جودر باشا فعين محله محمود زرجون . ثم عزل القائد الجديد [١] وسادت حالة من عدم الإنضباط بين جند المراكشيين حتى أن الجند نزلوا إلى المدن والقري واندمجوا مع سكان صنغي وأتجهوا للعمل في مجالات أخرى ، وتطور الأمر إلى استغلال ولاة غرب السودان عن حكومة السعديين سنة ١٦٢٠. وأصبح هؤلاء الولاة لعبة في أيدى الجند . وأصبح هؤلاء جميعاً شغلهم الأول والأخير الذهب والمال فعاثوا في أقاليم صنغي فساداً ونهبوا البلاد والتجارات وسادت حالة من الفوضى في غرب السودان بحيث تولى ١٤٩ والياً في الفترة من سنة ١٦٢٠م حتى سنة ١٧٥٠م حتى اقتصرت ولاية بعضهم على بضع ساعات واضطربت أحوال البلاد [٢].

(١) ولى مكانه قائد يسمى منصور . وأمر السلطان القائد الجديد بالقبض على زرجون وقتله أو أرساله قليلاً بالحديد مع نفر كبير من فقهاء تنبكتو لأنه اتهم بخيانته .

(٢) نوري ، المرجع السابق . ص (١٦٠).

وظهرت طبقة اجتماعية جديدة وليدة عن هذا الغزو وهى طبقة أرماى أو الأرما فتجهت عن اختلاط جند الحملة المراكشية مع أهالى السودان . وهى تحريف لكلمة الرماة لأن جند الحملة كانوا يجيدون الرمى بالسهام والبنادق . وقد أصبحت تلك الطبقة ارستقراطية جديدة في غرب السودان ، وتدنت طبقات الماندنجو والصنغي ،في بلادهم ، بعد مشوار طويل مع الكفاح الإسلامي . وهيأت تلك الوضاع الظروف المناسبة للمد الأوروبي في المنطقة بخطى ثابتة وقوية في ظل غياب النظام والأمن .

* * *

تشغل دولة النيجر [1] حاليا معظم أقاليم صنغي . وتعرضت للغزو منذ القرن التاسع عشر . وفى سنة ١٨٩٠م ثم عقد اتفاقية بين بريطانيا وفرنسا بشأن تحديد الحدود بين النيجر ونيجريا. وبعد ذلك أصبحت المنطقة خاضعة لفرنسا بصورة عامة حتى سنة ١٩٢٢. وبدأ الفرنسيون يوجهون جهودهم منذ البداية لمقاومة الروح الإسلامية في المنطقة واستقدمت العديد من بعثات التنصير إلى البلاد لمساندة جهودهم العسكرية والسياسية . ورغم ذلك فلم تتعدى نسبة المسيحية بين جماعات النيجر عن ١٪ فقط من الجماعات الوثنية أصلاً .

استقلت النيجر عن فرنسا سن ١٩٦٠م . ويشكل المسلمون أكثر من ٩١٪ من السكان ومازالت الوثنية منتشرة بين ٨٪ من السكان [2]. وتحاول الدولة بعث الحياة الإسلامية من جديد بعد سنوات الطمث السابقة . ومن مظاهر ذلك الاتصال بالمراكز والهيئات والمنظمات الإسلامية.

---

(١) دولة داخلية في غرب افريقية تطل على بحيرة تشاد الداخية . مساحتها ٠٠٠ ,٢٦٧ ,١كم٢ يشكل الصنغي أهم عناصرها العرقية ثم جماعات الهوسا في الشرق . وللصنغي عاصمة هي نيامي وللهوسا عاصمة في زندر.

- فتحي عيانة ، الجغرافية الإقليمية ، ص ٤٥٣ .

(٢) عادل يونس ، العالم الإسلامي ، ص ٧٨، ١٨١.

رابعاً : البامبارة [1] والتكرور :

(محاولات بعث وسط ركام الممالك الإسلامية)

بعد الضربات التى حلت بمملكة مالي ومملكة صنغي ، نهض فريق من الماندنجو في القرن السابع عشر محاولاً إحياء مجد الماندنجو من جديد ، بعد ماحل بحكام صنغي وشعبها ، وبعد انهيار امبراطورية مالي . وكان هذا الفرع يسمى البامبارة [1] وكانت جماعات البامبارة قد انتشرت في وديان نهر النيجر وفروعه العليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ضمن مملكة مالي . وبعد هزائم مالي أمام صنغي تمكن البامبارة من الاستقلال بشئونهم وكونوا إمارة صغيرة حول سيجو . وهى الإمارة التى انطلقت منها امبراطورية البامبارة القوية بعد ذلك .

وبعد انهيار سلطان مالي وصنغي أصبحت القوى السياسية في غرب السودان تنحصر في قوتين هما :

١ - التكرور في الغرب في حوض السنغال .

٢ - البامبارة في الوسط على فروع النيجر العليا .

وبجوار البامبارة وجدت جماعات الفولاني والهوسا لكن البامبارة أصبحت أهم تلك القوى . وبدأ البامبارة يحيطون أنفسهم بالأساطير [2]، لدعم جذورهم ، وذلك في مرحلة تأسيس إمارة سيجو .

---

(١) البامبارة من شعوب الماندنجو ، خضعوا لسلاطين مالي وعملوا تحت لوائهم ، ثم صنغي . وفي زمن الغزوة المراكشية استقلوا عن باشوات تنبكتو المراكشيين . وفي القرن السابع عشر ظهرت قوتهم واندفعوا وسط الفراغ السياسي في غرب السودان إلى التوسع . واضطر حكام تنبكتو إلى دفع الجزية لهم .

- حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٢٥٩ .

(٢) هناك أسطورة محلية عن أصل البامبارة تقول أنه كان للبامبارة أخوين هما :برمانجولو ، ونيانجولا ، هربا أمام الأعداء ، وقفزا في أحد الأنهار حيث أنقذتهما سمكة إلى الشاطىء الأخر . فلقب الأخوين باسم كولوبالى أى الناجون .

- طرخان ، دولة مالي ، ص ١٧٢ .

وبعد تخلص البامبارة من سلطة باشوات مراكش - بدأوا يتطلعون في السيطرة على المناطق المجاورة لهم . كما أخضعوا طبقة الأرما الأرستقراطية لهم ، التى كانت تحتل قمة الهرم الأجتماعي بعد زوال صنغي . وفي سنة ١٦٧٠م بدأت جيوش البامبارة تكتسح وديان النيجر وتخضع بقية شعوب الماندنجو لها ، واتجهت البامبارة شمالاً لتخضع إمارات غرب السودان حتى حدود الصحراء ، كما أخضعت أقاليم الجنوب حتى الغابات الإستوائية . [١]

اشتهر أمر مملكة البامبارة ، وأصبحت أهم العوامل المؤثرة في أحداث غرب افريقية ، حيث لجأ إليها على بن حيدر خوفاً من حاكم مراكش . لكنها سقطت سريعاً سنة ١٨٦١م على يد الحاج عمر [٢] ورجاله من التكرور بعد أن شكل جماعة مسلحة لتطبيق فكره الإسلامي كخليفة للطريقة التيجانية . فتمكن برجاله من هزيمة البامبارة ودخول عاصمتهم .

وبعد ذلك أتجه الماندنجو إلى الزعامات الصوفية فظهر من بينهم شخصية هامة في هذا المجال هو ساموري الطورى الذى تمكن من ملأ الفراغ السياسي في المنطقة لفترة طويلة وعرقل التقدم الأوروبي للمنطقة . [٣]

وكان المسا [٤] أبوبكر أشهر حكام البامبارة ، ذلك أنه تمكن من توسيع حدودهم لتضم أقليم كنجوى وباكونو . وكان آخر ملوكهم هو المساكانديان .

ويعتبر ساموري الطوري آخر صوت للإسلام يرتفع ضد الاستعمار الفرنسي إذ تمكن الفرنسيون من بعده من بسط سيطرتهم على غرب إفريقية [٥] ، وبدأت مرحلة جديدة من

---

(١)كان للبامبارة فرعان فرع في منطقة كاآرتا شمال نهر باخوي ، أحد فروع نهر النيجر ، والثاني في سيجو . وكان التفوق للفرع الأخير .

(٢) سبق الحديث عن حركته.

(٣) سبق الحديث عن حركته .

(٤) مسا : بمعنى ملك أو سلطان .

(٥) كانت دولة غينيا هى آخر معاقل المقاومة ضد الفرنسيين ، بسبب دورها النشط في مساندة الحركات الإسلامية . كما كانت أول دولة في المنطقة تحصل على إستقلالها من فرنسا سنة ١٩٥٨م .

محاولات الاستعمار الغربي لتشويه التجربة الإسلامية الطويلة في المنطقة وسلخ دول المنطقة عن حضارتها الإسلامية . ومازالت دول غرب السودان تعاني من تلك السياسة في مرحلة مابعد الاستقلال ، لما قامت الهيئات الأوروبية من إبعاد المسلمين هناك عن هويتهم القومية وتجربتهم الإسلامية .

(٤)

أهم مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي

ظهرت على أرض السودان الغربي في العصر الإسلامي مراكز حضارية مزدهرة أدت دورها الهام في خدمة المنطقة . وكان لكل مركز ظروفه وأوضاعه وأهميته ودوره الخاص ومن أهم تلك المراكز مايلي : (حسب الترتيب الأبجدي)

أولا " أودغست : [١] (أودغشت)

تعد مدينة أودغست مثالاً واضحاً للمراكز الإسلامية التى ظهرت وتطورت على طرق التجارة والتبادل بين شمال إفريقية وغرب السودان عبر الصحراء الإفريقية الكبرى فكان ظهورها مرتبطاً بالنشاط التجاري وحركة القوافل على تلك الطرق ، كما كان تدهورها مرتبطاً بفقد تلك الطرق أهميتها أو تحولها لأسباب سياسية وأمنية .

فقد كان ظهور مراكزحضارية في إفريقية الشمالية مثل تاهرت وسجلماسة ومن قبلها القيروان بداية لانتعاش اقتصادي كبير لمنطقة الشمال وكان من أسباب هذا الانتعاش ارتبط تلك المراكز بتجارة بلاد السودان جنوب الصحراء واستغلت تاهرت وسجلماسة موقعها على الطرق التجارة المتجهة إلى بلاد السودان لتحقق تفوقاً اقتصادياً ملموساً لفترة طويلة وأصبحت مراكز الشمال تعج بحركة القوافل التجارية المترددة على بلاد السودان لحمل سلعها الهامة من الذهب والرقيق والجلود والعاج [٢] .

وكان لابد من إنشاء مراكز على طرق الصحراء الطويلة والشاقة يتمكن فيها التجار والمسافرون من استبدال دوابهم والتزود بالماء والطعام والاستراحة من طول ومشقة الطرق. وكانت أودغست [٣] من تلك المراكز التى أصبحت تمثل رأس مثلث تجارى قاعدته في

---

(١) تقع اليوم في جمهورية موريتانيا ، واكتشف اطلالها سنة ١٩٣٩م الباحث الأثرى لافورج .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٢٧٧ ومباعدها .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٨ .

الشمال عند سجلماسة وبلاد السوس الأقصى [1] ويتجه نحو السودان وأودغست .

ومهما يكن أمر فإن المدينة كانت قائمة قبل العصر الإسلامي ، إلا أن ازدهارها ونموها الكبير وشهرتها في المنطقة ترجع إلى العصر الإسلامي إذ أصبحت مركز التبادل الأساسي بين بضاعة الشمال الأساسية المتجهة صوب السودان وهى الملح ، وبضاعة السودان الأساسية المتجهة إلى الشمال وهو الذهب.وحققت المدينة ثروتها الضخمة لفترة طويلة من وساطتهابين تلك السلعتين لفترة طويلة وأصبحت المدينة نقطة إلتقاء قوافل وارجلان وتاهرت وسجلماسة المتجهة إلى خط السافانا في الجنوب . حيث كانت تبعد عن سجلماسة حوالى (٥١) مرحلة وعن القيروان حوالى (١١٠) مرحلة [2].

وقد أدت أهمية الإرتباط بأودغست وتجارة الذهب من السودان عبر أودغست إلى حدوث تقارب بين قوى الشمال الإفريقي رغم الإختلافات المذهبية والسياسية . فمن أجل مراعاة المصالح التجارية وقعت علاقة مصاهرة بين الرستميين في تاهرت والصفرية في سجلماسة ، حيث تزوجت أروى بنت عبدالرحمن بن رستم من مدرار بن اليسع [3] ، وكانت تلك المصاهرة تحمل في طياتها محاولة الأسرتين الحفاظ على مداخل الطرق التجارية من الشمال مع أودغست حيث سلع بلاد السودان الهامة.[3] حيث تعتبر أودغست المدخل الأساسي لتجارة السودان . وكان أهلها أيسر أهل الأرض . [5]

كانت المدينة تقوم في وادبين جبلين ، أى أنها تشبه من حيث تضاريسها مكة المكرمة [6] وقد تمكن أهلها من تنظيم أمور الرى لأراضيهم من خلال التحكم في مجرى

---

(١) التيجاني ، المغرب الإسلامي ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .
- بكير ، الدولة الرستمية ، ص ٢٠٩ .
- لومبارد ، الجغرافية التاريخية ، ص ٢٥٨ .

(٢) تختلف مسافة المرحلة من منطقة لاخرى حسب التضاريس وظروف الطقس والمناخ والعوامل الأخرى التى تساعد تسهيل أو صعوبة حركة القوافل .

(٣) ابن خلدون ، الصبر ، جـ٦ ، ص ٢٦٨.

(٤) الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ص ١٩٥ .

(٥) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ١٥٨ .

(٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٢، ص ١٢٥ .

الوادي . وبذلك أصبحت المنطقة تمتلك إمكانيات هامة تكفى أي زيادة في كثافة سكان المدينة ، حتى أنها كانت تكتفى ذاتيا من السلع الغذائية والخضروات وغيرها، وأصبحت المدينة أشبه بواحة في الصحراء . ففيها النخيل والبساتين والآبار العذبة [١].

كان للتجار دور هام في تحول المدينة وأهلها إلى الإسلام منذ القرن الثاني الهجري ، بحيث أشارت كتابات الجغرافيين والمؤرخين والرحالة إلى وجود مظاهر عديدة للحياة الإسلامية بها منذ البداية من مساجد عديدة ومسجد جامع وأنها آهلة بالمعلمين للقرآن ، وبها عدد من العلماء والفقهاء . الأمر الذى يدل على تحول أهلها إلى الإسلام منذ القرن الثاني الهجرى / الثامن الميلادي . وقد وفدت للاستقرار في المدينة عناصر عديدة من الزنوج والبربر والعرب وسائر الأمصار .

ومنذ القرن الثاني الهجري حدث تطور ديموغرافي وعمراني في المدينة ، فازدهرت أسواق المدينة وأستمر هذا الأزدهار حتى القرن الخامس الهجرى / الحادث عشر الميلادي ، حينما فتحت عنوة على يد عبدالله ياسين مؤسس دولة المرابطين سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م . إذ ترتب على ذلك أن أصبحت أوغست مركزاً ثانوياً لتجارة بلاد السودان بعد تحول الطرق التجارية عنها بعد أن كانت مركزاً لقبيلة صنهاجة القوية وعاصمة لزناته ، إحدى بطون صنهاجة ، وتمكنت أن تبلغ قمة ازدهارها على يد تين بروتان بن ويستوب نزار الصنهاجى الذي دان له أكثر من عشرين ملكاً من ملوك السودان [٢] .

ورغم تأثير غزو المرابطين للمدينة ، إلا أن هناك عوامل أخرى أدت إلى تدهورها منذ القرن الخامس الهجري ، منها ما يلي :

(١) تدهور أوضاع دول بلاد المغرب والتى ارتبطت في نموها ومكانتها بعلاقاتها التجارية مع بلاد السودان .ومن أهم تلك الدول الرستميين في تاهرت والصفرية في سلجماسة وكانت تلك الدولة تمثل منفذا لتجارة أودغست ومخرجاً لصادراتها [٣] .

---

(١) ابو حوقل ، المصدر السابق ، ص ٦٢. (٢) البكرى المصدر السابق ، ص ١٦٤.

(٣) ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٨. بكير ، الدولة الرستمية ، ص ٢٠٥ ومابعدها -اسماعيل ، محمود ، الخوارج ، ص ١٧٧ ومابعدها .

(٢) تغير الطرق التجارية الصحراوية إلى طرق أخرى بديلة عبر واحات الصحراء الليبية إلى واحات كوار ، أو إلى مركز تادمكة [١] بالنسبة إلى بلاد المغرب الأوسط وإلى طريق نول لطة على ساحل المحيط الأطلسي بالنسبة لبلاد المغرب الأقصى . كما أن أودغست أصبحت بعيدة عن مراكز الحكم والسياسة في زمن مالي وصنغى ، بينما قريبة من مدينة كومبي صالح . زمن امبراطورية غانة :

كانت القوافل التجارية القادمة من الشمال إلى بلاد السودان عبر أودغست تحمل المواد الغذائية خاصة منذ القرن الثالث الهجري حينما زاد عدد سكان المدينة ، والمنسوجات والنحاس المصنوع والخرز والزجاج بالأضافة إلى الملح [٢] وتعدد القوافل من أودغست محملة بالذهب والرقيق ، حتى ضرب المثل بذهب أودغست في تلك الفترة في أنه أجود ذهب أهل الأرض وأصحه [٣] كما كانت بعض القوافل تستأنف الرحلة منها إلى غانة في الجنوب أو إلى بلاد التكرور في الغرب . كما اشتهرت مدينة أودغست بتصدير الصمغ خاصة إلى الإندلس . كما كان الملح يستخرج بالقرب منها ليباع في بلاد السودان . كما اشتهرت بتصدير العنبر القادم إلى أسواقها من ساحل المحيط .

وهكذا قامت أودغست بدور كبير في مجال الحركة التجارية والعلاقات الدولية بين منطقة شمال افريقية وحوض البحر المتوسط من جهة الشمال وبين غرب السودان من جهة الجنوب وساعدها على أداء دورها موقعها الاستراتيجي للطرق البرية الصحراوية القادمة من المغرب خاصة من سجلماسة و وليلي بالمغرب الأقصى [٤]، وكذلك قربها من غانة في الجنوب،وأصبحت منذ القرن الثاني الهجري مركزاً متقدماً للإشعاع الحضاري الإسلامي إلى داخل غرب السودان فعمرت المدينة بالمساجد والجوامع والكتاتيب والمدارس وأصبحت قبلة للعديد من العلماء والفقهاء الذين قدموا إليها من شمال إفريقية والأندلس . [٥]

---

(١) تعتبر أنشط مراكز التجارة الصحراوية المنافسة لطريق أودغست بسبب قربها من وارجلان من الشمال وقربها من الجنوب من حوض النيجر .

(٢) الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٩ .

(٣) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤) ناصر ، دور الأباضية ، ص ٢٨.

(٥) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٢٢.

ويرجع إلى تلك المدينة الفضل في ترسيخ عمليات التحول إلى الإسلام بين أهل غانة منذ البداية ، إذ كانت تضم عدداً من الرعاة كان لهم دورهم في هذا المجال . ولكن تغير الظروف في المنطقة والصراع الذي دار بين المرابطين ودولة غانة عليها ، ثم دخول المرابطين المدينة غير من أهميتها وقلل من دورها الهام في غرب افريقية [١]، لتعود من جديد مركزا متواضعاً كما كانت .

ثانياً : تنبكتو :

مدينة تقع على ضفاف نهر النيجر الأعلى ، ظهرت منذ القرن الخامس الهجري كمحة تجارية هامة بين بلاد السودان وبين الشمال الإفريقي ، خاصة زمن دولة صنغي حيث جعل منها السلطان كنكن موسى أعظم مدن السودان الغربي [٢] وتعد أهم مدن السودان استمرارية في الأزدهار الاقتصادي والعمراني ، بحيث بلغت قمة مجدها الفكري والتجاري في القرن السادس عشر الميلادي . ومازالت قصورها ومساجدها الباقية تدل على عظمة دورها في غرب السودان .[٣]

ويبدو أن تدهور الأوضاع الأمنية أودغست وغانة منذ ظهور دولة المرابطين وظهور الصراع بينها وبين ملوك غانة قد أدت تلك الأوضاع إلى نمو تنبكتو كمركز للتجار المسلمين في المنطقة ، فبدأت المدينة تنمو بفضل وفود أعداد كبيرة من التجار إليها كما وفد إليها أعداد كبيرة من العلماء والدعاة ، وأخذت المدينة تتبوأ مكانتها كأهم مراكز الحضارة الإسلامية في غرب إفريقية بفضل تشجيع ملوك مالى وصنغي رعايتهم لنهضتها فأقاموا بها العديد من المساجد والقصور.[٤]

كان ظهور تنبكتو منذ البداية امتداداً للتخطيط الإسلامي للمدن فهى عبارة عن عدة أحياء ، لكل هى مسجد جامع وعدد من المساجد ويستقر في كل حي تجار بلد معين . كما ظهرت فيها أحياء الحرفيين ودكاكين وحوانيت الصيادلة والحدادين ومختلف

---

(١) الجنحاني ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) الزياتي ، وصف إفريقية ، ص ٥٣٩ - ٥٤٢ .

(٣) السعدي ، تاريخ السودان ، ص ٢٢.

(٤) الزياتي ، المرجع السابق .

الصناعات . حتى أصبح للمدينة ميناها الخاص على نهر النيجر لملاحقة عملية التصدير والإستيراد إلى بقية بلاد السودان . وكان هذا الميناء هو ميناء كابيارا [1] حيث أصبحت المدينة القلب التجاري لمملكة مالي وغرب السودان في القرنين الرابع عشر والخامس [2] وبسبب هذا الإزدهار الذي عم المدينة وسكانها تكالبت عليها القوى المجاورة ، فقد أصبحت فترة محل صراع بين ملوك مالى وصنغى ، حتى قام السلطان كنكن موسى بتشييد قصر حكمه بها سنة ١٣٢٩م [3] كما أصبحت هدفاً للغزو من قبل جماعات الطوارق في الشمال ، وجماعات الموشى من الجنوب ، حتى أنها خربت عدة مرات من قبل قبائل الموشي الوثنية .

ازدهرت المدينة بصورة واضحة تحت سلطان حكام صنغي ، حيث ركزوا اهتماماتهم بعمارتها ونهضتها ، وساعد عامل الأمن والاستقرار الذي ساد دولة صنغي في البداية على توافد أعدد كبيرة من العلماء للأستقرار بها ، وأنشأت بها المكتبات الضخمة التى حرص على تجهيزها العلماء والفقهاء . وأصبحت المدينة أهم مركز لنشر الإسلام في غرب السودان قاطبة حتى العصور الحديثة . وازدهرت فيها حركة نسخ الكتب العربية وبيعها ، بحيث نافست تجارة الكتب في العائد تجارة الذهب [4] وكان لبعض علمائها مكتبات تحتوي على أكثر من ستة آلاف كتاب مثل أحمد بابا التنبكتي . كما أنشأت فيها مكتبات من قبل حكام صنغي لخدمةحركة العلم والثقافة بها . حتى أصبحت المدينة ثقافية على المستوي العالي تتابع الحركة العلمية في القاهرة والقيروان وفاس وغيرها من المراكز الإسلامية المعاصرة لها [5].

وخرجت المدينة أعداد كبيرة من العلماء لايقلون في مستواهم واستعدادهم ومكانتهم عن إخوانهم في المغرب أو المشرق ، وعرفوا بالإخلاص الشديد والحرص على العلم والتعليم واقتنوا المكتبات [6] ، وأنفس الكتب ووقفوها على المتعلمين . فأصبحت تنبكتو أهم سوق للكتب في بلاد السودان تنسخ فيها الكتب وتوزع على البلاد المجاورة [7]

(١) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٣٩. (٢) مقلد، المرجع السابق .
(٣) نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء ، ص ١٠٣ .
(٤) السعدي ، المصدر السابق ، ص ٣٣، ٤٦ .
(٥) حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٢٤٥ ومابعدها .
(٦) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٤٠ . (٧) حسن محمود ، المرجع السابق ،ص ٢٤٦ .

ووصل علماء تنبكتو وغرب السودان في تلك الفترة مكانة علمية هامة فقد روي أن فقيها اسمه عبدالرحمن التميمي جاء من الحجاز إلى تنبكتو بصحبة السلطان كنكن موسى فأقام الفقيه الحجازي زمناً في تنبكتو ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس [1] . كما اتجه العديد من أبناء تنبكتو للدراسة في الأزهر والزيتونة والقرويين وحتى في بغداد والأندلس وغيرها من المؤسسات الثقافية الإسلامية .

توجهت مكانة المدينة الثقافية بإنشاء أول جامعة إسلامية بها في غرب إفريقية وهي جامعة سانكري [2] التي أصبحت منارة إسلامية هامة على خط السافانا وحدود الغابات الإستوائية فقد أتخذ من أحد مساجدها الكبيرة وهو مسجد سانكري مركزاً للدراسات الإسلامية وغيرها وسميت بأسم جامعة سانكري . ويعتبر هذا الحدث أهم حدث في تاريخ إفريقية جنوب الصحراء من الناحية الحضارية [3] حيث نظمت أحوال الدراسة حسب أحدث نظم الجامعات العالمية الإسلامية ، حيث استعان حكام مالي بعلماء من مختلف الدول لهذا الغرض خاصة من جامعة الأزهر وكان إنشاء الجامعة في مدينة تنبكتو دلالة على تزايد أعداد الدراسين والمدرسين والعلماء بها . وأصبحت الجامعة مؤشراً على نبض تبنكتو من الناحية العلمية .

وبدأ الطلاب يفدون إلى مدينة تنبكتو من مختلف أقاليم السودان الغربي للإلتحاق بجامعتها بعد أن يكونوا قد حفظوا أجزاء من القرآن في مدارسهم وكتاتيبهم الأقليمية ، فإذا أتموا تلك الدراسة شدوا الرحال إلى تنبكتو وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم في المراحل العليا [4] وكانت اقامة هؤلاء الطلاب ميسرة بسبب الإنفاق عليهم من قبل الحكام ومن قبل التجار . كما أن مسجد سانكرى كانت له أوقاف ينفق منها على الطلبة الوافدين إلى الجامعة . ولم تكن الدراسة في الجامعة محددة بعدد من السنوات بل كانت تتوقف على استعداد الطالب وقدرته على التحصيل . فإذا أتم الطالب دراسة حصل على الإجازة المطلوبة ورحل إلى بلده حيث يعمل في الخطابة أو الإمامة أو القضاء .

---

(١) السعدي ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٢) السعدي ، المصدر نفسه ، ص ٣٤.

(٣) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٤١.

(٤) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩.

وبرزت في المدينة طبقة هامة من علماء جامعة سانكري أصبحوا يمثلون رمزاً للعلم والفقه والتقوى بين الناس منهم الحاج جد القاضي عبدالرحمن بن أبي بكر الذي تولى القضاء في أواخر دولة مالي . ثم العالم عمر الساكن الذي تولى القضاء في زمن إسكى محمد ، وأبوعبدالله بن محمد بن عثمان ، وأبو جعفر عمر بن محمد أتيت الذي ترك أكثر من سبعمائة مجلد ، ومخلوف بن على بن صالح . كما رحل عدد علماء تنبكتو وجامعتها للأضطلاع على النهضة العلمية في مراكز إسلامية أخرى فقد رحل محمد بن أحمد النازختى إلى مصر واتصل بعلمائها مثل القلقشندى وابن أبي الشريف وعبدالحق السنباطي ثم رحل إلى الحجاز، وعاد إلى تنبكتو ليدرس ماحصله من علم جديد ومعرفة[1] .

كما قدم إلى تنبكتو عدد علماء مصر والمغرب مثل الإمام السيوطي الذي كان وثيق الصلة بعلماء وحكام تنبكتو وكانت له صلة قوية مع سلطان صنغي الشهير اسكى محمد . كما قدم إلى تنبكتو علماء من مصر ومن القيروان ومن المغرب الأقصي . إنعكست خدمات سنكري بالخير على التراث السوداني والحركة العلمية بها . فقد تخرج منها علماء كان لهم دور في خدمة مجتمعات بلادهم من أمثال محمود بن عمران ومحمد بن الفقيه المختار وعبدالرحمن محمود ، وكان لعلمائها دور في ظهور مؤلفات ومدونات خاصة ببلاد السودان من حيث تاريخها وقبائلها وطبيعتها وحضارتها وعاداتها ، مما أضاف الجديد إلى المعرفة الإنسانية . ومن أمثلة هؤلاء العلماء عبدالرحمن السعدى [2] ومحمود كعت[3] وأحمد بابا التنبكي [4]. كما ظهر منها العديد من الدعاة الذين ارتحلوا لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية في السودان الغربي والأوسط والشرقي . غير أن هذا التراث الضخم لتلك الجامعة قد تعرض للدمار والضياع خلال الحملة المراكشية وبعدها .

كانت تنبكتو وجامعتها الكبرى بمثابة منارة للإسلام وسط محيط وثني ، ولذلك كانت أهميتها بالغة لترسيخ الإسلام وثقافته بين تلك القبائل حديثة العهد بالإسلام ، كما

---

(١) السعدي ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ومابعدها .

(٢) كتابة" تاريخ السودان" نشره المستشرق الفرنسي هو داس في باريس سنة ١٨٩٨م .

(٣) كتابة "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس" نشره مع ترجمة فرنسية المستشرق هو داس ، في باريس ، ١٩٦٣م .

(٤) له كتاب" تكملة الديباج المذهب لابن فرجون" وعاصر الغزو المراكشي لتنبكتو.

كانت أهميتها تأتي من نشر العلم والإسلام وسط القبائل الوثنية والبدائية في منطقة المستنقعات والغابات ، وكان حرص ملوك مالي وصنغي على ضرورة أن تتمتع تلك المدينة بالأمن والسلام [1] من أجل أن تؤدى دورها الحضاري على أتم وجه في المنطقة خاصة وأن سلاطين مالي وصنغي كانوا في حالة حرب مستمرة مع القبائل الوثنية المجاورة .

ومازالت آثار جامعة سانكري واضحة في انتشار اللغة العربية وعلومها بين سكان غرب السودان ، حتى أدخل هذا الأمر الفرنسيين ، كما توجد مفردات عديدة من اللغة العربية في اللهجات المحلية في المنطقة .

وهكذا أدت تنبكتو دورها الكبير في المجال الثقافي لبلاد السودان ، كما كانت حلقة وصل تجاري بين بلاد السودان من جهة وواحات لصحراء من جهة ثانية . وظلت تؤدى دورها حتي تدهورت الأحوال الأمنية في بلاد السودان الغربي منذ القرن السابع عشر لتصبح المدينة محلاً للصراع والفوضي .

ثالثاً : جني : "جنة"

مدينة تأسست سنة ٤٣٥هـ / ١٠٣٣م ، أى قبل ظهور تنبكتو [2] سماها التجار الأفارقة باسم "جنّ" بسبب ازدهار وأهميتها التجارية وتراثها . تقع على بعد حوالى ٦٠ كم من تنبكتو على نهر النيجر إلى الجنوب . وتتحول المدينة إلى جزيرة أثناء فيضان نهر النيجر .[3]

ونظراً لموقع جني وسط بلاد السودان الغربي فقد أصبحت مركزاً تجارياً هاماً مع بلاد المغرب في الشمال عبر تنبكتو ومع بلاد السودان الغربي ، حيث أنها أصبحت قريبة من مواقع الذهب في الجنوب ، وقد طبى تجارها أرباحاً طائلة من وراء ذلك . وكانت ترتبط بخطوط تجارية مع السودان الأوسط ومع واحات الصحراء الإفريقية . ومن كثرة التجار بها تحول حكامها إلى الإسلام منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بعد أن

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٩٩ .

(٢) زكي ، تاريخ الدول الإسلامية ، ص ٢٢٤.

(٣) الزياتي ، وصف افريقية ، ص ٥٣٧.

كان بها أكثر من أربعة آلاف من العلماء المسلمين .[1]

من جهة ثانية ظهرت أهمية جنى كمركز اقليمي في نطاق السافانا ، حيث أنها تعتبر مثتقى القبائل الرعوية في حوض النيجر ومنطقة السافانا مع نطاق الغابات الإستوائية . فأصبحت بذلك ملتقى الزراع والرعاة والتجار ورجال الغابات . وأصبحت أهم مراكز بلاد السودان في حركة التجارة الصامته التى تقوم على التبادل [2].

يرجع الفضل في ازدهار جنى وتطور سمعتها إلى جماعات السوننكة من الماندنجو الذين جعلوها مركزا لهم . وحرصوا بعد ذلك على تحويلها إلى مركز إسلامي بعد تحولهم الى الإسلام ، فبنى حاكمها مسجدها الجامع على نسق المسجد الحرام في مكة [3] . وكان الإسلام قد بدأ في الانتشار بين سكانها منذ القرن البداية ، حيث استقرت بها جماعات عديدة من التجار المسلمين من العرب والبربر . وكان لهم دورهم الهام في نشر الإسلام في مدينة جنى ومناطق النيجر المجاورة متخذين من جنى مركزا لهم بفضل ماتمتعت به من أمن واستقرار فترات طويلة ، وتوافد معهم العلماء والدعاة .[4]

ونظراً لموقع فإنها قامت بدور كبير في نشر الإسلام في المناطق الوثنية المحيطة بها خاصة في الجنوب وفي الشرق وانتشرت بها المساجد ووفدت إليها أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء الذين ساهموا في نشر الإسلام واللغة ، وظلت الحركة العلمية بها مستمرة حتى ظهرت تنبكتو كمركز ثقافي كبير فخطفت من جني الأضواء ، وأصبحت جنى تابعة لها من الناحية الفكرية [5].

ورغم مكانة تنبكتو العالمية ومجاورتها لجني ، إلا أن جني ظلت موطناً لعدد من العلماء منهم : موري حاجا ، الذي كان يدرس في المسجد الجامع بها ، وكانت له شهرة كبيرة في العلوم الفقهية . كما اشتهر قاضي المدينة محمد سانو الذي احتل مكانة كبري

(١) السعدي ، تاريخ السودان ، ص ١١، ١٢.

(٢) انظر الخارطة في الملاحق .

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٥٢.

(٤) السعدي ، المصدر السابق ، ص ١٣.

(٥) مقلد ، المد الإسلامي ، ص ١٤٣ .

بين سكانها وكانت له مكانة عند حكام الماندنجو . وكذلك محمد برمابورد ، وأحمد طورتو ، وغيرهم من مشاهير علماء السودان الغربي . كما ظلت محتفظة بمكانتها السياسية والعلمية بعد زوال صنغي وتدهور أحوال السودان الغربي [١].

مثلت جني أهم مراكز نشر الإسلام في نطاق الغابات الإستوائية بسبب قربها منها ، كذلك في مناطق المستنقعات التى تتواجد بها الكثير من القبائل البدائية الوثنية . وكان لجني الدور الهام في نشر الإسلام بين تلك المناطق الصعبة [٢].

رابعاً : جـاو (غـأو) :

مدينة هامة تقع على منابع نهر النيجر العليا . وترجع أهميتها إلى توسطها بين مدن : تكده في الشرق وبين مدينة تنبكتو في الغرب . وكذلك بين طرق التجارة القادمة من خطوط الواحات الصحراوية في الشمال والمتجهة إلى بلاد السودان وبين بلاد السودان[٣] ولذلك أصبحت المدينة محطة استراتيجية هامة للقوافل بين أقاليم بلاد السودان وبين الطرق التجارية القادمة من الشمال . وزادت أهميتها زمن مالي وصنغي .

ظهرت جاو منذ البداية بقوة وسلطان صنغي في المنطقة ، وكانت مركزهم الهامه أثناء صراعهم المستمر مع ملوك مالي ، ومنها كانت حركات التمرد من قبلهم ضد مالي . كما بدأت منها البداية

كبداية لتكوين امبراطورية صنغي حينما هرب على كلن وسليمان نار من نياني عاصمة مالي وتمكنا من تجميع قوى صنغي من جاو[٤] . وبالفعل بدأ الصنغي يعتمدون على أهمية جاو في المنطقة لتحقيق مركزهم وتوسيع امبراطورية [٥] وكانت أهمية جاو تعتمد على أهميتها الثقافية في نشر الإسلام وحضارته في المنطقة وفي موقعها

---

(١) السعدي ، المصدر السابق ، ص ١٤.

(٢) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٤٤.

(٣) انظر الخارطة في الملاحق .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٥ - ص ٢٩٧ .

(٥) قداح ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقية الغربية ، ص ٦٧.

الاستراتيجي على الطرق التجارية .[1]

بدأت المؤسسات التعليمية الإسلامية تظهر في المدينة على يد حكام مالي ، حينما أقام السلطان موسى ميناء مسجدها الكبير على إثر عودته من الحج سنة ١٣٢٥م ، وقد أشرف على بناء هذا الجامع المهندس القرطبي أبو اسحق إبراهيم الشاطبي ، وتمكن المهندس القرطبي من تنفيذ بناء المسجد بطريقة جديدة لم تكن معروفة من قبل في بلاد السودان ، حينما استخدم الطين المحروق . وجعل للمسجد مئذنة هرمية الشكل . وكان هذا أول طراز معماري للمساجد الإسلامية في غرب إفريقية ، حيث تم بناء مسجد سانكري في تنبكتو بعد ذلك على نفس الطراز .[2] وقد عمر هذا المسجد فترة طويلة استمرت حوالى ثلاثة قرون ولاتزال أطلاله موجودة حتى الآن في مدينة جاو .

كان لمسجد جاو أهميته الكبرى في نشر الإسلام وثقافته في المنطقة بفضل رعاية حكام الصنغي وأمرائهم للنهضة العلمية بالمدينة . وقدم للتدريس به علماء من تنبكتو ومن بلاد المغرب . وبذل حكام صنغي الكثير من الأعطيات على العلماء وطلاب العلم في المدينة كما وفروا سبل الراحة للطلاب الذين قدموا للدراسة في جاو وفي مسجدها الجامع . وأصبح هذا المسجد يضم العديد من الكتب والمخطوطات اللآزمة للدراسة في المسجد [3].

ومنذ القرن السادس عشر أصبحت جاو تفوق في أهميتها مدينة تنبكتو الشهيرة في المنطقة وذلك يرجع إلى نواحي الأمن التى تمتعت بها جاو من قبل حكام صنغي وبعدها عن الأخطار ، فقامت عن تنبكتو مساحة وسكانا وازدهارا وثراء ، وأصبحت المركز الأول في بلاد السودان الغربي ، إذ وفدت إليها السفارات من بلاط السعديين وغيرهم ، وضعها المعاصرون في تلك الفترة بأنها المدينة العظيمة حيث بلغ عدد سكانها في القرن السادس عشر حوالى خمسة وسبعون ألف نسمة ، وعدد دورها يزيد عن ٧٦٢٦ منزلاً [4] واستمرت جاو تؤدى دورها الكبير في المنطقة حتى تلاحقت الهزائم بحكام صنغي فأصبحت مدينة عادية من مدن افريقية في زمن الاستعمار الفرنسي .

---

(١) نوري ، تاريخ الإسلام ، ص ٩٨.

(٢) طرخان ، دولة مالي ، ص ١٥٤، ١٥٥ .

(٣) السعدى ، تاريخ السودان ، ص ٨٢٧ .

(٤) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٤٩.

خامساً : كومبى صالح (غانة)

هي المدينة العاصمة لغانة منذ عصور ماقبل الإسلام . وكانت أول المراكز الحضارية الهامة التى أشار إليها المسلمون في السودان الغربي ورددوا أسماء ملوكها وكانت مقصداً هاماً لتجار شمال إفريقية عبر طريق أودغست أو نول لمطة الساحلي .

شكلت المدينة أهمية كبرى بسبب موقعها الهام على طرق التجارة القادمة عبر الصحراء إلى بلاد السودان . وكانت تقع بالقرب من تلك الطرق من الشمال . كما تقع بالقرب من مراكز هامة في بلاد السودان مثل تنبكتو ، التي ظهرت فيما بعد ، وكذلك أودغست ، وولاته [1] كما تقع بالقرب من جنى ونياني وجاو [2]

ظل ملوك كومبي صالح على وثنيهم فترة طويلة ، رغم وجود جاليات كبيرة من التجار المسلمين في المدينة وانتشارهم في أرجاء مملكة غانة ، حتى كان لهم مساجدهم الخاصة يؤدون فيها صلاتهم ويعقدون اجتماعاتهم ، واتخذ ملوكها من هؤلاء التجار مستشارين لهم فانتشر الإسلام بين أهلها والمناطق المجاورة لها [3] .

كانت المدينة عبارة عن مدينتان في آن واحد إحداهما : للملك والعاملين معه ، والثانية لعامة الناس والتجار . وكانت أكثر مدن غرب السودان إزدهاراً في البداية حيث امتد عمرانها لمسافة ستة أميال ، وقدم إليها التجار من مختلف الأقطار ، وتأسس بها المسجد الجامع ومساجد عديدة ، خاصة بعد تحول ملوك غانة إلى الإسلام . وتخرج من مساجدها . العديد من العلماء والدعاة ساهموا في نشر الإسلام كمنذ البداية في المناطق المحيطة بهم وظهرت المساجد في مدينة الملك بعد ذلك [4] ووفدت إليها وفود العلماء .

---

(١) لا يعرف بالضبط تاريخ تأسيسها ، ولكنها ظهرت قبل ظهور تنبكتو ، وكانت مركزاً تجارياً هاماً في بلاد السودان من القرن الثالث عشر الميلادي . وقد هاجر إليها العلماء والتجار بعد أحداث أودغست . تم هجرها أهلها إلى تنبكتو بعد ذلك؛ فتدنت أهميتها .

أنظر الزياتي ، وصف افريقية ، ص ٥٣٥ .

(٢) مقلد ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٣) انظر الخارطة في الملاحق .

(٤) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٤٢٦ .

ترجع أهمية كومبي صالح من الناحية التجارية أيضا إلى قربها من مناجم استخراج الذهب في منطقة "غيارو" التى كانت تابعة لملك غانة . كما أصبحت كومبي صالح مركزاً كبيراً لتجارة الرقيق ، قبل ظهور غيرها من المراكز من المراكز الأخرى [1] فأصبحت مركزاً هاماً لبلاد السودان الغربي من الناحية التجارية حيث صبت فيها سلع وتجارات إقليم السنغال والأقاليم الأخرى المجاورة كما ترتب على أهميتها ظهور مدينة أودغست إلى الشمال منها ناحية الصحراء .

ظلت المدينة منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي تقوم بدورها الهام في نشر الإسلام في غرب السودان قبل تحول ملوكها إلى الإسلام فقد كانت المدينة هى مدخل بلاد السودان الغربي منذ البداية ولولاها لتعذر على التجار والدعاة دخول إقاليم غرب السودان [2] وإذا كان التجار الذين قدموا لحمل الذهب منها [3] قد استقروا بها فإنهم استغلوا حالة الأمن بالمدينة وإحترام ملوك غانة لهم وتقديرهم فأسسوا المساجد وعلموا الناس أمور الدين الإسلامي وتمتعوا بتلك الحرية في كافة أرجاء مملكة غانة .

جاء التحول النهائي للإسلام في مدينة كوبي صالح وأقاليم غانة في القرن الحادي عشر على يد جماعة المرابطين الذين ظهرت قوتهم من حوض السنغال المجاور ، وأصبحت لدولة المرابطين جبهتين :

- جبهة الشمال نحو المغرب الأقصي
- جبهة الجنوب نحو غانة .

وتمكن المرابطون من تحقيق انتصارات في حوض السنغال ودخلوا مدينة غانة [4] ومدن تنبكتو وولاته وجنى وبذلك وضعوا أيديهم على مناجم الثروة والذهب وعلى طرق

---

(١) الحميرى ، المصدر نفسه .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤، ص ١٨٤ .

(٣) يصف البكري كثرة الذهب في غانة بكثرته في أيدى الناس حتى يتدخل ملوك من أجل المحافظة على ندرته وقيمته .
- المغرب ، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٤) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ٩٩ .

التجارة . وتحولت كوبي صالح وغيرها من مدن غانة إلى مراكز إسلامية خالصة فأصبح حكامها مسلمون من أهلها. ورغم ضعف سلطان المرابطين في غانة بعد موت زعيم المرابطين في الجنوب أبوبكر بن عمر فإن الإسلام ظل متماسكا وقوياً في مدن غانه .

وهكذا ظهرت بفضل الإسلام مراكز حضارته إفريقية نبتت من أرضها ونمت وإزدهرت بفضل أبنائها وكان ذلك تحت رعاية الإسلام وتسامحه . وفيما تدهورت تلك المراكز وتراجعت عن أداء دورها عادت منطقة غرب إفريقية من جديد إلى التخلف . وتحاول حكومات الدول الإفريقية الحالية بعث تلك النهضة من جديد من خلال إحياء تراثها الإسلامي والإتصال بمراكز الثقافة في العالم الإسلامي .

(١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

الفصل الخامس

الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقية ووسطها

الدور العماني المميز والمستمر

(١)

المحيط الهندي يتحول إلي محيط إسلامي

بفضل التجار العرب من أهل عمان وسواحل شبه الجزيرة العربية دبت الحركة والنشاط التجاري المستمر، عبر العصور التاريخية ، في منطقة المحيط الهندي [١] وسواحله ، بحيث أصبحت تلك السواحل عربية الطابع والحركة .

فمن المعروف أن البشرية لم تعرف محيطاً حتى العصور الحديثة سوى المحيط الهندي [٢] ومثل هذا المحيط في العصور القديمة قاموساً للسلع والمنتجات بفضل التنوع والاختلاف في منتجاته ، واحتلت تلك المنتجات أهمية خاصة في العالم القديم /الوثني بسبب أهميتها في طقوس المعابد والعادات الوثنية ، فتكالبت القوى الكبرى من يونان وفرس ورومان للوصول إلى سواحل الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية كخطوة نحو الوصول لسلع المحيط الهندي ، وتحركت سفن الإسكندر الأكبر والرومان نحو مياهه وسط صعوبات عديدة وشهدت السواحل العربية منذ القدم تحركات دولية هدفها الوصول إلى سواحل هذا المحيط .

كانت سواحل المحيط الهندي بحق مخزناً لسلع وإحتياجات حضارات العالم القديم ويمكننا تقسيم تلك السواحل إلى ثلاثة أقسام لكل خصائصه وإمتيازاته كما يلي:

القسم الأول : سواحل الهند الغربية :

والتى تبدأ من الجنوب المقابل لجزيرة سيلان مع جزر ملديف ولكاديف ، حتى ساحل الديبل وساحل مليبار وكوجيرات . وقد أمدت تلك السواحل العالم القديم بسلع هامة مثل

---

(١) لم يعرف هذا المسطح المائى هذا الاسم إلا في العصور الحديثة ، حيث أطلق عليه أسماء عديدة من أهمها قديما : البحر الأريترى Erythraeen Sea. أو البحر المحيط وفي العصور الإسلامية أطلق عليه البحر الحبشي ، أو المحيط ، وفي نهاية العصور الإسلامية ذكر بأسم البحر الهندي في بعض المصادر . ويحتل البحر العربي الجزء الشمالي منه .

(٢) لم تعرف المحيطات الأخرى مثل : الأطلسي والهادي ، والمتجمد الشمالي ، والمتجمد الجنوبي ، إلا بعد الكشوف الجغرافية .

الفلفل والتوابل والعود والعنبر، بالإضافة إلى صناعات الهند القديم خاصة من المنسوجات والسيوف وغيرها. وكانت تلك السواحل الغربية للهند هى نافذة على العالم القديم ، حيث انعزلت الهند عن العالم بسلاسل جبال الهميلايا مع وسط آسيا وجبال الغات الشرقية والغربية على المحيط الهندي ، ومن خلال دروب عبر سلاسل الغات نفذت صادرات الهند إلى العالم الخارجي .

القسم الثاني : السواحل الجنوبية من شبه الجزيرة العربية :

وتشمل سواحل اليمن وعمان . ومثلت أهمية خاصة للعالم القديم في تصدير سلعة اللبان الهامة للعالم الوثني من جنوب عمان وارتبطت بتلك التجارة اليمن، حتى ظهرت ممالك في اليمن لخدمة تلك التجارة مثل : شبوة وتيماء ومأرب [1] . كما صدرت عمان للعالم القديم النحاس والأحجار [2] . وأصبح هذا القسم : أنشط جزء على سواحل المحيط الهندي قاطبة . وقام سكانه بالدور الكبير في تحمل عمليات التصدير والنقل عبر الأقسام الأخرى ، بل وإلى مراكز العالم التى في حاجة إليه . كما سنرى فيما بعد .

القسم الثالث : السواحل الشرقية من القارة الإفريقية :

ورغم قلة الأبحاث حول دورها إلا أنها كانت أهم أقسام السواحل في إمكانياتها الطبيعية ، بحيث كانت منجماً للمواد الخام للأقسام الأخرى أو لمدنيات العالم القديم في الوقت التى ضنت المصادر عن ذكر أهميتها . لقد حمل الذهب والحديد من إفريقية إلى الهند ، وقامت عليهما صناعات هامة صدرتها الهند لحضارات العالم في العصور القديمة والوسطى . كما صدرت سواحل شرقي افريقية خامات النحاس والتصدير والعاج والأخشاب إلى العالم القديم والوسيط . بالإضافة إلى آلاف الأيدى العاملة التى خرجت من تلك السواحل في صورة رقيق .

ورغم أهمية سواحل المحيط الهندي . خاصة سواحل شرقي إفريقية ، فإن الباحث تنتابه الدهشة والحيرة ، حينما يدرك أن العالم حتى العقود الأخيرة من القرن العشرين ، كان يجعل حقيقة تلك السواحل وإمكانياتها . فخط سواحل المحيط الهندي ، بما فيها سواحل شرقي افريقية والسواحل العربية من المعرفة العلمية أقل بكثير من أى بحر من

(١) انظر الغساني ، عبدالقادر . عمان أرض اللبان ، ص ١٣ ومابعدها .

(٢) البدر ، الخليج العربي خلال الألفين الثالث والثاني ق .م ، ص ٥٧ .

البحار الأوروبية الصغيرة مثل بحر الشمال أو بحر البلطيق . رغم أن هذا المحيط يغطي مساحة تقدر بحوالي ٧٣,٥ مليون كم٢ من مساحة الكرة الأرضية ، ورغم دوره الكبير في إمداد العالم القديم والوسيط بمعظم المواد الخام والسلع الضرورية [١].

والواقع أنه لا يمكننا دراسة عمليات انتشار الإسلام والثقافة العربية على سواحل شرقي إفريقية دون النظر إلى طبيعة المحيط الهندي وسواحله . ذلك لأن الباحث يدرك من النظرة الأولى أن هذا المحيط يشكل مثلثاً قاعدته صوب الجنوب مع المحيط المتجمد الشمالي وقمته مع السواحل العربية لعمان واليمن . بينما تشكل السواحل الإفريقية ضلعه الأيمن ، من الشمال والسواحل الهندية ضلعه الأيسر .

وبذلك أصبحت السواحل العربية بحكم موقعها من جهة وبحكم استفادتها من تضاريس المحيط الهندي من جهة ثانية هي النقطة الهامة في حركة النقل والمواصلات البحرية عبر مياه المحيط وسواحله منذ القدم . وأصبحت لتلك السواحل الريادة على الملاحة في المحيط قديماً وحديثاً .[٢]

---

(١) من أجل ذلك فقد قامت الأمم المتحدة بإرسال البعثة الدولية للمحيط الهندي والتي استمرت ستة سنوات من ١٩٥٩ - ١٩٦٥ . بهدف استكشاف دراسة تضاريس المحيط الهندي وظواهره وسواحله وإمكانياته خاصة السواحل الإفريقية . حيث أدركت أنه أكثر المحيطات والمسطحات المائية غموضاً رغم دوره الكبير في تاريخ البشرية والحضارات الإنسانية وأهميته الحالية ،

وأدركت البعثة أهمية المعرفة العلمية لدور البحر العربي والبحار والخلجان المتصلة به في فهم إمكانيات العالم القديم والحديث .

وقد عملت تلك البعثة على إيقاظ الدوائر العلمية في دول المحيط الهندي ، خاصة إفريقية ، وفي العالم أجمع ، وأهمية المساهمة في برامج تخدم دول المحيط من أجل إستغلال إمكانيته الهائلة، بعد أن أدرك العالم أن البحر العربي ، وهو الجزء الشمالي من هذا المحيط ، كان الشريان الهام للملاحة العالمية في العصرين القديم والوسيط . وأن أصول الملاحة العالمية نبتت من سواحل البحر العربي .

انظر بيرمان ، اقتحام المجهول الأعظم ، البعثة الدولية للمحيط الهندي (١٩٥٩ - ١٩٦٥)، ترجمة شعبة الترجمة العربية باليونسكو والدكتور أنور عبدالعليم . مراجعة شعبة الترجمة العربية باليونسكو والدكتور مكرم أمين جرجس ، اليونسكو ، ١٩٨٦م ، ص ٥ ومابعدها .

(٢) الفندي ، جمال الدين ، طبيعيات البحر وظواهره ، ص ١٦٠ ومابعدها .

لقد استفادت تلك المنطقة العربية ، خاصة عمان ، من حركة التيارات البحرية في المحيط ، ومواسم هبوب الرياح الموسمية في تنظيم رحلات بحرية مستمرة ، كان لها دورها في الجوانب الحضارية بغض النظر عن أرباحها المادية ، وكان دور الملاح والبحار العربي ، خاصة العماني ، في المحيط الهندي ، لايقل أهمية عن دور الفارس العربي على جبهات فارس أو شمال إفريقية ، إن لم يكن دور الملاح العربي والعماني يفوق ذلك .

ويندهش الباحث حينما يدرك من خلال الإحصائيات الأخيرة ، أن دور البحار المسلم من أهل الخليج خاصة ، يفوق في مجال نشر الإسلام عن دور الجيوش الكثيفة التى خرجت إلى جبهات القتال في الشام والعراق وفارس وشمال إفريقية ، والتى أبلت بلاء حسنا في سبيل نشر الإسلام وتحملت المشاق في سبيل إعلاء كلمة الحق والإسلام .

ويمكننا استخدام تلك الحقائق للرد على من يحاول أن يربط بين انتشار الإسلام والسيف حيث تمكن التاجر والبحار العربي ، من دعوة ما يزيد عن نصف عدد المسلمين في العالم إلى الإسلام عن طريق الموعظة والقدوة الحسنة . حيث كان التاجر يمثل سفيرا للإسلام من خلال سلوكيات وأمانته والتزامه ، حتى صار قدوة في كل محطة بحرية ينزلها . ولم يكن التاجر يحرص على إى شىء بقدر حرصه على مبادىء الإسلام ومثله فأقبل الناس يتعرفون على عقيدته ، حتى صاروا مسلمين. [1]

لقد نشرت إحصائيات أخيرة عن منظمة المؤتمر الإسلامي ، والتى يبلغ أعضاؤها ٤٦ دولة مسلمة ، اتضح منها أن عدد مسلمي العالم حتى نهاية سنة ١٩٨٩م بلغ حوالى (١٢٢٠) مليون مسلم ، بما فيهم المسلمون الذين يعيشون كأقليات [2] ، واتضح أن عدد المسلمين في العالم يتركز حول ساحل المحيط الهندي والدول المطلة عليه من قارتي آسيا وإفريقية . وأن سبل دخول هؤلاء إلى الإسلام في البداية كان عن طريق التجارة والدعوة بالموعظة والقدوة الحسنة .

فبالنسبة لساحل إفريقية الشرقي شرق إفريقية توجد الأعداد التالية :

- الصومال (٨,٤ مليون مسلم) - جيبوتي (٠,٣٣ مليون مسلم) - تنزانيا

(١) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٢.

(٢) عادل يونس ، العالم الإسلامي اليوم ، ص ٤٥ - ٥٠ .

(١٤,٨ مليون مسلم) - جزر القمر (٠,٤٣ مليون مسلم) - كينيا (٤ مليون مسلم) - أوغندة (٤,٥ مليون مسلم) - موزمبيق (٥ مليون مسلم) - مدغشقر (٢,٩ مليون مسلم) - ملاوي (١,٧٥ مليون مسلم) - بوروندي (مليون مسلم) - رواندا (٠,٣٨ مليون مسلم) - زائير(٢ مليون مسلم في الأقاليم المجاورة لتنزانيا والبحيرات) [١] . أى أن دول شرق إفريقية هى دول إسلامية ، تضم حوالي خمسين مليون مسلم .

مع العلم أن تلك الدول أو المناطق في شرق إفريقية لم تجرد إليها الخلافة الإسلامية فى أي عصر من عصورها حملة بحرية أو برية بل كان نشر الإسلام فيها والدعوة إليه مرتبطة بالتجار في المقام الأول ، وعن طريق هؤلاء التجار عرفت منطقة شرقي إفريقية الإسلام والحضارة والتقدم .

وبالنسبة لسواحل المحيط الهندي الآسيوية (غير الهندية) توجد الأعداد التالية : - - باكستان (١٠٧ مليون مسلم) - الهند (١١٥ مليون مسلم) - بنجلاديش (٩٧ مليون مسلم) - جزر ملديف (٠,٢ مليون مسلم) - أندونسيا (١٦٧ مليون مسلم) - ماليزيا (٨,٦ مليون مسلم) - برونى (٠,٢٠٥ مليون مسلم) - سيرلانكا (٢ مليون مسلم) - تايلاند (٧,٥ مليون مسلم) - بورما (٣ مليون مسلم) - الفلبين (٦ مليون مسلم) - سنغافورة (٠,٤٤٠ مليون مسلم) - فيتنام (١,٧٥ مليون مسلم) - الصين (١٢٠ مليون مسلم) [٢] مع الأخذ في الاعتبار دور الحملات في الهند والسند .

وبذلك يبلغ عدد مسلمى آسيا المطلة على المحيط الهندي ، والتى وصلت مبادىء الإسلام مع السفينة العربية حوالي ٦٣٠ مليون مسلم ، وإذا أضفنا إليهم مسلمى شرقي إفريقيا فيبلغ العدد ٦٨٠ مليون مسلم . كان الفضل في تحويل مناطقهم إلى الإسلام يرجع في المقام الأول للتاجر العربي وسفينته . أى ما يزيد عن نصف مسلمى العالم حالياً ، وبالتحديد حوالى ٥٦,٦ ٪ من عدد المسلمين العام .

---

(١) وصلت التأثيرات الإسلامية إلى أوغندا ورواندا أو بوروندي وزائير عن طرق أهمها طريق ساحل شرقي إفريقية حيث جماعات التجار .

(٢) يونس ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

رغم أن سواحل هذا المحيط يعد من أشد مناطق العالم تعقيداً من النواحي العقائدية ، حيث تعيش على سواحله حتى الآن كل عقائد الإنسان قديمها وحديثها ، وأصحاب الديانات السماوية الثلاث . فعلى السواحل الإفريقية توجد حتى الآن اتباع للعقائد الوثنية البدائية ، وعلى السواحل الهندية توجد أعداد كبيرة من أتباع الهندوسية والبوذية ، وما استجد منهما من أفكار جديدة . بالإضافة إلى جيوب من البوذية في دول جنوب شرقي آسيا . كما توجد أعداد من أتباع المسيحية واليهودية [1] أيضا . الأمر الذي يشير إلى قوة الدور الذي قام به التاجر وسط هذا التلاطم من العقائد والملك .

استمرت أهمية التاجر العربي في العصر الإسلامي أيضا ، حيث اعتمدت شعوب العالم الإسلامي على تجار الخليج العربي في حمل سلع ومنتجات المحيط الهندي ، خاصة في فترة ازدهار الدول الإسلامية في العصر العباسي ، واعتمد التاجر الخليجي والعربي على خبرته السابقة في الوصول إلى تلك المناطق ليحمل منها ما تحتاجه مدنيات العالم في العصر الوسيط ، والتي لا غنى للعالم عنها . حتى وصف ابن الفقيه المحيط الهندي بقوله إنه قاموس السلع [2] فقام التاجر العربي بحمل سلع سواحله وجزره ، ولكنه في نفس الوقت كان يحمل أمانة سماوية راقية إلى سكان تلك السواحل وهى الإسلام .

استفاد العرب من التجربة التاريخية الطويلة للأمم والشعوب التى حاولت الوصول إلى تجارة المحيط الهندي وشرقي إفريقية ، فمن محاولات وعلاقات الفراعنة مع منطقة القرن الإفريقي وشرقي إفريقية منذ الألف الرابع قبل الميلاد [3] إلى النشاط الفينيقي في المنطقة ، قبل هجرتهم إلى سواحل البحر المتوسط [4] ، إلى محاولات اليونان ، زمن الإسكندر المقدوني ، وبعده لربط تجارة تجارة المحيط الهندي والقرن الإفريقي بتجارة البحر

---

(١) خاصة في منطقة ساحل مليبار قديماً ، بسبب أهمية المنطقة في تجارة التوابل والبخور والفلفل وموقعها على طرق التجارة

- انظر المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٤٥ ، المكتب الثقافى الهندي .

(٢) ابن الفقيه الهمذاني (القرن الثالث هـ/ العاشر) مختصر كتاب البلدان ، ص ١٥ ، بيروت سنة ١٩٨٨ .

(٣) فخري ، أحمد ، دراسات في تاريخ الشرق الأدني القديم ، ص ١٥٧.

(٤) وهى الهجرة التى حدثت في الألف الثاني قبل الميلاد .

المتوسط ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على تجارة العالم القديم [1] . ومحاولات الرومان في القرن الأول قبل الميلاد ، وأخيراً محاولات الساسانيين الفرس احتكار تجارة العالم القديم البرية والبحرية .

انصهرت كل تلك المحاولات في التجربة البحرية العربية ، حيث تمكن العرب من تحقيق سيادة ملاحية على سواحل المحيط الهندي ، حتى أصبحت تلك السواحل عربية ، قبل ظهور الإسلام ، وقد أعطى ذلك أرضية صالحة خصبة لنجاح الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام وثقافته على تلك السواحل لقد عرف العرب حركة التيارات البحرية ومواعيد هبوب الرياح الموسمية وإمكانيات كل منطقة من مناطق المحيط الهندي وجزره ، فنظموا لذلك رحلاتهم وفق أساليب علمية ، وصنعوا أدواتهم وسفنهم حسب تلك التجربة والأساليب ، فظهرت لديهم السفن المقلفطة التى لا يدخل في تركيبها مسمار واحد ، حتى تتناسب مع ظروف الإبحار الطويل وطبيعة المحيط الهندي [2].

واعتمدت مدنيات وحضارات العالم القديم على العرب في جلب سلعهم واحتياجاتهم من منطقة المحيط الهندي . فاعتمد السومريون والبابليون والآشوريون على رب الخلية العربي في هذا الصدد . كما اعتمد عليهم اليونان حتى زمن الإسكندر ، واعتمد الفرس كذلك ، رغم سيطرتهم على السواحل العربية الخليجية ، حيث أصبح العرب هم العنصر الفعال في المحيط الهندي .

وبدأ العرب في دمج سواحل المحيط الهندي : الإفريقية والهندية والفارسية في منظومة حضارية متقاربة ، وظهرت على طول تلك السواحل صور من التآلف الحضارى فلمس ذلك في ظهور التأثيرات العربية من الناحية اللغوية على كوجيرات والسند في ظهور اللغة الأوروبية ، وكذلك في ظهور تأثيرات عربية على السواحل الإفريقية وظهور اللغة السواحيلية . وكان هذا التقارب بين العرب وغيرهم من سكان سواحل المحيط الهندي ضرورة طبيعة لكل جانب فالعرب على سواحلهم لم يجدوا سوى البحر كمورد هام لهم ، بعد أن أدركوا قسوة الصحراء وفقرها . كما كان الهنود على سواحل الهند معزولون

---

(١) حاول الإسكندر ربط تجارة المحيط الهندي وإفريقية بتجارة البحر المتوسط عبر الخلية العربي والبحر الأحمر ولكن محاولاته فشلت .

(٢) سيتم تفصيل ذلك فيما بعد .

عن داخل بلادهم بسلاسل جبال الغات [١] ، وكذلك كان سكان سواحل إفريقية الشرقية يجدون صعوبة في الإتصال بداخل قارتهم . من هنا التقت كل الأجناس التى سكنت على ساحل المحيط الهندي في وحدة حضارية تحت زعامة العرب .

وتزعم العرب هذا الإندماج بفضل نشاطهم التجاري وحركتهم المستمرة على طول سواحل المحيط خاصة الإفريقية فانتشرت الجاليات العربية على ساحل القرن الإفريقي خاصة من سكان اليمن ومنطقة ظفار من جنوب عمان . وعلى طول سواحل الصومال وشرقي إفريقية وجزرها . وكذلك على ساحل مكران والدليل وكوجيرات ومليبار والدليل على تزعم العرب وريادتهم لشعوب وحضارات سواحل المحيط الهندي الإفريقية والهندية ما يلي : -

(١) انتشار الجاليات العربية على طول تلك السواحل ، وانتشار اللغة العربية ومفرادتها بين مناطق كثيرة من سواحل المحيط الهندي قبل الإسلام [٢] خاصة سواحل الحبشة والصومال [٣] .

(٢) اختلاف الباحثين والأثريين حتى الآن حول موقع "بونت" وانقسامهم إلى نظريتين الأولى عربية ، والثانية افريقية . وظهور نظرية ثالثة تحاول التوفيق بين النظريتين السابقتين تقول بوجود عناصر عربية على ساحل الصومال تمكنت من السيطرة على تجارة اللبان والبخور والصمغ منذ الألف الرابع قبل الميلاد . وأن العرب هم الذين احتكروا تجارة تلك السلع في المحيط الهندي بغض النظر عن مصدر تلك السلع أو أماكن انتاجها في أي موقع من مواقع المحيط الهندي [٤].

(٣) الاختلاف حول تحديد موقع "أوفير" الذي اشتهر بتصدير الذهب وتردد ذكره في التوراه وإنقسام الآراء إلى ثلاثة نظريات : الأولى : إفريقية ، والثانية :

---

(١) حميدة ، جغرافية آسيا الموسمية ، ص ٤٣٢ ومابعدها .

(٢) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٣، ص ٤٥٠ ومابعدها.

(٣) آل حفيظ ، على بن محسن ، من لهجات مهرة ، ص ٦٤.

(٤) فخري ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

عربية ، والثالثة هندية . وتحاول كل نظرية من الثلاث تأكيد الموقع في المكان التى تشير إليه ، ولكنها تتفق جميعها على أن موقع أوفير يقع على سواحل المحيط الهندي .[1]

وهكذا تمكن العرب من تحويل سواحل المحيط الهندي إلى وحدة حضارية متقاربة بغض النظر عن أصولها العرقية أو إنتماءاتها السياسية أو أوضاعها الحضارية ، وأصبح النفوذ العربي واضحاً على تلك السواحل والجزر الإفريقية كانت أو الهندية ، حتى أصبح هذا المحيط أشبه ببحيرة عربية . وقد سهل هذا الأمر عمليات انتشار الإسلام وثقافته فيما بعد ، على أساس أن العرب الذين تحملوا تبعات ومهام نشره في البداية .

وكان العمانيون بحق أنشط العناصر العربية منذ البداية في أداء ونجاح الدور العربي قبل الإسلام وبعده ، وكان لأهل عمان الدور الهام في ترسيخ الثقافة العربية ونشر الإسلام في منطقة شرقي إفريقية .

---

(١) هوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ١٢٧ ومابعدها .

(٢)

خصوصية الدور العماني مع شرقي إفريقية

كانت عمان الدولة الوحيدة التى توجت الجهود العربية السابقة في المحيط الهندي في التاريخ الحديث حينما تمكنت من تكوين إمبراطورية بحرية شملت سواحل المحيط الهندي الإفريقية والعمانية واحتفظت بنفوذ لها على سواحل مليبار ومانجلور وبانجلور وبمباى وديو وجوادر ومكران، وعلى مناطق أخرى على الساحل الإيراني والبحرين .

وأعادت تلك الإمبراطورية إلى أذهان الباحثين حديثاً ، مدى أهمية الدور الذى قام به العرب عامة، وأهل عمان خاصة ، في تحويل منطقة الساحل الشرقي الإفريقي إلى منطقة حضارية تابعة للنفوذ والإسلامي منذ بداية ظهور الدعوة الإسلامية ، بعد أن ظلت تلك السواحل الإفريقية مرتبطة بالسواحل العمانية منذ عصور ما قبل الإسلام ، ولذلك فقد انساب الإسلام في سهولة ويسر مع حركة السفن والتجار العرب والعمانيين في شرقي إفريقية ، وظلت عمليات الانتشار مستمرة حتى وصلت أساطيل الدول الأوروبية إلى شرقي إفريقية حديثاً .

لكن .. ماهى عناصر القوة في هذا الدور العماني ؟ أو ما المقومات التى أعطت للدور العماني تميزه وإستمراريته على السواحل الشرقية لإفريقية .

يمكننا تقسيم تلك المقومات إلى مايلي : -

أولا : المقومات الطبيعية .

(١) شكل الساحل وطبيعة امتداده : -

فمن النظرة الأولى على خارطة العالم والمحيط الهندي ، نجد أن عمان تشكل شريطاً ساحليا طولياً يمتد من الخليج العربي شمالاً وحتى منطقة حضرموت جنوباً ، لمسافة تزيد عن ١٧٠٠ كم (حالياً) . ورغم أن مساحتها حوالي ١/٣ مليون كم٢ ، أى أنها من الدول

متوسطة المساحة [1] فإنها تمتلك سيادة طويلة على جزء كبير من سطح المحيط الهندي ، حيث النطاق المائي لعمان حوالى ٥٦٢,٠٠٠ كم٢ ، أى نطاقها المائي يبلغ ضعف مساحتها البرية ، وهو أمر يميزها في هذا النطاق عن كل أقطار الشرق الأدنى والوطن العربي بل وعلى المستوى الدولي [2]

وتأتى أهمية الدولة في إستغلال نطاقها المائي ، بما يتوافر لدى شعبها من قدرات وإمكانيات ، وقد تمكن أهل عمان من استغلال تلك المميزات الطبيعية فبرعوا في حرفة صيد الأسماك [3] والغوص عن اللؤلؤ [4] وأصبحوا من أشهر تجار اللؤلؤ خاصة في العصر العباسي ، حيث نتشرت مغاصات اللؤلؤ على ساحل تؤام وصور ومسقط ، ومن أشهرها الدرة التومية المنسوبة إلى تؤام بعمان [5] . كما اشتهرت من لآلىء عمان الدرة التيمية التى استخرجت من عمان في أوائل العصر العباسي ، واشتراها هارون الرشيد بسبعين ألف درهم . كما اشتهرت لآلىء عمان في مكة ودمشق وسمرقند .

كما برع العمانيون في ركوب البحر وتفننوا في السيطرة عليه منذ القدم . وأصبحوا أصحاب خبرة في هذا المجال . فا لسواحل طويلة ومنفتحة مباشرة على مياه المحيط الهندي مما أعطى الحرية لكل منطقة من مناطق عمان أن تطور قدراتها البحرية حسب إمكانياتها وظروف ظهيرها القاري .

حتى اعتقد البعض أن دور الريادة البحرية العمانية جاء مع قدوم أزد عمان بقيادة مالك بن فهم ، حينما بدأت سلسلة انهيارات سد مأرب ، إلى عمان عبر الطرق البرية حيث أن قدوم الأزد إلى عمان عمق من توجيه أنظار العمانيين صوب شرقي إفريقية بسبب

---

(١) وهى الدول التى تنحصر مساحتها فيما بين ٢٥٠ ألف كم٢ وحتى ٦٥٠ ألف كم٢ . والأقل من تلك المساحة تعد دول صغيرة المساحة ، بينما تعد الدول التى تمتلك ما يزيد عن ٦٥٠ ألف كم٢ كبيرة المساحة .

(٢) راجع محاضرة الأستاذ الدكتور / صبحي عبدالحكيم ، نادي الصحافة ، الموسم الثقافي سنة ١٩٩٣م ، وزارة الإعلام العمانية ، عن" عبقرية المكان لعمان - شخصية عمان "

(٣) وارتبط العمانيون بتصديره مجففاً عبر العصور الإسلامية والحديثة .

(٤) المسعودي ، روج الذهب ، جـ١ ، ص ١٤٨ . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٥٢ .

(٥) شيخ الربوة ، ص ٢١٨ ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٤٠ (جزيرة العرب) .

الخبرة الكبيرة التى حملها الأزد من مواطنهم الأصلية من اليمن إلى عمان ، حيث كانت تربطهم علاقات وثيقة مع شرقي إفريقية ، ويرد هذا أصحاب هذا الرأي أن قوة العلاقات العمانية الإفريقية قبل عصور الإسلام وحتى العصور الحديثة مروراً بالعصور الإسلامية ماهى إلا استكمال لحلقات الدور اليمني القديم مع منطقة القرن الإفريقي وشرقي إفريقية منذ سيادة أهل أوسان على شرقي إفريقية وسميت المياه الافريقية من المحيط الهندي بالبحر الأوساني " في إحدى فترات التاريخ القديم " [1]

وإن كنا نرى أن هذا الارتباط بين الدورين اليمني والعماني في شرقي إفريقية لا يصل إلى هذا الأمر ، وأن هناك عوامل أخرى فرضت قوة في الدور العماني في شرقي إفريقية ، وأن هجرة مالك بن فهم وجموعه من الأفراد إلى عمان وما تلاها من هجرات من وسط شبه الجزيرة العربية من النزارية ، أو ماسبقتها من هجرات قحطانية [2] إنما تعود لظروف خاصة باليمن ، وحينما وصلت تلك الهجرات إلى عمان وتمكنت الهجرة الثانية من تعريبها بدأ العرب يستغلون قدرات عمان وإمكانيات شكلها وطبيعتها حسب ظروفهم الإقليمية وخبرة الجماعات التى سبقتهم ولكنهم صبغوا ذلك بصفة عربية جديدة .

ويبدو أن أهل عمان قد تمكنوا ، بعد بسط نفوذهم على سواحل الخليج العربي ، أن يمدوا نفوذهم إلى ميناء عدن عبر سواحل حضرموت ، بحيث ظهرت نتائج لهذا الارتباط

---

(١) انظر : - شكري محمد سعيد ، العلاقات بين اليمن وعمان في العصرين القديم والوسيط ، ص ٢، ٣ ، ٤ . ندوة عمان في التاريخ . سنة ١٩٩٤ .

- شهاب ، حسن صالح ، أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٥٨ ، بيروت ، ط. الثانية .

(٢) تنقسم موجات الهجرات العربية إلى عمان قبل الإسلام إلى ثلاث موجات هي :

- الأولي : من العرب القحطانية ، بزعامة يعرب بن قحطان . وفرضت سيادتها على جنوب عمان

- الثانية : من الأزد بقيادة مالك بن فهم الذى قاد جموعه نحو الشمال وأحرز انتصارا" عسكريا" على الفرس في سلوت تمكن بعده من تعريب عمان لأول مرة في تاريخها ووسع نفوذ العرب في منطقة الخليج العربي .

- الثالثة : موجات من النزارية قدمت من شرق ووسط الجزيرة العربية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين واستقروا خاصة في الظاهرة والباطنة من عمان .

انظر - العوتبي ، الأنساب ، جـ٢ ، ص ١٨١ ، طبعة وزارة التراث القومي والثقافة .

- السالمى ، تحفة الأعيان ، جـ١ ، ص ١٢ . طبعة وزارة التراث القومي والثقافة .

في بداية العصر الإسلامي حينما ارتبط أهل عمان اليمن بالفكر الأباضي ، بل أن هناك من يشير إلى أن أهل عمان ساهموا في إمامة حضرموت واليمن سنة ١٢٩هـ ، وعادوا إلى أوطانهم في عمان بعد نجاحها ، وأن انتشار هذا الفكر بين أهل حضرموت واليمن كان دلالة هامة على ارتباط أهل عمان وحضرموت واليمن ضمن النشاط التجاري البحري الذي قام به أهل عمان في منطقة المحيط الهندي . ولذلك ارتبط أهل عمان مع جيرانهم من ساحل شبه الجزيرة العربية في رباط عقائدى جديد وهو فكر أهل الدعوة الذي كلل بالنجاح أولا في حضرموت سنة ١٢٩هـ ، ثم في عمان ١٣٢هـ [١] .

وبذلك ساعد شكل الساحل العماني وامتداد ، على سيادة عمان على منطقة بحر العرب وسواحل شرقي افريقية منذ عصور ما قبل ، واستمر هذا الأمر في العصور الإسلامية والعصور الحديثة .

(٢) تضاريس عمان وجغرافيتها :

دفعت طبيعة التضاريس العمانية [٢] أهلها منذ البداية إلى التوجه البحري . فطول السواحل العمانية ، واحتوائها على عدد كبير من الموانىء الصالحة للملاحة أو الصالحة لبناء السفن ، خاصة في صحار ومسقط وصور ، أعطت لتلك الموانىء وأهلها دور الوساطة في المناطق التى تقع على جانبيها . كما جعلت من تلك الموانىء محميات آمنة للطريق البحري الطويل بين سواحل شرقي افريقية وسواحل المحيط الهندي والخليج العربي.

---

(١) مقابلة مع الشيخ / سالم بن حمد الحارثي ، بالقابل .
- شكري ، المرجع السابق ، ص ٣ ، ٤ .

(٢) تنقسم التضاريس العمانية إلى ثلاثة أقاسم هي : -
- السواحل وهى التى تنحصر بين مناطق الجبال وبين مياه البحر . وهى تنقسم إلى سواحل شمالية وسواحل جنوبية . لكل ظروفه وطبيعية .
- الجبال : وهى سلاسل جبال حجر عمان التى تعد امتدادا لسلاسل جبال زاجروس في إيران ولكنها انفصلت عنها بهبوط مضيق هرمز . وسلاسل جبال القرا في الجنوب وهى امتداد لجبال البحر الأحمر .
- الصحاري : وهى التى تقع إلى الخلف من السلاسل الجبلية وتقطعها عدد من الأودية .
انظر شولتز ، فريد ، إطلس سلطنة عمان ، جـ٢ ،، ص ٦ ومابعدها .

كما أصبح لكل ميناء من تلك الموانىء ظهيره القاري ، أى المنطقة التى تعتبر بمثابة المجال الحيوي لسكان الميناء والمنطقة حيث يتم فيها تصريف جزء من الواردات ، وتجهيز ما يلزم التجار وعمال الشحن من المواد الغذائية وغيرها مثل الماء وكانت الباطنة هى الظهر القاري لميناء صحار بالإضافة إلى منطقة الظاهرة عبر أودية أهمها وادي الجزي . كما كانت المنطقة الشرقية هى الظهير القاري والحيوي لميناء صور . وأصبحت المنطقة الداخلية هى الظهير القاري لميناء مسقط ، فيما بعد ، وكذلك منطقة ظهير اقاريا لميناء مرباط أو ميناء سمهرام ، قبل ذلك . وتكاملت بذلك منظومة الموانىء العمانية حسب مختلف مناطق عمان .

ولذلك فقد ساهمت عمان في حركة التصدير والإستيراد داخل نطاق المحيط الهندي وموانىء إفريقية من خلال تصديرها للعديد من المحاصيل ، فصدرت إلى شرقى إفريقية محاصيل هامة مثل التمور المتنوعة [1] ، وكذلك الرمان والتين والعنب والنبق والسفرجل وقصب السكر ، ونباتات طبية مثل اللبان [2] . كما صدرت عمان إلى إفريقية منتجات تلك الأقاليم التى تقع خلف الموانىء في عمان مثل المنسوجات العمانية الشهيرة . وكانت صحار أهم مراكز صناعة النسيج في عمان [3] ، كما صدرت من نزوى أقمشة حريرية جيدة [4] . كما تخصصت المناطق المحيطة بالموانىء في زراعة معظم أنواع الفاكهة والحبوب اللآزمة لأى نمو سكاني أو عمراني لتلك المناطق ، مما جعلها تكتفي ذاتيا باحتياجات سكانها .

---

(١) ذكر المقدسي أنواع عديدة من تمور عمان مثل :
الفرض ، الخبوت ، التبي ، البلعق ، ومعين عمان .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٩٨ .

(٢) انظر - الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٤١ .
- الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص ٢٥ .

(٣) ترك الرسول صلي الله عليه وسلم ، بعد وفاته إزارا عمانيا ، كما كفن صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب ثوبين صحاريين وكفن سعد بن معاذ بثلاثة أثواب صحارية .
انظر : - السيرة النبوية ، جـ٤ ، ص ٢١٣ .
- الواقدي ، المغازي ، جـ ٢ ، ص ٥٢٧ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ . ص ٧٧٦ .

وهكذا وهبت الجغرافية تضاريسا متكاملة لعمان ، ترتب عليها انسجاما في أداء الدور العماني واستمراريته في وظيفته وكان مبعث ذلك الأختلاف بين تضاريس عمان مما أدى إلى تناسق بين مخرجاتها ، كما أعطى للسفينة العمانية دورا راسخا وقويا بين موانىء المحيط الهندي وشرقي إفريقية .

(٣) الموقع الجغرافي :

تقع عمان في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية ، وعلى البوابة الرئيسية للخليج العربي ، كما أنها تعد أقصى امتداد لليابس العربي داخل مياه المحيط الهندي مما أعطى لها امتيازات هامة في الملاحة البحرية [١] ، حيث أصبحت أهم نقطة على سواحل المحيط في مجال التبادل . التجاري والتأثير الحضاري . وتفوقت على مواقع تجارية أخرى تميزت بالقرب من السواحل الإفريقية مثل سواحل حضرموت واليمن .

ويتضح ذلك أيضا في الفرق بين النشاط البحري في الخليج العربي والبحر الأحمر ، وهما الزرعان البحريان المتفرعان شمالا من المحيط الهندي . ورغم قرب البحر الأحمر من حوض البحر المتوسط عبر الأراضي المصرية . إلا أن الخليج العربي ، باعتباره الذراع الأيمن من المحيط صوب الشرق الأدني قد فاق أهمية البحر الأحمر بفضل نشاط أهل عمان وأهل الخليج في هذا المضمار ، ولم يتمكن اليمنيون أو المصريون وغيرهم في منافسة الدور العماني في مياه المحيط الهندي وشرق إفريقية [٢] . بل أن بقية منطقة الخليج العربي ارتبطت بشرقي إفريقية فيما بعد وأصبحت مركزا لهجرات مستمرة صوب شرقي إفريقية معتمدة على الرصيد العماني في التعامل مع تلك المناطق .

وأصبحت صحار وصور ومرباط من موانىء عمان مخزنا للسلع الإفريقية التى حملتها سفن أهل عمان بصورة مستمرة إلى منطقة الخليج ، وظلت جماعات التجار تفد إلى موانىء عمان لحمل السلع الإفريقية وغيرها [٣] . وكانت قوافل أهل عمان تسير

---

(١) أبو العلا ، محمد ، دكتور ، موقع عمان الجغرافي ، ص ٢١ ، ومابعدها ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ م . (٢) أبوالعلا ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٣) انظر - المسري ، حسين ، العلاقات بين العراق ومنطقة الخليج العربي . ص ١٧٥.

- العاني ، عمان في العصور الإسلامية الأولى ، ص ١٣٤ ومابعدها .

بصورة مستمرة إلى شرقي إفريقية في شكل قوافل ، يتضح ذلك في حديث أحد النواخذه من أنه قال : «دخلت بلاد الزنج سنة ٣٣٢ هـ فقال لي بعض أهلها كم أنتم مركبا قلت ستة عشر مركبا فقال يسلم منها إلى عمان خمسة عشر مركبا وينكسر واحد» [١] .

وقد تمكنت السفن العمانية من الانتشار على سواحل شرقي إفريقية وحملت إمكانيات وصادرات كل جزء منه وخاصة النحاس والحديد والذهب وحملتها إلى موانئها في عمان ثم إلى الهند [٢] لتكمل الدور الحضاري في المنطقة . ولولا هذا الدور العماني لتغيرت ظروف شبه القارة الهندية والشرق الأدنى القديم .

ومن ناحية أخرى فإن موقع عمان بين دائرتى عرض ١٦,٤٠ درجة ، إلى ٢٦,٢٠ درجة شمال خط الاستواء [٣] أعطى لها ميزة هامة في أن تكون حلقة وصل بين محاصيل وموارد المناطق المدارية والإستوائية في الجنوب وبين موارد وسلع المناطق الساخنة والباردة في الشمال ، فاعتمدت مناطق الشرق الأدنى على أهل عمان في استيراد ما يلزمها من منتجات الساحل لإفريقي الشرقي التى كانت في حاجة إليها مثل العاج والذهب والنحاس والحديد والأخشاب وغير ذلك . كما حملت السفن العمانية صناعات منطقة الشرق الأنى إلى ساحل إفريقية الشرقي .

كما أدى موقع عمان بين مناطق حضارية متباينة في المستوى الحضاري إلى أهمية هذا الدور في الاتصال الحضاري بين تلك المناطق . فقد تمكنت منطقة العراق من احراز تقدم حضاري وإزدهار اقتصادي في التاريخ القديم زمن السومريين والبابليين والآشوريين [٤] وكذلك أصبحت مركزا للخلافة الإسلامية طيلة العصر العباسى ، وكانت

---

(١) بزرك ، عجائب الهند ، ص ١١٤ .

(٢) شيخ الربوة ، ص ٥٤ .

- حصاد ندوة الدراسات العمانية ، المجلد السابع ، ص ٨١ ومابعدها .

(٣) بالنسبة لخطوط الطول تقع عمان بين خط طول ٥٠ ,١٥ درجة إلى ٤٠ ,٥٩ درجة شرقا .

- انظر : مسقط الحضارة والحاضر ، ص ٩

(٤) البدر ، الخليج العربي خلال الألفين الثالث والثاني ق . م ، ص ٥٧ ومابعدها .وقد ربطت حضارات أهل العراق تلك السلع بأهل عمان فسموها أسماء مختلفة حسب نوع كل سلعة ، كما حاول بعض ملوك البابليين السيطرة على سواحل عمان نظرا لأهميتها التجارية .

تلك المنطقة تعتمد على أساس أهل عمان بصورة كبيرة في استيراد ما يلزمها من عالم المحيط الهندي وافريقية [1] ولذلك أصبحت البصرة ، وهى ميناء العراق الهام على الخليج ، عمانية برجالها وعلمائها وتجارها .

وكان أهل إفريقية من جهة ثانية في وضع حضاري لا يمكنهم من معرفة مناطق العالم الأخرى التى تحتاج إلى سلعهم المكدسة حولهم ، والتى لايدركون أهميتها ، حتى وصلت السفن العمانية لتحمل سلعهم بأرباح عالية يستفيد منها التاجر ومالك السلعة . بحيث أصبح الأفارقة يتجمعون في المناطق التى ينزل بها تجار عمان ، وصارت تلك الأماكن أهم المراكز التجارية على ساحل شرقي إفريقية ، وكانت تلك المراكز بمثابة منافذ للتجارة الإفريقية مع العالم الخارجي ، وشارك الأفارقة التجار العمانيين في تلك العملية فيما بعد .

كما تمكنت السفن العمانية من ربط سواحل الهند مع سواحل شرقي إفريقية ، وشارك الهنود العمانيين في بعض العمليات التجارية التى كانت تتم في شرقي إفريقية في العصر الإسلامي زاد دورهم في العصر الحديث في شرقي إفريقية .

ساعد موقع عمان أيضا على استمرارية الدور العماني مع شرقي إفريقية ، خاصة في العصور الإسلامية . فمنذ العصر الأموى أصبحت منطقة الخليج العربي تشهد حركات تمرد وثورة ضد الأمويين مثل ثورات الأزارقة في الأهواز وتهديدهم للبصرة في العقدين الثامن والتاسع من القرن الأول الهجري ، وكذلك ثورة نجدة بن عامر الحنفي في اليمامة وامتداد نفوذه إلى ساحل الخليج العربي ، وظهور ثورات روكات في البحرين مثل حركة أبي طالوت ، حركة مسعود بن أبي زبيدة [2] الأمر الذي هدد الملاحة وحركة التجارة في شمال الخليج العربي لفترة طويلة وأصبحت القوافل التجارية غير آمنة على حركتها ومرورها .

وأدى بعد عمان عن مراكز تلك الفتن إلى أنها أصبحت مركزا لتوقف السفن القادمة

---

(١) - المسبري ، المرجع السابق ، ص ١٧١ ومابعدها

- العاني ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٢) قدري قلعجي ، الخليج العربي ، ١٧٥ ومابعدها .

من إفريقية لتفرغ حمولتها وتعود إلى استئناف رحلة أخرى مع إفريقية ، بدلا من الدخول إلى مناطق القلق والإضطراب في شمال الخليج العربي . وبدأ سكان البصرة والبحرين في التردد على موانىء عمان لحمل مايحتاجونه من سلع إفريقية وغيرها .

وفي العصر العباسي اضطربت منطقة الخليج العربي اضطرابا شديدا زمن ثورة الزنج التى وقعت في البصرة وجنوب العراق في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، بعد أن مدوا سيطرتهم على سواحل البحرين واتخذوا لأنفسهم عاصمة في جنوب العراق هى المختارة فتدهورت الأحوال الأمنية لمدة أربعة عشر عاما وهجر الأهالى مدنهم . كما تعرضت منطقة شمال الخليج إلى اضطرابات أخرى بسبب غزو القرامطة للمنطقة ، ورغم امتداد نفوذهم إلى عمان فترة من الزمن إلا أن انفتاح السواحل العمانية على المحيط الهندي جعلعملية تدفق السلع الإفريقية يتم بصورة عادية وسلسلة ، وإن كان يتم تجميع تلك السلع في موانىء عمان خاصة صحار التى بلغت أقصى ازدهارها في القرن الرابع الهجرى وأصبحت أهم موانىء ومدن العالم الإسلامي كما ذكر الرحالة والجغرافيون الذين زاروها في تلك الفترة . وأصبحت مركزا لتجارة الدنيا [1].

وأصبحت عمان أهم مخازن تجارة إفريقية في العصر العباسي ، ولم تنافسها محطة تجارية أخرى إلا هرمز الذي عمل أميرها على فرض سيادته على موانىء عمان لاحتكار موارد التجارة إلى جزيرته . فهدد ميناء صحار وصور وقلهات وقريات . ورغم ذلك استمرت العلاقات العمانية الإفريقية بصورة جيدة ، حتى ظهرت دولتى اليعاربة ثم البوسعيد في عمان.

ثانيا : المقومات التاريخية والسياسية :

كون العمانيون بسبب ظروفهم الجغرافية شخصية مستقلة رفضت الخضوع والتبعية لأية قوة من القوى السياسية التى ظهرت في منطقة الشرق الأدنى في التاريخ القديم . فقد رفضوا الخضوع للهيمنة الفارسية ، رغم احتلال الفرس لبلادهم ، إلا أن هذا الاحتلال

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٨ - المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٣ .
- المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٠٨، ١٤٩ .

اقتصر على الساحل بينما ظل العمانيون يتمتعون بحريتهم في داخل بلادهم [1] . وفى تلك الفترة من السيطرة الفارسية جعل أهل عمان من دبا مركزا لنشاطهم البحري ، حتى يتفادوا الحصار والإحتكار الفارسي للتجارة العالمية .

وكان ظهور الإسلام ومسارعة أهل عمان من خلال قبول جيفر وعبد لرسالة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حتى حملها عمرو بن العاصى وأبو زيد الأنصارى [2] نصرا جديدا لإعادة الدور العماني من جديد إلى سيادته على عمان وعلى الملاحة في الخليج العربي وشرقي إفريقية ، إذ تم طرد الفرس من عمان ، الذين رفضوا الدعوة ، في البداية،

ظهرت المساهمة العمانية في عمليات الفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام بصورة جلية في مساهمة القبائل العمانية في فتوحات فارس والعراق والشام ومصر وشمال إفريقية ، وجزر البحر المتوسط . ونستدل على هذا الدور من مكانة المهلب بن أبي صفرة التى وصل إليها في العصر الأموى من خلال إنجازات أزد عمان في العمليات العسكرية.

وفي مجال الملاحة البحرية ساهمت السفن العمانية وملاحيها في استمرارية نقل سلع المحيط الهندي من الهند وشرقي إفريقية إلى العراق وغيره من مراكز المنطقة ، بحيث لم يهتم أحدا من الخلفاء الراشدين بتوجيه حملات عسكرية إلى شرق إفريقية ، باستثناء حملة عمر بن الخطاب إلى الحبشة . حيث لم يحدث انقطاع في عمليات نقل منتجات إفريقية إلى العالم الإسلامي .

وظلت عمان تقوم بدورها الكبير في تأمين الجبهة الإسلامية من الجنوب ، حيث ساهم أهل عمان في ملاحظة فلول الفرس التى تجمعت عند اصطخر بعد معركة جلولاء [3] ، واشتركوا مع عثمان بن أبي العاصى في انزال الهزيمة بالفرس . كما أصبحوا القوة الأساسية فى الحملات البحرية التى شنها عثمان بن أبي العاصى على معاقل

---

(١) مونيك كافران ، مدينة صحار العمانية ، ص ٨٦ ومابعدها ، حصاد الندوة الدولية لطرق الحرير ، جامعة السلطان قابوس ، ١٩٩١م.

(٢) العوتبى الأنساب ، جـ٢ ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٢ .

(٣) العوتبى ، المصدر السابق ، جـ٢، ص. ٣٢٤ ومابعدها .

القراصنة في المحيط الهندي بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب . وبذلك كان للدور العماني أثره في فرص الهيبة والسيادة الإسلامية على مياه المحيط الهندي وسواحله . [1]

وفى العصر الأموى ، ورغم عوامل التوتر بين أهل عمان والخلافة الأموية ، فإن أهل عمان استمروا في جهودهم في نقل سلع إفريقية إلى العالم الإسلامي عبر الخليج العربي ، كما حملوا رسالة الإسلام إلى سواحل إفريقية الشرقية وجزرها معتمدين على رصيدهم الكبير في تلك النواحي فكانوا سفراء للدين الجديد .

وكان لعوائد التجارة أثرها الكبير في نجاح فكر أهل الدعوة الذي انتشر بين أهل عمان منذ زعامة جابر بن زيد للجماعة ، وكان تجار أهل عمان يبذلونالكثير لرجال الدعوة ويقومون لهم الأموال لمساندة فكرهم في كل مكان ، مثلما قدموا الرجال لهم . وأصبحت الدعوة الأباضية مرتبطة منذ البداية بأهل عمان وإمكانيات أهلها . ونظرا لأهمية عمان في منطقة الخليج والمشرق الإسلامي فإن الجميع سارع إلى إرسال حملات لضمها لسيطرة الأمويين ، وتمكنت تلك الحملات في النهاية من دخول عمان وضمها بقيادة مجاعة بن شعوة المزني . [2]

أدى التدخل والضغط الأموي على أهل عمان إلى خروج أمراء عمان إلى شرقي إفريقية باعتبار تلك المنطقة مجالهم الحيوي ، فخرج سعيد وسليمان ابنا عباد بن عبد بن الجلندي وأهليهما إلى ساحل إفريقية، وبدأت منذ تلك الفترة الصورة الرسمية للوجود العماني الإسلامي على شرقي إفريقية ، إذ نقل أنظمة إدارية معهما إلى شرقي إفريقية باعتبارهما حكام لعمان ، كما تم صبغ مناطق من شرقي إفريقية بالصبغة الإسلامية العامة لأول مرة في تاريخ منطقة شرقي إفريقية خاصة في منطقة أرخبيل لامو .

وبدأت مرحلة جديدة من انتشار الإسلام وترسيخ ثقافة بين زنوج إفريقية من خلال

---

(١) الحميدى ، سعيد ، دكتور ، عرب عمان في أحداث ثغر الهند في القرنين الأول والثاني الهجرين ، ندوة عمان في التاريخ ، مسقط ، سنة ١٩٩٤م .

(٢) عبدالحليم ،رجب ، دكتور ، العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام ، ص ١٩٩ ومابعدها ، مسقط سنة ١٩٨٩ م.

اختلاط العمانيين المهاجرين [1]، حيث كانت تلك بمثابة هجرة وليست عملية تجارة وتبادل . فوقع انصهار بين الطرفين ، كما أن هجرة سعيد وسليمان إلى شرقي إفريقية أدت إلى بداية عصر حضاري جديد لتلك المناطق البدائية . فملأوا الفراغ السياسي الذي كان يخيم على تلك الأرجاء وأخذوا بيد أهلها نحو آفاق حضارية جديدة ، فازدهرت تلك المناطق وأصبحت هدفا" لجماعات أخرى للهجرة إليها إذا اضطرها الأمر [2] .

ومع استمرارية السياسة العباسية مع العمانيين على نفس النمط الأموي السابق ، دون أن يبدى العباسيين تفهما لقضايا أهل عمان ، بدأت الهجرات العمانية في التدفق على شرقي إفريقية من داخل عمان ، خاصة بعد سقوط الإمامة الأباضية الأولى في عمان سنة ١٣٤ ، ثم ظهور صراعات في عمان ، بدعم من العباسيين ، وما أعقب ذلك من حملة محمد بن نور على عمان زمن الخليفة المعتضد ، وما أحدثه من دمار وخراب في عمان حتى لقبه أهل عمان بابن بور [3] فاستمرت الهجرات العمانية في التدفق على شرقي إفريقية وكونت لها مراكزها ورسخت من أنشطتها لتصبح هناك مستعمرات عربية عمانية .

ونتيجة للضغط العباسي على عمان وتعرض عمان خلال الفترات اللاحقة لغزوات القرامطة والبويهيين والمغول زادت الجماعات العمانية المهاجرة إلى شرقي إفريقية ، وزاد عدد سكان المستعمرات العمانية في شرق افريقية حتى أصبحت تلك المناطق امتدادا طبيعيا لمشكلات عمان ، في الوطن الأم ، فظهرت إمارات عمانية امتدت على ساحل إفريقية الشرقي . وأصبحت السفن العمانية تحمل كل موسم أعدادا" هائلة من أهل عمان

---

(١) النقيرة ، محمد ، دكتور ، انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ، ص ٨٥ ، الرياض ، سنة ١٩٨٢م .

(٢) هاجرت جماعات من عرب عمان من سامة بن لؤى إلى منطقة الهند أيضا وسموا باسم " العلافيين " وكان ذلك زمن حملات الحجاج أيضا ، وكانت لهم خطوة عن الملك داهر ملك الهند وبين الهنود . وتقابل هجرتهم فترة خروج سعيد وسليمان إلى شرقي إفريقية بعد هزيمتهم في النهاية .
- الحميدى ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) بعد انهزام النزارية في عمان في وقعة القاع خرج محمد بن القاسم وبشير بن المنذر إلى البحرين واستنجدوا بالوالى العباسى هناك وهو محمد بن نور ، فسمح له الخليفة المعتضد بالتوجه إلى عمان
- العوتبي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

إلى شرقي إفريقية ، فظهرت مناطق عديدة على الساحل بمظهر إسلامي في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام ، فظهر الفقهاء والعلماء من أهل عمان في تلك المراكز ، كما أسس العمانيون مؤسسات إسلامية لتعليم أبناءهم القرآن الكريم وأصول الدين الإسلامي[1]

ومنذ ذلك الوقت ارتبطت شرقي إفريقية حضاريا"ووجدانيا بسواحل عمان وأهلها[2] ، وأصبحت آلام أهل عمان يحس بها إخوانهم في شرقي إفريقية ، كما كانت منطقة شرقي إفريقية نصرا جديدا للدور العماني في نشر الإسلام ، وكسبا تجاريا في المجال الأقتصادي ومازالت التجربة العمانية في شرق إفريقية تعد تجربة طويلة ولا يمكن تجاهلها عند دراسة تاريخ شرقي إفريقية أو وسطها . وكذلك عند دراسة تاريخ سواحل المحيط الهندي وجزره .

---

(١) النفيرة ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) السيابي ، عمان عبر التاريخ ، جـ٢ ، ص ١٦ .

(٣)

مراحل الإنتشار العماني والإسلامي في شرقي إفريقية

بالرغم من النشاط الملاحي والتجاري الذي قام به تجار عمان وبحارتها في أرجاء المحيط الهندي وسواحله ، والذي أمتد حتى سواحل الصين ، وحتى سفالة الزنة ، إلا أن الوجود العماني تركز منذ البداية بصورة واضحة على سواحل شرقي إفريقية وساعده في ذلك عوامل هامة منها مايلي :

(١) الفراغ السياسي : فقد كانت منطقة شرق القارة الأفريقية تشهد فراغا" من القوى السياسية ، وأنحصرت في تكتلات قبلية شهدت صراعاة مريرة بينها . خاصة أثناء زحف جماعات البانتو من الداخل صوب الساحل [١].

(٢) أهمية السلع الإفريقية وندرتها : احتلت سلع إفريقية من الذهب والحديد والنحاس أهمية كبرى لدى مدينات العالم القديم والعالم الإسلامي ، كما أحتل العاج المتوفر في المنطقة بوفرة أهمية خاصة في العالم الإسلامي . وكانت تلك السلع تمثل الأساس لكثير من الصناعات في عالم العصور الوسطى [٢] . بالإضافة إلى الجلود والأخشاب والعنبر .

(٣) استقرار جاليات عمانية كبيرة هناك : من أجل خدمة عمليات التجارة والتبادل والتجميع استقرت منذ البداية جاليات عمانية على ساحل شرق إفريقية ، زادت تلك الجاليات عددا" وكثافة منذ العقد الثامن من القرن الأول الهجري ، بسبب حملات الحجاج المستمرة ضد أهل عمان وهجرة حكام عمان إلى شرق إفريقية .[٣]

---

(١) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٩ .

- المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٤٠ .

(٢) آشتور ، التاريخ الإقتصادي ، ص ٩١ ، ١١١ .

(١) كما بدأت عمان تتعرض من قبل لهجمات النجدات ، حينما أرسل نجدة بن عامر الحنفي قائده =

وبالرغم من وجود جاليات عربية وعمانية في مناطق شرق القارة منذ العصور القديمة ، إلا أن العصور الإسلامية شهدت هجرات هامة إلى شرقي إفريقية تمكنت تلك الهجرات من تكوين كيانات سياسية ، وأحدثت تغيرات اقتصادية واجتماعية في منطقة شرقي إفريقية ، وتمكنت من ربط شرق إفريقية بجسم العالم الإسلامي رغم المحيط الذي تعيش فيه .

وتحدد عمليات الانتشار العماني ، وغيره في شرق إفريقية عبر الهجرات والمراحل التالية :

أولا" : هجرة الأخوين سعيد وسليمان ابنا عباد بن عبد :

بعد أحداث الفتنة التى تعرض لها العالم الإسلامي وانتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، ومبايعة الإمام على بن أبي طالب سنة ٣٥ هـ ، تعرض العالم الإسلامي إلى أحداث عنيفة أودت بإمكانياته حينما التقت سيوف المسلمين في معركة صفين المريرة والتى أدت إلى توقف عمليات المد الإسلامي وإنقسام الأمة الإسلامية إلى ثلاث زعامات متباعدة : إحداهما في الشام حيث أنصار معاوية . والثانية : في الكوفة حيث الإمام على الذي بويع من قبل كإمام للأمة . والثالثة في النهروان حيث عبدالله بن وهب الراسبي إمام جماعة المحكمة، التى ولدت في أعقاب مهزلة التحكيم [1] . وانتهى الأمر في سنة ٤٠ هـ إلى انفراد معاوية بخلافة المسلمين بعد مقبل الإمام على ، ومن قبله عبدالله بن وهب الراسبي ، ثم تنازل الإمام الحسن عن الخلافة [2] ولذلك سمى عام ٤١ هـ بعام الجماعة .

= عطية بن الأسود لغزو عمان سنة ٦٧ هـ . وتمكن ابن الأسود من هزيمة أهل عمان وقتل عباد ابن عبد ، لكن أهل عمان تجمعوا من جديد بقيادة سعيد وسليمان ابنا عباد وطردوا ابن الأسودومن معه . ووسط هذا التدهور الأمني في منطقة الخليج العربي والمشرق الإسلامي في العصر الأموي حاول أهل عمان الحفاظ على هويتهم وعلى استقلالهم .

(١) عن تلك الفترة راجع :

- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ، ص ١٣٠ ومابعدها . طبعة دار المعارف.
- أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواسم ، تحقيق محب الدين الخطيب، ص ٨٠ ومابعدها .

(٢) فضل الله ، محمد جواد ، صلح الإمام الحسن ، أسبابه ونتائجه ، ص ١٠٥ .

كان لأهل عمان موقفا مستقلا إزاء تلك التطورات فقد ساندوا الإمام على منذ البداية ، واتجهت قبائل عمان ، خاصة الأزد ، إلى مساندة فكر المحكمة المعتدل [١] ، حيث كان للأزد مكانة في العراق والمشرق الإسلامي ، وظهر من بينهم جابر بن زيد الذي أصبح زعيما للفريق المعتدل من المحكمة والذي عرف باسم جماعة المسلمين أو أهل الدعوة أو أهل الإستقامة ، ورفض أهل عمان منذ البداية أحداث الفتنة فلم يشاركوا فيها ، كما أنهم رفضوا بعد ذلك الطريقة التى وصل بها الأمويون إلى الخلافة منذ البداية . وأيدوا وجهة النظر الداعية إلى الاعتماد على الشورى في اختيار الحاكم للمسلمين ، وهى الفكرة الأساسية لدى جماعة المحكمة المعتدلة .

من هنا فقد ظل أهل عمان يرفضون التبعية للأمويين من خلال واليهم على البصرة أو من خلال أى مظهر آخر ، وأصبح ولاة عمان من بين أهلها . رغم أن أهل عمان وقبائلها ظلت لهم الفعالية في أحداث العالم الإسلامي من خلال الإنجازات التي حققها المهلب بن أبي صفره وقبيلة بن أزد عمان على جبهة فارس والتركستان منذ استئناف عمليات الفتوح الإسلامية في خلافة معاوية . كما أن المهلب تمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى البصرة بعد أن أفزع أهلها هجمات الأزارقة العنيفة في خلافة يزيد بن معاوية وحتى خلافة عبدالملك بن مروان ، مرورا" بعهد ابن الزبير في العراق ، حتى سميت البصرة بـ " بصرة المهلب [٢]

وانشغل الأمويون بمشكلاتهم الداخلية عن الأوضاع في عمان ومنطقة الخليج العربي ، حتى قدم إلى المنطقة الحجاج بن يوسف الثقفى واليا" من قبل عبدالملك بن مروان على العراق والمشرق الإسلامي منذ سنة ٧٥هـ . وبدأ الحجاج في محاولة إعادة سيطرة الأمويين على تلك المناطق بما فيها منطقة الخليج العربي . فوطد سيطرة الأمويين على العراق بكافة الوسائل وأعاد النشاط العسكري لجبهة التركستان وأواسط آسيا . وبعد أن أخمد ثورة عبدالرحمن بن الأشعث التى هددته سنة ٨١هـ ، بدأ يتطلع إلى ضم عمان إلى سلطنه .

كان الأمويون ووالييهم الحجاج يدرك أهمية موقع عمان على طرق التجارة البحرية

---

(١) انقسمت المحكمة بعد مقتل أبي بلال في آسك سنة ٦١هـ إلى قسمين : متطرف ، معتدل ، وكان هذا الانقسام بعد افتراق زعامتها بعد عودتهم من مكة سنة ٦٤هـ .

(٢) سلطان ، عبدالمنعم ، دكتور ، المهلب بن أبي صفرة ، ص ١٠ ومابعدها ، بحث مقدم إلى ندوة عمان في التاريخ ، وزارة الإعلام العمانية ، سنة ١٩٩٤م .

القادمة من المحيط الهندي إلى البصرة والعراق والشام ، وكانوا يدركون أهمية سلع إفريقية للعالم الإسلامي ، من هنا بدأ الحجاج يجهز حملاته من البصرة قاصدة عمان ، فأرسل حملته القوية بقيادة القاسم بن شعوة المزني ، لكن أهل عمان تصدوا لها وهزموها وقتلوا القاسم ، فأعاد الحجاج حملاته من جديد من قبائل قيسية وعلى رأسها مجاعة ابن شعوة المزني وأرسل في أعقابها إمدادات شامية . وقسمها إلى قسمين برى وبحري من أجل أن يثير الإرتباك بين قوات أهل عمان . [1]

أدرك سعيد وسليمان ابنا عباد بن عبد أنهما لا قبل لهما بمواجهة الحملات المستمرة من الحجاج على بلادهما ، فاتجها إلى شرقي إفريقية [2] ، ولحق بهما العديد من أهل عمان بعد أن عين الحجاج على عمان الخيار بن سيرة المجاشعي الذي أخذ ينكل بأهل عمان . وبدأت منذ تلك الفترة الهجرات العمانية الكبرى إلى شرقي إفريقية . خاصة وأن الوليد بن عبدالملك (٨٦هـ / ٧٠٥م - ٩٦هـ / ٧١٥م) قد أقر الخيار بن سبرة المجاشعي واليا على عمان [3]. وفي خلال تلك الفترة استمرت عمليات الاضطهاد ضد أزد عمان في المشرق الإسلامي وفي البصرة وفي عمان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي وعماله .[4]

في الوقت نفسه كانت منطقة شرق إفريقية مهيأة لا ستقبال تلك الأعداد من عرب عمان ، بل أصبحت القبائل الإفريقية بقية ترحب بقدوم هجرات عمانية لما لمسته منها من عائد مادي وحضارى فإنتشرت إماراتهم ومراكزهم على الساحل الإفريقي من الشمال إلى الجنوب .

---

(١) القيسى ، المقتبس عن كشف الغمة ، ص ٤٥ ، طبعة وزارة التراث القومي والثقافة .

(٢) تاريخ أهل عمان ، ص ٤٧ ومابعدها .

(٣) كان اختيار الحجاج بن يوسف الثقفي للخيار بن سيرة ليكون واليا له على عمان امتدادا للكراهية والحقد الذي كان يكنها الحجاج ضد أزد عمان في المشرق الإسلامي وفي عمان . وكان الخيار قبل ذلك من جند المهلب بن أبي صفره ، ومن جند ابنه يزيد من بعده ، لكنه أصبح عينا على آل المهلب للحجاج ، واستعمله بعد ذلك على عمان عداوة لبني المهلب ، واستمر بعمان حتى أصبح واليها زياد ابن المهلب قبض على الخيار وبسط عليه العذاب وقتل الخيار .

- انظر العوتبي الانساب ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ومابعدها ، طبعة وزارة التراث القومي .

(٤) يورد الدكتور رجب عبة الحليم أسبابا وظروفا لثورة الأخوين . وإن كنا لا نوافقه في عرضه لهذا الأمر حيث أنها لاتسمى ثورة ، فهما أميران من قبل قومهما على بلدهما عمان خلفا لوالدهما :

نزلت سفن أهل عمان ومعهم سعيد وسليمان ابنا عباد إلى الساحل العماني في منطقة لامو سنة ٨٣هـ / ٧٠٢م ، وعرفت هذه الهجرة " بـ هجرة الأخوين" أو "هجرة بني الجلندى " وهى أكثر مناطق شرق القارة الإفريقية مناسبة للتمركز فيها من قبل هجرة كبيرة من عرب عمان . فهى تتكون من مناطق صالحة لإقامة موانىء ، ويقابلها عدد من الجزر في المحيط كما كانت تتوسط الساحل الإفريقي الشرقي ، بالإضافة إلى خلوها من النفوذ القبلي لجماعات البانتو . وبدت المنطقة في نظرهم أشبه بالفردوس .

وبدأت السواحل الإفريقية تشهد ظهور أول إمارة إسلامية عليها ، فقد بدأ سعيد وسليمان في تنظيم جماعتهما من أهل عمان وإقامة أسس ونظم لها. فأنشأت القلعة لحمايتهم من أى هجوم من قبل القبائل الوثنية الطامعة . وهو أمر يدل على وجود عماني سابق في المنطقة ، بحيث تم إنشاء الاستحكامات العسكرية في أول الأمر . ثم بدأ أهل عمان في بناء قرية . وبلغت تلك القرية نموها حينما قدم للاستقرار فيها أو حولها جماعات العرب والعمانيين السابقة عنت هجرة الأخوين . وبدأت القرية تتسع لتشمل عناصر عديدة ، وتتعدت فيها أوجه النشاط الإقتصادي من زراعة وحيد وتجارة وظهرت فيها طبقة التجار بوضع متميز لدورهم في اقتصاد المركز الجديد ، حيث تطورت موارد القرية ونمت لتصبح مدينة ومركز تجاري هام في شرقي إفريقية . حيث ارتبطت بخطوط تجارية داخل القارة ، وجلبت إليها مختلف السلع الإفريقية مثل الحديد والذهب والعاج[1]

وأدت مظاهر التبادل التى حدثت بين المستوطنة العمانية الجديدة وبين الأفارقة إلى تغيرات إجتماعية وعقائدية بين الجانبين ، حيث بدأت عمليات الزواج من نسوة افريقيات

= عباد بن عبد ، وكل ما في الأمر أن أهل عمان رفضوا التبعية للأمويين منذ البداية على أساس عدم إقتناعهم بالطريقة التى وصل بها معاوية إلى السلطة وظلت أمور عمان بين أهلها حتى جاء الحجاج الذي حاول فرض سيطرة الأمويين على أقاليم الدولة الإسلامية السابقة .

ومن جانب آخر اصطدم الحجاج بنفوذ آل المهلب القوي والواضح في المشرق الإسلامي وأدرك أن هناك جذورا" لهذا النفوذ في عمان . ولذلك كان يذكر يزيد بن المهلب في مجلسه باسم " المزوني " أى العماني . كما كانت هناك اعتبارات قبلية بين القيسية واليمنية . وبدأ الحجاج يربط بين ضم عمان لسلطته وإخضاع آل المهلب وبين سيادة نفوذه انظر : العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام ، ص ٢٠١ ومابعدها .

(١) النقيرة ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

تنتشر في تلك الفترة التى كان أغلب المهاجرين من عمان من الرجال ، وإن كانت تلك الظاهرة التى تفشت في المجتمع الجديد قد أدت إلى ذوبان العنصر العربي الوافد في المحيط الزنجي بصورة متتالية . كما أدت عمليات نزوج الأفارقة إلى إمارة لامو العمانية واستقرارهم داخلها أو بجوارها أدى ذلك أيضا إلى ذوبان العرب داخل مستوطنتهم الجديدة ، خاصة وأن تلك الفترة كانت تشهد حركات مستمرة لجماعات البانتو في المنطقة

وقد بدأ بعض هؤلاء الأفارقة في اعتناق الإسلام من خلال تعامله مع العرب خاصته وأن تجار عمان وأهلها كسبوا ثقة الأفارقة من خلال عمليات البيع والشراء ، كما أصبح تعلم العربية يساعد على تقوية علاقات الإفارقة مع حكام إمارة لامو وأهلها

وحاول سعيد وسليمان ابنا عباد المحافظة على نقاوة العنصر العربي لسكان مستوطنتهم الجديدة ويتجلي ذلك من أمرين هما : -

الأول : حرص العمانيين على جلب نساء عربيات أو غير افريقيات على أيدى التجار رغم أثمانهن الباهظة ، حتى قيل أنه دفع لزوجة قوقازية مائة من الرقيق الذكور الأقوياء ثمنا لها [1] .

الثاني : استمرار تشجيع عمليات تدفق الهجرات العمانية والعربية إلى منطقتهم حيث أصبحت الهجرة إلى منطقة لامو مكسبا للتجار وغيرهم من العرب ، بعد أن لمسوا الثروة والترف الذي عم أرجاء لامو . وصار العمانيون يشاركون أفراد تلك الهجرات الجديدة في عملياتهم التجارية ومشاريعهم في المنطقة .

واستمرت إمارة لامو العمانية تؤدى دورها الهام في نقل منطقة وسط شرق القارة الإفريقية إلى مراتب عليا للحضارة وتعمل على استغلال إمكانياتها بصورة مفيدة لسكانها وأهلها ، مما أدى إلى ارتباط ظهور عظمة تلك المنطقة بالأخوين سعيد وسليمان وكانت رؤيتهم وحكمتهم السياسية وراء ظهور إمارة لامو كأهم مراكز الحضارة في شرق

(١) رجب عبدالحليم : العمانيون ، ص ٢٠٨ .

القارة الإفريقية [١] وتمكنا من دمج إمارات المسلمين السابقة في المنطقة في إمارة مركزية قوية تحت قيادتهم ، خاصة وأن سعيد وسليمان قد تمكنا من إخضاع الجاليات التى سبقتهم في المنطقة من المسلمين [٢] .

وبذلك كانت هجرة الأخوين أول الهجرات الكبرى إلى شرقي إفريقية في العصر الإسلامي [٣] وقد تمكنت من إرساء نظم جديدة من المدينة والإدارة والتنظيم في المنطقة ، وكانت بداية لارتباط قوى نشأ بين ساحل شرقي إفريقية وبين العالمين العربي والإسلامي إذ بدأت عمليات التدفق العربي والإسلامي تصل إلى المنطقة في أمن وأمان ، معتمدة على رصيدها السابق من إنجازات العمانيين .

ونتيجة لهذه الانجازات وفدت جماعات عربية إلى الإمارة كما قدمت إليها جماعات من العرب من اليمن والشام ومن الهند ، وهيمنت تلك الجماعات على موانىء مجا،رة من الشمال ومن الجنوب . وأصبحت منطقة ساحل إفريقية تشهد العديد من المستوطنات الإسلامية على أراضيها منذ القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي . وقد قام هؤلاء القادمون الجديد بالإستعانة بخبرة العمانيين السابقين .

ونظرا لمكانة حكام عمان في منطقة الأخبيل فقد تم مبايعة حفيدهم الحاج /سعيد بالزعامة على مدنهم ومراكزهم [٤] في سبيل خلق تكتل وتجمع إسلامي وسط هذا المحيط الوثني الذي يحيط بهم ، وكذلك للإستفادة من خبرات زعماء عمان السابقة من قوى شرق إفريقية ، كما أن أهل عمان أصبح لهم مكانتهم الهامة في التجارة والملاحة مع شرقي

---

(١) حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية : ص ٣٩٧ .

(٢) Coupland, East Africa, P : 22.

(٣) لايوجد دليل على ماذكره أستاذنا الدكتور /حسن محمود من وجود تفاصيل عن هجرة وقعت في القرن السابع الميلادي سنة ٦٩٥م من أهل الشام إلى المنطقة هروبا من بطش الحجاج . ذلك إن الحجاج لم يتولى ولاية الشام ، بل أن الشام كانت مركز الخلافة الأموية ، وأن الحجاج كان واليا على الحجاز ثم نقلت أعماله إلى العراق .
- المرجع السابق ، ص ٣٩٦ .

(٤) Ruph, History of East Africa, P : 71.

إفريقية ، حتى احتكروا في أغلب الأحيان الرحلات الملاحية من وإلى شرق القارة من خلال خبراتهم في الشحن والتوزيع وطرق الملاحة وظروف المنطقة الإفريقية . وسادت تلك الزعامة لفترة طويلة فيما بعد باعتبارها أسبق الهجرات [١]

أدخل الحاج / سعيد نظما إسلامية في إدارته في المنطقة بعد أن حصل على البيعة من سكان المدن والموانىء المجاورة ، فأنشا مجلسا استشاريا يتكون من وجهاء الأحياء ، يشاركه في إتخاذ القرار وإدارة البلاد . وكان هذا المجلس بمثابة هيئة للإطلاع على مشكلات المستوطنين وحل مشكلاتهم [٢] . كما ظهرت هيئة قضائية من العلماء والفقهاء طبقوا أمور الشرع الإسلامي بين الناس . ويبدو أن هؤلاء من الوافدين وبدأت في ظلال الإستقرار الذي عم المنطقة إقامة مؤسسات تربوية إسلامية تمثلت في ظهور كتاتيب لتعليم أولادهم مبادىء الدين الإسلامي وتحفيظهم القرآن الكريم .

وتوالت الهجرات الإسلامية إلى إمارة لامو من المناطق العربية ومن مناطق الخليج العربي الأخرى ، وكذلك من مناطق المحيط الهندي المرتبطة بالمصالح التجارية مع الهند مثل منطقة ساحل الهند الغربي ، من مليبار وجو جيرات ، ومن ساحل السند وفارس بدأت الإمارة العمانية في الإشعاع الحضاري ونشر الإسلام وثقافته في المحيط الإفريقي المجاور لها نحو الشمال أو الجنوب أو صوب الداخل خاصة من خلال أمرين الأول عمليات التبادل التجاري مع الأفارقة ، حيث أدرك الأفارقة أهمية فهم الدين الجديد أو الدخول فيه ، لما لمسوه من قدوة حسنة عند المسلمين . والثاني : وفود دعاة من المسلمين من مناطق العالم الإسلامي الأخرى وقيامهم بالدعوة إلى الإسلام بالحسنى بين الأفارقة بحيث أصبحت هناك جماعات من سكان المدن من الأفارقة المسلمين ، حيث أصبحوا أعضاء في الأسرة الإسلامية .[٣]

---

(١) المعمري ، أحمد بن حمود ، عمان وشرق إفريقيا ، ص ٤٤ طبعة وزارة التراث

(٢) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) النقيرة ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

ثانيا : الشيعة الزيدية : [1]

حيث وقعت انقسامات بين فرق الشيعة ، فاضطرت الجماعات الزيدية إلى الهروب والإتجاه إلى ساحل شرقي إفريقية سنة ٧٢٩م [2] ، واستقروا في شنجايا [3] ، ورغم أن تلك الهجرة لم يكن لها تأثيرها الكبير في المحيط الإفريقي ، ذلك أنها قدمت مهاجرة إلى أرض غريبة عنها ، ولم يكن لهولاء المهاجرين خبراتهم الملاحية أو التجارية في المنطقة ، فسرعان ماتلاشت في المحيط الإفريقي ، لكنها ساهمت في نشر الإسلام على الساحل . وخاصة في منطقة شمال الساحل الإفريقي الشرقي ، وهى المناطق التى نزلت فيها جماعات الزيدية في البداية . [4]

ثالثا" : هجرة أهل صحار والباطنة في القرن الثالث الهجري :

رغم وصول أهل عمان إلى مرحلة إعلان إمامتهم الأباضية الأولى سنة ١٣٢هـ ، ثم الثانية سنة ١٧٧هـ ، إلا أنهم أصبحوا هدفا لحملات مستمرة من قبل العباسيين . لقد أدرك العباسيون خطورة وجود إمامة أباضية مخالفة لهم في عمان ، حيث تتمتع عمان وأهلها بمكانتهم التجارية والبحرية عبر الطرق البحرية إلى شرقي إفريقية وإلى الهند والصين ، وخاصة وأن عمان وتجارها ونواخذتها أصبحوا يتحكمون في الطرق البحرية

---

(١) أتباع الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب . ترى بحصر الخلافة والإمامة في سلالة الحسن والحسين أولاد على . وتقر تلك الفرقة بخلافة أبي بكر وخلافة عمر . وهى بذلك تخالف فرق الشيعة الأخرى . كما ترى بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وهى تقترب أو تتقابل مع فرق السنة في كثير من آرائها وإجتهادات علمائها .

وحاليا معظم اتباعها في جمهورية اليمن .

(٢) مدينة ونفورد الحالية .

(٣) المعمري ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) كانت الرحلات البحرية تلتزم بالساحل العربي ثم تتجه صوب سوقطرى ، ومن سوقطرى تعبر إلى الساحل الشرقي لإفريقية ، من هنا فقد احتلت سوقطري أهمية كبرى في الإرتباط بين منطقة شبه الجزيرة العربية وساحل شرقي إفريقية . ثم أصبحت منطقة مقديشو وشمال الساحل الإفريقي الشرقي أكثر المناطق كثافة في التواجد الإسلامي ، بينما ظل التواجد العماني منذ البداية مرتبطا بالوسط عند ارخبيل لامو وزنجبار .

القادمة عبر الخليج العربي والتى تؤثر بدور هام على ازدهار العراق وحاضرتهم بغداد، بعد أن تخير المنصور موقعها لتكون قريبة من تجارة الصين والهند وإفريقية وعمان [1].

فحينما أحس العباسيون بخطر وجود نظام مستقل في عمان، سارعوا إلى إرسال حملات ضد أهل عمان، كانت في مهامها أشد على أهل عمان من حملات الأمويين. فقد سارع أبو جعفر المنصور بإرسال حملة خازم بن خزيمة التميمي ضد أهل عمان ولإسقاط إمامة الجلندى بن مسعود، وتمكن القائد العباسي من إنجاز مهمة في معركة جلفار الثانية سنة ١٣٤هـ. وبدأ العباسيون في خلق ثيارموال لهم بين سكان المنطقة. وبالفعل بدأت عمان تتعرض صراعات قبلية من جديد، ويظهر على سطحها السياسي قوى سياسية متنافرة. وأنتهى الأمر بوحدة جديدة وظهور إمامة ثانية سنة ١٧٧هـ. وبدأت القوى السياسية العمانية تتجه صوب نزوى، بعد أن أدركت سهولة دخول الساحل من قبل العباسيين.

سارعت القيادة العباسية بإرسال حملة جديدة ضد أهل عمان هى حملة عي« ابن جعفر في خلافة هارون الرشيد »[2] وتمكن أهل عمان من هزيمة وقتله في صحار لكن عمان بدأت منذ القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، لكن عمان بدأت تتعرض لموجة جديدة من الصراعات القبلية، أسفرت عن وقوع معارك طاحنة بين أهلها، كان من أهمها وقعة القاع (٢٧٨هـ / ٨٩١م) في منطقة الخيام من عوتب، وقد وقعت في يوم الإثنين السادس والعشرين من شوال سنة ٢٧٨هـ. زمن الإمام عزان ابن تميم الخروصى.[3]

---

(١) من دراسة توجهات السياسة العباسية منذ البداية نجد أنها إنقسمت إلى ثلاثة ميادين هما :
- ميدان الهند وشرقي إفريقية وجنوبي شرقي آسيا.
- ميدان التركستان وأواسط آسيا.
- ميدان الشام وآسيا الصغرى والبحر المتوسط.

أى أن تلك السياسة تركزت نحو المحيط الهندي حيث ثروات إفريقية الشرقية والهند وجزر جنوبي شرقي آسيا. وكان هذا هو السبب في اختيار موقع عاصمتهم بغداد. لكنهم فوجئوا بأن مدخل عاصمتهم من الخليج تحت رحمة أهل عمان ولذلك حاربوا ظهور أية قوة بها.

(٢) السالمى، تحفة الأعيان، جـ١، ص ١١٨.

(٣) العوتبي، الأنساب، جـ٢، ص ٣٢٠.

حيث قدم الأهيف بن حمحام الهنائي إلى صحار لحرب الحواري بن عبدالله السلوتي والفضل ابن الحواري السامي ، ومن معهما من جموع النزارية ، في أعقاب مقتل موسى بن موسى بازكى ومن معه من قومه ، وندب الإمام عزان بن تميم للأهيف لحرب الحواري ومن معه والتقى الطرفان في معركة شديدة وارتفع الغبار ليستر الشمس ، وانجلت المعركة عن قتلى كثيرة . وبدأت الهزيمة تلحق بمعسكر النزارية وهربت جموعهم إلى البحرين وإلى شمال عمان .[1]

خرج زعماء النزارية الذين هزموا في المعركة إلى البحرين للاستنجاد بواليها العباسي محمد بن نور ، من قبل الخليفة المعتضد العباسي ، فأراد الوالى العباسى أن يستوثق من زعماء عمان فوجههم إلى الخليفة في بغداد ، فأمر محمد بن نور بالتوجه على رأس حملة كبيرة إلى عمان ، وكانت قواته من النزارية ومن بنى طىء من الشام . وبلغت قواته حوالى خمسة وعشرين ، وثلاثة آلاف وخمسمائة فارس .

اتصل الخبر بأهل عمان فزادت الأمور اضطرابا في كل مكان ، وانفض الناس عن الإمام عزان بن تميم ، وعم الخوف وعدم الإستقرار في عمان ، فخاف أهل صحار وماحولها من منطقة الباطنة على أنفسهم [2] ، فخرجوا بأموالهم وذراريهم إلى سيراف والبصرة وهرمز وإلى مناطق أخرى مثل شرق إفريقية [3] . وبدأت السفن في حمل الناس وأمتعتهم خارج صحار ومون الباطنة .

ويبدو أن تلك الهجرة الجديدة من عمان إلى شرقي افريقية قد اتجهت إلى إمارة لامو العمانية السابقة ، خاصة وأن صحار كانت في تلك الفترة تمثل مركز القادمة من شرقي إفريقية ، وأن ملكية السفن العاملة بينها وبين شرقي إفريقية كانت لتجار صحار، وبالتالى كانت معرفة أهل صحار والباطنة وثيقة بمنطقة شرقي إفريقية . وكان القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي تمثل عصر ازدهار الملاحة والتجارة في الخليج العربي عبر صحار وساحل الباطنة العماني . الأمر الذي يشير إلى وجود مصالح مشتركة بين أهل صحار والباطنة والجماعات العمانية في شرقي إفريقية .

---

(١) العوتبي ، المصدر السابق .

(٢) العوتبي ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ .

(٣) السالمى ، التحفة ، ٢ جـ ، ص ٢٥٩ .

رابعا" : هجـرة الأخـوة الحرث [1] :

وقعت تلك الهجرة منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، حيث اجتاحت القرامطة مناطق العراق والخليج وأصبحت منطقة الأحساء أهم مراكزهم ، فتعرضت القبائل المتواجدة في الاحساء لضغط شديد من قبل جماعات القرامطة ومنها الحرث . فاضطر الحرث إلى الهجرة إلى شرقي إفريقية سنة ٢٩١هـ /٩٠٣م [2] .

ويبدو أن هؤلاء الحرث كانت تربطهم علاقات سابقة مع سكان شرقي إفريقية من المسلمين ، أو أنهم قد سمعوا عن تلك البلاد وإمكانياتها من الجند الزنوج الذين كانوا بجيوش القرامطة ، والذين يرجع أصلهم إلى شرقي إفريقية [3] ولكن مهما يكن فإن ساحل الخليج العربي اندمج منذ هجرات القبائل العربية إليه في وحدة عربية واحده ويبدو أن النفوذ العماني كان قويا على منطقة البحرين في عصور ماقبل الإسلام [4] ثم أصبحت

---

(١) ترتب على اشتداد نار الصراعات القبلية في عمان بعد سقوط الإمامة الأباضية الأولى ، وفي خلال الأئمة الذين حكموا بعد إعلان الإمامة الثانية ، عودة الصراع بين القبائل اليمنية والنزارية في عمان في منطقة إبرا وفي منطقة الباطنة ، وفي بعض مناطق الأخرى . وكانت وقعة القاع في عوتب من صحار من توابع تلك الانقسامات العصبية ، حيث ترتب عليها خروج العديد من الجماعات النزارية إلى خارج عمان .

وكانت البحرين من المناطق التى تتجه إليها أنظار القبائل العمانية خاصة من النزارية ، وذلك بفضل الروابط القبلية بين الطرفين في الماضي ، كما أن البحرين على الطريق بين البصرة والعراق من جهة وبين عمان من جهة ثانية . فاتجهت إليها جماعات من أهل عمان .

وكان الحرث من الجماعات التى تركت مواطنها في عمان وتحركت شمالا صوب البحرين خاصة بعد أحداث وأعمال محمد بن نور في عمان وانعدام الأمن والإستقرار في البلاد .

ولانؤيد الدكتور عبدالحليم فيما ذهب إليه في كتابه العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام من وجود صراعات مذهبية كانت سببا في هجرة الحرث من عمان حيث يذكر أنهم كانوا "سنة" في حالة كونهم نزارية (ص ٢١٣) . (٢) المقريزي بجهينة الأخبار ، ص ١٩ .

ميزون ، هجرات الحرث إلى أواسط القارة الأفريقية ، ص ٥ ومابعدها .

(٣) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) مد مالك بن فهم نفوذه إلى البحرين واستمرت البحرين تابعة لعمان فترة طويلة - العوتبي ، الأنساب ، جـ٢ ، ص ٢٤٦ .

البحرين في العصر العباسي خاضعة لإدارة البصرة . الأمر الذي يؤكد أن أصول جماعات الحرث التى هاجرت إلى البحرين ترجع إلى عمان .

تحركت الهجرة الجديدة من الحرث من مواطنها في الأحساء إلى شرقي إفريقية ، في ثلاثة سفن كبيرة يتزعمها سبعة أخوة ، وبعد رحلة طويلة عبر الخليج العربي والمحيط الهندي نزلوا ساحل الصومال في منطقة مقديشو . ويبدو أن الحرث كانوا مستعدين قبل رحيلهم استعدادا عسكريا ، حيث تمكنوا من النزول على الساحل الإفريقي بقوة منذ البداية وأزاحوا الجماعات السابقة عليهم من الزيدية إلى داخل البلاد ، بعد أن ألحقوا بهم الهزائم وهدموا قلاعهم وحصونهم ، وامتد نفوذهم لمسافات طويلة على ساحل الصومال . وبدأت لهم دولتهم المستقلة .

وفي سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م ، بدأ الحرث في بناء مراكز لهم تليق بنفوذهم في المنطقة فأسسوا مدينة مقديشو ، كأول مدينة عربية في تلك المناطق الشمالية من ساحل شرقي إفريقية ، في العصر الإسلامي ، ثم أسسوا مدينة براوة سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م ، ومدنا أخرى مثل : وقرفادة ، والنجا ، وبذونة ، وماندا ، وأعوزي ، وشاكة [١] . واستمرت تلك المدن تحت سيطرتهم مترابطة تحت زعيمهم في مقديشو ، وإن كانت في بعض الفترات قد تمتعت بإستقلال ذاتي ، إلا أن حكام تلك المدن ظلوا من سلالة الأخوة السبعة من الحرث حتى العصور الحديثة .[٢]

أصبحت مدن الحرث تعج بالحركة والنشاط التجاري في شرقي إفريقية نظرا ، لامتدادها الكبير على ساحل إفريقية الشرقي ، وموقعها بالقرب من مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، ومن الساحل اليمني فبدأوا في الاستفادة من إمكانيات وسلع شرق القارة ، وخاصة الذهب الذين ارتحلوا إلى كل مكان بشرق القارة لجلبه ، حتى وصلوا إلى سفالة الزنج وأصبحت لهم تجارة مع الهنود والصين [٣] .

---

(١) حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٢٩٨ . (٢) جيان ، وثائق ، ص ٨٥ .

(٣) يذكر المؤرخ الصيني بدر الدين : أن سفن الصين كانت تتردد في نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة على بنادر الصومال لحمل منتجات إفريقية من العاج والذهب إلى الصين ، وتحمل إلى الصومال المنتجات الصينية التى كان الأفارقة في حاجة إليها.

- العلاقات بين العرب والصين ،ص ٢٦٥ .

ازدهرت منطقة ساحل الصومال وبنادره ازدهارا ملحوظا وعمت نواحي الترف والثروة التى حققتها المدن الصومالية نواحي الحياة ، فزادت ثروة الناس ، وظهرت الأحياء المنظمة في المدن ، وحلت المنازل المشيدة من الطراز العربي من الحجر ، محل البيوت القديمة المبينة من القش وجزوع الشجر ، وظهرت في مقديشو منازل عالية تتكون من أربع أو خمس طوابق ، منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وجذبت مقديشو بمركزها التجاري والإقتصادي تجار شبه الجزيرة العربية ومصر وبقية مراكز شرق القارة الإفريقية ، وصارت مركزا إقتصاديا وحضاريا هاما في شرق إفريقية . حتى أعتبرت العاصمة الثقافية لساحل الزنج ، ومنها بدأ التيار الإسلامي يتدفق إلى داخل البلاد ليشمل المناطق التى تقع خلفه حتى الهضبة الحبشية . وإلى داخل القارة حتى مملكة أوغنده ووسط إفريقية [1] .

وهكذا تمكنت هجرات الحرث من البحرين أن ترسخ الوجود الإسلامي السابق في منطقة القرن الإفريقي وساحل الصومال وأن نتمكن من تحويل المنطقة إلى الإسلام والثقافة العربية بصورة نهائية مع بداية العصور الحديثة ، رغم ما تعرضت له من هجمات من قبل القبائل الوثنية من الخلف ، وبمرور الزمن أصبحت تلك المنطقة منطقة إسلامية على الساحل الإفريقي الشرقي . وأصبحت منطقة الصومال جزء من العالم الإسلامي وتحمل كل مقوماته الثقافية .

خامسا" : هجرة الشيرازيين [2] إلى كلوة :

وهى هجرة من مسلمي شيراز ، توجهت إلى منطقة الخليج العربي واتجهوا على على ظهر سفن عبر الخليج والمحيط الهندي إلى شرقي إفريقية . وفر هؤلاء أمام اجتياح طغرل بك ، السلجوقي مدينة شيراز سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م . وكان هؤلاء المهاجرون الجدد من الشيعة [3]

وصلت تلك الهجرة إلى شرقي إفريقية في فترة قوة الحرث وامساكهم ببنادر ومدن

---

(١) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٧٨ .

(٢) مدينة في إيران تقع إلى الخلف من ميناء سيراف السابق على الخليج ، وهى مدينة داخلية . اعتمدت في شهرتها على الوساطة بين تجارة الخليج العربي وبين إيران وبين العراق والأهواز وجنوبي إيران .

(٣) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٩٨ .

شمال الساحل الإفريقي ، فلم يتمكن الشيرازيون الجدد من النزول على الساحل الشمالي لشرق القارة واتجهوا صوب الجنوب لتبدأ عمليات الإستقرار والإنتشار من كلوة في الجنوب والتى أصبحت عاصمتهم .[1]

وكان خروج الشيرازيين بقيادة سبعة من أهل شيراز يقودهم أبوهم حسن بن على وتفوقوا على ساحل شرقي إفريقية من الجنوب ، ونزل كل واحد منهم بلدة معينة على الساحل منزل الأول بلاد مندخة بلاد شوغ، والثالث دخل بلاد ملنة ، والرابع دخل بلاد منفسة ، والخامس دخل الجزيرة الخضراء ، والسادس دخل بلاد كلوة ، والسابع دخل بلاد هنزوان وهو أبوهم حسن بن على [2].

وتورد معظم المصادر قصة أقرب إلى الخيال في أسباب توجه حسن بن على وبنيه إلى شرقي إفريقية من أن السلطان حسن بن على رأى في يوم من الأيام فأرة خرطومها من حديد وهى تقرض الجدران بخرطومها ، فظن بذلك خراب بلادهم ، فلما تحقق ظنه أخبر أولاده بما رأى مؤكدا لهم أن بلدهم ستخرب في القريب العاجل ، فقرروا الإنتقال إلى بلد آخر ، وأحتالوا على الناس بأن أتفق مع ولده لمطه أمام الناس حتى يغضب الوالد ، ويجد سببا في الخروج من البلد .[3]

فاستعد السلطان للخروج من أهل بيته وبعض أمرائه ووزرائه وبعض رعيته وتوجهوا برا إلى إحدى موانىء الخليج العربي وركبوا سبعة مراكب متوجهين إلى أى بلد ، فتفرقت بهم المراكب ودخل كل مركب في البلاد التى ذكرناها . فلما وصل أهل مركب كلوة وجدوها جزيرة محاطة بالماء ، ولكنها متصلة بالبر حينما يهبط البحر ، فوجدوا رجلا من المسلمين ومعه أولاده ومسجدا فأخبرهم بأحوال الجزيرة وحاكمها .

---

(١) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢١٩.

(٢) الصوافي ، عبدالله بن مصبح ، السلوة في أخبار كلوة ، ص ٢٧ ، طبعة وزارة التراث القومى والثقافة ، سنة ١٩٨٥م .

- المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٣٨ .

(٣) تشبه هذه القصة مأورده العوتبى في سبب وكيفية خروج مالك بن فهم الأزدي من اليمن ، من كافة الجوانب . الأنساب ، جـ٢ ، ص ١٨٨ ، طبعة التراث .

فلما التقوا بعد أيام بحاكم كلوة الكافر ، دار بينهما حوار ، وكان المسلم المذكور هو الترجمان وأظهر الواصل رغبته في السكن في الجزيرة وشرائها ، فاشترط الكافر أن يتم البيع بشرط أن يحيط المشترى البلاد بثياب ملونة ، فقبل الشيرازيون ذلك . فأداروا الجزيرة بالقماش الملون ، وأخذ صاحب الجزيرة الثياب وغادرها ، واحتاط الشيرازيون من عودة حاكم كلوة الإفريقي وقواته من جديد ، فقاموا بحفر المنطقة التى يتم فيها الجزر وحينما عاد حاكمها السابق لم يتمكن من العودة إليها ، وهكذا صارت في يد أهل شيراز وظل الواصل يحكمها مدة أربعين سنة حتى مات . وكان ذلك في القرن الثالث الهجري[1].

والواقع أننا لانوافق الصوافي فيما أورده في السلوة في أخبار كلوة حول تلك الأسباب والظروف التى أدت إلى خروج حسن بن على وأولاده من شيراز إلى شرقي إفريقية ، والتى رددتها عدة مصادر ومراجع من بعده للأسباب التالية : -

١ - أن قصة خروج حسن بن على من شيراز ومعه أولاده . لم تردد في المصادر الفارسية المحلية ، ولكنها مأخوذه نصا وروحا" من قصة خروج الزعيم الأزدي مالك ابن فهم من اليمن إلى عمان [2] . مما يدل على سيادة العمانيين بثقافتهم وتراثهم في تلك المنطقة قبل وصول أهل شيراز ، ثم اقتبسها الفرس بعد ذلك من أجل إثبات عراقة نسبهم منذ البداية وأنهم كانوا حكاما في بلادهم . كما أن هجرة مالك كانت قبل ظهور الإسلام بعدة قرون ، وهى محفوظة في صدور أهل عمان حتى الآن .

٢ - أن كلوة التى تركز فيها النفوذ الشيرازي ، كانت امتدادا" للتأثير العماني في شرق القارة ، فهى تقع إلى الجنوب من زنجبار بحوالى مائتين كيلو مترا[3]، والدليل على ذلك أن أهل شيراز قابلوا في كلوة رجلا" من المسلمين وبعد أولاده فأخبره بظروف كلوة واسم حاكمها الإفريقي وعادات حاكمها [4].

---

(١) الصوافي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ ومابعدها . (٢) العوتبي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) تركز الوجود العماني في الشرق الإفريقي في منطقة أرخبيل لامو زنجبار ويدأ في الامتداد شمالا" صوب ممباسا ماليندي، وإلى الجنوب صوب كلوة وحتى سفالة الزنج ومدغشقر .

(٤) ذكره الصوافي بأسم مرر وبر .

٣ - لا يقبل العقل أن يتم الإتفاق بين السلطان حسن بن على وأولاده للخروج من شيراز ثم ينفرد كل واحد منهم بسفينة بعد ذلك ، دون أن يتم تحديد الوجهة التى سيتم التوجه إليها وقصدئها وكيف يترك الأولاد والدهم وحده في تلك الظروف ؟ وكيف يتم التجمع بهذه الصورة على الساحل الإفريقي وبهذا الوضع من الانتشار المنظم والمرتب . ولابد أن هناك اتفاق بين هؤلاء الفرس قبل خروجهم من بلدتهم إلى شرقي إفريقية ، خاصة وأن أهل سيراف وموانىء الخليج العربي الذي خرجوا منه كان لهم دراية بالساحل الإفريقي وظروفه ، وأنه كان هناك اتفاق منذ البداية وتحديد للوجهة التى قصدها أهل شيراز [١].

٤ - تثير كميات الأقمشة التى قدمها الواصل إلى صاحب الجزيرة الإفريقي ، إلى شكوك في كيفية تحميل تلك الكمية الكبيرة من الثياب التى تم إحاطة الجزيرة بها حسب شرط البيع ، كما أن عملية حفر الخور الكبير الذي يربط كلوة بالساحل الإفريقي ، تثيرها الأخرى شكوكا جديدة حول القدرة والكيفية التى تم بها ذلك ، رغم أنهم كانوا قلة . وكان من المعروف في تلك الفترة أن المستوطنات العربية والإسلامية كانت تتركز على الساحل بعيدا عن المحيط الإفريقي ، لتأمين نفسها ضد غارات القبائل الإفريقية . ولذلك تم نسج قصة حفر الخور بنفس الصورة التى تسود في المنطقة [٢] .

٥ - بعد المؤكد أن تكون تلك الهجرة في القرن الخامس الهجري ، وليس في القرن الثالث الهجري ، كما ذكر صاحب أخبار كلوة ، حيث بدأت في تلك الفترة انقسامات في صفوف الشيعة ، كما تعرضت منطقة شيراز إلى غارات من قبل السلاحقة . وهذه هى الظروف المقبولة والمناسبة لخروج جماعات الشيعة من إيران من منطقة شيراز [٣] .

أصبحت كلوة مركزا للجماعات الإسلامية التى استقرت على طول الساحل الإفريقي

---

(١) راجع المغري ، جهينة الأخبار ، ص ٦٠.

(٢) لم يتم بناء مدن عربية إسلامية داخل البر الإفريقي إلا زمن السيد سعيد بن سلطان بعد ذلك في العصور الحديثة . وظل الوجود الإسلامي على الساحل .

(٣) حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٣٩٨ ..

الشرقي من جنوب زنجبار ، وصارت أهم مدن شرق افريقية قاطبة ، وتمكنت من فرض نفوذها على معظم المراكز الساحلية حتى العصور الحديثة وشكلت بذلك إمبراطورية عرفت بأسم " مملكة كلوة" أو "مملكة الزنج" . وبدأت منذ القرن الحادى عشر ترتبط بتجارة السلع الإفريقية خاصة الذهب المستخرج من سفالة الزنج ، وأصبحت منافسة لإمارة مقديشو في الشمال في هذا الأمر [١] . وبلغت المملكة أوج ازدهارها الإقتصادي والتجاري في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

انعكست حالة الرخاء الاقتصادي لكلوة على أوضاعها العمرانية ومعيشة سكانها ، فبنى ملوكها القصور الفخمة والمباني المتقنة الرائعة في كافة أرجاء من مملكتهم والجزر التابعة لهم ، ولازالت آثار تلك المباني ماثلة حتى الآن [٢]. أما كلوة العاصمة فقد أصبحت أهم مراكز الحضارة في شرق القارة حتى قدوم الغزو البرتغالى إليها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي فظهرت فيها ألوان جديدة من الهندسة المعمارية لم تكن معروفة من قبل مثل القباب والعقود وظهرت جوانب تلك العمارة في القصور والمخازن والمساجد . كما استخدم الحجر وأنواع جديدة من الأخشاب الصلبة في البناء [٣] وقد أعجب ابن بطوطة بمظاهر تلك العمارة [٤] بقوله " ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة " .

ويبدو أن مملكة كلوة كانت تضم جماعات عديدة من المسلمين يعيشون في حرية تامة بعيدا عن التعصب المذهبي الذي ظهر في بعض مناطق العالم الإسلامي . ويتضح ذلك من عبارة ابن بطوطة بقوله " وهم شافعية المذهب " أي يقصد أن غالبية المسلمين بها ، فتوجد جماعات شيعية وجماعات من أباضية عمان [٥] ، حيث تناسى المسلمون تلك المسائل الخلافية أمام مشكلاتهم ومتطلبات بقائهم في المحيط الزنجي الوثني . الأمر الذي يجعلنا

---

(١) عبدالرحمن زكي ، الإسلام والمسمون في شرق إفريقية ، ص ١٢٤ .

(٢) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٣) الحويري ، ساحل شرق إفريقية ، ص ١٢٠ .

(٤) الرحلة ، ص ٢٠١ .

(٥) ويورد المغيري بعض الأسماء لعلماء الأباضية منهم العالم : الوليد بن سليمان بن مبارك الكلوي .
- جهينة الأخبار ، ص ٦٣ (نقلاً عن كشف الغمة) .

لانقبل وجود صراعات مذهبية على أرض الساحل الإفريقي في تلك الفترة من فترات الإمتداد الإسلامي .

ورغم الأخطار التى تواجه أهل كلوة من قبل جيرانهم الوثنيين وأن أهلها ظلوا في حالة جهاد مستمر لحماية بلادهم من غزو الجماعات الإفريقية الطامعة في خيرات بلادهم[1] ، فإن حكام كلوة وأهلها ارتبطوا بعلاقات وثيقة مع مناطق العالم الإسلامي خاصة منطقة اليمن والحجاز وكان هذا الإرتباط في العلاقات ذات جوانب ثقافية وتجارية ، حيث أراد حكامها مسايرة الأوضاع الثقافية في بلاد الحجاز وغيرها من مراكز العالم الإسلامي . فقد إلى المنطقة العديد من أهل الحجاز وشبه الجزيرة العربية لتدريس أصول الدين الإسلامي [2] . والعمل في الكتاتيب والمدارس التى أنشأت في المنطقة ، كما صدرت كلوة إلى منطقة الحجاز منتجات منطقة الساحل الإفريقي من الذهب والجلود والعاج والرقيق .

وارتبطت كلوة بالنشاط التجاري السائد أيضا في منطقة المحيط الهندي ، وأصبحت سوقا تجاريا مزدهراً للسلع القادمة من الصين وجنوبي شرقي آسيا والهند . فكان التجار يجلبون إليها الخزف الصيني والخرز والتوابل والفلفل والمنسوجات والمصنوعات الهندية . ولذلك ظهرت لدى سلاطين كلوة عملات نقدية بدلا" من عمليات التبادل ، أو استخدام الودع الذي كان معمولا" به قبل ذلك [3]

ظلت مملكة كلوة تؤدى دورها في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية ويتضح ذلك من إعلان الجهاد ضد القبائل الوثنية وأن أهلها كانوا في حالة حرب مع الوثنين وكانوا يمدون

---

(١) يذكر ابن بطوطة .

" وكان سلطانها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن وكان كثير الغزو إلي أرض الزنج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه في مصارفه المعنية في كتاب الله تعالى"

الرحلة ، ص ٢٠٠ .

(٢) ويذكر أيضا ابن بطوطة ذلك بقوله " وكان الشرفاء يقصد من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة " .

الرحلة . ص ٢٠٠ .

(٣) الحويري ، المرجع السابق . ص ١٢١ .

سلطانهم على كثير من مراكز تلك المناطق الإفريقية حتى انتشر الإسلام بين أهلها بعد ذلك . وظهرت في المنطقة مؤسسات تربوية أدت رسالتها بفضل رعاية سلاطين كلوة وحرصهم على استقدام العديد من علماء الإسلامي للتدريس بها ، حتى أصبحت اللغة العربية منتشرة في تلك الأرجاء . وأورد المغيري العديد من علماء وأشراف الحجاز الذين استقروا على ساحل افريقية وكان لهم مجهودات في نشر الإسلام في تلك النواحي وترسيخ التوجه الإسلامي للمنطقة .

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر تعرضت كلوة لأخطار داخلية وخارجية حيث ظهرت صور من النزاع على السلطة في الداخل [١] ، وطمع بعض الوزراء في الوصول إلى السلطة بصور غير شرعية ، وظهرت بجوار كلوة مدن قوية على حساب تدهور أوضاع كلوة " مثل مدينة بات من الشمال [٢] . كما ضعفت سيطرة كلوة على منطقة سفالة في الجنوب وهى التى تمثل لكلوة العمود الفقري في اقتصادها بسبب ما تشتهر به من استخراج الذهب بكميات كبيرة [٣] وبذلك فقدت كلوة أهم مقومات شهرتها الإقتصادية . فقل إيراد سلاطينها . وبدأ العرب يتجهون إليها من مالينديو ويكونون قوة جديدة داخل كلوة ، أصبحت لها السيطرة في بعض الفترات . وسرعان ما وقعت في أيدى البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر حيث كان ذهب سفالة الذي لا ينضب كان العامل الأساسي في تحركات البرتغاليين في شرق إفريقية وفي عمليات الكشوف الجغرافية .

وقد أصيب البرتغاليون بالدهشة لما لمسوه من تقدم حضاري وعمراني في مدن كلوة التى سقطت في أيديهم [٤] . بعد مالمسوه من تخلف على سواحل إفريقية المقابلة لهم من الغرب . وقد استحوذت منطقة سفالة ومدن كلوة على اهتمام الملك البرتغالى عمانويل الذي أمر ببناء العديد من القلاع والحصون للحفاظ على مصالح بلاده في تلك الأراضى الترية .

---

(١) الحويري ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٢) زكي ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٢٥ .

(٤) حيث شاهدوا المنازل العالية المبنية من الخشب والحجر والمساجد ، ونظافة المدن وثراء أهلها . أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، جـ٦ ، ص ٣٩٦ .

سادساً : هـجرة الـنبهانيين من عُمـان :

حدثت تلك الهجرة في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر الميلادي . واتجهت من عـمان إلى منطقة وسط الساحل الإفريقي الشرقي ، وهو النطاق الذي أصبح مقتصرا النفوذ العماني حتى العصور الحديثة .

ينتسب النبهانة إلى قوم من العتيك من أزد عمان [١] أقاموا دولة استمرت مايقرب من خمسة قرون في عمان [٢] ونظرا لظروف عمان التي كانت تمر بها في تلك الفترة ، فقد تعرضت عمان إلى انقسامات عنيفة بين قبائلها ومناطقها ، كما تعرضت لغزو مستمر من المدن الفارسية ، وبالإضافة إلى ذلك حدة صراع داخلي بين أسرة النبهانة الحاكمة ، وقد أدت تلك الظروف والأحوال إلى هجرة أحد أمراء النبهانة إلى شرقي إفريقية ليؤسس هناك إمارة عمانية جديدة استمرت حتى العصور الحديثة .

اتفقت معظم المصادر والمراجع على أن الزعيم النبهاني الذي هاجر من عـمان إلى شرقي إفريقية هو سليمان بن سليمان بن مظفر بن نبهان [٣] ، وكانت هجرته للظرف التي تمر بها أسرته وعمان ، واتجهت تلك الهجرة إلى منطقة بات في أرخبيل لامو من بداية القرن السابع الهجري / بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد أسسوا إمارتهم المستقلة في بات ونسبوا إليها حيث بدأ يظهر لقب البتاوي في آخر أسمائهم . ويبدو أن هجرة هؤلاء إلى شرق القارة الإفريقية كانت بمثابة دماء عمانية جديدة لتغذية الوجود العماني في السابق في الأرخبيل منذ القرن الأول الهجري ، والذي ظل متواجدا بصورة واضحة حتى مد سلاطين كلوة نفوذهم إلى مناطق النفوذ العماني سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م على يد السلطان سليمان حسن، سلطان كلوة [٤] .

---

(١) السيابي ، سالم بن حمود ، العنوان عن تاريخ عمان .ص ٢٥٥ .

(٢) يقسم سالم بن حمود السيابي دولة بني نبهان في عمان إلى فترتين هما :

- الإولى : من أواخر القرن السادس الهجري ، وحتى القرن الثامن الهجرى .
- الثانية من القرن العاشر الهجري وحتى قيام دولة اليعاربة في الربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري . المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(٣) الفارسي ، عبدالله ، البوسعيديون حكام زنجبار ، ص ١٣٠ .

- حسن محمود ، الأسلام والثقافة ، ص ٣٩٩ .

(٤) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

ورغم وجود الأرضية العمانية السابقة في المنطقة التى استقر بها الأمير النبهاني إلا أنه أراد أن يغرز من سلطته ومكانته بين سكان المنطقة فتزوج أميرة سواحيلية هى ابنة اسحق حاكم بات ، وعن طريقها وصل إلى حكم بات بالميراث ، [1] وأصبح أول حاكم نبهاني لبات . وبدأ الأمير العماني الجديد يقوى مركزه ويستعد لتوسيع نفوذه خاصة نحو حكام كلوة الشيرازيين . وقام بتلك المهام خلفائه . ففى زمن محمد الثاني النبهاني (٦٩٠هـ / ١٢٩١م -٧٣٢هـ / ١٣٣١م) اتجه النبهانيون لتوسيع نفوذهم صوب الشمال حيث فرضت بات نفوذها شمالا على الإمارات الساحيلية حتى مقديشو [2] وخاصة أن مقديشو قد بدأت أحوالها الاقتصادية في التدهور بعد حرمانها من موارد الذهب التى كانت تعتمد عليها في تجارتها من منطقة سفالة الزنج ، بسبب سياسة ملوك كلوة .

ويبدو أن محمد النبهاني قد تمكن من ذلك بسهولة لاعتماده على تأييد الجماعات العمانية والعربية في المنطقة التى إرتبطت به منذ البداية وحالفته . وعين الزعيم النبهاني حاكما من قبله على كل مدينة ضمها .[3] ولقب محمد الثاني النبهاني بلقب Fumo، أى رئيس قبلية باللغة السواحيلية ، وهذا يدل على حرص النبهانة في أى يظلوا في مظهرهم عربا وشيوخ قبائل .

وفي زمن عمر بن محمد (٧٣٢هـ / ١٣٣١م - ٧٦٠هـ /١٣٥٨م) اتجهت سياسة النبهانة نحو التوسع صوب الجنوب لتضم مناطق شانجا وفازا ، وهما من توابع بات نحو الجنوب ، وكذلك تم ضم الجزر المجاورة مثل ماندا ، ومنطقة أوزي ، ودولة شاكا وأصبح الزعيم النبهاني يمثل أقوى قوة على الشمال الشرقي لإفريقية في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، فبدأت تصله الهدايا العديدة من حكام المناطق المجاورة من إفريقية أو الإمارات الساحلية [4] كما بدأت مناطق أخرى تدفع له الجزية . وأصبحت معظم مدن كلوة تخضع لنفوذه . وخضعت ماليزي وحمبشة وميا ولندي وكيرما ، وراس دلجادو ، أو سلطنة كلوة التى ضعفت فقد بدأت تفقد الكثير من هبتها في المنطقة ،[5] وفرض سلاطين بات

---

(١) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) ترمنجهام ، الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا ، ترجمة محمد النواوي ، ص٤٥ .

(٣) ترمنجهام ، المرجع نفسه ، ص ٤٦ .

(٤) عبدالحليم ، العمانيون والملاحة ، ص ٢٢٨ .

(٥) عبدالحليم ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ .

عليها مناصب لعرب من سلطنة بات خاصة ، وظيفتى الأمير والوزير وبدأ مواطني بات في التحرك صوب الجنوب في نطاق كلوة [١] .

أصبحت الحركة التجارية في شرق إفريقية منذ القرن الرابع عشر في يد سلاطين بات ، وخاصة أن حركة الملاحة كانت في يد العمانين باستمرار . وقد نتج عن ذلك ازدهار رواج اقتصادي بين مدن بات وجزرها . وانعكس ذلك على أهل بات ومدنها فظهرت مظاهر الثراء والترف [٢] ، وأنشأ أهلها منازل كبيرة ، وجملوها بلنبات نحاسية وصنعوا سلألم مزينة بالفضة ، وزينت اعمدة المنازل بماسمير من الفضة والذهب الخالص . كما ظهرت لديهم الأبواب المنقوشة ، حيث أدخل العرب في النقش والحفر والنحت إلى تلك المناطق . وأصبحت بيوت ممباسة روعة في التناسق والنظام كما ظهر أهلها بمنظر نظيف بملابسهم الفاخرة [٣] .

أرسي البنهاهنة أسسا إدارية متقدمة في المنطقة من اجل ربط المدن والجزر المتناثرة تحت سلطانة في بات ، خاصة وان دولتهم اصبحت تضم شريطا طويلاً متناثراً من المدن والجزر تفصل بينهامئات الأميال [٤] . وقام البنهاهنة بتعين عامل أو وال علي كل مدينة أو جزيرة يعرف باسم (ماجومب) أى التابع . وتم انشاء مجلس استشاري يسمى (جومب) حيث الإدارة المركزية . وكان هذا المجلس يعاون الحاكم في اتخاز القرار وفي الفصل بين الراعية . واتخذ الأمير النبهاني لقب (بوانا فو مادي) أو (فومولوتي) أو (فوم لوط) بمعنى سلطان او ملك [٥].

ويقسم الهرم الإداري لسلطنة النبهاهنة في شرق إفريقية إلى ما يلي :.

(١) الملك او السلطان : وهو من النباهنة . له السلطة العليا المطلقة علي المناطق

---

(١) ترمنجهام ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٠٧ .

(٣) حسن محمود ، لمرجع السابق ، ص ٤٢٨.

(٤) حسن محمود ، المرجع نفسة ص ٤٢٨.

(٥) المغيري ، جهينة لأخبار ، ص ٨٩.

الفارسي ، البوسعيديون ، ١١٧.

الخاضعة لة . وتحيط به أرستقراطية عربية ، وزعامات قبائل البانتو الإفريقية . ومقرة في بات . وتصب فيها دخل السلطنة ، وقد ساعد بات في احتفاظها بهذا المركز توسطها لمدن السلطنة النبهانية [1] .

(٢) الولاة : ويتم تعين وإلى من قبل القصر في بات علي كل مدينة من مدن السواحل التابعة للنبهاهنة. وهو نائب السلطان في مدينته ، ويختار عادة من بين الزعامات المحلية أو العربية حيث يكون له القدرة علي السيطرة علي أمور مدينتة .

(٣) الهيئة التشريعية : ويمثلها المجلس الاستشاري ، ومقرة بات . ويعاون الملك في إصدار القرارت ، وله السلطة في فض المنازعات ، وتحضير مشروعات القوانين . وقد شملت تلك الهيئة كبار التجاروزعماء القبائل العربية والمحلية.

اتجه النباهنة أيضاً إلى تنظيم الجوانب الإقتصادية للسلطنة كما يلي :.

(١) في مجال التجارة :

نشطت الحركة التجارية مع بقية مراكز الساحل الإفريقي الشرقي . وقد نشط التجار العرب لحمل تجارة إفريقية من العاج والذهب والرقيق والجلود إلى أسواق العالم الإسلامي . وبلدان المحيط الهندي . وقد شارك سلاطين النبهاهنة أنفسهم في هذا النشاط التجاري . وحققوا من وراء ذلك ثراء كبيرا [2] وفرضت الدولة ضرائب على عمليات التجارة لاتتعدى ١٠٪.

٢ - في مجال الزراعة :

نشطت الزراعة في البلاد ، حيث تم زراعة أراضي جديدة خصبة ، وتم استغلال العديد من العبيد في مزارع المدن ، ووزعت أراضي عليهم . كما اهتم العرب بالمراعى هناك وتم إدخال تربية الإبل والخيول في المنطقة بجانب الماشية والأغنام. وأدخلت محاصيل

---

(١) انظر الخارطة في الملاحق .

وخاصة انها كانت مركز للهجرات العمانية منذ البداية .

(٢) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

جديدة في البلاد [1] . وفرضت ضريبة على الزراعة مقدارها وسقين أو حملين على كل عشرين وسقا تنتجها جماعة العبيد في الزراعة ، وهى ضريبة العشور .

٣ - الصنـــاعـــة :

عرفت مدن الساحل الإفريقي صناعات هامة مثل صناعة المنسوجات وخاصة مدن الشمال . كما كانت لديهم خبرتهم في صيانة السفن وصناعتها ، حيث تتوفر الأخشاب اللأزمة لتلك الصناعة في المنطقة . كما أن الرحلة البحرية كانت طويلة وتحتاج إلى أحواض لصيانة السفن قبل عودتها . كما صنعت سفن صغيرة تستخدم بين الموانىء الإفريقية [2].

ونتيجة لقوة التأثير العماني على وسط سواحل شرق القارة الإفريقية فقد ولدت لغة جديدة للتعامل بين مختلف الأجناس هى اللغة السواحيلية في منطقة زنجبار والمناطق المقابلة وامتدت لتشمل مناطق الساحل الإفريقي الشرقي مع نطاق من داخل القارة الافريقية ، [3] وهى عبارة عن أصول من لغة البانتو الإفريقية مع اللغة العربية وأصبحت تلك اللغة هى لغة التفاهم على طول الساحل، ولغة التجارة والتعامل اليومي ، وتميزت تلك اللغة بمرونتها وحيويتها . وبدأت فى إحتواء العديد من المصطلحات الإسلامية داخلها بمعني أنها نشأت نشأة إسلامية منذ البداية [4] .

كانت اللغة السواحيلية هي الرباط القومي والثقافي الذي تمكن من ربط منطقة الساحل الإفريقي من الشمال حتى الجنوب مع الجزر المتناثرة في المحيط ، بعد أن عجزت معظم القوى العربية والإسلامية التي وصلت إلى المنطقة من تكون دولة واحدة مركزية على طول الساحل منذ البداية وحتى العصور الحديثة . وترتب على ذلك ظهور ثقافة متقاربة على الساحل ذات أصول إسلامية . وظلت تلك اللغة تكتب بحروف عربية حتى

---

(١) رأفت غنيمي الشيخ ، إفريقية في التاريخ المعاصر ، ص ٣٢٩ .

(٢) وهى محاصيل ترجع أصولها إلى شبه القارة الهندية وتم نقلها إلى عمان ومنطقة الخليج في العصور الإسلامية الأولى ، مثل قصب السكر والقطن وغيرهما مثل البرتقال والأرز والفلفل .

(٣) النقيرة ، الإسلام في شرق إفريقية ، ص ١٨٧ .

(٤) عوض ، الشعوب والسلالات ، ص ١٩٢ .

دخول الإستعمار الأوروبي إلى المنطقة فبدأت تكتب بحروف لاتينية محل الحروف العربية وأصبحت بالتالي تضم مصطلحات أوروبية جديدة في بنائها [١] .

ومع اللغة السواحيلية نفذ الإسلام بقوة إلى داخل القارة الإفريقية عبر البحيرات والمرتفعات إذ أصبح من اليسير على الأفارقة فهم العديد من جوانب الدين الإسلامي بغض النظر عن مستواهم الفكري ، وتمكنت تلك اللغة مع التجار الذين بدأوا في شق طريقهم إلى الداخل من تكوين روابط حضارية جديدة بين الساحل وبين الداخل ، حيث ظهرت بوادر ظهور شعب جديد ذات لغة واحدة وقيم مشتركة [٢].

ساهم النباهنة بدور بارز في رعاية التوجه الثقافي الجديد للمنطقة في ظل الإسلام ولغته ، فعملوا على إنشاء العديد من المساجد والكاتيب والمدارس واستقدموا الفقهاء والمدرسين ، ووفدت أعداد كبيرة من الأفارقة إلى مدنهم الساحلية للدراسة وحفظ القرآن الكريم ودراسة اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي، حيث لاحظ الأفارقة مدى ماتوفره تلك الثقافة لهم من مكانة اجتماعية وأدبية راقية في مجتمعاتهم . وبدأ جيل جديد من الأفارقة في حمل رسالة الإسلام داخل بلادهم وبين قبائلهم .

وبذلك تمكن العمانيون من الاحتفاظ بالمكاسب الإسلامية على الساحل الشرقي لإفريقية حتى تمكنوا من ضمها ، في العصور الحديثة ، إلى دولتهم منذ زمن اليعاربة . خاصة وأنهم قد انتشروا على مدن الساحل انتشارا ملحوظا . بعد أن أصاب الساحلين العماني والإفريقي خطر واحد هو الخطر البرتغالي .

فقد ظل التواجد العماني حتى قدوم البرتغاليين قويا في ممبسة ، حيث وجدت جماعة من قبيلة المناذرة العمانية . وكانت بينهم وبين عمان مراسلات زمن الإحتلال البرتغالي ، كما احتفظ العمانيون بنفوذهم في تانغة بالقرب من ممبسة [٣] وانتشرت قبائل

---

(١) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢) جيان ، وثائق ، ص ٣٢١ .

(٣) - أحمد على ، كلوة ، ص ١٩٢ .

- المغيري ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

عمان من الجنبة والسعديين والمعمري والريامي والحارثي على طول الساحل الشرقي [1] . وكذلك انتشر العمانيون في مالندي منذ تأسيسها في القرن الثاني عشر الميلادي .

وقد تحمل هؤلاء العرب من أهل عمان خاصة،عبأ المقاومة الإسلامية والمحلية ضد الغزو البرتغالي الجديد للمنطقة ، بعد أن أحسوا بمدى خطورة الخطر البرتغالي على دينهم وعلى تجارتهم وأوضاعهم . ولذلك أخذت تلك الصدامات روح الجهاد الإسلامي المقدس ضد البرتغاليين منذ البداية ، على أساس أنها استمرار للحرب الصليبية ضد المسلمين . ويدل مسارعة اليعاربة [2] في إنقاذ مناطق الساحل الشرقي لافريقية منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر في إمامة سلطان بن سيف اليعربي وسيف بن سلطان على أن الإرتباط واضح بين الطرفين : العماني والإفريقي وأن الآمال ووالآلام كانت واحدة بين الساحلين . بعد أن أحسوا أن التواجد البرتغالي في مياه المحيط الهندي يهدد أواصر التبادل والإتصال بين الطرفين . ،مازالت العادات العمانية في الملبس والمأكل والمشرب ومختلف نواحي الحياة اليومية على الساحل الإفريقي . الشرقي عمانية بعض النظر عن الدولة والإقليم الذى تتبعه جماعات السكان حاليا.

امتد الوجود الإسلامي بفضل العمانيين إلى أقصى جنوب الساحل الإفريقي ليصل إلى موزمبيق ومناطق جنوب الساحل الإفريقي [3] حيث ارتبطت سواحل موزمبيق بتوفر خامات الحديد والذهب بها ، وأصبحت المنطقة تعج بالنشاط التجاري والحركة منذ نهاية العصور الوسطى، وإزدهرت على أيدى تجار عمان حتى أندهش فاسكودي جاما حينما

---

(١) المغيرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧، ٧٩ ، ٢٣٧ .

(٢) اليعاربة : دولة أسسها في عمان الإمام ناصر بن مرشد اليعربي بعد أن بويع له سنة ١٦٢٤م واتخذ من الرستاق عاصمة له ، ويرجع إليه الفضل في توحيد عمان من الداخل وإزالة الخطر البرتغالي من الساحل واستأنف خليفته سلطان بن سيف استكمال عمليات طرد البرتغاليين من قلعة مطرح ومسقط ، وبدأ في ملاحقتهم في شرق إفريقية

(٣) ذكر سماحة الشيخ / أحمد بن حمد الخليلي ، مفتى عام السلطنة ، أن هناك جالية عمانية تعمل في التجارة في جنوب إ فريقية ، قدر العدد المسجل منها في المكتب التجاري العماني حوالى ألفين ، مع احتمال أن تكون هناك أعداد أخرى كبيرة .

- محاضرة عن صور ومكانتها التاريخية .

وصل إليها في مارس سنة ١٤٩٨م من وجود منازل أنيقة بها مبنية من الخشب ، ومساجد مبنية من الحجر ، وكذلك بيوت أخرى من الحجر . ويلبس أهلها الملابس [١] الحريرية . وتدل أشكال ملابس أهلها وعاداتهم على التأثير العماني بالمنطقة.

وامتد الانتشار الإسلامي إلى مدغشقر"ملاجاشي"حيث أكدت التنقيبات الأثرية أن العرب كان لهم نشاط بها منذ عصور ما قبل الإسلام ، وتدل وجود عملات رومانية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي ، زمن الإمبراطور قسطنطين ، على وصول تجار عمان والجزيرة العربية إلى تلك الأنحاء . وتأكد هذا الوجود العماني بها بعد أن ثبتت أقدام المهاجرين العمانيين على الساحل الشرقي لإفريقية منذ العقد الثامن من القرن الأول الهجري .

وتوجد أدلة هامة على قوة الوجود العماني والعربي بالجزيرة . ففي شمالها توجد مدينة هامة تسمى سلالا ، وهى إمتداد لنفوذ ساحل ظفار ومدينة صلالة العمانية هناك[٢] والتى ساهم أهلها بدور كبير في التجارة الرومانية والحبشية منذ القرن الرابع الميلادي حينما فرضت أكسوم هيمنتها على منطقة جنوب الجزيرة العربية أثناء إنتكاس تجارة المنطقة وتحول الطرق التجارية عنها . وقد أعتمد الرومان على الأحباش الجلب تجارة المحيط الهندي وشرق إفريقية إليهم وأعتمد الأحباش بدورهم على أهل ظفار وصلالة على جلب مايحتاجون من جزر وسواحل شرق افريقية وسواحل المحيط الهندي ، وقد تأكد ذلك بوجود عملات رومانية في مدغشقر في تلك الفترة . وكانت سلالا مركز التجار مركزا لتجار ظفار العمانية في شمال الجزيرة [٣] .

وبدأت عمليات التواجد الإسلامي في الجزيرة منذ الثلث الأول من القرن الثاني الهجري ، حيث تحولت قبيلة الإنكارا إلى الإسلام ، وبدأت تظهر ملامح إسلامية عامة في الجزيرة . وترسخ الوجود العربي بها حينما تكونت إمارة عربية إسلامية قرب بوينى تسمى "مسليج Masselage" حيث تمكنت جماعة عربية مهاجرة من بات من التوجه جنوبا صوب مدغشقر والاستقرار في المنطقة وتكوين تلك الإمارة . الأمر الذي يعزز الدور العماني في نشر الإسلام بالجزيرة .

---

(١) جبان ، المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

(٢) عبدالحكيم ، المرجع السابق ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان ، جـ ٣، ص ١٣٩

وأصبحت الخطوط الملاحية عبر المحيط الهندي والمتجه إلى مدغشقر تحت سيطرة البحارة والنواخذة العمانيين خاصة في عصور إزدهار الملاحة بين افريقية والخليج العربي في العصر العباسي ، وقد أشار المسعودي إلى ذلك بقوله " إن أهل المراكب من العمانيين يقطعون الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج وأنه ركب من عمان إلى هذه الجزيرة وعاد إلى عمان سنة ٣٠٤هـ /٩١٦م [١] ويتضح من تقاطيع أهلها وأشكالهم وجود أشكال عربية . ومازال العديد من رجال الأعمال بها يدعون أن أصولهم عمانية [٢] .

ويفضل تلك الجهود العمانية أصبحت هناك أعداد من أهلها يعتنقون الإسلام وغلب عليهم الدين الإسلامي منذ القرن الرابع ، حيث أشار الإدريسي في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر الميلادي إلى غلبة الإسلام على أهلها [٣] بحيث انتشرت المساجد في مدنها المختلفة - وانتشرت بينهم التقاليد والأسماء العربية ، كما تنتشر بينهم عادة ختان الأطفال حتى المسيحيين منهم في العصور الحديثة . كما توجد كثير من المفردات العربية في اللغة الملاغيشية [٤].

امتد التأثير الإسلامي والنشاط التجاري العماني أيضا صوب الجنوب ليصل إلى جزر القمر [٥] حيث وصلت سفن أهل عمان إلى تلك الجزر منذ البداية وارتبطت بالتواجد الكبير لتجار عمان . ذلك أن تلك الجزر تمثل مراكز تمثل مراكز تجارية ذات موقع هام بالنسبة لساحل شرقي إفريقية وبربرة مدغشقر . كما أنها تتميز بالبعد عن مشاكل

(١) جيان ، وثائق ، ص ٥١٤ .

(٢) مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٠٦ .

(٣) نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، ص ٣٤ .

(٤) عبدالحكيم ، المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

(٥) تعد حاليا جمهورية إسلامية ذات اتحاد فيدرالي . وتقع في موزمبيق بين ساحل إفريقة الشرقي وبين جزيرة مدغشقر من جهة الشمال وتضم أربع جزر أربع رئيسية كبرى ، بالإضافة إلى عدد كبير من الجزر المرجانية الصغيرة والخالية . ومساحتها الإجمالية حوالي ٢٣٦ ، ٢كم٢ وعاصمتها موروني ، واللغة الرسمية فيها حاليا العربية ثم الفرنسية . ،وهى عضو في جامعة الدول العربية (١٩٩٣م) ومنظمة المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٧٦م . وأهم جزرها :
هنزوان (إنجوان) ، القمر الكبري وبها العاصمة ، مايوته (ماهوري) ، موالى (مهيلي) . ورغم التأثيرات الماليزية السابقة على الجزر إلا أن العنصر العربي تمكن من السيادة عليها حتى الآن .

وصراعات الساحل الإفريقي وأشتهرت مدينة صور العمانية بصلاتها القوية بتلك الجزر ، وقد ذكر المغيرى أن أسرة عربية أقامت في بلدة شنشعوني عاصمة جزيرة أنجوان . كما وصل إليها تجار من مسقط في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وأقاموا في جزيرة انجزيجه .

كما تم الاختلاط بين عرب عمان وبين سكان جزر القمر ، وبدأ أهل جزر القمر يشاركون أهل عمان في أعمالهم على الساحل الإفريقي خاصة في زنجبار حيث ظهر منهم أعدادا كبيرة في مجال التجارة ، ومنطقة بات . وكان للعمانيين السيادة على الجزر حتى قدوم البرتغاليين .

ومازالت مظاهر الحياة الإسلامية واضحة في ملابس الناس وعاداتهم . كما تدل كثير منها على الأثر العماني في الحياة العامة للجزر حتى الوقت الحاضر ، كما تنتشر المساجد الإسلامية والتى يبلغ تعدادها حوالى (٦٧٠) مسجدا وتنتشر بجوارها الكتاتيب والمدارس التى تحتوي على مناهج عربية وإسلامية ، ومازالت اللغة العربية هى لغة الدواوين والحكومة والمعاملات اليومية ، وإن كانت السواحيلية تظهر في عمليات التجار . ويرتبط أهل جزر القمر حتى الآن رغم بعد ديارهم بالعالم الإسلامي في جميع المناسبات الدينية ، عما يدل على عمق الأثر الإسلامي الذي تركه التجار والمستوطنون بين سكان تلك الجزر منذ البداية [١]

واذا كانت جماعات الزيدية قد تمكنوامن نشر الإسلام على سواحل إفريقية الشرقية من جهة القرن الإفريقي ومن بعدهم استمر الحرث لفترة طويلة فإن أهل عمان أصحاب السيادة على سواحل إفريقية الشرقية انطلاقاً من أرخبيل لامو ومنطقة بات ، وساعدهم في ذلك توسط تلك المنطقة على ساحل إفريقية الشرقي ، بالإضافة الى خبرتهم الملاحية العالية على مياة المحيط الهندي وسواحلة ، وانتشارهم الواسع على تلك السواحل ، فأصبح أهل عمان بحق هم الوسيلة التي تم بها التوصل بين سواحل المحيط الهندي . او بين شرق إفريقية والعالم الإسلامي [٢] .

---

(١) ستودارد ، المرجع السابق ، جـ٣، ص ١٤٤ .

(٢) ستودارد ، المرجع نفسه . ص ١٤٥ .

وقد حمل أهل عمان راية الإسلام مع سلعهم ، فنشروا الدين الجديد بين الناس في كل مكان ، وكان ذلك بالحسنى والقدوة الحسنة ، ولم يزاحموا أحداً في مذهبه ، أو يجبروا أحداً على الدخول في دينهم ، وكان لذلك أكبر الأثر في انسياب الإسلام بين الملايين من شرق إفريقية . وشاركهم أيضاً إخوانهم من عرب الخليج العربي واليمن والحجاز والهند وفارس. ولكن دورهم كان بارزاً ومميزاً ومستمراً عن باقي الأدوار الأخرى .

ولقد أحس الأفارقة بنعمة الدين الجديد فقاموا بحمل دينهم الإسلامي إلى إخوانهم داخل القارة ، مع إخوانهم من تجار العرب وبدأ انسياب الإسلام صوب قلب القارة . ومازال مستمرا بعد أن حمل رايته أهل القارة الإفريقية وأحسوا أن فية كل الخير لهم [1] .

---

(١) مؤنس ، الإسلام الفاتح ، ص ١٨٦.

(٤)

توجة التيار الإسلامي إلى وسط إفريقية

ظل الساحل الشرقي لإفريقية أشبة برصيف طويل لشحن سلع إفريقية. وعلى طول هذا الساحل من الشمال الى الجنوب انتشرت مراكز ومستوطنات كان مهمتها الأساسية تجميع سلع إفريقية وتجهيزها للشحن الى بقاع أخرى . وبالتالي ارتبطت تلك المراكز الساحلية بوسط القارة الإفريقية عبر طرق ودروب شاقة .

كان الاعتماد على وصول السلع الإفريقية إلى المراكز الساحلية يعتمد على جهود القبائل الإفريقية من جماعات البانتو ، حيث ادركت تلك الجماعات اهمية عوائد تلك الوساطة التجارية ، ومع قدوم الجماعات العربية وجاليات التجار ، بدأت عمليات انشاء مستوطنات ، حيث تم فيها الا ختلاط مع جماعات الزنوج ، وبدأت جماعات عربية أو إسلامية تتجة إلى مصدر السلعة ومنبع إنتاجها تحت تأثر البحث عن ربح أوفر ، او تحت ضغط جماعات أقوى على الساحل . ومع نهاية العصور الوسطى بدأت أواسط القارة الإفريقية تشهد نشاطات وتحركات لجماعات عربية ظهرت آثارها في العصر الحديث .

وكانت منطقة البحيرات التي تقع الى الغرب تنجانيقا من أهم المناطق التي شهدت توغل التجار العرب والمسلمين منذ البداية من منطقة شرق القارة . فمنذ مطلع القرن الأول للميلأد شهدت منطقة البحيرات هجرات مستمرة من قبائل البانتو الإفريقية ، واستمر نزوحهم عبر تلك البحيرات صوب الشرق فيما بعد ، فيما عرف باسم جماعات البانتو الشرقيين . [١] واستقروا في مناطق رواندا وبوروندي . وشكلوا في تلك لمناطق الجديدة وحدات قبلية وسياسية عديدة ، وأصبحت أوطاناً لهم . وخلأل تلك الفترة من التاريخ القديم استمرت جماعات البانتو في العمل في مجال الصيد البحري والزراعة وفي مجال التعدين [٢] .

وقبل العصور الوسطى وفدت أيضاً عناصر جديدة إلى منطقة البحيرات كان

---

(١) عوض ، الشعوب والقبائل ، ص ٣١٤ .

(٢) الجوهري ، الإنسان وسلالاتة ، ص ٤٣٥ وما بعدها .

مصدرها من الشمال من مناطق جنوب السودان من مناطق البحيرات الإستوائية ، حيث قدمت إلى منطقة البحيرات مجموعات من العنصر النيلي الحامي قادمين من منطقة بحر الغزال . وتركزت على الناطق المرتفعة ولذلك عملت في مجال الرعي في المراعي الخصبة ، وتسمى تلك العناصر في رواندا باسم الباتوس . وتمكن هؤلاء النيليين من تكوين ممالك وإمارات في صور إقطاعية في المنطقة ، بجوار جماعات البانتو .

أصبحت المراكز الساحلية العربية والإسلامية مرتبطة مع الإمارات والمملك الزنجية للجماعات البانتوية والنيلية بمصالح تجارية ، وتطورت تلك المصالح والعلاقات بين الطرفين في توجة العيد من الأفراد من البانتو والنيليين للإقامة في المراكز الساحلية والعمل في مجال التجارة والتبادل . كمابدأت جماعات عربية في التوجة صوب الداخل وتأسيس مستعمرات عربية وإسلامية للتجارة مثل : تابورا Tapora . وأوجيجي Ugigi وكاسنغو Kasongo. وهي المركز التي ظلت مرتبطة بالوجود الإسلامي والعربي في شرق القارة الإفريقية ، حيث شكلت تلك المراكز نقاط متقدمة في القلب الإفريقي ، لكنها ظلت مرتبطة في وجودها وأمنها بأوضاع الساحل رالظروف المحيطة بة .

ظل التقدم الإسلامي إلى داخل القارة الإفريقية يواجه بالعديد من الصعوبات من أهمها خطرين هما .

الأول : الأخطـار الطبيعيـة :

وتتمثل في وجود نطاقات كبيرة من الغابات الكثيفة خلف خط الساحل تتخللها الأحراش والأنهار ، كما توجد مناطق المرتفعات ومساقط المياه . وهى ظواهر لم يألفها العـرب من قـبل في أوطانهم الأصليـة . كـمـا أن مناخ الغـابات يخـتلف عن مناخ الصحاري[1] وقد سببت تلك الظواهر عوائق صعبة أمام توغل جماعات العرب نحو الداخل ، واستمرت عمليات التقدم في صور فردية ومغامرات للجماعات [2] .

---

(١) أبوعيانة . ، الجغرافية الإقليمية ، ص ٤٥٩ .

(٢) زكريا ، دور العرب في كشف إفريقيا ، ص ١٨٩ وما بعدها . عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الرابع ، الكويت .

الثاني : القـوى القبـليـــة :

انتـشرت في مناطق الغـابات وحـول البـحـيرات وداخل جزرها قـوى قـبلية ذات إمكانيات قتالية مناسبة لظروف بيئتها ، ولها دراية بطبيعة المنطقة ، وكثير ما قامت بشن هجمـات قـوية على الإمـارات والسلطنات الإسلامـيـة . وفـشلت محـاولات عـديدة لإستـمالتـها نحو إمـارات الساحل لكنها كانت تنزع الي الإستقلال باستمرار ، كما كانت متأهبة للحرب والعدوان . وكثيراً ماهددت العرب والمسلمين المتجهة او العائدة من الداخل ، وكثـيراً مـا عـرضت حيـاه التجار للخطر ، وكانت سبباً في إرهاق الوجود العربي على الساحل لفترات طويلة ، واتجاهه إلى التوسع شمالاً أو جنوباً دون التوجة صوب الداخل .

وكـانت تلك القـوى ذات آثار سلبـية على عـمليـة الوجـود الإسلامي والعربي على السـاحل ، إذ كثـيراً مـا وقع نزاع بين القوى الإسلامـية الساحلية بسبب تمركزها على خط واحد وكثافة زعـاماتهـا في بعض المناطق مع فـشلها في توحيد كلمتها . وكثيراً مالجأت بعض الزعـامات الساحلية صوب الداخل للاستعانة ببعض القوى القبلية الإفريقية لتصفية حساباتـها مع قوى أخرى مجاورة لها على الساحل . وكان ذلك سبباً في عدم ظهور وحدة قومية على الساحل الإفريقي الشرقي .

ومنذ بداية القرن السادس عشر اضطرت الجماعات العربية والإسلامية الساحلية إلى الفرار والتـوجه صوب الداخل ، ورغم علمها بصـعوبة الجهـات التي تقصدها ، إلا أنها اضطرت أمام بشـاعـة اعـمـال البرتغاليين في المناطق التي تخضع لهم [1] . خاصـة وأنهم وجدو السـاحل الشرقي الإفـريقـية يخضع للمسلمين وأن المحيط الهندي أشبه ببـحيرة إسلامية ؛ فتفننوا في القضاء على المسلمين بشتى الطرق والوسائل [2].

بدأت الجـماعات العربيـة والإسلامـية في شق طريقها صوب الداخل عبر عدة طرق ودروب صعبة أهمها :

(١) طريق مدينة باجيموي ومدينة تانجا Tango إلى شمال غرب بحيرة فيكتوريا . ويمتد هذا الطريق إلى الشمال حتى يصل إلى دولة أوغندا ومنابع النيل الإستوائية .

---

(١) المغيري : جهينة الأخبار ، ١٨٧ ومابعدها .

(٢) مسعود ، جمال ، جمعة ، وفاء ، إفريقيا التي يراد لها أن تموت جوعاً ص٢٠٢ .

(٢) طريق تابورا : المتجه إلى تنجانيقا حتى يصل إلى أوجيجى ، ويتجه بعد ذلك صوب الشمال إلى رواندا وبورندي . وأصبح هذا الطريق هو المألوف لحركة القبائل العمانية، حيث ذكر المغيري أسماء عددا من القبائل العمانية تمكنت من اختيار هذا الطريق صوب قلب القارة الإفريقية هروبا من البرتغاليين أو بحثا عن مناطق جديدة للعاج والذهب والجلود [١] وانتشرت على طول هذا الطريق عدة مراكز ومستوطنات عربية وخاصة من العمانيين . وعبر هذا الطريق اتجه التاجر العماني حميد محمد المرجبي الملقب بـ " تيبو تيب" من الوصول إلى حوض نهر الكونغو .

(٣) طريق ممبسة ويتجه صوب إقليم كليمنجارو ، وإقليم بوسوقا داخل القارة الإفريقية كما كان يتصل بأوغنده صوب الشمال الغربي .

وبسبب انتشار القبائل الزنجية على الطرق السابقة وحولها ، فقد كانت عملية التوغل في القارة محفوفة بالمخاطر بصورة مستمرة ، خاصة وأن منطقة رواندا وبوروندي قد خضعت لسيطرة ملوك أقوياء كانوا لا يسمحون لأى قوى خارجية سلمية أو غير سلمية بالمرور عبر أراضيهم ومناطق نفوذهم ، بما في ذلك التجار العرب الذين كانت لهم مصالح تجارية في الداخل ، وكان بعض هؤلاء التجار يفضل الوصول إلى الداخل للتفاوض على السلعة أو جمعها لما يدر عليه ذلك من أرباح . وكان هؤلاء يغامرون بأرواحهم في كثير من الحالات رغم الهدايا التى يحملونها معهم ، حتى يتفادون الصدام بتلك القوى[٢].

كان تحرك التجار العرب والعمانيين صوب الداخل ، قد بدأ في التحسن بصورة بطيئة ، حينما أنشأ التجار مستوطنة لهم في منطقة كارجوى Kargwe في غرب تنزانيا ، وبدأ هؤلاء التجار المسلمون في دخول مملكة روندا وبوروندي . وكانت المملكة في أوج قوتها في زمن الملك روابقيري الذي مد نفوذه وسلطته لمسافات كبيرة في قلب القارة الإفريقية . ومن تلك المراكز التى أسسها التجار العرب في شرق تلك المملكة ، بدأ التجار العرب في اختراق حواجز مملكة روابقيرى وأقاموا علاقات مع زعماء المنطقة ، رغم رفض الملك إقامة علاقات مع أى قوى خارجية ، وتردد مثل بينهم يقول " إنه من السهل الدخول

---

(١) جهينة الأخبار ، ص ٢٢٢ ومابعدها .

(٢) القائد ، محمد سليمان ، قصة دخول الإسلام إلى رواندا ، مقال بمجلة كلية الدعوة الإسلامية ، ليبيا ، ١٩٩٠ ، ص ٥٣٨ ومابعدها .

إلى رواندا ولكنه من الصعب الخروج منها " ولذلك فشلت المحاولات الأولى ، ولكن في النهاية بدأت بعض الشخصيات العربية في المرور بالمملكة [١] .

ومع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي فتحت رواندا حدودها للتبادل التجاري المباشر بعد أن كانت هناك مجموعات من التجار المسلمين قد تسللوا داخل أراضيها . وكان هذا الإنفتاح مترتبا على وصول حملة عسكرية ألمانية معتمدة على قوات عربية من الساحل لمعرفة البلاد . وبدأت جماعات التجار في التوافد على أراضي رواندا وبوروندي من أراضي تنزانيا والمراكز الساحلية ومن الشمال عبر أوغندة .

وبدأت عمليات انتشار الإسلام داخل تلك المناطق في القرن العشرين ، حيث بدأت المستوطنات التجارية تؤثر في المحيط الزنجي الوثني المحيط بها . كما قام التجار العرب بإقامة مدن جديدة مثل كيجالي (العاصمة الحالية) وتم بناء أول مسجد بها سنة ١٩١٤م ، في حي بنارامبو [٢]، رغم موقف الجماعات الأوروبية وفرق التنصير ، التى كانت نشطة في تلك الأنحاء .

وكانت سرعة انتشار الإسلام في قلب القارة يرجع إلى الجهود السابقة لجماعات التجار العرب داخل القارة الإفريقية منذ العصور الوسطى وماتركوه من أثر حسن في نفوس الأفارقة عن الإسلام ومثله ومبادئه . كما كان هؤلاء التجار على علم بعادات وتقاليد تلك المناطق من قبل بسبب العلاقات السابقة معهم . وقد أزعج هذا الأمر الألمان فيقول أحد المبشرين " إن السواحيليين والتجار الهنود والجنود من السودان والعرب الذين يعلمون القرآن كانوا يلاحقون في كل مكان موظفي السلطات الإستعمارية وفي ظل الألمان بدأ الإسلام يكسب كل يوم أراضى جديدة [٣].

ورغم التعاون الذي حدث في بادىء الأمر بين بعض الأفراد العرب وبين الأوروبيين فإن العرب قد استغلوا ذلك في نشر الإسلام ، وقد أدرك الأوروبيون هذا الأمر . ذلك أن الألمان قد استعانوا بالمسلمين في منطقة البحيرات على أساس أنهم أكثر خبرة وثقافة

---

(١) المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٢٢١ .

(٢) القائد ، المرجع السابق ، ص ٥٣٩ .

(٣) القائد ، نفس المرجع .

وتجربة بمناطق القارة ، وأنشأت حكومة ألمانيا آلاف الوظائف لهم في وسط إفريقية ، لكن هؤلاء الموظفون استغلوا هذا الأمر في نشر الإسلام بين سكان المناطق الإفريقية التى يعملون بها ، في الوقت الذي بدأت فيه الحكومة الألمانية تعمل على شق طرق ممهدة جديدة وآمنة ، وبناء شبكة من السكك الحديدية ،

وبذلك سايرت حركة المد الإسلامي داخل القارة مراحل التدخل الأوروبي فيها وكان لعرب عمان دور ذلك حيث ظهرت منهم أسماء كان لها الدور الكبير في نشر الإسلام داخل القارة في تلك الفترة . وبدأت السلطات الإلمانية تتنبه إلى عمليات انسياب التيار الإسلامي داخل القارة ، في الوقت الذي كانت تلك السلطات مشغولة بإشعاع نهمها المادىء من ثروات إفريقية .

وفي سنة ١٩١٠م عقد في مدينة برلين مؤتمر أوروبي ، تم فيه مناقشة التحديات التى يواجهها الأوروبيون في القارة الإفريقية . وتم مناقشة عمليات انتشار الإسلام بين الأفارقة وتم وضع الحلول والوسائل لمواجهة هذا المد . وكان من تلك الحلول تقديم المساعدات المالية والعسكرية الفعاله للإرساليات المسيحية خصوصا في مجال التعليم والصحة . وأخذت السلطات الأوروبية تناقش أوضاعها في القارة في ضوء تلك التطورات الجديدة واتخذت من وسائل لمنع انتشار الإسلام بين الوثنيين [١].

من جهة ثانية أخذت البعثات المسيحية تناقش برامج أعمالها الجديدة في المستقبل لتضييق الخناق على عمليات المد الإسلامي ، وبدأت تعقد الإجتماعات فيما بينها من أجل التنسيق في الجهود ، بعض النظر عن إنتماءاتها الكنسية واللاّهوتية ، واتخذت قراراتها بالتعاون مع السلطات الإستعمارية من أجل قطع الطريق على عمليات التحول الإسلامي ، وكانت البعثات البروتستانية من أنشط تلك البعثات ، حيث كان لها نشاط قوى في المناطق الإستوائية في أوغندا ورواندا وبورندي وزائير [٢] .

كانت أولى تلك الخطوات اتباع سياسة العزل العنصري ، حيث ترتب على ذلك أن انحصرت الجماعات المسلمة داخل الغابات والأحراش في ظروف بيئية صعبة وأمام

(١) القائد ، المرجع السابق ، ص ٥٤٣ .

(٢) مسعود ، وفاء ، إفريقيا التى يراد لها أن تموت ، ص ٧٨ .

الحيوانات المفترسة بينما تمتعت المناطق التى تديرها البعثات المسيحية بكافة مستلزمات وإمكانيات التنمية والخدمات . كما ربطت السلطات الإستعمارية بين الإسلام وبين العنصر السواحيلي بحيث كان يلحق بالعنصر السواحيلي أشد معاني الإزدراء والاحتقار[1] ، على أساس دوره النشط في نشر الإسلام في قلب القارة .

أقدمت السلطات الأوروبية في رواندا وبورندي على خطوة جديدة حينما عملت على منع تحرك العناصر العربية والإسلامية داخل مدن رواندا وبوروندي ، وحصرت إقامتهم داخل أحياء معينة أشبه بالمستعمرات داخل مدينة كيجالي ومدينة بوجمبورا ، وظهرت لهم أحياء خاصة في المدن الأخرى ، وكانت تسمى باسم " الحى السواحيلي " حتى أن الملك الرواندي موسنيقا أقدم على إصدار قرار تحت تأثير السلطات الاستعمارية الألمانية يمنع بمقتضاه المسلمين الروانديين الجدد من العيش مع أسرهم أو عشائرهم .

وامتدت السيطرة الاستعمارية لدول وسط القارة لتشمل المؤسسات التعليمية التى خضعت لإشراف الكنيسة ، وحرم المسلمون من تكوين مؤسسات تعليمية لهم بحيث بدأت تتدنى نسبة المتعلمين بينهم وتسود بينهم مظاهر الجهل والفقر والمرض ، [2] وأصبحت نسبة المسلمين في رواندا حاليا لاتتعدى ٨,٥٪ من مجموع السكان . بينما ارتفعت نسبة الكاثوليك إلى ٤٧,٤٪ ، والبروتستانت إلى ١٤,٨٪ مع وجود ٢٩,٣٪ من سكان المنطقة على الوثنية .

وعلى صعيد آخر استمر تدفق الهجرات العمانية والعربية داخل قلب القارة عبر طرق أخرى شمال البحيرات في منطقة " انينمونرية " [3] حيث كان ممرا" للتجار العرب إلى الداخل وأسس العرب هناك مركزا" تجاريا" في بلدة "تبورة" وأصبحت مركزا" لنشاطهم ، حيث كان هذا المركز يتفرع منه طرقا" هى : -

- الأول : شمالا صوب أوغندة .

---

(١) القائد ، المرجع السابق ، ص ٥٤٣ .

(٢) قامت ليبيا ودولة الإمارات العربية المتحدة بانشاء مسجد ومدرسة ثانوية ومكتبة ومعهد إسلامي في رواند سنة ١٩٨١ م .

(٣) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

- الثاني : جنوبا صوب الجنوب إلى أوجيجي ورواندا وبورندي .
- الثالث : غربا صوب الكونغو
- الرابع : إلى بلاد أوروري جنوبا .

وكانت معظم الطرق السابقة تتمركز في بنادر باج مويو ، وبنغالي [1] ولذلك لقربهما من زنجبار التى أصبحت عصب الحياة السياسية والإقتصادية في الشرق الإفريقي في العصور الحديثة ، كما كانت المركز الهام لحركة التصدير وحركة تداول المال في المنطقة . ولم تهمل تلك المراكز إلا حينما اتخذت ألمانيا دار السلام عاصمة لمستعمراتها الإفريقية ، كما أقامت بها محطة كبرى للسكك الحديدية ، فتعطلت باج مويو وبنغاني وفقدتا مركزهما وانتقل منها التجار إلى دار السلام [2].

ومهما يكن من أمر فإن الفضل الكبير في عمليات إمتداد النفوذ الإسلامي والعربي إلى داخل القارة الإفريقية يرجع إلى العمانيين حينما تمكنوا من ضم شرق إفريقية بصورة رسمية إليهم في زمن دولة اليعاربة ثم دولة البوسعيد ، حيث أصبحت لأهل عمان في المنطقة نفوذ واضح وقوة رادعة أمام أى خطر من الداخل ، وبفضل هذا الأمر بدأت عمليات زحف التجار إلى داخل القارة .

ويعتبر عام ١٨٤٠م أهم علامة في عمليات انسيان الإسلام داخل القارة الإفريقية ، وذلك أن السيد / سعيد بن سلطان البوسعيدي ، أدرك مدى أهمية الساحل الشرقي لإفريقية في موارد واقتصاد إمبراطوريته التى أصبحت تسيطر على أهم مراكز التجارة في الخليج العربي والمحيط الهندي ، ولذلك قرر جعل زنجبار عاصمة ثانية لملكة . وكان لهذا القرار آثار ايجابية على التواجد العربي والإسلامي لشرق القارة الإفريقية ووسطها ، حيث بدأت عمليات استغلا واسعة للأراضي الزراعية في شرق إفريقية ووفدت جماعات عديدة من التجار ورجال الأعمال إلى المنطقة وانتعشت شرق القارة اقتصاديا وحضاريا وذلك بفضل السياسة الحكيمة التى انتهجها السيد /سعيد بن سلطان مع القوى المحلية في القارة والمجاورة له ، ومع القوى العالمية الكبرى [3].

---

(١) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥.

(٢) المغيري ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

(١) صغيرون ، المؤثرات الحضارية العمانية في شرق إفريقيا في ظل دولة البوسعيد ، ص : ١٤.

وبفضل تلك الأوضاع الجديدة بدأت قوافل التجار العمانية تشق طريقها إلى مناطق جديدة داخل إفريقية [1] حتى وصلت سنة ١٨٤٣ إلى مملكة يوغندة ، وإلى شاطىء بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٤٣م أيضا . وبدأت لأول مرة اتصالات بين قوى شرق القارة الإفريقية وبين قوى شمال إفريقية والبحر المتوسط وهى مصر ، التى كانت بدأت تخطط في التوغل في المناطق الإستوائية ومد النفوذ المصرى هناك ، واستمرت تلك السياسة زمن محمد علي وأبنائه ، فبدأت تتسع مجالات العلاقات بين محمد على وبين الإدارة العمانية في زنجبار .

وبدأت لأول مرة في تاريخ القارة الإفريقية ربط سواحلها الشرقية بسواحلها الغربية بطريق مباشر عبر الأدغال والغابات . يبدأ من قبالة زنجبار ويتجه غربا" حتى يصل بنقويلا Bengwela على الساحل الإفريقي المطل على المحيط الأطلسي ، عبر بحيرة تنجانيقا سنة ١٨٥٢م ، ووصلت بالفعل في هذا العام أول قافلة عمانية من الساحل الإفريقي المطل على المحيط الهندي إلى الساحل الإفريقي المطل على المحيط الأطلسي .

وبدأت أسماء عمانية تلعب دورها البارز في نشر الإسلام والعروبة والاحتفاظ بالمصالح العربية في داخل القارة الإفريقية ، ومن الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، التاجر العماني حميد بن محمد المرجبي ، ووكيله الشيخ/ محمد بن خلفان البرواني [2] . فقد تمكن التاجر العماني من التوغل داخل القارة صوب الكونغو ، وقام بتأسيس إمارة عمانية ذات طابع عربي وإسلامي في أعالى الكونغو [3] ، وبسطت تلك الإمارة نفوذها على الحركة التجارية في قلب القارة الإفريقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حيث ازدهرت تجارة العاج على يد المرجبي وأعوانه من السواحيلين [4].

قام المرجبي ومن معه من تجار عمان بتأسيس مدن جديدة في كل من كاسنجو وبنانجوى ، على نفس النمط المعماري العربي على ساحل إفريقية الشرقي ، وأصبحت كاسنجو عاصمة المرجبي ومن معه من السواحيليين . وقدمت إليها عناصر عربية فزاد عدد سكانها إلى ثلاثين ألفا" من العرب والإفارقة ، وامتد فيها العمران إلى المناطق

---

(١) حسن محمود ، الإسلام والثقافة ، ص ٤٥٠ .

(٢) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

(٣) صغيرون ، المرجع السابق ، ص ١٨.

(٤) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

المجاورة ، وأصبحت بمثابة منارة حضارية في وسط القارة الإفريقية . حيث قدم إليها رجال الأعمال من عمان وغيرها وأخذوا في استغلال أرضها الزراعية وأدخلوا إليها محاصيل زراعية جديدة مثل : قصب السكر والأرز والذرة وأنواع عديدة من الفاكهة ، وقد أنتجت تلك المزارع كميات وفيرة من الحبوب والفاكهة ، درت على تجار عمان والساحل أرباحا" وفيرة في ظل رخص الأيدي العاملة فيها .

وانعكس الازدهار الإقتصادي لإمارة كاسنجو في عمارة بيوتها العالية الواسعة والمنظمة ، كما قام المرجبي بتأسيس إدارة لها وتشكيل مجلس للشورى بالإمارة التى زاد عدد سكانها . وكان هذا الإزدهار قد أثار حقد البلجيك فاتجهوا صوب إمارة المرجبي ، وعاد المرجبي إلى الساحل من جديد وتوفي في زنجبار سنة ١٩٠٥م . بعد أن ساهم برجاله في نشر الإسلام وثقافته داخل القارة الإفريقية ووضع الأسس في استغلال إمكانيات تلك المناطق البدائية وفق أساليب عصرية .

ساهمت عناصر من تجار عمان أيضا في تعمير الداخل الإفريقي ونشر الإسلام والعروبة في أماكن بعيدة نحو الكونغو ، وكان من هؤلاء الرواد العمانيين سعيد بن محمد العيسري ، وحبيب بن سالم العفيفي ، وهما أول من دخل الكونغو من أهل عمان ، ثم ناصر بن سيف المعمري ، وعيسي بن عبدالله الخروصي ، وعبيد الله بن سالم الخضوري ، وقد نزلوا الكونغو أيضا ونزل بها أيضا من تجار عمان جمعة بن سالم البكري [١] وقد كان لهؤلاء دور هام في تنشيط تلك المناطق الجديدة ونشر الإسلام لأول مرة بين سكانها .

وقد كان لهؤلاء الفضل في شق وتمهيد طرق جديدة بين شرق القارة الإفريقية وبين وسطها مثل طريق مامي وكسنغاني بوسط إفريقية ، وتحملوا العديد من العقبات والمشاق والمخاطر من غابات موحشة وجبال عالية وسباع ضارية وفيلة متوحشة عظيمة الحجم ، بالإضافة إلى مشاكل القبائل الوثنية ومنها أكلة لحوم البشر التى تردد ذكرها من قبل الرحالة والتجار . ويذكر المغيري أن من هؤلاء التجار من مر بمناطق بدائية موغلة في التخلف أهلها عراة ، ولما رأوا هؤلاء التجار العمانيين وعليهم اللباس الجيد والملون اعتقدوا أن هؤلاء الناس قد هبطوا عليهم من السماء [٢] .

---

(١) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) المغيري ، المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

وقد ساهم هؤلاء التجار في تعمير تلك المناطق البدائية ، حتى وصلت إليها يد الإستعمار البلجيكي ، فقام الملك البليجكي ليوبولد الثاني بإنشاء الرابطة الدولية لاستغلال ثروات الكونغو ، كانت لها أثر فيما بعد في نهب ثروات الكونغو خارج القارة وعودة أهلها إلى الفقر والجهل والتخلف [١] بعد أن كان تجار عمان قد وضعوها على بداية سلم الحضارة والتقدم ، حتى وصلت جهود أهل عمان إلى جزر البحيرات الإفريقية مثل جزيرة أوفير بالقرب من أوجيجي والتى استقر بها ناصر بن سيف المعمري [٢].

توغل العمانيون إلى داخل الكونغو ، حيث وصل حبيب بن سالم العفيفي ، ومحمد ابن سعيد العيسري إلى منطقة تسمى وردّة داخل الكونغو ، حيث تتوافر كميات كبيرة من الذهب [٣] ومن خلال تلك القدرات العمانية وصلت تلك المناطق إلى درجات متقدمة في المضمار الاقتصادي . حيث ارتبطت عبر طرق برية بساحل إفريقية الشرقي وأصبحت سلع عالمية .

كان لأهل عمان دورهم الكبير في تطور أساليب الحياة والتعامل داخل القارة فيرجع إليهم الفضل الأول في إستخدام التداول النقدي على ساحل القارة في العصور الوسطي وفي داخل القارة في العصور الحديثة . بعد أن كانت العمليات التجارية تتم عن طريق التبادل وما يعرف في بعض الأحيان بالتجارة الصامته في المناطق البدائية المتخلفة ، فاستخدمت العملات الإسلامية والعمانية والهندية ثم دخلت عملات أوروبية متنوعة ، لتظهر في منطقة شرق إفريقية ووسطها مسلة متنوعة من العملات تذبذت أسعارها وقيمتها . حتى جاء السيد / سعيد بن سلطان ، فاستورد كميات كبيرة من القطع المعدنية النحاسية وضرب عليها اسمه [٤] . مما أدى إلى استقرار الوضع النقدي والإقتصادي في المنطقة . حيث تمتعت عملة السيد /سعيد بالثقة في السوق العالمية بسبب متانة الإقتصاد العماني في عصره .

---

(١) مسعود ، وفاء ، إفريقيا التى يراد لها أن تموت جوعا ، ص ٧٩.

(٢) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣) المغيري ، المصدر نفسه . ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤) مصليحي ، محي الدين ، النشاط التجاري في شرق إفريقيا في القرن التاسع عشر حتى بداية السيطرة الأوروبية على المنطقة ، ص ١٧٩ - ١٨١ ، القاهرة .

ازدادت الاستثمارات العمانية والعربية في شرق إفريقية وفي داخلها ، حيث وصلت سنة ١٨٧٣م إلى ١,٦٠٠,٠٠٠ دولار ، بعد أن وصلت أرباح السيد / سعيد بن سلطان من تجارته إلى ١٠٠,٠٠٠ دولار سنويا" ، ومن مزارعه إلى ٥٠,٠٠٠ دولار سنويا" فضلا عن موارد الجمارك والضرائب [١] ، وكانت الأموال قد كثرت في يد الناس في هذا العصر من الزراعة والتجارة . وكانت قوافل العرب نشطة على طول خط الساحل الشرقي لإفريقية رائحة وغادية ، وتتردد في داخل إفريقية للبيع والشراء ، وتعود بأموالها الوفيرة . وأصبحت معيشة الناس غاية في اليسر، حتى أن اللحم والأرز واللبن لايكاد يباع بثمن ، والغني والفقير سواء في الحصول الحصول على أساسيات الحياة [٢] .

وأجتذبت شرق القارة ووسطها العديد من العرب والمسلمين من كافة الأجناس فقد قدمت إليها عناصر إسلامية من حضرموت والشحر والمكلا وعملوا في وظائف دولة البوسعيد وفي جيوشهم وفي مناصب علمية ، كما وفدت إلى المنطقة جماعات من الهنود ومن البلوش . وساد بين الناس عدم التعصب في العرق أو الدين . كما وفد العديد من أهل فارس وعملوا في الإدارة والتجارة [٣] ووسع السيد/ سعيد هؤلاء جميعا بسياسته وأفقه الواسع ، حيث أصدر أوامره لعماله بعدم التعرض للمذاهب الدينية [٤] .

ويفضل هذا الازدهار الكبير الذي عم شرقي إفريقية بفضل سياسة أهل عمان ، فإن الجهود كانت واضحة لبشر الإسلام والثقافة العربية في المنطقة وفي وسط القارة ، حيث ساد استعمال اللغة العربية في مدن ومراكز الساحل ووفد العديد من العلماء والفقهاء من اليمن وحضرموت وعمان وغيرها للإستقرار في المنطقة ، وبلغت تلك النهضة شهرة عالية طبقت الآفاق بحيث ربط القوى الإفريقية بين الإسلام وبين التطور والمدينة والحضارة ، ونجد في حادثة ملك أوغنده موتيا في داخل القارة مثالا على ذلك . فقد أعجب الملك الأوغندي موتيا بالإسلام وأهله ، وتمنى أن يكون في دولته رجال من علماء المسلمين يقومون بهداية شعبه إلى الإسلام ، وتعريفه هو شخصيا بالإسلام . ومن أجل ذلك بعث الملك الأوغندي إلى الخديوى اسماعيل حاكم مصر (١٨٦٥ - ١٨٨٢م) يطلب منه أن

---

(١) صغيرون ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) المغيري ، المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٣) المغيري ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ .

(٤) المغيري ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ /١٧٥ .

يبسط نفوذه على أرضه في أوغندا ، وأن يبعث باثنين من العلماء المسلمين لهدايته وهداية شعبه إلى الإسلام . وقد أرسل الخديوى بعض الدعاة من مصر ، وكان لهم أثر في نشر الإسلام في أوغندا ، غير أن الخديوى اسماعيل ارتكب خطأ حينما عهد إلى ضابط انجليزى ليقوم بخطوات ضم أوغندا إليه [1] وقد تكررت نفس المآسي مع طلب حكومات أخرى [2] .

ويفضل الجهد العماني أصبحت منطقة أوغندا مهيأة لنشر الإسلام ، إذ انتشرت فيها جماعات التجار ، وأنتشرت بين سكانها وقبائلها اللغة العربية واللغة السواحيلية ، رغم بعدها من الساحل الإفريقي [3] . وبفضل هؤلاء التجار العمانيين بدأت عمليات استغلال مناطق أوغندا وقد صحب العمانيون في عمليات التردد على منطقة أوغنده جماعات من الهند من منطقة كوجيرات ، وقد أصبحت لتلك الجالية وجود واضح في الحياة الإقتصادية الأوغندية فيما بعد حيث وصل نسبتهم حاليا إلى (١٪) من السكان[4] .

وكان تجار عمان بمثابة دعاة للإسلام بما تحلوا به من الرفق والسماحة والكرم والدبلوماسية في التعامل مع الشعوب والقبائل الإفريقية بغض النظر عن مستوياتها الحضارية ، وكان لاعتمادهم على أعداد كبيرة من الزنوج في إدارة أعمالهم الأثر الكبير

---

(١) ضناوي ، الأقليات المسلمة ، ص ٢٨ ومابعدها .

(٢) وفي بداية القرن العشرين طلب امبراطور اليابان من السلطان العثماني عبدالحميد(١٨٧٦ - ١٩٠٨م) أن يرسل إليه دعاة مسلمين لإبلاغه والشعب الياباني بمبادىء الإسلام فاستدعى السلطان عبدالحميد جمال الدين الأفغاني واستشاره في الأمر ، فحذر جمال الدين الأفغاني السلطان عبدالحميد من مستوى علماء المسلمين في عصره وأنهم ليسوا على المستوى المطلوب ، وطلب منه أن تدرب جماعة أخرى من العلماء على الدعوة في مثل تلك البلاد ، فامتنع السلطان عبدالحميد وأرسل برد ودي على امبراطور اليابان مصحوبا" بهدية ووعد بتلبية رغبته .
- السامرائي ، الدعوة الإسلامية في اليابان ، ص ٦٣٩ .

(٣) تسود في أوغندا حاليا اللغات التالية : الإنجليزية ، السواحيلية ولغات محلية . ونسبة المسلمين بها ٣٦٪ ، بينما ، المسيحية حوالي ٣٠٪ " والوثنية ٣٠٪ من السكان .
- يونس ، المرجع السابق ، ص ٧٤ ، ٧٩٢ .

(٤) يونس ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

في تحول هؤلاء إلى الإسلام لارتباطهم بأعمال المسلمين .

ومازالت الأدلة عديدة تشير إلى الدور العماني الكبير في تطوير شرق القارة ووسطها فأنتشرت الأزياء العربية العمانية بين أغلب مناطق شرق إفريقية . من العبارات العربية والهمائم وارتدت النساء الإفريقيات العباءات العربية أيضا الخاصة بالنساء وانصهرت أسر إفريقية عديدة داخل البيوتات العمانية مكونة مجتمعا إسلاميا لايعرف العصبية وأصبحت قيم تلك الأسر جزء من العادات والقيم الإسلامية والعمانية [١].

وكان لتجار عمان أيضا الفضل في القضاء على كثير من العادات والتقاليد الوثنية على مستوى القبائل والحكام . ومن ذلك ماوقع للتاجر العماني الشهير الذي تردد على أوغنده وهو الشيخ/ أحمد بن إبراهيم العامري ، فقد واجه عادات أوغندية وثنية لاتتفق مع الإسلام ، تتمثل في بعض ممارسات الملك الأوغندي والتى لاتتفق مع الرسلام ، حيث عكيك الملك على شعبه سلطات تبيح له سفك دماء الأبرياء تمشيا مع الطقوس الوثنية في بلاده والتى تعرف عندهم باسم " لوباري Lubaare " وكانت منتشرة في البلاد [٢] .

ففي إحدى المناسبات حضر الشيخ / العامري ، وبدأ الملك "الكباكا" أثناء الإحتفال يصدر أوامره بإجراء مذبحة . فقام العامري وسط الحضور متحديا" الملك وسلطاته ، التى تعد جزءا" من عقيدة الشعب والحضور . وأظهر للملك خطأ تلك الطقوس وتعارضها مع شريعة السماء ومبادىء الإسلام ومع تكريم الله للإنسان ، وقال للملك "ياموالاى إن هؤلاء الرعايا الذين تفسك دماءهم كل يوم بغير حق إنما هم مخلوقات الله سبحانه وتعالى الذي خلقك وأنعم عليك بهذه المملكة " وأخذ العامري يرد كلمة : الله أكبر ، الله أكبر ، الواحد الأحد [٣].

فأعجب الملك والحضور من العامري ، وانشرح صدر الملك الأوغندي الكباكا إلى الإسلام . وطلب من العامري أن يعلمه أصول الدين الإسلامي ، وكان لذلك أثره الكبير في تحول جماعي إلى الإسلام بين القبائل الأوغندية من جماعات البانتو .

---

(١) المغيري ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٢) صغيرون ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٣) صغيرون ، نفس المرجع .

ساهم تجار العرب وعمان أيضاً في إنشاء مؤسسات تربوية إسلامية في شرق القارة وفي وسطها ، فبغض النظر عن المساجد ودورها الكبير في نشر الإسلام وإقامة شعائر الإسلام ومن أشهر تلك المساجد مسجد جوفا في زنجبار . وقام بتأسيس مدرسة أحد أفراد أسرة آل جمل الليل ، وهى من الأسر المعروفة بالعلم والفضل في القارة الإفريقية ، ومن أشهر علمائها الذين درسوا في زنجبار العلامة السيد عبدالرحمن بن أحمد جمل الليل ، والعلامة السيد حسن بن محمد جمل الليل [١].

كما ساهم تجار عمان في عملية تسهيل نشر الثقافة والعلم في مناطق شرقي القارة ووسطها ، حيث أنشأت مطبعة في زنجبار لتسهيل عمليات طبع الكتب والصحف ، وهى المطبعة السلطانية ، وذلك زمن السيد/ برغش بن سعيد . وكان لتلك المطبعة آثارها الحضارية الهامة في المنطقة .

وهكذا أدى الدور العماني والعربي والإسلامي في الشرق الإفريقي دورا هاما في حمل تيار الإسلام وثقافته إلى تلك المناطق ، التى استيقظت من ثباتها العميق على مبادىء الإسلام ونظمه [٢].

---

(١) المغيري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢) انظر الخرائط بالملاحق .

(٥)

تجارة شرق إفريقية

السلع والأخطار

أولا" : السلع التجارية : -

اتجهت جماعات التجار العرب والمسلمين إلى شرق القارة الإفريقية منذ القدم من أجل الحصول على إمكانياتها الوفيرة من سلع هامة كان العالم القديم وحضاراته في حاجة إليها ، كما استمر الطلب على تلك السلع باستمرار في العصور الاسلامية ، في الوقت الذي نمت فيه مناطق العالم الإسلامي حضاريا ، وأزدهرت إقتصاديا فإزداد الاقبال على السلع الإفريقية خاصة في العصر العباسي . واستمرت سلع إفريقية تشد إليها جميع القوى حتى الوقت الحاضر .

ونظرا لامتداد الساحل الإفريقي الشرقي من الشمال إلى الجنوب لمسافات طويلة على المحيط الهندي ، وبعد هذا الساحل عن مراكز الحضارات في العالم القديم والعالم الإسلامي ، فقد بدأ التجار في إقامة مستوطنات لهم ومراكز [١] ، تقوم بعمليات تجميع السلع وتجهيزها للتصدير ، كما تكون بمثابة استراحة من الرحلة البحرية الطويلة والشاقة للسفن عبر مياه المحيط الهندي .

وكانت تلك السلع تتميز بأنها في صورتها الأولية الخام ، حيث قامت عليها صناعات وفنون عديدة في أماكن أخرى مثل الهند والعراق وحوض البحر المتوسط . كما أصبحت تجارة الرقيق بمثابة عنصر من عناصر الأنتاج لكثير من الدول والمناطق التى وصلتها تجارة الرقيق [٢] ومن أهم السلع الإفريقية مايلي :

(١) الذهب :

شكل الذهب أهم المعادن في حضارات العالم القديم والعصور الوسطى وتأتى أهميته في ندرته وفي استعماله بعد ذلك في عمليات تقدير القيمة للسلع بسبب ارتفاع

(١) ترمنجهام ، الإسلام في شرق إفريقيا ، ص ٣٩ .

(٢) المغيري ، جهبة الأخبار ، ص ١٨٥ .

إثمانه وقوة الطلب عليه [1]. وأصبح الذهب في العصر الإسلامي بمثابة الواجهة الاقتصادية للدول . واحتل الذهب الإفريقي أهمية خاصة لحضارات الفراعنة واليمن وحضارات الهنود وكذلك بالنسبة لمدنيات العراق في العصور القديمة ، وفى العصور الإسلامية ولذلك ظلت عمليات تحركات التجار في شرق إفريقية ترتبط بالبحث عن الذهب . خاصة بعد نصوب مناجم الذهب الفارسية التى كانت تعتمد عليها مناطق المشرق الإسلامي وأصبح الذهب القادم من شرق القارة الإفريقية هو العمود الفقري للتداول الذهب في الخليج العربي والهند والعراق [2].

كما زاد الطلب على الذهب في العصر الإسلامي لأنه أصبح القاعدة في ضرب الدينار وصناعة صياغة الحلى ، فكانت الورش العاملة لحساب القصور في الشام والعراق ومصر وفي المدن نشطة جدا. وكان الذهب الإفريقي يتدفق بكميات غزيرة على العالم الإسلامي عبر البحر الأحمر، والخليج العربي . حيث قام التجار ورجال الأعمال باستثمارات كبيرة كبيرة في منطقة سفالة الزنج في شرق إفريقية [3] . وكان يتم نقل الذهب على رؤوس الحمالين من الداخل حتى الوكالات التجارية على الساحل . ثم ينقل إلى مراكز آمنة أخرى على الساحل الإفريقي أو يصدر على ظهور السفن مباشرة [4] .

وزادت رحلات السفن المحملة بالذهب إلى العراق وإلى الديبل وسواحل الهند . وأعتمدت الهند حتى العصور الحديثة على الذهب الإفريقي بسبب فقر أرض الهند في هذا الخام ونظر الكثافة السكانية . وأصبحت السفن تتجه إلى بومباى في العصور الحديثة بعد إنشاء شركة الهند الشرقية البريطانية هناك سنة ١٦٠٠م . وفي البداية كانت عمليات تبادل الذهب مع الزعماء الأفارقة تتم عن طريق التجارة الصامته أو التبادل ، ثم تطورت في العصور الإسلامية إلى دفع عملات نقدية . وكان ذهب سفالة [5] سببا في إزدهار مدن عديدة على الساحل الإفريقي مثل مقديشو .

---

(١) آشتور ، التاريخ الاقتصادي ، ص ١١١ .
- لوفران ، تاريخ التجارة ، ص ١٤ .
(٢) آشتور ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .
(٣) لومبارد ، الجغرافية التاريخية ، ص ٢٣٢ .
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢، ص : ٦ .
(٥) لومبارد ، المرجع السابق ، ص : ٢٣٢ .

كما ازدهرت مدن مملكة كلوة أيضاً بسبب تجارة الذهب ، وكان سببا في صراعات عديدة بين تلك المدن ، كما أصبح ذهب روديسيا في العصور الحديثة ، أهم عوامل الكشوف الجغرافية البرتغالية ، وأهم أهداف الأساطيل الأوروبية التى قدمت بعد ذلك إلى سواحل شرق القارة . حيث ترددت أقوال في أوروبا بأن " ذهب سفالة الزنج لاينضب "[1] ومازالت مناطق موزمبيق وجنوب إفريقية تتحكم في إنتاج الذهب العالمي حتى الوقت الحاضر . حيث تنتج جنوب إفريقية من مناجمها الشرقية حوالى ٧٥٪ من إنتاج الذهب العالمي [2] حيث بلغ انتاجه ٦٦٢٥٠كج سنة ١٩٨٢م ، بالإضافة إلى ذهب موزمبيق. ومازالت إفريقية تحتوي على العديد من مناجم الذهب بسبب تركيبها الجيولوجى ، فهى تحتوى على صخور بللورية ومتحولة قديمة والتى تعد من أنسب الصخور الحاوية للتكوينات المعدنية . ومازالت رؤس الأموال العالمية تتدفق على القارة خاصة جنوب إفريقية ، من الجهة الشرقية لاستغلال مناجم الذهب خاصة[3] .

(٢) العـــاج :

بالرغم من وجود فيلة في مناطق أخرى من العالم مثل الهند ، إلا أن التواجد الكثيف لها كان في إفريقية . وكانت القبائل الإفريقية لاتقدر العاج من الفيلة بأى ثمن ، إلا حينما أدركت ذلك فيما بعد . فقام الزنوج بعمليات قتل واسعة للفيلة وأخذ أنيابها وبيعها لتجار عمان ، ثم تكدس الكميات المحمولة من العاج على الساحل حيث يتم حملها إلى العراق والمشرق الإسلامي وإلى الهند والصين ، وهى مناطق كانت لديها فنون قائمة على صناعة التحف المعتمدة على العاج [4] .كما كان الهنود يستهلكون كميات كبيرة من العاج حيث يستخدمونها في صناعة تماثيلهم وبناء أجزاء من معابدهم وهياكلهم . وبذلك احتلت تلك السلعة أهمية خاصة عند الشعوب الهندوسية والبوذية في الهند والصين وجنوب شرقي آسيا .

---

(١) الحويري ، ساحل شرق إفريقية ، ص ١٢٦ .

(٢) أبو عيانة ، الجغرافية الأقليمية ، ص ٥٣٣.

(٣) حيث يعتبر حقل الراند جول مدينة جوهانبرج أهم حقول الذهب في العالم قاطبة . وبد انتاجه سنة ١٨٨٦م .

(٤) صالح العلي ، التنظيمات الإقتصادية في البصرة في القرنين الأول والثاني الهجريين ، ص ٨٥ . ومابعدها .

ويذكر المغيري أن الفضل الأول يرجع إلى تجار أهل عمان في بيان أهمية العاج للقبائل الإفريقية ، حيث ارتبطت بالعمانيين تلك التجارة في البداية ، وحتى قدمت عناصر أخرى وشاركتهم في تلك التجارة خاصة من تجار الفرس والهنود [1].

وقد افتخر أهل البصرة على أهل الكوفة بأن مدينتهم مركزا للعاج بقولهم " نحن أكثر منكم ساجا وعاجا وديباجا "[2] حيث كانت البصرة مركزا هامة للتجار من أهل عمان . بل أن الفيلة بدأت تحمل من إفريقية لتظهر في بغداد عند الاحتفالات التى كانت تقام بها في العصر العباسي [3] .

(٣) الحـــديـــد :

كانت مناطق العالم الإسلامي ، والهند أيضا ، فقيرة في خام الحديد منذ البداية ، رغم ماله من أهمية في الصناعات بصورة عامة ، وفي صناعة أدوات الحرب والقتال بصورة خاصة . وعلى ذلك بدأ العالم الإسلامي يعتمد في تمويله بتلك الخامات على مناطق مجاورة له . وأصبحت منطقة القوقاز ، خاصته داغستان ، من مناطق توريد الحديد إلى العالم الإسلامي من جهة الشمال ، لكن العالم الإسلامي أعتمد بصورة أكبر على الحديد وصناعاته المستوردة من الهند . حيث تمكنت الهند من تحقيق نجاحات مبكرة في الصناعات الحديدية وكانت شهرتها منذ بداية عصور الميلاد بصناعة السيوف . وقد تزايدت الطلبات من العالم الإسلامي على الحديد والفولاذ الهندي باستمرار .

والواقع أن خامات الحديد الهندية قد نضبت مناجمها في العصور القديمة ، وبدأت عمليات استيراد واسعة النطاق لخامات الحديد من شرق إفريقية عبر المحيط الهندي ، وقام بدور الوسيط التجار العرب خاصة أهل عمان الذين استقروا بكثافة في مدن الهند الساحلية لدورهم في تلك التجارة . وكانت فلزات خامات الحديد من شرق إفريقية تعتبر أكثر جودة من غيرها [4].

---

(١) المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٣٠٥ .

(٢) االعلي ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢، ص ١٣ .

(٤) لومبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

كان يتم استخراج الحديد من شرق إفريقية من مناطق سفالة الزنج خاصة جنوب مناجم الذهب[1] وكانت عمليات الاستخراج تتم بطرق بدائية للغاية على أيدى العمال من الزنوج، ثم تحمل إلى الساحل لتصدر إلى الهند . ثم يعاد صهرها وتشكيلها وصناعتها وتصدر إلى العالم الإسلامي . وكان الفولاذ الذي يصنع منه السيوف في الهند،وضرب الأمثال والشهرة في الأدب العربي لمكانتها وحدة شفرتها ومرونتها.

(٤) المنتجات البـــحرية :

وكان أهمها السلاحف التى يصدر صدفها ، وترسل إلى مناطق العالم الإسلامي في مصر والعراق والشام ، حيث يوجد الصناع المهرة والمتخصصون في صناعة أدوات الصدف . أما العنبر الذي يعتبر إفرازا" لحوت العنبر Cachalat فكانت منطقة شرقي إفريقية من أهم مراكز إنتاجه في العالم الإسلامي ، وكانت القطع المقذوفة تجمع على وجه التحديد ثم تصدر بأثمان غالية . وكان العنبر يدخل في صناعات العطور المختلفة [2] .

(٥) المنتجات والســلع الغـــابية :

وهى المنتجات التى ترتبت على امتداد الساحل الشرقي لإفريقية امتدادا" هائلا" من الشـمال إلى الجنوب عبر دوائر عرض عـديدة ، مما أدى إلى تنوع في الظروف المناخيـة . بالإضافة إلى وجود نطاق كبير من شرق القارة ضمن الغابات المدارية والإستوائية حيث الغابات الكثيفة التى تحتوي على العديد من الأشجار العالية ذات الأخشاب الصلبة ، والتى يمكن استخدامها في صناعات خشبية عديدة مثل خشب الأبنوس [3].

كمـا احتوت تلك الغابات ومناطق السافانا على العديد من الحيوانات المفترسة والتى كان يتم اصطيادها واستغلال جلودها في صناعات جلدية هامة في العالم الإسلامي [4] واحتلت افريقية الشرقية مكانة هامة في تصدير الجلود إلى العالم الإسلامي وإلى شبه

---

(١) الحويري ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٢) لومبارد ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ . المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

(٣) حوراني ، العرب والملاحة ، ص ٢٣١ ومابعدها .

(٤) كالقردة والفيلة وغيرهما .

المسيري، العلاقات التجارية ، ص ١٧٤ .

القارة الهندية . بل صدرت بعض حيوانات الغابة إلى العالم الإسلامي على سبيل التسلية[١]

(٦) الـــرقيـــق :

ترتب على النمو السكاني الهائل في مدن العالم الإسلامي ، وإزدهار مناطقه الحاجة إلى أيدى عاملة للعمل في المنازل وفي الصناعات والحرف الأخرى . كما بدأت أنظمة جديدة في العالم الإسلامي تعتمد على العبيد كجند يعتمد عليهم خوفاً من أطماع القبائل العربية وتطلعاتها وكانت مدن العراق الجديدة التى مصرت زمن الخليفة عمر بن الخطاب وهما البصرة والكوفة من أهم مراكز استيراد العبيد ، كما ظهرت مدن أخرى مثل واسط وبغداد وغير ذلك من أسواق العبيد الأخرى

وأصبحت سفن أهل عمان والخليج العربي هى الوسيط الذي وفرتلك السلعة إلى مراكز احتياجها وأصبحت مناطق شرق إفريقية هى مناجم التصدير لتلك السلعة والتى أصبحت أهم السلع في العصر العباسي . كما أن النمو الإقتصادي الذي شهدته منطقة الخليج العربي ترتب إليه حاجة موانىء الخليج العربي إلى أعداد كبيرة من الرقيق لعمليات التفريغ والشحن للسفن وعمليات تكديس البضائع في الموانىء ، من هنا أصبحت منطقة الخليج العربي من أهم مراكز استيراد الرقيق من شرق قارة إفريقية .

وبدأت السفن العمانية تحمل الآلاف من هؤلاء العبيد إلى منطقة الخليج العربي والعراق للعمل في مدينة البصرة والكوفة وواسط . وكانت مدينة البصرة التى شهدت نمواً مضطرداً وإتساعاً في أحيائها سوقا هامة لتلك السلعة حيث كانت تستخدم أعداد منهم في استصلاح الأراضي المالحة " البطائح" في الجنوب [٢] . وقد عاشت تلك الجماعات من العبيد في ظروف اجتماعية صعبة ، الأمر الذي جعلهم عرضة للانفجار والاستغلال من قبل أفكار معارضة ، كما حدث في ثورات الزنج في العصرين الأموي والعباسي [٣] .

---

(١) المسعودي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٩٨ .

(٢) البلاذزي ، فتوح البلدان ، جـ١ ، ص ٩٥.

- علبي ، المرجع السابق ، ص : ٢٩ .

(٣) علبي ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ومابعدها .

فقد وقع التمرد في صفوفهم زمن ولاية مصعب بن الزبير سنة ٧٤هـ . كما قاموا بثورة في ولاية الحجاج سنة ٧٦هـ . وتغاضت السلطات في العراق عن سماع أصوات هؤلاء الزنوج الذين أصبحوا يعدون بعشرات الآلاف [١] ، وأصبحوا قوة مؤثرة في العراق ، وفي العصر العباسي قاموا بثورتهم الشهيرة سنة ٢٥٥هـ بزعامة على بن محمد " ملهم الزنج " [٢] . الذي تمكن من تجميع عشرات الآلاف من زنوج البصرة حوله . وقاموا بثورة عارمة هددت أمن منطقة شمال الخليج العربي وجنوب العراق وحتى بغداد ، بعد أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من دخولها . وهددت الخلافة العباسية لمدة أربعة عشر يوما"[٣] وشكلوا دولة لهم ضمت البصرة وواسط والنعمانية ، وجعلوا عاصمتهم في المختارة . بعد أن خربوا مناطق عديدة في جنوب العراق ، وهرب التجار ، وهجر الناس ميناء البصرة . وأرتفعت الأسعار حتى أصبح سعر كر الحنطة ثمنه مائة وخمسين دينارا"[٤] وارتفع سعر كر الشعير إلى مائة وعشرين دينارا" . بعد أن توقفت عمليات التجارة تماما . حتى تمكن الخليفة العباسي المعتضد من القضاء على ثورتهم سنة ٢٧٠هـ[٥].

والواقع أن الوساطة العمانية والعربية كانت نزيهة في عمليات تجارة الرقيق ، ذلك أن عمليات جلب العبيد من داخل الغابات كان يقوم بها قبائل البانتو الإفريقية ثم يتم تجميعهم إلى الساحل حيث التجار العمانيين وغيرهم [٦]. كما شهد العديد من الرحالة على حسن معاملة العمانيين تجارا وحكاما ومواطنيين للعبيد حيث كانوا يجالسونهم ويشركونهم معهم في المأكل والمشرب ، حتى أدى ذلك إلى تحول العديد من العبيد إلى الإسلام ، كما عملوا في جيوشهم ومنازلهم . وقد ذكر ذلك الرحالة الأوروبيين ومنهم

---

(١) السامر ، فيصل ، ثورة الزنج ، ص ٣٤ .

(٢) ابن الأثير ، اللباب ، جـ١ ، ص ٤٤٨.

(٣) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٣١٩ .

- الطبري ، تاريخ ، جـ٦ ، ص ٤٧٣ .

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ١٣ ، ص ١٣٠ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ٣١ .

(٦) كما كانت هناك حروب مستمرة بين القبائل الإفريقية ، وكانت القبائل المنتصرة تجد في القبائل المنهزمة مصدر هاما للدخل حيث تقوم بأسر أفراد القبائل المنهزمة وتقوم ببيعها بصورة مهينة وقد استمرت تلك العمليات حتى العصور الحديثة بتشجيع من بعض الأوروبيين.

اسمى وسميث من قبل شركة الهند الشرقية البريطانية [1].

ورغم أن الرقيق الذين وصلوا إلى أيدي التجار العرب والعمانيين ، كانوا في أوضاع متدنية بين القبائل الإفريقية من كافة النواحي ، فإنهم شهدوا تكريما" لهم ولإنسانيتهم على أيدى المسلمين ، حتى تزوج منهم بعض المسلمين ، وكم صار من هؤلاء الزنوج ملاك في أموال أسيادهم وشركاء في أعمالهم . وازدهرت الحاجة إلى اقتناء العبيد في شركة إفريقية بسبب إزدهار مراكزها الساحلية ، كما أن بعض مناطق الداخل الإفريقي كانت تتعرض المجاعات يترتب عليها فرار العديد من القبائل أو بيع أولادهم بأزهد الأسعار .

ورغم الدور الذي قام به العرب وأهل عمان في مجال تجارة الرقيق في صورها الإنسانية .كما نص عليها الدين الإسلامي ، فإن حجة تجارة الرقيق أصبحت الوسيلة التى اتخذها الأوروبيون للتدخل في شرق إفريقية ، وخاصة بعد سنة ١٨٢٢م مع حكومة مسقط . وبدأت بريطانيا تعمل على فرض حمايتها على شرق إفريقية وجزرها بحجة مكافحة تجارة الرقيق . وكانت دوافع تلك الدول دوافع اقتصادية بعيدة عن الجانب الإنساني الذي أختفت خلفه . كما أن ماضيهم في تجارة الرقيق لم يلتزم بأى قيم إنسانية أو أخلاقية [2] .

وبدأت بريطانيابريطانيا بالفعل تعمل على استغلال مسألة تجارة الرقيق لمصالحها الخاصة دون النظر إلى مصالح العبيد أنفسهم . حيث أنشأت لهم مستعمرات بحجة تكوين ملاذات آمنة للرقيق المحررين ، وبدأت بريطانيا تستفيد من تلك المستعمرات ، فقد تولى إدارتها شركات بريطانية ، أى أن عائد تلك المستعمرات كان يصب في بريطانيا وليس للرقيق ، حتى أن أجورهم كانت زهيدة ، وأقل في كثير من الأحيان من أجور عملهم عند سادتهم في السابق .

---

(١) العقاد ، وزكريا ، زنجبار ، ص ١٢٥ .

(٢) مسعود ، وفاء ، افريقيا ، ص ٩٦، ٩٧ .

في الوقت الذي حفلت فيه الممارسات الأوروبية تجاه الرقيق الأفارقة بأساليب وحشية مازالت ماثلة في أذهان الأفارقة وعند الأدباء والكتاب الأفارقة والأوروبيين وتظهر من حين لآخر في كثير من الأعمال الأدبية .

كما ظهر مشروع بريطاني آخر يدعو إليه " بوكستون " ويرى أن تقوم بريطانيا بإنشاء سلسلة من المراكز البريطانية التجارية على طول ساحل إفريقية الشرقي يكون الهدف منه توزيع المنتجات البريطانية وحمل السلع الإفريقية والمواد الخام من ذهب وعاج ومعادن وسلع أخرى ، باستغلال هؤلاء العبيد ، تحت دعوى أنهم محررين .

وبذلك استغلت بريطانيا ودول أوروبا قضية تجارة العبيد لتحيق هدفين هما :

الأول : الحد من التوغل العماني والإسلامي داخل القارة الإفريقية ، ومواجهة عمليات التحول إلى الإسلام بين الجماعات الإفريقية في الداخل ، حيث أدركت أن النظام الإقتصادي والإجتماعي في شرق القارة مرتبط بالعمانيين والمسلمين ، حتى أن حوالي ٩٠٪ من سكان شرق القارة الإفريقية كانوا يعملون لدي العرب في مزراعهم أو متاجرهم أو منازلهم .

الثاني : هو التغلغل إلى داخل القارة بحجة ملاحقة التجار ، وإنشاء مراكز بريطانية هدفها توزيع بضائع شركة الهند الشرقية البريطانية ، وتجميع سلع إفريقية من الداخل . وبذلك تتمكن بريطانيا وضع يدها على منابع السلع الإفريقية دون اللجوء إلى وسيط تجاري .

وهكذا تمكنت بريطانيا اتخاذ مسألة الرقيق حجة ضد الوجود الإسلامي والعربي في شرق القارة ، وانتهى الأمر ببذر بذور الفتنة بين العرب والأفارقة . لينتهى الأمر إلى صور جديدة من المآساة .

حملت السفن العمانية والعربية إلى الأفارقة السلع التى يحتاجونها مثل : الموز الذي يحمل من منطقة ظفار ، والذى يتميز بذوقه الطيب وكبر حجمه ، كما حملوا إلى شرق القارة التمور العربية الشهيرة ، والتى كانت تحظى بأهمية عند الأفارقة . وكذلك المنسوجات المتنوعة والبخور والعطور والصناعات الزجاجية والحديدية والتوابل ، والأرز واللبان .[1]

---

(١) حصاد ندوة الدراسات العمانية ، جـ٥ ، ص ٢٨٦ .

ثانيا" : الأخطـار والصعـوبـات :

ارتبطت منطقة إفريقية بخطوط ملاحية تربطها بسواحل المحيط الهندي والعالم الإسلامي ومن أهم تلك الخطوط الملاحية مايلي :

(١) صحـار - شـرق إفـريقيـة : -

تبدأ غالبية رحلات السفن العمانية من ميناء صحار على خليج عمان ، حيث المركز التجاري للمنطقة ومن صحار إلى ساحل الزنج تمر السفينة بمحاذاة ساحل شبه الجزيرة العربية الجنوبي حتى سوقطرى عبر المحطات التالية : [١]

صحـار - العوينات - خور الحمام - الجعاريف ، بنى خالد - الخابورة - بندر - السويق - ودام - المصنعة - رأس السوادي - بركاء - الجرادي - الرميس - بندر السيب - الفحل - الشطيفي - مطرح - ريام - مسقط .[٢]

ومن مسقط إلى سداب - البستان - الحصبة - يتى - الخيران - سيفة - الشيخ مسعود - رأس بوداود - قريات - دغمر - فنس - طيوي - رأس قلهات - السنبلة - حتى تصل إلى رأس الحد وصور [٣].

ومن رأس الحد إلى مصيرة [٤] تتجه السفن إلى جزر الحلانيات ، حتى ساحل ظفار وميناء مرباط ثم تتجه إلى ساحل الشحر ومنها إلى ميناء عدن . أو تتجه إلى سوقطرى من ساحل عمان مباشرة إلى بر الزنج .

---

(١) مخطوط نفحة الأزهار في علوم البحار ، ورقم ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩ ، ٨٠، ٨١ ، ٨٢، ٨٣، وزارة التراث القومى والثقافة ، المديرية العامة للوثائق والمخطوطات .

(٢) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٥٥٩.

(٣) عثمان ، تجارة المحيط الهندي ، ص ٨٩ ومابعدها .

(٤) يقول أحمد بن ماجد :

ومن الحد أجر إلى مصيرة .. في مغيب السهيل كن ذي بصيرة

ومن مصيرة خور يامجرب .. مجرى صحيحا" للأنام العقـرب

- النونية الكبرى ، تحقيق حسن صالح شهاب ، وزارة التراث القومي والثقافة ،

ومن حافوني (جفوني) تمر السفن عبر موانىء شرق إفريقية حتى سفالة الزنج عبر المحطات التالية : مقديشو ، براوة ، وبما ، لامو ، ماليندى ، ممباسا ، زنجبار ، كلوة حتى تصل إلى قنبلو ، وقد تتجه إلى جزر القمر ومدغشقر صوب الجنوب الشرقي .

وكانت السفن العمانية تقوم بتجارة الترانزيت في أغلب الأحيان في اتجاهها إلى شرق إفريقية . وكانت السفن تعتمد على نظام دقيق للإبحار ، حيث ترتبط مواعيدها بالرياح الموسمية التجارية ، وريح الصبا وريح الدبور . كما كانت السفن تستأنف رحلتها في العودة في أحيان كثيرة إلى البصرة . كما كانت السفن تقصد الهند باتجاه ساحل مكران والديبل [1].

وكانت السفينة العمانية المتجهة إلى البصرة تلتزم بأوقات معينة لرحلتها . حيث كانت البصرة مركزاً لتجارة العراق ، وكان لأهل عمان دور تجاري نشط فى أسواق البصرة في تلك الفترة بسبب تواجدهم الواضح في الميناء منذ البداية ، وبسبب موقع بلادهم وخبرتهم الملاحية التجارية مع سواحل المحيط الهندي . وقد أشار المسعودي وغيره إلى دور بحارة عمان في هذا المجال [2] ، وذكر المسعودي بأن توجه إلى شرق إفريقية في سفن يملكها عمانيون ، وكانت سفنهم في رحلات مستمرة بين الخليج العربي وبين بر الزنج وحتى

---

(١) من صحار إلى البصرة تمر السفينة بالمحطات التالية على ساحل الخليج العربي الغربي : مجيس ، لوى ، مرمول ، الحميري ، القراقير ، شناص ، البليده ، الخضراوية ، خطمة ملاحة ، كلباء ، جبل حتى ، مسندم ، جزيرة الغنم ، خصب ، خور الرمس ، جلفار، جبل هيلي ، غوابي ، لمحيان ، بدع قطر ، جزيرة عالي ، الحويلة ، الزيارة ، رأس عشيرج ، البريجية ، دوحة سلوى ، جزيرة بني صالح ، جزيرة البحرين ، الرفاع ، المحرق ، دوحة الدهان ، الرمام ، لنجوة ، سيهات ، القطيف، تاروت ، رأس تنورة ، رأس الجميلية ، جزيرة الجريد ، جزيرة رأس بو على ، منيعة ، جزيرة حرقوص ، السنانية ، خور الخفجي ، جزيرة أم المرادم ، لزور ، جزيرة قاروة ، الشعيبة ، الفحيحيل ، قصر الفنيطس ، جزيرة إم النمل ، كاظمة ، جزيرة فيلكة ، جزيرة سمعان ، جزيرة بوبيان ، مرقة خور عبدالله ، خور البصرة .

مع العلم أن هناك طريق بحري آخر محاذي للساحل الإيراني يلتقى بهذا الطريق في ميناء البصرة .

- مخطوط نفحة الأزهار ، ورقة ٧٦، ٧٧، ٧٨ .

(٢) مروج الذهب ، جـ١ و ص ١٠٨ .

سفالة الزنج رغم العديد من الصعوبات التى تواجه السفن[1] .

(٢) طريق عدن واليمن إلى شرق القارة الإفريقية : -

عبر موانىء القرن الإفريقي وحتى ميناء مقديشو وموانىء شرق القارة التى ذكرناها سابقا . وإن كان معظم سفن أهل عدن تتجه إلى موانىء شمال الصومال وأرتيريا .

(٣) طريق السويس إلى شرق إفريقية : -

فتبدأ من السويس فالعقير ، مغطس فرعون ، القلزم ، رأس محمد ، شذوان ، بربرة ، مصوع ، زقر ، حتى منطقة القرن الإفريقي .[2]

وكانت تلك الطرق البحرية التى تؤدى إلى البر الإفريقي محفوفة بالمخاطر سواء في البحر الأحمر أو الخليج العربي بالإضافة إلى صعوبات الملاحة في المحيط الهندي . وهى صعوبات تدل على أن السلع الإفريقية التى كان مردودها وفيرا، كانت أخطارها عديدة .

فلم تكن الرحلة ، بل حفلت بالعديد من صور الآلام والمعاناة ، فالسفينة العربية الخشبية البسيطة المقلفطة تسير عبر محيط هائج " تئن ، وتنط ، وتتقعقع وتتتعتع ، وأبصار المسافرين مشدودة إلى السماء ، كل يصلى إلى جهة على قدر معبوده " . ومازالت صفحات عديدة من مصادر التراث العربي تحوى على عدد من الآلام التى يواجهها البحارة في رحلتهم عبر المحيط الهندي حتى شبه العرب الخروج من البحر بالخروج من القبر .

وكان الملاح العربي يخرج من بره مستلما لقوى البحر والريح ، رابطا مصيره ومصير من معه تلك الألواح التى تشكل سفينة البسيطة ، ويتنقل بين قبضات الريح العاصفة والبحار الزاخرة ، والأمواج الهائلة . وظلت عمليات الإبحار تواجه العديد من المصاعب حتى ذكر البعض أن سفن المحيط الهندي كان يلاقي العديد منها الغرق بسبب ظواهر المحيط الغامضة التى لا يتمكن الملاح العربي من مواجهتها .

---

(١) مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٦ ، ٩٨

(٢) ابن ماجد ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ ومابعدها .

ومن كثرة الرحلات البحرية عند العرب قديما [1]، كون الملاح العربي تجربة طويلة في التعامل مع العديد من الظواهر الطبيعية التى اعترضته ، ومنها مايلى : -

(١) الصعوبات الطبيعية في الخليج العربي : -

رغم أن الخليج العربي يعتبر جزء من المحيط الهندي ، إلا أنه يشكل مسطحا مائيا مستقلا له ظروفه وظواهره ومشاكله ومنها ما يلي : -

أ - الرمال المتحركة : -

يذكر الجيولوجيون والجغرافيون أن الخليج العربي في سواحله الغربية ، العربية ، يفتقر إلى رف قاري حقيقي [2]، ومازالت السواحل الغربية مستمرة في عمليات التكوين من خلال الرمال التى تحملها الأودية المنحدرة إلى ساحله من داخل الصحراء العربية باستمرار ، وقد ترتب على ذلك تكوين عدد من الأخوار والبحيرات الشاطئية ، سهلت بالفعل حركة الإتصال بالبحر ، لكنها خلقت مشكلة ملاحية ، وهى وجود الرمال المتحركة

---

(١) يدل النشاط العربي الملاحي في المحيط الهندي على الرد حول ما يردده البعض من أن عرب عمان والخليج العربي والجزيرة العربية مالوا إلى العزلة بسبب ظروف بلادهم القاسية .. وأن معلومات العرب الجغرافيا البحرية كانت تعتمد على التراث البحري اليوناني القديم ، وقد ردد ذلك الدكتور / أنور عبدالعليم ، وجورج حوراني . والرد على ذلك نورده فيما يلي :

- كانت صحراء الربع الخالي بمثابة حاجز لأى توجه عماني صوب الغرب ، ولذلك أصبح منفذ عمان الوحيد صوب البحر ، فركبوه وأجادوا امتطائه ، وأكتسبوا خبرة طويلة مازالت مصادر الملاحة تشيد بتلك الخبرة التى بنيت عليها الملاحة الحديثة في المحيط الهندي .

-يشير موقع عمان وتاريخها على أن أهلها قاموا بدور كبير في مجال الأتصال بين مراكز وعالم المحيط الهندي ، وكانت إمبراطورية البوسعيد دليلا" حيا لذلك حينما تمكنت من ربط الساحلين الآسيوي والإفريقي للمحيط الهندي .

- أنظر حوراني ، جورج ، العرب والملاحة ، ص ٢٦ .

عبد العليم ، أنور ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ٦١ .

(٢) متولى ، محمد - أبو العلا ، جغرافية الخليج العربي ، ص ٧٢.

- كاون ، روبرت ، البحار وما فيها ، ترجمة الدكتور عبدالحافظ حلمي ، ص ١٩٥.

زاحفة تمتد أحيانا إلى موانىء الملاحة التى تتردد عليها السفن . ونلاحظ بالفعل تلاشي موانىء بحرية خليجية كانت مزدهرة في فترة من الفترات ، وكان لها شهرتها الهامة في الملاحة في منطقة الخليج العربي في فترة من الفترات . ومع قلة إمكانيات السيطرة على البحار قديما لم يكن في مقدور الملاحين معالجتها .

(ب) قلة العمق وعدم وجود رصيف قاري [١] :

فمن المعروف أن منطقة الخليج العربي تتميز بعدم وجود عمق ، سوى في منطقة هرمز ، حيث انكسار هناك نتج عنه انفصال جبال زاجروس عن جبال عمان ، وتبدو أعمق نقطة هناك حوالي ١٠٠م ، أما بقية الخليج فإن عمقه لايتعدى بضعة أمتار ، مما يشكل خطورة لحركة السفن في دخولها إلى الميناء [٢] .

(ج) كثرة وجود الأخوار : [٣]

إذا كانت الأخوار يمثل أماكن للحماية الطبيعية للسفن من الأمواج والرياح ، إلا أنها كانت تشكل في كثير من الأحيان ملجأ للقراصنة الذين يتسللون إلى داخل الخليج العربي من المحيط الهندي ، ويقومون بشن هجماتهم على السفن التجارة العاملة في الخليج العربي ، وكثيرا ما أدت تلك الهجمات إلى توقف الملاحة في كثير من الموانىء وفي الخليج [٤] .

(د) الشعاب المرجانية : [٥]

وهى من الظاهرات البحرية التى تنتشر في البحار الدافئة ، والمياه الصافية ، قليلة

---

(١) تقوم دول الخليج العربي بعمل غاطس في مواقعها لكي تتمكن السفن العملاقة وناقلات النفط من دخول موانئها والخروج منها بأمان .

(٢) متولى ، محمد ، حوض الخليج العربي ، جـ١ ، ص ٣٥، ص ٣٦ .

(٣) الخور : لسان من المياه يتوغل في اليابس .

(٤) حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٢٠٦ .

(٥) تتميز مياه منطقة الخليج العربي بأنها مياه دافئة ، بسبب وجود منطقة الخليج العربي في أشد جهات العالم . كما تتميز تلك المياه بصفائها السبب ندرة أمطارها الشتوية ، ولذلك تنتشر فيها الشعب المرجانية ، ولا يكاد يخلو قطاع من قطاعات الساحل منها ، سواء الإيراني أو العربي .

الحركة . وتنتشر تلك الشعاب في مناطق عديدة من الخليج العربي ، وقد تعرقل الملاحة في حالة هبوب رياح تجبر السفن على التوجه إلى مناطقها .

(هـ) الرطوبة العالية والحرارة المرتفعة [١] :

يعتبر الخليج العربي خليجا صعيرا نسبيا ، وبالتالى فإن مسطحه المائي لايؤثر في خفضه الحرارة للسواحل المجاورة له ، بل على العكس من ذلك فإنه يؤدى إلى زيادة نسبة الرطوبة ، وارتباط الحرارة بالرطوبة ، تجعل العمل في منطقة الخليج العربي في فصل الصيف أمراً شاقاً ، كما أن الخليج العربي يقع في أكثر مناطق العالم جدياً [٢] .

(و) الـــــدردور :

ظاهرة بحرية تنتشر في الخليج العربي وخليج عمان ، وهى عبارة عن حركة التفاف الماء ودورانه مما يهدد السفن التى تقع ضمن نطاقه ، وكثيراً ما غرقت سفننا في مناطق الدردور حيث تبلغ سرعة الماء ودورانه درجة من السرعة لا يتمكن فيها البحارة من الخروج .

(ز) ضيق المدى البحري في الخليج :

من المعروف أن الخليج العربي ضيق في اتساعه ، ولذلك فإن ظاهرة المد والجزر تكون عنيفة ، عما يترتب عليه صعوبة الدخول والخروج من أى ميناء من موانىء الخليج إذا وقعت تلك الظاهرة ، ولذلك كان البحارة على علم بمواقيت المد والجزر ، حتى يتمكنوا من الدخول والخروج من موانىء الخليج العربي . ويبلغ أعلاه في مناطق الخلجان والأخوار التى تكون مخارجها من ناحية البحر ، وتضيق كلما توغلنا في اليابسة فيبلغ في مسقط ٧,٦ قدما" ، وفي البحرين ٦,٤ قدما على سبيل المثال [٣].

---

(١) الكليب ، عبدالملك ، مناخ الخليج العربي ، ص ٧١ .

(٢) مساحة الخليج العربي : ٩٢,٥٠٠ ميل٢ ، أى ٢٣٩,٠٠٠ كم٢

- متولى ، المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣) السيرافي ، أخبار الهند والصين ، ص ٩٧٢ (نشر في مجلة الموسم اللبنانية)

- المزيني ، الكويت وتاريخها البحري ، ص ٩٤.

وقد تعرض الجغرافيون كثيرا إلى دراسة تلك الظاهرة ، ولكن الآراء الصحيحة هى التى تربطها بالقمر ، التى تؤثر جاذبيته في تلك الظاهرة البحرية ، حيث تستجيب مياه البحار لجذب القمر لكونه أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض ، ويكون لتلك الظاهرة عنصران : أفقى ورأسي. (١)

(ج) التيارات البحرية :

التى تندفع من الجنوب عبر خليج عمان صوب الخليج العربي عبر مضيق هرمز ، وذلك للتعويض نقص مياه الخليج العربي بسبب البحر الشديد وقلة موارده المائية . وتسير تلك التيارات البحرية شمالا" بمحاذاة الساحل الإيراني حتى تصل إلى رأس الخليج العربي ، فتأخذ اتجاها معاكسا" من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الساحل العربي ، ولابد للبحارة من معرفة تلك التيارات حتى لاتعترض من الرحلة البحرية (٢)

(٢) الصعوبات الملاحية في خليج عمان والمحيط الهندي :

(أ) - التيارات البحرية العظمي : (٣)

تسود منطقة خليج عمان وشمال المحيط الهندي تيارات بحرية مستمرة ، مرتبطة بالمسطح الهائل للمحيط الهندي وتضاريسه . كما تؤثر فيها الرياح الموسمية التى تغير اتجاها من موسم لآخر (٤) ، وبالتالي تمثل تلك التيارات عقبة للسفن المتجهة إلى شرق

---

(١) كما أن تغير المسافة بين الشمس والقمر يترتب عليها تغير القوى المحدثة للمد ، فمن هذا أن مدار القمر حول الأرض ومدارها حول الشمس بيضاويان ، وهذا يجعل المسافات بين الأرض والقمر ، والأرض والشمس تختلف في المواضع المختلفة على مدار النقط الفلكية كما توجد عوامل محلية تؤثر في المد والجزر مثل التضاريس المحلية .

- الفندي ، محمد جمال الدين ، طبيعيات البحر وظواهره ، ص ١٣ ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠م . طربوش ، أمين ، الجغرافيا الفلكية ، ص ١٨٢ ، دمشق .

(٢) - متولي ، محمود أبوالعلا ، جغرافية الخليج العربي ، ص ٧١. المزيني،المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(٣) وهى حركة المياه في المحيط الهندي ، وتبدأ من المدارين وتسير منحرفة حتى تصطدم بشواطىء القارات ، ويؤثر فيها عامل التضاريس والرياح . الفندي ، طبيعيات البحر وظواهره ، ص ١٧٠ .

(٤) كارن ، البحار ومافيها ، ص ٢٢٨ .

إفريقية والقادمة من الخليج العربي . ولابد من ضبط التوقيت من قبل البحارة لمعرفة موعد تلك الرياح واتجاهاتها. وقد علل الجغرافيون المسلمون تلك التيارات إلى اتساع المسطح المائي للمحيط الهندي ، وهو تفسير مقبول حاليا[1] .

(ب) الأمـــــواج :

تشتدأمواج المحيط الهندي في منطقة اتصال بحر عمان بالمحيط الهندي ، بسبب عدم تجانس الظروف السائدة بين المسطحين ، وغالبا ما تكون أمواجا عالية عاتية قد تشكل عائقا كبيرا للسفن المتجهة إلى شرق إفريقية [2].

(ج) الـريـــاح العـاتيـــة :

رغم أن الرياح [3] تعد العامل الأساسي في عمليات الملاحة البحرية ، والتنقل بين الموانىء ، حيث يترتب عليها السفينة وبداية الرحلة ونهايتها ، ورغم عدم فهم العرب الكامل لأنواع الرياح ومصادر هبوبها [4] إلا أنهم تمكنوا من القيام برحلات بحرية ناجحة إلى شرق إفريقية وسواحل المحيط الهندي البعيدة اعتمادا على عنصر المغامرة في البداية ثم معرفة الرياح الموسمية الصيفية (الكوس) والموسمية الشتوية (التجارية) [5] ، بحيث أصبحت معرفتهم بالرياح الموسمية هى أساس عمليات الإبحار .

---

(١) القزويني ، عجائب المخلوقات ، ص ١٠٩ .
ابن الفقيه ، كتاب ، البلدان ، ص ١٤ .

(٢) - شهاب ، حسن صالح ، شرح وتحقيق لمخطوطتين في فن الملاحة البحرية ، ص ١٠٩ ، الكويت سنة ١٩٨٦م . كاون ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) كان هناك اعتقاد عند العرب قديما بأن الرياح مصدرها قاع المحيط من حيوان ضخم يسمى " الوال" - الفندي ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٤) تحسنت معرفة الإنسان حاليا" حول معرفته بالرياح واتجاهاتها ومناطق هبوبها بعد ظهور الأقمارالصناعية التى تمكنت من دراسة الغلاف الجوي وحركة التيارات الهوائية .

(٥) الرياح التجارية : هى الرياح الموسمية الشتوية الجافة التى تهب من وسط آسيا صوب المحيط الهندي بسبب تركز مناطق الضغط الجوي في فصل الشتاء على وسط آسيا فتتحرك الرياح من وسط آسيا القاري صوب المحيط الهندي ، وتكون جافة لأنها لا تمر على مسطحات مائية . ولكنها سميت بالتجارية لدورها الفعال في عمليات التجارة في الخليج والمحيط الهندي .

لكن الرياح الموسمية تكون عنيفة في بعض الأحيان الأمر الذي يعرض أشرعة السفن وصواريها إلى أضرار جسيمة قد تؤثر على سلامة الرحلة ومسارها ، ومن المعروف أن الرياح الصيفية تكون عنيفة قد تصل سرعتها إلى عشرات الأميال في الساعة . وقد كانت تلك الأخطار من جانب الرياح فيما يلي:

(١) قد تكون الرياح مصحوبة بالعواصف والأمواج العالية ، وكثيرا ما عجزت السفن البسيطة عن مواجهة أخطارها ، فتكون مصير تلك السفن الغرق والهلاك .

(٢) لا توجد موانىء أو جزر آمنة خلال الخط الملاحي البحري الطويل من منطقة الخليج إلى شرق إفريقية ، وكثيرا ما كانت الجزر مأوى للقراصنة .

(٣) تؤثر الأمطار على حمولة السفن ، وذلك أن السفن العربية كانت مكشوفة ليس لها ظهور ، وكثيراماأتلفت الأمطار الغزيرة بضاعتها وحمولتها .

ورغم ذلك فإن هناك رياح تؤثر على درجة الحرارة في الخليج وحركة الملاحة بسبب جركة الضغط الجوي بين البحر المتوسط وآسيا . وهى ريح الصبا[1] وريح الدبور [2] .

(د) الأعاصير والعواصف :

تنتشر على السواحل الإفريقية ظاهرة "الأعاصير المدارية" وهى أخطر الظواهر البحرية للرحلة البحرية المتجهة إلى إفريقية من الخليج العربي على الإطلاق وتظهر في الشمال من سواحل شرق إفريقية . وقد تتحرك داخل اليابس لمسافات قليلة وتبلغ قطر

---

(١) ريح الصبا : وهى الرياح الشمالية ، التى تأخذ انحرافا غربيا ، مصدرها هضبة الأناضول وأرمينيا وهى جافة وباردة ومنعشة .

(٢) ريح الدبور : رياح جنوبية تأخذ إنحرافا شرقا تكون غالبا مصحوبة بالرطوبة لأن مصدرها المحيط الهندي حيث مصدر الرطوبة .

- المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ١٤٧ .

- القزويني ، عجائب المخلوقات ، ص ٩٤، ص ٩٥ .

الإعصار المدارى من ١٠٠كم إلى ٢٥٠كم [١].

وتتولد تلك الأعاصير على المياه الساخنة في المحيط الهندي قرب خط الإستواء أو داخل نطاق الرياح التجارية وتسير معها من الشرق إلى الغرب ، ونظرا لتوافر الظروف المواتية للأعاصير في بحر العرب ، فإن تلك المنطقة تشهد أعنف الأعاصير في المحيط الهندي . إذ يتحرك الهواء في منطقة الإعصار ويدور حولها في دائرة كبيرة ، تكون سرعة حركتها حوالى ٥٠٠كم / في الساعة [٢].

وكان العرب يسمونها "منطقة النكباء " أو "ريح الخب" ويتبر الملاحون العرب تلك المناطق من أشد وأقصي عقبات الرحلة البحرية إلى شرق إفريقية ، حيث تؤدى في العادة إلى إغراق السفن وهلاكها ، وقد تقوم السفن في محاولة للإفلات منها بإلقاء حمولتها للتخفيف . ويرجع الفضل للقزوينى في وضع أول تفسير علمي للإعصار في تاريخ البشرية في تعريفه بالريح التى تدور حول نفسها في شكل شبه منارة [٣].

(هـ) ظاهرة انعكاس التيار في بحر العرب :

تتداخل مراحل عديدة بجانب الرياح في حركة التيارات البحرية في شمال المحيط الهندي ، ومنها أشكال التضاريس في قاع المحيط الهندي وشكل سواحله[٤]، وتؤدى تلك العوامل إلى تغيير إتجاه التيارات البحرية في فصل الشتاء عنه في فصل الصيف ، فيتجه التيار من الشرق إلى الغرب في فصل الشتاء بفعل الرياح المنوسمية ، وعندما يصل إلى شرقي إفريقية ينحرف بعد خط الإستواء ليغير مساره من الغرب إلى الشرق . أما في فصل الصيف فتنعكس دورة التيار ، حيث يندفع من الغرب إلى الشرق . ويكون

---

(١) أبو العينين ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٢) - شرف ، عبدالعزيز طريح ، الجغرافيا المناخية والنباتية ، ص ١٥٨ ، الطبعة الثامنة .
- الفندي ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٣) ورغم ذلك فقد حصل العالم الأوروبي "بروكن " على جائزة نوبل للسلام حول وضعه تعريف للإعصار مطابق لتعريف القزويني .

(١) هذا ، وقد انتهت الدراسات العلمية الحديثة إلى إستخدام أجهزة "السونار " والأسديك " للحصول على مخطط كامل لقاع المحيط الهندي ، يفيد في تحديد مسار التيارات البحرية .
- روسكو ، لكن ، استكشاف البحار ، ص ٤٣ ، ترجمة الدكتور إلياس شمعون ، ايطاليا.

للسواحل الإفريقية أثرها الكبير في هذا الأمر[1] .

وبسبب كثرة الرحلات البحرية العربية إلى شرق إفريقية فقد تمكن العرب من التعامل معها في رحلاتهم إلى شرق إفريقية . وفهموا سرها حيث ربطوا بينها وبين ظاهرة هبوب الرياح الموسمية [2].

(و) التـــألق الضوئي لمـاء البحـر : [3]

حفلت مناطق المحيط الهندي بظواهر عجيبة ، منها ظاهرة الإضاءة البيولوجية وهى ترجع إلى ظهور عدد من البكتريا والبلانكتون وقناديل البحر وبعض الحيوانات اللافقارية حيث تنعكس أشعة الشمس على جلود تلك الحيوانات عند الأصيل ، فيصبح لون ماء البحر أحمرا مما يسبب خوفا وهلعا عند المسافرين والبحارة ، وكان لتلك الظاهرة تفسيران هما : -

الأول : خرافى : ويربطها بوجود عفريت من الجن يهدد سكان الجزر إذا لم يتم تقديم القرابين إليه كل شهر .

الثاني : تفسير ابن ماجد ويرجعها إلى سقوط المطر والطل على البحر ليلا أو إلى ظهور حياة . وقد فسرها ابن بطوطة بأنها تقع أول كل شهر قمري . وترتبط بالقمر[4]

---

(١) الفندي ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٢) - المسعودي ، أخبار الزمان ، ص ٦٠ ، طبعة بيروت .

- ابن خرداذ بة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٥ ، طبعة مكتبة المثنى ببغداد)

(٣) خاصة بالقرب من بعض جزر المحيط الهندي . وسواحل شرقي إفريقية .

- عبدالعليم ، أنور الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٦٥ .

- سجلت البعثة الدولية الظاهرة على سواحل الهند وشرق افريقية بصورة مفاجئة وتسببها أحيانا الموت الجماعي للحياة في البحر . كما وقعت في منطقة الحلانيات على الساحل الجنوبية للجزيرة العربية بفعل البلانكتون صغيرة الحجم تشبه لون دم الإنسان تماما .

- انظر اقتحام المجهول الأعظم ، ص ١٣٤ ومابعدها .

(٤) أنور عبدالعليم ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

والتفسير العلمي أرجعها إلى أحياء على سطح الماء بغية التناسل أول المد القمري[1] .

(ز) كائنات غريبة :

تعرضت رحلة السفينة العربية في رحلتها إلى شرق إفريقية عبر المحيط الهندي لكثير من الظواهر والأشكال العجيبة التى صادفت البحارة ، وقد حفلت بها كتب الأدب العربي ومذكرات النواخذة وحكاياتهم وتعد حكايات السندباد [2] وكتاب عجائب الهند من أهم الكتب التى حدث نلك الكائنات الغريبة . ومن تلك الكائنات العجيبة التى ترددت على ألسنة البحارة والمسافرين وأصابتهم بالفزع مايلى : دواب البحر ، وأنواع من الطيور الضخمة مثل الرخ ، وبحوانات بحرية أشبه بالبرية لاتتواجد إلا على البر مثل الفيلة ، وطيور أسطورية ، وأشكال عجيبة من الإنس ذات أجسام غريبة ونظم حياة خاصة ، وأحجام ضخمة من الأسماك في حجم الجزر [3].

ورغم ما في تلك الكائنات من الجانب الأسطوري إلا أنها تركت آثارها المخيفة والمرعبة في نفوس المسافرين وفي مخيلتهم ، حتى أنهم كانوا يفسرونها في جو ملىء بالرعب والخوف والقلق [4] ، وكثيرا ما كان بعض البحارة والمسافرين يقومون برمى أنفسهم في البحر خوفا" من مجابهة تلك الأشكال ، ومازالت حكايات ألف ليلة وليلة تحتوى على العديد من تلك الحكايات من قبل البحارة والمسافرين .

---

(١) لاحظ عالم بيولوجي أمريكي تلك الظاهرة على ساحل فلوريدا الأمريكية
- عبدالعليم ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٢) ألف ليلة وليلة ، حكايات السندباد ، جـ١ ، ص ٨٩ - ١٠٠ ، المكتبة الحديثة ، بيروت
- القزويني ، عجائب المخلوقات ، ص ١٠٩ ، ص ١١٨ .
- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٦٣ .
- اندريه ميكل ، جغرافية دار الإسلام ، ترجمة ابراهيم خوري ، دمشق سنة ١٩٨٣ ، جـ١ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤) المسعودي ، أخبار الزمان ، ص ٤٢ .

ورغم ذلك فقد كان للبحارة دور كبير في التغلب على تلك الصعوبات الطبيعية في رحلتهم إلى شرق إفريقية عبر المحيط الهندي . وكان ربابنة السفن وبحارتها لهم الدور الكبير في مواجهة العقبات والأخطار والتغلب عليها من خلال ما يلي :

١ - أصبحت يقظة الربان ضرورية لمواجهة كافة الأخطار طوال الرحلة البحرية الطويلة وتكون عملية اليقظة مستمرة لإدراك أي موقف [١] .

٢ - أصبح لربابنة عمان والخليج العربي خبرتهم الطويلة في الرحلات البحرية لشرق إفريقية ، فتكونت لديهم معلومات ومبادىء للإبحار كونت ما يشبه " الدليل البحري " [٢] ، للسفر ، تحتوى تلك المعلومات على قواعد للإبحار وترتيبات السفينة ، والحلول أثناء تلك المشاكل .

٣ - أدت الخبرة البحرية الطويلة إلى تنظيم عمليات الإبحار باستمرار حسب مواعيد وفترات مغينة ، وكذلك الإلتزام بالسير عبر طرق ومسارات محددة ، مما أدى إلى تفادي الكثير من تلك الصعوبات والأخطار .

٤ - تداولت مصادر التراث البحري أسماء عدد كبير من معالم البحر من أهل عمان والخليج العربي ، وقد تمكنوا من تحقيق مهارة فائقة في معرفة المنازل والمسافات والقياس ، وحلول الشمس والقمر ، ومواسم البحر ، وآلات السفينة . وقضى هؤلاء البحارة معظم حياتهم على صفحة مياه المحيط الهندي فنشأت لديهم تقاليد ونظم للبحار تتسم بالأمانة والحرص على السلامة .وبذلك توافرت لدى هؤلاء الربابنة الخبرة والتجربة الكبيرة.

---

(١) عثمان ، تجارة المحيط الهندي ، ص ٩٨ .

(٢) تحتفظ المديرية العامة للوثائق والمخطوطات بوزارة التراث القومي والثقافة بسلطة عمان بعدد كبير من تلك الأدلة البحرية . ومن أهمها :

- مخطوط في علم البحار . رقم ٢٥١٦ ، خاص ٣٨.
- مخطوط نفحة الأزهار في علم البحار ، رقم ٢١٨١٩ ، خاص ٢ك .
- كما تهتم دول الخليج العربي بهذا الجانب ويظهر ذلك في الدراسات والتحقيقات التى تتم حولها .

وكان قائد السفينة يتمتع بخصال وسمات منها :

- أن يكون على مستوى خلقي رفيع ، ثابت الجأش ، قوى القلب ، مدركا" لقوة شخصيته مع باقى أفراد السفينة [١] .

- أن يكون حذرا من التكلف والشد على السفينة أثناء مصافقة الرياح القوية . لأن خطأ الربان كبير .

- أن يلتزم بالطهارة وأداء الصلوات ، وأن لا يركب معه في سفينته شخص عاص ، ولا يركب في سفينته وهو فيها غير مطاع [٢]

- أن يكون على درجة كبيرة من إجادة الفنون البحرية والملاحية وعلم الفلك تؤهله لمسايرة الظواهر الطبيعية ومعرفتها وتحديد المسافات . وأن يظل مرتبطا بالنجم القطبى الشمالي ليلا ، وأن يجعله متوافقا مع البوصلة (الحقه) .

- ضرورة حمل أدوات الرصد والقياس مثل : الإسطرلاب [٣] ، وآلة ربع الدائرة [٤]

---

(١) المزيني ، الكويت وتاريخها البحري ، ص ٥٨ .

(٢) المزيني ، المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

(٣) الإسطرلاب : آلة قياس طورها العرب . لها أهمية في استخراج البرج الذي تكون فيه الشمس وتحديد خطوط الطول ودوائر العرض لأى بلد ، ومعرفة القبلة ، وتحديد مقدار الارتفاع عن مستوى سطح البحر على اليابسة ، وتحديد أوقات الليل والنهار . وقد تمكن العرب من إضافة أشياء عديدة في استخداماتها .

ويكون الإسطرلاب على حجمين : الصغير ويحمل مع الربابنة والمسافرين . والكبير ويتم استخدامه في الاغراض الكبيرة .

والاسطرلاب يونانية الأصل : معناها مرآة النجوم . ويتكون الإسطرلاب من قرص مرتم تثبت فيه جميع الأجزاء ، ثم الشبكة ، والمحور والعضادة وهى المسطرة المتحركة .

انظر - طلفاح ، خيرالله ، كنتم خير أمة أخرجت للناس ، جـ٢ ، ص ١٤٣ ، بغداد ، سنة ١٩٧٧م .

- ماهر ، سعاد ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٢٥٨ .

(٤) ربع الدائرة " آلة قياس عبّارة عن قوس مقداره ٩٠ درجة يثبت فيها ضيعا يتصل بثقل من الرصاص. معروف ، ناجى ، اعراض الفلكية ، ص ٢٩ . ٣٠ .

وآلة الكمال [1] ، لأن لها دور كبير في تحديد مطالع النجوم والاتجاهات وخطوط الطول ودوائر العرض . وكذلك أن يكون حريصا على حمل البوصلة [2]. وغير ذلك من آلات السفينة .

كما تمكن بحارة عمان وبحر العرب من إرساء أسس هامة في تقنية صناعة السفن من أجل القدرة على عبور المحيط الهندي إلى جنوب الساحل الإفريقي ، فكانت قدرتهم فائقة فص صناعة نوعيات من السفن تمكنت من التغلب على تلك الظواهر والصعوبات التى تقابلها في المحيط الهندي . وكانت تلك السفن تعرف باسم السفن "المقلفطة " [3]آى التى لا يدخل في تركيبها مسمار واحد ، وكانت تلك السفن لها القدرة على مواجهة حركة الأمواج ، وكذلك تحمل الرطوبة العالية والحرارة المرتفعة التى تعترضها في المناطق المدارية

---

(١) آلة خشبية طورها أحمد بن ماجد ، حتى عرفت باسم "خشباب ابن ماجد " عبارة عن شكل متوازي المستطيلات وسطها ثقب يمر به خليط مدرج يحركه الناظر لأخذ القياس .

- عبدالعليم ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٢) أصل الكلمة ايطالى ، معناها الحقة أو الصندوق ، وقد شاع استخدامها في العصور الحديثة بهذا الأسم ، على أساس أنها الآلة البحرية التى توجه الاتجاه في البحر بخاصيته الإنجذاب للإبرة المغناطيسية نحو الشمال . وكانت تلك التسمية على آخر تطور وقع لتلك الآلة في بداية القرن السادس عشر ، حينما تمكن ريان ايطالي يدعى فلامنيو جيولا من تثبيت تلك الإبرة المغنطة على طرف محور دقيق مثبت في صندوق .

وتدل الشواهد على أن أول من ثبت الإبرة المغناطيسية على محور هو أحمد بن ماجد حينما وضع الإبرة المغناطيسية على محور يحمل على عمودين من الخشب ، ووضع المحور في إناء به ماء حتى يقلل من حركة السفينة على أخذ الإتجاه والقياس في عرض البحر من أجل دقة القياس . أما الإبرة فقد استخدمت منذ العصور القديمة .

انظر : - صادق ، صبيح ، ما ابتدعه العلماء العرب ونسب إلى العلماء الأوروبيين ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١٠، ص ٣٥ .

- البيروني ، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٣) وهى السفن التى يتم بنائها بدون استخدام المسامير . أى يتم تركيب أجزائها وتثبيت الألواح وشدها بعضها إلى جانب بعض بدون استخدام مسامير ، ثم تبدأ عملية شد الألواح بخيوط من ليف ، وبعد ذلك يتم سد ثقوب الألواح عبارة تسمى "صل" من مواد لزجة مع قطن مبلل بها . وتظلي بعد ذلك السفينة بالقار . وتكون لها القدرة بذلك من مواجهة الأمواج لأن ألواحها لا تفلك بسهولة .

والإستوائية ، كما قادمت نوعية أخشابها التآكل وملوحة البحر . وانتشرت مراكز بناء تلك السفن على سواحل الخليج العربي وبحر العرب ، وكانت خاماتها تستورد من أماكن بعيدة عن المنطقة .

(٣) صعـــوبـــات الملاحـة في البـــحر الأحـــمر : -

كانت السفن العربية القادمة من الحجاز ومصر عبر البحر الأحمر والمتجهة إلى الساحل الشرقي لافريقية تواجه صعوبات وأخطار منها :

(أ) - الشعاب المرجانية :

ومازالت ظاهرة الشعب المرجانية تقلق عمليات الملاحة في المنطقة ودولها حتى الوقت الحاضر ، رغم قيام دول البحر الأحمر بعمل علامات للإرشاد في موانئها [١] . ذلك أن البحر الأحمر يعتبر بحرا داخليا ، وافي المياه مما أدى إلى ظهور مشكلة الشعاب المرجانية التى تمتد لمسافات بعيدة . وقد عرقلت الملاحة في كثير من مناطق البحر الأحمر . وكانت عمليات الملاحة تتم بحذر شديد في هذا البحر[٢].

(ب) قلة المـراكز العمرانيـة :

لا توجد موانىء نشطة وفعالة في مجال الملاحة العالمية على سواحل البحر الأحمر منذ القدم بسبب عدم وجود ظهير قاريء للسواحل الشرقية أو الغربية للبحر ، فالبحر الأحمر عبارة عن أخدود طويل وسط جبال فقيرة . ولذلك كانت السفن تفتقر في رحلتها الطويلة إلى موانىء تقوم بتجارة الترانزيت بينها أو تتوقف فيها للتردد بالمياه والطعام ، إلا نادرا [٣] وحتى موانىء البحر الأحمر كانت موانىء صغيرة في عمرانها .

---

(١) تعرضت الملاحة في منطقة البحر الأحمر لانتكاسة حديثة بسبب الشعاب المرجانية على السواحل المصرية ، ففي سنة ١٩٩١م م تحطمت السفينة المصرية " سالم اكسبريس " بالقرب من ميناء سفاجا المصري وعلى ظهرها العشرات من الركاب الذين راحوا ضحية الحادث .

(٢) حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٥ (أثناء رحلة إلى الحجاز عبر الموانىء المصرية) .(٤) حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(ج) القـــرصنـــة :

ظلت مشكلة القراصنة تهدد الملاحة في البحر الأحمر منذ العصور القديمة ، وكانت أشد مناطق القراصنة تتركز في جزر جنوب البحر الأحمر بالقرب من باب المندب بسبب قربها من المحيط الهندي ، حيث يتمركز القراصنة في جزيرة سوقطري في أغلب الأحيان

(د) تيـــارات البحـــر الأحمـــر :

يمثل البحر الأحمر حوضا ضيقا ، عرضه في المتوسط ٢٤٠كم ، وطوله نحو ١٨٠٠كم ، ويتوسط عمقه نحو ٧٠٠م ، وقاعه غير منتظم التضاريس إلى حد كبير ، ففي منطقة باب المندب في الجنوب لايزيد عمقه عن ١٠٠م ، أما في منطقة الشمال فترتفع نسبة الملوحة في مياهه . وتسبب إمتداد البحر الأحمر امتدادا كبيرا من خط عرض ١٢ درجة شمالا إلى ٣٠ درجة شمالا إلى مروره بتيارات هوائية مختلفة ، وأغلبها صحراوي تتميز بالجفاف خاصة في الشمال .

مما أدى إلى زيادة كميات البخر من سطح البحر كثيرا على ما يتساقط من مطر بالإضافة إلى أن هذا البحر لا تصله مصبات أنهار مثل البحار الأخرى ، كما لا توجد أودية مستمرة تصب فيه ، بل لا تتعدى أهميتها عن كونها أودية قليلة الأهمية.[1]

من هنا فقد اختلفت الظروف المناخية في البحر الأحمر في شماله عن وسطه وعن جنوبه كما يلى :

- ففي شمال البحر الأحمر (شمال خط عرض ٢١°) تهب الرياح الشمالية التى تهب من الشمال أو الشمال الغربي ، خلال فصل الشتاء من منخفضات البحر المتوسط وشمال إفريقية القادمة من المرتفع الآزوري الأطلسي ، مما يترتب عليه دوران الرياح في تلك المناطق وتستمر الإنخفضات في فصل الربيع يصحبها أهوية جنوبية شرقية ساخنة جدا تعرف باسم رياح الأذيب " أما في أواخر الخريف (أكتوبر - نوفمبر) فينجم عن مرور الإنخفاضات أو تولدها على هذه المنطقة الشمالية من البحر حدوث عواصف الرعد المحلية التى قد يصحبها مطر غزير يتدفق ماؤه إلى البحر أحيانا في مجاري صغيرة

(١) الفندي ، جمال الدين ، طبيعيات البحر ، ص ١٨٧ .

متعددة [1] . وتنتشر في تلك المناطق ظاهرة الدردور ، وهو حركة دوران الماء [2]. وقد يقطع هذا التيار أو يعكسه أحيانا أهوية ساخنة تقبل من جهة الجنوب أو الجنوب الشرقي من جهة جزيرة العرب أو من المحيط الهندي ، مما يؤثر على حركة الملاحة واتجاهات السفن.

أما الجزء الأوسط من البحر الأحمر : (بين ٢١° إلى ١٩° شمالا) فإن تلك المناطق تتميز بانخفاض الضغط الجوي وكثرة حدوث حالات السكون ، وتحدث عواصف الرعد في الخريف ويصحبها مطر غزير أحيانا وتهبط فيه الرؤية أو شفافية الهواء ، كما تحدث أنواء محلية غاية في الشدة . وبالتالي تحدث تجمعات مائية في شمال البحر في فصل الشتاء وفي جنوبه في فصل الصيف ، ولا تتسع منافذ البحر في شماله أو في جنوبه لمرور الماء بوفرة لحفظ المستوى العام للبحر مما يؤدي إلى زيادة نسبة الملوحة خاصة في قاع البحر . وتقل كميات الأوكسيجين .

أما البحر الأحمر الجنوب (جنوب خط عرض ١٩° شمالا") فتسوده رياح ما بين الشمالية والشمالية الغربية خلال الصيف إلا أنه في الموسم البارد نوعا" ينقطع التيار ليحل محله تيار جنوبي أو جنوبي شرقي ، وقد تحدث عواصف من الرعد في أي وقت .

وتؤدى تلك الظواهر الطبيعية إلى عرقلة مسار السفن التجارية الشراعية في البحر الأحمر ، خاصة وأنه بحر لاتوجد مدن ومراكز حضارية هامة على سواحله العربية أو الإفريقية [3].

كما توجد مشكلة طبيعية في منطقة اتصال البحر الأحمر عند الجنوب بمياه المحيط الهندي ، ذلك أن عملية تبادل المياه بين البحر الأحمر وخليج عدن عبر باب المندب لاتتبع الرياح السائدة في كل موسم ، ففي فصل الشتاء يسبب التيار الجنوبي الشرقي دفع مياه السطح إلى داخل البحر الأحمر ، بينما على الأعماق يفيض ماء البحر الأحمر المرتفع الملوحة إلى الجنوب صوب مياه المحيط الهندي في خليج عدن . أما في الصيف فإن الرياح

---

(١) الفندي ، المرجع نفسه ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٥١ . وذكر أن تلك المنطقة أخبث مكان في البحر الأحمر .

(٣) الفندي ، المرجع السابق ،، ص ١٩١ .

الشمالية تخرج المياه السطحية من البحر الأحمر ، بينما ينتقل الماء إلى أبعاد غير كبيرة إلى داخل البحر . كما يوجد تيار عميق يخرج من البحر الأحمر بصورة مستمرة .

ونظرا لما يبدو من تعقيد في عمليات التبادل المائي خاصة في الفترة الحارة فإن حسابات التبادل المائي على أساس التوازن في الأملاح غير ممكن . وقد اعتبر العلماء أن ملوحة هذا البحر في ازدياد . وبالتالي أصبحت عملية الإبحار وحياة السفن في هذا البحر عملية شاقة في ظل ظروفه الطبيعية [1] .

(د) العروض المدارية والاستوائية :

تتعرض السفن القادمة نحو شرق إفريقية إلى مناخات العروض المدارية والإستوائية وما تتميز به من أمطار غزيرة ، وحرارة مرتفعة ورطوبة عالية ، وتؤثر تلك الظواهر على حمولة السفن وعلى الركاب وعلى جسم السفينة .

(٤) أخطار السبر الإفريقي : (الشرق والوسط)

(أ) اعتداءات القبائل والجماعات الزنجية :

فرغم التواجد العربي والإسلامي الواضح على شرق القارة الإفريقية منذ عصور ماقبل الإسلام وعبر العصور الإسلامية ، إلا أن هذا التواجد ظل قليلا في وسط المحيط القبلي الزنجي الذي ظل يتدفق من داخل القارة إلى مناطق الساحل الشرقي الإفريقي . وكانت جماعات البانتو مازالت مستمرة في حركتها منذ القرن الأول للميلاد في تلك المناطق تبحث عن أوطان نهائية للاستقرار بها .

وقد شهدت المنطقة الخلفية للساحل الشرقي لإفريقية صراعات بين القبائل الإفريقية بعضها وبعض ، خاصة في فترة بدايات التواجد العربي . وانعكس ذلك في عدم توفر الأمن والاستقرار في المنطقة ، وفضل العرب والمسلمين المستقرين في المنطقة الجزر حتى يكونوا في أمن وأمان من غارات القبائل الزنجية [2] . وحتى المراكز الإسلامية الساحلية

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢) عبدالحليم ، العمانيون والتجارة والملاحة ونشر الإسلام ، ص ٣٠٥ ومابعدها .

غلب عليها الطابع الزنجي [1] وظلت الدماء العربية محصورة في أضيق نطاق . وظلت جماعات التجار حذرة في التعامل مع كل تلك العناصر الزنجية القلقة في نظمها .

(ب) المشـــاكل الطبيـــعية والجـــغرافية :

يعترض طرق الإتصال بالبر الإفريقي من الساحل الشرقي لإفريقيـة العديد من المشاكل الطبيعية مثل إنتشار الشلالات التى تعترض طرق الأنهار [2] وسيادة الصحاري والبحيرات التى تعترض طرق الجارة ومن الصعوبات الطبيعية الضغط الجوي والأعاصير حيث تمثل مناطق الارتفاعات الجوية [3] التى تسود المناطق أهم مشاكل الملاحة في شمال منطقة ساحل شرق إفريقية وفي منطقة مدغشقر وسفالة الزنج وهى تتواجد بين مناطق الانخفاضات وتتحرك ولا تطول مدة ظهورها ، وتتحرك بغير انتظام وتساعد على عمليات تسخين الهواء تدريجيا .

كما توجد ظاهرة الأعاصير الإستوائية في المحيط الهندي عند منطقة خط الأستواء وداخل نطاق هبوب الرياح التجارية ، ولذلك تمثل عقبة للسفينة المتجهة إلى شرق إفريقية وتسير تلك الأعاصير عكس الإنخفاضات العرضية . وأهم مناطق الأعاصير منطقة شمال المحيط الهندي وحول جزيرة مدغشقر[4] ، وهى بذلك تمثل خطرا داهمـا" على الســفن المتجهة إلى غرب المحيط الهندي على ساحل إفريقية الشرقي . حيث تستمر في عنفوانها حتى تدخل السفن إلى الساحل .

وتدور الرياح حول الأعاصير ، كدورتها حول الإنخفاضات ، مع زيادة هائلة في

---

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٨٥ .

(٢) مثل نهر الزمبيزي ، الذي يعترض مجراه في الجزر الأوسط منه العديد من الشلالات الشهيرة بشلالات فيكتوريا ، كما أن هذا النهر يسير من الغرب إلى الشرق ولذلك لم يكن له دور في خدمة عمليات الإتصال بين البر الإفريقي وداخل إفريقية .

(٣) الإرتفاعات الجوية هى مناطق الضغط العالي ويصحبها طقس هادىء ، وتكثر هبوب الرياح في طبقات الجو العليا . ولذا صفر السماء وتوتفع درجات الحرارة أثناء النهار بسبب الأشعاع الشمسى .

(٤) كما توجد تلك الظاهرة في جزر الهند الغربية والمكسيك وبحر الصين (وتسمى التيفون) وفي اليابان والمحيط الهادي (يسميها الأمريكان بالهريكين) .

السرعة وكثيرا" ما يبدأ الإعصار باتساع يزيد على ٨٠كم ثم يزداد حتى يصل إلى أكثر من ٥٠٠كم . وفى مركز الإعصار يسود الهواء وتنكشف السماء وينقطع المطر ، وتسمى تلك المنطقة "عين الإعصار" [١] . ثم تتغير الظروف في منطقة محيط الإعصار ، فقد تهطل الأمطار بغزارة وتمثل خطورة للسفن .

وهناك نوع من الأعاصير في منطقة مدغشقر وسفالة الزنج تصل فيه سرعة الرياح إلى ٥٠٠ كم في الساعة ، تحدث تدميرا" للسفن في البحر وللحياة علي البر ، وقد تؤدي إلى إحداث خراب وتدمير شامل لكل ما تصادفه وتسمى تلك بالنكباء" التى كثيرا ما تعرض السفن في عرض البحر أو حتى السفن الراسية في الموانىء وهى من ظواهر جنوب المحيط الهندي [٢] .

تشكل الغابات مشاكل خطرة أمام جماعات التجار التي قدمت من بيئات ومناطق تختلف في ظروفها عن المنطقة الإفريقية . وكانت تلك الغابات تحتوي على العديد من الأخطار كالحيوانات المفترسة والجماعات البدائية [٣]. كما كانت هناك قبائل في تلك المناطق تنتمى إلى أكلة لحوم البشر ، وكثيرا ماوردت حكايتها على ألسنة جماعات التجار العائدين إلى المراكز الساحلية .

(ج) الخطر البرتغالي :

كان بداية قدوم الخطر البرتغالي إلى شرق إفريقية مرتبطا أساسا بالعداء الصليبي ضد المسلمين منذ قرون سابقة ، ولذلك قدمت الأساطيل البرتغالية إلى المنطقة من أجل وضع للسيادة العربية التجارية لمنطقة شرق افريقية والمحيط الهندي ، وقد وضع ذلك بجلاء منذ البداية من خلال أعمال وفظائع البرتغاليين ضد الجماعات والمراكز الإسلامية بداية من نهاية القرن الخامس عشر [٤] .

---

(١) يبلغ قطر عين الإعصار ٣٥ كم .

(٢) الفندي ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) الجمل ، شوقي ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، ٣٧ ، ٤٩ .

(٤) جمال زكريا ، استقرار العرب ، ص ٣١٨ .

ولم تخطط البرتغال لاحتلال الساحل الشرقي لإفريقية فقط بل بدأت تخطط في توجيه الضربات للمسلمين والقضاء عليهم ، وبدأت بالفعل عمليات الأسطول البرتغالي ضد المراكز التجارية الإسلامية على مدخل البحر الأحمر وكذلك على سواحل الخليج العربي وبحر العرب وخضعت معظم تلك المراكز التجارية للسيطرة البرتغالية [١].

وبذلك تمكن البرتغاليون من تعطيل التجارة العربية والقضاء عليها في شرق إفريقية بعد أن طبقوا نظام الإحتكار التجاري في المحيط الهندي ، وانقطعت الرحلات البحرية العربية إلى سواحل شرق إفريقية ، وبدأت عمليات نهب للمراكز التجارية التى أسسها التجار العرب في السابق والتى كانت بمثابة منارات حضارية للقارة وانهارات المجازات التجارة العربية السابقة [٢] ، حتى بدأ التجار المسلمون في سفالة ، أرض الذهب ، ينسجون ملابسهم بأنفسهم [٣] ، حيث لم يعد في استطاعتهم جلب المنسوجات من الهند أو غيرها إلى شرق افريقية إلا عن طريق البرتغاليين . وقد أدت تلك السياسات الإستعمارية والجشع إلى عودة الصراعات داخل القارة الإفريقية . وأصبحت مناطق شرق القارة غير آمنة حتى بدأ العهد العربي من جديد على يد اليعاربة والبوسعيد .

وبذلك تحمل العرب خاصة أهل عمان العديد من الصعوبات والأخطار في سبيل حمل سلع القارة الإفريقية إلى العالم الخارجي ، كما تحملوا العديد من المشاق في سبيل نقل سكانها إلى مراتب حضارية جديدة ، بعد أن ظلوا في المراحل البدائية . ومهما يكن من مردود سلع شرق القارة الإفريقية فإن الأخطار والصعوبات كانت أعلى منه . وكانت الحصيلة النهائية لتلك الجهود لصالح الأفارقة فقد تعلموا أسس المدنية ونظم الحضارة من دين هؤلاء التجار وهو الإسلام الذي أخذ ينساب بين أجزاء القارة من سواحل وجزر وصحاري وجبال وسهول . بعد أن حمله التاجر في خلقه وأمانته . فحافظ عليه الأفارقة وأصبح منهم العديد من دعاة الإسلام ورجاله .

وكانت التجارة وجماعات التجار أهم وسائل انتشار الإسلام ولغته العربية إلى تلك المناطق الجديدة ، وجنى التجار ثمار جهدهم في الدنيا والآخرة .

---

(١) عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٢) المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٩٥ .

(٣) الحويري ، ساحل شرق افريقية ، ص ٩٦ .

الخـــاتمـــــة

" لقد عمل الإسلام على تطوير بلاد الزنوج ولايزال يعمل "

هكذا اعترف مانجو بارك M. Park ، أحد الرحالة الأوروبيين أخيرا بعد أن جاب القارة الإفريقية ، بأن الإسلام هو دين الإفارقة ، وأنه الدين الوحيد الذي يتلاءم مع القارة وسكانها . ولم تبلغ القارة مستويات حضارية في تاريخها القديم ، أو الحالي ، مثل مابلغته علي يد المسلمين .

والأمر الأشد غرابة أن العرب والمسلمين لم يسبق لهم أن وضعوا خططا وسياسات من أجل نشر دينهم أو لسانهم ، كما يتضح من الجماعات والبعثات التى تبشر بدياناتها وأفكارها حاليا ، وأنما طار الإسلام مع العربي أو المسلم مع سلعته التى يتاجر فيها ، ومع حرفته التى يعمل ويكسب منها . فإذا كانت الجيوش الإسلامية قد تكبدت المشاق في الفتوحات الإسلامية من أجل كسر حاجز الظلم والقهر عند الفرس والروم والهنود والقوط لينساب الإسلام إلى أقوامهم بلا قيود . فإن الإسلام تخلل عبر القارة الإفريقية من صحرائها وغاباتها وبحيراتها بالحسنى . وكان حرص العرب والمسلمين على حرية الإنسان أيا كان لونه ومستواه ، وترك الناس أحرارا ، يهدى الله منهم من يشاء . كان هذا الحرص هو الذي شجع الأفارقة على الدخول في الإسلام . ووجد الأفارقة العزة والكرامة والحرية في الإسلام فقلدوا أهله حتى أصبحوا مسلمين .

وقد أدرك رهبان الكنسية الذين عملوا في القارة السوداء خطورة تلك الطريقة المثلى في الدعوة ، على وجودهم و جهودهم ، ونجاحها في تحول الناس من دياناتهم ومعتقداتهم إلى الإسلام . فيقولراهب أوروبي " فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لايهتمون بدخول الناس في الإسلام فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام يتعرفون عليه وعلى أهله ، لعلهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به ، وصنفهم به على غيرهم ، فمازالوا يفعلون ذلك ويسألون عن الاسلام ويستفسرون حتى وجدوا أنفسهم

مسلمين دون أن يدروا .

وتأسف راهب آخر من أن العرب لم يستخدموا القوة في فرض دينهم الإسلامي ، إذ لو فعلوا ذلك لزاد تمسك أصحاب الديانات الأخرى بدياناتهم ومعتقداتهم مهما كانت .وهكذا إنساب الإسلام بين الأفارقة عبر الصحاري والغابات والأدغال ، وبين أشد المناطق تمسكا بدياناتها وهى مصر القبطية . ذلك أنه تناسب مع فطرة الإفريقي وعقلية القبطى وآمال البربر ، فوجد الجميع فيه ضالتهم بعد رحلاتهم في البحث عن الحقيقة . لقد أثبتت دعوة الإسلام أنها دعوة الحق ، وأن الرسلام رسالة البناء والإرتقاء .

لم يسجل التاريخ أن المسلمين جندوا تجارا رفعوا سيفا على رجل ليدخلوه في دينهم ، أو قدموا له أى مغريات في أجل ذلك ، ولا أكرهوا قبيلة من القبائل في إفريقية أو منطقة من المناطق على الدخول في الإسلام ، وإنما كان السيف على حاجز الظلم والقهر والاستغلال .

لقد فجر الإسلام في نفوس الأفارقة العزة والكرامة ، وأخرج طاقاتهم الكامنة ، وأنعم عليهم بالوحدة والعزة والمنعة بعد أن كانوا مستضعفن أشتاتا" ممزقين بين الروم وغيرهم ، وبين نيران العصبية ، ونعم الأفارقة بنعمة الإسلام مثلما نعم به العرب من قبل ، وانطبق عليهم قوله تعالى :

"واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم واصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون"(١)

"واذكروا إذ انتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون "(٢)

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الأنفعال : ٢٦ .

أصبح الإسلام هو الديانة التي أدت إلى تقدم القارة وتطور القارة الإفريقية فلم تشهد القارة مراكز حضارية افريقية خالصة قبل الإسلام ، سوى حضارة الفراعنة أما بقية المراكز فكانت تابعة لحضارات أخرى مثل قرطاجنة وغيرها . فمع الإسلام بدأ التاريخ القومي للقارة الإفريقية . حيث ظهرت لأول مرة دول إفريقية خالصة في غرب السودان ووسطه وشرقه وعلى سواحلها ، وعلى حافة صحرائها . وأصبحت مالي وصنغي وبرنو ودارفور والفونج دول ذات سيادة لها مكانتها العالمية ، في زمنها ، وظهرت فيها المدارس والجامعات ومراكز العلم والمكتبات ، لأول مرة في تاريخ إفريقية .

ولولا العرب لما وصلت إفريقية إلى ماكانت عليه ، لقد حملوا إلى القارة دينهم وتجربتهم ، وتحمل العرب الأمانة الكبري في حمل الإسلام إلى تلك النواحي ، ووجد الإفريقي في العربي عشيرا حسنا وصديقا متواضعا وتاجرا أمينا وحاكما عادلا ، فألفهم الناس ، وصاروا الجميع مسلمين وعربا وكانت القبائل الإفريقية تتنافس على العربي لينزل بها ، فيبدأ معلما وينتهي زعيما ورائدا في منطقتها وتتحول بلادهم على يديه منارة للحضارة والمدينة بعد أن كان يسودها الفوضى والتخلف . ومازالت مناطق إفريقية تحتفظ في ذاكرتها بأدوار رائعة للعديد من العرب . ومازال الأفارقة يحرصون على انتماءاتهم العربية .

وأقبلت الشعوب الإفريقية على تعلم الإسلام وحفظ قرآنه والتحدث بلغته وأشتركوا جنبا إلى جنب مع العرب في الدفاع عن الإسلام وتبليغ رسالته . وكانت مملكة مالي وصنغي في حالة جهاد مستمر ضد القبائل الوثنية التى حسدت تلك الممالك على ما وصلت إليه من مجد بعد تحولها إلى الإسلام ، وظلت رأية الجهاد مرفوعة بفضل ملوك مالي وملوك صنغي حتى تحولت القبائل الوثنية إلى الإسلام وتحولت مناطق السافانا لأول مرة إلى قمة مجدها الحضاري ، بحيث عد سلاطينها من أعظم سلاطين العالم في عصرهم ، وحسدهم تجار البندقية وجنوه ، وأخذوا يدفعوا دولهم للوصول إلى ثروات السافانا .

ولذلك فقد استعرضنا نبذة عن وضع تلك المناطق قبل الإسلام ليدرك القارىء والباحث مدى الآثر الذى تركه الإسلام في القارة ، لقد كانت مناطق السافانا تصدر سلعها قبل الإسلام للرومان وغيرهم ، ولم يهتم التاجر اليوناني أو الروماني إلا بمكسبه المادي ، حتى جاء التاجر المسلم ليحمل عقيدته إلى تلك المناطق ويعرضها بالحسنى دون ضغط أو

إكراه ، وكان هو خير سفير لدينه ، فانساب الإسلام بين الأفارقة ، وأصبح التجار دعاة دون أن يدروا . وارتبطت القارة الإفريقية لأول مرة بالعالم الخارجي وتعاملت مع قوى العصور الوسطى تعامل الند للند ، بما أحرزته من نظم ورقي وتقدم .

وكان التاجر العماني بحق ، أكثر من ترك بصمات على طول ساحل افريقية الشرقي ، بل امتد أثره إلى الداخل ، ليتم على يده ربط ساحل المحيط الهندي الإفريقي ، بساحلها الغربي المطل على المحيط الأطلسي عبر طرق برية ، وأضاء تلك الطرق بمستوطنات ومراكز حضارية تركت آثارها الإيجابية على القارة وحقق هذا التاجر نصرا" سياسيا حديثا ، حينما تمكن من ربط الساحلين الآسيوي والإفريقي في دولة إسلامية واحدة هى دولة البوسعيد التى جعلت لنفسها عاصمتين احداهما آسيوية في مسقط ، والثانية إفريقية في زنجبار . وكانت تلك أول تجربة في التاريخ . ومازالت آثار شرق القارة الإفريقية تشهد بمدى إخلاص التاجر العماني وأمانته ونشاطه وإخلاصه .

واصطدمت جهود التجار العمانيين والعرب والمسلمين بأحقاد جديدة وفدت من الغرب ، فبدأت محاولات جديدة من أجل طمس الدور الإيجابي الذي قام به المسلمون في القارة ، لكن أهل القارة الذين أسلموا تحملوا عبأ الدفاع من جديد عن دينهم وعن مكتسباتهم . لكنهم بدأوا يدخلون وسط مؤمرات جديدة مفتعلة من الديون والفقر والجهل والمرض والمجاعة . ،وستظل القارة هى قارة الإسلام فلو بعدت عنه فإن ذلك ابتعادا عن هويتها وتراثها ومجدها .

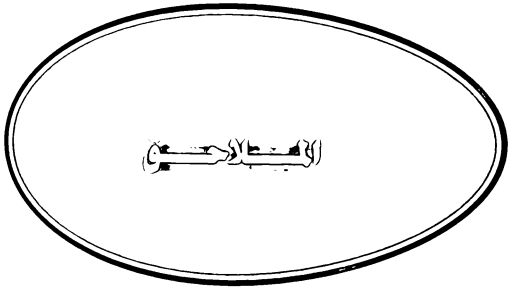
الإصطلاحيين

خارطة افريقيا (استنادا الى المكتشفات الحديثة) (خارطة رسمها ماتياكاسيو ١٧٣٢م)
سم ٤٥

شكل (٢)

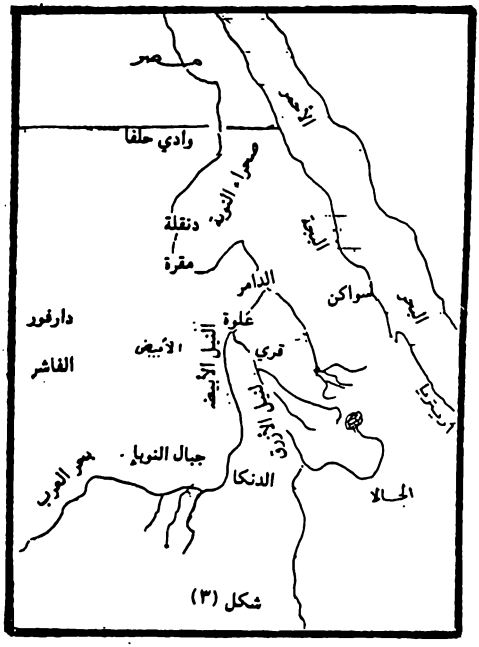

أهم مراكز السودان الشرقى

أهم واحات الصحراء الكبرى وطرق القوافل عبرها

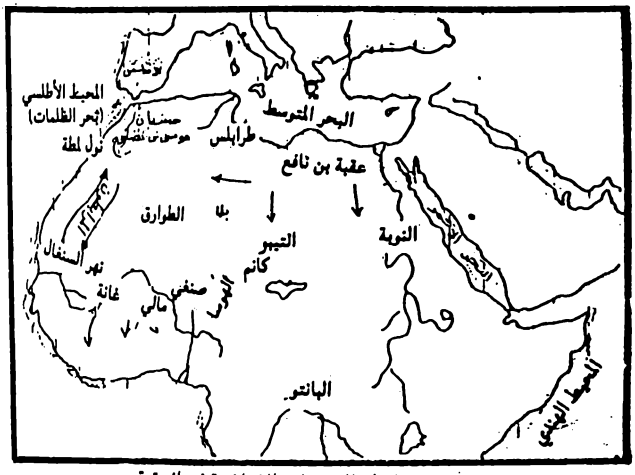

خارطة الفتوحات الإسلامية في إفريقية

شكل (٥)

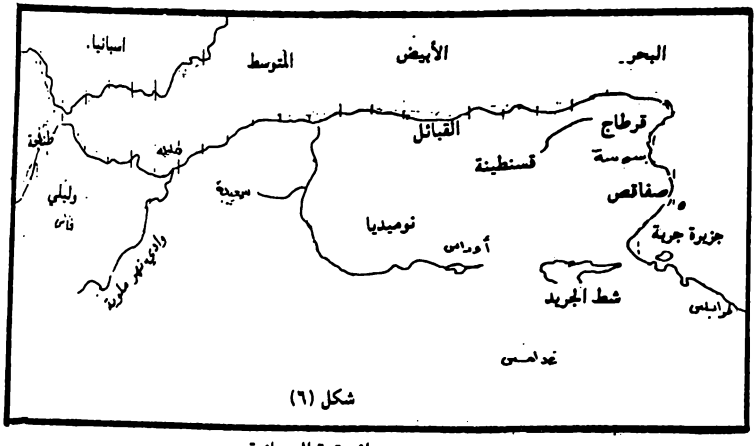

شكل (٦)

إفريقية الرومانية .

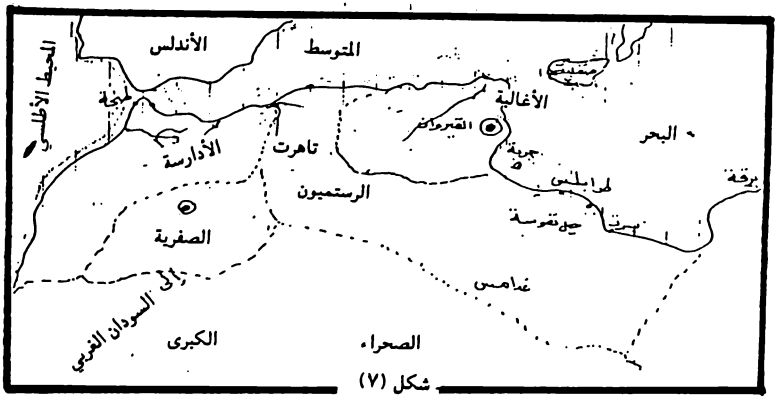

شكل (٧)

دول شمال إفريقية المستقلة في القرن الثالث الهجري

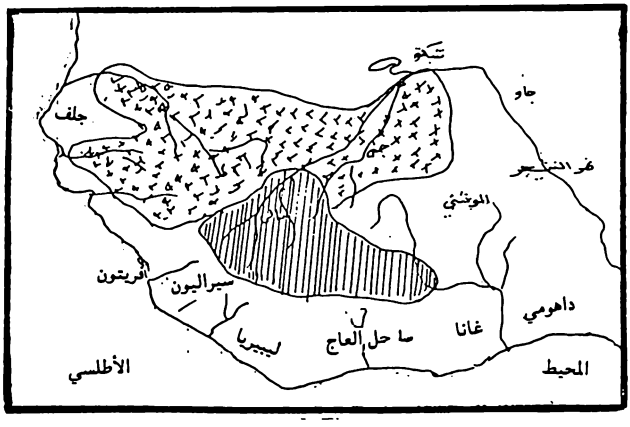

زعامات غرب السودان في القرن ١٩

xx ساموري التوري.

١١١ الحاج عمر .

شكل (٨)

امتداد السيادة العمانية في شرق إفريقية

شكل (٩)

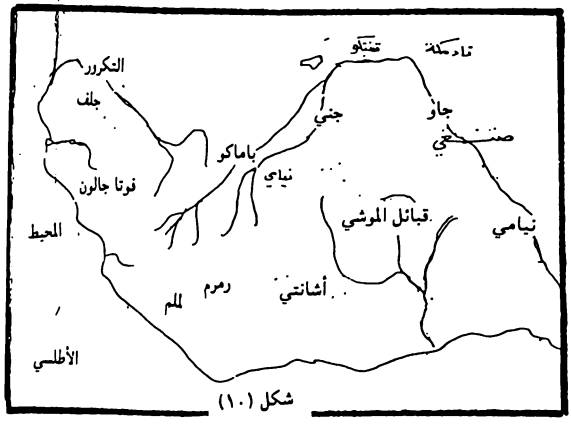

شكل (١٠)

قبائل الماندنجو وقيام مملكة مالي

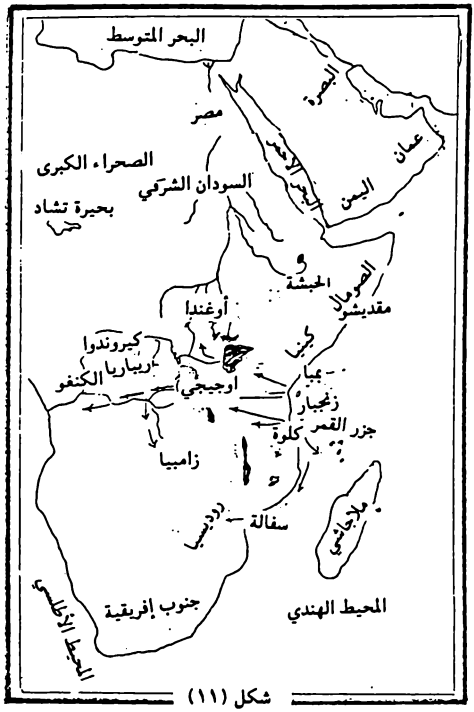

شكل (١١)

دور عمان في نشر الإسلام في داخل إفريقية

أولا : المخـــطـوطـات :

- السكندري : أبوالفتح نصر عبدالرحمن ، ت ٥٦١هـ / ١١٦٥م .
ـــ كتاب الأمكنة والمياة والجبال والأثار ونحوها المذكورة في الأخبار والأشعار ، مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني .

ـ الأنصاري : (شيخ الربوة) شمس الدين ابي عبدالله بن أبي طالب الدمشقي
ـــ نحبة الدهر في عجاءب البر والبحر ، مخطوط لدى المكتبة الإسلامية ، روي ، مسقط ، سلطنة عمان ، عن نسخة ليبتزج .

ـ التميمي : عثمان بن عبدالعزيز منصور ؛ .
ـــ النصف الأول من كتاب نزهة الأبصار في ذكر الأقاليم وملوك الأمصار ، دار الكتب المصرية ، ١٥٠ ب تيمور .

ـــ ابن وصيف شاه :
ـــ عـجـائب الدنيـا ، المتـحف البـريطاني ، لندن ، النادي الثقافي ، مسقط ، سلطنة عمان .

- مؤلف مجهول :
ـــ السلوة في اخبار كلوة ، نسخها محمد بن حسن الرمضاني في يوم ١٤٠٥/٢/٢٦ هـ الموافق ١٩٨٤/١١/١٠م ، من نسخة زنجبـار التي نسـخـها من قـبل عبدالله بن مـصبح الصـرافي سنة ١٢٩٤ هـ ، التحف البريطاني ،لندن ، رقم ، وهي محفوظة حاليا" بالمديرية العـامـة للوثائق والمخطوطات ، زارة التـراث القـومي والثقافة ،مسقط سلطنة عمان .

ـ مخطوط رقم ١٨٢٨ عا / ١١ك ، كتبة ناصر بن علي بن ناصر الخضوري ، سنة ١٣٣٩هـ ، وانتقل الى ملكية سالم بن مسلم بن يوسف الحتروشي سنة ١٣٦٠ م .

ـ مخطوط رقم ١٨٢٧ عام /١٠ك ، مجهول المؤلف ، والناسخ ،والمالك ، من أوله الى آخره ، المديرية العامة للوثائق والمخطوطات ، مسقط

ـ مخطوط رقم ٢٥١٦ عام /٣٨ك ، تاريخ النسخ ٢٣ مادي الآخر سنة ١٣٢١ هـ ، المديرية العامة للوثائق والمخطوطات ،مسقط .

ـ نفخة الأزهار في علم البحار ، منسوخة سنة ١٣٥٢ هـ ، ملك محمد بن ناصر بن محمد ، تحت رقم ١٨١٩ عام /٢ك .المديرية العامة للوثائق والمخطوطات ، مسقط .

ـ معدن الأسرار في علم البحار ، ٣ أجزاء ، ملك الشيخ ناصر بن علي الخضوري ، تاريخ النسخ سنة ١٣٦٤ هـ ، رقم ١٨٤٣ عام / ٢٦ك ، المديرية العامة للتراث القومي والثقافة ، مسقط ، سلطنة عمان .

ثانيا : المصـــــادر العـربيـــة

- ابن الأثيـر ، أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ،ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ هـ
ـ الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

- الإحسائي ، محمد بن عبدالله بن عبد المحسن آل عبدالقادر الأنصاري ،
ـ تحفة المستفي بتاريخ الإحساء في القديم والجديد ،الرياض .

- الإدريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٥٣م .
ـ نزهة المشتاق في إختراق الأفاق ، بيروت ، بدون تاريخ .

- الأسدي محمد بن خليل ، القرن التاسع الهجري / الخاس عشر الميلادي .
ـ كتاب التيسير والإعتبار والتحرير والإختبار ، تحقيق دكتور عبد القادر أحمد طليمات ، الفكر العربي ، سنة ١٩٦٨م .

- الأصفهاني ، الحسن بن عبدالله ، ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م .
ـ بلأد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ، والدكتور صالح العلي ، دار اليمامة ، الرياض ، المملكة العربية لسعودية ، سنة ١٩٦٨م.

- الأصفهاني ، علي بن الحسين بن محمد القرشي ، المعروف بأبي الفرج الأصفهاني ، ٣٥٦هـ /٩٦٦م .
-كتـاب الأغاني ، إشـرأف وتحقـيق إبراهيم الإبياري ، طبعة دار الكتب المصـرية ، دار الشـعب ، القـاهرة سنة ١٣٨٩ هـ / سنه ١٩٦٩م .
- الإماء الشواعر ، تحقيق دكتور فوزي حمود الغيسي ، والدكتور يوسف السامرائي ، عالم الكتب ، بيروت ،. سنة ١٩٨٤م .

- إبن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس حمد بن قاسم ، ٦٦٨هـ / ١٢٩٦م

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ،بدون تاريخ .

- بزرك بن شهريار، الناخذاه الرام هرمزي ، ت بداية القرن الرابع الهجري.
كتاب عجائب الهند ، ليدن ، سنة ١٨٨٣م .

- ابن بطوطة ، عبدالله بن محمد ابراهيم اللواتي ، ت ٧٩٩هـ / ١٣٦٩م .
- تحفة الأنظار في الأمصاروعجائب الأسفار ، تقديم وتحقيق محمد عبدالمنعم العريان ، راجعة مصطفي القصاص ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، سنة ١٤٠٧ه / ١٩٨٧م .

- البكري الأندلسي ، عبدالله بن عبدالعزيز ، ت ٤٨٧هـ /١٠٩٤م .
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفي السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- المسالك والممالك ، تحقيق دكتور عبدالله يوسف الغنيم ، ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٧٧م .

- اليلادي البحراني ، الشيخ على بن الشيخ حسن.
- أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والإحساء والبحرين ، تحقيق محمد على رضا ، النجف الأشرف، سنة ١٣٧٧هـ .

- البلاذري ، أحمد بن يحيى ، ت ٢٧٩هـ .
فتوح البلدان ، مكتبة النهضة المصرية ، الشاهرة ، ١٩٥٦م .

-البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م .
- تحقيق ماللهند من مقبولة في العقل أو مرذولة ، عالم الكتب ، بيروت الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٣م .
- الآثار الباقية عن القرون الخالية ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة

- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن مجر ، ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م .
- كتاب التبصر بالتجارة ، المطبعة الرحمانية ، مصر ١٣٥٤هـ
- كتاب التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق فوزى عطوى ، بيروت .
- كتاب البخلاء ، تحقيق فان فلوتن ، بيروت ، بدون تاريخ .
- الحيوان ،. تحقيق الدكتور يحيى الشامي ، دار مكتبة الهلال ،
- البيان والتبين ، دار صعب ، بيروت - بدون تاريخ .

- الجزري ، عزالدين ابن الأثير .
- اللباب في تهذيب الأنساب ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ

- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م .
- رسالة اعتبار الناسك في ذكر الأثار الكريمة والمناسك ، دار مكتبة الهلال ، الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٩٨٦م .

- الجدي الحجازي ، الشيخ عبدالقادر بن أحمد بن محمد
- السلاح والعدة في تاريخ جدة ، تحقيق مصطفي الجدي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد ، ت ٤٥٦هـ /١٠٦٣م .
- جمهرة أنساب العرب ، راجعه لجنة من العلماء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ابن حوقل االنصيبي ، أبوالقاسم محمد ، ت ٣٨٠هـ / ٩٩٢م .
- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

- الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .
- معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

- الحميري ، محمد بن عبدالمنعم ، القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق دكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٨٤م .

- ابن خياط ، أبو عمرو خليفة بن خياط الليثي العصفري ، ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م .
- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق دكتور أكرم ضياء العمري ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر
- الأعلاق النفيسة ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٨هـ

- ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن على بن موسى ، ت ٦٧٧هـ ، ١٢٩١م .
- كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، المكتب التجاري ، بيروت ، سنة ١٩٧٠م .

- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ / ٩٢٠م .
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بالقاهرة .

- ابن الفقيه الهمداني ، أبو بكر أحمد بن محمد ، المعروف بابن الفقيه .
- مختصر كتاب البلدان ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

- ابن قتيبة ، زبو محمد عبدالله بن مسلم ، ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م .
- المعارف ، تحقيق دكتور ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ /١٩٢٥م .
- القرشي ، أبوزيد محمد بن أبي الخطاب ، ت ١٧٠هـ/٧٨٦م .
- جمهرة أشعار العرب ، دار بيروت للطباعة ، ١٤٠٤هـ

- القرشي ، يحيى بن آدم ، ت ٢٠٣هـ /٨١٨م .
- كتاب الخراج ، تحقيق حسين مؤنس ، دار الشروق ، القاهرة .

- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ /١٢٨٣م .
- آثار البلاد وأخبار العباد ، دار بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .
- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، بيروت.

- القلقشتندي ، أبوالعباس أحمد بن على بن أحمد ، ت ٨٢١هـ /١٤١٨م .
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، بغداد ، سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ /١٩٦٣م

- المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ، ت ٣٤٦هـ /٩٥٧م .
- أخبار الزمان ، دار الأندلس ، بيروت ، بدون تاريخ .
- التنبيه والأشراف ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

- المقدسي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد ، ت ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م .
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تقديم دكتور محمد مخزوم ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

- ابن المقفع ، عبدالله بن المقنع .
- كتاب كليلة ودمنة ، (ترجمة إلى العربية) بيروت ، .

- المليباري ، الشيخ أحمد زين الدين المعبري ، ت ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م .

- تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ، تحقيق محمد سعيد الطريحي ، دائرة المعارف الهندية، المركز الثقافي العربي الهندي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .

- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ/١٣١١م .
- لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، بدون تاريخ .
- نثار الأزهار ، شرح أحمد عبدالفتاح تمام ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

- ابن النديم ، محمد بن أسحق ، المعروف بالورق ، ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م .
- الفهرست ، تحقيق دكتورة ناهد عباس ، دار قطري بن الفجاءة ، قطر ، سنة ١٩٨٥م .
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، ت ٣٣٤هـ /١٠٤١م .
- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، دار اليمامة ، الرياض ، السعودية ، ١٩٧٧م .
- الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير ، الكتاب العاشر ، الدار اليمنية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ .

- اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن واضح ، (ت ٢٨٤هـ /٨٩٧م).
- كتاب البلدان ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤٠٨هـ
- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .

- أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم القيرواتي (ت ٣٣٣هـ).
طبقات علماء افريقية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بدون

-المقريزي ، تقى الدين أحمد بن على ، (ت ٨٤٥هـ)
- اتعاظ الحنفا بأخبار الآئمة الفاطميين الحنفا ، تحقيق د . جمال الدين الشيال، القاهرة ، سنة ٩=١٩٤٨م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. محمد مصطفي زيادة ،

ثالثا : المراجع العربية :

- أبو العلا ، محمد ، دكتور .
  - موقع عمان الجغرافي ، وعلاقاتها المكانية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- إبراهيم زرقانة ، دكتور .
  - العائلة البشرية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

- أحمد ، أحمد علي .
  - كلوة تاريخها وحضارتها من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣م .

- السيد ، أحمد لطفي .
  - قبائل العرب في مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥م .

- المجذوب ، عبدالعزيز .
  - الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيبرية ، تقديم على الشامي ، تونس ، سنة ١٩٧٥م .

- الدوري ، تقى الدين عارف .
  - صقلية ، علاقاتها بول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي ، بغداد ، سنة ١٩٨٠ م .

- الجنحاني ، الحبيب ، دكتور .
  - المغرب الإسلامي ، (٣ - ٤ هـ - القرنين ٩ - ١٠م) ، الدار التونسية للنشر ، بدون تاريخ .

- الشاطر ، عبدالجليل .
- تاريخ حضارات السودان الشرقي والأوسط ، سنة ١٩٧٢م .

ـ التكروري ، احمد بابا.
-نيل البتهاج بتطريز الديباج ، دراسة وتحقيق ناطق صالح ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، القاهرة ،١٩٧٢م.

- إبراهيم طرخان ، دكتور .
- الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطي ، القاهرة ، ١٩٥٩م .
- إمبراطورية غانة الإسلامية ، مصر ،سنة ١٩٧٠م.
- دولة مالي الإسلامية ، دراسة في التاريخ القومي الإفريقي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

- العقاد ، صلاح - زكريا ، جمال :
- زنجبار ، سلسة الألف كتاب ، القاهرة ،.

- الشيخ ، رأفت غنيمي ، دكتور :
- إفريقيا في التاريخ المعاصر ، القاهرة، ١٩٨٢م .

-الشيباني ، سليمان بن عبدالله .
- مملكة زنجبار ، بدون تاريخ شر ومكان نشر .

- الجمل ، شوقي ، دكتور .
- تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ،الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م .

- السديس ، عبدالرحمن بن علي .
- تطور حركة انتشار الإسلام في شرق إفريقية في ظل ولة

البوسعيد (١٢٤٨- ١٣٤٩ هـ) (١٨٣٢- ١٩٣٠م) رسالة ماجستير ، جامعة الإمام محمد بن سعود (غير منشورة) ، الرياض ١٩٨٧م.

- الحداد ، محمد ، دكتور .
- حقائق تاريخية عن العرب والإسلأم ي افريقية الشرقية ،

- النقيرة ،محمد عبدالله ، دكتور .
-إنتشار الإسلأم في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب لة ، الرياض.

- الغنيمي ، عبدالفتاح ، دكتور .
حركة المد الإسلام في غرب إفريقيا ، جامعة القاهرة ، بدون تاريخ

- الحويري ، محمود ، دكتور
- ساحل شرق إفريقية ، دار المعارف ، ١٩٨٦م .

- أبو العلا ، محمود ، دكتور .
- جغرافية شبة جزيرة العرب ، القاهرة ،١٩٧٢م .
- جغرافية العالم الإسلامي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٩٨١م.

- أبو العينين ، حسن سيد احمد ، دكتور .
- آسيا الموسمية وعالم المحيط الهادي ، دار النهضة العربية بيروت ،الطبعة الثامنة ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- الموارد الإقتصادية ، مؤسسة مكاوي ،بيروت، سنة ١٩٧٩م.

- أبو الليل ، محمد مرسي .
- الهند ، تاريخها وتقاليدها جغرافيتها ، سلسة الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة سنة ١٩٦٥م .

-احمد ، السيد مقبول ، دكتور .
- صف الهند وما يجاورها من البلأد ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الأفاق ، رسالة دكتوراه ، نشرت في الهند سنة ١٩٩٥٤م .

- إسماعيل ، فاروق ، دكتور .
- المدخل الي الإنتروبولوجيا ، الإسكنرية سنة ١٩٧٨م.

- الأمين ، اسماعل .
- العمانيون رواد البحار ، ضياء الريس ، لندن . ١٩٩٠م.

- أميني ، نور عالم خليل .
- المسلمون في الهند ، دار الصحوة ، القاهرة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م

- الباشا حسن ، دكتور .
- دراسات في الحضارة الإسلامية ، دار النهضة العربية ، بدون .
- المدخل الي الثار الإسلأمية ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

- بافقية ، محمد عبد القادر .
- تاريخ اليمن القديم ، بيروت ، سنة ١٩٨٦م.

- الدبر ، سليمان بن سعدون ، دكتور .
- منطقة الخليج العربي ، الكويت ، سنة ١٩٨٧م.

- بكير ، بحاز .
- الدولة الرسمية دراسة في الأوضاع الإقتصادية والحياة الفكرية ، الجزائر ، ١٩٨٥م.

- الجرافي ، القاضي عبدالله عبدالكريم .

- المقتطف من تاريخ اليمن ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

-الجعبيري ، فرحات ، دكتور .
- البعد الحضاري للعقيدة الأباضية ، مسقط ، سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

- جيان ، بحار .
- وثائق تاريخية ومعلومات جغرافية وتجارية عن سواحل افريقية الشرقية ، دونت سنة ١٨٥٦م ، نقلها إلى العربية يوسف كمال ، القاهرة سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م.

- الحداد ، السيد علوي بن طاهر .
- المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى، عالم المعرفة ، جدة، المملكة العربية السعودية ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- آل حفيظ ، علي بن محسن .
- من لهجات مهرة وآدبها ، مسقط ، سنة ١٩٨٧م.

- حميدة ، عبد الرحمن ، دكتور
- جغرافية آسيا ، دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .
- الحوفي ، أحمد ، دكتور .
- تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، دار نهضة مصر .

- الخازن ، نسيب وهيبة ،الشيخ .
- من السامين الي العرب ، بيروت ، ١٩٦٢م .

- أبو خليل ، شوقي .
- أطلس التاريخ العربي ، دار الفكر ، دمشق، سنة ١٤٠٤هـ .

- درويش، أحمد ، دكتور.
- مدخل الي دراسة الأدب في عمان ، دار الأسرة للطبع والنشر ، مسقط، سنة ١٩٩٢م.

- دلو ، برهان الدين ،
- جزيرة العرب قبل الإسلام ، دار الفارابي ، بيروت، ١٩٨٩م .

- زكي ، عبدالرحمن ،
- السلاح في الإسلام ، دار المعارف في مصر ، بدون تاريخ
- المسلمون في العالم ، القاهرة ١٩٥٨م.

- زيتون ، محمد محمد ،دكتور.
- المسلمون في الشرق الأقصى ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- سالم ، السيد عبد العزيز ، دكتور .
- دراسات في تاريخ العرب ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، الإسكندرية بدون تاريخ .

- سعيد ، أحمد ، دكتور .
- البيروني ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م.

- سليم ، أحمد امين ، دكتور.
- في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٩م .
- إيران منذ أقدم العصور حتى أوأسط الألف الثالث ق-م ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م .

- سليمان ، أحمد السعيد ، دكتور .

- تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف ،مصر ، سنة ١٩٧٢م . (نقل عن التركية وأضاف إلية) .

- سوسة ، احمد ، دكتور .
- العرب واليهود في التاريخ ، المكتب العربي للإعلان والنشر والترجمة ، دمشق ؛ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٥م

- الشامي ، أحمد عبد الحميد ، الأستاذ الدكتور .
- في تاريخ العرب والإسلام ، الأنجلو ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦م
- الخلفاء الراشدون ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م.
- الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، الأنجلو ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦م.
- العلاقات التجارية ، بين دول الخليج والشرق الأقصى ، وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى ، النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٧٨م .

- صالح ، عبدالعزيز، دكتور.
- الشرق الأدنى القديم ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م.

- الصيني ، بدر الدين حى ،
- العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ،سنة ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥٠م .

- عابدين ، عبد المجيد ،
- تاريخ الثقافات العربية في السودان ، بيروت ، سنة ١٩٦٧م.

- العبادي ، مصطفي ، دكتور .
- تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، بدون تاريخ .

- عبدالجواد ، توفيق أحمد ، دكتور.
- تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولي ، الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م .

- عبد الحليم ، رجب محمد ، دكتور .
- العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام ، مكتبة العلوم ، مسقط ، سنة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

- عصفور ، محمد أبو المحاسن . دكتور .
- المدن الفينيقية ، بيروت ، ١٩٨١م .

- العقاد ، صلاح ، دكتور ، قاسم ، جمال زكريا .
- زنجبار ، سلسلة الألف كتاب ، الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ .

- العقاد ، صلاح ، دكتور .
- التيارات السياسية في الخليج العربي ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

- على ، جواد ، دكتور
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سبتمبر ، ١٩٧٧م .
- تاريخ العرب في الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- علبي ، أحمد ، دكتور .
- العهد السري للدعوة العباسية (من الأمويين إلى العباسيين)
- ثورة العبيد في الإسلام ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- الميار كبوري ، أظهر ، القاضي الهندي .
- العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبدالعزيز عزت عبدالجليل ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
- رجال السند والهند إلى القرن السابع ، دار الأنصار ، القاهرة ١٣٩٨م ، جزءان
- العقد الثمين في فتوح الهند وماورد فيها من الصحابة والتابعين ، دار الأنصار ، القاهرة، بدون تاريخ .

- متولى ، محمد ، دكتور ، أبو العلا ، محمود ، دكتور .
- جرافية الخليج العربي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٢ م .

المزيني ، أحمد عبدالعزيز .
- الكويت وتاريخها البحرى ، (رحلة الشراع) دار السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م .

- محمد ، محمد عوض ، دكتور .
- الشعوب والسلالات الإفريقية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥م .

- موسى ، على حسن .
- العواصف والأعاصير ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ١٩٨٦م

- مؤنس ، حسين ، دكتور .
- الإسلام الفاتح ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة . ١٤٠٨هـ

- الناضوري ، رشيد ، دكتور .
- المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربى آسيا وشمال إفريقية ، الكتاب الأول ، الكتاب الثاني ، دار النهضة العربية ، بيروت بدون تاريخ .

رابعاً : المـراجـع الأفرنجيـة :

- Beachey (R.w.)
  - The slave Trade of Eastern Africa, London, 1970.

- Bahannan (P.) & Curtin (P.) :
  - Africa and Africars , New York , 1971 .

- Blyden :
  - Chriaitianity ,Islam and the Negro Race , London.

- Burno :
  - A History of Niojeria , London, 1955 .

- Cany :
  - Britain and West Africa , London, 1945 .

- Dauidram (B.) :
  - Africa in History , London , 1974 .

- Tage (J.D.) :
  - A History of Africa, London , 1979 .

- Jreedman (G.) :
  - The East Africa Coast , Oxford 1962 .

- Kinejsnath (G.W.) :
  - Africa South of the Sahara , Combridge, 1962 .

- Leevis (J. M.) :
  - Islam in Trapical Africa, London, 1980 .

- Hagber (S.J.) :
  - The Mohammedan Emirats of Nigeria , Oxford, 1930 .

- Hallingo Warth (L.W.) :
  - Ashort History of the East Coast of Africa, London, 1951.

- Trumingham (S.) :
  - Islam in the Sudan.
  - Islam in the West Africa .

- Micheal (M.) :
  - Ahistory of the Arabs in the Sudan, Combridge,1922.

- Adlaff (R.) :
  - West Africa New York, 1964 .

- Palmer (S.) :
  - The Maharm of Main Hume Jilne in Barnu , London, 1936.
  - The Barnu Sahara Sudan, London, 1936 .

- Welsh (A.) :
  - Africa South of the Sahara , London , 1951 .